البَيانُ بِلا لِسانٍ

دِراسَةٌ في لُغَةِ الجَسَدِ

د. مهدي أسعد عرار

أستاذ اللسانيات والعلوم اللغوية

جامعة بيرزيت

الإِهْــداءُ

إِلى مَنْ نَطَقَتْ بِحُبِّ العَرَبِيَّةِ لُغَةُ جَسَدِهِ كَما نَطَقَ بِذلِكَ جَسَدُ لُغَتِهِ، فَكان ذا لَفْظٍ مُحَرَّرٍ، وَفَضْلٍ بَيْنَ أَشْياعِهِ مُقَرَّرٍ...إِلى "نهاد الموسى" أَبًا، وَمُعَلِّمًا، وَمَرْجِعًا....إِمْتاعًا وَمُؤانَسَةً.

الشُّكْرُ وَالتَّقْديرُ

أَجِدُ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أُزْجِيَ الشُّكْرَ المَوْصولَ بِأَسْبابِ التَّقْديرِ وَالعِرْفانِ إِلى أَرْبَعَةِ موائلَ علميّةٍ أَوّلُها جامِعَتي؛ "جامعةُ بيزيت" التي ما فَتِئَتْ تُشَجّعُني قَوْلاً وَعَمَلاً، فَمَنَحَتْني سَنةَ تَفَرّغٍ عِلمِيٍّ اقْتَطَعْتُ مِنْها شَطْرًا لِتَأليفِ هذا الكِتابِ.

- وَثانيها أ.د. "رجائي الخانجي" أُستاذُ اللِّسانِيّاتِ في قِسْمِ اللّغَةِ الإِنْجليزِيّةِ بِالجامِعَةِ الأُرْدُنِيّةِ، فَقَدْ وَقَفْتُهُ عَلى هذا البَحْثِ مُذْ كانَ فِكْرَةً مَرْسومَةً عَلى وُرَيْقاتٍ مُتَناثِرَةٍ، وَكان لِنِقاشِنا وَمُحاوَراتِنا فائِدَةٌ كَبيرَةٌ.

- وَثالِثُها أ.د "حسن حمزة" مُديرُ مَرْكزِ البَحْثِ في اللِّسانِيّاتِ بِجامِعةِ "ليون الثّانِيَة" في فَرَنسا، فَقَدْ أَسْعَدَني بِأَنْظارٍ مُعْجِبَةٍ كانَ مِنْ جَناها أَنَّني دَرَّسْتُ طَلَبَةَ الدِّراساتِ العُلْيا في جامِعَةِ "ليون الثّانِيَة" هذا المَبْحَثَ، وَعَقَدْتُ مُحاضَراتٍ عَنِ الكِتابِ ثَمَّ.

- وَرابِعُها أ.د. "رمزي بعلبكي" أُسْتاذُ اللُّغَةِ في الجامعة الأَمْريكِيّةِ بِبَيْروتَ، صاحِبُ البَيانِ المُعْجِبِ، وَالأَنْظارِ المُسْتَنيرَةِ، فَقَدْ وَقَفَ عَلى مُقَدِّمَتِهِ وَهَيْكَلَتِهِ، فَعَلَّقَ وَاسْتَدْرَكَ.

إِلى هؤلاءِ العُلَماءِ العامِلينَ أُزْجي مِنَ الشُّكْرِ أَطْيَبَهُ داعِيا لَهُمْ بِالسَّلامَةِ وَالظَّفَرِ.

"مِنَ الصَّوْتِ إِلى الصَّمْتِ"[1]

نهاد الموسى

كُنّا نَحْتَفي بِتَعْريفِ ابنِ جِنّي لِلّغَةِ أنّها "أصْواتٌ يُعَبِّرُ بِها كُلُّ قَوْمٍ عَنْ أغْراضِهِمْ"، وَكُنّا نَرى لِهذا التَّعْرِيفِ بُعْدًا براغماتِيًّا؛ إِذْ إِنّهُ يُؤَسِّسُ عَلى نَحْوٍ غَيْرِ مُلْتَبِسٍ عقْدًا وَثيقًا بَيْنَ "الخِطابِ" وَ"المَقاصِدِ"، وَكُنّا نَراهُ بِهذا التَّعْرِيفِ يَروقُ البِنْيَوِيّينَ مِنْ جِهَةِ أنّهُ عَوّلَ في التَّعْرِيفِ عَلى المَظْهَرِ المَنْطوقِ حينَ جَعَلَ اللّغَةَ أصْواتًا، وَذلِكَ شَأنُهُمْ في عَدَمِ الاعْتِدادِ بِالمَظْهَرِ المَكْتوبِ، وَاحْتِجاجِهِمْ بِأنَّ اللّغاتِ تُدوولَتْ أزْمانًا قَبْلَ أنْ توضَعَ لَها نُظُمٌ كِتابِيّةٌ، وَلكِنّهُ يَتَجاوَزُهُمْ إِذْ يُغْلِقونَ أبْوابَ الدَّرْسِ اللّغَوِيّ عَلى النَّظَرِ في اللّغَةِ بِذاتِها لِذاتِها، وَيَجْعَلونَ وُكْدَهُمْ أنْ يَسْتَبْطِنوا نِظامَها الدّاخِليَّ فَحَسْبُ.

وَحَقًّا أنَّ رَجْعَ النّظَرِ في هذا التَّعْرِيفِ المُجْمَلِ يَجْعَلُهُ مَجازًا في شَطْرِهِ الأَوّلِ؛ ذلِكَ أنَّ ابنَ جِنّي قَدِ اجْتَزَأ بـ"الأَصْوات" عَنْ سائِرِ الأَنْظِمَةِ التي تَأتَلِفُ مِنْها البِنْيَةُ اللّغَويّةُ.

وَكَأنَّ ابنَ جِنّي اكْتَفى "بِالجُمْلةِ" وَسَكَتَ عَنِ "التَّفْسيرِ" –إذا اسْتَعَرْنا عِبارَةَ الجاحِظِ– وَلَمْ يَكُن ابنُ جِنّي بِغافِلٍ عَنْ أنَّ الأصْواتَ تَتَشَكّلُ عَلى أنْحاءٍ مَخْصوصَةٍ مِنْ تَبادُلِ التّأثّرِ وَالتّأثيرِ، وَأنّها تَتَمَظْهَرُ في أبْنِيَةٍ مَخْصوصَةٍ وَهُو صاحِبُ "سِرّ الصّناعَةِ"، وَصاحِبُ "التّصريف المُلوكِيّ"، وَلَمْ يَكُنْ بِغافِلٍ عَنْ أنّها تَتَّخِذُ سَمْتَها في النَّحْوِ الذي هُوَ –عِنْدَهُ– انْتِحاءُ سَمْتِ العَرَبِ في كَلامِها، وَلكِنَّ اقْتِصارَ ابنِ جِنّي في تَعْريفِ اللّغَةِ عَلى أنَّها أصْواتٌ يَجْعَلُ تَعْريفَهُ مَجازِيًّا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ.

وَيُصْبِحُ مُقْتَضى رَدِّ هذا التَّعْرِيفِ إِلى الحَقيقَةِ أنَّ ثُلثَ اللّغَةِ أوْ قَريبًا مِنْهُ هُو

(1) هذه عبارة محولة عن العنوان الذي اتخذه إدوارد سعيد لبحثه النفيس الذي أسهم به في الكتاب التكريمي لحسام الخطيب، وحرره محمد شاهين متخذا له عنوان ذلك البحث "من الصمت إلى الصوت"، وقد اختلفت جهتا الكلام، ولكل مقام مقال.

الذي يَصْدُقُ عَلَيْهِ هذا التّعْريفُ.

ثُمَّ أَنْكَرَ كَثيرٌ مِنَ اللّسانِيّينَ العَرَبِ المُحْدَثينَ التّعْبيرَ بـ"اللّغَةِ"، وَاخْتاروا عَلَيْها "اللّسان" ظانّينَ أَنّهُ أَشْمَلُ في الدّلالَةِ وَأَوْفى؛ إِذْ كانَتِ اللّغَةُ عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ الأَوائِلِ وَجْهًا واحِدًا؛ لَحْنًا خاصًّا يُناظِرُ اللَّهْجَةَ، وَلكِنَّ مُصْطَلَحَ اللِّسانِ يَقَعُ في المَجازِ أَيْضًا؛ إِذْ لَيْسَ اللّسانُ بِما هُو عُضْوٌ رَئيسٌ في جِهازِ "التَّصْويتِ" إِلاّ سَبيلاً واحِدَةً مِنْ سُبُلِ الإِبانَةِ، وَتَكونُ اللّغَةُ التي يُؤَدّيها اللّسانُ لُغَةً واحِدَةً فَحسبُ مِنْ لُغًى مُتَعَدِّدةٍ.

يَتَجاوَزُ الدّكتور مهدي في كِتابِهِ هذا ما يَنطِقُ بِهِ الصّوتُ؛ إِذْ يَفتَحُ لِلبَيانِ أَبْوابًا يَسْتَنْطِقُ بِها الصَّمْتَ، وَيَتَجاوَزُ ما يُنْبِئُ عَنْهُ اللّسانُ مُسْتَقْرِيًا ما يُفْصِحُ عَنْهُ الوَجْهُ، وَالعَيْنانِ، وَاليَدانِ، وَكُلُّ بَنانٍ، وَكُلُّ ما اخْتَلَجَتْ بِهِ القَدَمانِ.

وَهُوَ يُسْعِدُنا بِتَأويلٍ لَطيفٍ لِبَيْتِ المُتَنبّي الذي قَدّمَ غُرْبَةَ الوَجْهِ وَاليَدِ عَلى غُرْبَةِ اللّسانِ وَهو في شِعْبِ بَوّان.

وَيُصْبِحُ تَعْريفُ الإِنْسانِ التَّقْليدِيُّ بِأَنّهُ حَيَوانٌ ناطِقٌ مُحْتاجًا إِلى تَأويلٍ يُخْرِجُ النّطْقَ مِنَ اخْتِصاصِهِ بِاللّسانِ إِلى سائِرِ ما يَنْطِقُ بِهِ كِيانُ الإِنْسانِ، وَيَغْدو الإِنْسانُ ناطِقًا بِصورَتِهِ وَحَرَكَتِهِ عَنْ هيولاهُ.

وَيَنْضافُ إِلى مَزايا هذا العَمَلِ بُعْدٌ تَعْليمِيٌّ جَديدٌ، فَقَدْ جَرى المُشْتَغِلونَ بِتَعْليمِ اللّغَةِ أَنْ يَتَمَثّلوا "أَداءَها" في مَهاراتٍ أَرْبَع تَنْتَمي جَميعًا إِلى البِنْيَةِ اللّغَويّةِ، وَهِيَ القِراءَةُ صامِتةً وَجاهِرَةً، وَالاسْتِماعُ، وَالتَّعْبيرُ الكِتابِيُّ، وَالتَّعْبيرُ الشّفَوِيُّ، وَلكنَّ انْفِتاحَ المَشْهدِ المُعاصِرِ، وَاقْتِرانَ الخَطابِ اللّغَوِيّ بِالصّورَةِ وَالحَرَكَةِ، جَعَلَهُمْ يَسْتَضيفونَ مَهارَةً خامِسَةً لازِمَةً هِيَ مَهارَةُ المُشاهَدَةِ، وَذلِكَ مُنْبِئٌ عَنْ دَوْرِ "غَيْرِ اللّغَوِيّ" في اسْتِكْمالِ المَهاراتِ اللّغَوِيّةِ بِالبُعْدِ الإِضافِيّ المُسْتَفادِ بِالصّورَةِ وَالحَرَكَةِ.

وَإِذا كانَ الذينَ اسْتَضافوا هذِهِ المَهارَةَ يَرْكَنونَ إِلى مَلاحِظَ سيمْيائِيّةٍ وَإِخْراجِيّةٍ شَتّى فَإِنَّ عَمَلَ الدّكتور مهدي يُمَثّلُ في هذِهِ السَّبيلِ مَرْجِعًا تَأصيلِيًّا مَنْهَجِيًّا مُسْتَوْعِبًا لأَبْعادِ هذِهِ المَهارَةِ.

وَيَجْري الدّكتور مهدي في كِتابِهِ عَلى نَهْجٍ واضِحِ المَعالِمِ، ثُمّ يُقيمُهُ عَلى نَحْوٍ مُوَطَّأِ الأَساسِ، مُوَطَّدِ الأَرْكانِ، مُحْكَمِ البُنْيانِ، يُجَسّدُ المَأثورَ عَنِ الخَليلِ في تِلْكَ الدّارِ التي يَنْكَشِفُ لِمَنْ يَجوسُ خِلالَها عَنْ وُجوهِ الحِكْمَةِ في تَفاصيلِ بِنائِها.

حَقًّا أنَّ لُغَةَ الجَسَدِ قَدْ غَدَتْ عُنْوانًا مُتَداوَلاً مَعْروفًا، وَلكِنَّ عَمَلَ الدّكتور مهدي يُمَثّلُ إِضافَةً مُتَفَرِّدَةً إِلى هذا الحَقْلِ، وَذلِكَ بِما اسْتَجْمَعَ فيهِ مِنْ مَقولاتِ المُحْدَثينَ، وَما اسْتَقْراهُ مِنْ أَنْظارِ الأَوائِلِ، وَما نَقَّبَ عَنْهُ مِنَ الوَقائِعِ في التّراثِ وَلَدى الآخَرِ.

وَكَأَنَّ الدّكتور مَهْدي يومِئُ بِكِتابِهِ هذا لِلذينَ رَكَنوا إِلى قَوْلِ الأَوّلِ: "ما تَرَكَ الأَوّلُ لِلآخِرِ شَيْئًا" إيماءَةً تَقولُ (دونَ أنْ تَقولَ): كَمْ تَرَكَ الأوّلُ لِلآخِرِ!!

مَنْ يَقْرَأُ كِتابَ الدّكتور مَهْدي هذا تَتَنازَعُهُ مُتْعَتانِ: مُتْعَةُ قِراءَةِ النّصِّ بِأَلَقِ عِبارَتِهِ، وَلُطْفِ تَأَتّيهِ في اسْتِجْلاءِ الفِكْرَةِ، وَطَرافَةِ مُنْطَوَياتِهِ مِنَ الأَنْظارِ وَالوَقائِعِ، وَمُتْعَةٌ حادِثَةٌ مِنَ الإِحْساسِ بِالكَشْفِ تُنازِعُهُ وَتُحَرِّضُهُ أنْ يَخْرُجَ مِنَ النّصِّ الأَصْغَرِ (كِتاب اللّسانِ)، إِلى النّصِّ الأَكْبَرِ (كِتاب الإِنسانِ) يَتَقَرّى فيه الوُجوهَ، وَالعُيونَ، وَحَرَكاتِ الأَيْدي، وَضُروبَ المِشَى.

وَيُصْبِحُ عالَمُ الشَّهادَةِ كُلُّهُ جَميعًا نَصًّا مَفْتوحًا شائِقًا.

"رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ"

- **مِهادٌ وَتَأْسيسٌ:**

ابْتَدِئُ بِاسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ، وَأُثَنّي بِالصّلاةِ وَالسّلامِ عَلى رَسولِهِ الكَريمِ، وَأُكْثِرُ حَمْدَهُ على ما مَنَحَ، وَأَرْغَبُ إِلَيْهِ في إيزاعِ الشُّكْرِ عَلى فَوائِدِ النِّعَمِ، وَبَعْدُ،

فَهذِهِ مُباحَثَةٌ أَسْتَشْرِفُ فيها الدِّلالَةَ التي تَتَخَلَّقُ مِنْ "لُغَةِ الجَسَدِ"، وَقَدْ عَقَدْتُ لَها عُنْوانًا وَسَمْتُهُ بـ"البَيانُ بِلا لِسانٍ: دِراسَةٌ في لُغَةِ الجَسَدِ"، مُرْتَضِيًا أَنْ أَجْعَلَها مُؤْتَلِفَةً مِنْ ثَلاثَةِ مَطالِبَ عَريضَةٍ:

- أَوَّلُها: الأَنْظارُ المُمَهِّدَةُ.
- وَثانيها: الأَنْظارُ المُؤَصِّلَةُ.
- وَثالِثُها: الأَنْظارُ المُسْتَشْرِفَةُ.

أَمّا بابُ القَوْلِ عَلى "الأَنْظارِ المُمَهِّدَةِ" فَقَدْ أَتَيْتُ فيهِ عَلى مِهادٍ يَسْتَجْمِعُ حَديثًا عَنِ البَيانِ بِلا لِسانٍ، وَحَديثًا آخَرَ عَنْ سُهْمَةِ لُغَةِ الجَسَدِ المُتَجَلِّيَةِ "بِالصَّمْتِيّاتِ" وَ"الحَرَكِيّاتِ" في الإِبانَةِ وَالتّواصُلِ، وَأَنَّ تِلْكُمُ الصَّمْتِيّاتِ قَدْ تَقومُ مَقامَ الكَلامِيّاتِ في سِياقاتٍ مَخْصوصَةٍ، وَكَذلِكَ أَتَيْتُ في هذا المَطْلَبِ عَلى لُغَةِ الإِشارَةِ التي يَنْعَقِدُ عَلَيْها إِجْماعُ الصّمِّ وَالبُكْمِ، وَالتَّمْثيلِ الصّامِتِ الذي يَفيءُ أَهْلُهُ إِلى "لُغَةِ الجَسَد" في الإِبانَةِ عَنِ المَقاصِدِ، وَإِلى رَسْمِ المَعْنى رَسْمًا تَمْثيلِيًّا وَحَرَكِيًّا يَقْتَنِصُ مِنْهُ النَّظّارَةُ الدِّلالَةَ بَلِ الدِّلالاتِ، وَقَدْ أَتَيْتُ فيهِ أَيْضًا عَلى أَنَّ "لُغَةَ الجَسَدِ" تَتَرَدَّدُ بَيْنَ الفِطْرِيِّ وَالمُكْتَسَبِ، وَالعامِّ وَالخاصِّ، وَالتَّواصُلِ وَالتَّفاصُلِ.

أَمّا بابُ القَوْلِ عَلى "الأَنْظارِ المُؤَصِّلَةِ" فَقَدْ وَلَّيْتُ وَجْهي نَحْوَ تَأْصيلِ دَرْسِ هذِهِ الظّاهِرَةِ، وَتَلَمُّسِ مَواضِعِ وُرودِها في بَعْضِ دِراساتِ القُدَماءِ، فَوَقَفْتُ عَلى نَماذِجَ مُعْجِبَةٍ، وَآراءٍ مُسْتَنيرَةٍ أَفْضَتْ بي إِلى التَّقْريرِ بِأَنَّ القُدَماءَ جَعَلوا مِنْ "لُغَةِ الجَسَدِ" مُحْتَكَمًا رَئيسًا في الإِبانَةِ عَنِ المَعاني، وَشاهِدًا أَمينًا عَلى المَقاصِدِ الجَوّانِيّةِ، وَأَنَّهُمْ قَرَّروا أَنَّ المَعْنى قَدْ يُسْتَقى مِنَ الرّافِدَيْنِ: الصّامِتِ وَالصّائِتِ: الصّامِتِ المُتَجَلّي "بِالحَرَكِيّاتِ"، وَالصّائِتِ المُتَجَلّي "بِالكَلامِيّاتِ"، وَقَدْ جَعَلْتُ هذا المَطْلَبَ آخِذًا في

خَمْسِ شُعَبٍ: أَوّلُها تَلَمّسُ "لُغَةِ الجَسَدِ" عِنْدَ البَلاغِيّينَ، وَكانَ الجاحِظُ أُنْموذَجًا، وَثانيها تَلَمُّسُها عِنْدَ المُعْجَمِيّينَ، وَكانَ الثَّعالِبِيُّ في "فِقْه اللُّغَةِ" أُنْموذَجًا، وَثالِثُها تَلَمُّسُها عِنْدَ اللُّغَوِيّينَ، وَكانَ ابنُ جِنّي في "الخَصائِص" أُنْموذَجًا، وَرابِعُها تَلَمُّسُها عِنْدَ الأُصولِيّينَ، وَكانَ الإمامُ الغَزالِيُّ في "المُسْتَصْفى" أُنْموذَجًا، وَخامِسُها تَلَمُّسُها عِنْدَ الفَلاسِفَةِ وَالفِراسِيّينَ، وَكانَ الرّازي في "الفِراسَة" أُنْموذَجًا.

أَمّا بابُ القَوْلِ عَلى "الأَنْظارِ المُسْتَشْرِفَةِ" فَقَدْ كانَ المَقْصِدُ المُتَعَيّنُ مِنْ إنْشائِهِ تَلَمُّسَ هذِهِ الظّاهِرَةِ في نُصوصِ العَرَبِيّةِ المُتَقادِمَةِ، وَتَلَمُّسَ تَجَلّياتِها، وَدِلالاتِها، وَأَغْراضِها، فَكانَ مُؤْتَلِفًا مِنْ ثَلاثِ مُباحَثاتٍ فَرْعِيّةٍ تَقَعُ تَحْتَ هذا المَطْلَبِ المَعْقودِ لَهُ العُنْوانُ "الأَنْظارُ المُسْتَشْرِفَةُ"، أمّا المُباحَثَةُ الأولى فيهِ فَكانَ مِضْمارُها التَّنْزيلَ العَزيزَ، وَأَمّا الثّانِيَةُ فَكانَ الحَديثَ النّبَوِيَّ الشَّريفَ، وَأَمّا الثّالِثَةُ فَكانَ أَدَبَ العِشْقِ وَالعُشّاقِ، وَلَيْسَ يَذْهَبُ الظّنُّ بِالقارِئِ إلى أَنَّني أَتَيْتُ عَلى كُلِّ المُثُلِ المُنْتَسِبَةِ إلى "لُغَةِ الجَسَدِ" في المُباحَثاتِ المُتَقَدِّمِ بَيانُها، بَلْ عَرَّجْتُ عَلى هذِهِ الظّاهِرَةِ في كُلِّ مُباحَثَةٍ مُعْتَمِدًا عَلى أَجْلى المُثُلِ، فَكانَتْ كُلُّ مُباحَثَةٍ مُشْتَمِلَةً عَلى أَمْثِلَةٍ جُزْئِيّةٍ تَعْقُبُها مَقولاتٌ كُلّيّةٌ، وَقَدْ بَدا أَنَّ "لُغَةَ الجَسَدِ" قَدْ تَكونُ مُعَزِّزَةً للمَعْنى المُتَخَلِّقِ مِنْ "جَسَدِ اللّغَةِ"، أَوْ نائِبَةً عَنْهُ في مَقاماتٍ، أَوْ ناسِخَةً لَهُ في مَقاماتٍ أُخَرَ، وَالحَقُّ أَنَّني لَسْتُ أُريدُ أَنْ أُصادِرَ شَيئًا مِمّا سَيَأتي بَعْدًا، فَفيهِ مُسْتَغْنًى وَمُسْتَأَنَفٌ لِما أُلْمِحَ إليْهِ في مَقامِيَ هذا.

وَلا أَزْعُمُ بَعْدَ ذلِكَ كُلِّهِ، عَلى ما بَذَلْتُ مِنْ جهْدٍ، وَأَنْفَقتُ مِنْ عِنايةٍ بِهذا الكِتابِ، أَنّني قَدْ أَخْرَجْتُهُ كَما أَرْغَبُ، وَلكنّني أَفْرَغْتُ الوُسْعَ في تَأْليفِهِ، وَأَعْمَلْتُ نَفْسيَ في ضَبْطِهِ وَتَدْقيقِهِ، وَحَسْبي دُعائي مَنْ عَزَبَ عَنِ الأَفْهامِ تَحْديدُهُ، وَتَعَذَّرَ عَلى الأَوْهامِ تَكْييفُهُ: رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إنْ نَسينا أَوْ أَخْطَأنا، وَارْزُقْنا سَدادًا في القَوْلِ وَالعَمَلِ، وَاسْتُرْ بِسِترِكَ الجَميلِ العِثارَ وَالزَّلَلَ، فَبِفَضْلِكَ الأَسْنى أَسْتَمِدُّ الصَّوابَ، وَبِاسْمِكَ الأَعْلى أَسْتَفْتِحُ تَأْليفَ الكِتابِ.

كَتَبَهُ مهدي عرار – القدس الشريف

10/جمادى الأوى/1428هـ

27/أيار/2007م

المَطْلَبُ الأَوّلُ

الأَنْظارُ المُمَهِّدَةُ

البَيانُ بِلا لِسانٍ: لُغَةُ الجَسَدِ أُنْموذَجًا

لِتَجْلِيَةِ هذا العُنْوانِ، وَلِتَمَثُّلِهِ تَمَثُّلاً مُشَخَّصًا مُحَسًّا أَسوقُ حِكايَتَيْنِ أولاهُما حادِثَةٌ مُعاصِرَةٌ، وَثانِيَتُهُما عَتيقَةٌ مُعَمَّرَةٌ، أَمّا الحادِثَةُ المُعَمَّرَةُ فَهِيَ حِكايَةٌ فيها شِكايَةٌ، فَقَدْ كُنْتُ صَباحَ يَوْمٍ قَدْ وَلّيْتُ وَجْهي شَطْرَ جامِعَتي قاصِدًا عَمَلي ثَمّ، وَقَدْ غَدا لِزامًا عَلَيّ أَنْ أَجوزَ حاجِزًا صهْيونِيًّا عَسْكَرِيًّا يَضْرِبُ بَيْنَ المَدينَتَيْنِ بِبابٍ، فَالْتَقيْتُ يَوْمَها رَجُلاً أَبْكَمَ أَصَمَّ قَدْ عُقِدَ لِسانُهُ، فَصارَ يَرْسمُ بِجَوارِحِهِ الجَسَدِيّةِ مُرادَهَ، لِيُنْبِئَ بِها عَنْ مَعانٍ داخِليّةٍ يَقولُها بِها، فَاقْتَنَصْتُ ساعَتَها، وَفاءً بِما صَدَرَ مِنْهُ مِنْ حَرَكاتٍ، وَإِشاراتٍ، وَإيماءاتٍ، وشمائلَ، في سياقِها ذاكَ، أَنّهُ يَرْنو إِلى أَنْ أُعينَهُ عَلى حِمْلٍ كانَ قَدْ أَثْقَلَه، فَلَمّا انْتَهيْنا إِلى الصّهْيونيّ في بُرْجِهِ المُحَصَّنِ أَوْمأَ إِلَيْهِ الأَصمُّ بِحَرَكاتٍ أُخْرى مُفارِقَةٍ للتي كانَتْ مِنْهُ مَعي أَنْ يَجوزَ الحاجِزَ العَسْكرِيَّ، فَرَدّ عَلَيْهِ الجُنْدِيُّ بِحَرَكَةٍ أُخْرى مُسْتَفْهِمًا عَنْ وجْهَتِهِ، وَهكَذا مَضَيا في رَسْمِ دِلالاتٍ مَخْصوصَةٍ دونَ أَنْ يَنْبسا بِبِنتِ شَفَةٍ، وَفاءً بِاسْتِرْفادِ حَرَكاتِ الجَوارِحِ التي قامَتْ مَقامَ كَلِماتٍ بَلْ جُمَلٍ، فَكانَ ثَمَّ بَيانٌ بِلا لِسانٍ.

ثُمّ دَخَلْتُ الحاجِزَ، فَأبى الجُنْدِيُّ الصّهْيونِيُّ إِدْخالي، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ الأَصمُّ ثالِثَةً بِحَرَكاتٍ جَسَدِيّةٍ بِأَنّهُ رَفيقُ دَرْبٍ لي كَيْ أُعينَهُ عَلى حِمْلِهِ، وَأَنّه لا قِبَلَ لَهُ بِهذا السّفَرِ إِلاّ بِالصّحْبَةِ تِلكَ، فَساءَلَني الجُنْدِيُّ بِلِسانٍ أَعْجَمِيٍّ يُجَمْجِمُ وَلا يكادُ يُبينُ، فَانْقَطَعَ التّواصُلُ بَيْني وَبَيْنَهُ حَتّى أَفْضى ذلِكَ بي إِلى أَنْ أَتَأَسّى بِالأَصَمِّ في تَواصُلِهِ مَعَ الجُنْدِيّ، فَاسْتَرْفَدتُ مِنْ لُغَةِ الجَسَدِ الدِّلالَةَ وَالإِبانَةَ في ذلكَ السّياقِ لأَقولَ لَهُ بِجَوارِحي إِنّه مَعي، وَإِنّ وجْهَتَنا واحِدَةٌ، وَإِنّه كَالكَلِّ عَلى مَوْلاه، وَلَسْتُ أَنْسى استِجابَةَ الصّهْيونِيّ الحَرَكِيّةَ التي تَخَلّقَتْ رَدّاً مِنْهُ عَلى حَرَكتي، فَقَدْ أَوْحى بِقَوابِلِ بُنْدقيّتِهِ، وَهِزّةِ رَأْسِهِ إِلى اليَمينِ أَنِ امْضِ.

وَهكَذا نَقِفُ في هذِهِ الحادِثَةِ أَمامَ ثالوثٍ في حَدَثٍ ما هُوَ بِكَلامِيٍّ، وَإِنّما هُوَ تَعْبيريّ: الأَصَمّ، وَالصّهْيونِيّ، وَالباحِث، أَمّا أَوّلُنا فَقَدْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَهُ، فَحُرِم مِنَ اكتِسابِ اللّغَةِ، فَغَدا لِسانُهُ مَعْقودًا، وَأَمّا الثّاني فَقَدْ كانَ ابْنَ لِسانٍ أَعْجَمِيٍّ لا قِبَلَ لِلثّالِثِ بِاسْتِنْطاقِهِ وَاسْتِشْرافِ مَقاصِدِ رُسومِهِ وَتَعابيرِه، وَأَمّا الثّالِثُ فَقَدْ كانَ يَفيءُ إِلى مَرْجِعٍ مُفارِقٍ في

تَشْكيلِهِ الصّوْتِيّ، وَالصّرْفِيّ، وَالتّرْكيبِيّ، وَالمُعْجَمِيّ للثّاني، فَكانَ حَظُّهُما التّفاضُلَ، وَالمُفارَقَةُ المُعْجِبَةُ اللّطيفَةُ أَنّ الأَصَمَّ الفاقِدَ لِلنّظامِ اللّغَوِيّ قَدْ تَواصَلَ مَعَ مالِكِ النّظامِ، أَعْني مَعَهُ، وَمَعي مِنْ قَبْلُ، فَاسْتَذْكَرْتُ ساعَتَها إِشارَةَ مَرْيَمَ –عَلَيْها وَعَلى وَلَدِها السّلامُ– لَمّا نَذَرَتْ لِلرّحْمنِ صَوْمًا عَنِ الكَلامِ فَلَمْ تُكلِّمْ يَوْمَها إِنْسِيّاً بِاللّفْظِ، بَلْ بِلُغَةِ الجَسَدِ وَالإِشارَةِ، فَكانَ مِنْها بَيانٌ بِلا لِسانٍ، ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩﴾ [1].

وَاسْتَذْكَرْتُ كَذلِكَ قَوْلَ الشّاعِرِ:

وَإِذا الْتَقَيْنا وَالعُيونُ رَوامِقٌ صَمَتَ اللِّسانُ وَطَرْفُها يَتَكَلّمُ
تَشْكو فَأَفْهَمُ ما تَقولُ بِطَرْفِها وَيَرُدُّ طَرْفي مِثْلَ ذاكَ فَتَفْهَمُ[2]

وَاسْتَذْكَرْتُ أَيْضًا قَوْلَ سيغْموند فرويد: "ذاكَ الذي تَصْمُتُ شَفَتاهُ يُثَرْثِرُ بِطَرَفِ أَصابِعِهِ"[3].

تِلْكَ هِيَ الحِكايَةُ المُعاصِرَةُ الحادِثَةُ، وَأَمّا العَتيقَةُ المُعَمَّرَةُ فَقَدْ وَقَعَتْ بَيْنَ المَأمونِ وَالجارِيَةِ في حَضْرَةِ هارونَ الرّشيدِ، فَقَدْ كانَ المَأْمونُ يَميلُ إِلَيْها وهُوَ إِذْ ذاكَ أَمْرَدُ، فَأَراد أَنْ يَتَواصَلَ مَعَها في حَضْرَةِ أَبيهِ، أَوْ لِنَقُلْ بِعِبارَةِ الجاحِظِ التي سَيَأْتي فَضْلُ بَيانٍ عَلَيْها بَعْدًا: "في أُمورٍ يَسْتُرُها بَعْضُ النّاسِ مِنْ بَعْضٍ"[4]، فَكانَتْ سَبيلُهُ إِلى مُبْتَغاهُ لُغَةَ الجَسَدِ تَغْطِيَةً وَتَعْمِيَةً لِما يُريدُ أَنْ يَقولَهُ بِإِشارَتِهِ، فَوَقَعَ مِنْهُ تَقْبيلٌ بِالطَّرْفِ، وَوَقَعَ مِنْها حَياءٌ بِالعَيْنِ شُفِعَ بِإِنْكارٍ بِكَسْرِ الحاجِبِ، وَكانَتْ قَدْ "وَقَفَتْ يَوْمًا تَصُبُّ عَلى يَدِ الرّشيدِ مِنْ إِبْريقٍ مَعَها، وَالمَأمونُ جالِسٌ خَلْفَ الرّشيدِ، فَأَشارَ المَأمونُ إِلَيْها كَأَنّهُ يُقَبّلُها، فَأَنْكَرَتْ ذلِكَ بِعَيْنَيْها، وَأَبْطَأَتْ في الصَّبِّ عَلى مِقْدارِ نَظَرِها إِلى المَأْمونِ، وَإِشارَتِها إِلَيْهِ، فَقالَ الرّشيدُ: "ما هذا"!، ضَعي الإِبْريقَ مِنْ يَدِكِ، فَفَعَلَتْ"[5].

ثُمَّ تَمْضي الحِكايَةُ بَعْدَ أَنِ التَفَتَ إِلى ابْنِهِ المَأمونِ وَكَأَنّهُ مَيّتٌ لِما دَخَلَهُ مِنَ الخَجَلِ وَالجَزَعِ، فَرَحِمَهُ وَضَمّهُ إِلَيْهِ، فَاعْتَرَفَ بِحُبِّهِ لَها، فَقالَ لَهُ: هِيَ لَكَ، ثُمّ قالَ

(1) الآية(مريم، 29).
(2) انظر: ابن داود، الزهرة، 150/1.
(3) انظر: نتالي باكو، لغة الحركات، 76.
(4) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 78/1.
(5) انظر: القالي، الآمالي، 225/1.

المَأْمونُ في ذلِكَ شِعْرًا مُعَرِّجًا فيهِ عَلى ما وَقَعَ مِنْ تَواصُلٍ بِلُغَةِ الجَسَدِ، وَبَيانٍ بِلا لِسانٍ:

ظَبْيٌ كَتَبْتُ بِطَرْفي ... مِنَ الضّميرِ إِلَيْه
قَبَّلْتُهُ مِنْ بَعيدٍ ... فَاعْتَلّ مِنْ شَفَتَيْه
وَرَدَّ أَخْبَثَ رَدٍّ ... بِالكَسْرِ مِنْ حاجِبَيْه
فَما بَرِحْتُ مَكاني ... حَتّى قَدِرْتُ عَلَيْه[1]

مِنْ تَجَلِّياتِ "البَيان بِلا لِسانٍ":

إِذا نَحْنُ سَرَّحْنا خَواطِرَنا مُتَخَيِّلينَ وَمُسْتَشْرِفينَ مَسارِحَ أُخَرَ يَتَجَلّى فيها البَيانُ بِلا لِسانٍ، فَإِنَّنا سَنَجِدُها كَثيرَةً كَثْرَةَ تَنَوّعِ مَواقِفِ الحَياةِ وَمَشاهِدِها، وَفيها تَغْدو الأَحْوالُ الجَسَدِيّةُ وَالهَيئاتُ ناطِقَةً دالّةً عَلى حَواشي النّفوسِ، وَالضّمائِرِ المُسْتَتِرَةِ؛ ذلِكَ أَنَّ هذا المَفْهومَ -أَعْني مَفْهومَ "البَيان بِلا لِسانٍ: لُغَة الجَسَدِ أُنْموذَجًا"- يَتَجَلّى في زَحْمَةِ الشّارِعِ، وَالبَيْتِ الأُسْرِيّ، وَقاعَةِ الدَّرْسِ وَالمُناظَرَةِ، وَحانوتِ البائِعِ، وَسوقِ الأُسْهمِ التِّجارِيّةِ، وَغَيْرِ ذلِكَ مِمّا يُمْكِنُ أَنْ يُتَخَيّلَ أَوْ أَنْ يَنْضافَ.

أَفَلَسْنا نَهْتَدي إِلى الفائِزِ وَنَميزُهُ مِنَ الخاسِرِ إِذا ما تَبَصَّرْنا فَريقَيْنِ عَقِبَ مُباراةٍ؟ وَإِذا ما صَرَفْنا أَبْصارَنا تِلْقاءَ النّظّارَةِ وَالجُمْهورِ فَإِنّنا سَنَعْلَمُ عِلْمَ اليَقينِ أَنَّ هؤلاءِ مِنْ شيعَةِ الفَريقِ الخاسِرِ، وَأَنَّ هؤلاءِ مِنْ شيعَةِ الفَريقِ الفائِزِ، وَأَنَّ ذاكَ مَسْرورٌ بَهيجٌ قَدْ دَلَّ عَلى هذا المَعْنى وَصَدَّقَهُ حَرَكاتُهُ، وَإِشاراتُهُ الجَسَدِيّةُ في ذلِكَ المَقامِ، وَأَنَّ هذا حَزينٌ كاسِفُ البالِ، مُنَكَّسُ الرَّأْسِ، مُغْرَوْرِقُ العَيْنَيْنِ... أَلَمْ تَنْصِبْ تِلْكَ الأَحْوالُ الجَسَدِيّةُ المُشاهَدَةُ مَعانِيَ مَخْصوصَةً في أَنْفُسِنا وَوَعْيِنا؟ فَكانَ مِنْها بَيانٌ بِلا لِسانٍ، وَمَعانٍ اقْتُنِصَتْ مِنْ لُغَةِ الجَسَدِ وَالأَنْظارِ الخارِجِيّةِ، فَقامَتْ مَقامَ كَلامٍ، بَلْ جُمَلٍ.

أَوَلَسْنا نَعْلَمُ أَنَّ ذلِكَ الرّجُلَ -إِذا ما خَرَجَ عَلَيْنا في زينَتِهِ وَزِيِّهِ- مِنْ أَهْلِ الخَليجِ عامّةً، وَمِنْ أَهْلِ عُمانَ أَوِ السّعودِيّةِ خاصّةً؟ وَالمُساءَلَةُ التي تَقومُ في النَّفْسِ ثانِيَةً وَثالِثَةً تَقولُ: ما الفَرْقُ بَيْنَ أَنْ يَقولَ لي بِلِسانِهِ إِنّهُ يَنْتَسِبُ إِلى تِلكَ البيئَةِ أَو ذلِكَ العِرْقِ، وَأَنْ يَقولَ لي ذلِكَ بِإِشارَتِهِ أَوْ لُغَةِ جَسَدِهِ؟ لَعَلَّ النّتيجَةَ واحِدَةٌ مِنْ وُجْهَةٍ تَواصُلِيّةٍ.

---

(1) انظر: القالي، الأمالي، 226/1، والسراج، مصارع العشاق، 250/1، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 329/1.

أَوَلَسْنا نُبْصِرُ في وُجوهِ النّاسِ مَعانِيَ وَنَقْرَؤُها بَعْدَ إِعْجامِها؛ كَالخَوْفِ، وَالفَرَحِ، وَالدَّهْشَةِ، وَالرِّضى، وَالغَضَبِ؟ وَيَكونُ في وُجوهِهِمْ، وَمِنْ وُجوهِهِمْ، بَيانٌ بِلا لِسانٍ، وَتَكونُ مِنّا قِراءَةٌ صامِتَةٌ واعِيَةٌ عالَمِيّةٌ تَصْدُقُ عَلى جَميعِ أَبْناءِ البَشَرِ، وَيَرينُ عَلَيْها إِلْفُهُمُ التّواصُلِيُّ، وَهذا يُفْضي إِلى رَجيعٍ ثانٍ مِنَ التَّسْآلِ القائِمِ في الخاطِرِ القائِلِ: ما الفَرْقُ بَيْنَ أَنْ يَقولَ لي بِلِسانِهِ وَخاصِّ لَفْظِهِ إِنّهُ خائِفٌ، أَوْ مَسْرورٌ، أَوْ غاضِبٌ، وَأَنْ يَقولَ لي ذلِكَ وَجْهُهُ وَحَرَكاتُهُ وَلُغَةُ جَسَدِهِ؟ إِخالُ أَنَّ النّتيجَةَ واحِدَةٌ كَما تَقَدّمَ آنِفًا.

أَوَلَيْسَ المَطارُ مَسْرَحًا حَيًّا لِمُشاهَدَةِ كَثيرٍ مِنْ هذِهِ المَعاني، أَوْ رَصْدِ هذِهِ الظّاهِرَةِ المَعْقودِ لَها العُنْوانُ "البَيانُ بِلا لِسانٍ"؟ فَمِنْ مُوَدِّعٍ باكٍ، إِلى مُنْتَظِرٍ يُمْسِكُ بِيَدَيْهِ بِشِدّةٍ، أَوْ يَفْرُكُهُما، إِلى القَلِقِ المُضطرِبِ الذي لا يَقرُّ لَهُ قَرارٌ، فَيَقْضي جُلَّ وَقْتِهِ ذاهِبًا وَجائِيًا، إِلى مُدَخِّنٍ أَكْثَرَ مِنَ التَّدْخينِ وَهُوَ مُنَكَّسُ الرّأْسِ، كاسِفُ البالِ، إِلى مُعانِقٍ مَنْ يَنْتَظِرُ، إِلى مَنْ رَأى شَتيتَهُ قَدْ عادَ فَارْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِهِ عَلامَةُ الانْبِساطِ وَالفَرَحِ، إِلى الجالِسِ جِلْسَةَ المُسْتَوْفِزِ القَلِقِ الخائِفِ مِنَ الطّائِرَةِ، إِلى المُسْتَرْخي الواثِقِ.

أَوَلَيْسَ السّامِعونَ بِأَعْيُنِهِمْ مِمّنْ حُرِموا السَّمْعَ فَغَدَتْ أَلْسِنَتُهُمْ مَعْقودَةً مُعْتَقِلَةً يُبينونَ عَنْ مُراداتِهِمْ بِبَيانٍ بِلا لِسانٍ، وَيَجْتَرِحونَ حَرَكاتٍ وَإِشاراتٍ تَواصُلِيّةً تُنْبِئُ عَنْ مَعانٍ؟ وَسَيَأْتي بَعْدًا أَنَّ لَهُمْ أَبْجَدِيّةً إِشارِيّةً خاصّةً تُسَمّى "أَبْجَدِيّةَ الأَصابِعِ الإِشارِيّةَ العَرَبِيّةَ"، وَلِلبَيانِ بِلا لِسانٍ عِنْدَهُمْ طَرائِقُ شَتّى يُعْتَمَدُ عَلَيْها، وَأَهَمُّها التّواصُلُ الشَّفَوِيُّ، وَاليَدَوِيُّ، وَالكُلّيُّ المُشْتَمِلُ عَلى لُغَةِ الإِشارَةِ، وَالإِيماءاتِ الجَسَدِيّةِ، وَالتَّعْبيراتِ الوَجْهِيّةِ، وَقِراءَةِ الكَلامِ، وَالشِّفاهِ، وَالتَّهْجِئَةِ بِالأَصابِعِ، وَالقِراءَةِ، وَالكِتابَةِ.

أَوَلَيْسَ الشّرطِيُّ المُنَظِّمُ لِلسَّيْرِ يَسْتَعينُ بِحَرَكاتِ جَوارِحِهِ في أَداءِ عَمَلِهِ؟ فَيوقِفُ سَيّاراتٍ بِإِشارَةٍ، وَيُسَيِّرُ أُخْرى بِإِشارَةٍ حَرَكِيّةٍ مُفارِقَةٍ لِلأولى في الوَقْتِ نَفْسِهِ، فَيَكونُ مِنْ أَهْلِ البَيانِ بِلا لِسانٍ، وَتِلْكَ هِيَ حالُ مُوَجِّهِ الطَّيَرانِ، وَحالُ العَسْكَرِ وَالجُنْدِ الذينَ يَتَعارَفونَ عَلى حَرَكاتٍ جَسَدِيّةٍ مَخْصوصَةٍ تَنْتَسِبُ إِلى مِضْمارِ عَمَلِهِمْ، فَيَسْتَغْنونَ بِها عَنِ اللَّفْظِ، وَيَكونُ مِنْهُمْ بَيانٌ بِلا لِسانٍ.

أَوَلَيْسَ الشّاهِدُ الأَمينُ في قِصّةِ يوسُفَ الصّدّيقِ قَدِ الْتَفَتَ إِلى أَحْوالِ القَميصِ الذي قُدَّ مِنْ دُبُرٍ؟ فَكانَ مِنَ القَميصِ بَعْدَ المُراوَدَةِ بَيانٌ بِلا لِسانٍ حَصْحَصَ بِهِ الحَقُّ، وَدَرَأَ عَنْ بَريءٍ تُهمَةً رُمِيَ بِها زورًا وَبُهْتانًا.

تَلَمُّسُ الدّلالَةِ بَيْنَ لُغَةِ الجَسَدِ وَجَسَدِ اللّغَةِ

أَوّلاً: تَلَمّسُ الدّلالَةِ في جَسَدِ اللّغَةِ

مِنَ المُقرَّرِ المُسْتَحْكِمِ أنَّ للّغَةِ جَسَدًا بِنْيَويًّا يَشِفُّ عَنْ مَعْنًى، وَأنَّ هذا الجَسَدَ مُؤْتَلِفٌ مِنْ مُسْتَوياتٍ لُغَويّةٍ، وَأَنَّ كُلَّ مُسْتوًى مِنْ تِلْكمُ المُسْتَوَياتِ يُفْضي إِلى مَعْنًى قائِمٍ بِرَأْسِهِ، فَثَمَّ مُسْتَوًى صَوْتِيٌّ يُنْبِىءُ عَنْ دِلالَةٍ صَوْتِيّةٍ، وَثَمَّ مُسْتَوًى صَرْفِيٌّ تَتَشَكّلُ فيهِ دِلالَةٌ صَرْفِيّةٌ، وَثَمَّ مُسْتَوًى مُعْجَمِيٌّ تَتَشَكّلُ فيهِ دِلالَةٌ مُعْجَمِيّةٌ، وَثَمّ مُسْتَوًى تَرْكيبِيٌّ يُمْكِنُ اسْتِشرافُ دِلالَةٍ تَرْكيبِيّةٍ فيهِ، وَبِاسْتِجْماعِ تِلكُمُ المُسْتَوَياتِ جَنْبًا إِلى جَنْبٍ يَغْدو النّاتِجُ جَسَدَ اللّغَةِ البِنْيويَّ، وَبِاسْتِجْماعِ تِلكُمُ الدّلالاتِ يَغْدو النّاتِجُ المَعْنى البِنْيويَّ المُسْتَقى مِنَ النّظامِ اللّغَويّ، فَأَبْناءُ اللّغَةِ يَتَواصلونَ لأنّهمْ يُحَلّلونَ كَلامَهمْ مَسْمُوعًا وَمَقْروءًا بِالنّظامِ نَفسِهِ الذي يَبُثُّهُ المُرْسِلُ، أيْ أَنَّ كِلا المُرْسِلِ وَالمُسْتَقْبِلِ يَفيءُ إِلى مَرْجِعٍ نِظامِيٍّ مُشْتَرَكٍ، فَيَنشَأُ التّواصُلُ بَيْنَهُما وَفاءً بِهذا الاشْتِراكِ، وَمَنْ يَخْرُجُ عَنْ إِطارِ هذا المَرْجِعِ النّظامِيّ الخَلاّقِ لِغُرْبَتِهِ عَنْهُ فَإِنَّ حَظَّهُ التّفاصُلُ بِإِطْلاقِهِ.

وَلكنْ، ما النّظامُ اللّغَويُّ؟

لَيْسَ النّظامُ مَقْصورًا عَلى العِلْمِ بِمَعاني المُفْرَداتِ المُعْجمِيّةِ، فَهذا لا يُؤَلِّفُ نِظامًا البَتّةَ، وَلا يُشَكّلُ لُغَةً مُبْتَغاها التّواصُلُ، وَلكِنَّهُ مَجْموعَةٌ مِنَ المُسْتَوياتِ البِنْيَوِيّةِ المُتَداخِلَةِ التي تَعْملُ في تَناغُمٍ كُلّيٍّ، الأَوّلُ يُفْضي إِلى الثّاني، وَالثّاني يَنْبَني عَلى الأَوّلِ، وَيَبْقى الفَصْلُ بَيْنَ هذِهِ المُسْتَوَياتِ مُتَعَذِّرًا إِلاّ عَلى مُسْتوًى نَظَرِيٍّ مُجَرَّدٍ؛ ذلِكَ أَنّ ابْنَ اللّغَةِ لا يَقومُ بِاسْتِجْماعِ الأَصْواتِ اللّغَوِيّةِ التي يَبْغي مِنْها تَأليفَ كَلامِهِ، حَتّى يَصوغَها في مَقاطِعَ مُراعِيًا قُيودَ التّتابُعِ الصّوْتِيّ[1]، ثُمّ يَسْتشرِف بُعْدًا ثانِيًا وَهُوَ تَفريغُ تِلكمُ الأَصْواتِ في مورفيماتٍ، ثُمّ يُنْزِلُها مَنازِلَها مُعْتمِدًا عَلى بُعْدٍ ثالِثٍ هُوَ "التّركيبُ". إِنَّ إِنْتاجَ الكَلامِ الفِعْلِيّ ما هُوَ إِلاّ تَجلٍّ مِنْ تَجَلّياتِ اللّغَةِ الجَمْعِيّةِ الحاضِرَةِ في الذّهْنِ "النّظام"، وَهُوَ بِالوَصْفِ الذي تَقدّمَ عَمَليّةٌ إِرادِيّةٌ، وَلكِنَّها عَفْوِيّةٌ تِلْقائِيّةٌ، وَتَبْقى وَسيلَةُ الإِبانَةِ عَنِ المَعْنى النّظامَ اللّغَويَّ في مُسْتَوياتِهِ المُتَلاحِمَةِ: الصّوْتِيّ، وَالصَّرْفيّ، وَالمُعْجَمِيّ،

(1) لمزيد بسط القول في قيود التتابع الصوتي في العربية. انظر: محمد الخولي، الأصوات اللغوية، 186-192.

وَالتّرْكيبِيّ[1].

وَلكِنَّ هذا الذي تَقدّمَ حَديثٌ عامّ يَعوزُهُ بَسْطٌ لِلقَوْلِ وَتَخْصيصٌ؛ تَخصيصُ القَوْلِ عَلى العَرَبِيّةِ، وَبَسْطُ القَوْلِ في تَمثُّلِ أنْحاءِ هذا النِّظامِ "العَربيّة" تَمثّلاً عَريضًا لاسْتِشْرافِ وَسائِلِها في الإبانَةِ عَنِ المَعْنى، وَلَيْسَ القَصْدُ أَنْ أقِفَ عِنْدَ كُلِّ تَفْصيلاتِ هذا النِّظامِ؛ ذلِكَ أنّهُ مَطْلَبٌ يَتَعَذّرُ تَحْقيقُهُ في هذا المِهادِ.

الدِّلالَةُ في جَسَدِ اللّغَةِ الصَّوْتِيّ:

مَعْلومٌ أَنّ الكَلامَ يَأتَلِفُ مِنْ وَحَداتٍ صَوْتِيّةٍ صُغْرى تَنْتظِمُ في مَسْلَكَيْنِ هُما: الصّوامِتُ وَالصّوائِتُ، وَلِكُلِّ وَحْدَةٍ صَوْتِيّةٍ مَلامِحُ خاصَّةٌ تُمَيِّزُها عَنْ غَيْرِها، وَهذا هُوَ مَكْمَنُ المَلامحِ التّمْييزِيّةِ، فَصَوْتُ الصّادِ مُمْتازٌ عَنْ صَوْتِ السّينِ؛ مَعَ أَنّ بَيْنَهُما جَوامِعَ عَريضَةً، كَالمَخْرَجِ، وَصِفَةِ التّحَكّمِ، وَالهَمْسِ، وَلكِنّ الامْتِيازَ بَيْنَ هذَيْنِ الصّوْتَيْنِ آتٍ مِنْ مَلْمَحِ التّفْخيمِ وَضِدِّهِ التّرْقيقِ، وَبِهذا أصْبَحَ في مَنْظومةِ أَصْواتِ العَرَبِيّةِ فونيمانِ مُسْتَقلاّنِ لا يَقومُ أَحَدُهُما مَقامَ الآخَرِ مِنْ وُجْهَةٍ وَظيفِيّةٍ، فَكَلِمَةُ "صَفَر" مُبايِنَةٌ في دِلالَتِها لِكَلمةِ "سَفَر".

وَقَدْ عُدَّتِ الفونيماتُ أصْغرَ الوَحَداتِ الفونولوجيّةِ في النّظُمِ اللّغَوِيّةِ، وَثَمَّ رَأيٌ آخَرُ، وَهُوَ أنَّ الفونيماتِ لَيْسَتْ أصْغرَ الوَحَداتِ، بَلْ هِيَ حُزَمٌ مِنَ المَلامِحِ التّمْييزِيّةِ[2]، وَمَردُّ إقامَةِ هذِهِ الفُروقِ المَعْنَوِيّةِ عائِدٌ إلى مَلْحَظِ "المَلامِحِ التّمْييزِيّةِ" التي هِيَ المَدْخَلُ العَريضُ لِتَمايُزِ أَصْواتِ اللّغَةِ[3]، وَلِذلِكَ عُنِي في دِراسَةِ المَلامِحِ التّمييزِيّةِ بِالقيمَةِ الوَظيفِيّةِ التي يُؤَدّيها تَبادُلُ الفونيماتِ، فَقَدْ أُشيرَ إلى أنَّ الفونيماتِ نَماذِجُ صَوْتِيّةٌ ذاتُ قُدْرَةٍ عَلى إقامَةِ بَوْنٍ بَيْنَ مَعاني الكَلِماتِ وَدَوالِّها[4]، وَلا يَعْني هذا أَنّ الصّوْتَ في ذاتِهِ

(1) يذهب تمام حسان إلى أن العربية تأتلف من ثلاثة أنظمة، وهي الصوتي، والصرفي، والنحوي، وقائمة من الكلمات التي لا تنتظم في جهاز واحد. انظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، 40.

(2) انظر: جون لاينز، اللغة وعلم اللغة، 124.

(3) تمتد هذه النظرية المعاصرة في أصولها إلى ما وضعه ياكوبسون وتروبتسكي، ثم أدخل عليها إضافات وملاحظ؛ ذلك أن ثم نقصا في الملامح التي جاء بها ياكوبسون انظر:
Katamba, F., An Introduction to Phonology, P.38-42.

(4) انظر:
Kramsky, J., The Phoneme: An Introduction to the History and Theories of A Concept, P.127.

ذو دِلالَةٍ، بَلْ يَعْني أَنَّ الصّوْتَ لَهُ مَحْمولٌ دِلاليٌّ، فَعِنْدَ "تَحْليلِ كَلِمَةٍ ما مِنْ وُجْهَةِ نَظَرِ جانِبِها الصّوْتِيِّ، فَنَحنُ نُحَلِّلُها إِلى سِلْسلَةٍ مِنَ الوَحَداتِ أوِ الفونيماتِ المُتَميِّزَةِ، وَعَلى الرّغْمِ مِنْ أَنَّ الفونيمَ عُنْصُرٌ يُساعِدُ عَلى إِبْرازِ المَعْنى، إِلاّ أَنّهُ هُوَ ذاتُهُ خِلْوٌ مِنَ المَعْنى"[1].

وَفي سَيْرورَةِ تَمَثّلِ الدّلالَةِ في جَسَدِ اللّغَةِ الصَّوتِيِّ يُعَرَّجُ عَلى ثَلاثِ ظَواهِرَ صَوْتِيّةٍ في العَرَبِيّةِ، وَهِيَ التّنْغيمُ " Intonation"، وَالمَفْصِلُ" Juncture"، وَالنّبْرُ "Stress"، أَمّا التّنْغيمُ فَظاهِرَةٌ فونيمِيّةٌ عامّةٌ، تَدُلُّ عَلى تَغَيّرِ دَرَجَةِ الصّوْتِ، ارْتِفاعًا أوِ انْخِفاضًا[2] لِمُناسَبةِ المَعْنى المُرادِ تَعْيينُهُ، وَتَنْتَسِبُ هذِهِ الظّاهِرَةُ إِلى "الفونيماتِ الفَوْقطعيّة" مُؤدِّيَةً وَظيفَتَيْنِ مُتَداخِلتَيْنِ: لُغَويّةً، وَأُخْرى غَيْرَ لُغَويّةٍ. أمّا اللّغَوِيّةُ فَبِاسْتِحْضارِ التّنْغيمِ يَكونُ بِمُكْنَةِ السّامِعِ أنْ يُميّزَ المَعْنى المُرادَ؛ ذلِكَ أنّهُ "يُسْتَعْمَلُ لِرَفْعِ الغُموضِ النّحْوِيّ"[3]. وأمّا الأُخْرى غَيْرُ اللّغَويّةِ، فَهِيَ مَبْنِيّةٌ عَلى الأولى؛ ذلِكَ أَنّ التّنْغيمَ يُهيّئُ لِلمُتَكلِّمِ (عَلى مَسْتَوًى صَوْتِيٍّ) أنْ يُبْدِيَ ما يَعْتَمِلُ في نَفْسِهِ مِنْ مَشاعِرَ، وَبِهذا يَكونُ التّنْغيمُ في سياقِهِ الحَيِّ مُحَمَّلاً بِمَعانٍ غَيْرِ لُغَويّةٍ تَتَضافَرُ مَعَ قَرينَتِها اللّغَوِيّةِ لِتَمْثيلِ المَعْنى المُرادِ[4].

أَمّا النَّبْرُ فَهُوَ مُصْطَلَحٌ لُغَوِيٌّ عامٌّ يَدُلُّ عَلى "جهْدٍ صَوْتِيٍّ مَبْذولٍ عَلى جُزْءٍ مِنَ المَلْفوظِ"[5]، وَيُسْتَدَلُّ مِنْ هذا التّعْريفِ أَنّ المَقاطِعَ المَنْبورَةَ أَظْهَرُ مِنَ المَقاطِعِ غَيْرِ المَنْبورَةِ[6]، وَقَدْ يَكونُ ذا قيمَةٍ فونيمِيّةٍ في بَعْضِ اللّغاتِ كَالإِنْجليزِيّةِ؛ ذلِكَ أَنَّ تَغَيّرَ مَكْمنِ النّبْرِ في بَعْضِ الكَلِماتِ باعِثٌ عَلى تَغَيّرِ مَعْنى الكَلِمَةِ ذاتِها. أَمّا في العَرَبِيّةِ فَقَدْ

---

(1) انظر: ياكوبسون، ست محاضرات في الصوت والمعنى، 143.

(2) انظر: Singh, S., Phonetics, P.187.

(3) انظر: Katamba, An Introduction, P. 244.

(4) انظر هاتين الوظيفتين :

Singh, Phonetics, P.187, Lehiste, I., Suprasegmental, P.95, Crystal, D., A Dictionary of Lingusitics and Phonetics, P.182.

(5) انظر: Robins, General Linguistics, P.10.

(6) انظر: Lehiste, Suprasegmentals, P.106

وقد وصفه Katamba بأنه بروز سمعي"Auditory Prominece".

انظر:.An Introduction to Phonology, P. 221

تَبايَنَ وَجْهُ القَوْلِ عَلَيْهِ، فَذَهَبَ بَعضُ الباحِثينَ إِلى تَقْريرِ فونيمِيّتِهِ[1]، وَمِنْهمْ مَنْ دَحَضَ ذلِكَ.

أمّا المَفْصِلُ فَسَكْتَةٌ كَلامِيّةٌ خَفيفَةٌ بَيْنَ الكَلِماتِ أَوِ المَقاطِعِ يُبْتغَى مِنْها الدِّلالَةُ عَلى مَكانِ انْتِهاءِ لَفْظٍ وَبِدايَةِ آخَرَ[2]، وَلَيْسَ حَدُّ المَفْصِلِ مُقْتَصَرًا عَلى إِقامَةِ حُدودِ الكَلِماتِ، وَلكِنَّهُ يَمْتدُّ حَتّى لَيَشْمُلُ إِقامَةَ حُدودٍ بَيْنَ الجُمَلِ لِفَصْلِ بَعْضِها عَنْ بَعْضٍ، وَفي ذلِكَ إِبانَةٌ عَنِ المَعاني المُرادِ تَوْصيلُها.

الدِّلالَةُ في جَسَدِ اللّغَةِ الصّرْفِيّ

أمّا الدِّلالَةُ الصَّرْفِيّةُ في العَرَبِيّةِ فَقائِمَةٌ عَلى أَنَّ العَرَبِيّةَ لُغَةٌ وَزْنِيّةٌ قالَبِيّةٌ اشْتِقاقِيّةٌ، فَكُلُّ كَلِمَةٍ في العَرَبِيّةِ، في الغالِبِ ما عَدا الحُروفَ وَبَعْضَ الكَلِماتِ الأَعْجَميّةِ، لَها وَزْنٌ صَرْفِيٌّ، وَكُلُّ وَزْنٍ أَوْ قالَبٍ لَهُ مَعْنًى صَرْفِيٌّ، ويَنْضافُ إِلى ما تَقَدَّمَ الظّواهِرُ الاشْتِقاقِيّةُ وَما تُؤدّيهِ مِنْ مَعانٍ صَرْفِيّةٍ، ويَنْضافُ، في بابِ القَوْلِ عَلى الدِّلالَةِ الصَّرْفِيّةِ، مَعاني السّوابِقِ وَاللّواحِقِ المُتمَثّلةِ في كَوْنِها مورفيماتٍ حَمّالَةً لِمَعانٍ صَرْفِيّةٍ[3].

أَمّا كَوْنُها قالَبِيّةً، فَهذا يَعْني أَنَّ مَتْنَ كَلِمِ العَرَبِيّةِ في جُلِّهِ يَفيءُ إِلى قَوالِبَ مُتَمايِزَةٍ مُجَرَّدَةٍ، وَهِيَ حَوامِلُ لِمَعانٍ مَخْصوصَةٍ، وَمُؤَدّيَةٌ لأَدْوارٍ وَظيفِيّةٍ، وَللأَسْماءِ، بِالمَعْنى العَريضِ، قَوالِبُ جاهِزَةٌ، وَلِلأفْعالِ كَذلِكَ، وَمِنَ القَوالِبِ ما يَصْلحُ لأَنْ يَكونَ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ ذَيْنِكَ المَعْنَيَيْنِ؛ الاسْمِيّةِ وَالفِعْليّةِ، وَالتّنَقّلُ بَيْنَ هذِهِ القَوالِبِ ما هُوَ إِلاّ تَنقّلٌ بَيْنَ المَعاني، وَهُوَ مَطْلَبٌ مِنْ مَطالِبِ الدّرْسِ الصّرْفِيّ عَريضٌ.

أَمّا كَوْنُها اشْتِقاقِيّةً؛ فَذلِكَ أَنّ هذِهِ القَوالِبَ لا تُؤَدّي وَظيفَتَها وَهِيَ خِلْوٌ مِنْ أَصْلٍ ثُلاثِيٍّ "في الغالِبِ" تُسْتَوْدَعُ فيهِ، وَهذا الأَصْلُ هُوَ "الجَذرُ"، وَبِهذا يُصْبِحُ المَعْنى المُتَعيّنُ مِنْ كَلِمَةٍ ما في سِياقٍ ما قائِمًا عَلى تَوْجيهِ النّظَرِ تِلْقاءَ مَطْلَبَيْنِ لا يُغْني أَحَدُهُما عَنِ الآخَرِ وَلا يَتَقَدّمُهُ، أَحَدُهُما: مَعْنى المادَّةِ الخامِّ، وَثانيهِما مَعْنى القالَبِ الذي اسْتُودِعَتْ

---

(1) انظر: أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، 361، وقد بين أن الفكرة محل مناقشة لا يدعى لها صفة القطع، ومحمد الخولي، الأصوات اللغوية، 162.

(2) انظر: Robins, General Linguistics, P.145, Crystal, A Dictionary, P.188.

(3) لمزيد بسط القول انظر مبحث "الإبانة في المستوى الصرفي"، ظاهرة اللبس في العربية، 31-44.

فيهِ تِلكَ المادّةُ، وَمِنْ ذلِكَ أَنَّ لِلأَفْعالِ بِمُتَباينِ أَزْمانِها قَوالِبَ جاهِزَةً كَما المَصادِرِ، وَالذي يَنْبَغي التّنْبيهُ عَلَيْهِ هُوَ البَوْنُ الحاصِلُ بَيْنَ الزّمَنِ الصَّرْفِيّ وَالزّمَنِ النّحْوِيّ، فَمَعْنى الزّمَنِ في المُسْتَوى الصَّرْفِيّ حاصِلٌ بِدِلالَةِ شَكْلِ القالَبِ وَالإِلْفِ، أمّا في مَعْناهُ النّحْوِيّ فَذلِكَ مَطْلَبٌ مَرَدُّهُ إلى السّياقِ.

أَمّا دِلالَةُ قَوالِبِ الأَفْعالِ فَهِيَ مُتَعدِّدةٌ، وَمِنْ ذلِكَ "اسْتَفْعَلَ"، فَقَدْ يَأْتي هذا القالَبُ لِلإِصابَةِ، كَتَفْريغِ الجَذْرِ "ج ي د" في هذا القالَبِ، فَيُصْبحُ "اسْتَجادَ"، وَالمَعْنى المُتَعيّنُ هُوَ "وَجَدْتُهُ أَوْ أَصَبْتُهُ جَيّدًا"، وَمِثْلُها "اسْتَكْرَمْتُهُ" وَ"اسْتَعْظَمْتُهُ"، وَمِنْ مَعانيهِ الطّلَبُ؛ وَذلِكَ نَحْو "اسْتَكْتَبَ"، وَ"اسْتَفْهَمَ"، وَالتّحَوّلُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ نَحْو "اسْتَنْوَقَ" وَ"اسْتَتْيَسَ"، وَقَدْ يَكونُ مُرادِفًا لِـ"تَفَعّلَ"؛ وَمِنْ ذلِكَ "تَعَظّمَ وَاسْتَعْظَمَ"، وَ"تَكَبّرَ وَاسْتَكْبَرَ"[1].

وَفي مَطْلَبِ اسْتِشْرافِ مَعالِمِ الإِبانَةِ في المُسْتَوى الصَّرْفِيّ أَجِدُني أَميلُ إلى عَرْضٍ دالٍّ بِالاقْتِضابِ لِنَظَرِيّةِ المورفيم، وَقَدْ عُرِّفَ المورفيم بِأَنّهُ أَصْغَرُ وَحْدَةٍ لُغَويّةٍ ذاتِ مَعْنًى؛ إِذْ إِنّ تَخلَّقَ المَعْنى لا يَكونُ إلاّ مِنْ هذِهِ الوَحْدَةِ المُشَخَّصَةِ، وَهُوَ غَيْرُ قابِلٍ لِلقِسْمَةِ إلى وَحَداتٍ مَعْنَويّةٍ أَصْغَرَ مِنْه[2]، وَيَرى أَهْلُ النّظَرِ اللّغَوِيّ مِنَ الغَرْبِيّينَ أَنّهُ يُقْسَمُ قِسْمَيْنِ: أَوّلُهُما المورفيم الحُرّ " Free Morpheme"، وَهُوَ المورفيمُ المُسْتَقِلّ بِنَفْسِهِ الذي قَدْ يَتَعيّنُ مُنْفَرِدًا، وَمِنْ مُثُلِهِ الأَفْعال(نامَ، يَنامُ، نَنامُ)، وَالأَسْماءُ(مُحَمّدٌ، رَجُلٌ، مُجْتَهِدٌ)، وَحُروفُ المَعاني. وَصَفْوَةُ القَوْلِ فيهِ أَنّهُ يَسْتَغْرِقُ شَطْرًا كَبيرًا مِنْ مَتْنِ اللّغَةِ وَكَلِماتِها.

أَمّا المورفيمُ المُقيَّدُ Bound Morpheme"" فهُوَ الذي لا يُؤدّي دَوْرَه الوظيفِيَّ قائِمًا بِرَأْسِهِ، بَلْ مُتّصِلاً بِغَيْرِهِ مِنَ المورفيماتِ، وَمِنْ أَمْثِلَتِهِ الزَّوائِدُ؛ كَاللّواحِقِ

---

(1) انظر معاني "استفعل": سيبويه، الكتاب، 70/4، وابن قتيبة، أدب الكاتب، 305-306، وابن السراج، الأصول، 127/3-128، وابن فارس، الصاحبي، 226، وابن جني، المنصف، 77/1، وابن يعيش، شرح المفصل، 161/7، والأستراباذي، شرح الشافية، 110/1.

(2) انظر تعريفه:

Katamba, Morphology, P.19, Robins, General Linguistics, P.192, Nida, Morphology: The Descriptive Analysis of Words, P.6.

"Suffixes"، وَالسّوابِق"Prefixes"، وَالدَّواخِل،"Infixes"[1]، وَالتّمْثيلُ عَلى تَجَلّياتِ هذِهِ المورفيماتِ المُقَيَّدةِ مَوْضِعُ خِلافٍ بَيْنَ أَهْلِ النّظَرِ اللّغَوِيّ مِنَ العَرَبِ.

الدّلالَةُ في جَسَدِ اللّغَةِ المُعْجَمِيّ:

أَمّا الدّلالَةُ المُعْجَمِيّةُ فَتَتَجَلّى في كَوْنِ كَلَماتِ اللّغَةِ حامِلاتٍ لِمَعانٍ مُعْجَمِيّةٍ مُعَيَّنةٍ في المُعْجَمِ الجامِعِ لأَبْناءِ اللّغَةِ الواحِدَةِ، وَمَرَدُّ ذلِكَ إِلى أَنَّ الكَلِمَةَ عَلامَةٌ لُغَوِيّةٌ رانَ عَلَيْها إِلْفُ الجَماعَةِ النّاطِقَةِ بِها، فَغَدَتْ تَقْدَحُ في الخاطِرِ الصّورَةَ الذِّهْنِيّةَ التي انْعَقَدَ عَلَيْها إِجْماعُ أَهْلِ اللّغَةِ القائِمُ عَلى العُرْفِ وَالمُواضَعَةِ، ثُمّ إِنّ هذِهِ العَلامَةَ اللّغَوِيّةَ ثُنائِيّةُ الكيانِ؛ ذلِكَ أَنّها تَأْتَلِفُ مِنْ قُطْبَيْنِ، وَهُما الفِكْرَةُ، وَالصّورَةُ الصّوْتِيّةُ[2]، وَمِنْ مَجْموعِهِما يَنْشَأُ المَعْنى الإِشارِيُّ، وَالمَعْجَمُ مَعِينُ كَلِماتِ اللّغَةِ، وَمُسْتَوْدَعُ ثَقافَةِ الأُمّةِ وَفِكْرِها، وَهُو، مُمَثَّلاً بِجَوْهَرِه "الكَلِمات المُسْتَودَعَة فيه"، في حَرَكَةٍ دائِبةٍ مُتَوَثِّبةٍ؛ فَمِنْ حَياةٍ إِلى ضَعْفٍ إِلى غَيْبَةٍ إِلى رَجْعَةٍ، وَأَهْلُ اللّغَةِ يُضيفونَ عَلَيْهِ مُشْتَقّينَ، ومُرْتَجِلينَ، وَمُقْتَرِضينَ، وَناحِتينَ، وَالكَلِماتُ فيهِ لَيْسَتْ ثابِتَةً عَلى حالٍ، فَثَمّ انْزِياحٌ لَها عَنْ دِلالاتِها مُمَثَّلاً بِتَوسيعِها، وَتَضْييقِها، وَانْتِقالِها، وَرُقِيِّها، وَانْحِطاطِها، كُلُّ ذلِكَ يُؤْذِنُ بِالقَوْلِ إِنّ هذِهِ الحَرَكَةَ المُتَوَثِّبَةَ الدّائِبَةَ إِنّما هِيَ وَجْهٌ مِنْ وُجوهِ الوَفاءِ بِقَصْدِ اللّغَةِ الأَوّلِ، وَهُوَ الإِبانَةُ عَنِ المَقاصِدِ وَرُسومِ التّعْبيرِ إِبانَةً تَتَساوَقُ مَعَ كُلِّ حادِثٍ وَكُلِّ مُتَغَيِّرٍ.

وَيُضافُ إِلى المَعْنى الإِشارِيّ مَعانٍ أُخْرى ذاتُ فَضْلٍ في الإِبانَةِ عَنْ مَقاصِدِ التّعْبيرِ، وَمِنْ ذلِكَ المَعْنى الهامِشِيُّ، وَالسِّياقِيُّ، وَالمَجازِيُّ. أَمّا المَعْنى الهامِشِيُّ[3] فَهُوَ المَعْنى المُتَعَلِّقُ بِخاصِّ أَمْرِ صاحِبِهِ، وَدَخيلَةِ نَفْسِهِ، وَلَيْسَ لَهُ مَساسٌ بِالمَعْنى المَرْكَزِيّ الإِشارِيّ المُثْبَتِ في المُعْجَماتِ، بَلْ هُوَ ظِلالٌ سَلْبِيّةٌ أَوْ إيجابِيّةٌ تُحيطُ بِذلكَ المَعْنى المَرْكَزِيّ، مُتَباينَةٌ بِتَبايُنِ الأَفْرادِ وَتَجارِبِهِم؛ ذلِكَ أَنَّ "المَدْلولَ في نَظَرِ الفِكْرِ الحَديثِ

---

(1) انظر:

Katamba, Morphology, P.41-46, Robins, General Linguistics, P.196- 202, Nida, Morphology, P.81, Crystal, A Dictionary, P.223.

(2) انظر: دي سوسير، فصول في علم اللغة العام، 121-122.

(3) يسميه بالمر بالمعنى العاطفي، انظر: بالمر، علم الدلالة، 60.

عِبارَةٌ عَنْ مَجْموعَةٍ مِنَ الدّوائِرِ وَالمَناطِقِ المُتّحِدَةِ المَرْكَزِ، المُخْتَلِفَةِ الحُدودِ، أيْ أنّ المَعْنى الأَساسِيَّ لِلْكَلِماتِ مَحْدودٌ وَمُعيَّنٌ بِصِفَةٍ عامّةٍ، وَلكِنّ الجَوانِبَ الخارِجِيّةَ لِهذا المَعْنى غامِضَةٌ وَغَيْرُ ثابِتةٍ"[1].

أَمّا المَعْنى المَجازِيُّ فَهُوَ قائِمٌ عَلى مَلْحَظِ الانْزِياحِ اللّغَوِيّ، فَثَمّ أَلْفاظٌ لا تَتَساوَقُ مَعَ أُخْرى في سِياقِها البِنْيَوِيّ التّرْكيبِيّ؛ إِذْ إِنّها خارِجَةٌ عَنْ مِضْمارِ دِلالَةِ العَقْلِ، أَوْ مِضْمارِ دِلالَةِ الأَعْرافِ، وَلكِنّها، في سِياقٍ إِبْداعِيٍّ، أَوْ سِياقِ حالٍ يَتَسامَحُ بِتَجاوُزِ تَساوُقِ الأَلْفاظِ عَلى نَحْوِ مَنْطِقِ الأَعْرافِ، أَوِ العَقْلِ، مُتَقَبَّلَةٌ، بَلْ قَدْ يَكونُ لَها أَلَقٌ يَسْتَثيرُ في النّفْسِ شَيْئًا بَلْ أَشْياءَ، فَالحَقيقَةُ إِذَنْ ما أُقِرَّ في الاسْتِعْمالِ عَلى أَصْلِ وَضْعِهِ في اللّغَةِ، وَالمَجازُ ما كانَ انْزِياحًا عَنِ المُتَعارَفِ عَلَيْهِ مِنْ أَصْلِ الوَضْعِ[2].

أَمّا المَعْنى السِّياقِيُّ فَهُوَ المُحْتَكَمُ الأَوّلُ في تَعْيينِ مَعاني الكَلِماتِ الوارِدَةِ فيه، وَقَدْ ذَهَبَ أَشْياعُ النّظَرِ السِّياقِيِّ إِلى تَقْريرِ قُصورِ المُعْجَمِ في فَرْضِ قيمَةٍ مَعْنَوِيّةٍ عَلى مَعاني الكَلِماتِ؛ إِذْ إِنّ لَهُمْ قَوْلَةً مُؤدّاها أَنّ الكَلِماتِ لَيْسَ لَها مَعْنًى وَهِيَ بِمَنْأى عَنِ السّياقِ، وَهُمْ يُرَدِّدونَ أَيْضًا: "لا تَبْحَثْ عَنْ مَعْنى كَلِمةٍ، ابْحَثْ عَنِ اسْتِعْمالاتِها"[3]. وَالحَقُّ أَنَّ هذا النّظَرَ مُتَقَبَّلٌ لا يُدافَعُ.

الدِّلالَةُ في جَسَدِ اللّغَةِ التّرْكيبِيّ

أَمّا الدِّلالَةُ التّرْكيبِيّةُ في جَسَدِ اللّغَةِ فَعَريضٌ بابُها، وَصَفْوَةُ المُسْتَخْلَصِ أَنّها قائِمَةٌ في العَرَبِيّةِ عَلى نِظامِ الجُمْلَةِ وَنِظامِ الإِعْرابِ، أَمّا نِظامُ الإِعْرابِ فَبِهِ تَتَمايَزُ المَعاني النّحْوِيّةُ العَريضَةُ مِنْ فاعِلِيّةٍ، وَمَفْعولِيّةٍ، وَإِضافةٍ، وَغَيْرِها، وَتَتَعَيّنُ هذِهِ المَعاني بِغَيْرِ سَبيلٍ، وَمِنْ أَشْهَرِها العَلامَةُ الإِعْرابِيّةُ، وَكَذلِكَ الرُّتْبَةُ، وَالإِسْنادُ وَغَيْرُ ذلِكَ مِمّا لا يَتّسِعُ المَقامُ لِلخَوْضِ فيهِ.

وَقَدْ ذَهَبَ القُدَماءُ ما خَلا قُطْرُبًا إِلى أَنَّ العَلامَةَ الإِعْرابِيّةَ تُؤدّي أَدْوارًا وَظيفِيّةً في

(1) انظر: أولمان، دور الكلمة في اللغة، 101، وقد مثل لهذا بالمر بكلمة "ليبرالي"، فهي كلمة متقبلة في بريطانيا، ولكنها رديئة في جنوبيّ أفريقيا انظر: دور الكلمة في اللغة، 60.

(2) انظر: ابن جني، الخصائص، 444/2.

(3) انظر: أولمان، دور الكلمة في اللغة، 62، وبالمر، علم الدلالة، 51، وليونز، علم الدلالة، 23، وجرومان، علم الدلالة، 44.

الإبانَةِ عَنِ المَعاني النّحْوِيّةِ، وَقَدْ قالَ عَنْها ابنُ قُتَيْبَةَ: "وَلَها الإعْرابُ الذي جَعَلَهُ اللهُ وَشْيًا لِكَلامِها، وَحِلْيَةً لِنِظامِها، وَفارِقًا في بَعْضِ الأَحْوالِ بَيْنَ الكَلامَيْنِ المُتَكافِئَيْنِ، وَالمَعْنَيَيْنِ المُخْتَلِفَيْنِ، كَالفاعِلِ وَالمَفْعولِ، لا يُفْرَقُ بَيْنَهُما إذا تَساوَتْ حالاهُما في إمْكانِ الفِعْلِ أَنْ يَكونَ لِكلِّ واحِدٍ مِنْها إلاّ بِالإعْرابِ"[1]. وَعَنْها قالَ الزّجاجِيُّ: "إنّ الأسْماءَ لَمّا كانَتْ تَعْتَوِرُها المَعاني، فَتَكونُ فاعِلَةً، وَمَفْعولَةً، وَمُضافَةً، وَمُضافًا إلَيْها، وَلَمْ تَكُنْ في صُورِها وَأَبْنِيَتِها أَدِلّةً عَلى هذِهِ المَعاني، بَلْ كانَتْ مُشْتَرَكَةً، جُعِلَتْ حَرَكاتُ الإعْرابِ فيها تُنْبِئُ عَنْ هذِهِ المَعاني، فَقالوا: ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا، فَدَلّوا بِرَفْعِ زَيْدٍ عَلى أَنّ الفِعْلَ لَهُ"[2].

أَمّا نِظامُ الجُمْلَةِ فَبِهِ تُضبَطُ الجُمْلَةُ مِنْ حَيْثُ هَيْئاتِ رَصْفِ الكَلِمِ: فَهُناكَ رَصْفٌ مُلقًى عَلى عَواهِنِهِ، مُتَجافٍ عَنْ قَواعِدِ النّظْمِ الجُمْلِيّ في العَرَبِيّةِ، وَهذِهِ الهَيْئةُ مِنَ الرَّصْفِ لا إبانَةَ فيها البَتّةَ؛ ذاكَ أَنَّها خارِجَةٌ عَنْ مِضْمارِ أَعْرافِ النِّظامِ اللّغَوِيّ، وَلَيْسَ يَصِحُّ في الفَهْمِ أَنْ يُؤْتَى بِالفِعْلِ مِنْ غَيْرِ تَعْليقِهِ وَإِعْمالِهِ في اسْمٍ، وَلا أَنْ يُتَفَكَّرَ في مَعْنى اسْمٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرادَ إِعْمالُ فِعْلٍ فيهِ، وَجَعْلُه فاعِلاً أَوْ مَفْعولاً، أَوْ يُرادَ فيهِ حُكْمٌ مِنَ الأَحْكامِ النّحْوِيّةِ[3]، "وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَرى ذلِكَ عيانًا فَاعْمِدْ إِلى أَيِّ كَلامٍ شِئْتَ، وَأَزِلْ أَجْزاءَهُ عَنْ مَواضِعِها وَضْعًا يمْتَنعُ مَعَه دُخولُ شَيءٍ مِنْ مَعاني النّحْوِ فيها، فَقُلْ في: "قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ": "مِنْ نَبْكِ قِفا حَبيب ذِكْرى مَنْزِل"، ثُمّ انْظُرْ هَلْ يَتَعلّقُ مِنْكَ فِكْرٌ بِمَعْنى كَلِمةٍ مِنْها"[4].

وَقَدْ يُتَناوَلُ التّرْكيبُ في جَسَدِ اللّغَةِ مِنْ وُجْهَةٍ أُخْرى؛ ذلِكَ أَنَّ النَّصَّ يَأْتَلِفُ مِنْ

---

(1) انظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، 14.

(2) انظر: الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، 69، وقد رفض بعض الباحثين المحدثين، ومنهم إبراهيم أنيس، أن تكون العلامات دوالّ على المعاني النحوية، ولكنها حركات لوصل الكلام في النطق، أما المحتكم في تحديد المعاني النحوية في الجملة فهو نظام الجملة العربية، والموضع المخصوص لكلّ هذه المعاني في الجملة أولا، ثم ما يحيط بالكلام من أحواله وملابساته ثانيا. انظر: إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، 225، وفؤاد ترزي، في أصول اللغة والنحو، 182-193.

(3) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، 410.

(4) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، 410.

فِقْراتٍ، وَالفِقْراتُ تَأْتَلِفُ مِنْ جُمَلٍ كُبْرى، وَالجُمَلُ الكُبْرى تُرَدُّ إِلى جُمَلٍ صُغْرى تَوْليدِيّةٍ[1]، ثُمّ تَمْضي الجُمْلَةُ العَرَبِيّةُ في الامْتِدادِ؛ امْتِدادٍ مِنْ عَنْ يَمينِها، وَامْتِدادٍ مِنْ عَنْ يَسارِها، وَتَبْدَأُ المَعاني النَّحْوِيّةُ بِالتَّخَلّقِ، وَهِيَ مَعانٍ ذِهْنِيّةٌ مُجَرَّدَةٌ، كَالفاعِليّةِ وَالمَفْعولِيّةِ وَالإِضافَةِ وَالاسْتِثْناءِ، وَالحالِ، وَالتّوْكيدِ، وَالنّفْيِ، وَالنّهْيِ، وَغَيْرِ ذلِكَ مِمّا يَقومُ عَلَيْهِ الدّرْسُ النّحْوِيُّ، وَقَدْ يَسْتَعينُ النّظامُ اللّغَوِيُّ بِالرّتْبَةِ بِاعْتِبارِها مِنْ إِمْكاناتِ الدّلالَةِ عَنِ المَعاني النّحْوِيَّةِ، وَثَمَّ مَطْلَبٌ يَتَّصِلُ بِالرّتْبَةِ بِنَسَبٍ حَميمٍ، وَهُوَ التّقْديمُ وَالتّأْخيرُ، فَالنّظامُ اللّغَوِيُّ يَفْرِضُ قُيودًا وَمُحَدِّداتٍ يَجِبُ أَخْذُها بِعَيْنِ العِنايَةِ، وَلكِنَّهُ في الآنَ نَفْسِهِ يُهَيّئ لِلمُرْسِلِ خياراتٍ، وَحَيْثُما وُجِدَ الخيارُ وَقَعَ الاخْتِيارُ، وَبِهذا يَنْضافُ إِلى ذلِكَ المَعْنى اللّغَوِيّ مَعْنًى أَسْلوبِيٌّ باعِثُهُ اخْتِيارٌ عَلى وَجْهِ التّعْيينِ.

ثانِيًا: تَلَمُّسُ الدّلالَةِ في لُغَةِ الجَسَدِ

وَلكِنْ، مَنْ ذا الذي يُقْنِعُ اللّغَوِيَّ أَنَّ المَعْنى إِنّما هُوَ مُتَعَيّنٌ مِنَ الدّلالاتِ المُتَعَيّنَةِ في تِلْكَ المُسْتَوَياتِ فَقَطْ، أَوْ مِنَ المُتَحَصِّلِ مِنْ جَسَدِ اللّغَةِ المَوْسومِ آنِفًا؟ إِنَّ ما يُقَدِّمُهُ جَسَدُ اللّغَةِ البِنْيَوِيُّ إِنّما هُوَ المَعْنى البِنْيَوِيُّ المَقالِيُّ فَقَطْ، وَالجَسَدُ لا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحيطٍ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ، وَيُؤَثِّرُ فيهِ، وَمِنْ هُنا يَأتي فَضْلُ سِياقِ الحالِ، وَالأَنْظارِ الخارِجِيّةِ، وَالقَرائِنِ، لِتَفْعَلَ فِعْلَها في تَشْكيلِ المَعْنى، وَبِذا يَكونُ المَعْنى مُؤْتَلِفًا مِنَ الرّافِدَيْنِ: المَعْنى المَقالِيّ، وَالمَعْنى المَقامِيّ، وَمِمّا يَنْتَسِبُ إِلى المَعْنى المَقامِيّ "لُغَةُ الجَسَدِ" التي تُعَدُّ رافِدًا مَعْنَوِيًّا أَمينًا ذا وَظائِفَ مُتَباينَةٍ سَيَأْتي عَلَيْها فَضْلُ بَيانٍ بَعْدًا، فَقَدْ تُغْني الإِشاراتُ، وَالحَرَكاتُ التّمْثيلِيّةُ، وَالتّعْبيراتُ الجَسَدِيّةُ، عَنِ الكَلامِ جُمْلَةً، وَقَدْ تَجَلّى ذلِكَ في قَوْلِ الشّاعِرِ:

العَيْنُ تُبْدي الذي في قَلْبِ صاحِبِها ... مِنَ الشَّناءَةِ وَالْوُدّ الَّذي كانا
إِنَّ العَدُوَّ لَهُ عَيْنٌ يُقَلِّبُها ... لا يَسْتَطيعُ لِما في القَلْبِ كِتْمانا
وَعَيْنُ ذي الوُدِّ ما تَنْفَكُّ مُقْلَتُها ... تُبْدي لَهُ مِحْجَرًا بَشًّا وَإِنْسانا
فَالعَيْنُ تَنْطِقُ وَالأَفْواهُ صامِتَةٌ ... حَتّى تَرى مِنْ ضَميرِ القَلْبِ تِبْيانا[2]

---

(1) في ملاحظة ذكية قسم ابن هشام الجمل إلى الصغرى والكبرى، والكبرى هي الاسمية التي خبرها جملة نحو: زيد قام أبوه. انظر كتابه: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، 497/2.

(2) اختلف في نسبته، فنسبه الآبي في الأنس والعرس، 175 لعبد الله بن معاوية، والعباسي في معاهد التنصيص، 131/1 لعمارة بن عقيل.

قَدْ تَجلّى كَذلِكَ في مُناكَفَةِ أَبي نُواسٍ لِجُلَسائِهِ لَمّا طَلَبوا إِلَيْهِ أَنْ يَصْنَعَ شِعْرًا لا قافِيَةَ لَهُ، فَصَنَعَ مِنْ فَوْرِهِ ارْتِجالاً مُعْتَمِدًا عَلى فَضْلِ لُغَةِ الجَسَدِ عامّةً، وَالإِشارَةِ الحَرَكِيّةِ خاصّةً، في الإِبانَةِ عَنِ القَوافي المَحْذوفَةِ، فَقالَ:

وَلَقَـــدْ قُلْـــتُ لِلْمَليحَـــةِ قـــولي مِنْ بَعيدٍ لِمَنْ يُحِبُّك : (إِشارَةُ: قُبْلة)
فَأَشـــارَتْ بمعْصَـــمٍ ثُـــمّ قالَـــتْ مِنْ بَعيدٍ خِلافَ قَولي: (إِشارَةُ: لا لا)
فَتَنَفّسْـــتُ ســـاعَةً ثُـــمّ إِنّـــي قُلْتُ لِلبَغْلِ عِنْدَ ذلِكَ: (إِشارةُ: امْشِ)

فَتَعَجّبَ مَنْ حَضَرَ مَجْلِسَهُ مِنَ اهْتِدائِهِ وَحُسْنِ تَأَتّيهِ[1]. وَلا يَخْفى أَنّ لِسياقِ الحالِ مَشْفوعًا بِالحَرَكاتِ التّمْثيلِيّةِ سُهْمَةً ظاهِرَةً في تَعْيينِ مُرادِ أَبي نُواسٍ، وَلَعَلّ هذِهِ الأَبْياتَ اليَوْمَ لا تُفْهَمُ إِلاّ بِاسْتِصْحابِ سِياقِها الأَوّلِ المُتَقادِمِ، وَتَرْجَمَةِ الإِشاراتِ التي جاءَ بِها أَبو نُواسٍ إِلى أَلْفاظٍ تَصِفُها وَتُعَبّرُ عَنْها، أَمّا المَعْنى لِشُهودِ تِلْكَ الحَضْرَةِ فَهُو بَيّنٌ لا مَحالَةَ بِالإِشارَةِ وَلُغَةِ الجَسَدِ.

عَوْدًا عَلى بَدْءٍ، وَأَرْجو أَنْ يَكونَ العَوْدُ أَحْمَدَ، فَلَنا أَنْ نُشَبّهَ المَعْنى بِأَنّ لَهُ رَوافِدَ تُغَذّيهِ، وَأَنّ هذِهِ الرّوافِدَ كَالمَجاري، فَمِنْها المَجْرى الصّائِتُ، وَهُوَ الكَلامُ الذي تَتَشَكّلُ بِهِ الرِّسالَةُ فَيَنْعَقِدُ بِهِ التّواصُلُ، وَمِنْها المَجْرى الصّامِتُ الذي عَلَيْهِ عَقْدُ البابِ وَالمَوْضوعِ، وَقَدْ تُنْقَلُ الرِّسالَةُ بِالمَجْرى الصّائِتِ، وَقَدْ يَكونُ ذلِكَ بِتَضافُرِ المَجْرَيَيْنِ، وَقَدْ يُغَذّى المَعْنى بِرافِدِ المَجْرى الصّامِتِ كَما كانَ مَعي في المُتَقَدِّمِ بَيانُهُ في الحِكايَةِ الحادِثَةِ المُعاصِرَةِ، وَقَدْ أَلْفى باحِثٌ أَنّ تَأثيرَ الرِّسالَةِ الكُلّيَّ يَنْقَسِمُ إِلى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ، أَوّلُها 7% مِنَ المَجْرى الصّائِتِ، و38% مِمّا يَعْتَري المَجْرى الصّائِتَ كَالتّنْغيمِ، وَالنّغْمَةِ، وَدَرَجَةِ الصّوْتِ، وَ55% مِنَ المَجْرى الصّامِتِ[2].

وَقَدْ تَوَصّلَ آخَرُ إِلى مُسْتَصْفًى مِنَ الرّأيِ يَقْرُبُ مِنْ هذا المُتَقَدِّمِ، فَقَدْ أَلْمَحَ إِلى أَنّ الجُزْءَ الكَلامِيَّ مِنَ المُحادَثَةِ الوجاهِيّةِ تَأْتَلِفُ في جُزْئِها الأَصْغَرِ مِنْ 35% مِنَ الرّافِدِ الصّائِتِ لِتَأْدِيَةِ المَعْنى، وَفي جُزْئِها الأَكْبَرِ مِنَ 65% مِنَ الرّافِدِ الصّامِتِ القائِمِ عَلى

(1) انظر: ابن رشيق، العمدة 310/1، ولعل إشارات أبي نواس كانت مصحوبة بأصوات مفرقعة يتساوق صوتها مع وزن الشعر.

(2) Albert Mehrabian, Silent Messages, P.44, Pease, A., Body language: How to Read Others' Thoughts by Their Gestures, P.6.

اطّراحِ الكَلامِ، وَاسْتِرْفادِ ما يَقومُ مَقامَهُ مِنْ حَرَكاتِ الجَوارِحِ، وَالشَّمائِلِ، وَالإِشاراتِ[1].

وَقَدْ كانَ مِنْ مَحْصولِ الحِكايَةِ المُعاصِرَةِ المُتَقَدِّمِ بَيانُها في مُقَدِّمَةِ الكِتابِ أَنْ أُعاوِدَ النّظَرَ في مَقولاتِ عِلْمِ الدِّلالَةِ وَالسّيْمْياءِ عامّةً، وَلُغَةِ الجَسَدِ خاصّةً، فَأَلْفَيْتُ بابَ القَوْلِ عَلى هذا المَطْلَبِ عَريضًا عَلى الصّعيدِ الغَرْبِيّ، فَإِذا بِهِمْ يَجْتَرِحونَ مُصْطَلَحًا قائِمًا بِرَأْسِهِ، عَلَمًا عَلى ما يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ، جانِحينَ إِلى وَسْمِهِ بـ "عِلْمِ الحَرَكِيّةِ" الذي هُوَ هادٍ لِلْجَميعِ، وَأَداةٌ لَها خَطَرُها لِلمُتَخَصِّصينَ في التّواصُلِ وَالاتّصالاتِ مِنْ مِثْلِ مُقَدِّمي النَّدواتِ، وَالسِّياسِيّينَ، وَالمُثَقّفينَ، وَالأَساتِذَةِ، وَمُديري العَلاقاتِ العامَّةِ، وَالصّحفيّينَ[2]، وَالمَقاصِدُ المُتَعَيّنَةُ مِنْ "عِلْمِ الحَرَكِيّةِ" تَسيرُ في ثَلاثِ شُعَبٍ مُتَلاحِمَةٍ، وَهِيَ "مَعْرِفَةُ المَرْءِ نَفْسَهُ بِصورَةٍ أَفْضَلَ، وَمَعْرِفَتُهُ جَعْلَ نَفْسِه مَفْهومًا بِصورَةٍ أَفْضَلَ، وَفَهْمُ الآخَرينَ فَهْمًا أَفْضَلَ"[3].

لَعَلّهُ يَحْسُنُ، بَعْدَ هذا المُتَقَدِّمِ، أَنْ نَتَبَصّرَ في المَقولاتِ التي يَتَعاطاها أَهْلُ هذا الدَّرْسِ لِتَكونَ كَالمِهادِ لِما يَعْقُبُهُ:

الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ بَيْنَ الفِطْرِيّ وَالمُكتَسَبِ:

وَقَدْ خاضَ أَهْلُ هذا الدّرْسِ في دِراساتٍ عَمَلِيّةٍ تَتَلَمّسُ مَنْشَأَ هذِهِ الحَرَكاتِ، أَوْ لِنَقُلْ: مَنْشَأَ اللّغَةِ الجَسَديّةِ عامّةً، أَهِيَ الفِطْرَةُ أَمْ الاكْتِسابُ، وَمُسْتَصْفى القَوْلِ في تِلكُمُ المُساءَلاتِ أَنّ بَعْضَ الحَرَكاتِ باعِثُها فِطْرَةُ اللهِ التي فَطَرَ الخَلْقَ عَلَيْها، وَلَعَلَّ أَجْلى مِثالٍ عَلى ذلِكَ الأَطْفالُ وَالصّمُّ وَالبُكْمُ وَالعُمْيُ الذين تَصْدرُ عَنْهمْ إيماءاتٌ وَإِشاراتٌ جَسَدِيّةٌ دونَ أَنْ يَكونوا قَدْ رَأَوْها فَحاكَوْها، كَالابْتِسامَةِ في مَعْنى الفَرَحِ، وَالكِشْرةِ في مَعْنى الحُزْنِ، وَتَقْطيبِ الوَجْهِ في مَعْنى الغَضَبِ، وَهِزّةِ الرّأسِ في مَعْنى القَبولِ، وَأَنّ بَعْضَ تِلكمُ الحَرَكات الجَسَديّةِ الدّالّةِ عَلى مَعانٍ قَدْ تَتَخَلّقُ عِنْدَ المَرْءِ بِالاكْتِسابِ[4]، وَأنّ هذِهِ الحَرَكاتِ المُكْتَسَبةَ تُقسَمُ إِلى قِسْمَيْنِ:

- أوّلُهما أنْ تَكونَ حَرَكاتٍ مُكْتَسَبَةً بِالمُحاكاةِ وَالتّقْليدِ.

---

(1) Pease, Body Language, P.5.

(2) انظر: باكو، لغة الحركات، 110.

(3) انظر: باكو، لغة الحركات، 6.

(4) Pease, Body Language, P.8.

- وَثانيهما أَنْ تَكونَ مُكْتَسَبَةً بِالدُّرْبَةِ وَالمِراسِ، كَالتَّحايا العَسْكَرِيّةِ، وَالغَمْزِ بِطَرفِ العَيْنِ، وَإِشاراتِ الصُّمِّ وَالبُكْمِ المُتَعَلَّمةِ[1].

أَمّا الضَّرْبُ الأَوّلُ مِنَ الحَرَكاتِ –أَعْني الحَرَكاتِ الفِطْرِيّةَ– فَقَدْ تَرَدّدَتْ بَيْنَ سِتّةِ مَعانٍ سُمِّيَتْ بِالانْفِعالاتِ السّتّةِ العالَمِيّةِ:

- وَأَوّلُها البَهْجَةُ.
- وَثانيها الحُزْنُ.
- وَثالِثُها الاشْمِئْزازُ.
- وَرابِعُها الخَوْفُ.
- وَخامِسُها الغَضَبُ.
- وَسادِسُها الدّهْشةُ.

وَالحَقُّ أَنَّ بِمُكْنَةِ المَرْءِ –بِقَطْعِ النّظَرِ عَنْ لَوْنِهِ، وَجِنْسِهِ، وَمَشْرَبِهِ، وَلِسانِهِ– أَنْ يَقْتَنِصَ هذِهِ المَعانيَ بِالفَيْءِ إِلى الإيماءاتِ وَالحَرَكاتِ الفِطْرِيّةِ التي تَظْهَرُ في سِياقِها، وَقَدْ نَهَدَ عالِمُ نَفْسٍ أَمْريكيٌّ إِلى الخَوْضِ في تَأْصيلِ هذِهِ الانْفِعالاتِ السّتّةِ طَلَبًا لِلتّحَقّقِ مِنْ عُمومِيّتِها وَتَعارُفِ أَهْلِ الخَليقَةِ البَشَرِيّةِ عَلَيْها، فَوَزَّعَ صُوَرًا كانَ قَدِ التَقَطَها مُعَبِّرَةً عَنْ تِلكُمُ المَعاني المُتَقَدِّمِ بَيانُها عَلى جَماعاتٍ مِنْ أَجْناسٍ، وَبُلْدانٍ، وَأَعْمارٍ مُتَباينَةٍ، وَكانَتْ صَفْوَةُ القَوْلِ التي أَفْضَتْ إِلَيْها نَتائِجُ مُباحَثاتِهِ دالّةً عَلى أَنّ العَيِّنَةَ تَتَواضَعُ عَلى مَعانيها تَواضُعًا فِطْرِيّاً، فَثَمّ:

93% مِنْهمْ أَجْمَعوا أَمْرَهُمْ عَلى مَعْنى البَهْجَةِ.

و88% أَجْمَعوا عَلى مَعْنى الدَّهْشَةِ.

و83% أَجْمَعوا عَلى مَعْنى الاشْمِئْزازِ.

و81% أَجْمَعوا عَلى مَعْنى الحُزْنِ.

و76% أَجْمَعوا عَلى الخَوْفِ.

و73% أَجْمَعوا عَلى مَعْنى الغَضَبِ[2].

---

(1) انظر: باكو، لغة الحركات، 19.

(2) انظر: باكو، لغة الحركات، 62، وقد أشار Pease إلى ثلاثة علماء درسوا تعابير الوجه لأناس من =

الحَرَكَةُ الجَسَديّةُ بَيْنَ الدّالِّ وَالمَدْلولِ:

لَقَدِ ارْتَضى "دي سوسير" أَنْ يَكونَ لِلكَلِمَةِ جانِبانِ: واحِدٌ مادّيٌّ وَآخَرُ مَعْنَوِيٌّ، أَمّا المادّيُّ فهُوَ الدّالُّ، وَهُوَ الصّورَةُ الصّوْتِيّةُ، وَأمّا المَعْنَويُّ فهُوَ المَدْلولُ، وَهُوَ الصّورَةُ الذِّهْنِيّةُ التي تَنْقَدِحُ في النّفْسِ عِنْدَ وُرودِ الدّالِّ عَلَيْها، وَالحَقُّ أَنَّ الحَرَكَةَ الجَسَدِيّةَ كَذاكَ أَمْرُها؛ إِذْ إِنّ لَها دالاً وَمَدْلولاً.

أمّا الدّالُّ فهُوَ الصّورَةُ التّشْكيلِيّةُ التي تَتَجَلّى عَلَيْها الحَرَكَةُ؛ حَرَكَةُ الكَفِّ، أوِ اليَدِ، أوِ العَيْنِ، أوِ الحاجِبِ، أوِ الوِقْفَةِ... وَأمّا المَدْلولُ فهُوَ الصّورَةُ الذّهْنِيّةُ المَعْنَوِيّةُ التي تَسْتَرْفِدُ دِلالَتَها مِنَ الدّالِّ الحَرَكِيِّ، فَكِلْتاهُما –أعْني الكَلِمَةَ في اللّغَةِ الصّائِتَةِ، وَالحَرَكَةَ في اللّغَةِ الصّامِتَةِ(الجَسَدِيّة)– تَأْتَلِفُ مِنْ دالٍّ وَمَدْلولٍ، وَالمَلْمَحُ الفَرّاقُ بَيْنَهُما غَيْرُ مُتَعَيّنٍ في المَدْلولِ، بَلْ في ماهِيّةِ الدّالِّ؛ إِذْ إِنّهُ في الصّائِتَةِ صَوْتِيٌّ ذو طَبيعَةٍ رَمْزِيّةٍ، وَفي الصّامِتَةِ حَرَكِيٌّ ذو طَبيعَةٍ رَمْزِيّةٍ أَيْضًا.

وَكما كانَ يَحْدُثُ أَنْ يَقَعَ تَحْتَ الكَلِمَةِ مَعْنَيانِ أَوْ أَزْيَدُ، لِتَغْدُوَ مِمّا يَنْتَسِبُ إِلى المُشْتَرَكِ اللّفْظِيِّ كَالعَيْنِ، فَإِنّ الحَرَكَةَ الجَسَدِيّةَ قَدْ يَقَعُ تَحْتَها مَعْنَيانِ أَوْ أَزْيَدُ، فَتَنْتَسِبُ إِلى ظاهِرَةِ "المُشْتَرَكِ الحَرَكِيّ":

- فَهِزّةُ الرّأْسِ يَقَعُ تَحْتَها مَعانٍ مُتَعَدّدةٌ، وَمِنْ ذلِكَ "الطّرَبُ"، أوِ "القَبولُ"، أوِ "الرّفْضُ".
- وَالدّالُّ "فَرْكُ الكَفَّيْنِ" قَدْ يومِئُ بِمَدْلولَيْنِ: أَوّلُهُما أَنَّ صاحِبَ هذِهِ الحَرَكَةِ قَدِ اعْتَراهُ بَرْدٌ فَأتاها، وَثانيهما أَنّهُ فَرِحٌ مُبْتَهِجٌ.
- وَتَحْريكُ أَصابِعِ اليَدِ إِلى الأَعْلى وَالأَسْفَلِ تَحْريكًا مَوْضِعيًّا مَعَ بَقاءِ الإِبْهامِ مَرْفوعةً ذو دِلالاتٍ مُتَعَدّدةٍ، وَمِنْ ذلِكَ أَنّها تَقومُ مَقامَ النِّداءِ، أَوْ تَعالَ، وَقَدْ تَعْني: لَيْسَ لَدَيّ، أَوْ غَيْر مَوْجودٍ، أَوْ تَعْني الرّفْضَ كَقَوْلِنا "لا"، كُلُّ هذا المُحْتَمِلِ لا قِبَلَ لَنا

=

خمس ثقافات متباينة، وقد كانت نتائج دراساتهم تدل على أن الثقافات الخمسة التي أقيمت عليها الدراسة تلتقي على الإيماءات الوجهية نفسها، وهذا أفضى إلى التقرير بأن تلكم الإيماءات مما ينتسب إلى الفطرة التي أودعها الله فينا. انظر: Pease, Body Language, P.8

بِاسْتِشْرافِ مَدْلولِهِ عَلى وَجْهِ الإِحْكامِ وَالتّعْيينِ إِلاّ بِالسِّياقِ الذي يَرِدُ فيهِ هذا الدّالُّ الحَرَكِيّ؛ السِّياقِ الثّقافِيّ، وَالحاليّ، وَالقَرائِنِ الاجْتِماعِيّةِ التي تَحْتَفُّ بِهِ.

- وَحَكُّ الرَّأْسِ حَرَكَةٌ جَسَدِيّةٌ مُشْتَرَكَةٌ تَسْتَدعي مَعانِيَ مَخْصوصَةً في الذِّهْنِ، ومِنْ ذلِكَ أنّها قَدْ تَدُلُّ عَلى أنَّ آتِيَها في رَأْسِهِ قِشْرَةٌ، أَوْ قَملٌ، وَقَدْ تَدُلّ عَلى قَلَقِ المَرْءِ وَاضطرابِهِ، فَيُفْضي هذا الاضطرابُ النَّفْسِيُّ الجَوّانِيُّ إِلى إيماءٍ جَسَدِيٍّ بَرّانِيٍّ، وَقَدْ تَدُلّ –مِنْ وُجْهَةٍ دِلالِيّةٍ أُخْرى- عَلى نَفادِ الصّبْرِ، أَوِ النِّسْيانِ، أَوِ الكَذِبِ.

إِخالُ أنّهُ يَصِحُّ في الفَهْمِ وَيَسْتَقيمُ أَنْ يُقالَ إِنّ المَرْءَ إِذا ما أَرادَ أَنْ يُعَيّنَ مَعْنى حَرَكَةٍ ما فَإِنّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْها في سِياقِها مُتَضافِرَةً مَعَ حَرَكاتٍ أُخْرى، وَلَعَلّنا في هذا المَقامِ نَتَحَدّثُ عَنْ سِياقِ الحالِ الذي يَفْعَلُ في تَشْكيلِ المَعْنى وَتَعْيينِهِ[1].

وَكَما أَنّ المَعْنى الواحِدَ قَدْ يَعْتَوِرُهُ كَلِمَتانِ، بَلْ كَلِماتٌ، لِيَنْشَأَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ التّرادُفُ، فَإِنّ طائِفَةً مِنَ الحَرَكاتِ قَدْ تَلْتَقي عَلى مَعْنًى واحِدٍ، لِيَنْشَأَ بَعْدَ هذا "التّرادُفُ الحَرَكِيُّ"، وَمِنْ ذلِكَ مَعْنى الرَّفْضِ، فَلَهُ دالاّن أَوْ أَزْيَدُ، كَالرّفْضِ بِهِزّةٍ في الرَّأْسِ، وَالرّفْضِ بِالإِشارَةِ بِاليَدِ، وَالرّفْضِ بِرَفْعِ الحاجِبَيْنِ إِلى الأَعْلى مَعَ تَوَسّعِ العَيْنَيْنِ، فَحَرَكَةُ كُلِّ جارِحَةٍ كَفيلٌ أَمينٌ بِتَأْدِيَةِ المَعْنى الذي قَدْ تَأْتي بِهِ اللّغَةُ الصّامِتَةُ.

وَكَما يَشيعُ في اللّغَةِ الكَلامِيّةِ وَجَسَدِ اللّغَةِ ظاهِرَةُ المَحْظوراتِ اللّغَوِيّةِ(Taboo) التي نَتَجافى عَنْها ما اسْطَعْنا؛ ذلِكَ أَنّها مِنَ المُسْتَهْجَنِ المُسْتَقْبَحِ الذي تَمجُّهُ النَّفْسُ، وَيَنْبو عَنْهُ السَّمْعُ، فَإِنَّها تَشيعُ في لُغَةِ الجَسَدِ كَذلِكَ، فَفيها حَرَكاتٌ، وَهَيئاتٌ، وَإِشاراتٌ مُسْتَقْبَحَةٌ تَنْتَسِبُ إِلى المَحْظوراتِ الحَرَكِيّةِ المَطَّرَحَةِ، وَلَعَلَّ إِتْيانَها قَدْ يُفْضي إِلى الوُلوجِ في مَزالِقِ الحَرَجِ الاجْتِماعِيّ، أَوِ الإِشْكالِ.

لَعَلّهُ يَظْهَرُ بِجلاءٍ مِمّا تَقَدّمَ أَنّ بَعْضَ النّظَرِيّاتِ الدِّلالِيّةِ وَالمُعْجَمِيّةِ يُمْكِنُ جِدًّا أَنْ تُطَبَّقَ عَلى لُغَةِ الجَسَدِ، كَالتّرادُفِ، وَالمُشْتَرَكِ، والسّياقِ...

الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ بَيْنَ التّواصُلِ وَالتّفاصُلِ:

وَقَدْ باتَ مُقَرَّرًا، مِمّا تَقَدّمَ قَبْلاً، وَسَيَأتي بَعْدًا، أَنّ لِلْجَسَدِ لُغَةً بَرّانِيّةً تَشي بِأَعْراضٍ نَفْسِيّةٍ جَوّانِيّةٍ، وَتُفيدُ مَعانيَ، وَتُؤَدّي أَغْراضًا، وَكُلُّ هذا يَنْتَسِبُ إِلى بابِ القَوْلِ عَلى

(1) Pease, Body Language, P.17.

التّواصُلِ وَالإبانَةِ، وَلكِنْ، قَدْ يَرِدُ عَلى المَرْءِ أَحْداثٌ كَلامِيّةٌ يَعْتَريها لَبْسٌ وَإِشْكالٌ، وَقَدْ يَقَعُ المَرْءُ في مِضْمارِ الإِلْباسِ وَالتّعْمِيَةِ، وَالحَقُّ أَنَّ هذا اللَّبْسَ أَوِ الإِلْباسَ قَدْ يَقَعانِ في اللّغَتَيْنِ: الصّائِتَةِ وَالصّامِتَةِ. أمّا في الصّائِتَةِ فَمُثُلُ ذلِكَ مُتَكاثِرَةٌ، وَالأَثَرُ بِها مُسْتَفيضٌ، وَقَدْ عَرّجْتُ عَلَيْها في مُسْتَوَياتٍ مُتَباينَةٍ؛ كَاللَّبْسِ الآتي مِنَ التّصْويتِ، وَالتَّصْريفِ، وَالتَّرْكيبِ، وَالمُعْجَمِ، وَالأُسْلوبِ، وَالسِّياقِ[1].

أمّا في الصّامِتَةِ فَقَدْ يُحاوِلُ المَرْءُ أَنْ يَسْتَعينَ بِلُغَةِ الجَسَدِ لِيَقولَ بِها ما لا يُضْمِرُ، وَما يُخْفي صَدْرُهُ أَكْبَرُ، وَأَنّى لَهُ ذلِكَ إلاّ في القَليلِ النّادِرِ؟ "وَالشَّيْءُ المُثيرُ أنّ الكائِنَ البَشَرِيَّ قَليلاً ما يُدْرِكُ أنّ حَرَكاتِهِ، وَإِشاراتِهِ، وَأَوْضاعَهُ، يُمْكِنُ أنْ تومِئَ بِشَيءٍ ما، وَلكِنّ صَوْتَهُ يَحْكي عَنْ شَيءٍ مُغايِرٍ تَمامَ المُغايَرَةِ"[2]، فَالعَقْلُ الإِنْسانِيُّ يَمْتَلِكُ مِفْتاحَ أَمانٍ وَتَحَكّمٍ قَدْ يُسجّلُ انْزِياحًا عِنْدَما يَسْتَقْبِلُ وَسائِلَ صامِتَةً غَيْرَ مُتَوافِقَةٍ أَوْ مُنْسَجِمَةٍ، وَقَدْ ضَرَبَPease مِثالاً عَلى ذلِكَ عِنْدَما تُعَمّي مَلِكاتُ الجَمالِ مَعانيَ مَخْصوصَةً، فَتَسْتَعْمِلُ كُلُّ واحِدَةٍ حَرَكاتٍ جَسَدِيّةً تُكْتَسَبُ بِالتّعَلّمِ وَالدُّرْبَةِ بُغْيَةَ تَقْديمِ انْطِباعٍ ما؛ كَالدِّفْءِ، أَوِ الصّدْقِ، أوِ الجاذِبِيّةِ، أَوْ ... وَقَدْ يَكُنّ قادِراتٍ عَلى بَعْضِ هذا، كَتَزْييفِ حَرَكاتِ الجَسَدِ، وَلكِنّ الجَسَدَ سَيُصْدِرُ إِشاراتٍ عَفْوِيّةً تَسْتَقِلُّ عَنِ الأَفْعالِ المَقْصودَةِ[3]، وَالتّمثيلُ عَلى هذا كَثيرٌ في الأَحْداثِ الكَلامِيّةِ الحَيّةِ، فَكَثيرًا ما نَسْمَعُ أَوْ نَقولُ:

- لِسانُهُ يَقولُ لي أَهْلاً وَسَهْلاً، وَتَعابيرُ وَجْهِهِ بِخِلافِ ذلِكَ.
- لَمْ أَرَ في عَيْنَيْهِ الصِّدْقَ، مَعَ أَنّهُ غَلّظَ أيْمانَهُ.
- حَرَكاتُ هذا الرّجُلِ تَبْعَثُ في نَفْسي الرّيبَةَ.
- أرى أَنّهُ مُتَمارِضٌ، فَحَرَكاتُهُ مُتَصَنَّعَةٌ لا تَدلُّ عَلى زَعْمِهِ.
- هذِهِ ابْتِسامَةٌ كاذِبَةٌ، وَتِلْكَ ضحْكَةٌ صَفْراءُ.

وَمِمّا جاءَ مِنْ نَحْوِ ما تَقَدَّمَ مَنْظومًا قَوْلُ يَزيدَ بْنِ الحَكَمِ الثَّقَفِيّ وَقَدْ رَأى أَنَّ ثَمَّ مَنْ يَبْتَسِمُ في وَجْهِهِ وَما يُخْفي صَدْرُهُ بِالضِّدِّ، مُعَوّلاً عَلى ما يَرى مِنْ جَسَدِهِ مِنْ أَماراتٍ، وَإِشاراتٍ تَنْقُضُ قَوْلَهُ، وَزَعْمَهُ، وَدَعْواهُ العَريضَةَ:

---

(1) انظر كتابي: ظاهرة اللبس في العربية: جدل التواصل والتفاصل، ط1، دار وائل، عمان، 2003م.

(2) Pease, Body Language, P.7.

(3) Pease, Body Language, P.21.

تُكاشِرُني كُرْهًا كَأَنَّكَ ناصِحٌ وَعَيْنُكَ تُبدي أَنَّ صَدْرَكَ لي دَوِ
لِسانُكَ لي أَريٌّ وَغَيبُكَ عَلقَمٌ وَشَرُّكَ مَبسوطٌ وَخَيرُكَ مُلتَوِ[1].

وَيَظْهَرُ مَفْهومُ هذِهِ المُباحَثَةِ؛ مُباحَثَةِ المُغايَرَةِ بَيْنَ المَعاني المُتَأَتِّيَةِ مِنْ لُغَةِ الجَسَدِ وَالمَعاني المُتَأَتِّيَةِ مِنْ لُغَةِ الكَلامِ فيما أَنْشَدَهُ الدّولابِيُّ، فَقَدْ رَأى العَيْنَيْنِ قَدْ أَبْدَتا ما كانَ يُخْفي مَنْ يَدَّعي الضِّدَّ:

أَيا رُبَّ مَنْ يُخْفي العَداوَةَ صَدْرُهُ وَتُظْهِرُ عَيْناهُ الذي كانَ يَكْتُمُ
إِذا ما رَآني مُقْبِلاً قالَ مَرْحَبًا وَفي عَيْنِهِ وَالصَّدْرِ صابٌ وَعَلْقَمُ[2]

وَمِثْلُهُ قَوْلُ ابنِ أَبي أُمَيَّةَ:

كَمْ فَرْحَةٍ كانَتْ وَكَمْ تَرْحَةٍ تَخَرَّصَتْها لي فيكَ الظُّنونُ
إِذا قُلوبٌ أَظْهَرَتْ غَيْرَ ما تُضْمِرُهُ أَنْبَتْكَ عَنْها العُيونُ[3]

وَالوَجْهُ هُوَ الأَداةُ الرَّئيسَةُ لِتَصنّعِ الحَرَكاتِ وَالتَّعْميةِ وَالتَّغْطِيَةِ عَنْ الضَّميرِ المُسْتَتِرِ في النَّفْسِ، فَفيهِ العَيْنانِ، وَالشَّفَتانِ، وَالحاجِبانِ، وَالجَبينانِ، وَالجَبْهَةُ، وَالرَّأسُ، وَالشَّعْرُ، وَالأَنْفُ، وَالفَمُ، كُلُّ ذلِكَ ذو أَثَرٍ ظاهِرٍ في مُحاوَلَةِ إِظْهارِ مَعانٍ مَصْنوعَةٍ تُخْفي مُرادَ النَّفْسِ المُستَتِرَ، كَالتَّبَسُّمِ، أَوِ التَّجَهُّمِ، أَوِ الضّحِكِ، أَوِ التَّراخي، وَحَسْبُنا اسْتِذْكارُ مَقولَةِ المَعاني السّتِّ العالَمِيّةِ التي تَتجلّى في الوَجْهِ.

وَقَدْ يَعْمِدُ المَرْءُ إِلى الهَيْئاتِ العامّةِ لِلتَّعْمِيَةِ وَالتَّغْطِيَةِ، وَمِنْ ذلِكَ المِشْيَةُ، وَالجِلْسَةُ، وغَيْرُ ذلِكَ مِمّا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ مَدْخَلاً مِنْ مَداخِلِ الإِلْباسِ وَالتَّعْمِيةِ الجَسَدِيَّةِ التي تُتَّخَذُ لِلكَذِبِ وَإِخْفاءِ الحَقائِقِ، أَوْ تُتَّخَذُ في التَّمْثيلِ وَالأَداءِ المَسْرَحِيّ، فَكُلُّ ذلِكَ حَرَكاتٌ جَسَديّةٌ مُغْتَصَبَةٌ يَجتَلِبُها المُمثِّلُ في أَداءِ عَرْضِهِ، فَيَظْهَرُ وَقْتَ الغَضَبِ غَضْبانَ أَسِفًا قَدِ اعْتَرى وَجْهَه ما يَسْنُدُ هذا المَعْنى وَيُصَدِّقُهُ، كَذلِكَ في كُلِّ المَعاني الأُخْرى التي يُؤَدّيها

(1) الشعر ليزيد بن الحكم الثقفي، وقد أورده: الخرائطي، اعتلال القلوب، 178، والأصفهاني، الأغاني، 343/12، والبغدادي، خزانة الأدب، 132/3.

(2) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 178، وقد نسبه لمحمد بن جعفر الدولابي.

(3) انظر: الآبي، الأنس والعرس، 177-178.

تَمْثيلاً غَيْرَ حَقيقِيٍّ.

وَمِنْ وُجْهةٍ ثالِثَةٍ قَدْ يَعْمِدُ المَرْءُ في تَصَنّعِهِ إِلى المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ[1] لِبَثِّ مَعْنًى مَخْصوصٍ يُريدُهُ، كَأَنْ يَزْعُمَ أَنّهُ فَقيرُ الحالِ، فَيَتَزَيّا بِزِيِّ الفُقَراءِ، أَوْ أَنّهُ ابنُ طَبَقَةٍ تَنْتَسِبُ إِلى عِلْيَةِ القَوْمِ، فَيَأْخُذ بِالأَسْبابِ الجَسَدِيَّةِ المادِّيّةِ التي تُعينُه عَلى تَحْقيقِ هذا الزَّعْمِ.

وَصَفْوَةُ المُستَخْلَصِ مِمّا تَقَدَّمَ آنِفًا أَنَّ المَرْءَ يَمْلِكُ مِنْ إِمْكاناتِ الإِلْباسِ وَالتّفاصُلِ ما يَمْلِكُهُ مِنْ إِمْكاناتِ الإِبانَةِ وَالتّواصُلِ، وَقَدْ يَسْتَعينُ عَلى ذلِكَ بِالرّافِدَيْنِ: اللَّفْظِيِّ المُتَخلِّقِ مِنَ الكَلامِيّاتِ، وَالجَسَدِيِّ المُتَخَلِّقِ مِنَ الصَّمْتِيّاتِ وَالحَرَكِيّاتِ، وَفي الأَخيرِ يَعْمِدُ المَرْءُ إِلى ثَلاثَةِ مَداخِلَ رَئيسَةٍ لِتَحْقيقِ مَطْلَبِ الإِلْباسِ، وَالتّفاصُلِ، وَالتّعْمِيَةِ، وَهِيَ: الحَرَكاتُ، وَالهَيْئاتُ، وَالمُتَمِّماتُ، وَلِذلِكَ يُمْكِنُ أَنْ تُتَناوَلَ الحَرَكاتُ الجَسَدِيَّةُ وَالهَيئاتُ العامَّةُ مِنْ وُجْهةٍ أُخْرى، وَهِيَ تَرَدُّدُها بَيْنَ الحَقيقَةِ الواقِعَةِ وَالتّصَنُّعِ الذي يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنّهُ زَعْمٌ جَسَدِيٌّ حَرَكِيٌّ، وَالزَّعْمُ أَخو الكَذِبِ.

وَلِعلَماءِ الفِراسَةِ قَصبُ السَّبْقِ في بَيانِ ذلِكَ، فَقَدْ أَتى ابنُ أَبي طالِبٍ في كِتابِ "السّياسَةُ في عِلمِ الفِراسَةِ" عَلى هذِهِ الظّاهِرَةِ؛ ظاهِرَةِ التّصَنُّعِ الجَسَدِيِّ مُصَرِّحًا بِأَنَّ عَلى المُتَدبِّرِ أَنْ يُفَرِّقَ بِعَيْنِ الرّوِيّةِ وَالتّبَصّرِ بَيْنَ الغَريزَةِ وَالتّصَنُّعِ، مُلْمِحًا بِأَنَّ التّصنّعَ قَدْ يَكونُ بِالقَوْلِ وَالزِّيِّ وَالفِعْلِ، قائِلاً في عِبارَةٍ مُبينَةٍ مُعْجِبَةٍ: "يَنْبَغي أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الغَريزَةِ وَالتّصَنُّعِ، فَإِنَّ العُقَلاءَ قَدْ يَلْتَمِسونَ إِخْفاءَ ما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ طَبائِعِ الشَّرِّ، وَإِظْهارِ مَحاسِنَ لَيْسَ لَها في طِباعِهِمْ أَصْلٌ"[2]، أَمّا أَهْلُ التّصَنّعِ عِنْدَهُ فعَلى ثَلاثَةِ أَوْجُهٍ:

- أَحَدُها تَغْييرُ الخَلْقِ، كَتَحْويلِ الشَّعْرِ مِنْ لَوْنِهِ إِلى لَوْنِ غَيْرِهِ، ومِنْ هَيْئَةِ نَباتِهِ إِلى هَيْئَةِ غَيْرِها، وَكَتَغييرِ سَحَناتِ الجُلودِ، وَكَسْرِ العَيْنَيْنِ، وَالانْحِناءِ، وَالاسْتِواءِ، وَأَشْباهِ ذلكَ.
- وَثانيها تَغْييرُ الزِّيِّ، كَتَشَبُّهِ الإِنْسانِ بِلُبْسِ ثِيابِ آخَرَ تَصَنّعًا، وَحَمْلِ أَداةِ غَيْرِهِ، وَكَالتّشَبُّهِ بِالنِّساءِ وَالفُسّاقِ.
- وَثالِثُها تَغْييرُ الأَقْوالِ وَالأَفْعالِ؛ كَالقِراءَةِ، وَالتّسْبيحِ، وَالصّلاةِ، وَإِخْفاءِ اللّغَةِ بِغَيْرِها،

(1) المتممات المساندة ترجمة لما يسمى "الإكسسوارات"؛ كالنظارة، والسيجارة، والسيجار، والقلم، والهاتف، والعصا، واللباس، والحذاء، وسيعقد لها مباحثة فرعية قائمة برأسها بعدا.

(2) انظر: ابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 27.

أوِ ادّعـاءِ العِشْـقِ، وَالرُّعْـبِ، وَإِظْهـارِ القَـوْلِ ليَكـونَ بِـهِ كَريمًـا، وَكَتَشَـدّدِ المُخَنَّـثِ، وَتَضاعُفِ ذي القُوّةِ، وَإِظْهار الحَياءِ وَالشَّجاعَةِ، "وَما أَشْبَهَ ذلِكَ مِنَ التَّطَبُّعاتِ التي تَسْتُرُ المَطْبوعَ، فَتَأمّلوا ما قُلتُهُ، وَاعْلَموا أَنَّ مُفاجَآتِ الأُمورِ بَغْتَةً إِذا وَرَدَتْ عَلى أَهْلِ التّصَنُّعِ رَدَّتْهُمْ إِلى طِباعِهِمْ، وَأَزالَتْ عَنْهُمْ لِباسَ التّصَنُّعِ الذي تَسَتَّروا بِهِ، كَذلِكَ إِذا اطْمَأنّوا وَاسْتَرْسَلَتْ نُفوسُهمْ"[1].

الحَرَكَة الجَسَديّةُ بَيْنَ العامّ وَالخاصّ:

لِيَتَخَيّلِ المَرْءُ نَفْسَهُ عَلى صَعيدٍ غَرْبِيٍّ ناءٍ، فَقَدْ يَقَعُ في نَفْسِهِ مَعانٍ وَدِلالاتٌ باعِثُها الحَرَكاتُ وَالإِشاراتُ التي يَراها مِمَّنْ تَصْدُرُ عَنْهُمْ، وَالذي يَظْهَرُ أنّ تِلكُمُ المَعانِيَ الآتِيَةَ مِنْ "لُغَةِ الجَسَدِ" مِمّا يَنْتَسِبُ إِلى مُعْجَمِهِ المَعْنَوِيّ، كَالمَعاني الانْفِعالِيّةِ السّتّةِ التي أَتَيْنا عَلَيْها آنِفًا، وَلكِنَّهُ قَدْ يَقِفُ وُجاهَ حَرَكاتٍ أُخْرى مِمّا هُوَ خارِجٌ عَنْ مِضْمارِ مُعْجَمِ ثَقافَتِهِ، وَمِنْ هُنا لا بُدَّ في دَرْسِ "لُغَةِ الجَسَدِ" مِنَ التّلْميحِ إِلى أَنّ ثَمّ لُغَةً عالَمِيّةً، وَثانِيَةً خاصّةً تَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ الثّقافاتِ، وَمِنْ ذلِكَ حَرَكَةٌ جَسَديّةٌ حَمّالَةٌ لِثَلاثِ دِلالاتٍ تَتَبايَنُ بِتَبايُنِ الثّقافَةِ وَالدّيارِ، وَعِمادُها عَقْدُ دائِرَةٍ مُغْلَقَةٍ بِالإِبهامِ وَالسّبّابَةِ:

- فَفي أَمريكا تَدُلُّ عَلى مَعْنى المُوافَقَةِ، أَوْ عَلى أنّ الأَمْرَ أوِ الشّيْءَ قَدْ باتَ مُعَدًّا مُسْتَحْكِمًا.
- أمّا عَلى صَعيدٍ آخَرَ، كَفَرنسا، فَهِيَ مُبِينَةٌ عَنْ مَعْنى "لا شَيءَ"، أَوْ "هذا صِفْرٌ"، أَوْ "هذا باطِلٌ".
- وعَلى صَعيدٍ ثالِثٍ كَاليابانِ، تُلْمِحُ هذِهِ الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ إِلى النّقودِ[2].

وَفي مَدينَةِ "صوفيا" يَرْوونَ الحِكايَةَ التي أَفْضى فيها تَبايُنُ مَعاني الحَرَكاتِ تَبايُنًا

(1) انظر: ابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 27.

(2) انظر: باكو، لغة الحركات، 12- 14، و Pease, Body Language, P.12-13

ثَقافِيًّا خاصًّا إِلى إِعْدامِ شاعِرٍ وَتَشْويهِ آخَرَ، فَفي "بُلْغاريا" تَشيعُ حَرَكَةُ المُوافَقَةِ القائِلَةُ "نَعَمْ" عَلى نَحْوٍ مُغايِرٍ لِما نَعْهَدُهُ وَنَتَعَوَّدُهُ؛ ذلِكَ أَنّها تَكونُ بِهَزِّ الرَّأْسِ مِنْ جانِبٍ إِلى آخَرَ، كَما لَوْ أَنَّنا نَقولُ "لا"، فَهَزُّ الرَّأْسِ المُرادُ بِهِ "نَعَمْ" عِنْدَ غَيْرِهِمْ يُرادُ بِهِ "لا" عِنْدَهُمْ، وَهَزُّ الرَّأْسِ المُرادُ بِهِ "لا" يُرادُ بِهِ "نَعَمْ" عِنْدَهُمْ[1]، وَلَمّا كانَ النّازِيّونَ الأَلْمانُ يَعْقِدونَ لِلشّاعِرِ البُلْغارِيِّ الشَّهيرِ "نيكولا فابتساروف"، وَهُوَ شاعِرُ المُقاوَمَةِ وَالبُطولَةِ، مُحاكَمَةً، طَلَبَتْ عائِلَتُهُ شَهاداتٍ يُدْلي بِها مُثَقَّفونَ بُلغار تُثْبِتَ أَنَّ "فابتساروف" شاعِرٌ مَشْهورٌ، وَقَدْ زُعِمَ وَقْتَ ذاكَ أَنَّ تِلكَ الشّهاداتِ سَتُؤْذِنُ بِتَخْفيفِ الحُكْمِ عَلَيْهِ، فَأُتِيَ بِالشّاعِرَةِ البُلْغارِيّةِ "إليزافتا باغريانا" لِلإِدْلاءِ بِشهادَتِها، وَلَمّا سَأَلَتِ المَحْكَمَةُ الهِتْلَرِيّةُ الشّاعِرَةَ "باغريانا": "هَلْ فابتساروف شاعِرٌ مَعْروفٌ؟" أَجابَتْ بِإِشارَةِ المُوافَقَةِ الجَسَدِيّةِ العالَمِيّةِ القائِلَةِ "نَعَمْ"، وَالتي تَعْني بِتَشْكيلِها الحَرَكِيِّ في بُلغاريا "لا"، فَقُيِّدَتْ تِلكَ الشَّهادَةُ عَلى أَنّها نَفْيٌ وَفاءً بِالمَعْنى البُلْغارِيِّ الخاصِّ، وَأُعْدِمَ الشّاعِرُ الثّائِرُ بَناءً عَلى ذلِكَ سَنَةَ 1942م.

وَظَلَّتْ هذِهِ الحِكايَةُ مِمّا يَتَرَدّدُ عَلى أَلْسِنَةِ النّاسِ تَرَدّدًا أَفْضى إِلى تَمْجيدِ الشّاعِرِ، وَتَحْييدِ الشّاعِرَةِ "باغريانا" عِلْمًا بِأَنّها لَمْ تَقْصِدْ ذلِكَ، وَأَنّها مِنْ أَهَمِّ الشُّعَراءِ البلغارِ في القَرْنِ العِشْرينَ[2]، وَقَدْ ظَلَّتْ "باغريانا" تُحامي عَنْ نَفْسِها زاعِمَةً بِأَنَّها كانَتْ تَدْرُسُ في فَرَنسا، وَأَنَّها تَعَلَّمَتْ مِنَ الفَرَنْسِيّينَ إِشارَتَهُمْ تِلْكَ، وَتَعَوَّدَتْها كَبَقِيّةِ شُعوبِ العالَمِ، وَأَنَّها أَتَتْ تِلْكَ الحَرَكَةَ في المَحْكَمَةِ جَوابًا عَلى السّؤالِ، وَأَنّها كانَتْ تَعْني "نَعَمْ" بِالفَرَنْسِيّةِ، لا "نَعَمْ" بِالبُلْغارِيّةِ[3].

الحَرَكَة الجَسَدِيَّة بَيْنَ الإِراديّةِ وَالتِّلْقائِيّةِ:

وَإِذا ما تَبَصَّرَ الدّارِسُ في الحَرَكاتِ الجَسَديّةِ التي تَصْدرُ عَنْهُ فَإِنّهُ سَيَجِدُها مُنْتَسِبَةً إِلى شِقَّيْنِ مُتقابِلَيْنِ:

- أَحَدُهُما إِرادِيٌّ.

---

(1) انظر: باكو، لغة الحركات، 14.

(2) انظر: عز الدين المناصرة، علم الشعريات، 588.

(3) ذكر لي عز الدين المناصرة أنه اجتمع بشقيقة الشاعر "راينا فابتساروفا"، وسمع القصة منها، وانظر كذلك: شعرية المنهج السيميائي، الفصل الثالث عشر من كتابه "علم الشعريات"، 588.

- وَثانيهما تِلْقائِيٌّ غَريزِيٌّ.

أَمّا الحَرَكاتُ الجَسَديّةُ الإرادِيّةُ فَهِيَ مِمّا يَقْصِدُ إِلَيْهِ الإِنْسانُ قَصْدًا، فَيَسْتَعينُ بِها عَلى أَداءِ مُرادِهِ وَتَجْلِيَتِهِ، وَمِنْ ذلِكَ إِشارَةُ تَعْيينِ المَكانِ بِاليَدِ أَوِ الإِصْبَعِ، أَوْ إِشارَةُ التَّصامُمِ آنَ سَماعِ صَوْتٍ مُزْعِجٍ أَوْ مَكْروهٍ مُسْتَقْبَحٍ، وَعِمادُها وَضْعُ اليَدَيْنِ أَوِ الأَنامِلِ في الأُذُنَيْنِ، كَذلِكَ حَكُّ الرَّأْسِ، وَفَتْلُ الأُذُنِ، وَضَرْبُ الأَرْضِ بِالرِّجْلِ، وَإِشارَةُ اليَدِ المُنادِيَةِ القائِلَةِ "تَعالَ"، وَإِشارةُ اليَدِ الطّالِبَةِ المُسْتَنْطِيَةِ، وَالحَقُّ أَنَّ ذلِكَ كَثيرٌ كَثْرةً ظاهِرَةً، وَكُلُّ ما تَقَدَّمَ حَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ إِرادِيّةٌ حَمّالةٌ لِدِلالاتٍ.

أَمّا الضَّرْبُ الثّاني، وَهُوَ بِخِلافِ ما تَقَدَّمَ، فَالحَرَكاتُ الجَسَدِيَّةُ التِّلْقائِيّةُ، وَالمَقْصِدُ المُتَعيِّنُ مِنْها أَنّها الحَرَكاتُ التي لا أَثَرَ لإِرادَةِ المَرْءِ في تَخَلُّقِها، وَتَجَلّيها في وَجْهِهِ وَجَوارِحِهِ، وَمِنْ ذلِكَ ما يَظْهَرُ في الوَجْهِ مِنْ دِلالاتٍ عَلى وَجَلِ الوَجِلِ، وَخَجَلِ الخَجِلِ، فَاحْمِرارُ الوَجْهِ إيماءَةٌ جَسَديّةٌ تِلْقائِيّةٌ تَتَخَلّقُ في الوَجْهِ تَخَلّقًا غَيْرَ مَقْصودٍ، ولَيْسَ بِمُكْنَةِ المَرْءِ صَدُّها، وَمَنِ اسْطاعَ إِلى ذلِكَ سَبيلاً فَلَنْ يَكونَ ذلِكَ طَويلاً البَتَّةَ.

بَيْنَ لُغَةِ الجَسَدِ وَاللّغَةِ الإِشارِيّةِ:

وَلَعَلَّهُ –مِنْ وجْهَةٍ أُخْرى– يَحْسُنُ إِقامَةُ بَوْنٍ بَيْنَ لُغَةِ الجَسَدِ وَاللّغَةِ الإِشارِيّةِ (Sign Language)؛ إِذْ إِنّ الأَخيرَةَ غَدَتْ مُصْطلَحًا ذا لُحْمَةٍ وُثْقى بِلُغَةِ الصُّمِّ وَالبُكْمِ، وَالحَقُّ أَنّها ذاتُ نَسَبٍ حَميمٍ بِهذِهِ المُباحَثَةِ، فَهِيَ قائِمَةٌ عَلى حَرَكَةِ الجَسَدِ؛ كَتَشْكيلِ الأَيْدي الحامِلَةِ تِسْعَ عَشْرَةَ قيمَةً دِلالِيّةً، وَمَكانِ النّطْقِ الحامِلِ اثْنَتَي عَشْرَةَ قيمَةً دِلالِيّةً، كَالخَدِّ، وَالحاجِبِ، وَاليَدِ العُلْيا،...، وَالحَرَكَةِ الحامِلَةِ لأَرْبَعَةٍ وَعِشْرينَ مَغْزًى[1]، وَاللاّفِتُ لِلنَّظَرِ أَنَّ اللّغاتِ الإِشارِيّةَ كَثيرَةٌ مُتَباينَةٌ تَزيدُ عَلى أَرْبَعَةِ آلافِ لُغَةٍ في العالَمِ، وَمِنْ شَواهِدِ هذا التّبايُنِ اللّغَةُ الإِشارِيّةُ الأَمريكِيّةُ(ASL) وَاللّغَةُ الإِشارِيّةُ البريطانِيّةُ(BSL)، فَهُما مُخْتَلِفَتانِ إِلى حَدِّ أَنَّ مُسْتَعْمِلَ إِحْداهُما قَدْ لا يَفْهَمُ الأُخْرى[2].

وَالحَقُّ أَنَّ اللّغَةَ الإِشارِيّةَ لُغَةٌ قائِمَةٌ بِرَأْسِها بِاعْتِبارِها مَدْخَلاً رَئيسًا لِتَعْليمِ الصّمِّ تَتَحَكَّمُ بِها أُسُسٌ، وَتُنَظِّمُها قَوانينُ، وَقَدِ اعْتَرَفَتِ الدّوَلُ التي تُسَمَّى مُتَطَوِّرَةً بِها بِالنّظَرِ

(1) انظر: نازك عبد الفتاح، مشكلات اللغة والتخاطب في ضوء علم اللغة النفسي، 30.

(2) انظر: مايكل كورباليس، في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم، 127.

إِلَيْها عَلى أنّها لُغَةُ أَقَلّيّاتٍ[1]، فَقَدْ صارَتْ فيها كُلُّ حَرَكَةٍ مَخْصوصَةٍ تُتَعَلَّمُ وَلا تُكتَسَبُ حَمّالةً لِدِلالَةٍ لا يَهْتَدي إِلى مَعْناها إِلاّ أَهْلُ التّواضُعِ، وَأَصْبَحَ فيها –أَعْني في اللّغَةِ الإِشاريّةِ– دالٌّ حَرَكِيٌّ، وَمَدْلولٌ مَعْنَوِيٌّ، وَيَجْمَعُ هذا كُلَّهُ مُعْجَمٌ خاصٌّ[2].

وَالظّاهِرُ أَنَّ هذِهِ اللّغَةَ تَقومُ عَلى مَلْحَظِ الاعْتِياضِ، أَعْني فَلْسَفَةَ العَيْنِ بَدَلَ الأُذُنِ[3]، وَقَدْ أُشيرَ إِلى أَنّها قائِمَةٌ عَلى التّدْريبِ البَصَرِيّ عَلى حَرَكاتِ الشِّفاهِ أَثْناءَ التّخاطُبِ، وَلَها إِشْكالِيّاتٌ، وَقَدْ أَشارَتِ الدّراساتُ إِلى أَنَّ ثُلُثَ الدِّلالَةِ قَدْ يُسْتَقى مِنْ قِراءَةِ الشِّفاهِ لِلشّخْصِ المُتَدَرِّبِ الذّكِيِّ، أَمّا الباقي فَهُوَ مَحْضُ اسْتِنْتاجٍ[4].

قِسْما إِشاراتِ الصّمِّ التّواصُلِيّةِ:

وَقَدْ قُسِّمَتِ الإِشاراتُ التي يَسْتَعْمِلُها الصُّمُّ إِلى قِسْمَيْنِ:

- أَوّلُها وَصْفِيّةٌ.
- وَثانيها غَيْرُ وَصْفِيّةٍ.

أَمّا الوَصْفِيّةُ فَهِيَ الإِشاراتُ اليَدَوِيّةُ التي تَصِفُ فِكْرَةً ما، أَوْ شَيْئًا، وَتُحاوِلُ أَنْ تَجْعَلَهُ مُشَخَّصًا مُمَثّلاً مَرْسومًا بِاليَدِ؛ وَذلِكَ نَحْو "رَفْعِ اليَدِ" لِلتَّعْبيرِ عَنِ الطّولِ، أَوْ "فَتْحِ الذِّراعَيْنِ" لِلتَّعْبيرِ عَنِ الكَثْرَةِ، أَوْ تَضْييقِ المسافَةِ بَيْنَ الإِبْهامِ وَالسّبّابَةِ لِلدِّلالَةِ عَلى الصِّغَرِ.

أَمّا غَيْرُ الوَصْفِيّةِ فَهِيَ الإِشاراتُ الخاصّةُ الحَمّالاتُ لِدِلالاتٍ خاصّةٍ تَعارَفَ عَلَيْها الصّمُّ الذينَ تَعَلّموها، فَانْعَقَدَ عَلَيْها إِجْماعُهُمْ، فَصارَتْ مِنْ خاصِّ تَعْبيرِهِمُ الحَرَكِيِّ الدّالِّ عَلى مَعانٍ، وَمِنْ ذلِكَ أَنَّ الإِشارَةَ إِلى الأَعْلى هِيَ لِلدِّلالَةِ عَلى "شَيْءٍ حَسَنٍ"، وَأَنَّ الإِشارَةَ بِالإِصْبَعِ إِلى الأَسْفَلِ لِلدِّلالَةِ عَلى شَيْءٍ رَديءٍ[5].

أَمّا الأُسُسُ التي تَنْبَني عَلَيْها الإِشاراتُ الوَصْفِيّةُ فَثَلاثَةٌ:

---

(1) انظر: سمير دبابنة، نافذة على تعليم الصم، 196.

(2) انظر: ماجدة سيد عبيد، القاموس الإشاري للصم، ط1، نشر على نفقة المؤلفة، جامعة الملك سعود، الرياض، 1992م.

(3) انظر: دبابنة، نافذة على تعليم الصم، 198.

(4) انظر: دبابنة، نافذة على تعليم الصم، 198-199.

(5) انظر: ماجدة عبيد، السامعون بأعينهم، 252.

- أَوَّلُها زَمَنُ الإِشارَةِ.
- وَثانيها تَشْكيلُ الإِشارَةِ.
- وَثالِثُها حَرَكَةُ اليَدَيْنِ.

أَمّا زَمَنُ الإِشارَةِ فَيَتَعَيّنُ بِمَكانِ حَرَكَةِ المُتَكَلِّمِ بِيَدَيْهِ، فَإِذا ما كانَتِ الإِشارَةُ أَمامَ جَسَدِهِ فَدِلالَتُها عَلى الزَّمَنِ الحاضِرِ في الغالِبِ، وَأَما إِذا كانَتْ قَدْ أُدِّيَتْ خَلْفَ جَسَدِهِ أَوْ تِلْقاءَ ظَهْرِهِ، فَهِيَ دالّةٌ عَلى فِعْلٍ ماضٍ كانَ قَدْ وَقَعَ.

أَمّا تَشْكيلُ الإِشارَةِ فَيُؤَدّى إِمّا بِيَدٍ واحِدَةٍ، أَوْ بِكِلْتا اليَدَيْنِ، فَإِذا ما أَرادَ أَنْ يومِئَ إِلى كُرْسِيٍّ، أَوْ طاوِلَةٍ فَقَدْ يُشيرُ إِلى ذلِكَ بِيَدِهِ وَهِيَ ماثِلَةٌ أَمامَ السّامِعِ بِعَيْنِهِ، أَما إِذا لَمْ تَكُنْ مَوْجودَةً ماثِلَةً أَمامَ ناظِرَيْهِ، أَوْ كانَ الشَّيْءُ مَعْنَوِيًّا مُجَرَّدًا غَيْرَ مَحْسوسٍ، فَقَدْ يَعْمِدُ إِلى التَّوْصيفِ الإِشارِيِّ وَالحَرَكِيِّ التَّمْثيلِيِّ حَتّى يَجْعَلَ الشَّيْءَ ماثِلاً في ذِهْنِ السّامِعِ بِعَيْنِهِ.

أَمّا حَرَكَةُ اليَدَيْنِ فَلا يَتِمُّ مَعْنى الإِشارَةِ إِلاّ بِتَحْريكِ اليَدِ أَوِ اليَدَيْنِ في اتِّجاهٍ مُعَيَّنٍ، فَلِرَسْمِ مَعْنى الشُّرْبِ مَثَلاً توضَعُ كَفُّ اليَدِ اليُمْنى تَحْتَ الفَمِ، ثُمَّ تُحَرَّكُ اليَدُ بِاتِّجاهِ الفَمِ مَرّاتٍ، كَما لَوْ أَنَّ المُتَكَلِّمَ يَصُبُّ الماءَ في فيهِ بِيَدِهِ[1].

أَبْجَدِيّةُ الأَصابِعِ الإِشارِيّةُ العَرَبِيّةُ:

وَقَدِ ابْتَدَعَ القائِمونَ عَلى رِعايَةِ الصّمِّ، وَالمُنْتَسِبونَ إِلى هذا الدَّرْسِ، أَبْجَدِيّةً تُصَوِّرُ كُلَّ حَرْفٍ مِنْ حُروفِ الهِجاءِ العَرَبِيِّ تَصْويرًا حَرَكِيًّا عِمادُهُ اليَدُ عامّةً، وَالأَصابِعُ خاصّةً، وَقَدْ أُسْبِغَ عَلَيْها اسْمُ "أَبْجَدِيّةِ الأَصابِعِ الإِشارِيّةِ العَرَبِيّةِ"، وَقَدْ وُصِفَتْ فيها جَميعُ الحُروفِ بِما في ذلِكَ التّاءُ المَرْبوطَةُ، وَالهَمْزَةُ المُنْفَرِدَةُ، وَالهَمْزَةُ عَلى الأَلِفِ وَالواوِ وَالياءِ، وَقَدْ عُبِّرَ عَنْ كُلِّ ذلِكَ بِأَصابِعِ اليَدِ اليُمْنى، أَمّا اليُسْرى فَيُفاءُ إِلَيْها لِلتَّعْبيرِ عَنْ حَرَكاتِ التَّشْكيلِ المُشْتَمِلَةِ عَلى الضّمّةِ، وَالكَسْرَةِ، وَالفَتْحَةِ، وَالتَّنْوينِ، وَالشَّدّةِ، وَقَدْ قامَ وَصْفُ هذِهِ الأَبْجَدِيّةِ الحَرَكِيّةِ التَّمْثيلِيّةِ عَلى اعْتِباراتٍ مُتَعَدِّدَةٍ أَهَمُّها هَيْئَةُ اليَدِ، كَأَنْ تَكونَ عَموديّةً أَوْ أُفُقِيّةً، وَكَذلِكَ عَلى اتِّجاهِ راحَةِ اليَدِ، وَاتِّجاهِ ظَهْرِ اليَدِ، وَاتِّجاهِ الأَصابِعِ بِالنِّسْبَةِ إِلى السّامِعِ بِعَيْنِهِ[2]، وَفي الرُّسومِ التَّصْويرِيّةِ الآتِيَةِ مُسْتَغْنًى عَنِ الشَّرْحِ النَّظَرِيِّ:

(1) انظر: ماجدة عبيد، السامعون بأعينهم، 256.

(2) انظر ما قيل عنها: مصطفى القمش، الإعاقة السمعية، 88، وأحمد اللقاني، وأمير القرشي، مناهج الصم، 331.

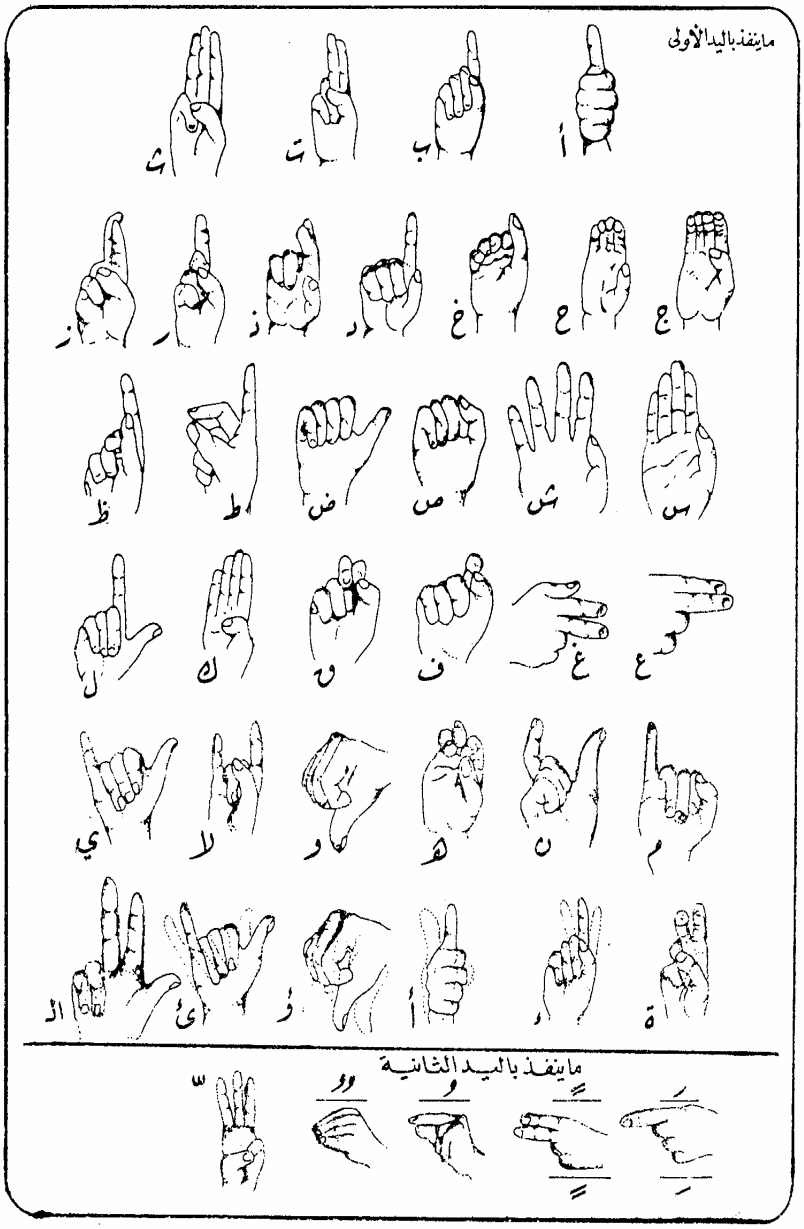

أَشْكالُ التَّواصُلِ في لُغَةِ الإِشارَةِ:

وَلِلتّواصُلِ في هذا المِضْمارِ طَرائِقُ شَتّى يُعْتَمَدُ عَلَيْها، وَأَهَمُّها:

- التّواصُلُ الشَّفَوِيُّ (Oral Communication).
- التّواصُلُ اليَدَوِيُّ (Manual Communication).

- التّواصُلُ الكُلّيُّ(Total Communication).

أَمّا التّواصُلُ الشَّفَوِيُّ فَالمَقْصِدُ المُتَعَيّنُ مِنْهُ الإيماءاتُ وَالإِلْماحاتُ المُتَشَكِّلَةُ مِنْ حَرَكَةِ شَفَتَي المُتَكَلِّمِ، وَيَتَضَمّنُ هذا الأُسْلوبُ التّواصُلِيُّ اسْتِعْمالَ ما تَبَقّى مِنَ السَّمْعِ، وَقَراءَةَ الشِّفاهِ (Lip Reading). أَمّا قِراءَةُ الكَلامِ (Speech Reading) فَيُعْنى بِها تَفْسيرُ التّواصُلِ المَنْطوقِ بَصَرِيًّا، وَثَمَّ عَوامِلُ مُتَضافِرَةٌ تَعْمَلُ عَلى وُضوحِ الكَلامِ أَوَّلُها دَرَجَةُ وُضوحِ الكَلِماتِ، وَسَلامَةُ الفَمِ، وَالأَسْنانِ، وَالشِّفاهِ مِنَ العُيوبِ، وَثانيها سُرْعَةُ المُتَكَلِّمِ، وَثالِثُها تَشابُهُ بَعْضِ الأَصْواتِ الكَلامِيّةِ في المَخارِجِ وَالصِّفاتِ؛ كَالميمِ وَالباءِ، وَتَشابُهُ بَعْضِ الكَلِماتِ في الشّفَوِيّةِ؛ وَذلِكَ نَحْو "مَدى"، وَ"بَدا"، وَرابِعُها تَبايُنُ الأَشْخاصِ في نُطْقِ بَعْضِ الحُروفِ في البيئَةِ الواحِدَةِ[1].

وَأَمّا التّواصُلُ اليَدَوِيُّ فَهُوَ مِنَ الطّرائِقِ الجَسَدِيّةِ التّواصُلِيّةِ التي يَعْتَمِدُ عَلَيْها المُنْتَسِبونَ إِلى هذا المِضْمارِ، أَعْني الصّمَّ، وَهُوَ تَواصُلٌ قائِمٌ في المَقامِ الأَوّلِ عَلى لُغَةِ الإِشارَةِ، وَالتَّهْجِئَةِ بِالأَصابِعِ (Finger Spelling).

وَأَمّا التّواصُلُ الكُلّيُّ فَهُوَ مِنْ أَكْثَرِها اسْتِعْمالاً، وَشُيوعًا؛ ذِلكَ أَنَّهُ آخِذٌ مِنَ التّواصُلِ الشَّفَوِيّ، وَاليَدَوِيّ، وَالسَّمْعِيّ بِنَصيبٍ، فَاشْتَمَلَ عَلى الكَلامِ، وَلُغَةِ الإِشارَةِ، وَالإيماءاتِ الجَسَدِيّةِ، وَالتَّعْبيراتِ الوَجْهِيّةِ، وَقِراءَةِ الكَلامِ، وَالشِّفاهِ، وَالتَّهْجِئَةِ بِالأَصابِعِ، وَالقِراءَةِ، وَالكِتابَةِ[2].

وَالظّاهِرُ أَنَّ ثَمَّ افْتِراقًا بَيْنَ اللّغَةِ الإِشارِيّةِ وَاللّغَةِ المَنْطوقَةِ في جِهَتَيْنِ: أولاهُما الكَيْفِيّةُ، وَثانِيتُهُما البِناءُ، أَمّا في الكَيْفِيّةِ فَلا يَظْهَرُ تَعالُقٌ جَوْهَرِيٌّ بَيْنَ الدّالِّ وَالمَدْلولِ؛ بَيْنَ الأَصْواتِ وَالشّيءِ الذي تُشيرُ إِلَيْهِ، أَمّا اللّغَةُ الإِشارِيّةُ فَفيها رَمْزِيّةُ مُطابَقَةٍ، وَمِثالُ ذلِكَ كَلِمَةُ "قِطار" المُؤْتَلِفَةُ مِنْ أَرْبَعَةِ حُروفٍ مَرْسومَةٍ، وَهُوَ بِخِلافِ ذلِكَ في الحَقيقَةِ الخارِجِيّةِ لِطولِهِ، أَمّا في اللّغَةِ الإِشارِيّةِ فَلا بُدَّ مِنْ تَضْخيمِ حَرَكَةِ اليَدَيْنِ وَما شاكَلَها وَفاءً بِمَظْهَرِهِ الخارِجِيّ الضّخْمِ.

أَمّا في البِناءِ فَاللّغَةُ المَنْطوقَةُ تَقومُ في هَيْئَتِها عَلى رَصْفِ بِناءٍ مُتَعاقِبٍ، فَثَمّ

(1) انظر: مصطفى القمش، الإعاقة السمعية، 83.

(2) انظر: مصطفى القمش، الإعاقة السمعية، 89، وإبراهيم الزريقات، الإعاقة السمعية، 238.

فونيماتٌ تَتَجَمّعُ في مورفيماتٍ، وَالمورْفيماتُ يَعْقُبُها تَراكيبُ، وَالتّراكيبُ يَعْقُبُها جُمَلٌ وَهكَذا دَوالَيْكَ، أَمّا رَصْفُ لُغَةِ الإِشارَةِ فَهُوَ البِناءُ المُتَزامِنُ القائِمُ عَلى أَساسِ التّنْظيمِ في حَيّزٍ مَكانِيٍّ، أيْ أَنَّ مَعْنى المَنْطوقاتِ لا يُعَيَّنُ بِالاعْتِمادِ عَلى تَرْتيبِ الإِشارَةِ، بَلْ بِتَزامُنِها[1].

ضُروبٌ مِنَ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ:

وَإِذا ما أُرْجِعْنا إِلى دَرْسِ اللَّهَجاتِ وَأَنْواعِها، فَإِنَّنا سَنَقِفُ عَلى ضُروبٍ مُتَباينَةٍ مِنْها، فَثَمَّ لَهَجاتٌ مِهْنِيّةٌ، وَأُخْرى عُمُرِيّةٌ، وَثالِثَةٌ دينِيّةٌ، وَرابِعَةُ جِنْسِيَّةٌ، وَخامِسَةٌ إِقْليمِيّةٌ، وَاللاّفِتُ لِلخاطِرِ أَنّ "لُغَةَ الجَسَدِ" كَذلِكَ أَمْرُها، فَثَمَّ حَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ دينِيّةٌ، وَأُخْرى مِهْنِيّةٌ، وَثالِثَةٌ جِنْسِيّةٌ، وَرابِعَةٌ عُمُريّةٌ. لِنَرْجِعِ النَّظَرَ في بَيانِ بَعْضِها:

حَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ دينِيّةٌ:

وَالحَقُّ أَنَّ مُثُلَها كَثيرَةٌ كَثْرَةً ظاهِرَةً، وَمُتَباينَةٌ بِتَبايُنِ الأَدْيانِ، وَمِنْها:

- رَفْعُ اليَدَيْنِ وَفَتْحُ الكَفَّينِ طَلَبًا لِلدُّعاءِ وَالتّرَجّي مِنَ اللهِ.
- وَمِنْها حَرَكَةُ التّبَرّكِ التي عِمادُها مَسْحُ الوَجْهِ أَوْ سائِرِ الجَسَدِ آنَ ذِكْرِ الرَّسولِ الكَريمِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- وَمِنْها حَرَكَةُ اليَدِ الرّاقِيَةِ الماسِحَةِ المُطَمْئِنَةِ.
- وَمِنْها حَرَكَتا السُّجودِ وَالرُّكوعِ الدّالَّتانِ عَلى مُنْتَهى التّذَلّلِ وَالخُضوعِ لِصاحِبِ العِزّةِ وَالجَبَروتِ.
- وَمِنْها هَيْئَةُ الحَجيجِ الخارِجِيّةُ، وَزِيّهِمُ الدّينِيّ الذي لا يُرْتَضى غَيْرُهُ في ذلِكَ المَقامِ الشَّريفِ، وَدِلالَتُهُ التّوَحّدُ وَالتَّساوي، فَلا فَرْقَ بَيْنَ عَرَبِيٍّ وَعَجَمِيٍّ، وَلا بَيْنَ أَبْيَضَ وَأَسْوَدَ، لا وَلا بَيْنَ غَنِيٍّ وَفَقيرٍ، فَكُلُّهمْ قَدْ أَتَوْه شُعْثًا غُبرًا في هَيْئَةِ اللِّباسِ تِلكَ.
- وَمِنْها رَفْعُ السَّبّابَةِ أَوْ مَدُّها في مَقامِ تَوْحيدِ اللهِ، وَإِفْرادِ الوَحْدانِيّةِ، وَالتَشَهُّدِ.

حَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ مِهْنِيّةٌ:

وَقَدْ يَجْتَرِحُ بَعْضُ المِهْنِيّينَ حَرَكاتٍ جَسديّةً خاصّةً، أَوْ إيماءاتٍ أَوْ هَيْئاتٍ، فَتَغْدو

(1) انظر: مايكل كوربالیس، في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم، 140، ونازك عبد الفتاح، مشكلات اللغة والتخاطب، 29.

مِمّا يَنْعقِدُ عَلَيْهِ إِجْماعُهُم كَما يَنْعقِدُ عَلى مَعاني أَلْفاظِهِمْ، وَمِنْ مِثْلِ ذلِكَ الحَرَكاتُ العَسْكَرِيّةُ المُتَعَلَّمَةُ بِالدُّرْبَةِ وَالمِراسِ، وَالتَّحايا الرَّسْمِيّةُ، وَإِشاراتُ مُوَجِّهِ الطّائِراتِ عِنْدَ هُبوطِها أَوْ إِقْلاعِها، وَمِمّا يَسيرُ بِرَكْبِ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ المِهْنِيّةِ إِشاراتُ الصّمِّ وَالبُكْمِ المُتعَلَّمَةُ.

حَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ جِنْسِيّةٌ:

وَقَدْ يَأْتي المَرْءُ أَوِ المَرْأَةُ حَرَكاتٍ جَسَدِيّةً جِنْسِيّةً خاصّةً حَمّالاتٍ لِدِلالاتٍ ما في سِياقاتِها، وَمِنْ ذلِكَ ضَرْبُ الأَرْضِ بِالرِّجْلِ، أَوِ الخلْخال إِعْلامًا "بِأَنَّني هُنا"، أَوْ لَفْتًا لِلنَّظَرِ، أوِ النّاظِرِ إِلْهابًا وتَهْييجًا، وَهذا مِمّا يَنْتَسِبُ إِلى المُتَمِّماتِ، أَوْ أَنْ تَضَعَ المَرْأَةُ إِصْبَعَها في فَمِها إِغْواءً، وَيُرافِقُ ذلِكَ تَسْبيلُ العَيْنَيْنِ، وَلَيُّ الجيدِ، وَمِنْها الغَمزُ بِالعَيْنِ، وَهذا مِمّا يَنْتَسِبُ إِلى الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ، وَمِنْها التَّفَتُّلُ وَالتَّثَنّي، وَالتَّخَلُّعُ في المِشْيَةِ، وَهذا مِمّا يَنتَسِبُ إِلى الهَيْئاتِ، فَجِماعُ ما تَقَدَّمَ كَلُّهُ حاصِلٌ إِمّا بِالحَرَكاتِ، أَوِ الهَيْئاتِ، أَوِ المُتمِّماتِ.

حَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ عُمُرِيّةٌ:

وَلَيْسَ تَحَقُّقُها بِبَعيدٍ عَمّا تَقدَّمَ بَيانُهُ، فَقَدْ تَكونُ بِالحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ، فَدَلْعُ اللِّسانِ حَرَكَةٌ جَسَدِيّةٌ عُمُرِيّةٌ يَأْتيها في الغالِبِ الأَطْفالُ، وَكَثيرًا ما يَرِدُ عَلى المَسامِعِ: لَهُ حَرَكاتٌ صِبيانِيّةٌ، وَمِنْ تَجَلّياتِها إِتْيانُ بَعْضِ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ التي يَأْتيها الأَطْفالُ، وَقَدْ تَتَحَقّقُ بِالمُتَمِّماتِ.

مِنْ دِلالاتِ الحَرَكاتِ وَالهَيئاتِ وَالمُتَمِّماتِ

لَعَلّهُ يَحْسُنُ قَبْلَ الوُلوجِ في مُتَطَلَّباتِ هذِهِ المُباحَثَةِ الفَرْعِيّةِ تَجْلِيَةُ المُرادِ مِنْها وَمِمّا يَتَعيّنُ مِنَ العُنْوانِ المَعْقودِ لَها، فَالمَقْصِدُ المُتَعَيّنُ مِنَ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ مَعْلومٌ لا شِيَةَ عَلَيْهِ وَلا شُبْهةَ، وَمِنْ تَجَلّياتِها حَرَكَةُ اليَدِ، أَوِ اليَدَيْنِ، وَالغَمْزُ، وَهِزّةُ الرَّأْسِ.

وَالمَقْصِدُ المُتَعَيّنُ مِنَ الهَيْئاتِ العامّةِ الأَحْوالُ التي يَظْهَرُ عَلَيْها المَرْءُ في شَكْلِهِ الخارِجيِّ العامِّ، وَمِنْ أَمْثِلَتِها المُخَصِّصَةِ الدّالّةِ عَلَيْها الجِلْسَةُ، وَالوِقْفَةُ، وَالمِشْيَةُ،

وَاللِّبْسَةُ، وَغيْرُ ذلِكَ مِمّا يَنْتَسِبُ إلى هذِهِ المُباحَثَةِ المُنْتَسِبَةِ إلى التَّواصُلِ غَيْرِ اللَّفظِيّ عامّةً، وَلُغَةِ الجَسَدِ خاصّةً.

أَمّا المُتَمِّماتُ المُسانِدَةُ فَهِيَ تَرْجَمَةٌ لِما يُسَمّى "الإِكْسسوارات"؛ كَالنّظّارَةِ، وَالسّيجارَةِ، وَالسّيجارِ، وَالقَلَمِ، وَالهاتِفِ، وَالعَصا، وَالحِذاءِ، وَسَيُعْقَدُ لَها مُباحثةٌ فَرْعِيّةٌ قائِمَةٌ بِرأْسِها بَعْدًا، لِنَرْجِعِ النَّظَرَ في مُثُلِ دِلالاتِ الحَرَكاتِ، وَالهَيئاتِ، وَالمُتَمِّماتِ:

أَوّلاً: مِنْ هَيْئاتِ الوَجْهِ وَدِلالاتِهِ

إنّ كَلِمَةَ "الوَجْهِ" تَسْتَغْرِقُ جَوارِحَ أُخْرى تُنْسَبُ إلَيْهِ، وتَقَعُ في مُحيطِهِ، وَلذلِكَ كُلِّهِ غَدا الوَجْهُ مَصْدَرًا أَصيلاً مِنْ مَصادِرِ قِراءَةِ الضّمائِرِ المُسْتَتِرَةِ، وَالمَعاني الكامِنَةِ في حَواشي الطَّوايا، وَدَليلاً صادِقًا عَلى ما في النّفوسِ، وَلَعَلَّ ذلِكَ هُوَ الذي أَفْضى إلى تَقْريرِ ابنِ جِنّي –وَسَيَأتي بَيانُ ذلِكَ بَعْدًا- عَنْ أَحَدِ أَشْياخِهِ بِأَنَّهُ لا يُحْسِنُ أَنْ يُكلِّمَ إِنْسانًا في الظُّلْمَةِ[1].

وَالحَقُّ أَنَّنا كَثيرًا ما نَفيءُ إلى الوَجْهِ في التّواصُلِ، فَذلِكَ يَتَجَلّى لَنا يَوْمِيًّا في البَيْتِ الأُسْرِيّ، فَالأُمُّ مَعَ طِفْلِها، بَلْ مَعَ رَضيعِها تَقِفُ عَلى دِلالاتٍ لا يُفصِحُ عَنْها بكلامِهِ، بَل بِإيماءاتِ وَجْهِهِ، وَفي زَحْمَةِ الشّارِعِ وَالسّوقِ، فَالتّاجِرُ يُكَيِّفُ كَلامَهُ مَعَ مُحيطِهِ وَرُوّادِهِ مُعْتَمِدًا عَلى إيماءاتِ وُجوهِهِمْ أَحْيانًا، وَكَأَنَّ لِلنّفْسِ مُعْجَمًا مَكْنونًا تُقْرَأُ مَوادُّه عَلى صَفْحَةِ الوَجْهِ[2].

وَمُسْتَصْفى القَوْلِ في ذلِكَ كلِّهِ أَنَّ الوَجْهَ –كَما هُوَ مُقَرّرٌ في عِلْمِ الفِراسَةِ- أَكْمَلُ الأَعْضاءِ لِظُهورِ الآثارِ النَّفْسِيّةِ فيهِ بِوَجْهٍ أَتَمَّ؛ لأَنَّ الأَحْوالَ الظّاهِرَةَ في الوَجْهِ قَوِيّةُ الدِّلالَةِ عَلى الأَخْلاقِ الباطِنَةِ؛ كَالخَجَلِ، وَالخَوْفِ، وَالغَضَبِ، وَالفَرَحِ، وَالكَآبَةِ، فَإِنَّ لِكُلِّ واحِدٍ لَوْنًا مَخْصوصًا يَظْهَرُ في الوَجْهِ دونَ البَدَنِ[3]، "أَمّا الأَعْضاءُ المَوْجودَةُ في

---

(1) انظر: ابن جني، الخصائص، 248/1.

(2) وقفت على مصنف طريف يتناول لغة الوجه وهيئاتها ودلالاتها، وهو:

Mitchell, M. E., How to Read the Language of the Face, Macmillan, New York, 1968.

وانظر ما قيل في هيئاته ودلالاته:

Loretta A. Malandro, Nonverbal Communication, P.123-132, Pease, Body Language, P.68-88.

(3) انظر: ابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 58.

الوَجْـهِ بَعْـدَ الـرَّأْسِ، فَالحاجِبـانِ، وَالعَيْنـانِ، وَالجَبْهَـةُ، وَالأَنْـفُ، وَالشَّـفَتانِ، وَالأَسْـنانُ، وَالذَّقَنُ، وَالأُذُنانِ، ثُمَّ العُنُقُ قَريبٌ مِنْ صِدْقِ الدِّلالَةِ لِقُرْبِهِ مِنَ الوَجْهِ"[1].

وَقَدْ وَقَفَ "بوريس كيرولنيك" عِنْدَ مِثالٍ عَمَلِيٍّ شائِقٍ يَدُلُّ عَلى فَضْلِ الوَجْهِ في تَواصُلِ الحَيَواناتِ، فَقَدْ أشارَ في كِتابِهِ "ذاكِرَةُ قِرْدٍ، وَأَقْوالُ رِجالٍ" إلى أنّ قِرْدًا آسْيويًّا مُصابًا بِشَللٍ وَجهِيٍّ تَمَّتْ مُتابَعَتُهُ، "وَهذا المَرَضُ الذي هُوَ غالِبًا حَمويٌّ يُسَبِّبُ شَلَّ عَضَلاتِ الوَجْهِ، وَإِزالَةَ بَعْضِ التَّعْبيراتِ، فَبَعْدَ بِضْعَةِ أَسابيعَ انْقَطَعَ التَّواصُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحيطِهِ مِنْ قُرودٍ، وَراحَ أَمْثالُه يُقلّونَ مِنْ تَفْلِيتِهِ، بَلْ يَتَجَنّبونَهُ، وَصارَ مُشاكِسًا عُدْوانِيًّا، مُنْقَطِعًا عَمَّنْ حَوْلَهُ، وَانْتَهَتْ حالَتُهُ إلى التّبَدّلِ وَالفَسادِ"[2].

وَالوَجْهُ –كَما يَقولُ بيس– يُسْتَعْمَلُ "أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ جارِحَةٍ أُخْرى مِنْ جَوارِحِ الجَسَدِ في إِخْفاءِ الكَذِبِ وَتَغْطِيَتِهِ، فَنَحنُ نَعْتَمِدُ عَلى الابْتِسامِ، وَتَنْكيسِ الرَّأْسِ، وَإِغْلاقِ العَيْنَيْنِ مُحاوِلينَ التّسَتّرَ وَراءَ ذلِكَ، وَلكِنَّ سوءَ الحَظِّ قَدْ يُواجِهُنا، فَالإِشاراتُ الجَسَدِيّةُ الصّادِرَةُ عَنّا تَشي بِالحَقيقَةِ؛ ذلِكَ أَنَّ التَّوافُقَ بَيْنَ إيماءاتِ الجَسَدِ وَعَلاماتِه مُتَعَذِّرٌ، فَدِراسَةُ الوَجْهِ وَإيماءاتِهِ فَنٌّ قائِمٌ بِرأسِهِ، وَقَدْ خَصَّصتُ لَهُ فُسْحَةً ضَيّقةً في هذا الكِتابِ"[3].

وَالظّاهِرُ أنَّ الوَجْهَ صَفْحَةٌ يَتَجَلّى فيها ضَرْبانِ مِنَ الحَرَكاتِ:

- أَوّلُهُما الحَرَكاتُ الفِطْرِيّةُ التي باعِثُها فِطْرَةُ اللهِ التي فَطَرَ الخَلْقَ عَلَيْها، وَأَهَمُّها الانْفِعالاتُ العالَمِيّةُ السّتُّ التي أَتَيْنا عَلَيْها قَبْلاً، كَالابْتِسامَةِ في مَعْنى الفَرَحِ، وَالكِشْرَةِ في مَعْنى الحُزْنِ، وتَقْطيبِ الوَجْهِ في مَعْنى الغَضَبِ، وَبِمُكْنَةِ المَرْءِ أَنْ يَقْتَنِصَ هذِهِ المَعانيَ بِالفَيْءِ إلى الإيماءاتِ وَالحَرَكاتِ الفِطْرِيّةِ التي تَظْهَرُ في سياقِها.
- وَثانيها الحَرَكاتُ المُكتَسَبَةُ التي تَتَخَلّقُ عِنْدَ المَرْءِ بِالاكْتِسابِ وَالتّعَلّمِ[4]، كَالغَمْزِ بِطَرَفِ العَيْنِ، وَإِشارَةِ القُبْلَةِ، وَرَفْعِ الحَواجِبِ، وَغَيْرِ ذلِكَ.

أَفَلا تُنْبِئُ الرُّسوماتُ الوَجْهِيّةُ الآتِيَةُ عَنْ مَعانٍ نَقْتَنِصُها مِنْ "لُغَةِ الجَسَدِ" عامّةً، وَهَيْئَةِ

(1) انظر: ابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 58.

(2) انظر: باكو، لغة الحركات، 61.

(3) Pease, Body Language, P.21

(4) Pease, Body Language, P.8.

الوَجْهِ خاصّةً؟

- فَلَقَدْ ظَهَرَ في هذِهِ الصّورَةِ مَعْنى الفَرَحِ:

- وَفي هذهِ مَعْنى الغَضَبِ:

- وَفي هذِهِ مَعْنى الدّهْشَةِ وَالاسْتِغْرابِ:

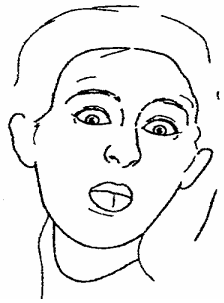

- وَفي هذهِ مَعْنى الاشْمِئْزازِ:

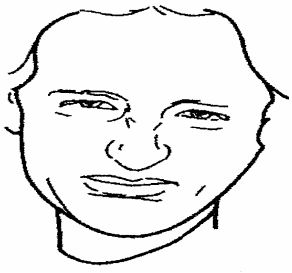

إخالُ أنَّ هذِهِ الإبانَةَ الصّامِتَةَ لا تَفْتَرِقُ في المُحَصّلَةِ النِّهائِيّةِ عَنِ الإبانَةِ الصّائِتةِ، فَقَدْ يَقولُ لَنا المَرْءُ شَيْئًا ما بِجَسَدِ لُغَتِهِ وَلِسانِهِ، وَقَدْ يَقولُ لَنا الشَّيْءَ نَفْسَهُ بِلُغَةِ جَسَدِهِ وَحَرَكاتِهِ.

ثانيًا: مِنْ دِلالاتِ حَرَكَةِ الرّأْسِ وَهَيئاتِهِ:

مِـنَ المُقَـرَّرِ المُسْـتَحْكِمِ أَنَّ الـرَّأْسَ "صَـوْمَعَةُ البَـدَنِ، وَجـامِعُ الحَـواسِّ الخَمْـسِ الظّاهِرَةِ، وَمِنْهُ تَنْجَلي الآياتُ، وَتَتَراءى العَلاماتُ، وَتَصْدُقُ الأَماراتُ"[1]، وَأَنَّ لِلرّأْسِ حَرَكاتٍ وَهَيْئاتٍ حَمّالَةً لِدِلالاتٍ مُتَباينَةٍ بِتَبايُنِ الحالِ النّفْسِيّةِ وَالسّياقِ، كَحَرَكَةٍ تُنْبِئُ عَنِ الرّفْضِ، وَأُخْرى عَنِ القَبولِ، وَثالِثَةٍ عَنِ الاسْتِهْزاءِ، وَرابِعَةٍ عَنِ الإِنْكارِ، وَخامِسَةٍ عَنِ التّحَيّةِ، وَفي "عِلْمِ الحَرَكِيّةِ" يُشارُ إِلى هَيْئاتٍ لِلرّأْسِ مُخْتَلِفَةٍ، وَهِيَ كَواشِفُ لِحالاتٍ نَفْسِيّةٍ، وَدِلالاتٍ مُتَباينَةٍ، وَأَهمُّها ثَلاثٌ:

- أَوّلُها الرّأْسُ الخَفيضُ الذي قَدْ يَكونُ لَهُ مَحْمولاتٌ دِلالِيّةٌ لا قِبَلَ لَنا بِتَعْيينِها إِلاّ بِالسِّياقِ وَالحَرَكاتِ المُصاحِبَةِ، كَالخَجَلِ، أَوِ الخَوْفِ، أَوِ الخُضوعِ، أَو الاسْتِسْلامِ، أَوِ الضّعْفِ، أَوِ الجُبْنِ.
- وَثانيها الرّأْسُ المَرْفوعُ الذي قَدْ يُلْمِحُ إِلى الكِبْرِ وَالتَّعالي، أَوِ العِداءِ، أَوِ الإِباءِ، أَو الازْدِراءِ، أَوِ التّأمّلِ في السَّماءِ، أَوْ أَمْرٍ، أَوْ غَيْرِ ذلِكَ.
- وَثالِثُها الرّأْسُ المُنْحَني المَثْنِيُّ إِلى جانِبٍ، فَقَدْ يومِئُ إِلى الفِتْنَةِ، أَوِ الغوايَةِ، أَوِ المُلاطَفَةِ، أَوِ الحَنانِ[2].

ثالِثًا: مِنْ دِلالاتِ حَرَكَةِ العَيْنِ وَهَيْئَتِها:

قَدْ تَغْدو العَيْنُ في سِياقٍ ما لِسانًا فَصيحًا مُتَكَلّمًا يَنْطِقُ بِمَعانٍ، فَيَسْتَجيبُ مَنْ يُعاينُها، بَعْدَ اقْتِناصِ مُرادِها المُتَشَكِّلِ مِنْ هَيْئَةِ تَشَكّلِها، اسْتِجابَةً عَمَلِيّةً، أَوْ كَلامِيّةً، وَلِلقُدَماءِ التِفاتاتٌ مُعْجِبَةٌ إِلى سُهْمَةِ العَيْنِ في التّواصُلِ، وَالإِبانةِ، وَالبَيانِ، وَالتَّبْيينِ، وقَدِ انْبَنى عَلى اعتِبارِهِمْ بِهذا التّقْريرِ تَقْريرٌ بِأَهَمّيَتِها في الإِبانَةِ عَنْ حَواشي النّفوسِ وَضَمائِرِها، وَأَفْضى ذلِكَ إِلى قَوْلِهِم: "فَاعْتَمِدْ عَلى هذا الاعْتِبارِ في تَوَسّمِكَ، وَاحْكُمْ بِما يَظْهَرُ مِنْهُ"[3].

وَسَيَأْتي في مَطْلَبِ القَوْلِ عَلى الأَنْظارِ المُؤَصِّلَةِ إِلْماحاتٌ مُعْجِبَةٌ في دَرْسِ القُدَماءِ

---

(1) انظر: ابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 45.

(2) انظر: باكو، لغة الحركات، 60-61، وانظر كذلك: Geddes, Body Language, P.103.

(3) انظر: ابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 50.

البَلاغِيّينَ، وَالأُصولِيّينَ، وَالمُعْجَمِيّين، وَالفِراسِيّينَ، لِلعَيْنِ، وَهَيْئاتِها، وَألْفاظِها الدّالّةِ المُتباينةِ بِتَبايُنِ الحالِ، وَمِنْ ذلِكَ "حَسِرَتْ عَيْنُهُ" إذا اعْتَراها كَلالٌ مِنْ طولِ النَّظَرِ إلى الشَّيْءِ، وَ"زَرّتْ" إذا تَوَقّدَتْ مِنَ الخَوْفِ أوْ غَيْرِهِ، وَقالوا مُفَصِّلينَ في الهَيْئاتِ وَالدِّلالاتِ: إذا نَظَرَ إلى الشَّيْءِ بِمَجامِعِ عَيْنِهِ قيلَ "رَمَقَهُ"، وَإنْ نَظَرَ إلَيْهِ مِنْ جانِبِ أذُنِهِ قيلَ "لَحَظَه"، وَإنْ رَماهُ بِبَصَرِهِ مَعَ حِدّةٍ قيلَ "حَدَجَهُ"[1].

وَقَدْ جاءَ في "العِقْد الفَريد" أنَّ "العَيْنَ بابُ القَلْبِ، فَما كانَ في القَلْبِ ظَهَرَ في العَيْنِ"[2]، وَقَدْ رَوى الأَصْمَعِيُّ عَنْ غَيْرِهِ أنّهُ قالَ: "إنّي لأَعْرِفُ في العَيْنِ إذا عَرَفَتْ، وَأعْرِفُ فيها إذا أنْكَرَتْ، وَأعْرِفُ فيها إذا لَمْ تَعْرِفْ ولَمْ تُنْكِرْ، أمّا إذا عَرَفَتْ فَتَخْواصُّ[3]، وَأمّا إذا أنْكَرتْ فَتَجْحظُ، وأمّا إذا لَمْ تَعْرِفْ وَلَم تُنْكِرْ فَتَسْجو"[4]. وَقَدْ عَقَدَ ابنُ عَبْدِ رَبّهِ بابًا في "العِقْد" سَمّاه "الاسْتِدْلال بِاللّحْظِ عَلى الضّميرِ"[5]، وَقَدْ أوْرَدَ فيهِ نَماذِجَ فاقِعَةَ الدِّلالةِ مِنَ التّراثِ العَرَبِيّ الأَدَبِيّ عَلى أثَرِ العَيْنِ في التّواصُلِ وَالإبانَةِ، وَكَذلِكَ فَعَلَ الآبي في كِتابِهِ "الأُنُس وَالعُرْس"، وَقَدْ سَمّى بابَهُ ذاكَ: "دِلالَة عُيونِ الإخْوانِ عَلى ضَمائِرِهِمْ"[6].

وَبِالجُمْلَةِ، فَالعُيونُ وُجوهُ القُلوبِ، وَأبْوابُها التي تَبْدو مِنْها أحْوالُ النَّفْسِ وَأسْرارُها، وَذلِكَ لاتّصالِها بِمَواضِعِ القَلْبِ، وَصَفائِها، وَرِقَّتِها، فَاحْكُمْ بِها لِتَحْقيقِ النَّظَرِ وَصِحّتِهِ..."[7]، وَقَدْ ذَهَبَ "هيس" في كِتابِهِ "العَيْنُ الفاضِحَةُ" إلى أنَّ العَيْنَ مِنْ أدَقِّ الوَسائِلِ وَأفْضَلِها مِنْ بَيْنِ وَسائِلِ الاتّصالِ الكَثيرَةِ التي يَتَمَتّعُ بِها الإنْسانُ لإظْهارِ ما يَعْتَمِلُ في نَفْسِهِ؛ ذلِكَ أنَّ العَيْنَيْنِ "تَقَعانِ في مَرْكزٍ بُؤْرِيٍّ في الجَسَدِ، فَضْلاً عَنْ أنَّ إنْسانَ

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 122-123.

(2) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 115/2.

(3) "تخواصّ" فعل مضارع، والخوص غؤور العين، والحوص، بالصاد، ضيقها.

(4) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 115/2.

(5) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 115/2.

(6) انظر: الآبي، الأنس والعرس، 175-178.

(7) انظر: ابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 57.

العَيْنِ يَعْملُ بِشَكْلٍ غَيْرِ طَوْعِيٍّ"[1].

وَقَدْ وَرَدَ لِلعَيْنِ ذِكْرٌ كَثيرٌ في كَلامِ الشُّعراءِ، وَخاصّةً في مَقاماتِ العِشْقِ والعُشّاقِ، وحَضَراتِ الاسْتِخْفاءِ وَالرَّمْزِ، وَلا بَأسَ بِإيرادِ نَموذَجَيْنِ دالَّيْنِ:

أَوّلُهُما لِلشّاعِرِ البَصيرِ بَشّارٍ، فَقَدْ تَبصّرَ في هذِهِ اللّغَةِ الصّامِتَةِ، فَوَصَفَ وَأَجادَ:

وَمُنْتَظِرٍ رَجْعَ السّلامِ بِطَرْفِهِ ... إذا ما انْثَنى يَحْكي لَنا الغُصْنَ اللَّدْنا

إذا جَعَلَ اللّحْظَ الخَفِيَّ كَلامَهُ ... جَعَلْتُ لَهُ عَيْني لِتَفْهَمَهُ أُذْنا

فَلَسْنا عَلى حَمْلِ الرّسائِلِ بَيْنَنا ... نُريدُ سِوانا مُفْهِمًا حَيْثُما كُنّا

كَفَتْنا بَلاغاتُ العُيونِ حَديثَنا ... فَقُمْنَ بِحاجاتِ النُّفوسِ لَنا عَنّا[2]

وَثانيهِما لِصَريعِ الغَواني الذي أَشارَ إلى تَغْييبِ الكَلامِ في سِياقِ العِشْقِ، وَاسْتِرْفادِ سَفيرِهِ العَيْنِ فَقالَ:

ذَهَبْتُ وَلَمْ أُحَدِدْ بِعَيْنِيَ نَظْرَةً ... وَأَيْقَنْتُ أَنَّ العَيْنَ هاتِكَةٌ سِتْري

جَعَلْنا عَلاماتِ المَوَدَّةِ بَيْنَنا ... مَصايِدَ لَحْظٍ هُنَّ أَخْفى مِنَ السِّحْرِ

فَأَعْرِفُ مِنْها الوَصْلَ في لينِ طَرْفِها ... وَأَعْرِفُ مِنْها الهَجْرَ بِالنَّظَرِ الشَّزْرِ[3]

رابعًا: مِنْ دِلالاتِ المِشْيَةِ وَإيحاءاتِها:

لِلمِشْيَةِ هَيْئاتٌ دالّةٌ عَلى مَعانٍ مَخْصوصَةٍ، وَقَدِ التَفَتَ المُصَنّفونَ في هذا المَبْحَثِ -أَعْني لُغَةَ الجَسَدِ- إلى بَعْضِ تِلكمُ الهَيئاتِ وَدِلالاتِها، وَشَرَعوا يَلْتَمِسونَ البَواعِثَ التي تُفْضي إلى تَغَيّرِ هَيْئاتِ تِلْكَ المِشْيةِ، وَيَسْتَرْفِدونَ مِنَ الوَسائِلِ التّوْضيحِيّةِ كَالرّسومِ وَالصّوَرِ المَعونَةَ في التَّقْسيمِ وَالشّرْحِ والتّجْلِيَةِ، فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنّا "مِشْيَتُهُ الخاصّةُ بِهِ، وَإيقاعُهُ، وتَرْجيحُ ذِراعَيْهِ، وتَوْجيهُ قَدَمَيْهِ، إنَّ مِشْيَتَنا تُؤَلّفُ جُزْءًا مِنْ هُوِيّتِنا، وَمَعَ ذلِكَ فَقَدْ تَخْتَلِفُ مِنْ يَوْمٍ إلى آخَرَ تِبْعًا لِلحالَةِ النّفْسِيّةِ التي نَجِدُ أَنْفُسَنا فيها،...، وَلكِنَّ مِزاجَنا

(1) Pease, Body Language, P.133.

(2) انظر: الخالديان، المختار من شعر بشار وشرحه، 63، والخرائطي، اعتلال القلوب، 217، والحصري، زهر الآداب، 291/2.

(3) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 105، وابن داود، الزهرة، 148/1، والشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 184.

لَيْسَ العُنْصَرَ الوَحيدَ الذي يُمْكنُ أَنْ يُعَدِّلَ مِشْيَتَنا، حَتّى إِنَّ لِلأَرْصادِ الجَوِيّةِ تَأْثيرًا فيها"[1].

وَإِذا ما اسْتَبْطَنَ المَرْءُ هَيْئةَ المَشْيِ استِبْطانَ المُتَدَبِّرِ الفاحِصِ فَإِنَّ بِمُكْنَتِهِ أَنْ يُقَسِّمَ تِلكمُ الهَيئاتِ باعْتِباراتٍ تَتَبايَنُ بِتَبايُنِ الأَحْوالِ وَالدِّلالاتِ، وَمِنْ تِلْكَ الاعتِباراتِ:

- اعِتْبارُ السّرْعَةِ، فَثَمَّ مِشيَةُ المُسْرِعِ العَجِلِ، وَثَمَّ مِشْيَةُ المُبْطِئِ، وَثَمّ مِشْيَةٌ طَبيعِيّةٌ لا إِلى تِلْكَ وَلا إِلى تِلكَ.
- وَاعْتِبارُ الفِطْرَةِ وَالخِلْقَةِ، فَمِنَ النّاسِ مَنْ فُطِرَ عَلى التّمَهّلِ أَوِ البَلادَةِ في المَشْيِ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَيْدَنُهُ وَفِطْرَتُهُ الجِدُّ وَالانْهِماكُ، وَالعَجَلةُ، وَالحَقُّ أَنَّ النّاسَ يَتَفاوَتونَ في المِشْيَةِ تَفاوُتًا لا يَخْفى عَلى ناظِرٍ أَوْ مُتأَمِّلٍ، فَمِنْهمْ مَنْ يَغْرزُ قَدَمَيْهِ في الأَرْضِ، وَمِنْهم مَنْ يَنْحدِرُ انْحِدارًا رَشيقًا، وَمِنْهُمْ مَنْ نَسْمَعُ لِقَدَمَيْهِ وَقْعًا في الأَرْضِ، وَلِكُلِّ ذلِكَ دِلالاتٌ مَخْصوصَةٌ سَيأتي عَلَيْها فَضْلُ بَيانٍ مُجلٍّ بَعْدًا.
- وَاعْتِبارُ الجِنْسِ، فَثَمَّ مِشْيَةُ الأُنْثى، وَثَمَّ مِشْيَةُ الذَّكَرِ، وَالتّنَقّلُ في الهَيْئَةِ بَيْنَ الجِنْسَينِ باعِثٌ عَلى وَصْفِ الرّجُلِ بِالخَلاعَةِ وَالتَّخَنُّثِ، وَعَلى وَصْفِ المَرْأةِ بِالذّكورَةِ وَالاسترْجالِ، فَكَثيرًا ما يَرِدُ عَلى أَسْماعِنا، أَوْ يَقومُ في أَنفُسِنا خاطِرٌ يَقولُ: "لَهُ مِشْيَةٌ كَمِشْيَةِ النِّساءِ"، أَوْ "هُوَ يَتَخَلّعُ في مِشْيَتِهِ"، أَوْ "إِنّها تَمْشي كَالرِّجالِ".
- وَاعْتِبارُ السِّنِّ، فَثَمَّ مِشْيَةُ الطِّفْلِ الرَّضيعِ، وَمِشْيَةُ الصّغيرِ، وَمِشْيَةُ الشّابِّ، وَمِشْيَةُ العَجوزِ، وَهُناكَ الدَّبيبُ، وَالدَّرَجانُ، وَالخَطَرانُ، وَكُلُّ ذلِكَ سَنَأتي عَلَيْهِ في بابِ القَوْلِ عَلى لُغَةِ الجَسَدِ عِنْدَ الثّعالِبِيّ، وَيَنْشَأُ عَنْ ذلِكَ كُلِّهِ هَيْئاتٌ مُتَباينَاتٌ في الوَصْفِ الحَرَكِيّ، وَالمَعْنى الدِّلالِيّ المَنْطَوي تَحْتَها.

وَقَدْ وَقَفَ باحِثٌ عِنْدَ بَعْضِ تِلكمُ الهَيْئاتِ مُقَسِّمًا، وَمُفَسِّرًا، وَمُصَوِّرًا، وَمُعَيِّنًا المَعنى الذي يَنْطوي تَحْتَ كُلِّ هَيئةٍ، ومِنْ ذلِكَ:

- المِشْيَةُ الرّشيقَةُ: وَيَكونُ الذَّقَنُ فيها مَرْفوعًا، وَالخُطواتُ واسِعَةً، وَالخَطْوُ مُوَقّعًا، وَالأَنْفُ شامِخًا.
- وَالمِشْيَةُ المَهّادةُ "البولدوزر": وَيَكونُ الكَعْبُ فيها مَغْروزًا في الأَرْضِ، وَالخُطْوَةُ

(1) انظر: باكو، لغة الحركات، 54.

سَريعَةً ثابِتَةً، وَالنّظَرُ مُسْتَقيمًا مُوَجَّهًا إِلى الأَمامِ، مَصْروفًا تِلْقاءَ هَدَفٍ مُرادٍ لا مَحيدَ عَنْهُ.

- وَالمِشْيَةُ المُخَلَّعَةُ، وَفيها يَبْدو آتيها كَأَنَّهُ "مُرَكَّبٌ عَلى نَوابِضَ كُلُّ ما فيها يَتَحَرّكُ"[1].
- وَالمِشْيَةُ البَليدَةُ، وتَظْهَرُ الخُطْوَةُ فيها مُرْتَكِسَةً، "وَالسّاقُ مَجْرورَةً مُرْتَخِيَةً، وَالقَدَمان مُثْقَلَتَيْنِ.
- وَالمِشْيَةُ الشّبَحُ التي يَظْهَرُ فيها طَرَفا القَدَمَيْنِ مُلامِسَيْنِ لِلأَرْضِ، مُنْزَلِقَيْنِ خفْيةً دونَ أَنْ يُحْدِثا جَلَبَةً أَوْ أَثَرًا إِلاّ كَما يُحْدِثُه التّيارُ الهَوائِيُّ، وَهُناكَ مِشْيةُ "شارلو"، وَإِخالُ أَنَّ المَقامَ لا يَتّسِعُ لِلخَوْضِ في كُلِّ ذلِكَ[2].

خامِسًا: مِنْ دِلالاتِ اللِّبْسَةِ وَإيحاءاتِها:

ما مِنْ رَيْبٍ أَنَّ هَيْئَةَ اللِّباسِ مُؤْذِنَةٌ بِتَقْريرِ مَعانٍ تَقومُ في نَفْسِ النّظّارَةِ، فَقَدْ يَقْفِزُ في النَّفْسِ عِنْدَ مُشاهَدَةِ هَيْئَةِ شَخْصٍ في لِباسِهِ أَنَّهُ ابنُ طَبَقَةٍ اجتِماعِيّةٍ تُنْسَبُ إِلى العِلْيَةِ، أَوْ أَنَّهُ فَقيرٌ، بَلْ قَدْ تَشي بِطَبيعَةِ عَمَلِهِ وَمِهْنَتِهِ، أَوْ بِعُمُرِه، أَوْ بِجِنسِهِ، أَوْ بِسلوكِهِ، وَأَخْلاقِهِ، وَبَعْضِ شَمائِلِهِ، وَالحَقُّ أَنَّ سَرْدَ الدِّلالاتِ التي تَنْبَني عَلى ذلِكَ كَثيرَةٌ، وَأَنَّها -أَعْني هَيْئَةَ اللِّباسِ- تَتَبايَنُ بِتَبايُنِ الحالِ وَالاعْتِبارِ[3]، وَمِنْ ذلِكَ:

- الحالُ الدّينِيّةُ: فَلِرَجُلِ الدّينِ لِباسٌ خاصٌّ مُمَيَّزٌ يَكادُ يَكونُ عَلَمًا دالاً عَلَيْهِ، فَهذا إِذًا مَعْنًى يَقومُ في نَفْسِ النّظّارَةِ مَصْدَرُهُ هَيْئَةُ اللِّباسِ، وَإِذا ما أَوْغَلَ الباحِثُ في التَّفَكُّرِ وَالتّأَمّلِ فَإِنَّ تِلْكَ الهَيْئَةَ سَتُعَيِّنُ الدِّيانَةَ، فَثَمَّ هَيئَةٌ خاصّةٌ بِرِجالِ الدّينِ الإِسْلامِيِّ، وَأُخْرى بِرِجالِ الدّينِ المَسيحِيِّ، وَثالِثَةٌ بِاليَهودِ، أَفَلَيْسَتْ هذِهِ دِلالاتٍ مَعْنَوِيّةً مِضْمارُها الصَّمْتِيّاتُ لا الكَلامِيّاتُ؟
- الحالُ المادّيّةُ: وَلَعَلَّ هَيْئَةَ اللّباسِ قَدْ تَنْصِبُ دَلائِلَ في نَفْسِ النّظّارةِ قائِلَةً بِأَنَّ ذاكَ مِنْ عِلْيَةِ القَوْمِ، وَأَنَّ ذا مِنَ الطّبَقَةِ الفَقيرَةِ لِتَبَذّلِهِ وَتَقَشّفِهِ في زِيِّهِ.

---

(1) انظر: باكو، لغة الحركات، 55.

(2) لمزيد بسط القول انظر: باكو، لغة الحركات، 55-56.

(3) أتى الثعالبي على فصل في هيئات اللباس، فتحدث عن بعض الهيئات والدلالات، ومنها السَّدْل، والتأبط، والاضطباع، والتلبب، والتلفع، والقُبوع وغير ذلك. انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 207.

- الحالُ الجِنْسِيّةُ: وَلِهَيئَةِ اللّباسِ دِلالاتٌ أُخْرى تُبينُ عَنِ النّوْعِ الإِنْسانِيّ، فَثمَّ لِباسٌ خاصٌّ بِالأُنْثى، وَلِباسٌ خاصٌّ بِالذَّكَرِ، وَكَذلِكَ قَدْ تَشي هَيْئَةُ لِباسِ امْرِئٍ ما بِأَنّهُ خَليعٌ ماجِنٌ لِتَشَبُّهِهِ بِالنّساءِ أَوِ الفُسّاقِ، أَوْ قَدْ تَشي هَيْئَةُ لِباسِ امْرَأةٍ بِأَنّها مُتَبَرِّجَةٌ تَسْلُكُ في لِباسِها ذاكَ طَرائِقَ الغِوايَةِ، وَالفِتْنَةِ، وَاسْتِدْعاءِ شَهْوَةِ الرِّجالِ، وَأَنَّ الأُخْرى مُحْصَنَةٌ مُلْتَزِمَةٌ عَفيفَةٌ.
- الحالُ المِهْنِيّةُ: وَبِهذا الاعْتِبارِ تَظْهَرُ هَيْئَةُ اللّباسِ دالّةً في بَعْضِ الحالاتِ عَلى مِهْنَةِ صاحِبِها، فَلِلطَّبيبِ زِيٌّ مِهْنِيٌّ خاصٌّ يُعْرَفُ بِهِ إِذا ما لَبِسَه، وَلِلمُحارِبِ العَسْكَرِيِّ زِيٌّ آخَرُ يَدُلُّ عَلى مِهْنَتِهِ، وَلِلشّرَطِيِّ زِيٌّ آخَرُ يُنْبِئُ عَنْ مِهْنَتِهِ، وَلِلمُهَنْدِسِ أَحْيانًا في مَوْقِعِ عَمَلِهِ زِيٌّ آخَرُ، وَهَكذا دَوالَيكَ.
- الحالُ المَذْهَبِيّةُ: وَلَعَلَّ أَصْدَقَ مِثالٍ دالٍّ عَلى هذِهِ الدّلالَةِ هَيْئَةُ لِباسِ رِجالِ الدّينِ السّنّةِ، وَلِباسِ رِجالِ الدّينِ الشّيعَةِ، فَإِذا ما رَأَيْنا واحِدًا مِنْ هذَيْنِ الفَريقَيْنِ عَرَفْنا أَنَّ هذا سُنِّيٌّ مَعْرِفَةً مَصْدَرُها زِيُّهُ الدّينِيُّ وَلِباسُهُ، وَأَنَّ ذاكَ شيعِيٌّ، بَلْ نَحْكُمُ عَلى أَنَّ الشّيعِيَّ ذاكَ مِمّنْ يَقولونَ إِنّهُمْ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ النّبَوِيِّ الشَّريفِ، وَمِنَ الأَسْيادِ؛ ذلِكَ أَنَّ العِمامَةَ السَّوْداءَ خاصّةٌ بِهِمْ، وَأَنَّ ذا العِمامَةِ البَيْضاءِ هُوَ مِنَ المُتَشَيِّعينَ لأَهْلِ البَيْتِ.
- الحالُ النَّفْسِيّةُ: وَقَدْ تَشي هَيْئَةُ اللِّباسِ بِمَكْنوناتِ الضَّمائِرِ المُسْتَتِرَةِ، فَنَعْرِفُ أَنَّ فُلانًا صاحِبُ عُجْبٍ وَكِبْرٍ مِنْ هَيْئَةِ لِباسِهِ، وَمِنَ المُثُلِ الدّالّةِ المُعبِّرَةِ عَنْ هذا المَعْنى في التّراثِ العَرَبِيِّ نَهْيُ الرَّسولِ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– عَنْ إِسْدالِ الثَّوْبِ، أَوْ جَرِّهِ بَطَرًا وَعُجْبًا، كَذلِكَ لُبْس المَرْأةِ وَالرّجُلِ لِلثِّيابِ السّودِ عَلى حَدٍّ سَواءٍ، فَفيهِ دِلالةٌ عَلى الحُزنِ أَوْ فَقدِ العَزيزِ مِنْ ذَوي القُرْبى، وَقَدْ تَشي هَيْئَةُ اللِّباسِ بِأَنَّ فُلانًا دَمِثٌ أَنيقٌ يُعْنى بِمَظْهَرِهِ وَزِيِّه عِنايَةً فائِقَةً، وَقَدْ تَدُلُّ أَنَّ الآخَرَ مُتَبَذِّلٌ أَوْ عَجِلٌ لا يُعْنى بِمَظْهَرِهِ وَزِيِّه، وَلِكلِّ ذلِكَ دِلالاتٌ نَفْسِيّةٌ وَاستِنْباطاتٌ.
- الحالُ العُمُرِيّةُ: وَهَيئَةُ اللِّباسِ تَدُلُّ دِلالَةً فاقِعَةَ الظُّهورِ عَلى العُمُرِ، بَلْ تَتَبايَنُ تِلْكَ الهَيْئَةُ بِتَبايُنِ العُمُرِ، وَالحَقُّ أَنَّ تَنَقّلَ المَرْءِ في طَوْرٍ عُمُرِيٍّ خاصٍّ بَيْنَ هذِهِ الهَيْئاتِ ذو دِلالاتٍ مُتَباينَةٍ، كَأَنْ يُريدَ الرّجُلُ الكَبيرُ أَنْ يُبْقِيَ عَلى شَبابِهِ وَلَوْ في زِيِّهِ، وَكَثيرًا ما نَسْمَعُ أَوْ نَقولُ: "هذا لِباسٌ لِلشّيوخِ، فَاتْرُكْه"، وَ"هذا اللِّباسُ لا يَليقُ بِكِبارِ السِّنِّ،

إنّه لِلشّبابِ"، وَإذا ما تَنازَلتْ تِلْكَ الهَيْئاتُ، وَحَلَّتْ واحِدَةٌ مَكانَ الأُخْرى في طَوْرٍ عُمُريّ فَإنَّ لِذلِكَ دِلالاتٍ نَفْسِيّةً مُعَيّنَةً.

- الحالُ الجُغْرافِيّةُ أوِ العِرقِيّةُ: وَهَيْئَةُ اللّباسِ مِنَ المُؤْذِناتِ بِالوُقوفِ عَلى انْتِسابِ المَرْءِ لِعِرْقٍ ما، أوْ مَنْطِقةٍ سُكّانِيّةٍ، فَلأهْلِ الأَسْكيمو هَيْئةُ لِباسٍ تُمَيّزُهُم فَتَكونُ عَلَمًا دالاً عَلَيْهِمْ، وَلُبْسُ أهْلِ الخَليجِ في الغالِبِ مُمَيَّزٌ عَنْ لُبْسِ أهْلِ الشّامِ، فَإذا ما رَأيْنا خَليجِيًّا في بِلادِ الشّامِ عَرَفْنا أنّهُ ابنُ ذلِكَ الإقليمِ وَفاءً بِمَظْهرِهِ وَزِيّهِ الذي تَعَوَّدَه وَأَقامَ عليْهِ، وَفي بِلادِ الخَليجِ يَتمايَزُ أهْلُ البِلادِ بِمَظهَرِهِمْ وَهَيْئةِ لِباسِهِمْ، فَالعُمانِيُّ ذو هَيْئةٍ مَخْصوصَةٍ تُمَيّزُهُ وَتُفْضي بِالنّاظِرِ إلى تَقْريرِ البَلدِ وَالمَكانِ، وَأهْلُ المَغْربِ العَرَبِيّ ذو لِباسٍ تَقْليدِيّ خاصٍّ بِهِمْ يُعْرَفونَ بِهِ وَمِنْهُ، وَلأهْلِ القَرْيَةِ في الغالِبِ لِباسٌ خاصٌّ يُفارِقُ لِباسَ المَدينَةِ، وَمِنْ تَجَلّياتِها زِيُّ القَرَوِيّ الفِلَسْطينِيّ عِلْمًا بِأنَّ اللّباسَ القَرَوِيَّ بَدَأ بِالانْقِراضِ، وَالتّماهي بَيْنَ الهَيْئَتَيْنِ: المَدنِيّةِ وَالقَرَوِيّةِ.

وَالحَقُّ أَنَّ هذا يَكثُرُ إنْ تَتبّعْتُهُ، وَقَدْ أوْرَدْتُ أمْثِلةً تُنَبِّهُ عَلى الغَرَضِ الذي قَصَدتُهُ، وَهُوَ أنَّ لِهيئَةِ اللّباسِ مُعْجمًا واسِعًا فَضْفاضًا يَتّسِعُ لِدِلالاتٍ وَإيحاءاتٍ مُتَباينَةٍ تَلْتَقي فيها المَعاني النَّفْسِيّةُ، وَالاجتِماعِيّةُ، وَالعِرْقِيّةُ، وَالدّينِيّةُ، وَالمَذْهَبِيّةُ، وَغَيْرُ ذلكَ، وَمِمّا وَرَدَ دالاً عَلى ما أنا خائِضٌ فيهِ زَعْمُ كُثَيِّرٍ عَزَّةَ أَنّهُ عَدْنانِيٌّ يَنْتَمي إلى كِنانَةَ قُرَيْش، وَزَعْمُ غَيْرِهِ أَنّهُ يَنْتَمي إلى قَبيلَةِ خزاعَةَ مِنْ قَحْطانَ، فَقالَ يَذْكُرُ فيها نِسْبَتَهُ إلى عَدْنانَ مُشيرًا إلى أَثَرِ اللّباسِ في تَعْيينِ النَّسَبِ، وَتَرَدُّدِهِ في لِباسِهِ بَيْنَ النَّسَبَيْنِ:

لَبِسْنا ثِيابَ العَصْبِ فَاخْتَلَطَ السَّدى بِنا وَبِهِمْ وَالحَضْرَمِيَّ المُخَصَّرا
إذا ما قَطَعْنا مِنْ قُرَيْشٍ قَرابَةً بِأَيّ نِجادٍ تَحْمِلُ السَّيْفَ مَيْسرا[1]

وَالمَعْنى أَنّهُ ارْتَدى العَصْبَ اليَمانِيَّ، وَهِيَ بُرودٌ، وَاحْتَذى الحَضْرَمِيَّ مِنَ النِّعالِ، فَبَدا مِنْ عَدْنانَ تارَةً، وَمِنْ قَحْطانَ تارَةً أُخْرى.

سادِسًا: مِنْ هَيْئاتِ اليَدِ وَدِلالاتِها

يُقولُ "هنري بورو" المَسْؤولُ عَنْ قِسْمِ جِراحَةِ اليَدِ في مُسْتَشْفى "تيمون" في

(1) انظر: كُثير، ديوانه، 141، والعصْب برود يمينية، والسَّدى خيوط الطول في القماش، والمخصر ضيق الجانبين، والحضرمي ضرب من النعال.

"مرسيلية": "اليَدُ هِيَ أَداةُ امْتِدادِ الدِّماغِ، وَالجُزءُ الوَحيدُ في الجِسْمِ البَشَرِيِّ الذي هُوَ دَوْمًا تَحْتَ العَيْنَيْنِ، وَالرّابِطَةُ المُمَيَّزَةُ مَعَ العالَمِ الخارِجِيِّ"[1]، وَما دامَ ذلِكَ كَذلِكَ، فَهِيَ إِذًا وَسيلَةُ اتّصالٍ غَيْرِ لَفْظِيٍّ يَعِزُّ نَظيرُها، وَقَدْ تَكونُ في مَقامِيّاتٍ بَديلاً عَنِ الكَلامِ تَصْدُقُ عَلَيْها:

- القَوْلَةُ الفَرَنْسِيّةُ الذّائِعَةُ: "يَتَحَدّثُ بِيَدَيْهِ"[2].
- وَقَوْلَةُ "فرويد" الشّهيرَةُ: "ذاكَ الذي تَصْمتُ شَفَتاه يُثَرْثِرُ بِطَرَفِ أَصابِعِهِ"[3].
- وَقَوْلَةُ الشّاعِرِ:

يـا لَلرِّجـالِ لِعاشِقَيْـنَ تَوافَقـا وَتَـخاطَبـا مِـنْ غَيْـرِ أَنْ يَتَكَلَّمـا
حَتّـى إِذا خافـا العُيـونَ وَأَشْفَقـا جَعَـلا الإِشـارَةَ بِالأَنامِـلِ سُـلَّما[4]

- وَالصّورَةُ النّاطِقَةُ التّالِيَةُ التي فيها حَرَكاتٌ مُرَكَّبَةٌ تَضافَرَتْ فيها اليَدُ مَعَ جَوارِحَ أُخْرى، فَغَدا لِكُلِّ حَرَكَةٍ مُرَكَّبَةٍ مَعْنًى مَخْصوصٌ:

لا أتكلم الشر لا أسمع الشر لا أرى الشر

وَقَدِ اجْتَرَحَتِ العَرَبِيّةُ أَلْفاظًا مَخْصوصَةً لِهَيْئاتِ اليَدِ وَدِلالاتِها، فَقَدْ عَقَدَ الثّعالِبِيُّ فَصْلاً خاصًّا في "تَفْصيلِ حَرَكاتِ اليَدِ وَأَشْكالِ وَضْعِها وَتَرْتيبِها"[5]، وَهُوَ بِهذا يَقِفُ

(1) انظر: باكو، لغة الحركات، 42.
(2) انظر: باكو، لغة الحركات، 42.
(3) انظر: نتالي باكو، لغة الحركات، 76.
(4) انظر: الحصري، زهر الآداب، 325/2.
(5) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 194.

بِقارِئِهِ عَلى هَيْئاتٍ وَدِلالاتٍ سَنَأْتي عَلَيْها في مَطْلَبِ القَوْلِ عَلى الأَنْظارِ المُؤَصِّلَةِ، وَمِنْها "المُشاجَبَةُ"، وَهِيَ جَعْلُ الأَصابِعِ بَعْضِها في بَعْضٍ، و"القَبْضَةُ"، وَهِيَ ضَمُّ أَطْرافِ الأَصابِعِ، وَ"التَّبَلّدُ" أوِ التَّصْفيقُ" إِذا ضَرَب إِحْدى راحَتَيْهِ عَلى الأُخْرى، وَ"الإِلْواءُ" تَحْريكُ السّبّابةِ، وَبِهِ قَدْ يَقَعُ السّلامُ وَالإِشارَةُ، وَ"الاسْتِكْفافُ" أَنْ يَنْظُرَ إِنْسانٌ إِلى قَوْمٍ في الشَّمْسِ فَيُلْصقَ حَرْفَ كَفِّهِ بِجَبْهتِهِ، وَغَيْرُ ذلِكَ كَثيرٌ[1]، وَالظّاهِرُ أَنَّ الحَديثَ عَنِ اليَدِ يَشْتَمِلُ عَلى جَوارِحَ أُخْرى، كَالأَصابِعِ، وَالكَفِّ، وَالذِّراعِ. لِنَرْجِعِ النَّظَرَ في الحَرَكاتِ اليَدوِيّةِ الآتِيَةِ وَدِلالاتِها:

- اسْتِعمالُ اليَدِ أوِ اليَدَيْنِ لِلمُشابَهَةِ التَّشْخيصِيّةِ بَيْنَ الحَرَكَةِ اليَدَوِيّةِ وَالشَّيْءِ أوِ الفِكْرَةِ، أوْ لِلقِياسِ التَّقْريبِيّ طولاً وَعَرْضًا كَما في الآتي رَسْمُهُ:

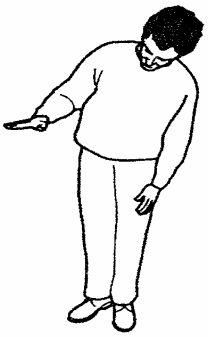

- فَرْكُ الكَفَّيْنِ، وَهُما مَفْتوحَتانِ لِتَصْويرِ مَعْنى الفَرَحِ، أَوِ الشُّعورِ بِالبَرْدِ.
- تَقْليبُ الكَفَّيْنِ المَفْتوحَتَيْنِ لِلدِّلالَةِ عَلى مَعْنى النَّدَمِ.
- اسْتِعْمال الكَفَّيْنِ أَوِ الكَفِّ لِقَوْلِ: قِفْ، أَوْ حَسْبُكَ، وَهُنا تَظْهَرُ اليَدَانِ مَرْفوعَتَيْنِ، وَباطِنُهُما تِلْقاءَ المُخاطَبِ.
- اليَدانِ مَمْدودَتانِ وَمَرْفوعَتانِ إِلى الأَعَلى، وَيَكونُ باطِنُهُما مُوَجَّهًا تِلْقاءَ المُرْسِلِ، وَالمَعْنى المُتَعَيِّنُ الدُّعاءُ في حَضْرَةِ قَوْلِنا "يا رَبّ".
- اليَدانِ مَمْدودَتانِ، وَمَفْتوحَتانِ، وَمائِلَتانِ، وَالمَعْنى المُتَعَيِّنُ التَّرْحيبُ، أَوْ مُسانَدَةُ قَوْلِ "أَهْلاً وَسَهْلاً"، أَوِ المُبادَرَةُ لِلاحْتِضانِ أوِ العِناقِ.

---

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 194-196.

- تَحْريكُ اليَدِ أوِ اليَدَيْنِ لِلوَداعِ، أَوِ التّحِيّةِ مِنْ بَعيدٍ، وَيَكونُ باطِنُ الكَفِّ مَفْتوحًا وَمَصْروفًا تِلْقاءَ المُخاطَبِ.

- رَفْعُ اليَدِ بِقُوّةٍ مَعَ قَبْضِ أَصابِعِ الكَفِّ كَمَنْ يَقولُ وَقَدِ اعْتَرَتْهُ حالَةٌ نَفْسِيّةٌ ثائِرَةٌ: "اللهُ أَكْبَرُ"، أوْ "يَحْيا الشَّعْبُ".
- رَفْعُ اليَدِ اليُمْنى وَالكَفِّ عَمودِيًّا، وَبَسْطُ الكَفِّ اليُسْرى عَلَيْها أُفُقِيًّا، وَهِيَ صورَةُ ما يُسَمّى "الوَقْتَ المَقْطوعَ"، أوْ الاسْتِراحَة.
- عَضُّ الكَفِّ أوِ الأَصابِعِ لِتَصْوير مَعْنى النَّدَمِ، أَوِ الغَيْظِ، أوِ الخَوْفِ وَالمُباغَتَةِ.

مِنْ دِلالاتِ حَرَكاتِ الأَصابِعِ:

- إِشارَةُ تَعْيينِ المَكانِ، أوِ الجِهَةِ بِالسّبّابَةِ المَمْدودَةِ غالِبًا.
- إِشارَةُ اليَدِ وَالسّبّابَةِ المَمْدودَتَيْنِ لِلتَّهْديدِ وَالوَعيدِ، كَأنْ تَتَحَدَّثَ أُمٌّ مَعَ وَلَدِها، فَتُؤَنّبَهُ بِيَدِها وَبِإِصْبَعِها المَمْدودَةِ.
- وَضْعُ السّبّابَةِ المَمْدودَةِ طولِيًّا عَلى الفَمِ، وَالمَعْنى المُتَعَيّنُ: اصْمتْ.
- إِشارَةُ التَّصامُمِ آنَ سَماعِ صَوتٍ مُزْعِجٍ أوْ مُسْتَكْرَهٍ، وَعِمادُها وَضْعُ رُؤوسِ الأَصابِعِ في الأُذُنَيْنِ.

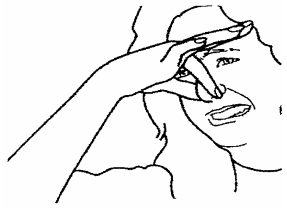

- وَضْعُ الإِصْبَعَيْنِ عَلى الأَنْفِ، بَلْ المَنْخِرَيْنِ لإِغْلاقِهِما لِلدِّلالَةِ عَلى أَنَّ رائِحَةً مُسْتَهْجَنَةً أوْ قَبيحَةً قَدْ فاحَتْ.

- عَقْدُ دائِرَةٍ صَغيرَةٍ بِالإِبْهامِ وَالسّبّابَةِ، وَمَدُّ اليَدِ كَالذي يُقْسِمُ بِاللهِ العَظيمِ، أَوْ يَشْرَحُ شَيْئًا وَقَدْ وَصَلَ إِلى ذروَتِهِ، فَمَدَّ يَدَهُ وَحَلَّقَ بِإِبْهامِهِ وَالسَّبّابَةِ.

- حَرَكَةُ الإِبْهامِ المَرْفوعَةِ المَصْروفَةِ تِلْقاءَ المُخاطَبِ، وَالأَصابعُ مَقْبوضَةٌ، وَمَعْناها: كُلُّ شَيْءٍ قَدْ باتَ مُعَدًّا.

- حَرَكَةُ الإِبهامِ المَخْفوضَةِ المَمْدودَةِ، وَالأصابعِ المَقْبوضَةِ، وَالمَعْنى السّقوطُ، أوِ السَّلْبِيّةُ.

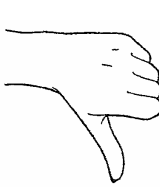

- حَرَكَةُ النَّصْرِ، وَعِمادُها نَصْبُ الإِصْبَعَيْنِ: السَّبّابَةِ وَالوُسْطى، وَصورَةُ هذِهِ الحَرَكَةِ كَصورَةِ العَدَدِ 7 في الرَّسْمِ الكِتابِيّ، وَيُراعي في ذلِكَ أنْ يَكونَ باطِنُ اليَدِ تِلْقاءَ المُخاطَبينَ أوِ النَّظّارَةِ.

- رَفْعُ اليَدَيْنِ إِلى الأَعْلى، وَبَقاءُ الكَفَّيْنِ مَفْتوحَتَيْنِ، وَباطِن اليَدَيْنِ نَحْوَ المُخاطَبِ أوِ المُتَوَجَّهِ إِلَيْهِ، وَالمَعْنى المُتَعَيِّنُ الاسْتِسْلامُ.

- قَضْمُ الأَظافِرِ، وَدِلالَةُ ذلِكَ القَلَقُ، وَالاضطرابُ، أوِ الإِغْراقُ في التَّفْكيرِ، أوْ عادَةٌ ظاهِرَةٌ مُسْتَحْكِمَةٌ تَشي بِأَعْراضٍ نَفْسِيّةٍ باطِنَةٍ، كَما في الشَّكْلِ التّالي:

- ضَمُّ رُؤوسِ الأَصابعِ الخَمْسةِ إِلى بَعْضِها، وَمَدُّ اليَدِ قَليلاً نَحْوَ الأَمامِ، وَالإِبْقاءُ عَلى باطِنِ الكَفّ تِلْقاءَ المُرْسِلِ، وَالمَعْنى: "انْتَظِرْ"، أوْ "تَرَيَّثْ"، أوْ "أَعِرْني لَحْظَةً".

سابعًا: المُتَمِّماتُ المُسانِدَةُ

يَشيعُ في دَرْسِ لُغَةِ الجَسَدِ مَطْلَبٌ مِن البَحْثِ في المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ التي تُسَمّى "الإكسسوارات"، وَيُخَصُّ في هذا المَقامِ ما لَهُ لُحْمَةٌ بِالجانِبِ الدِّلالِيّ التّواصُلِيّ؛ كَالنّظّارَةِ، وَالسّيجارَةِ، وَالسّيجارِ، وَالقَلَمِ، وَالهاتِفِ، وَالعَصا، وَالسُّبْحَةِ، وَالسَّوْطِ، وَالقِناعِ، وَالطّيبِ، وَزينَةِ المَرْأَةِ؛ كَحُليّها، وَمُحَسّناتِها الجَمالِيّةِ؛ وَما تَضعُهُ عَلى وَجْهِها، وَعَيْنَيْها، وَشَفَتَيْها، وَغَيْرِ ذلِكَ[1]. وَالظّاهِرُ مِنْ أَمْرِها أَنّها تُمِدُّنا بِمَعانٍ مَخْصوصَةٍ؛ ذلِكَ أَنّ بَعْضَها تَوابِعُ لأَعْضاءِ الجَسَدِ المومِئَةِ، وَكَواشِفُ لِلحالاتِ النّفْسِيّةِ وَالذِّهْنِيَّةِ التي تَعْتَري صاحِبَها، فَهَيْئَةُ حَمْلِ المَرْءِ لِقَلَمِهِ لَها دِلالَةٌ عَلى أَنّهُ كَتَبَ، أَوْ يَكْتُبُ، أَوْ يُفكِّرُ مُطْرِقًا مُمْسِكًا بِقَلَمِهِ، وَقَدْ يَصِلُ الأَمْرُ أَحْيانًا إِلى قَضْمِ القَلَمِ[2].

كَذلِكَ اللّعِبُ بِالخاتِمِ كَنَزْعِهِ وَإِدْخالِهِ، وَاللّعِبُ بِرِبْطَةِ العُنُقِ، وَإِشْعالُ السّيجارَةِ، "فَإيماءاتُ التَّدْخينِ تُلْمِحُ إِلى مَوْقِفِ الشَّخْصِ؛ ذلِكَ أَنَّها تُمارِسُ مُمارَسَةَ طُقوسٍ يُمْكِنُ التّنَبُّؤُ بِمَعانيها، فَتُقَدّمُ تِلْكَ الهَيْئَةُ إِشارَةً تُعَيِّنُ مَوْقِفَ الشَّخْصِ"[3]؛ كَالغَضَبِ، أَوِ السُّرورِ، أَوَ القَلَقِ.

لِنَنْظُرْ في ثَلاثَةِ مُتَمِّماتٍ:

- أوّلُها السّيجارَةُ.
- وَثانيها السُّبْحَةُ.
- وَثالثُها العَصا.

المُدَخِّنُ وَالسّيجارَة:

لِنُسَرِّحِ الخاطِرَ مُسْتَشرِفينَ أَرْبَعَةَ مَشاهِدَ مِنْ هذا المَسْرَحِ وَالحَدَثِ التَّعْبيرِيّ الصّامِتِ:

أَوّلُها أَنَّ المُدَخِّنَ يَبْتَلِعُ الدّخانَ، ثُمّ يُخْرِجُهُ في تَؤُدَةٍ وَتَمَهّلٍ وَثِقَةٍ، وَرَأْسُهُ مَرْفوعٌ إِلى الأَعْلى، فَيَكونُ اتِّجاهُ الدّخانِ الخارِجِ عُلْوِيًّا، وَلَعَلَّ هذِهِ

(1) انظر: باكو، لغة الحركات، 70- 75، و Pease, Body Language, P.155-162

(2) تربط باكو هذه الحركة بالسعادة والانفعال أحيانا. انظر: لغة الحركات، 70.

(3) Pease, Body Language, P.155.

الهَيْئةَ تَدُلُّ عَلى أنَّ مَنْ يَأْتيها مِنَ المُدَخِّنينَ واثِقٌ، أَوْ مُرْتاحٌ، أَوْ مُطرِقٌ في لَحْظَةِ تَأمّلٍ، أَوْ ما شابَهَ ذلِكَ.

وَثانيها أَنّهُ يَبْتَلِعُ الدّخانَ ثُمّ يَكْتُمُهُ إلاّ قَليلاً، ثُمّ يُخْرِجُهُ في قُوّةٍ وَانْفِعالٍ وَرَأسُهُ مُنَكَّسٌ إلى الأَسْفَلِ، فَيَكونُ اتّجاهُ الدّخانِ سُفْلِيًّا، وَلَعَلَّ الدِّلالَةَ التي تَقومُ في نَفْسِ الرّائي أَنّهُ مُتَوَتِّرٌ، أَوْ مُرْهَقٌ، أوْ كاسِفُ البالِ، أوْ ما شابَهَ.

وَثالِثُها أنّهُ يَبْتَلِعُ الدّخانَ، ثُمّ يُخْرِجُهُ وَهُوَ يُشَكّلُهُ عَلى هَيْئاتٍ؛ كَإِخْراجِهِ عَلى هَيْئةِ دَوائِرَ، وَشَفَتاهُ مُسْتَديرَتانِ، وَنَفَسُهُ مُتَقَطِّعٌ تَقطّعًا مُنْتَظَمًا، وَلَعَلَّ الدِّلالَةَ التي توحي بِها هذِهِ الهَيْئةُ العَبَثُ، أوِ الرّاحَةُ النّفْسِيّةُ، أوْ إِضاعَةُ الوَقْتِ، أَوِ المَرَحُ، أوْ ما شابَهَ.

وَرابِعُها أَنّه يُشْعِلُ السّيجارَةَ عِقَبَ أخْتِها، بَلْ لا يَكادُ يُشْعِلُها حَتّى يُطْفِئَها دونَ أنْ يَنْتَهِيَ مِنْها، وَلَعَلَّ الدِّلالَةَ التي تُسْتَشَفُّ مِنْ هذِهِ الهَيْئةِ هِيَ الاضطرابُ، وَالقَلَقُ، وَعَدمُ انْسِجامِ وَتيرَةِ التّفْكيرِ، فَيَنْسَحِبُ هذا عَلى هَيْئةِ الفِعْلِ، وَهُوَ التَّدْخينُ، فَيَغْدو مُضطرِبًا في حَرَكتِهِ وَتَدْخينِهِ.

وَقَدْ يَشْرعُ يَنْفُضُ سيجارَتَه في المنْفَضَةِ غَيْرَ مَرّةٍ دونَ حاجَةٍ إلى ذلِكَ، وَالظّاهِرُ في كُلِّ مَشْهَدٍ مِنْ مَشاهِدِ هذا المَسْرَحِ وَالحَدثِ التَّعْبيريّ الصّامِتِ دِلالَةٌ بَلْ دِلالاتٌ تُنْسَبُ إلى بابِ القَوْلِ عَلى المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ، فَقدْ نَقْرَأُ فيها أنّهُ خائِفٌ مَثَلاً، أوْ واثِقٌ، أَوْ مَغْرورٌ، أَوْ مَسْرورٌ، أَوْ مُغْرِقٌ في التّأمُّلِ، كُلُّ هذا مِمّا يُسْتَقى مِنْ مَشاهِدِ هذا المَسْرحِ في سِياقِهِ الحَيّ بِالإِضافَةِ إلى ما يَظْهَرُ عَلى جَوارِحِه مِنْ عَلائِمَ تَسْنُدُ ذلِكَ كُلَّهُ.

السُّبْحَةُ:

وَفي عَرْضٍ مَسْرَحِيٍّ آخَرَ نَجِدُ أَنَّ لِلسُّبْحَةِ، وَهِيَ مِنَ المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ المُنْتَسِبَةِ إلى التّواصُلِ غَيْرِ اللّفْظِيِّ عامّةً، وَلُغَةِ الجَسَدِ خاصّةً، مَشاهِدَ مُتَنَوّعَةً تَتَعَدّدُ إيحاءاتُها وَدِلالاتُها، فَلِحَمَلَتِها وَلِمُقْتَنيها أَغْراضٌ في نُفوسِهِمْ شَتّى، فَمِنَ الدّواعي المُقَرِّرَةِ بِحَمْلِها

أَنْ تَكونَ أَداةً يُسْتعانُ بِها عَلى العِبادَةِ وَالتّسْبيحِ، وَقَدْ يَكونُ حَمْلُها عادَةً مُسْتَحْكِمَةً في نَفْسِ صاحِبِها، وَقَدْ يَكونُ حَمْلُها لإِظْهارِ الغِنى وَالتّرَفِ وَالتّنَعُّمِ، كُلُّ ذلِكَ وَغَيْرُهُ مِمّا يَصْدُقُ عَلَيْهِ وَصْفُ "وَلِيَ فيها مَآرِبُ أُخْرى".

فَفي مَشْهَدٍ قَدْ تَكونُ في يَدِ شَيْخٍ أَشْغَلَ نَفْسَهُ بِالذِّكْرِ، فَصارَ لِسانُهُ لاهِجًا، وَأَصابِعُهُ عادّةً، وَسُبْحَتُهُ مُبينَةً عَنْ ذلِكَ كُلِّهِ، وَغالِبًا ما تَكونُ السُّبْحَةُ في هذِهِ الحالِ مِنَ النَّوْعِ الطَّويلِ، وَالحَبّاتِ الكَثيرَةِ.

وَفي مَشْهَدٍ آخَرَ قَدْ تَكونُ في يَدِ شابٍّ تَعَوَّدَ حَمْلَها لِتَكونَ أُلْعوبَةٍ في يَدِهِ، أَوْ وَسيلَةً لإِضاعَةِ الوَقْتِ وَالتّسلِيَةِ، فَيُحَرِّكُها بِيَدِهِ، أَوْ أَصابِعِهِ كُلّما تَحَرّكَتْ نَفسُهُ طَرَبًا، أَوْ شَوْقًا، أَوِ انْفِعالاً، وَغالِبًا ما تَكونُ السُّبْحَةُ في هذا المَشْهَدِ مِنَ النّوْعِ القَصيرِ، وَيَكونُ لَوْنُها فاقِعًا يَسُرُّ النّاظِرينَ.

وَفي مَشْهَدٍ ثالِثٍ قَدْ تَكونُ في يَدِ رَجُلٍ ثَرِيٍّ حَمَلَها لِيَدُلَّ بِها عَلى غِناهُ، أَوْ نَفاسَتِها، وَقَدْ تَكونُ مِنَ المُعَلَّقاتِ النَّفيسَةِ في بَيْتِهِ، أَوْ أَشْيائِهِ الخاصّةِ، وَغالِبًا ما تَكونُ مِنَ الأَحْجارِ الكَريمَةِ، كَالعَقيقِ، وَغَيْرِهِ، وَتَكونُ مُنَمَّقةً بَلَغَتْ مَبْلَغًا عَظيمًا مِنَ التَّجْويدِ وَالتَّحْسينِ.

العَصا:

كَذلِكَ العَصا قَدْ تَكونُ مِنَ الرَّوافِدِ المُفْضِيَةِ إِلى دِلالاتٍ أَوْ إيحاءاتٍ، فَشَكْلُها وَطولُها وَسَمْكُها وَمادّتُها المُؤَلِّفَةُ، وَتَنْميقُها، وَهَيْئَةُ حَمْلِها، كُلُّ ذلِكَ يَفْعَلُ في تَرْشيحِ مَعانٍ يَصْدُقُ عَلَيْها قَوْلُ الحَقِّ -تَقَدَّسَ اسْمُهُ-: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾[1]، وَعَلى ذِكْرِ العَصا قيلَ إِنَّ الحَجّاجَ لَقِيَ أَعْرابِيًّا فَقالَ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قالَ: مِنَ البادِيَةِ، قالَ: ما بِيَدِكَ؟ قالَ: عَصا أَرْكِزُها لِصَلاتي، وَأُعِدُّها لِعداتي، وَأَسوقُ بِها دابَّتي، وَأَقْوى بِها عَلى سَفَري، وَأَعْتَمِدُ بِها في مِشْيَتي، لِيَتّسِعَ بِها خَطْوي، وَأَعْبُرُ بِها النَّهْرَ فَتُؤْمِنُني، وَأُلقي عَلَيْها كِسائي فَتَسْتُرُني مِنَ الحَرِّ، وَتَقيني مِنَ القُرِّ، وَتُدْني ما بَعُدَ مِنّي، وَهِيَ مِحْمَل سُفْرَتي، وَعِلاقَةُ إِداوَتي، وَمِشْجَبُ ثِيابي، أَعْتَمِدُ بِها عِنْدَ

(1) الآية(طه، 18).

الضِّرابِ، وَأَقْرَعُ بِها الأَبْوابَ، وَأَتَّقي بِها عَقُورَ الكِلاَب، تَنوبُ عَنِ الرُّمْحِ في الطِّعانِ، وَعَنِ الحِرْزِ عِنْدَ مُنازَلَةِ الأَقْرانِ، وَرِثْتُها عَنْ أبي، وَأورِثُها بَعْدي ابْني، وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمي، وَلِيَ فيها مَآرِبُ أُخْرى، كَثيرَةٌ لا تُحْصى[1].

وَهُناكَ مُحَسِّناتُ المَرْأَةِ الجَسَدِيّةُ، وَالغُليونُ، وَالنّظارَةُ، وَغَيْرُ ذلِكَ مِنْ مَعينِ حَياةٍ لا يَنضُبُ، وَلأَكْتَفِ بِما تَقَدّمَ مُؤمِّلاً أنْ تَكونَ فيهِ لَمْحَةٌ دالّةٌ، وَجِدّةٌ مُضافَةٌ قائِلَةٌ بِسُهْمَةِ المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ في تَرْشيحِ مَعانٍ دونَ أُخْرى.

حُدودُ المَناطِقِ الجَسَدِيّةِ

لَوْ أَنَّنا سَرَّحْنا الخاطِرَ مُتَخَيِّلينَ أَنَّ اثْنَيْنِ قَدْ شَرَعا يَتَخاطَبانِ، فَتَقدَّمَ أَحَدُهُما نَحْوَ الآخَرِ مُقْتَرِبًا اقْترابًا ظاهِرًا، فَإِنَّ الثّانِيَ سَيَرْجِعُ إلى الوَراءِ لِيُبْقِيَ عَلى مسافَةٍ خاصّةٍ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَنْ يَقِفُ وُجاهَهُ، وَلَعَلَّهُ لا يَسْمَحُ بِاخْتِراقِ مَنْطِقَتِهِ الخاصَّةِ التي فيها يَقِفُ، وَبِذا تَكونُ هذِهِ المسافَةُ التي يُبْقي عَلَيْها المَرْءُ مِنَ المَحْمِيّاتِ التي يُحافِظُ عَلَيْها وَيَحْرِصُ، وَمِنَ المُحَرَّماتِ التي يُنْكِرُ عَلى أَحَدٍ إِتْيانَها، وَالوُلوجَ فيها، وَاللاّفِتُ لِلنَّظَرِ أَنَّ هذِهِ المَنطِقَةَ لَها حُدودٌ غَيْرُ مَرْئِيّةٍ يُحافِظُ عَلَيْها المَرْءُ كَما يُحافِظُ عَلى حُدودِهِ المَرْئِيّةِ المَحْسوسَةِ[2].

وَقَدْ يَكونُ الأَمْرُ بِالضِّدِّ، فَإِذا ما تَواصَلَ اثْنانِ تَواصُلاً تَجافى فيهِ أَحَدُهُمْ عَنِ الآخَرِ، فَزادَتْ مسافَةُ التَّجافي عَمّا هُوَ مُتَقَبَّلٌ أَوْ مُتخَيَّلٌ، فَإِنَّ القُطْبَ الثّانِيَ مِنَ التّواصُلِ سَيُنْكِرُ عَلَيْهِ بِالقَوْلِ أَوْ بِالفِعْلِ ما قَدْ صَدَرَ مِنْهُ: أَمّا بِالقَوْلِ فَكَأَنْ يَقولَ: لِماذا تَبْتَعِدُ عَنّي؟ وَأَمّا بِالفِعْلِ فَكَأَنْ يُبادِرَ بِالاقْتِرابِ، فَيُقلِّلَ المسافَةَ بَيْنَهُما.

وَقَدْ أَوْلى أَهْلُ هذا الدَّرْسِ؛ دَرْسِ لُغَةِ الجَسَدِ، المسافاتِ بَيْنَ الأَشْخاصِ عِنايَةً ظاهِرَةً[3]، فَالمسافَةُ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِنْ مُتَخاطِبَيْنِ، وَإِنْ واقِفَيْنِ صامِتَيْنِ، قَدْ تُقَرِّرُ لِلنّاظِرِ أَحْيانًا أَنَّ بَيْنَهُما حَميمِيّةً مُؤَلِّفَةً أَفْضَتْ إِلى اقْترابِهِما إِلى حَدٍّ كَبيرٍ، وَأَنَّ الأَمْرَ قَدْ يَكونُ بِالضِّدِّ،

(1) انظر: الحصري، زهر الآداب، 268/2.

(2) انظر الفصل الرابع والموسوم بـ"الدفاع" عند:

Norman Ashcraft, and Albert E., Scheflen, People Space: The Making and Breaking of Human Boudaries, P.48.

(3) انظر:

Norman Ashcraft, and Albert E., Scheflen, People Space, P.152.

واَلمُصْطَلَحُ الدّالُّ عَلى هذِهِ الفِكْرَةِ في هذا الدَّرْسِ هِيَ "Proximics"، وَمُبْتَدِعُها عالِمُ الإِنْسانِيّاتِ الأَمْريكِيُّ "إدوارد هول"، وَهُوَ مِنَ الرُّوّادِ في دِراسَةِ حاجاتِ الإِنْسانِ المَكانِيّةِ، وَتَعْني هذِهِ الكَلِمَةُ التّقارُبَ([1]).

أَمّا المسافاتُ بَيْنَ الأَشْخاصِ فَهِيَ تَقْريبِيّةٌ أَوّلاً، وَقَدْ قُسِمَتْ إِلى أَرْبَعِ مَناطِقَ عَلى النَّحْوِ الآتي:

- **المَنْطِقَةُ العَميقَةُ (الخاصّةُ):**

وَهِيَ التي مسافَتُها مُتَرَدِّدَةٌ بَيْنَ (15-45سم) تَقْريبًا، وَهِيَ مَنْطقَةٌ مِنْ خاصِّ مُلْكِ الإِنْسانِ، وَمِمّا يَحْرِصُ عَلَيْهِ، فَلا يُبيحُ لأَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَها، وَإِنْ أَحَدٌ فَعَلَ ذلِكَ حَقًّا فَهُوَ أَحَدُ اثْنَيْنِ: قَريبٌ حَبيبٌ ذو لُحْمَةٍ وَعُرى وُثْقى بِصاحِبِ المَنْطِقَةِ المُخْتَرَقَةِ، كَالأَبِ، أَوِ الزَّوْجِ، أَوِ الأُخْتِ، أَوِ الابنِ، أَوْ مَنْ سارَ بِرَكْبِ هؤلاءِ، أَوْ عَدُوٌّ مُباغِتٌ، أَوْ لِصٌّ نَشّالٌ، أَوْ ما شابَهَ ذلِكَ مِنْ مَعانٍ قَدْ تَقومُ في النَّفْسِ.

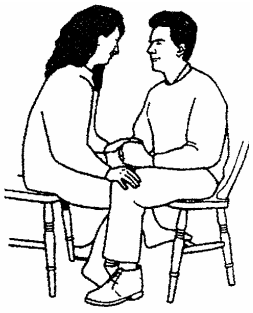

وَقَدْ أَلْمَحَ الدّارِسونَ إِلى مَنْطقةٍ أَعْمَقَ مِنْ هذِهِ، وَهِيَ المَنْطِقَةُ الخاصَّةُ جِدًّا، وَمسافَتُها مِقْدارُها(0-15سم)، وَتَتَجَلّى أَكْثَرَ ما تَتَجَلّى عِنْدَ تَقارُبِ الجَسَدَيْنِ، بَلِ المَلامَسَةِ وَالتَّداني الذي ما بَعْدَه تَدانٍ، كَما في العِناقِ أَوِ الضّمِّ، وَلَعَلَّ هذِهِ المَنْطِقَةَ هِيَ التي قالَ عَنْها ابنُ الرّومِيّ:

أُعانِقُها وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشوقَةٌ إِلَيْها وَهَلْ بَعْدَ العِناقِ تَدانِ[2]

-**المَنْطِقَةُ الشَّخْصِيّةُ:**

وَهِيَ المَنْطِقَةُ المُتَرَدِّدةُ بَيْنَ مسافَةٍ مِقْدارُها (1.2-46سم)، وَهِيَ التي يُحافِظُ عَلَيْها كُلُّ مِنّا في الغالِبِ في الحَفَلاتِ الرَّسْمِيّةِ، وَالمهْرَجاناتِ، وَالحُشودِ الاجْتِماعِيّةِ، فَلَيْسَتْ بِالمَنْطِقَةِ العَميقَةِ التي تُؤَلِّفُ بَيْنَ أَصْحابِها حَميمِيّةٌ، أَوْ مَوَدّةٌ وَثيقَةٌ، وَلَيْسَتْ بِالبَعيدَةِ التي يَظْهَرُ فيها تَجافٍ أَوْ تَناكُرٌ.

---

(1) أتى على هذا المبحث وحدود المناطق وأقسامها:

Norman Ashcraft, and Albert E., Scheflen, People Space: The Making and Breaking of Human Boudaries, Pease, Body Language, P.24-39, Geddes, Body Language, P.118-121.

(2) انظر: ابن الرومي، ديوانه، 406/3، ومغلطاي، الواضح المبين، 83.

- **المَنْطِقَةُ الاجتِماعِيةُ:**

وَهذِهِ المَنْطِقَةُ تَكونُ في الكَثيرِ الغالِبِ مَعَ الغُرَباءِ، وَالمُلاحَظُ أنَّ كُلاً مِنّا يُحافِظُ عَلى هذِهِ المسافَةِ التّقْريبِيّةِ التي مِقْدارُها

(1.2-3.6م) آنَ تَواصُلِهِ مَعَ آخَرَ، أوْ وُقوفِه

أَمامَهُ، وَمِنْ صُوَرِها المسافَةُ التي تَكونُ بَيْنَ البائِعِ وَالمُشْتَري.

- **المَنْطِقَةُ العامَّةُ:**

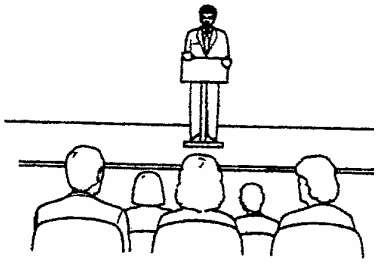

وَمسافَتُها التَّقْريبِيّةُ 3.6م فَما فَوْقَ ذلِكَ، وَتَتَجلّى هذِهِ المَنْطِقَةُ في المسافَةِ التي يُقيمُها المُحاضِرُ أمامَ طُلاّبِهِ، وَالمَسرَحِيُّ مَعَ نَظّارَتِهِ، وَالخَطيبُ وَالسِّياسِيُّ مَعَ جُمْهورِهِ[1].

مِنْ بَواعِثِ اخْتِراقِ المَناطِقِ:

وَقَدْ يَحْدُثُ أحْيانًا أَنْ يَخْتَرِقَ أحَدٌ مَنطِقَةَ آخَرَ مُتَعَمِّدًا أَوْ غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ، وَلِذلِكَ بَواعِثُ مَخْصوصَةٌ وَحالاتٌ يُمْكِنُ أنْ تَكونَ مُتَقَبَّلَةً، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكونَ في سِياقاتٍ أُخَرَ مَرْذولَةً مُسْتَهْجَنَةً، وَالحَقُّ أَنَّ مسافاتِ تِلْكَ المَناطِقِ تَقْريبِيّةٌ تَتَفاوتُ تَفاوُتًا باعِثُهُ اخْتِلافُ الثّقافاتِ وَطَبائِعِ الأُمَمِ، فَمسافَةُ المَنْطِقَةِ الخاصَّةِ قَدْ تَكونُ عِنْدَ آخَرَ، أوْ في ثَقافَةٍ أُخْرى، مسافَةَ المَنْطِقَةِ الشَّخْصِيّةِ، وَمِمّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلى تَبايُنِ هذِهِ المَسافَةِ المُتَخَلّقِ مِنَ التّبايُنِ الثَّقافِيِّ أَنَّ زَوْجَيْنِ دِنماركِيَّينِ قَدِ انْتَقلا إِلى "سيدني" طَلَبًا لِلمَعيشَةِ، وَقَدْ جَأَرَتْ بِالشَّكْوى ثُلّةٌ مِنَ النّسْوَةِ المُنْتَسِباتِ إِلى النّادي الذي يَعْمَلُ فيهِ الزَّوجُ؛ ذلِكَ أَنّهُ كانَ يَخْتَرِقُ المَنْطَقَةَ الخاصَّةَ بِهِنَّ، فَغَدوْنَ لا يَشْعُرْنَ بِالرّاحَةِ وَهُوَ في النّادي، وَقَدْ كانَ ذلِكَ أَيْضًا مِمّا قامَ في أَنْفُسِ الأُستُراليّينَ الرِّجالِ الذين أَحَسّوا بِأَنَّ امْرَأَتَهُ تَخْتَرِقُ مَناطِقَهمْ، وَكَأَنّها تَجْترِحُ إيماءاتٍ جِنْسَيّةً ما.

وَقَدْ عايَنَ الأسترالِيُّ Pease هذِهِ الظّاهِرَةَ وَدَرَسَها، فَخَلَصَ إِلى أَنَّ كَثيرًا مِنَ الأوروبِيّينَ لَهُمْ مَنْطِقَةٌ خاصّةٌ مِقْدارُها (20-30سم)، وَلِذا كانَ الزَّوْجانِ الدّنمركِيّانِ لا يَشْعُرانِ بِأَنّهُما اخْتَرَقا مَنْطِقَةَ غَيْرِهِما عِلْمًا بِأَنّهُما قَدِ اقْتَحَما مَنْطِقَةَ (السّتّةِ وَالأَرْبَعينَ)

(1) Pease, Body Language, P.26-27.

الخاصَّةَ بالأسْتُراليّينَ، وَصَفْوَةُ القَوْلِ في ذلِكَ كُلِّهِ أنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ ما تَعَوَّدَ، وَأنَّ التّبايُنَ الثّقافِيَّ أفْضى إلى سوءِ التَّفْسيرِ أوَّلاً، وَالحُكْمِ ثانِيًا[1].

وَمِنَ المُفْضِياتِ إلى اخْتِراقِ المَناطِقِ العَميقَةِ أَوِ الشَّخْصِيّةِ العَوارِضُ العامّةُ، فَقَدْ يَحْدُثُ أنْ يَلِجَ المَرْءُ في مَنْطِقَةِ غَيْرِهِ العَميقَةِ مُسَيَّرًا غَيْرَ مُخَيَّرٍ، ومِنْ تَجَلّياتِ ذلِكَ الزِّحامُ الشّديدُ، وَالأَماكِنُ العامّةُ المُكْتَظّةُ، وَالقِطاراتُ، وَقَدْ يَقَعُ اخْتِراقٌ مِنَ الطّبيبِ لِجَسِّ العَليلِ، أَوْ لِقَلْعِ ضِرسِهِ، وَقَدْ يَقعُ ذلِكَ مِنَ الحَلاّقِ، أَوْ مُصَمِّمِ الأَزْياءِ.

وَمِنَ المُفْضِياتِ إلى ذلِكَ الفِطْرَةُ أَوِ التّكَبُّرِ، وَهِيَ ما أُسَمّيها الحالَ الدّائِمَةَ غَيْرَ المُتَنَقّلَةِ؛ فَبَعْضُ الأَشْخاصِ يَحْرصونَ دائِمًا عَلى إبْقاءِ مَسافَةٍ ما بَيْنَهمْ وبَيْنَ مَنْ يَقِفونَ أَمامَهُم، وَرُبّما جَعَلوا مَسافَةَ المَنْطِقَةِ الشَّخْصِيّةِ هِيَ مسافَةَ المَنْطِقَةِ العَميقَةِ، وَلِذلِكَ دَواعٍ نَفْسِيّةٌ أوْ صِحّيّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، كَالمَرَضِ، أَوِ التّكَبُّرِ، أَوِ المزاجِ، أَوِ الهَواجِسِ، وَمِمّنْ يَعْمِدُ إلى اخْتِراقِ مَناطِقِ الآخَرينَ المُحَقِّقُ، وَكَثيرًا ما يَخْتَرِقُ مَنْطِقَةَ المُتّهَمِ الخاصَّةَ، أَوِ الخاصَّةَ جِدًّا مُحاوِلاً بِذلِكَ انْتِزاعَ اعْتِرافٍ، أَوْ بَثَّ قَلَقٍ أَوْ فَزَعٍ في نَفْسِ المُتّهَمِ، أَوْ زَعْزَعَةَ فِكْرِهِ وَتَماسُكِهِ حَتّى يَكْسِرَ مُقاوَمَتَهُ، فَيَعْتَرِفَ بِما كانَ مِنْهُ[2].

إنّ اخْتِراقَ مَنْطِقَةِ الآخَرِ، وَالدُّخولَ غَيْرَ المُسَوَّغِ فيها، يُفْضِيانِ إلى تَخَلُّقِ الإشْكالِ، وَقَدْ يَنْبَني عَلى ذلِكَ رَدُّ فِعْلٍ كَلامِيٍّ أَوْ حَرَكِيٍّ يَأتيهِ مَنِ انْتُهِكَتْ مَنْطِقَتُهُ، وَلِذا لَيْسَ ثَمَّ بُدٌّ مِنَ الأَخْذِ بِعَيْنِ العِنايَةِ وَاللّياقَةِ مسافاتِ كُلِّ مَنْطِقَةٍ، فلَيْسَ الدّخولُ في مَناطِقِ الآخَرينَ مُتَقَبَّلاً، لا وَلا التّجافي عَنْ مَناطِقِهِمْ في أَثْناءِ التّواصُلِ كَذلِكَ.

وَقَدْ رَصَدَ أحَدُ الدّارِسينَ حَدَثًا كَلامِيًّا يَتَجاذَبُهُ قُطْبانِ اثْنانِ أحَدُهُما أمْريكِيٌّ، وَالآخَرُ يابانِيٌّ، فَقَدْ لاحَظَ أَنَّ الأَمريكِيّينَ في مُؤْتَمَرٍ ما يَتَحَدّثونَ جاعِلينَ لأَنْفُسِهِمْ فُسْحَةً مِقْدارُها (46-122سم)، وَعِنْدَما تَحَدَّث اليابانِيُّ مَعَ الأمْريكِيِّ بَدَأَ كُلٌّ مِنْهُما بِالحَرَكَةِ بَحْثًا عَنِ المَنْطِقَةِ المُريحَةِ التي تَعَوّدَها في التّواصُلِ وَالتّراسُلِ الكَلامِيِّ، "فَإنّهُما بَدَآ بِالتّحَرُّكِ البَطيءِ حَوْلَ الغُرْفَةِ، فَالأَمْريكِيُّ يَتَراجَعُ إلى الوَراءِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا لِيُحافِظَ عَلى مَنْطِقَتِهِ الخاصّةِ، وَاليابانِيُّ يَتَقَدّمُ رُوَيدًا رُوَيدًا نَحْوَ زَميلِهِ"[3]، وَعِنْدَ إعادَةِ عَرْضِ

(1) Pease, Body Language, P.32.
(2) Pease, Body Language, P.30.
(3) Pease, Body Language, P.33.

هـذِهِ الحادِثَـةِ المُصَـوَّرَةِ تِلْفزيونِيًّـا إِعـادَةً سَـريعَةً ظَهـرا وَكَأَنّهُمـا يَرْقُصـانِ حَـوْلَ طاوِلَـةِ الاجْتِماعاتِ رَقْصًا قائِدُه الياباني.

وَلَـيْسَ يَخْفـى أَنَّ حَرَكَـةَ كُـلٍّ مِنْهُمـا مـا هِـيَ إِلاّ مُحاوَلـةٌ لِضَـبْطِ مَنْطقَـةِ كُـلِّ واحِـدٍ، فَاليابانِيُّ مَنْطِقَتُهُ مِقْدارُها (25سم)، وَالأَمريكِيُّ مَنْطِقَتُه مِقْدارُها (50سم) تَقْريبًا، فَوُلـوجُ اليابـانِيِّ فـي مَنطِقَـةِ الأَمْريكِـيِّ هُـوَ تَحْقيـقٌ لِمَجالِـهِ الـذي تَعَـوّدَ أَنْ يُقيمَـهُ، وَمـا دَرى أَنّـهُ اخْتِـراقٌ لِمَنْطِقَـةِ الأَمريكِـيِّ، وَرُجـوعُ الأَمْريكِـيِّ إِلـى الـوَراءِ باعِثُـهُ تَحْقيـقٌ لِمَنْطِقَتِـهِ التـي اخْتَرَقَها الياباني ذاكَ اخْتِراقًا غَيْرَ مُتَعَمَّدٍ.

بَيْنَ لُغَةِ الجَسَدِ وَنَظَرِيّةِ "المايم"

وَمِمّـا يَنْتَسِـبُ إِلـى هـذا الـدَّرْسِ، أَعْنـي لُغَـةَ الجَسَـدِ خاصّـةً، وَالتّواصُـلَ غَيْـرَ اللّفْظِـيِّ عامّةً، التّمْثيلُ الصّامِتُ Dumb Show الذي اجْتُرِحَ لَهُ مُصْطَلَحٌ دالٌّ عَلَيْهِ، وَهُوَ "المـايم- Mime"، وَالمَقْصِدُ المُتَعيّنُ مِنْهُ أَنّهُ تَعْبيرٌ مَسْرَحِيٌّ فَنّيٌّ خَلاّقٌ قائِمٌ عَلى التّمْثيلِ الحَرَكِيِّ الصّامِتِ المُتَجافي عَنِ الكَلامِ، وَقَدْ تَطَوّرَ تَطَوّرًا غَدَتْ فيهِ هـذِهِ النّظَرِيّةُ ذاتَ أُسْلوبٍ تَمْثيلِيٍّ خاصٍّ يُتَعلَّمُ تَعَلّمًا، فَلَهُ تَرْكيباتُهُ، وَحَركاتُهُ، وَهَيْئاتُهُ المَحْفوظةُ[1]، وَقَدْ صُنِّفَ فيهِ كِتابٌ يَسْتَجْمِعُ مَقولاتِهِ، وَيُبَيّنُ حُدودَهُ، وَأَنْواعَهُ، وَمَدارِسَهُ، وَقَدْ وُضِعَ لِفَنّاني "المـايم"، وَمُدَرِّسيهِ، وَطَلَبَتِهِ، وَمُحِبّيهِ، وَأَصْدِقائِهِ الجُدُدِ، وَقَدْ كـانَ المَقْصِـدُ مِـنْ تَصْنيفِهِ اسْتِكْشـافَ شَكْلِ "المـايم" اسْتِكْشـافًا فَنّيًـا، وَعِلْمِيًّـا، وَنَظَرِيًّـا، وَعَمَلِيًّـا[2]، وَقَـدِ التَمَسَ أَهْلُ هـذا الفَـنِّ مَلامِحَ جامِعَةً بَيْنَ التّمْثيلِ المَنْطوقِ وَالتَّمْثيلِ الصّامِتِ، مُقَرِّرينَ أَنَّ:

- كَلَيْهِما فَنٌّ مَسْرَحِيٌّ مُحْتاجٌ إِلى تَجَلّي شَخْصِيّةٍ، وَصِراعٍ، وَفِكْرَةٍ مُؤَسِّسَةٍ، وَقِصّةٍ.
- وَأَنَّ كَلَيْهِما مُحْتاجٌ إِلى مُمَثّلينَ يُؤَدّونَ عَرْضًا حَرَكِيًّا عِمادُهُ الجَسَـدُ وَالحَرَكـاتُ أَمـامَ النّظّارَةِ الحاضِرينَ بِأَبْدانِهِمْ.
- وَأَنَّ كَلَيْهِمـا مُحْتـاجٌ إِلـى الالْتِـزامِ بِالمـادَّةِ التـي يُمَثّلونَهـا لِخَلْـقِ باعِـثٍ داخِلِـيٍّ عَلـى الحَرَكاتِ الخارِجِيّةِ[3].

---

(1) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 30.

(2) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 23.

(3) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 30.

وَقَدْ تَبايَنَ أَهْلُ هذا الدَّرْسِ مِنَ التّواصُلِ غَيْرِ اللَّفْظِيّ في إِقامَةِ بَوْنٍ بَيْنَ مُصْطَلَحَيْنِ مُتَداخِلَيْنِ، وَهُما "المايم"، وَ"البانتومايم"، وَالمَلْمَحُ الجامِعُ بَيْنَهُما أنَّ كِلَيْهِما تَمْثيلٌ جَسَدِيٌّ صامِتٌ، وَبِرَجْعِ النَّظَرِ فيما قيلَ مِنْ مَلامِحَ دِلالِيَّةٍ فارِقَةٍ يَتَجَلّى أَنَّ ثَمَّ أَرْبَعَ نَظَرِيّاتٍ مُبْتَدَعَةٍ يُحاوُلونَ فيها إِقامَةَ ذلِكَ البَوْنِ، فَقَدْ قيلَ إِنَّ "البانتومايم" مِضْمارُهُ عُروضُ المَلْهاةِ، وَأَنَّ المايم مِضْمارُهُ العُروضُ الجادَّةُ، وَقيلَ إِنَّ الأَوّلَ هُوَ العَرْضُ الجَسَدِيُّ المُؤَدّى بِالحَرَكَةِ الواسِعَةِ غَيْرِ المُقَيَّدَةِ، وَإِنَّ المايم هُوَ العَرْضُ الجَسَدِيُّ المُؤَدّى بِالحَرَكَةِ الدَّقيقَةِ المُتَعَلِّمَةِ، وَقيلَ إِنّ البانتومايم قائِمٌ عَلى كَوْنِهِ أَداءً حَرَكِيًّا جَسَدِيًّا فيهِ شَخْصِيّةٌ رَئيسَةٌ، وَإِنَّ المايم لَيْسَ فيهِ ذلِكَ، وَقيلَ إِنَّ البانتومايم أَداءٌ حَرَكِيٌّ يُؤَدّى بِأُسْلوبٍ واقِعِيٍّ، وَالمايم يُؤَدّى عَلى نَحْوٍ تَجْريدِيٍّ، وَقيلَ إِنَّ الأَوّلَ هُوَ ما ابْتُدِعَ قَبْلَ سَنَةِ(1850م)، وَإِنَّ المايم هُوَ ما ابْتُدِعَ بَعْدَ ذلِكَ التّاريخِ[1].

مُكَوّناتُ "المايم":

أَمّا مُكَوّناتُ "المايم" فَمُتَرَدِّدَةٌ بَيْنَ شِعْبَيْنِ مُتَقارِبَيْنِ، أَوّلُهُما المُكَوّناتُ الأَساسِيّةُ، وَهِيَ خَمْسَةٌ تَكادُ تَكونُ عِمادَ التَّمْثيلِ الصّامِتِ، وَالأَداةَ الفاعِلَةَ في تَجَلّيهِ واقِعًا مَسْرَحِيًّا قائِمًا عَلى حَرَكاتٍ، وَهِيَ عَلى النَّحْوِ الآتي:

- المُؤَدّي: مُكَوِّنٌ أَساسٌ يَنْبَغي لَهُ أَنْ يَكونَ قادِرًا عَلى ابْتِكارِ الفِكْرَةِ وَتَوْصيلِها إِلى النّظّارَةِ.
- الفِكْرَةُ: مُكَوِّنٌ أَساسٌ ثانٍ المَقْصِدُ مِنْهُ المَوْضوعُ المُرادُ تَصْويرُهُ حَرَكِيًّا.
- المساحَةُ: مُكَوِّنٌ ثالِثٌ يَكادُ يَكونُ ضَرورَةً لَيْسَ ثَمَّ بُدٌّ عَنْها.
- الجُمْهورُ مُكَوِّنٌ رابِعٌ وَضَرورَةٌ كَسابِقِهِ.
- الأَداءُ الحَرَكِيُّ التَّصْويرِيُّ[2].

أَمّا المُكَوِّناتُ الثّانَوِيّةُ النّادِرَةُ في التَّمْثيلِ الصّامِتِ فَهِيَ:

- اسْتِعْمالُ المَناظِرِ المُصْطَنَعةِ.
- استِعْمالُ المَلابِسِ الرَّسْمِيّةِ وَالمُعَقَّدَةِ.

---

(1) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 31.

(2) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 39.

- اسْتِعْمالُ الإِضاءَةِ المُرَكَّبَةِ.
- استِعْمالُ المُحَسِّناتِ الجَسَديّةِ المُرَكَّبَةِ.
- استِعْمالُ الأَثاثِ وَالمُتمِّماتِ المُسانِدَةِ.
- استِعْمالُ الكَلِماتِ اللَّفْظِيّةِ[1].

وَقَدْ رَأى أَهْلُ هذا الدّرْسِ أنَّ "المايم" ذو شِقّيْنِ أوّلُهُما المايم الحَرْفِيُّ، وَثانيهما المايم التّجْريدِيُّ، وَالحَقُّ أَنَّ المَقْصِدَ مِنْ عَرضِهما في ثِنْيِ هذِهِ السّطورِ بَيانُ سُهْمَةِ الجَسَدِ وَهَيْئاتِهِ وَتَشْكيلاتِهِ الحَرَكِيّةِ المَخْصوصَةِ في تَشْكيلِ الدّلالَةِ المُنْتَسِبَةِ إلى رافِدِ "الصَّمْتِيّات" لا "الكَلامِيّات"، وَما مِنْ رَيْبٍ أنّه مَعْنًى مُتَشَكّلٌ تَشَكّلاً صورِيًّا يَقْرَأُهُ النّظّارَةُ مُعْتَمِدينَ عَلى حَرَكاتِ مَنْ يَقِفونَ وُجاهَهُ.

أمّا المايم الحَرفِيُّLiteral Mime فَهُوَ الأكثَرُ ذُيوعًا وَاسْتِعْمالاً في مَسْرَحِ الحِكايَةِ وَالمَلْهاةِ، وَلَهُ سِماتٌ سِتٌّ مُمَيّزَةٌ:

- أوّلُها أنّهُ يَتَرَكّزُ كَثيرًا حَوْلَ الحُبْكَةِ، فَهُوَ قائِمٌ عَلى قِصّةٍ.
- وَثانيها أَنَّ فيهِ شَخْصِيّةً مِحْوَرِيّةً راسِمَةً لِلمَعاني رَسْمًا جَسَدِيًّا حَرَكِيًّا.
- وَثالِثُها أنّهُ قِصّةٌ قائِمَةٌ عَلى الصِّراعِ وَالنِّزاعِ.
- وَرابِعُها أَنّه ذو وُضوحٍ يَصْرِفُ المُمَثِّلُ وُكْدَهُ في تَحْقيقِهِ حَتّى يَكونَ "المايم" فاقِعَ الدّلالَةِ عِنْدَ الجُمْهورِ.
- وَخامِسُها أنَّ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةَ المُسْتَعانَ بِها عَلى تَأْدِيةِ الأَغْراضِ وَالمَعاني تَكونُ مُصَمَّمَةً لِخَلْقِ إيهامٍ حَرْفِيٍّ، فَفِكْرَةُ جَذْبِ الحَبْلِ مَثَلاً يَرْسُمُها المُمَثِّلُ بِيَدَيْهِ رَسْمًا تَصْويرِيًّا حَرَكِيًّا، وَكَذلِكَ دَفْعُ الحائِطِ.
- وَسادِسُها أنّهُ مَصوغٌ وَمُصَمَّمٌ لأنْ يَكونَ مُمْتِعًا بَصَريًّا[2]. وَصَفْوَةُ المُسْتَخْلَصِ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ أنَّ المايم الحَرْفيَّ يَحْكي قِصّةً جادّةً جَلِيّةً حَوْلَ شَخْصِيّةٍ مُشْتَبِكَةٍ في صِراعٍ.

أمّا المايم التّجْريدِيُّ Abstract Mime فَمُغايِرٌ مِنْ وُجوهٍ بَعْضَ ما تَقَدّمَ بَيانُهُ، فَهُوَ

(1) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 39-40.

(2) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 37.

يُقَدِّمُ مادّةً جادّةً، وَالمَقْصِدُ مِنْهُ اسْتِفْزازُ مَشاعِرِ الجُمْهورِ وَأَفْكارِهِم وَرُموزِهِم، وَلَيْسَ في القِصّةِ المُصَوَّرةِ تَصْويرًا جَسَدِيًّا حَرَكيًّا حُبْكَةٌ، وَلا شَخْصِيّةٌ مَرْكَزِيّةٌ، وَلِذلِكَ فَإِنَّ الشَّخْصِيّةَ في هذا الضَّرْبِ مِنَ "المايم" إِنّما هِيَ كُلُّ إِنْسانٍ مِنْ وُجهَةٍ عالَمِيّةٍ أَوْ رَمْزِيّةٍ، وَإِذا كانَتْ فِكْرَةُ جَذْبِ الحَبْلِ في المايم الحَرْفِيّ التي تُرْسَمُ بِاليَدَيْنِ رَسْمًا تَصْويرِيًّا حَرَكيًّا تَدُلُّ عَلى جَذْبِ الحَبْلِ حَقًّا، فَإِنّها في المايم التَّجْريدِيّ ذاتُ دِلالَةٍ رَمْزِيّةٍ؛ ذلِكَ أَنَّها قَدْ توحي بِما هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذلِكَ، كَمُحاوَلَةِ شَخْصٍ أَنْ يَتَحَكَّم في حَياةِ آخَرَ[1].

وَقَدْ تَعارَفَ أَهْلُ هذا الدَّرْسِ عَلى أَنَّ في "المايم" ثَلاثَةَ أَشْكالٍ مُؤَسِّسَةٍ:

- أَوّلُها الإيماءاتُ.
- وَثانيها الإيهاماتُ.
- وَثالِثُها المِشْياتُ.

وَيَقَعُ تَحْتَ كُلِّ شَكْلٍ أَشْكالٌ فَرْعِيّةٌ لِكلِّ واحِدٍ مِنْها رَسْمٌ حَرَكيٌّ مَخْصوصٌ يَتَحَقَّقُ لِلنّظّارَةِ بِالرّؤْيَةِ، وَلِلمُنْتَسِبينَ إِلى هذا الفَنِّ بِالتّعَلّمِ، وَالدُّرْبَةِ، وَالمِراسِ.

الإيماءاتُ:

أَمّا الإيماءاتُ فَهِيَ حَرَكاتٌ جَسديّةٌ تَقومُ عَلى حَرَكَةِ اليَدَيْنِ وَالذِّراعَيْنِ في الغالِبِ، وَمِنْ تَجَلّياتِها جَذْبُ الحَبْلِ الأَساسِ The Basic Rope Pull، وَلِنَصْبِ هذِهِ الدِّلالَةِ في نُفوسِ النَّظّارَةِ، وَلأَدائِها أَداءً صورِيًّا عِلْمِيًّا يَجِبُ عَلى المُمَثّلِ الوقوفُ في المَرْكزِ المُحايِدِ، وَالقَدَمانِ مُتَباعِدَتانِ قَدَمًا وَنِصْفًا، وَاليَدُ اليُمْنى توضَعُ أَمامَ الرِّدْفِ الأَيْسَرِ بَعيدَةً حَوالَي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ بوصَةً، وَتَبْقى الأَصابِعُ مُغْلَقَةً كَما لَوْ كانَتْ تُمْسِكُ بِحَبْلٍ حَقيقِيٍّ حاضِرٍ، وَاليَدُ اليُسْرى توضَعُ عَلى يَسارِ اليَدِ اليُمْنى مُبْتَعِدَةً حَوالَي قَدَمٍ وَنِصْفٍ، وَالأصابِعُ مُغْلَقَةٌ، وَاليَدانِ مَوْضوعَتانِ في المُسْتَوى نَفسِهِ، ثُمّ تَبْدأُ الحَرَكَةُ، وَلَها صِفاتٌ يَجِبُ الْتِزامُها تَحْقيقًا لِرَسْمِ الحَدَثِ في العالَمِ الخارِجِيّ، وَتَحْصيلاً لِلمَعْنى المُنْضَوي تَحْتَ هذِهِ الصُّوَرِ الحَرَكِيّةِ الجَسَدِيّةِ[2].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدّمَ جَذْبُ الحَبْلِ مِنَ الأَرْضِ، وَهذا يَكونُ بِأَنْ تَجْذِبَ اليَدُ اليُسْرى

---

(1) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 38-39.

(2) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 189.

الحَبْلَ المُتَخَيَّلَ أَمامَ الجِسْمِ عِنْدَ مُسْتَوى الفَخِذِ، وَتَبْقى بَعيدَةً عَنِ الجِسْمِ حَوالَي سِتِّ بوصات، ثُمّ تَجْذِبَ اليُمْنى الحَبْلَ المُتَخيَّلَ عَلى مسافَةِ قَدَمٍ مِنَ القَدَمِ، وَهكَذا دَوالَيْكَ[1].

كَذلِكَ دَفْعُ الحائِطِ، فَيَشْرعُ المُمثِّلُ بِالوُقوفِ في المَرْكزِ المُحايِدِ، مُفرِّجًا بَيْنَ قَدَمَيْهِ تَفْريجًا مِقْدارُهُ قَدَمٌ وَنِصْفٌ، وَتَتَقدّمُ قَدمٌ واحِدَةٌ الأُخْرى قَليلاً، مُتَخَيّلاً أنّه يَقِفُ أمامَ حائِطٍ، فَيَضع يَديْهِ وَهُما مَبْسوطَتانِ عَلى الحائِطِ المُتَخيَّلِ، وَيُباعِد بَيْنَ الأَصابِعِ، وَيَأتي بِأَوْصافٍ جَسَدِيّةٍ يَنْبَغي لَهُ أنْ يَلتَزِمَها.

وَمِنْ هذِهِ الإيماءاتُ دَفْعُ الحائِطِ الخَلْفِيّ، وَقفزةُ الشّفا أوِ الجُرُفِ الهاري، وَاليَدُ الثّابتَةُ، وَاليَدُ المُتَحرّكةُ، وَالاتّكاءُ، وَالطَّيَرانُ، وَغَيْرُ ذلِكَ مِمّا لا يَتّسِعُ المَقامُ لِلإِتْيانِ عَلى ذِكْرِهِ وَلا عَلى رَسْمِهِ رَسْمًا قَرّرَهُ أَهْلُ هذا الدّرْسِ[2].

الإيهاماتُ:

أَمّا الإيهاماتُ في "التّمْثيلِ الصّامِتِ" فَهِيَ الحَرَكاتُ الجَسَدِيّةُ التي عِمادُها الجَسَدُ كُلُّه بَدَلاً مِنْ إِظْهارِ جُزْءٍ مُعَيَّنٍ مِنْهُ، بِاعْتِبارِهِ كُلاًّ واحِدًا، وَمَصْدَرًا مِنْ مَصادِرِ تَشْكيلِ المَعْنى، وَمِنْ ذلِكَ "تَمايُلُ الجَسَدِ"، وَهذِهِ حَرَكَةٌ جَسَدِيّةٌ لا تَظْهَرُ عَلى جارِحَةٍ مَخْصوصَةٍ، وَإِنّما تَتَجَلّى عَلى الجَسَدِ كُلِّهِ لِتَشِيَ بِأنَّ صاحِبَهُ قَدِ اعْتَراه دُوارٌ، أوْ أنّهُ ثَمِلٌ قَدْ أَخَذَ السُّكْرُ عَقْلَهُ، وَلِهذِهِ الحَرَكَةِ وَصْفٌ خاصٌّ يَتَعَلّمُهُ المُنْتَسِبونَ إِلى هذا الدَّرْسِ، كَأَنْ يُميلَ المُمَثّلُ جَسَدَهُ إمالَةً طَفيفةً نَحْوَ اليَمينِ، ثُمّ يَعودَ إِلى المَرْكزِ، وَعَلَيْهِ أنْ يَفْعَلَ ذلِكَ وَهُوَ قارٌّ في مَكانِهِ، وَجَسَدُهُ مُتَصَلِّبٌ يَميلُ مَيْلَةً واحِدَةً بِاعْتِبارِهِ كُلاًّ واحِدًا كَما لَوْ أنّهُ مِنَ الخُشُبِ المُسَنَّدَةِ، فَلا يُميلُ العُنُقَ، أوِ الرَّأسَ، أوِ الصَّدْرَ، وَقَدْ يَميلُ إِلى الأَمامِ ثُمّ الخَلْفِ ثُمّ إِلى اليَسارِ لِيَجْعَلَ مِنْ مَرْكزِهِ القارِّ فيهِ دائِرَةً تُلْمِحُ بِأنّهُ مُصابٌ بِدُوارِ البَحْرِ مَثَلاً، أَوْ ثَمِلٌ، أوْ غَيْرِ ذلِكَ[3].

وَمِن الإيهاماتِ الجُلوسُ عَلى الكُرْسِيِّ العالي أَوِ الخَفيضِ، وَفي الأوّلِ يَقِفُ

---

(1) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 191.

(2) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 189-202.

(3) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 203.

المُمَثّلُ مُفرِجًا بَيْنَ قَدَمَيْهِ تَفْريجًا مِقْدارُهُ قَدَمٌ وَنِصْفٌ تَقْريبًا، ثُمَّ يَثْني رُكْبَتَيْهِ، وَيَخْفضُ مُؤخرَتَه مسافَةَ قَدَمٍ، وَيجِبُ أنْ يُبْقِيَ ظَهْرَه مُسْتَقيمًا[1]. وَمِن الإيهاماتِ تَأرْجُحُ المَشْنوقِ، وَالدَّوَرانُ، وَرَكوبُ الدّرّاجةِ، وَالقِتالُ القائِمُ عَلى التَّصْويرِ الجَسَدِيّ البَطيءِ، وَالقِتالُ القائِمُ عَلى التّصْويرِ الجَسَدِيّ السّريعِ، وَالقُوّةِ، وَالتَّطْويحِ، وَالضَّرْبِ إنْ فاعِلاً، وَالضّرْبِ إنْ مَفْعولاً بِهِ، وَأنْ يَضرِبَ فَيُخْطِئَ، وَأنْ يُضْرَبَ فَيُخْطَأَ[2].

المِشْياتُ:

أَمّا المِشْياتُ فَكَثيرَةُ الهَيْئاتِ، مُتَعَدِّدةُ الصّوَرِ، وَالحَقُّ أَنَّ كُلَّ ما تَقَدّمَ بَيانُهُ مُحْتاجٌ إلى دُرْبَةٍ عَمَلِيّةٍ شاقَّةٍ، فَثَمَّ مِشْياتٌ تَتَخَلّقُ مِنْها دِلالَةٌ عَلى تَحَرّكِ الجَسَدِ نَحْوَ الأَمامِ، أوِ الخَلْفِ بِما في ذلِكَ الجَرْيُ، وَالتَّزَلّجُ، وَغَيْرُ ذلِكَ، وَبَعْضُ المِشْياتِ المَقْصِدُ مِنْها بَعْثُ إيهامٍ بَصَرِيّ، وَإِحْساسٍ داخِلِيّ بِأنّ ثَمَّ حَرَكَةً تَحْدُثُ، وَكَثيرٌ مِنْ مِشْياتِ "المايم" تَكونُ "مِشْياتِ وُقوفٍ" تُؤَدّى في المَرْكزِ نَفْسِهِ دونَ انْتِقالٍ حَقيقِيّ إلى الأَمامِ أوِ الخَلفِ، وَمِشْياتٍ أُخْرى يُمْكِنُ أَنْ نُسْبِغَ عَلَيْها وَصْفَ "مِشْياتِ التّحَرّكِ"، وَفي الأَخيرَةِ حَرَكَةٌ وَانتِقالٌ مِنْ مَوْضِعٍ إلى آخَرَ[3].

وَمِنَ المِشْياتِ "مِشْياتُ المُجْهَدِ وَالمُثْقَلِ"، وَهِيَ عَلى أَنْواعٍ، كَمِشْيَةِ الحِمْلِ الثّقيلِ، وَمِشْيَةِ الجَذْبِ وَغَيْرِ ذلِكَ، وَيترَتّبُ عَلى هَيْئةِ المِشْيَةِ وَصورَتِها الجَسَدِيّةِ دِلالاتٌ تَتَبايَنُ بِتَبايُنِ الهَيْئةِ وَالصّورَةِ، فَقَدْ يَظْهَرُ المُمَثِّلُ ماشِيًا، أَوْ جارِيًا، أَوْ عادِيًا، أوْ مُنْزَلِقًا، أوْ راكِضًا، أوْ مُتَزَلّجًا، أوْ قافِزًا، أوْ غَيْرَ ذلِكَ مِمّا يُمْكِنُ تَصَوّرُهُ، وَقَدْ قَدَّمَ مُصَنِّفٌ تِسْعَ عَشرَةَ مِشْيَةً مِنَ المِشْياتِ التي تُدَرَّسُ في التّمْثيلِ الصّامِتِ، وَقَدْ بَيّنَ كَيْفِيّةَ أَداءِ كُلِّ مِشْيَةٍ تَبْيينًا جَسَدِيًا تَفْصيلِيًّا، وَمِمّا أَتى عَلَيْهِ مِشْيَةُ "المايم" التّقْليدِيّةُ، وَمِشْيَةُ الدُّمْيةِ المُتَحَرّكةِ، وَمِشْيَةُ الحِصانِ، وَمِشْيةُ الجَذْبِ، وَمِشْيَةُ الحَمْلِ الثَّقيلِ، وَمِشْيَةُ الانْزِلاقِ الجانِبِيّ، وَالجَرْي في المَكانِ، وَقَفْزَةُ الضّفْدعِ، وَقَفْزَة الجِنّيّ، وَغَيْرُ ذلكَ[4].

---

(1) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 204.

(2) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 203-213.

(3) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 219.

(4) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 221-240.

وَقَدْ تَقومُ في النّفْسِ مُساءَلَةٌ عَنْ مَكانَةِ الصّوْتِ في التّمْثيلِ الصّامِتِ؛ ذلِكَ أَنَّ نَظَرِيّةَ "المايم" قائِمَةٌ عَلى التّمْثيلِ الصّامِتِ المُتَجافي عَن الكَلامِ، وَلَيْسَ مَعْنى هذا التّقْريرِ أنَّ الصَّوْتَ اسْتِعْمالُهُ مُحَرَّمٌ في الأَداءِ الحَرَكِيّ التَّصْويريّ، صَحيحٌ أنّهُ لا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ البَتّةَ مِنْ وُجْهَةٍ تَواصُلِيّةٍ، فَيُسْتَعاضُ عَنْهُ بِجَمالِ الصَّمْتِ أوّلاً، وَبالموسيقى المُعَبِّرةِ المُتَساوِقَةِ مَعَ إيقاعِ الحَرَكاتِ ثانِيًا، أمّا الأَصْواتُ المُباحُ اسْتِعْمالُها في"المايم" فَهِيَ أَصْواتٌ لَيْسَتْ بِكَلامِيّةٍ، وَهِيَ أَصْواتُ الجهْدِ، كَالنَّفَسِ الثّقيلِ، وَالشَّهَقاتِ، وَوَقْعِ الأَقْدامِ[1].

إنّ مُسْتَصفى القَوْلِ فيما تَقَدّمَ أنَّ "المايم" تَمْثيلٌ صامِتٌ، وَفَنٌّ قائِمٌ بِرَأْسِهِ لا قِبَلَ لِلمَرْءِ بِالإِحاطَةِ بِهِ إلاّ بِالتّعَلّمِ وَالدُّرْبةِ وَالمِراسِ، سَواء أَكانَ تَمْثيلاً صامِتًا حَرْفِيًّا، أَمْ تَمْثيلاً صامِتًا تَجْريدِيًّا، وَسَواء أَكانَ شَرْقِيَّ النَّهْجِ، أَمْ فَرَنْسِيَّهُ، أمْ إيطالِيَّه[2]، إنّهُ صَمْتٌ فَنّيٌّ يُلامِسُ –كَما يَرى فيهِ أَصْحابُهُ- القُلوبَ وَالمَشاعِرَ، إنّهُ يُقَدِّمُ لِلنّظّارَةِ الذين تَحَلّقوا عَلَيْهِ وَقْتًا لِلبُكاءِ، أَوِ الضّحِكِ، أَوِ التّبَصُّرِ، أوِ التَّفْكيرِ، "فَلَيْسَ ثَمّ شَيْءٌ آخَرُ يُماثِلُ تَعْبيرِيّةَ الصَّمْتِ"[3]، إنّهُ:

- تَمْثيلٌ سَهْلٌ مِنْ جِهَةٍ، مُعَقَّدٌ مِنْ جِهَةٍ أُخْرى.
- إنّهُ قِصَّةٌ، وَلكِنَّهُ لَيْسَ كَالقِصّةِ.
- إنّهُ لَيْسَ رَقْصًا خالِصًا، لا وَلا تَمْثيلاً خالِصًا.
- إنّهُ عَلى الأَعْرافِ بَيْنَ بَينَ.
- إنّهُ تَجْسيدٌ بَصَريٌّ بَرانِيٌّ، يَشِفُّ عَنْ روحٍ وَمَعانٍ جَوّانِيّةٍ[4].
- إنّهُ فَنٌّ صامِتٌ تُسْتَقى مِنْهُ الدّلالَةُ المُنْتَسِبَةُ إلى رافِدِ "الصَّمْتِيّات"، أَمّا الدّلالةُ مِنْ رافِدِ "الكَلامِيّات" فَلا حَظَّ لَهُ فيها وَمِنْها.
- إنّهُ حَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ تُصَوِّرُ الأَحْداثَ الفِعْلِيّةَ لِيَسْتَنبِطَ النّظّارَةُ المَعانيَ المُسْتَتِرَةَ تَحْتَ حَرَكاتِهِمُ التي هِيَ إيماءاتٌ، وَإيهاماتٌ، وَمِشْياتٌ.

---

(1) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 41.

(2) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 243.

(3) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 244.

(4) انظر: لوشكي، التمثيل الصامت، 244.

المَطْلَبُ الثّاني

الأَنْظارُ المُؤَصِّلَةُ

- لُغَةُ الجَسَدِ في التّراثِ البَلاغِيّ: الجاحِظُ نَموذَجًا
- لُغَةُ الجَسَدِ في التّراثِ المُعْجَمِيّ: الثّعالِبِيُّ نَموذَجًا
- لُغَةُ الجَسَدِ في التّراثِ اللّغَوِيّ: ابنُ جِنّي نَموذَجًا
- لُغَةُ الجَسَدِ في التّراثِ الأُصولِيّ: الغَزالِيُّ نَموذَجًا
- لُغَةُ الجَسَدِ في التّراثِ الفَراسِيّ: الرازِيُّ نَموذَجًا

الفَصْلُ الأَوّلُ

لُغَةُ الجَسَدِ في التُّراثِ البَلاغِيِّ

الجاحِظُ نَموذَجًا

"فَفي الإشارَةِ بِالطّرْفِ وَالحاجِبِ وَغَيْرِ ذلِكَ مِنَ الجَوارِحِ مَرْفقٌ كَبيرٌ، وَمَعونَةٌ حاضِرَةٌ في أُمورٍ يَسْتُرُها بَعْضُ النّاسِ مِنْ بَعْضٍ، وَيُخْفونَها مِنَ الجَليسِ وَغَيْرِ الجَليسِ، وَلَوْلا الإشارَةُ لَمْ يَتَفاهَمِ النّاسُ مَعْنى خاصِّ الخاصِّ"

الجاحظ، البيان والتبيين، 78/1

لُغَةُ الجَسَدِ وَالبَيانُ

في "البَيانُ وَالتّبْيينُ" تَلْقى القارِئَ مُباحَثاتٌ دالّةٌ عَلى اسْتِشْعارِ الجاحِظِ أَنَّ لِلجَسَدِ لُغَةً صامِتَةً تَنْضافُ إِلى اللّغَةِ الصّائِتةِ، وَالحَقُّ أَنّ تِلكُمُ المُباحَثاتِ تَنْقَسِمُ إِلى قِسْمَيْن؛ أمّا أوّلُهُما فهُوَ وُقوفُ الجاحِظِ عَلى لَمَحاتٍ مِنْ لُغَةِ الجَسَدِ وِقْفَةَ المُدقِّقِ لذاتِها، وَأمّا ثانيهِما فَهُوَ وُرودُ هذِهِ اللّمَحاتِ في ثِنْيِ عَرْضِهِ لِرِواياتٍ، أَوْ أحْداثٍ، أَوْ أَشْعارٍ لَمْ يَقْصِدْ فيها إِلى لُغَةِ الجَسَدِ قَصْدَ الدّارِسِ وَالمُحلِّلِ كَما هِيَ الحالُ في القِسْمِ الأَوّلِ.

يَعْقِدُ الجاحِظُ بابًا في كِتابِهِ مَوْسومًا بـ"البَيان"، مُسْتَشْرِفًا وُجوهَهُ، مُعَرِّجًا عَلى دِلالَتِهِ وَفُروعِهِ، وَالنّاظِرُ فيهِ يَجِدُ مَفْهومَ البَيانِ عِنْدَ الجاحِظِ فَضْفاضًا يَسْتَغْرِقُ اللّفْظِيَّ وَغَيْرَ اللّفْظِيِّ؛ ذلِكَ أنّ كُلَّ ما تَوَسّلَ بِهِ المَرْءُ لِلإِبانَةِ وَالتّواصُلِ يَدورُ في فَلَكِ "البَيانِ" عِنْدَهُ، وَعَلى هذا، فَاللّفْظُ، إِنْ كانَ مُؤدِّيًا إِلى مَعْنًى، ضَرْبٌ مِنَ البَيانِ، وَلُغَةُ الجَسَدِ ضَرْبٌ آخَرُ مِنْهُ، وَالإِشارَةُ بِالثّوْبِ كَذلِكَ أَمْرُها، وَمُسْتَصْفى القَوْلِ عِنْدَه أنّهُ اسْمٌ جامِعٌ لِكلِّ شَيءٍ كَشَفَ لَكَ قِناعَ المَعْنى، وَهَتَكَ الحِجابَ دونَ الضّميرِ، "حَتّى يُفْضِيَ السّامِعُ إِلى حَقيقَتِهِ، وَيَهْجمَ عَلى مَحْصولِهِ كائِنًا ما كانَ ذلِكَ البَيانُ، وَمِنْ أَيّ جِنْسٍ كانَ الدّليلُ، لأنَّ مَدارَ الأَمْرِ وَالغايَةَ التي يَجْري إِلَيْها القائِلُ وَالسّامِعُ إِنَّما هُوَ الفَهْمُ وَالإِفْهامُ، فَبِأيّ شَيْءٍ بَلَغْتَ الإِفْهامَ، وَأَوْضَحْتَ عَنِ المَعْنى، فَذلِكَ هُوَ البَيانُ في ذلِكَ المَوْضِعِ"[1].

ثُمّ يُحْصي الجاحِظُ دِلالاتِ البَيانِ عَدَدًا، فَيَجِدُها خَمْسًا لا تَزيدُ وَلا تَنْقُصُ:

- أوّلُها اللّفظُ.
- وَثانيها الإِشارَةُ.
- وَثالِثُها العَقدُ.
- وَرابِعُها الخَطُّ.
- وَخامِسُها الحالُ التي تُسَمَّى نِصْبَةً[2].

أمّا اللّفْظُ فَذائِعٌ مَعْروفٌ عِمادُهُ الصّوْتُ، وَكَذلِكَ الخَطُّ عِمادُه القَلَمُ، وَأمّا العَقْدُ

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 76/1.

(2) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 76/1.

فَهُوَ الحِسابُ، وَأمّا النِّصْبَةُ فهِيَ الحالُ النّاطِقَةُ بِغَيْرِ اللّفْظِ، وَالمُشيرَةُ بِغَيرِ اليَدِ، كَالذي يَظْهَرُ في خَلْقِ السّمواتِ وَالأَرْضِ، وَفي كُلِّ صامِتٍ وَناطِقٍ، وَجامِدٍ وَنامٍ[1].

أَمّا الإِشارَةُ عِنْدَه فَهِيَ بابُ القَوْلِ عَلى لُغَةِ الجَسَدِ عِنْدَنا، وَالحَقُّ أنّ مَفْهومَ الإِشارَةِ عِنْدَه قَدْ يَتَعيّنُ بِغَيرِ سَبيلٍ، لأنَّ آلاتِ الإِشارَةِ كَثيرَةٌ كَثيرَةٌ، فَمِنْ ذلِكَ الإِشارَةُ بِاليَدِ، وَالرّأسِ، وَالعَيْنِ، وَالحاجِبِ....[2]، وَالذي يَجدُرُ التّنْبيهُ إِلَيْهِ، قَبْلَ الخَوْضِ في مَطلَبِ القَولِ عَلى الإِشارةِ عِنْدَ الجاحِظِ، أَنْ يُشارَ إِلى أنّ هذا المَفْهومَ عِنْدَ ابنِ رَشيقٍ فَضْفاضٌ يَتّسِعُ لِما أَوْرَدَه الجاحِظُ وَلِغَيْرِه مِنْ مَباحِثَ؛ إِذْ إِنّهُ يَشْتَمِلُ عَلى غَرائِبِ الشّعْرِ وَمُلَحِهِ، وَالتّفْخيمِ، وَالتّلْويحِ، وَالكِنايَةِ، وَالتّمْثيلِ، وَالرّمْزِ، وَاللّمْحَةِ، وَاللّغْزِ، وَالتّعْمِيَةِ، وَالحَرَكةِ الجَسَديّةِ التي هِيَ مَوْضِعُ هذا البَحْثِ[3].

جَدَلٌ بَيْنَ الإِشارَةِ وَالعِبارَةِ:

لَعلّهُ يَحْسُنُ إِقامَةُ بَوْنٍ بَيْنَ ضَرْبَيْنِ مِنَ الإِشارَةِ في بَيانِ الجاحِظِ، فَقَدْ تَكونُ إِشارَةً عُضْوِيّةً جَسَدِيّةً مُباشِرَةً، وَمِنْ ذلِكَ ما تَقَدّمَ مِنْ إِشارَةِ اليَدِ وَالرّأْسِ و... وَقَدْ تَكونُ إِشارَةً بِشَيءٍ آخَرَ سَيأتي عَلَيْها حَديثٌ بَعْدًا، كَالعَصا، وَالثّوْبِ، وَالسَّيْفِ[4]، وَالحَقُّ أنّ الإِشارَةَ وَالعِبارَةَ عِنْدَ الجاحِظِ مُتَلازِمَتانِ مُتَرافِدَتانِ في الإِبانَةِ وَالبَيانِ، وَقَدْ أَلْمَحَ الجاحِظُ إِلى هذا جانِحًا إِلى أنَّ حُسْنَ الإِشارَةِ بِاليَدِ وَالرّأسِ هُوَ "مِنْ تَمامِ حُسْنِ البَيانِ بِاللِّسانِ مَعَ الذي يَكونُ مَعَ الإِشارَةِ مِنَ الدَّلِّ، وَالشّكلِ، وَالتّفَتّلِ، وَالتّثَنّي، وَاسْتِدعاءِ الشّهْوَةِ، وَغَيْرِ ذلِكَ مِنَ الأُمورِ"[5].

---

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 81/1، والعقد ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، ويقال له حساب اليد، وقد ألفوا فيه كتبا وأراجيز، منها أرجوزة ابن المغربي، ومنها في عقد الثلاثين:

واضممهما عند الثلاثين ترى كقابض الإبرة من فوق الثرى

أشار إلى أن الثلاثين تحصل بوضع إبهامك إلى طرف السبابة، أي: جمع طرفيهما كقابض الإبرة. انظر: البغدادي، خزانة الأدب، 538/6.

(2) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.

(3) انظر: ابن رشيق، العمدة، 302/1-311.

(4) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.

(5) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 79/1.

ثُمّ يُقَرّرُ الجاحِظُ تَلازُمَ الإِشارَةِ وَالعِبارَةِ وَاقْتِرانَهُما مَعًا، فَأَنْطَقُ النّاسِ لا يَسْتَغْني بِمَنْطِقِهِ عَنِ الإِشارَةِ، وَقَدْ ضَرَبَ مِثالَيْنِ عَلى ذلِكَ:

- أوّلُهُما: جَعْفُرُ بْنُ يَحْيى البَرْمَكِيُّ الذي كانَ مِنْ أَنْطَقِ النّاسِ، فَقَدْ جَمَعَ الهَدوءَ، وَالتّمَهّلَ، وَالجَزالَةَ، وَالإِفْهامَ المُغْنِيَ عَنِ الإِعادَةِ، وَلَوْ كانَ في الأَرْضِ ناطِقٌ يَسْتَغْني بِمَنْطِقِهِ عَنِ الإِشارَةِ لاسْتَغْنى جَعْفَرٌ عَنْها كَما اسْتَغْنى عَنِ الإِعادَةِ[1]. وَفي مَقامٍ آخَرَ مِنَ "البَيان" قيلَ عَنْهُ: "وَكانَ لَفْظُهُ في وَزْنِ إِشارَتِهِ"[2].
- وَثانيهِما أَبو شَمِر الذي ضَرَبَ صَفْحًا عَنْها حَتّى حينٍ، فَقَدْ كانَ إِذا تَكَلّمَ لَمْ يُحَرّكْ يَدَيْهِ وَلا مَنكبَيْهِ، وَلَمْ يُقلّبْ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يُحَرّكْ رَأسَهُ، وَقَدْ عيبَ عَلَيْهِ ذلِكَ، "حتّى كَأنّ كَلامَهُ إِنَّما يَخْرُجُ مِنْ صَدْعٍ صَخْرَةٍ"[3]، وَمَذهبُهُ أنّ المَنْطِقَ لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُسْتَعانَ عَلَيْهِ بِغَيْرِه، حَتّى كلّمَهُ أَحَدُهُم، فَاضطرّهُ بِالحُجّةِ، فَغَدا مِمّنْ يَسْتَرْفِدُها، وَيَسْتَعينُ بِها عَلى البَيانِ وَالإِفْهامِ، فَصارَ يُحرّكُ يَدَيْهِ، وَيَحُلُّ حَبْوَتَهُ[4].

الإِشارَةُ وَالرّتْبَةُ:

وَكَأَنّنا بِالجاحِظِ في دَرْسِهِ "البَيانَ" عامّةً، وَ"الإِشارَةَ" خاصّةً، يومِئُ إِلى رُتَبِ الإِشارَةِ وَاللّفْظِ، فَتارَةً يَكونُ السّبْقُ في الرّتْبَةِ للّفْظِ، وَتارَةً يَقَعانِ مَوْقِعًا واحِدًا مِنَ الرّتْبَةِ؛ إِذْ إِنّهُما "شَريكانِ، وَنِعْمَ العَوْنُ هِيَ لَهُ، وَنِعْمَ التَّرْجُمانُ هِيَ عَنْه"[5]، وَتارَةً تَكونُ رُتبَةُ الإِشارَةِ سَبّاقَةً لِرُتْبَةِ اللّفْظِ؛ إِذْ بِها يَتَخلّقُ المَعْنى، وَتَتَعيّنُ المَقاصِدُ في سِياقِها، فَمُبَلّغُ الإِشارَةِ أَبْعَدُ مِنْ مُبَلّغِ الصّوْتِ، وَهذا "بابٌ تَتَقدّمُ فيهِ الإِشارَةُ الصّوْتَ"[6].

الإِشارَةُ وَخاصُّ الخاصِّ:

وَهذا مِنَ المَواضِعِ التي تَغْدو فيها رُتْبَةُ الإِشارَةِ أَسْبَقَ مِنْ رُتْبَةِ اللّفْظِ عِنْدَ الجاحِظِ، وَالحَقُّ أنّ ذلِكَ كَثيرٌ في أيّامِنا هذِهِ، فَقَدْ تَتَوارى اللّغَةُ الصّائِتَةُ لِلتَّعْمِيَةِ، وَالتَّغْطِيَةِ،

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 106/1.

(2) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 106/1.

(3) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 111/1.

(4) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 91/1.

(5) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 78/1.

(6) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 79/1، وابن رشيق، العمدة، 309/1.

وَالإِسْرارِ لِحاجاتٍ في النّفْسِ شَتّى، وَتَتَجلّى اللّغَةُ الصّامِتَةُ الدّالّةُ، فَتَكونُ ثَمّ إيحاءاتٌ وَحَرَكاتٌ مِنَ الحاجِبِ، وَالعَيْنِ، وَالكَفِّ... وَكُلُّ هذا يُسْبِغُ عَلَيْهِ الجاحِظُ وَسْمَ "خاصِّ الخاصِّ"، وَهُوَ، مِنْ وُجْهةٍ أُخْرى، لا يَنْعَقِدُ وَلا يَقومُ إلاّ بِها، "فَفي الإِشارَةِ بِالطَّرْفِ، وَالحاجِبِ، وَغَيْرِ ذلِكَ مِنَ الجَوارِحِ مَرْفَقٌ كَبيرٌ، وَمَعونَةٌ حاضِرَةٌ في أُمورٍ يَسْتُرُها بَعْضُ النّاسِ مِنْ بَعْضٍ، وَيُخْفونَها مِنَ الجَليسِ وَغَيْرِ الجَليسِ، وَلَوْلا الإِشارَةُ لَمْ يَتَفاهَمِ النّاسُ مَعْنى خاصِّ الخاصِّ، وَلَجَهِلوا هذا البابَ البَتَّةَ"[1].

لنَرْجِعِ النّظَرَ في بَعْضِ أَمْثِلَةِ الجاحِظِ عَلى "خاصِّ الخاصِّ":

وَلِلْقَلْـــــب عَلـــــى القَلْـــــب دَليـــــلٌ حـــــينَ يَلْقـــــاهُ
وَفـــي النّـــاسِ مِـــنَ النّـــاسِ مَقـــــــاييسُ وَأَشْـــــــباهُ
وَفـــي العَـــيْن غِنًـــى لِلْمَـــرْ ءِ أَنْ تَنْطِـــــقَ أَفْـــــواهُ[2]

وَقالَ آخَرُ:

العَيْنُ تُبْدي الذي في نَفْسِ صاحِبِها مِـــــنَ المَحَبَّـــــةِ أَوْ وُدٍّ إِذا كانـــا
وَالعَيْنُ تَنْطِقُ وَالأَفْـــــواهُ صامِتَـــةٌ حَتّى تَرى مِنْ ضَميرِ القَلْبِ تِبْيانا[3]

وَقالَ آخَرُ:

تَرى عَيْنُها عَيْني فَتَعْرِفُ وَحْيَها وَتَعْرِفُ عَيْني ما بِهِ الوَحْيُ يَرْجِعُ

وَقالَ آخَرُ:

وَمَعْشَـــــرٍ صِيـــــدٍ ذوِي تَجِلَّةْ تَـــرى عَلَيْهِـــم لِلنّـــــدى أَدِلَّـه[4]

وَالظّاهِرُ أَنَّ جُلَّ ما ذَكَرَهُ الجاحِظُ في مَعْرِضِ حَديثِهِ عَنِ الإِشارَةِ وَخاصِّ الخاصِّ مِضْمارُهُ العَيْنُ الجارِحَةُ، وَلَعَلّ في ذلِكَ دِلالَةً عَلى فَضْلِ العَيْنِ في التّواصُلِ وَالإِبانَةِ عَنْ

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 78/1.

(2) اختلف في نسبته، فقيل لعلي بن أبي طالب، وهو في ديوانه، 153، وقيل لأبي العتاهية، وهو بلا نسبة في البيان، 78/1، والآبي، الأنس والعرس، 176.

(3) اختلف في نسبته، ففي معجم الأدباء للحيص بيص، 373/3، وفي معاهد التنصيص لعمارة بن عقيل، 132/1.

(4) انظر ذلك كله: الجاحظ، البيان والتبيين، 78/1-79.

حَواشي النّفوسِ[1]، وَقَدْ فَسّرَ بَعْضُهمْ هذا بِأنَّ العَيْنَيْنِ قارَّتانِ في مَرْكزٍ مِحْوَرِيٍّ مِنَ الجَسَدِ، ثُمّ إنّ إنْسانَ العَيْنِ يَنْقَبِضُ وَيَنْبَسِطُ وَفْقًا لِتَبايُنِ مَوْقِفِ المَرْءِ وَحالِهِ، فَإذا ما غَضِبَ فَإنّ إنسانَ عَينِهِ سَيَنقَبِضُ، وَالأَمْرُ بِالضّدِّ إذا تَبايَنَتِ الحالُ، فَقَدْ يَتّسِعُ لِيَصِلَ إلى أَرْبَعَةِ أَضْعافِ حَجْمِهِ الأَصْلِيِّ، وَقَدْ تَبَيّنَ مِنَ اخْتِباراتٍ عَمَلِيّةٍ مَيْدانُها لاعِبو الوَرَقِ المُحْتَرِفون أنّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَظٌّ بِالظّفَرِ إلاّ قَليلاً عَلى خُصومِهِمُ الذين كانوا يَسْتُرونَ عُيونَهُم بِالنّظّاراتِ السّودِ؛ ذلِكَ أنّها مِنَ الحَواجِبِ لإِشاراتِ العَيْنِ عامّةً، وَإِنْسانِها خاصّةً، فَلَمْ يَكُنْ بِمَقْدورِهِمْ أَنْ يَلْتَمِسوا مِنْ عُيونِ خُصومِهِمْ إِلْماحَةً، أَوْ إِشارَةً، أَوْ وِشايَةً، تُعينُهُمْ عَلى تَقْديرِ مَسارِ اللّعِبِ[2].

مُتَفَرّقاتٌ مُجْتَمِعاتٌ عِنْدَ الجاحِظِ

إِفْشاءُ السَّلامِ بِالعَيْنِ:

وَقَدْ يَحْدثُ أَحْيانًا، وَهذا مَلْحَظٌ نُعاينُهُ كَثيرًا، أَنْ يَكونَ إِفْشاءُ السّلامِ بِلُغَةِ الجَسَدِ كَما هِيَ الحالُ في لُغَةِ اللّسانِ، فَمِنْ ذلِكَ أَداءُ السّلامِ بِاليَدِ المُلَوّحَةِ، أَوْ بِالعَيْنِ المُسَلِّمَةِ المُنْتَسِبَةِ، أَوْ بِهِزّةِ الرّأْسِ إلى الأَسْفَلِ مَعَ التّطامُنِ قَليلاً، وَلَعَلّ لِهذا المَخوضِ فيهِ لُحْمَةً بِخاصِّ الخاصِّ عِنْدَ الجاحِظِ، فَقَدْ ساقَ مِثالاً مُبينًا عَنْ ذلِكَ بِالعَيْنِ المُسَلِّمَةِ في مَقامِ لِقاءِ العاشِقَيْنِ في حَضْرَةِ الأَهْلِ، ولَيْسَ يَخْفى أنّ مَقاماتِ الحَرَجِ الاجْتِماعِيِّ تُؤْذِنُ بِأنْ تَكونَ رُتْبَةُ لُغةِ الجَسَدِ "الإِشارة" مُتَقدّمَةً وُجوبًا عَلى رُتْبَةِ اللّفْظِ في مِثْلِ تِلكُمُ المَقاماتِ، وَيُمثّلُ الجاحِظُ عَلى ذلِكَ بِقَوْلِ الشّاعِرِ:

أَشارَتْ بِطَرْفِ العَيْنِ خيفَةَ أَهْلِها إِشارَةَ مَذْعورٍ وَلَـمْ تَتَكَلّـمِ
فَأَيْقَنْتُ أَنّ الطَّرْفَ قَدْ قالَ مَرْحَبًا وَأَهْلاً وَسَهْلاً بِالحَبيبِ المُتَيَّمِ[3].

بَسْطُ الوَجْهِ رِسالَةُ بِشْرٍ:

وَلِهذِهِ الإِيماءَةِ يَدٌ في تَواصُلِ الضَّيْفِ مَعَ ضَيْفِه، فَإِذا ما تَبَدّتْ علائِمُ التّلَقّي وَالتّأنيسِ عَلى وَجْهِ مَنْ يَتَلقّفُ ضَيْفَهُ فَإِنّ ذلِكَ سَيَكونُ بِمَنْزِلَةِ ما يَنْضافُ إِلى أَلْفاظِ

(1) من المصنفات التي تناولت العين ودلالاتها:
Hess, E., The Tell-Tale Eye, Van Nostrand Reinhod, New York, 1975.
(2) Pease, Body Language, P.134.
(3) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 219/1، والشعر لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه، 204.

التّرحيبِ وَالإِحْسانِ، وَقَدْ يَكونُ الأَمْرُ بِالضِّدِّ، فَيَعْرِفُ كُلٌّ مِنّا أنّ ذاكَ راغِبٌ عَنِ اسْتِضافَتِهِ وَإِنْ أَظْهَرَ بِلِسانِهِ ما هُوَ مُتَجافٍ عَمّا وَرَدَ عَلَيْنا مِنْ وَجْهِهِ وَحَرَكاتِ جَسَدِهِ، وَقَدِ التَفَتَ الجاحِظُ إِلى هذا، "لأنَّ العَرَبَ تَجْعلُ الحَديثَ، وَالبَسْطَ، وَالتّأنيسَ، وَالتّلقّيَ بِالبِشْرِ، مِنْ حُقوقِ القِرى، وَمِنْ تَمامِ الإِكْرامِ"[1]، وَقَديمًا قالَتِ العَرَبُ:

أُضاحِكُ ضَيْفي قَبْلَ إِنْزالِ رحْلِهِ ... وَيَخصبُ عِنْدي وَالمَحَلُّ جَديبُ
وَما الخِصْبُ لِلأَضْيافِ أَنْ يكْثرَ القِرى ... وَلكِنّما وَجْهُ الكَريمِ خَصيبُ[2]

وَكَذلِكَ قيلَ:

سَلي الجائِعَ الغَرْثانَ يا أمَّ مُنْذِر ... إِذا ما أَتاني بَيْنَ ناري وَمَجْزِري
هَلَ ابْسُطُ وَجْهي أنّهُ أَوّلُ القِرى ... وَأَبْذُلُ مَعْروفي لَهُ دونَ مُنْكَري[3]

اليَدُ وَإِشارَةُ التّعْيينِ:

وَلِليَدِ فَضْلٌ في تَعْيينِ المَقْصودِ تَعْيينًا يُغْني عَنْ أَلْفاظٍ مُتَكاثِرَةٍ؛ كَالمَكانِ، أَوِ الشَّيءِ، أَوِ الجِهَةِ، وَمِنْ ذلِكَ ما وَرَدَ في خُطْبَةٍ لِمُصْعَبِ بْنِ الزّبَيْرِ لَمّا قَدِمَ العِراقَ، فَقَدْ رُوِيَ أنّه اسْتَفْتَحَ خُطْبَتَهُ بِثَلاثِ آياتٍ مِنَ التّنْزيلِ العَزيزِ، قاصِدًا مِنْ كُلِّ آيَةٍ أنْ يَصِفَ بِها بَلَدًا وَأَهْلَه، مُتَجافِيًا عَنْ ذِكْرِ البَلَدِ صَراحَةً، مُعَوّلاً عَلى إِشارَةِ اليَدِ في تَعْيينِ المَكانِ الذي يَنْبَني عَلَيْهِ تَعْيينُ المَعْنى، قائِلاً: "بِسْمِ اللهِ الرّحْمنِ الرّحيمِ ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾[4]، وَأشارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الشّامِ، "﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾[5]، وَأَشارَ بِيَدِهِ نَحوَ الحِجازِ، ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 10/1.
(2) الشعر للخريمي، إسحاق بن حسان، وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 11/1.
(3) الشعر لحاتم الطائي، وهو في ديوانه، 134، وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 10/1.
(4) الآية (القصص، 1-4).
(5) الآية (القصص، 5).

مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾[1]، وَأَشارَ بِيَدِهِ إِلى العِراقِ[2].

جِلْسَةُ المُزْدري المُتَراخي:

وَالجِلْسَةُ لَها هَيْئاتٌ وَدِلالاتٌ، فَقَدْ تَرِدُ مِنْها دِلالَةٌ عَلى أَنّها جِلْسَةُ المُتَراخي، أَوْ أَنّها جِلْسَةُ المَريضِ المُثْقَلِ، وَقَدْ تَكونُ جِلْسَةَ القَلِقِ المُسْتَوْفِزِ، أَوِ المُزْدَري مَنْ يَقِفُ وُجاهَهُ، وَقَدْ وَرَدَ في "البَيان" وَصْفُ جِلْسَةٍ لِمُعاوِيَةَ ذاتِ دِلالَةِ ازْدِراءٍ لِمَنْ يُحاوِرُهُ، وَالظّاهِرُ أَنّها مُؤْتَلِفَةٌ مِنْ غَيْرِ جارِحَةٍ وَشَكْلٍ، فَفيها تَتَضافَرُ العَيْنُ، وَالرِّجلُ، وَهَيئَةُ الاتِّكاءِ، لِتَأْدِيَةِ مَعْنى الازْدِراءِ وَالتَّنَقّصِ، وَقَدْ رَواها الجاحِظُ قائِلاً: "قالَ عَمرُو بنُ العاص: ما رَأَيْتُ مُعاوِيَةَ قَطُّ مُتّكِئاً عَلى يَسارِهِ، واضِعًا إِحْدى رِجْلَيْهِ عَلى الأُخْرى، كاسِرًا إِحْدى عَيْنَيْهِ، يَقولُ للذي يُكَلِّمُهُ: يا هَناه، إِلاّ رَحِمْتُ الذي يُكَلِّمُهُ"[3].

جِلْسَةُ الأَنْوَكِ الأَحْمَقِ:

وَقَدْ رَسَمَ الجاحِظُ بِكَلِماتِهِ حَرَكَةً جَسَدِيّةً تَتَساوَقُ مَعَ وَسْمِ صاحِبِها بِالأَنْوَكِ الخائِفِ، وَعِمادُها الجُلوسُ في ناحِيَةٍ مِنَ البَيْتِ مَعَ الانْقِباضِ وَالاشْتِمالِ، وَفيها يَقولُ: "...لَمّا أُدْخِل عَلى امْرَأَتِهِ فَرَأَتْ مِنْهُ ما رَأَتْ مِنَ الجَفاءِ وَالجَهْلِ، وَجَلَسَ في ناحِيَةٍ مُنْقَبِضًا مُشْتَمِلاً..."[4].

نَظْرَةُ العَداوَةِ:

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ لِلنَّظَرِ دِلالاتٍ مُتَباينَةً بِتَبايُنِ الهَيْئَةِ، فَثَمَّ عَيْنٌ عاشِقَةٌ، وَأُخْرى كارِهَةٌ، وَثالِثَةٌ خائِفَةٌ، وَرابِعَةٌ طالِبَةٌ مُلْتَمِسَةٌ، وَغَيْرُ ذلِكَ مِمّا وَرَدَ قَبْلاً، وَسَيَأتي بَعْدًا، وَقَدْ تَمَثّلَ الجاحِظُ هذِهِ الهَيئَةَ مِنَ النَّظَرِ مَرَّتَيْنِ في مِضْمارَيْنِ: أَوّلُهُما التَّنْزيلُ العَزيزُ في قَوْلِ الحَقِّ -تَقَدّسَ اسْمُهُ-: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾[5]، وَثانيهما الشِّعْرُ العَرَبِيُّ، "وَقَدْ قالَ الشّاعِرُ في نَظَرِ الأَعْداءِ بَعْضِهِمْ إِلى بَعْضٍ:

---

(1) الآية (القصص، 6).

(2) انظر الخطبة: الجاحظ، البيان والتبيين، 300/2.

(3) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 302/2.

(4) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 225/2.

(5) الآية (القلم:51).

يَتقارَضونَ إذا الْتَقَوْا فـي مَوْقِفٍ نَظَرًا يُزيـلُ مَـواطِئَ الأَقْدامِ"[1]

مَعْنى العُجْبِ وَالكِبْرِ:

وَمَفْهومُ العُجْبِ في بَيانِ الجاحِظِ قَدْ يَتَجَلّى في مَظاهِرَ مُتَعَدِّدَةٍ، وَطُرُقٍ مُتَباينَةٍ، فَقَدْ يَظْهَرُ هذا المَعْنى بِالرّافِدِ الصّائِتِ وَالكَلامِيّاتِ؛ كَأَنْ يَتَلَفَّظَ بِذلِكَ، أَوْ بِأَلْفاظٍ دالّةٍ عَلى هذا المَعْنى، أَوْ بِالرّافِدِ الحَرَكِيّ المُنْتَسِبِ إلى مَبْحَثِ "الصَّمْتِيّاتِ"، كَثَنْيِ العِطْفِ، أَوْ إِسْبالِ الثَّوْبِ المَنْهِيّ عَنْهُ قَديمًا، وَهذا ما أَلْمَحَ، بَلْ صَرَّحَ بِهِ الجاحِظُ مُقَرِّرًا أَنَّ لَهُ سَبيلَيْنِ اثْنَتَيْنِ، وَهُما "الكَلامِيّاتُ" وَ"الحَرَكِيّاتُ"، "وَإِنَّما العُجْبُ إِسْرافُ الرّجُلِ في السُّرورِ بِما يَكونُ مِنْهُ، وَالإِفْراطُ في اسْتِحْسانِهِ، حَتّى يَظْهَرَ ذلِكَ في لَفْظِهِ، وَفي شَمائِلِهِ، وَهُوَ الذي وَصَفَ بِهِ صَعْصَعَةُ بنُ صُوحان المُنْذِرَ بْنَ الجارودِ عِنْدَ عَلِيّ بنِ أبي طالِبٍ –رَحِمَهُ اللهُ– فَقالَ: "أَما إِنّهُ مَعَ ذلِكَ لَنَظّارٌ في عِطْفَيْهِ، تَفّالٌ في شراكَيْهِ، تُعْجِبُهُ حُمْرَةُ بُرْدَيْهِ"[2].

مُتَمِّماتٌ مُسانِدَةٌ:

وَقَدْ تَقَدَّمَتْ مُباحَثَةٌ مُجَلّيَةٌ لِمَعْناها وَحُدودِها، وَالحَقُّ أَنّها سَبيلٌ مِنْ سُبُلِ التّواصُلِ غَيْرِ اللَّفْظِيّ عامّةً، وَلُغَةِ الجَسَدِ خاصّةً؛ ذلِكَ أَنّ بَعْضَها تَوابِعُ لأَعْضاءِ الجَسَدِ المومِئَةِ، وَكَواشِفُ لِلْحالاتِ النّفْسِيَّةِ وَالذّهْنِيّةِ التي تَعْتَري صاحِبَها، وَلْنَضْرِبْ مِثالاً سَريعًا مِنْ تُراثِنا العَرَبيّ عَلى دِلالَةِ بَعْضِ تِلكُمُ المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ، فَالحَجّاجُ لَمّا خَرَجَ يُريدُ العِراقَ والِيًا عَلَيْها، بَدَأَ بِالمَسْجِدِ فَدَخَلَهُ، فَقالَ لَمّا كَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ:

أَنا ابْنُ جَلا وَطَلّاعُ الثَّنايا مَتى أَضَعِ العِمامَةَ تَعْرِفوني[3].

وَالذي أَرادَهُ الحَجّاجُ –وَمِنْ قَبْلِهِ القائِلُ وَمَنْ أَتى مِثْلَ هذِهِ الحَرَكَةِ– التّهْديدُ وَالوَعيدُ المُتَحَقِّقانِ مِنْ حَرَكَةٍ جَسَديّةٍ لِلمُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ، وَهِيَ العِمامَةُ، وَدِلالَةُ اطِّراحِها المُفْضي إلى أَنْ يَغْدُوَ صاحِبُها حاسِرَ الرّأْسِ هِيَ الجِدُّ وَالتّشاغُلُ عَنْها بِهِمْ.

---

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 11/1.

(2) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 99/1.

(3) الشعر لسحيم بن وثيل الرياحي من قصيدة في الأصمعيات، 17، وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 308/2.

وَالظّاهِرُ أنّ الجاحِظَ في "البَيان" قَدِ التَفَتَ إِلى هذِهِ المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ، ومِنْ ذلِكَ تَعْريجَتُهُ عَلى الإِشارَةِ التي قَدْ تَقَعُ بِالثّوْبِ وَبِالسّيْفِ، فَقَدْ يَتَهَدّدُ رافِعُ السّيْفِ وَالسَّوْطِ، فَيَكونُ ذلِكَ زاجِرًا، وَمانِعًا رادًّا، وَقَدْ يَكونُ وَعيدًا وَتَحْذيرًا[1].

وَفي حَديثِ الجاحِظِ عَنِ المَخاصِرِ وَالعصِيّ يُشيرُ إِلى أَنّها مِنَ المُتَمِّماتِ التي تُؤدّي مَعانِيَ تَنْضافُ إِلى الأَلْفاظِ؛ إِذْ إِنَّ المَخاصِرَ وَالعصِيَّ مِنْ مَرافِقِ الخُطْبَةِ، وَقَدْ طَعَنَتِ الشُّعوبِيّةُ –كَما يَقولُ الجاحِظُ– عَلى أَخْذِ العَرَبِ في خُطَبِها المِخْصَرَةَ، وَالقَناةَ، وَالقَضيبَ، وَالاتِّكاءَ عَلى القَوْسِ، وَالخَدَّ في الأَرْضِ، وَالإِشارَةَ بِالقَضيبِ، بِكَلامٍ مُسْتَكْرَهٍ يَطولُ[2].

وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمُ الجاحِظُ مُحامِيًا عَنْ وُجْهَةِ نَظَرِه فيها، وَوَجاهَةِ اسْتِعانَةِ العَرَبِ بِها في الإِبانَةِ وَالبَيانِ، وَمِنْ ذلِكَ أَنّ العَرَبَ كانَتْ تُشيرُ بِالعَصا وَالقَنا لِتَقومَ مَقامَ اليَدِ، وَقَدْ تَكونُ موحِيَةً بِأَشْياءَ أُخْرى تَنْتَسِبُ إِلى لَطيفِ قَوْلِهِ –تَعالى–: "قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكّأُ عَلَيْها، وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمي، وَلِيَ فيها مَآرِبُ أُخْرى"[3]، وَقَدْ تَكونُ عَوْنًا لِلمَرْءِ عَلى تَجْلِيَةِ المَعْنى المُرادِ تَعْيينُهُ، وَقَدْ تَجَلّى ذلِكَ –كَما يَرى الجاحِظُ– في قَوْلِ الشّاعِرِ:

مَجالِسُهُمْ خفْضُ الحَديثِ وَقَوْلُهُمْ إِذا ما قَضَوْا في الأَمْرِ وَحْيُ المَخاصِرِ[4].

وَقَدْ عَرَّجَ عَلى هذا المَعْنى كُثَيِّرُ عَزّةَ، مُشيرًا إِلى اسْتِعانَتِهِمْ بِها في الإِبانَةِ وَالتّواصُلِ، قائِلاً:

وَهُمْ حُكّامُ مُعْضِلَةٍ عَقامٍ فَكَم بَعَثوا بِها فَصْلَ الخِطابِ
إِذا قَرَعوا المَنابِرَ ثُمَّ خَطّوا بِأَطْرافِ المَخاصِرِ كَالغِضابِ
قَضَوْا فيها وَلَمْ يَتَوَهَّموها بِفاصِلَةٍ مُبَيَّنَةِ الصَّوابِ[5]

وَقالَ آخَرُ:

---

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.

(2) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 383/1.

(3) الآية(طه، 18).

(4) الشعر لصريع الغواني في ديوانه، 322، وروايته في الديوان: "إذا ما قضوا في الأمر وحي المحاجر".

(5) انظر: كثير، ديوانه، 73.

فـي كَفِّـهِ خَيْـزُرانٌ ريحُـهُ عَبِـقٌ بِكَـفِّ أَرْوَعَ فـي عِرْنينِـهِ شَـمَمُ[1]

وَقالَ آخَرُ:

أَهْـلُ التَّجـاوُبِ فـي المَحـا فِـلِ وَالمَقـاوِلِ بِالمَخَاصِـرْ
فَهُـمُ كَـذلِكَ فـي المَجـا لِـسِ وَالمَحافِـلِ وَالمَشـاعِرْ[2]

وَقالَ آخَرُ:

يَؤُمُّونَ مُلْكَ الشّـامِ حَتَّى تَمَكَّنـوا مُلوكًا بِأَرْضِ الشّامِ فَوْقَ المَنابِرِ
يُصيبُونَ فَصْلَ القَوْلِ في كُلِّ خُطْبَةٍ إِذا وَصَلوا أَيْمانَهُمْ بِالمَخاصِرِ[3]

وَقَدْ عَرَّجَ الجاحِظُ عَلى هذِهِ الظّاهِرَةِ في بابٍ قائِمٍ بِرَأْسِهِ في بَيانِهِ، وَهُوَ "ما قيلَ في المَخاصِرِ وَالعصِيِّ"، مُشيرًا إِلى أَنَّ العَرَبَ كانَتْ "تَخْطُبُ بِالمَخاصِرِ، وَتَعْتَمِدُ عَلى الأَرْضِ بِالقِسيِّ، وَتُشيرُ بِالعصِيِّ وَالقَنا، نَعَمْ، حَتّى كانَتِ المَخاصِرُ لا تُفارِقُ أَيْدِيَ المُلوكِ في مَجالِسِها"[4]، وَالظّاهِرُ أَنَّ طَعْنَ الشّعوبِيّةِ المُتَقَدِّمَ بَيانُهُ آنِفًا ما هُوَ إِلاّ مِنْ بابِ اخْتِلافِ الثَّقافاتِ، فَالحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ المُتَقَبَّلَةُ في ثَقافَةٍ قَدْ يَكونُ أَمْرُها بِالضِّدِّ في ثَقافَةٍ أُخْرى.

ثُمّ يُقَرِّرُ الجاحِظُ لِلخَطابَةِ أُصولاً وَآدابًا يَجِبُ اسْتِنانُها، وَمِنْ ذلِكَ أَنّ الإِغْراقَ في النّظَرِ في عُيونِ النّاسِ عِيٌّ، وَمَسَّ اللِّحْيَةِ هُلْكٌ[5]، وَالارْتِعاشَ وَالرِّعْدةَ وَالبُهْرَ عَيْبٌ، "وَأَعْيَبُ عِنْدَهُمْ مِنْ دِقّةِ الصَّوْتِ، وَضيقِ مَخْرَجِهِ، وَضَعْفِ قُوّتِهِ، أَنْ يَعْتَرِيَ الخَطيبَ البُهْرُ، وَالارْتِعاشُ، وَالرِّعْدَةُ، وَالعَرَقُ"[6]، وَالإِفْراطُ في الحَرَكَةِ مَذْمومٌ، وَفي مَقامٍ آخَرَ قالَ الجاحِظُ: " أَوَّلُ البَلاغَةِ اجْتِماعُ آلَةِ البَلاغَةِ؛ وَذلِكَ أَنْ يَكونَ الخَطيبُ رابِطَ الجَأْشِ،

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 370/1، وقد اختلف في قائل الشعر، والأصح الآكد أنه للحزين الكناني، انظر كلام أحمد شاكر عنه في الشعر والشعراء، 64/1.
(2) الشعر للكميت، انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 371/1.
(3) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 371/1، وقد نسب الجاحظ الشعر لصفوان الأنصاري.
(4) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 370/1.
(5) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 44/1.
(6) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 133/1.

ساكِنَ الجَوارِحِ، قَليلَ اللّحْظِ، مُتَخَيَّرَ اللَّفْظِ"[1].

وَالحَقُّ أنّ الجاحِظَ في هذِهِ الوَصايا يَلْتَفِتُ، عَلى نَحْوٍ مُعْجِبٍ، إلى بَعْضِ ما وَرَدَ في هذا الدّرْسِ عِنْدَ الغَرْبِيّينَ، فَهُمْ يُقَرِّرونَ أَنّ مَكانَةَ الشَّخْصِ الاجْتِماعِيّةَ تَفْعَلُ في تَحْديدِ عَدَدِ حَرَكاتِهِ وَإيماءاتِهِ في أثْناءِ كَلامِهِ، فَالحَرَكاتُ الجَسَدِيّةُ وَالإيماءاتُ عِنْدَ الرّجُلِ ذي المَكانَةِ المَرْموقَةِ في الغالِبِ أَقَلُّ مِنْها عِنْدَ مَنْ هُوَ دونَهُ في الثّقافَةِ وَالمَهارَةِ[2]، وَلِذا فَإِنَّ عَدَدَ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ مُقْتَرِنٌ بِدَرَجَةِ الثّقافَةِ وَالمَنْزِلَةِ عِنْدَ Pease، كَما أنّهُ عَيْبٌ إذا أَفْرَطَ فيهِ الخَطيبُ، فَهُوَ صاحِبُ ثَقافةٍ وَمَنْزِلَةٍ رَفيعَتَيْنِ.

أَنْماطٌ مِنَ المِشْياتِ في "البُرْصان وَالعُرْجان"

وَقَدْ أتى الجاحِظُ عَلى مِشْياتٍ مُتَباينات حَمّالاتٍ لِدِلالاتٍ مَخْصوصَةٍ في ثِنْيِ تَعْريجَتِهِ عَلى "العُرْجانِ"، وَقَدِ اسْتَفتَحَ حَديثَهُ بِمِشْياتِ بَعْضِ الحَيَواناتِ، فَعَرَّجَ عَلى أَشْكالِها، وَاخْتِلافِها في العَدْوِ، وَتَفاوُتٍ في الوَطْءِ، وَقَدِ التَفَتَ في ثِنْيِ ذلِكَ إلى أَنَّ الإِنْسانَ نَفْسَه قَدْ يَكونُ مِنْه ذلِكَ، فَقالَ وَهُوَ يَعْرِضُ مِشْياتِ الإِنْسانِ المُتَباينَةَ في عِبارَةٍ دالّةٍ مُعْجِبَةٍ: "وَلِلإِنْسانِ نَفسِهِ اخْتِلافٌ شَديدٌ عَلى قَدرِ الحالاتِ المُخْتَلِفَةِ عَلَيْهِ، وَبِكلِّ ذلِكَ نَطَقَتِ الأَشْعارُ، وَاسْتَفاضَتِ الأَخْبارُ، وَشَهِدَ عَلَيْهِ العيانُ، وَمَيّزَتْهُ العُقولُ"[3]. وَلَعلَّهُ يَظهَرُ مِنْ عِبارَةِ الجاحِظِ ثَلاثَةُ أَشْياءَ:

- أَوَّلُها مِنْ قَوْلِهِ: "وَشَهِدَ عَلَيْهِ العيانُ"، فَفي ذلِكَ إشارَةٌ إلى أنَّ هَيْئَةَ المَشيِ إنَّما تَتَعيّنُ بَعدَ رُؤْيتِها وَمُعايَنَتِها، وَلا تَقومُ دِلالتُها في النَّفْسِ وَلا تَتَحصّلُ إلاّ بِالرُّؤيَةِ، وَمَنْ فاتَتْه الرّؤيةُ تِلكَ حُرِمَ مِنَ الوُقوفِ عَلى هذِهِ المَعاني في سِياقاتِها الحَيّةِ.
- وَثانيها مِنْ قَوْلِهِ: "وَمَيّزَتْهُ العُقولُ"؛ ذلِكَ أنَّ الإِنْسانَ إنَّما يُدْرِكُ تَمامَ الإِدْراكِ أنَّ تِلكَ المِشْيَةَ واشِيةٌ بِالكِبْرِ وَالتَّعالي، وَأَنَّ هذِهِ المِشْيَةَ تُنْبِئُ عَنْ خَوْفِ صاحِبِها، وَأَنَّ الأُخْرى تَدُلُّ عَلى مَرَضِ صاحِبِها أوْ تَثاقُلِهِ، وَهذا كُلُّه مِمّا يُمَيّزُهُ العَقلُ بَعْدَ رُؤيَتِها وَمُعايَنَتِها.

---

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 92/1.

(2) انظر:

Pease, Body Language, P.18.

(3) انظر: الجاحظ، البرصان، 139.

- وَثالِثُها مِنْ قَوْلِهِ: "اخْتِلافٌ شَديدٌ عَلى قَدرِ الحالاتِ المُخْتلِفةِ عَلَيْهِ"، وفي ذلِكَ تَقْريرٌ بِتعدّدِ أَنْماطِ المَشْيِ، وَتَباينِ هَيْئاتِهِ بِتَبايُنِ الحالاتِ، وَما كانَ أَكثَرَ الحالاتِ في العالَمِ الخارِجِيّ، فَثَمَّ الحالَةُ النَّفْسِيّةُ؛ كَالخَوفِ، أَوِ التَّكبّرِ، وَيَنشَأُ عَنْ ذلِكَ مِشْيَةٌ مُختلِفَةٌ "عَلى قَدرِ الحالاتِ المُختلفَةِ عَليْهِ"، وَكَذلِكَ الحالَةُ العَقلِيّةُ؛ كَالجُنونِ، فَلِلمَجْنونِ مِشْيَةٌ خاصّةٌ تُلْمِحُ بِهَيئَتِها إِلى حالَتِهِ أَحْيانًا، وَالحالَةُ الجِنْسِيّةُ، كَمِشْيَةِ المُتَخلِّعِ أَوِ المُتَخلِّعَةِ الهَلوكِ، وَالحالَةُ الصّحّيّةُ مِنْ ضَعْفٍ، أَوْ قُوّةٍ، أَوْ مَرَضٍ؛ كَمِشْيَةِ العَجوزِ، وَمِشْيَةِ المُقيَّدِ، وَالحالَةُ الجَوّيّةُ؛ فَالطَّقْسُ مَثَلاً قَدْ يُفْضي بِالمَرءِ إِلى أَنْ تَكونَ لَهُ مِشْيَةٌ لَيستْ كَمِشيَتِهِ في الصَّيْفِ مَثَلاً.

وَالحَقُّ أَنَّ ما تَقدَّمَ شَطْرٌ مِمّا أَتى عَلَيْهِ الجاحِظُ، فَقدْ وَصَفَ كُلَّ المِشْياتِ المُتَقدِّمِ بَيانُها مُعَرِّجًا عَلى دِلالةِ كُلِّ هَيْئةٍ، مُسْتَعينًا في عَرْضِهِ لِلهَيْئَة وَالدِّلالَةِ بِأَشْعارِ العَرَبِ وَما أُثِرَ عَنْهمْ مِنْ أَقْوالٍ. لِنَرْجِعِ النَّظرَ فيما يَأتي مِنْ مِشْياتٍ حَمّالاتٍ لِدِلالاتٍ وَرَدَ عَلَيْها الجاحِظُ في "البُرْصان وَالعُرْجان":

مِشْيَةُ الهَلوكِ:

وهِيَ التي تَهالَكُ إِلى الرِّجالِ، وَتَزيفُ(تَتَبخْتَرُ) في مَشْيِها إِذا رَأَتْهُم، وَقَدْ وَرَدَتْ هذِهِ المِشْيَةُ في قَوْلِ الشّاعِرِ:

وَيْلُ امِّهِ رَجُلاً تَأْبى بِهِ بَدَلاً ... إِذا تَجَرَّدَ لا خالٌ وَلا بَخِلُ

السّالِك الثَّغْرَة اليَقْظان كالِئُها ... مَشْي الهَلوكِ عَلَيْها الخَيْعَلُ الفُضُلُ[1]

مِشْيَةُ المَرْأةِ الرَّقيقَةِ:

وَقَدْ وُصِفتْ -كَما يَقولُ الجاحِظُ- بِضُروبِ البَقَرِ، وَإِذا قارَبَتِ الخَطْوَ، وَحَرَّكَتْ مَنكبَيْها، شَبّهوا مَشْيَها بِمَشْيِ القَطا، وَقَدْ جاءَ ذلِكَ في قَوْلِ الشّاعِرِ:

وَعَلى يَبْرينَ صَفْوانَ شُحْبًا بازِلاتْ ... يَتَمَشَّيْنَ كَما يَمْشي قَطًا أَوْ بَقَراتْ

(1) الشعر للمتنخل الهذلي، انظر: ديوان الهذليين، 34/2، والجاحظ، البرصان، 145، وابن قتيبة، الشعر والشعراء، 661/2، والأصفهاني، الأغاني، 94/24، الخيعل الثوب الذي يخاط أحد شقيه، ويترك الآخر، مفتوحا، والفُضُل المرأة التي ليس تحت درعها إزار.

يَتَخاصَـــــــرْنَ وَيَدْعـــــــــونَ مُجيـــبَ الـــدَّعواتْ[1]

وَكَذلِكَ قَوْلُ الغَطَمَّشِ:

أَبْلِغْ سُـمّيّةَ أَنّـي لَسْـتُ ناسِيَهـــا عُمْـــري وَلا قاضِـــيًا مِـــنْ حُبّهـــا

خَـوْدٌ كَـأَنَّ بِهـا وَهْنًـا إِذا نَهَضَـتْ تَمْشـــي رُوَيْـــدًا كَمَشْـــي الظّـــالِعِ

مِشْيَةُ المُتَبَخْتِرِ المُتَكَبِّرِ:

وَقَدْ قَرَّرَ الجاحِظُ أَنَّ هذِهِ عادَةٌ قَدْ عُرِفتْ بِها بَعْضُ القَبائِلِ، مُشيرًا إِلى أَنَّ أَصْحابَ الخُيَلاءِ في المَشْيِ ثَلاثَةٌ: بَنو مَخْزومٍ، وَبَنو بَدْرٍ، وَبَنو جَعْفرِ بنِ كِلابٍ[3]، "وَكانَتْ لِعُيَيْنةَ ابْنِ حِصنٍ مِشْيَةٌ عَجيبَةٌ"[4]، وَمِمّا أَتى عَلَيْهِ الجاحِظُ مِنْ أَشْعارٍ تَصِفُ هذِهِ الهَيْئةَ قَوْلُ الأَخْطَلِ:

إِذا شَرِبَ الفَتى مِنْها ثَلاثًا بِغَيْرِ الماءِ حاوَلَ أَنْ يَطولا

مَشى قُرَشِيّةً لا عَيْبَ فيها وَسَحَّبَ مِنْ جَوانِبِهِ الفُيولا[5].

وَقَدْ عَرَّجَ عَلى الحَديثِ الذي سَيأْتي بَيانُهُ في بابِ القَوْلِ عَلى "لُغة الجَسَدِ في الحَديثِ النّبويّ الشَّريفِ"، وَفيهِ أَنَّ النّبيَّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَأى أَبا دُجانَةَ يَمْشي الخُـيَلاءَ بَـيْنَ الصَّـفّيْنِ فـي الحَـرْبِ، فَقـالَ: "إِنَّ هـذِهِ لَمِشْـيَةٌ يَبْغَضُـها اللهُ إِلاّ فـي هـذا المَكانِ"[6]، وَقَدْ عَرَكَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ أُذُنَ فَتًى مِنْ بَني المُغيرَةِ رَآه يَتَبَخْتَرُ في مِشْيَتِهِ، وَقالَ: "نَخْوَةُ بَني مَخْزومٍ!"[7].

مِشْيَةُ التَّحدّي وَالمُواجَهَةِ:

وَمِمّا يَسيرُ بِرَكْبِ ما تَقَدَّمَ مِشْيَةُ التّحَدّي وَالمُواجَهَةِ بَيْنَ القِرْنَيْنِ، وَقَدْ قالَ عَنْها

---

(1) انظر: الجاحظ، البرصان، 144.

(2) الخَوْد الشابة الناعمة، والواجي: الحافي. انظر: الجاحظ، البرصان، 144.

(3) انظر: الجاحظ، البرصان، 153.

(4) انظر: الجاحظ، البرصان، 153.

(5) للبيتين قصة أتى عليها الأصفهاني في الأغاني، 300/8، وفيه "وأرخى من مآزره الفضولا"، والعباسي في معاهد التنصيص، 274/1، وانظر: الجاحظ، البرصان، 153.

(6) انظر: الجاحظ، البرصان، 154، وسيأتي تخريجه في باب القول على لغة الجسد في الحديث النبوي الشريف.

(7) انظر: الجاحظ، البرصان، 155.

الجاحِظُ إِنَّها مِنْ مَشْيِ العَدُوِّ إِذا رَأى عَدُوَّهُ، وَمَثّلَ عَلَيْها بِقَوْلِ الشّاعِرِ:

تَرى المُغْضَبَ الغَيْرانَ يَمْشي بِسَيْفِهِ وَيَخْطِرُ في كابٍ مِنَ النَّقْعِ أَصْهَبِ
وَيَذكُرُ مَأْثورَ الحَديـــــثِ حَفيظَـــةً فَيَعْنَقُ نَحْوَ الفــارِسِ المُتَلَبِّـــبِ[1]

وَكَذلِكَ قَوْلُ آخَرَ:

تَلْقى العَدُوَّ إِذا ما مَرَّ تَحْسَبُهُ مِنَ العَداوَةِ وَالبَغْضاءِ مَشْكولا[2]

وَكَذلِكَ قَوْلُ بَلْعاءَ بنِ قَيْسٍ:

مَعي كُلُّ مُسْتَرْخي الإِزارِ كَأَنَّهُ إِذا ما مَشى مِنْ أَخْمَصِ الرِّجْلِ ظالِعُ[3]

وَقَوْلُ آخَرَ في مَشْيِ العَدوِّ إِلى العَدُوِّ:

مَشْيُ السَّبَنْتى واجَهَ السَّبَنْتى[4]

مِشْيَةُ العَجوزِ:

وَقَدِ التَفَتَ الجاحِظُ إِلى هَيْئَةٍ مِنَ المَشْيِ دالّةٍ عَلى السّنِّ وَالتّثاقُلِ، فَأَلْمَحَ إِلى أَنَّهُم وَصَفوا مَشْيَ العَجوزِ، وَمَشْيَ الشُّيوخِ، فَقالَ أَعْشى هَمْدان:

أَسَمِعْتَ بِالجَيْشِ الذينَ تَمَزَّقوا وَأَصابَهُمْ رَيْبُ الزَّمانِ الأَعْوَجِ
فَأَمَتَّهُمْ هُزْلاً وَأَنْـتَ ضَفَنْـــــدٌ مَلآنُ تَمْشي كَالأَبَدِّ الأَفْحَجِ[5].

مِشْيَةُ المَجْنونِ:

وَبَيانُها عِنْدَ الجاحِظِ:

أَسْأَرَتْ لَيْلَةً وَيَوْمــاً فَلَمّـــا دَخَلَتْ فــي مُسَرْبَخٍ مَـــرْدونِ
أَصْبَحَتْ تَعْرِفُ الحُلاءَ بِعَيْـ نَيْها وَتَمْشي تَخَلُّعَ المَجْنونِ[6]

---

(1) انظر: الجاحظ، البرصان، 154.

(2) المشكول هو المقيد بالشكال، وهو الحبل، وانظر: الجاحظ، البرصان، 154.

(3) انظر: الجاحظ، البرصان، 155.

(4) السَّبَنتى هو النمر، ثم صار اسما لكل سبع جريء، انظر: الجاحظ، البرصان، 155.

(5) الضفندد الملآن الأحمق، وانظر الشعر: الصبح المنير في شعر أبي بصير، 317، (ملحق به)، والجاحظ، البرصان، 148.

(6) أسأرت ليلة: أي سارت سائر اليوم والليلة، والمسربخ: المهمه البعيد، والمردون: ما خالطت صفرته حمرة، والحُلاء ما يحك بين حجرين ليكتحل به، وقد نسب الجاحظ الشعر لخلف بن حيان، انظر: الجاحظ، البرصان، 152.

مِشْيَةُ التَّبَهْنُسِ وَالتّخَلُّعِ:

وَهِيَ مِشْيَةُ الأَسدِ كَما وَصَفَها الجاحِظُ، وَقَدْ وُصِفَتْ بِها مِشْيَةُ الإِنسانُ، وَمِنْه قَوْلُ أَبي زُبَيْدٍ الطّائِيّ في مِشْيَةِ الأَسَدِ:

إِذا تَبَهْنَس يَمْشي خِلْتَهُ وَعِثًا وَعَتْ سَواعِدُ مِنْهُ بَعْدَ تَكْسيرِ[1]

مِشْيَةٌ تَحْتَ المَطَرِ:

وَقَدْ أَشارَ الجاحِظُ إِلى أَنَّ لِلأَسَدِ مِشْيَةً أُخْرى غَيْرَ التّبَهْنُسِ وَالتَّخَلُّعِ، وَمَردُّ ذلِكَ إِلى الأَحْوالِ الجَوّيّةِ، "فَلِلأَسَدِ تَحْتَ المَطرِ مَشْيٌ آخَرُ"[2]، وَقَدْ وُصِفَ بِها الإِنسانُ، فَقالَ عَمْرُو بنُ الإِطنابَةِ:

خُزْرٌ عُيونُهُمُ لَدى أَعْدائِهِمْ يَمْشونَ مَشْيَ الأُسْدِ تَحْتَ الوابِلِ[3]

مِشْيَةُ المُقَيَّدِ:

وَقَدْ شَبَّهَ بِها الجاحِظُ مِشْيَةَ الغُرابِ؛ ذلِكَ أَنّهُ يَحْجِلُ، وَقَدْ وَرَدَ هذا المَعْنى في قَوْلِ أَبي عمْرانَ الأَعْجَمِ:

فَما اسْتَوْحَشَ الحَيُّ المُقيمُ لِرِحْلَةِ خَليطٍ وَلا عَزَّ الذينَ تَحَمَّلوا
كَتارِكِ يَوْماً مِشْيَةً مِنْ لأُخْرى فَفاتَتهُ فَأَصْبَحَ يَحْجِلُ[4]

مِشْيَةُ المُمْتَلِئِ الأَبَدِّ وَالبَدّاءِ:

وَقَدْ وَصَفَ الجاحِظُ هذِهِ الهَيْئَةَ مِنَ المِشْيَةِ المُتَخَلِّقَةِ مِنَ البَدانَةِ؛ ذلِكَ أَنَّ مِشْيَةَ البادِنِ مُغايِرَةٌ لِمِشْيَةِ مَنْ هُوَ بِالضِّدِّ، وَقَدِ اسْتَشْهدَ الجاحِظُ عَلى ذلِكَ واصِفًا الأَبَدَّ المُمْتلِئَ ذا اللَّحْمِ المُتَراكِبِ المُتَراكِمِ، وَالبَدّاءَ البادِنَةَ كَما وَرَدَ عَلى لِسانِ الشّاعِرِ:

جارِيَةٌ مِنْ ضَبّةَ بنِ أُدٍّ بَدّاءُ تَمْشي مِشْيَةَ الأَبَدِّ[5]

---

(1) انظر: الجاحظ، البرصان، 141، أي يصف الأسد بأنه يمشي في وعث، وهو ما كثر فيه الرمل، و"وعت سواعد": كأنها كسرت من قبل، ثم جبرت بعد ذلك، والشعر في ديوانه، 81.

(2) انظر: الجاحظ، البرصان، 141.

(3) انظر: الجاحظ، البرصان، 141.

(4) انظر: الجاحظ، البرصان، 140.

(5) القائل يربوع الجرمي، كذا نسبه الجاحظ، البرصان، 147.

وَقالَ ابنُ هَمّامٍ في الأَبَدِّ:

أُتيحَ لَها مِنْ شُرْطَةِ الحَيِّ جانِبٌ عَريضُ القُصَيْرى لَحْمُهُ مُتَكاوِسُ
أَبَدُّ إِذا يَمْشـــــي يَميسُ كَأَنَّمـــا بِهِ مِـنْ دَماميلِ الجَزيرَةِ ناخِسُ[1]

هَيْئَةُ الجَسَدِ وَالحِرْفَة:

وَقَدْ يُقدِّمُ الجَسَدُ أوِ المُتمِّماتُ المُسانِدةُ دِلالاتٍ تُلْمِحُ أوْ تُصَرِّحُ بِحِرْفَةِ صاحِبِها، وَالظّاهِرُ أنَّ ذلِكَ قَدْ يَتَجلّى بِسَبيلَيْنِ: أولاهُما عَلائِمُ مَخْصوصَةٌ تَتَشَكّلُ في الجَسَدِ تَشَكُّلاً باعِثُهُ مُداوَمَةُ الحِرْفَةِ وَاصْطِناعُها. وَثانيهما المُتَمِّماتُ المُسانِدَةُ كَاللِّباسِ مَثَلاً، أوِ الأَدَواتِ التي يَسْتَعينُ بِها صاحِبُ الحِرْفَةِ، وَلَعَلَّ كَثيرًا مِنّا يَعْرِفُ إذا ما رَأى حِرْفِيًّا قَدِ اكْتَسى بِلَبوسِهِ العَمَلِيِّ الخاصِّ، أوْ ظَهَرَ عَلَيْهِ عَلائِمُ مَخْصوصَةٌ واشِيَةٌ بِذلِكَ، أنّهُ حَدّادٌ، وَأَنَّ هذا نَجّارٌ، وَأَنَّ ذاكَ حَجّارٌ، وَأَنَّ ذا لَطَبيبٌ، فَاللِّباسُ، وَهَيْئَةُ الجَسَدِ، وَعَلائِمُ أُخْرى، قَدْ تَكونُ مِنَ المُفْضِياتِ إلى هذِهِ المَعاني التي تَقومُ في نَفْسِ الرّائي.

وَقَدِ التَفتَ الجاحِظُ إلى ذلِكَ، فَجَنَحَ إلى أَنَّ كُلَّ صِناعَةٍ تُصَوِّرُ صاحِبَها عَلى ما يُشاكِلُها، وَأَنَّ المُداوَمَةَ عَلَيْها قَدْ تُؤْذِنُ بِظُهورِ عَلاماتٍ جَسَديّةٍ مَخْصوصَةٍ، وَكان مِثالُ الجاحِظِ الدّالُّ عَلى ما هُوَ خائِضٌ فيهِ وَصْفَ عُبَيْدٍ الرّاعي الذي تَتَحوّلُ خِلقَتُهُ الجَسَديّةُ تَحَوّلاً مُنْبِئًا عَنْ مِهْنَتِهِ، أَلا وَهِيَ الرَّعْيُ[2]، "وَكَذلِكَ كُلُّ صِناعَةٍ تُصَوِّرُ صاحِبَها عَلى ما يُشاكِلُها، أَلا تَرى أَنَّ الحائِكَ يُعْرَفُ بِصُدْرَتِهِ، وَتَفَحُّجِ رِجْلَيْهِ"[3].

وَمِمّا اسْتَدَلَّ بِهِ الجاحِظُ عَلى سَلامَةِ مَذْهبِهِ، وَصَحيحِ رَأيِهِ وَوَجاهَتِهِ قَوْلُ الشّاعِرِ وَقَدْ قيلَ لَه عَنْ فُلانٍ إنّهُ شاعِرٌ فَاحْذَرْ هِجاءَهُ، فَلَمّا رَأى خِلْقَتَهُ لَمْ يَرَ فيها ما يَشي بِشاعِريّتِهِ، وَإِنَّما ما يَشي بِأنّهُ جَزّارٌ أَوْ حَرّاثٌ:

يَقولونَ أَوْسٌ شاعِرٌ فَاحْذَرنَّهُ وَما أَنا إِنْ لَمْ أَهْجُ أَوْسًا بِشاعِرِ
رَأيْتُ لأَوْسٍ خِلْقَةً فَشَنَأْتُهـــا لَهازِمَ حَرّاثٍ وَتَقْطيعَ جازِرِ[4]

---

(1) انظر: الجاحظ، البرصان، 147.

(2) انظر: الجاحظ، البرصان، 216.

(3) انظر: الجاحظ، البرصان، 217.

(4) الشعر مما ينسب ليزيد بن مفرّغ، وما عثرت عليه في ديوانه، انظر: الجاحظ، البرصان، 217.

وَقَدِ اسْتَشهَدَ الجاحِظُ بِقَوْلِ شاعِرٍ آخَرَ تَلَمَّسَ في خِلْقَةِ مَهْجُوِّهِ دِلالاتٍ قامَتْ في نَفسِهِ، فَقالَ:

وَصَفْتُ بِجُهْدي وَجْهَ حَفْصٍ وَخَلْقَهُ فَما قُلتُ فيهِ واحِدًا مِنْ ثَمانِيَهْ
لَهازِمَ أَكّارٍ، وَخِلْقَةَ كافِرٍ وَتَقْطيعَ كَشْخانٍ، وَرَأْسَ ابنِ زانِيَهْ
وَلِحْيَةَ قَوّادٍ، وَعَيْنَيْ مُخَنَّقٍ وَجَبْهَةَ مَأْبونٍ يُ.... عَلانِيَهْ[1]
وَراحَةَ صَبّاغٍ، وَصُدْرَةَ حائِكٍ وَمِرْفَقَ سِقْطٍ رُدَّ في الرَّحْمِ ثانِيَهْ[2]

وَمِنَ المُثُلِ المُبينَةِ عَنْ تَنَبُّهِ الجاحِظِ وَوُقوفِهِ عِنْدَ تَشَكُّلِ الجَسَدِ عَلى هَيْئَةٍ مَخْصوصَةٍ باعِثُها إدامَةُ إتْيانِ فِعْلٍ حَرَكِيٍّ ما رَواهُ لَهُ أَحَدُهُمْ عَنْ نَفسِهِ فَقالَ: "وَمِثْلُهُ ما خَبَّرَني بِهِ أَبو عَبّادٍ النُّمَيريُّ، وَاسمُ أَبي عَبّادٍ مَرْوانُ، قالَ: كُنتُ وَأَنا غُلامٌ أَشْتَهي الصَّعْتَرِيّةَ[3]، وَالمُواثَبَةَ، وَالتَّكاثُفَ[4]، وَالنِّشالَ، وَتَعْقيفَ الأَصابِعِ إذا تَكلَّمْتُ، فَصِرْتُ وَاللهِ كَأَنّي أُفْرِغْتُ في ذلِكَ القالَبِ إفْراغًا، فَلَمّا عَقلْتُ احْتَجْتُ إلى أَنْ أَسْتَوِيَ فَما أَجابَتْني الطّبيعَةُ، وَلا أَجابَتْني تِلكَ الجَوارِحُ إلاّ بِشِدّةِ الاسْتِكْراهِ، وَبَقِيَتْ وَاللهِ خِنْصِرُ أَصابِعي ما تَنْبَسِطُ إلاّ بِأَنْ أَمُدَّها، وَمَتى تَرَكْتُها عادَتْ مُعَقَّفَةً"[5].

وَمِثْلُهُ ما قالَهُ الجاحِظُ عَنْ رَجُلٍ آخَرَ تَعَوَّدَ أَنْ يَعْقِفَ أَصابِعَهُ، وَأَنْ يَمْشِيَ مِشْيَةَ التّخَلّعِ، فَلَمّا اسْتَوى أَرادَ هَجْرَ ذلِكَ فَلَمْ يُطِقْ؛ ذلِكَ أَنَّ تِلْكَ الأَوْصافَ الجَسَدِيّةَ غَدَتْ كَالفِطْرَةِ المُسْتَحكِمَةِ التي نُشِّئَ فيها، وَبَيانُ ذلِكَ كُلِّه قَوْلُ الجاحِظِ: "وَكانَ أَبو عَبْدان المُخَلّعُ مَوْلى بَلْعَنْبر، وَاسمُهُ مَرْثَدٌ، وَكانَ أَطْيَبَ النّاسِ شِعْرًا، وَكانَ صَعْتَرِيًّا صاحِبَ نَيْزَكِيّةٍ[6]، وَتَخلُّعٍ، وَكانَ ذا نِشالٍ، وَإذا تَكلّمَ عَقَفَ أَصابِعَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَكَلّفُ ذلِكَ حَتّى صارَ مُخَلَّعًا بِالحَقِّ، وَصارَ أَسْوَأَ حالاً مِنَ الأَشَلِّ، وَكانَ في صِغَرِهِ خَيّاطًا، فَصارَ في

(1) قد حَذَفتُ الكلمة التي وضعت مكانها نقطا؛ ذلك أنها من فاحش القول ورديئه.

(2) نسب الشعر الثعالبي لأبي المنهمر مولى تميم، انظر: الثعالبي، ثمار القلوب، 241، وانظر: الجاحظ، البرصان، 217.

(3) الصعتريُّ هو الشاطر الذي أعيا الناس الناس خبثا وحيلا.

(4) المواثبة وثوب الشخص على آخر، والتكاتف مشية خاصة تكون بتحريك الكتفين.

(5) انظر: الجاحظ، البرصان، 216.

(6) النيزكية: الشر.

حالٍ لا يَستَطيعُ أَنْ يَملِكَ نَفْسَهُ، وَلا يُمْسِكَ إِبرَةً بِيدِهِ"[1].

وَمِنْ مِثلِ ما تَقَدَّمَ -أَعْني أَثَرَ المِهْنةِ في تَشْكيلِ وَسْمٍ جَسَدِيٍّ خاصٍّ قَدْ يَصيرُ المُرْءُ يُعْرَفُ بِهِ، أَوْ يَصيرُ الوَسْمُ ذاكَ دالاً عَلى المِهْنةِ، أَوْ مُلْمِحًا إِلَيْها- قَوْلُ الشّاعِرِ:

تَشادَقَ حَتّى مالَ بِالقَوْلِ شِدْقُهُ وَكُلُّ خَطيبٍ لا أَبا لَكَ أَشْدَقُ[2]

وَقَدْ وَرِدَ الجاحِظُ في "البَيان والتّبْيين" عَلى صِفاتٍ جَسَدِيّةٍ، وَمُتَمِّماتٍ مُسانِدَةٍ قَدْ تَكونُ مِنْ تَمامِ آلَةِ المِهْنَةِ وَصاحِبِها؛ ذلِكَ أَنَّ ثَمَّ صِفاتٍ قَدْ تَليقُ بِمِهْنَةٍ ما، وأَنَّ أُخْرى لا تَليقُ:

- فَتَمامُ آلَةِ القَصَصِ أَنْ يَكونَ القاصُّ أَعْمى، وَيَكونَ شَيْخًا بَعيدَ مَدى الصَّوْتِ.
- وَمِنْ تَمامِ آلَةِ الزَّمْرِ أَنْ تَكونَ الزَّامِرَةُ سَوْداءَ.
- وَمِنْ تَمامِ آلَةِ المُغَنّي أَنْ يَكونَ فارِهَ البِرْذَوْنِ، بَرّاقَ الثِّيابِ، عَظيمَ الكِبْرِ، سَيِّئَ الخُلُقِ.
- وَمِنْ تَمامِ آلَةِ الخَمَّارِ أنْ يَكونَ ذِمّيًا، وَيَكونَ أَرْقَطَ الثِّيابِ، مَخْتومَ العُنُقِ.
- وَمِنْ تَمامِ آلَةِ السُّؤْدُدِ أنْ يَكونَ السّيِّدُ ثَقيلَ السَّمْعِ، عَظيمَ الرّأْسِ، وَلِذلِكَ قيلَ: ما أَنْتَ بِعَظيمِ الرَّأسِ، وَلا ثَقيلِ السَّمعِ فَتَكونَ سَيِّدًا، وَلا بِأَرْسَحَ فَتَكونَ فارِسًا.
- وَمِنْ تَمامِ آلَةِ صاحِبِ الحَرَسِ أنْ يَكونَ زِمّيتًا، قَطُوبًا، أَبْيَضَ اللِّحْيةِ، أَقْنى، أَجْنى[3]، وَيَتكلّمَ بِالفارِسيّةِ[4].

وَقَدْ ساقَ الجاحِظُ رِواياتٍ وَأَخْبارًا تَدُلُّ عَلى ما تَقَدَّم، فَقَدْ يَظْهرُ شَخْصٌ ما عَلى هَيْئةٍ مَخْصوصَةٍ تُخالِفُ مَكانَتَهُ الاجتِماعِيّةَ، فَيَقَعُ تَفاصُلٌ باعِثُهُ مُناقَضَةُ لُغَةِ الجَسَدِ وَإيحاءاتِها لِما المَرْءُ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوالٍ وَأَوْضاعٍ، وَمِنْ ذلِكَ أَنَّ أبا واثِلَةَ إياسَ بنَ مُعاوِيَةَ، وَهُوَ مَنْ هُوَ في البَلاغَةِ وَجَوْدةِ الفِراسَةِ وَالقِيافَةِ أَتَى حَلْقةً مِنْ حلَقِ قُرَيْشٍ في مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَاسْتَولى عَلى المَجْلِسِ وَهُم لَهُ مُنْكِرونَ لا يَعْرِفونَهُ، وَقَدْ ظَهَرَ مِنْ هَيْئَتِهِ

(1) انظر: الجاحظ، البرصان، 215.

(2) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 121/1.

(3) الأقنى هو المرتفع أعلى الأنف، المحدودب وسطه، والأجنى هو الأحدب الظهر.

(4) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 93/1-95.

الجَسَدِيّةِ وَمَلابِسِهِ ما أَفْضى بِالجالِسينَ وُجاهَهُ إِلى الاسْتِهانَةِ بِهِ، وَالتّصامُمِ عَنْهُ، فَقَدْ رَأَوْهُ أَحْمَرَ دَميمًا، باذَّ الهَيْئَةِ، قَشِفًا، فَلَمّا عَرَفوه اعْتَذروا إِلَيْهِ اعْتِذارًا التَمَسوا فيهِ العِلّةَ الباعِثَةَ عَلى ما كانَ مِنْهُمْ، قائِلينَ: "الذّنْبُ مَقْسومٌ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ، أَتَيْتَنا في زِيّ مِسْكينٍ، وَتُكَلِّمُنا بِكَلامِ المُلوكِ"[1].

وَلَعَلَّ العِلّةَ الباعِثَةَ عَلى اسْتِهانَةِ النّاسِ بِالقاضي إِياسٍ هِيَ نَفْسُها التي أَذِنَتْ بِاعْتِراضِ الرَّشيدِ عَلى العُمانِيّ الرّاجِزِ لَمّا دَخَلَ عَلَيْهِ مُنْشِدًا مادِحًا، فَقَدْ دَخَلَ وَعَلَيْهِ قَلَنْسُوةٌ طَويلَةٌ، وَخُفٌّ ساذَجٌ، فَقالَ مُنْكِرًا لِما رَأى مِنْ وَصْفٍ جَسَدِيٍّ لا يَليقُ بِشاعِرٍ في حَضْرَةِ خَليفَةٍ: إِيّاكَ أَنْ تُنْشِدَني إِلاّ وَعَلَيْكَ عِمامَةٌ عَظيمة الكَوْرِ، وَخُفّانِ دُمالِقانِ[2]، فَبَكَرَ عَلَيْهِ مِنَ الغَدِ، وَقَدْ تَزَيّا بِزِيّ الأَعْرابِ، فَأَنْشَدَهُ، ثُمَّ دَنا فَقَبّلَ يَدَهُ..."[3].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ الحِكايَةُ التي قُطْباها اثْنانِ نَصْرانِيّانِ: أَحَدُهُما فَتًى، وَآخَرُ "مِطْران" أَسْهَرَ لَيْلَهُ في طَلَبِ "الجَثْلَقَةِ"[4]، وَشَغَلَ في طَلَبِها بالَهُ، وَلكِنَّ الفَتى تَبَصَّرَ في المِطْرانِ جَهْلاً ظاهِرًا لِتَناسيهِ أَنَّ الجَثْلَقَةَ التي يَحْرِصُ عَلى نَيْلِها بِكَثيرٍ مِنَ التّطَلُّبِ وَالإِلْحاحِ تُنافي مَظاهِرَهُ الجَسَدِيَّةَ، وَهَيْئاتِهِ التي يَظْهَرُ عَلَيْها، فَقَدْ قالَ الفَتى لِلمِطْرانِ: ما يَنْبَغي أَنْ يَكونَ في الأَرْضِ رَجُلٌ واحِدٌ أَجْهَلَ مِنْكَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ المطْرانُ مُسائِلاً مُسْتَنْكِرًا كَيْفَ حَلَّ عِنْدَهُ هذا المَحَلَّ، فَقالَ: "لأَنّكَ تَعْلَمُ أَنّا لا نَتَّخِذُ الجاثَلِيقَ إِلاّ مَديدَ القامَةِ، وَأَنْتَ قَصيرُ القامَةِ، وَلا نَتّخِذُهُ إِلاّ جَهيرَ الصَّوْتِ، جَيِّدَ الحَلْقِ، وَأَنْتَ دَقيقُ الصَّوْتِ، رَديءُ الحَلْقِ، وَلا نَتَّخِذُهُ إِلاّ وَهُوَ وافِرُ اللِّحْيَةِ، عَظيمُها، وَأَنْتَ خَفيفُ اللِّحْيَةِ، صَغيرُها، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنّا لا نَخْتارُ لِلْجَثْلَقَةِ إِلاّ رَجُلاً زاهِدًا في الرِّياسَةِ، وَأَنْتَ أَشَدُّ النّاسِ عَلَيْها كَلَبًا، وَأَظْهَرُهم لَها طَلَبًا، فَكَيْفَ لا تَكونُ أَجْهَلَ النّاسِ وَخِصالُكَ هذِهِ كُلُّها تَمْنَعُ مِنَ الجَثْلَقَةِ"[5].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ قَوْلُ الشّاعِرِ:

---

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 98/1.

(2) الدمالق: المستدير الأملس.

(3) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 95/1.

(4) الجاثليق عندهم القسيس الأكبر الذي لا يقطع الأمر دونه، والمطران دون ذلك.

(5) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 125/1.

فَقَبّلْتُ رَأْسًا لَمْ يَكُنْ رَأْسَ سَيّدٍ وَكَفًّا كَكَفِّ الضَّبِّ أَوْ هِيَ أَحْقَرُ[1]

فَعابَ صِغَرَ رَأْسِهِ، وَصِغَرَ كَفِّهِ كَما عابَ فَضالَةُ بنُ شَريكٍ كَفَّ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُطيعٍ العَدَويّ حينَ وَجَدَهَا غَليظَةً جافِيَةً لا تَصْدُقُ عَلى يَدِ الخُلَفاءِ، فَقالَ:

دَعا ابنُ مُطيعٍ للبِيَاعِ فَجِئْتُهُ إِلى بَيْعَةٍ قَلْبِـــــي لَهــا غَيْرُ آلِفِ

فَناوَلَنِي خَشْناءَ لَمّا لَمَسْتُها بِكَفَّيَّ لَيْسَتْ مِنْ أَكُفِّ الخَلائِفِ[2]

وَبَعْدُ، فَحَسْبي بَعْدَ هذا المُتَقَدّمِ الإِشارَةُ إِلى أنَّ كِتابَ الجاحِظِ "البُرْصانُ وَالعُرْجانُ وَالعمْيانُ وَالحولانُ" قَدْ أَتى فيهِ عَلى كَثيرٍ مِنَ الأَوْصافِ الجَسديّةِ، وَالهَيْئاتِ، وَمِنْ ذلِكَ حَديثُهُ عَنِ البُرْصانِ، وَالتّثْنِيةُ بِذِكرِ العُرْجانِ، وَما قالوا في الأَيْمنِ، وَالأَعْسرِ، وَفي الأَضْبطِ، وَاخْتِلافِ حالاتِ البَشرِ في الصِّغَرِ وَالكِبَرِ، وَكَيفَ القَولُ في الأَشَلّ، وَالأَقْطعِ، وَفي الأَضْجَمِ[3]، وَالأَفْقَمِ[4]، وَفي صاحِبِ اللّقْوَةِ[5]، وَالأَشْدَقِ، وَفي سَعَةِ الأَفْواهِ وَضيقِها، وَفي عِظَمِ الأُنوفِ وَصِغَرِها، وَكَيفَ مَدَحوا الرّؤوسَ بِالعِظَمِ، وَذَمّوها بِالصِّغَرِ، وَما قالوا في الدَّمامَةِ وَالنّبالَةِ، وَفي القِصَرِ وَالطّولِ، ثُمّ الذي قالوا في الأَجْلَحِ[6]، وَالأَنْزَعِ، وَفي الأَصْلَعِ، وَالأَقْرعِ، وَفي الأَزْعَرِ، وَالأَمْعَرِ[7]. وَما قالوا في الثُّطِّ[8]، وَالسُّنوطِ[9]، وَفي الأَحْدَبِ، وَالأَعْلَمِ[10]، وَفي الآدَرِ[11]، وَالأَفْقَحِ[12]، وَما

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 94/1.

(2) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 94/1.

(3) الأضجم: مائل الشق معوجه.

(4) الأفقم هو الذي تتقدم ثناياه العليا فلا تقع على السفلى.

(5) اللّقْوَة داء يصيب الوجه يعوج منه الشدق.

(6) الأجلح هو الذي انحسر شعره عن جانبي رأسه، وكذلك الأنزع.

(7) الأمعر من ذهب شعر ناصيته.

(8) الثّط وهو من خف شعر رأسه وحاجبيه.

(9) السُّنوط هو الكوسج الذي لا شعر في لحيته خلقة.

(10) الأعلم هو مشقوق الشفة العليا.

(11) هو الذي انتفخت خصيته.

(12) الأفقح من أصيب بداء في دبره.

ذَكَروا بِهِ الأَعْضاءَ، وَوَصَفوا بِهِ الجَوارِحَ، وَما جاءَ في ذلِكَ مِنَ الأَشْعارِ، وَالأَخْبارِ، وَالأَمْثالِ، وَالآثارِ[1].

وَالحَقُّ أَنَّ ذلِكَ جُلّهُ لَيْسَ مِمّا يَنْتَسِبُ إِلى لُغَةِ الجَسَدِ بِاعْتِبارِها ذاتَ قيمَةٍ دِلاليّةٍ تَواصُليّةٍ، ولَعَلَّ القَوْلَ الفَصْلَ فيما ذَكَرَهُ الجاحِظُ في مِهادِهِ لِكتابِهِ، وَاستِشْرافِ مَوادِّهِ، أَنّهُ أَوْصافٌ وَهَيئاتٌ جَسَديّةٌ مِنْها ما هُوَ حَمّالٌ لِدِلالاتٍ، أَوْ يَصلُحُ لأَنْ يَكونَ حَمّالاً، وَمِنْها ما ظَلَّ في مِضْمارِ الأَوْصافِ الجَسَديّةِ التي لا تُؤدّي وَظيفَةً تَواصُلِيّةً، وَلا تَنْتَسِبُ إِلى مَبْحَثِ دَرْسِنا هذا.

(1) انظر: الجاحظ، البرصان، 9.

الفَصْلُ الثّاني

لُغَةُ الجَسَدِ في التّراثِ المُعجَمِيِّ

الثّعالبيُّ نموذجًا

"فَصْلٌ في تَفْصيلِ كَيْفِيّةِ النَّظَرِ
وَهَيْئاتِهِ في اخْتِلافِ أَحْوالِهِ"

"فَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ مِنْ جانِبِ أُذُنِهِ قيلَ: لَحَظَهُ، فَإِنْ رَماهُ بِبَصَرِهِ مَعَ حِدَّةِ نَظَرٍ قيلَ: حَدَجَهُ بِطَرْفِهِ، فَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ بِشِدَّةٍ وَحِدّةٍ قيلَ: أَرْشَقَهُ وأَسَفَّ النّظَرَ إليهِ، فَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ المُتَعَجِّبِ مِنْهُ، والكَارِهِ لَهُ، والمُبْغِضِ إيَّاهُ، قِيلَ: شَفَنَهُ، فَإِنْ أعارهُ لَحْظَ العَدَاوَةِ قيلَ: نَظَرَ إِلَيْهِ شَزْرًا، فَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ المَحَبَّةِ قيلَ: نَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةَ ذِي عَلَقٍ، فَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ واضِعًا يَدَهُ عَلى حاجِبِهِ مُسْتَظِلاً بِها مِنَ الشَّمْسِ لِيَسْتَبِينَ المَنْظورَ إِلَيْهِ قيلَ: اسْتَكَفَّهُ، واسْتَوْضَحَهُ، واسْتَشْرَفَهُ، فَإِنْ فَتَحَ جَميعَ عَيْنَيْهِ لِشِدَّةِ النّظرِ قيلَ: حَدّقَ، فَإِنْ فَتَحَ عَيْنَ مُفَزَّعٍ أَوْ مُهَدَّدٍ قيلَ: حَمَّجَ، فَإِنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَجَعَلَ لا يَطْرِفُ، قِيلَ شَخَصَ".

الثعالبي، فقه اللغة، 122-124

وَفي سَيْرورَةِ تَأْصيلِ هذا الدَّرْسِ، وَتَلَمّسِ تَجَلّياتِهِ، وَجَمْعِ مُتَفَرّقاتِهِ، يُعَرّجُ الباحِثُ عَلى "فِقْه اللّغةِ"[1] الذي يَكادُ يَكونُ ذا فَرادَةٍ في هذا المَبْحَثِ؛ مَبْحَثِ التَّواصُلِ غَيْرِ اللَّفْظِيِّ عامّةً، وَلُغَةِ الجَسَدِ خاصّةً، أمّا الدَّواعي المُقَرّرَةُ بِفَرادَةِ هذا المُصَنَّفِ فَمُتَباينَةٌ:

- أوّلُها أنّهُ مُعْجَمٌ قائِمٌ بِرَأسِهِ مِنْ مُعْجَماتِ المَعاني التي تَتَناولُ مَوْضوعاتٍ شَتّى، وَقَدْ أَتى فيهِ كَثيرًا عَلى لُغَةِ الجَسَدِ، وَمِنْ ذلكَ الهَيئاتُ الجَسَدِيَّةُ العامَّةُ، وَحَرَكاتُ الجَوارِحِ وَدِلالاتُها، فَحَشَدَ أَلْفاظَ كُلِّ ما يَتّصِلُ بِما قَدَّهُ مِنْ عُنْواناتٍ وَحُقولٍ دِلالِيّةٍ تَنْتَسِبُ إِلى مَبْحَثِ "لُغَةِ الجَسدِ"، فَكانَتْ تِلْكمُ الأَلْفاظُ في سِياقاتِها صُوَرًا جَسَدِيَّةً وَحَرَكِيّةً حَمّالَةً لِدِلالاتٍ تَصْويرِيّةٍ مُشَخَّصَةٍ أَحْيانًا.
- وَثانيها سُهولَةُ المَأخَذِ وَالتّلَمّسِ؛ ذلِكَ أنَّ المَرْءَ إِذا ما أَرادَ أَنْ يَقِفَ عِنْدَ هَيْئَةٍ جَسَدِيّةٍ؛ كَهَيْئَةِ المَشْيِ مَثَلاً، أَوْ حَرَكاتٍ جَسَدِيَّةٍ عامّةٍ، أَوْ حَرَكَةٍ جَسَدِيَّةٍ مَخْصوصَةٍ؛ كَحَرَكَةِ اليَدِ، فَإِنَّ ذلِكَ سَهْلُ المَأخَذِ، قَريبُ المُتَناوَلِ، وَلَيْسَ لَهُ إِلاّ مُراجَعَةُ أَبْوابِ الكِتابِ بَحْثًا عَنْ ضالّتِهِ المَنْشودَةِ، وَعِنْدَها سَيَجِدُ بابًا أَوْ فَصْلاً قَدِ ارْتَضى لَهُ الثَّعالِبِيُّ عُنْوانًا عَريضًا يَجْتَمِعُ تَحْتَه أَلْفاظٌ مَخْصوصَةٌ تَتّصِلُ بِالعُنْوانِ ذاكَ، وَالأَمْرُ بِالضِّدِّ في مُعْجَماتِ الأَلْفاظِ؛ فَلَيْسَ هذا التّرتيبُ بِمُتَّبَعٍ، وَلَيْسَ جَمْعُ كَلِماتِ حَرَكَةٍ جَسَدِيَّةٍ ما، أَوْ هَيْئَةٍ ما، مِنَ المَعْمولِ بِهِ في مِثْلِ تِلْكَ المُعْجَماتِ، وَلِذا يَتَعَيَّنُ عَلى المَرْءِ العائِدِ إِلَيْها أَنْ يَكونَ عارِفًا بِالأَلْفاظِ المَنْوِيّ بَحْثُها أَوَّلاً، وَأَنْ يَبْحَثَ عَنْ كلِّ واحِدةٍ تَحْتَ الجَذْرِ السّاري فيها، وَالمُشْتَقّةِ مِنْهِ، وَلَيْسَ يَخْفى عَلى ذي نُهْيَةٍ ما بَيْنَ الأَمْرَينِ مِنْ بَوْنٍ في طَبيعَةِ التّواصُلِ، وَالتّلَمّسِ، وَالمَأخَذِ.
- وَثالِثُ الدَّواعي المُقَرّرةِ بِفَرادَتِهِ أَنَّ هذا المُصَنَّفَ مِنْ أَكْثرِ المُصَنَّفاتِ العَرَبِيّةِ التي صَرَفَتْ وُكْدَها نَحْوَ اسْتِشْرافِ هذِهِ الظّاهِرَةِ اسْتِشْرافًا لُغَوِيًّا قائِمًا عَلى حَشْدِ أَلْفاظِ الهَيئاتِ؛ كَالمِشْيَةِ، وَالجِلْسةِ، وَاللّبْسةِ، وَالنَّظْرةِ، وَأَلْفاظِ الحَرَكاتِ العامَّةِ وَالخاصّةِ،

(1) أعني بذلك كتاب "فقه اللغة" للثعالبي.

كَحَرَكَةِ اليَدِ وَأشْكالِها وَدِلالاتِها، وَدَرجاتِ بَعْضِ الحَرَكاتِ وَالهَيئاتِ، كَدَرَجاتِ العُبوسِ وَألْفاظِها، وَمَراتِبِ الواحِدةِ بَيْنَ بَناتِ حَقْلِها.

وَإذا ما نَظَرَ المَرْءُ نَظَرَ التّدَبّرِ وَالرّوِيّةِ في هذا المُصَنَّفِ، وَإذا ما قَلَّبَ مَباحِثَه الخائِضَةَ في لُغَةِ الجَسَدِ ظَهْرًا لِبَطنٍ، إذا ما كانَ ذلِكَ كَذلِكَ، فَقَدْ يَغْدو بِمُكْنَتِه الصّدورُ عَنْ مَقولاتٍ كُلّيّةٍ جامِعَةٍ تَسْتَبطِنُ الكِتابَ، وَتُبْرِزُ أبْوابَهُ المُنْتَسِبةَ إلى مَبْحَثِنا هذا عَلى نَحْوٍ آخَرَ جامِعٍ، وَمِنْ ذلكَ أنَّ جُلَّ أبْوابِ "لُغةِ الجَسَدِ" التي اجْتَرَحَها الثَّعالِبِيُّ كانَتْ:

- أبْوابًا تَشْتمِلُ عَلى أَلْفاظِ الهَيئاتِ الجَسَدِيَّةِ العامّةِ.
- أَوْ أَبْوابًا تَشْتَمِلُ عَلى أَلْفاظِ الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ العامّةِ.
- أَوْ أَبْوابًا تَشْتَمِلُ عَلى أَلْفاظِ الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ الخاصّةِ.
- أَوْ أَبْوابًا تَشْتَمِلُ عَلى أَلْفاظِ الدَّرَجاتِ الجَسَدِيَّةِ وَالمَراتِبِ.
- أَوْ أَبْوابًا تَشْتَمِلُ عَلى أَلْفاظِ المَحاسِنِ الجَسَديّةِ.
- أَوْ أَبْوابًا تَشْتَمِلُ عَلى أَلْفاظِ المَعايِبِ الجَسَديّةِ.
- أَوْ أَبْوابًا تَشْتَمِلُ عَلى أَلْفاظِ العَوارِضِ الجَسدِيّةِ.
- أَوْ أَبْوابًا تَشْتَمِلُ عَلى أَلْفاظِ المَقاييسِ الجَسدِيّةِ.
- أَوْ أَبْوابًا تَشْتَمِلُ عَلى أَلْفاظِ الضَّمائِمِ وَالاقْتِرناتِ اللَّفْظيّةِ الجَسَديّةِ.

وَلَعَلَّ هذِهِ الأنْظارَ المُسْتَبطِنَةَ لِما وَرَدَ في "فِقْه اللّغة"، وَالمُتَخَصِّصَةَ في مَوْضوعِ ما نَحْنُ فيهِ، تَنْتسِبُ إلى مُجْمَلِ القَولِ، وَلَعَلّها، مِنْ وُجهةٍ أخْرى، مُحْتاجَةٌ إلى بَسْطٍ مِنَ القَوْلِ وَتَفْصيلٍ:

أَلْفاظُ الهَيئاتِ العامّة

وَلِلمَرءِ هَيئاتٌ كَثيرَةٌ يَظْهرُ بِها أوْ عَلَيْها، وَمِنْ ذلكَ هَيْئَةُ المَشيِ، أوِ الجُلوسِ، أوِ النَّومِ، أوِ اللّباسِ، وَالحَقُّ أَنَّ ذلكَ كُلَّه قَدْ يَكونُ ذا وِشايةٍ، بَلْ وِشاياتٍ دِلالِيّةٍ تُبينُ عَنْ مَعانٍ لا نَقِفُ عَلَيْها بِاللَّفْظِ، وَصَفْوةُ المُسْتخلَصِ مِنْ ذلِكَ كُلِّه أنَّ لِكلِّ امْرِئٍ هَيئاتٍ خاصّةً، وَأَنَّ لِكلِّ هَيْئَةٍ صُورًا جَسَدِيَّةً تَتَجلّى عَلَيْها، وَأَنَّ لِكلِّ صورَةٍ لَفْظًا خاصًّا يَكونُ كَالصّورَةِ الفوتوغرافيّةِ، وَلَعلّي مُكْتَفٍ بِأرْبعِ هَيئاتٍ مِمّا وَرَد عَلَيْهِ الثَّعالِبِيُّ في "فِقه اللّغةِ"، وَهِيَ هَيْئَةُ النَّظْرةِ، وَهَيْئَةُ المِشْيَةِ، وَهَيْئَةُ الدَّفْعِ وَالقَوْدِ، وَهَيْئَةُ المَضْروبِ المُلْقى.

هَيْئَةُ النَّظْرَةِ:

وقَدْ عَرَّجَ الثَّعالِبِيُّ عَلى هذا الفَصْلِ مُرْتَضِيًا لَهُ العُنْوانَ "في تَفْصيلِ كَيْفِيَّةِ النَّظَرِ وَهَيْئاتِهِ في اخْتِلافِ أَحْوالِهِ"[1]، وَقَدْ أَثْبَتَ فيهِ أَلْفاظًا تُعَبِّرُ عَنْ تِلكَ الهَيْئاتِ وَأَحْوالِها، فَلِكلِّ هَيْئَةٍ لَفظةٌ مَخْصوصةٌ مُعبِّرةٌ، وَكُلُّ لَفظةٍ تَكادُ تكونُ صورَةً جَسَدِيَّةً أَداةُ رَسْمِها الحُروفُ التي تَجلَّتْ عَلَيْها.

وَفي هذا الفَصْلِ تَتَبايَنُ النَّظَراتُ تَباينًا لَهُ بَواعِثُ مُتَعدِّدةٌ، وَمِنْ ذلكَ الحالُ النَّفْسيّةُ؛ كَالرِّضى، وَالغَضبِ، وَالوَجَلِ، وَالإِعْجابِ، وَمِرآةُ ذلكَ كُلِّهِ العَيْنُ خاصّةً، وَطَبيعةُ النَّظرةِ عامّةً، وَمِنْ ذلكَ أَيْضًا الحالُ الصِّحّيّةُ، كَالسّلامَةِ وَالاعتِلالِ، وَالفُتورِ، وَمِنْ ذلكَ الحالُ الاجتِماعيّةُ، وَغَيرُ ذلكَ مِمّا يَنْضافُ إِلى البَواعِثِ المُفْضيَةِ إِلى تَباينِ هَيئاتِ العَيْنِ وَالنَّظْرةِ.

وَمِنْ هَيئاتِ النَّظرِ التي وَرَدَ عَلى أَلفاظِها الثَّعالِبِيُّ العَيْنُ الكارِهَةُ، وَالعَيْنُ المُعْجَبةُ، وَالعَيْنُ اللّوّامةُ، وَالعَيْنُ المُستوْضِحةُ المُتَثَبِّتةُ، وَالعَيْنُ المُتفَحِّصَةُ، وَالعَيْنُ الدّائِرةُ الوَجِلَةُ، وَالعَيْنُ المُحَدِّقَةُ، وَالمُسِفّةُ، وَغَيْرُ ذلكَ مِمّا أَتى الثَّعالِبِيُّ عَلى أَلفاظِهِ، وَالذي يَنْبَغي الإِلْماحُ إِليْهِ أَنَّ لِهذِهِ الهَيئاتِ التي هِيَ أَوْصافٌ جَسَدِيَّةٌ دِلالاتٍ مَخصوصَةً، وَلَعلّه يَحسُنُ في هذا المَقامِ عَرضُ عِبارةِ الثَّعالِبِيِّ الدّالّةِ عَنْ هذِهِ المُباحثَةِ المُنتسِبَةِ إِلى لُغَةِ الجَسَدِ:

- إِذا نَظَرَ الإِنْسانُ إِلى الشّيْءِ بِمَجامِعِ عَيْنِهِ قيلَ: رَمَقَهُ.
- فَإِنْ نَظَرَ إِلَيهِ مِنْ جانِبِ أُذُنِهِ قيلَ: لَحَظَهُ.
- فَإِنْ نَظَرَ إِلَيهِ بِعَجَلَةٍ قِيلَ: لَمَحَهُ.
- فَإِنْ رَماهُ بِبَصَرِهِ مَعَ حِدَّةِ نَظَرٍ قيلَ: حَدَجَهُ بطَرْفِهِ، وَفي حديثِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضيَ اللهُ عَنْهُ-: "حَدِّثِ القوْمَ مَا حَدَجُوكَ بأَبْصارِهِمْ"[2].
- فَإِنْ نَظَرَ إِلَيهِ بِشِدَّةٍ وحِدّةٍ قيلَ: أَرْشَقَهُ وأَسَفَّ النّظَرَ إليهِ. وَفي حدِيثِ الشَّعْبيّ أَنّهُ

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 122-124.

(2) أورد الحديث: الزمخشري، الفائق، 264/1، وابن الأثير، النهاية، 352/1، وابن منظور، اللسان، مادة "حدج".

"كَرِهَ أنْ يُسِفَ الرّجُلُ نَظَرَهُ إلى أَمّهِ وَأخْتِهِ وابْنَتِهِ"[1].

- فَإِنْ نَظَرَ إِلَيهِ نَظَرَ المُتَعَجِّبِ مِنْهُ، والكَارِهِ لَهُ، والمُبْغِضِ إيَّاهُ، قِيلَ: شَفَنَهُ، وَشَفَنَ إِلَيْهِ شُفُوناً وشَفْناً.
- فَإِنْ أعارهُ لَحْظَ العَدَاوَةِ قيلَ: نَظَرَ إليهِ شَزْرًا.
- فَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ المَحبَّةِ قيلَ: نَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةَ ذِي عَلَقٍ.
- فَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ المُسْتَثْبِتِ قيلَ: تَوَضَّحَهُ.
- فَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ واضِعًا يَدَهُ عَلى حاجِبِهِ مُسْتَظِلاً بِها مِنَ الشَّمْسِ لِيَسْتَبِينَ المَنْظورَ إِلَيْهِ قيلَ: اسْتَكَفَّهُ، واسْتَوْضَحَهُ، واسْتَشْرَفَهُ.
- فَإِنْ نَشَرَ الثَّوْبَ وَرَفَعَهُ لِيَنْظُرَ إِلى صَفاقَتِهِ، أو سَخافَتِهِ، أوْ يَرى عَوارًا، إنْ كانَ بِهِ، قيلَ: اسْتَشَفَّهُ.
- فَإِنْ نَظَرَ إلى الشّيْءِ كاللَّمْحَةِ ثُمَّ خَفِيَ عَنْهُ قيلَ: لاحَهُ لَوحَةً.
- فَإِنْ نَظَرَ إلى جَميعِ ما في المَكانِ حَتّى يَعْرِفَهُ قيلَ: نَفَضَهُ نَفْضًا.
- فَإِنْ نَظَرَ في كِتابٍ أوْ حِسابٍ لِيُهذِّبَهُ أو لِيَستَكْشِفَ صِحّتَهُ وَسَقَمَهُ قِيلَ: تَصَفَّحَهُ.
- فَإِنْ فَتَحَ جَميعَ عَيْنَيْهِ لِشِدَّةِ النّظرِ قيلَ: حَدّقَ.
- فإِنْ لأْلأَهُمَا قيلَ: بَرَّقَ عَيْنَيْهِ.
- فإِنْ غابَ سَوادُ عَينَيْهِ مِنَ الفَزَعِ قيلَ: بَرِقَ بَصَرُهُ.
- فَإِنْ فَتَحَ عَيْنَ مُفَزَّعٍ أوْ مُهَدَّدٍ قيلَ: حَمَّجَ.
- فإِنْ بَالَغَ في فَتْحِها وَأحَدَّ النّظَرَ عندَ الخَوْفِ قيلَ: حَدَّج وَفَزِعَ.
- فإِنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَجَعَلَ لا يَطْرِفُ، قيلَ شَخَصَ، وَفي القُرْآنِ الكَريمِ: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[2].

---

(1) أورد الحديث: ابن أبي شيبة في مصنفه، باب "ما قالوا في الرجل ينظر إلى شعر أخته أو ابنته"، (17277)، 11/4، والزمخشري، الفائق، 186/2، وابن الأثير، النهاية، 376/2، وابن منظور، اللسان، مادة "سفف".

(2) الآية(الأنبياء، 97).

- فإنْ أَدامَ النّظَرَ مع سُكونٍ قيلَ: أسْجَدَ[1].

هَيْئَةُ المِشْيَةِ:

وَقَدْ أتى الثَّعالِبِيُّ عَلى هذِهِ الهَيئةِ، وَأَطْنبَ في استِشْرافِها، وَتَعْيينِ أَلْفاظِها، وَعَرْضِ طائِفةٍ مِمّا وَسَمَه بِـ"تَفْصيلِ ضُروبِ مَشْيِ الإنْسانِ وَعَدْوِهِ"[2]، وَلَيسَ خافِيًا أنَّ هَيْئَةَ المِشيةِ قَدْ تَشي بِجِنْسِ صاحِبِها، أوْ عُمُرِه، أوْ حالِهِ النّفْسيّةِ، أوِ الصّحّيّةِ، أوْ الاجتِماعِيّةِ، وَلِذلِكَ كُلّهِ كانَ لِلمِشيَةِ هَيئاتٌ حَمّالاتٌ لِمَعانٍ مُتباينةٍ تَتَباينُ بِتباينِ العُمُرِ، فَللصّبيِّ مِشيةٌ لَيستْ كَمِشيةِ الشّابِّ، وَدَليفُ الشَّيخِ لَيسَ كَخَطَرانِ الشّابِّ، وَتتباينُ بِتباينِ الحالِ النّفسيّةِ، كَمِشيةِ الخائِفِ الوَجِلِ، أوِ المُهْطِعِ المُقْنِعِ رَأسَه، أوِ النّاكِصِ عَلى عَقِبَيهِ، وَتَتباينُ بِتَباينِ الحالِ الصّحّيّةِ، وَالاجتِماعيّةِ، كَمِشيةِ المَريضِ أوِ المُثْقَلِ، وَلكلّ هَيْئَةٍ مِن تِلكَ الهَيئاتِ كَلِمَةٌ مَخْصوصَةٌ في العَربيّةِ تَكادُ تكونُ صورةً لَها. لِنَرْجِعِ النَّظرَ في عِبارةِ الثَّعالِبِيّ وَفَصلِهِ المُتَقَدّمِ بَيانُهُ آنِفًا، فَفيهِ مُسْتَغنًى وَمُسْتَأنَفٌ لِما أَنا خائِضٌ فيهِ:

- الدَرَجانُ مِشْيةُ الصَّبيّ الصَّغيرِ.
- الحَبْوُ مَشْيُ الرَّضيعِ عَلى اسْتِهِ.
- الحَجَلانُ والرَّدَيانُ أنْ يَرْفَعَ الغُلامُ رِجْلاً ويمْشيَ عَلى أُخْرى.
- الخَطَرانُ مِشْيَةُ الشابِّ باهْتِزازٍ وَنَشاطٍ.
- الدَّليفُ مِشْيَةُ الشَّيْخِ رُوَيدًا وَمُقارَبَتُهُ الخَطْوَ.
- الهَدَجانُ مِشْيَةُ المُثْقَلِ، وَكَذلِكَ الدَّلْحُ والدَّرَمانُ.
- الرَّسَفانُ مِشْيَةُ المُقَيَّدِ.
- الدَّأَلانُ مِشْيَةُ النَّشيطِ، وبالذّالِ مُعْجَمَةً مِشْيَةٌ خَفِيفَةٌ، وَمِنْهَا يُسَمَّى الذِّئْبُ بالذُّؤالَةِ.
- الوَكَبانُ مِشْيَةٌ في دَرَجانٍ، وَمِنْهُ اشْتُقّ المَوْكِبُ.
- الاخْتِيالُ والتَّبَخْتُرُ والتَّبَيْهُسُ مِشْيَةُ الرَّجُلِ المُتَكَبِّرِ، والمَرْأَةِ المُعْجَبَةِ بِجَمالِهَا وَكَمالِهَا.
- الخَيْزَلى والخَيْزَرى مِشْيَةٌ فِيهَا تَبَخْتُرٌ.

---

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 122-124.

(2) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 198-199.

- الخَزَلُ مِشيَةُ المُنْخَزِلِ في مَشْيِهِ كَأَنَّ الشَّوْكَ شَاكَ قَدَمَهُ.
- المُطَيْطاءُ مِشْيَةُ المُتَبَخْتِرِ وَمَدّ يَدِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ [1].
- الحَيَكانُ مِشْيَة يُحَرِّكُ فيها المَاشي أَلْيَتَيْهِ ومَنْكِبَيْهِ.
- القَهْقَرى مِشْيَةُ الرَّاجِعِ إلى خَلْفُ.
- العَشَزانُ مِشْيَةُ المَقْطُوعِ الرِّجْلِ.
- القَزَلُ مَشْيُ الأَعْرَجِ.
- التَّخَلُّج مِشْيَةُ المَجْنونِ في تَمايُلِهِ يَمْنَةً وَيسْرَةً.
- الإِهْطاعُ مِشْيَةُ المُسْرِعِ الخَائِفِ، وَمِنْهُ قَولُهُ –تَعالى–: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ [2].
- الهَرْوَلَةُ مِشْيَةٌ بَيْنَ المَشْيِ وَالعَدْوِ.
- النَّأَلانُ مِشْيَةُ الذي كَأَنَّهُ يَنْهَضُ بِرَأْسِهِ إِذا مَشى يُحَرِّكُهُ إلى فَوْقُ مِثْلَ الّذي يَعْدُو وَعَلَيهِ حِمْل يَنْهَضُ بِهِ.
- التَّهادي مِشْيَةُ الشَّيْخِ الضَّعيفِ والصَّبِيّ الصَّغيرِ، والمَريضِ، والمَرْأَةِ السَّمينَةِ.
- الرَّفْلُ مِشْيَةُ مَنْ يَجُرُّ ذُيولَهُ وَيَرْكُضُها بالرِّجلِ.
- الرَّمَلُ والرَّملانُ كالهَرْوَلَةِ.
- الهَيْدَبى مِشْيَةٌ بِسُرْعَةٍ.
- التَّذَعْلبُ مِشْيَةٌ في اسْتِخْفَاءٍ.
- الخَنْدَفَةُ والنَّعْثَلَةُ أَنْ يَمْشِي مُفَاجًّا يَقْلِبُ رِجْلَيْهِ كَأَنَّهُ يَغْرِفُ بِهِمَا، وَهِيَ مِنَ التَّبخْتُرِ.
- التَّرَهْوُكُ مِشْيَة الذي يَمْشي كَأَنَهُ يَمُوجُ في مَشْيِهِ.
- الأَتَلاَنُ أَن يُقَارِبَ خَطْوَه في غَضَبٍ[3].

ثُـمّ يَعقِدُ فَصلاً قائِمًا بِرأسِهِ فـي هَيْئَةٍ مِن المَشي خاصَّةٍ بِالنّساءِ، وَقَدْ عَرَضَ فيهِ أَلْفاظَ صُورٍ مِنْ مِشْياتِهنّ، وَمِنْ ذلكَ:

- تَهَالَكَتِ المَرْأَةُ إِذا تَفتَّلَتْ في مِشْيَتِها.

---

(1) الآية (القيامة، 33).

(2) الآية (إبراهيم، 43).

(3) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 198-199.

- تَأَوَّدَتْ إذا اخْتَالَتْ في تَثَنٍّ وَتَكَسُّرٍ.
- بَدَحَتْ وَتَبَدَّحَتْ إذا أَحْسَنَتْ مِشْيَتَها.
- كَتَفَتْ إذا حَرَّكَتْ كَتِفَيْها.
- تَهَزَّعَتْ إذا اضْطَرَبَتْ فى مِشْيَتِها.
- قَرْصَعَتْ قَرْصَعَةً وَهي مِشْيَةٌ قَبِيحَةٌ[1].

هَيْئَةُ الدَّفْعِ وَالقَوْدِ:

وَلِلدَّفعِ هَيئاتٌ مُتَباينةٌ اصْطَنَعتِ العَرَبيّةُ لِكلِّ هَيْئَةٍ لَفظَةً خاصَّةً تَصِفُها، وَتُعَبّرُ عَنْها، وَلَعلَّ المُحْتَكمَ الرَّئيسَ في وَصْفِ الهَيْئَةِ هُوَ أمْرانِ: أوّلُهُما تَعْيينُ مَكانِ المَدْفوعِ، وَثانيهِما الخِفّةُ أوِ الثّقلُ في هَيْئَةِ الدَّفعِ، وَبِتَسريحِ الخاطِرِ في هذا الوَصْفِ تَغْدو كُلُّ هَيْئَةٍ حَمّالةً لِدِلالةٍ، وَمُنْبِئةً عَنْ مَعنًى، وقَدِ التَفَتَ الثَّعالِبِيُّ إلى هذا المَلْمَحِ الدِّلاليّ، فَقالَ في عِباراتٍ دالَّةٍ واصِفةٍ لِهَيْئَةِ الدَّفعِ، وَلفْظِها، وَدِلالتِها:

- قادَهُ إذا جَرَّهُ إلى أمامِهِ.
- ساقَهُ إذا دَفَعَهُ من وَرائِهِ.
- جَذَبَهُ إذا جَرَّهُ إلى نَفْسِهِ.
- سَحَبَهُ إذا جَرَّهُ عَلى الأرْضِ.
- دَعَّهُ إذا دَفَعَهُ بِعُنْفٍ.
- بَهَزَهُ وَنَحَزَه وَزَبَنَهُ إذا دَفَعَهُ بِشِدَّةٍ وجَفَاءٍ.
- لَبَّبَهُ إذا جَمَعَ عَليهِ ثَوْبَهُ عِنْدَ صَدْرِه، وَقَبَضَ عَلَيْهِ بِحِدَّةٍ.
- عَتَلَه إذا أَلْقى في عُنقِهِ شَيْئًا وأخَذَ يَقودُه بِعُنْفٍ شَديدٍ.
- طَرَدَه إذا نَفاهُ بِسُخْطٍ.
- صَدّهُ إذا مَنَعَهُ بِرِفْقٍ[2].

هَيْئَةُ المَضروبِ المُلْقى:

وَمِنَ الهَيئاتِ التي ساقَها الثَّعالِبِيُّ -وَما كانَ أكْثَرَها في مُصنَّفِهِ- هَيْئَاتُ المَضْرُوبِ

---

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 199.

(2) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 207.

المُلْقَى[1]، فَهُناكَ البَطحُ، وَالنَّكْتُ، وَالكَبُّ، وَالتَّجْديلُ، وَكُلُّ لَفظةٍ مِمّا تَقَدَّمَ تَصِفُ حَرَكَةً جَسَدِيَّةً، وَهَيْئَةً مِنْ هَيئاتِ المَضْروبِ المُلْقى، وَمِنْ ذلكَ قَوْلُه:

- ضَرَبَهُ فَجَدَّلَهُ إذا أَلْقاهُ عَلى الأَرْضِ.
- قَطَّرَهُ إذا أَلْقاهُ عَلى أحَدِ قُطْرَيْهِ أيْ جانِبَيْهِ.
- أَتْكَأَهُ إذا أَلْقاهُ عَلى هَيْئَة المُتَّكِئِ.
- سَلَقَهُ إذا أَلْقاهُ عَلى ظَهْرِهِ.
- بَطَحَهُ إذا أَلْقاهُ عَلى صَدْرِهِ.
- نَكَتَهُ إذا نكَّسَهُ عَلى رَأْسِهِ.
- كَبَّهُ إذا أَلْقاهُ عَلى وَجهِهِ
- تَلَّهُ إذا أَلْقاهُ عَلى جَبينِهِ، وَمِنْهُ في التّنزيلِ العَزيزِ: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾"[2].
- كَوَّرَهُ إذا قَلَعَهُ مِنَ الأَرْضِ[3].

أَلْفاظُ الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ العامّةِ

وَمِمّا يُمثَّلُ بِهِ عَلى هذا العُنوانِ الفَصْلُ الذي أَتى عَلَيْهِ الثّعالبِيُّ، فَوَسَمه بِأنّه في "تَفْصيلِ تَحْريكاتٍ مُخْتَلِفَةٍ"[4]، وَالظّاهرُ أنّهُ عَمِلَ عَلى جَمعِ أَلْفاظِ حَرَكاتٍ جَسَدِيَّةٍ في حَقلٍ دِلاليٍّ واحِدٍ، وَالجامِعُ بَينَ تِلكَ الأَلْفاظِ هُوَ انتِسابُها إلى مَلْحَظِ "الحَركةِ"، وَلمّا ابتُدَعَتِ العَربيّةُ لَفظًا خاصًّا بِكُلِّ جارِحَةٍ يَصْدقُ عَلَيْها عُنوانُ هذا الفَصلِ وَهُوَ التَّحْريكُ، صارَ بِمُكنَةِ المُصنِّفِ أنْ يَجمَعَها مُلتَفِتًا إلى المَلمَحِ الدِّلاليِّ الجامِعِ بَينَ تلكَ الأَلفاظِ، وَهُوَ التَّحْريكُ، مُقَرِّرًا في أحيانٍ دِلالةَ كُلِّ حَرَكَةٍ جَسَديّةٍ، وَمِنْ ذلكَ أنَّ لِلرّأسِ لَفظةً تَصِفُ تَحْريكَه، وَلِلشَّفَتَيْنِ كَذلكَ، وَلِلّسانِ وَالشَّفَتَينِ مَعًا بَعدَ الأَكْلِ كَلِمَةً أخْرى، وَغَير ذلكَ مِمّا قَرّرهُ الثَّعالِبِيُّ في "فِقه اللّغةِ" مِمّا يَصدُقُ عَلى الإِنْسانِ، وَالحَيوانِ، وَالنَّباتِ، وَمِنْهُ قَولُه:

---

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 209.

(2) الآية (الصافات، 103).

(3) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 209.

(4) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 193.

- الإِنْغَاضُ تَحْرِيكُ الرَّأْسِ.
- الطَّرْفُ تَحْرِيكُ الجُفونِ في النَّظَرِ.
- التَّزَمْزُمُ تَحْرِيكُ الشَّفَّتَيْنِ لِلكَلامِ.
- المَضْمَضَةُ تَحْرِيكُ الماءِ في الفَمِ.
- التَّلَمُّظُ تَحْرِيكُ اللِّسانِ والشَّفَتَيْنِ بَعْدَ الأَكْلِ كأَنَّهُ يَتَتَبَّعُ بِلسانِهِ ما بَقِيَ بينَ أَسْنانِهِ.
- اللَّجْلَجَةُ والنَّجْنَجَةُ تَحْرِيكُ المُضْغَةِ واللُّقْمَةِ في الفَمِ قَبْلَ الابْتِلاعِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُم: لا حَجْحَجَةَ ولا لَجْلَجَةَ، أيْ: لا شَكَّ وَلا تَخْليطَ.
- الخَضْخَضَةُ تَحْرِيكُ الماءِ والشَّيْءِ المائِعِ في الإِناءِ وَغَيْرِهِ.
- الهَدْهَدَةُ تَحْرِيكُ الأُمِّ وَلَدَها لِيَنامَ.
- المَزْمَزَةُ والتَّزْتَزَةُ أنْ يَقبِضَ الرَّجُلُ عَلى يَدِ غَيْرِهِ فيُحرِّكها تَحْرِيكًا شَديدًا.
- الدَّعْدَعَةُ تَحْرِيكُ المِكْيالِ وَغَيرِهِ لِيَسَعَ مَا يُجْعَلُ فِيهِ.
- الشَّغْشَغَةُ تَحْرِيكُ السِّنانِ في المَطْعونِ[1].

وَمِمّا يَسيرُ بِرَكْبِ ما تَقَدَّمَ فَصلُ "تَقْسيمِ الإِشاراتِ" الذي عَقدَه الثَّعالِبِيُّ في كِتابِهِ[2]، فَالواحِدُ مِنّا قَدْ تَقعُ مِنْه إِشارةٌ، وَهذِهِ حَرَكَةٌ عامّةٌ، ولكِنّها تَتباينُ بِتَباينِ الأَداةِ التي استُعينَ بِها عَلى تِلكَ الفِعلةِ، فَقدِ ارْتَضتِ العَربيّةُ كَلِماتٍ مَخْصوصةً تَقترِنُ بِأُخْرى لِتدلَّ عَلى هذا التّواصلِ غَيرِ اللّفظِيِّ عامّةً، وَالجَسديِّ خاصّةً، وَمِنْ ذلكَ:

- أَشارَ بِيَدِهِ.
- أَوْمَأ بِرَأسِهِ.
- غَمَزَ بِحاجِبِهِ.
- رَمَزَ بِشَفَتِهِ.
- لَمَعَ بِثَوْبِهِ.
- أَلاحَ بِكُمِّهِ.
- صَبَعَ بِفُلانٍ وعَلى فُلانٍ إِذا أَشارَ نَحْوَهُ بِإِصْبَعِهِ مُعْتابًا[3].

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 199.

(2) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 194.

(3) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 194.

أَلْفاظُ الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ الخاصَّة

وَمِنْ نَماذِجِ "لُغَةِ الجَسَدِ" التي التَفَتَ إِليْها الثَّعالِبِيُّ في "فِقه اللّغةِ" تَعْريجاتُهُ عَلى حَرَكاتٍ جَسَدِيَّةٍ مَخْصوصةٍ، كَحَرَكَةِ اليَدِ أوِ الرِّجْلِ، أوْ أيّ جارِحَةٍ أُخْرى، فَقَدْ كانَ يُفرِدُ في فُصولِهِ أحْيانًا فَصْلاً خاصًّا يُعَرِّجُ فيهِ عَلى جارِحَةٍ ما مُشيرًا إلى هَيئاتِ حَرَكَتِها المُفْضِيةِ إلى مَعانٍ مَخْصوصَةٍ، مُوَلِّيًا وَجْهَه في المَقامِ الأوّلِ نَحْوَ لَفْظِ كُلِّ حَركةٍ، غَيْرَ ناسٍ أوْ مُتناسٍ دِلالةَ الحَرَكَةِ أوْ دِلالاتِها؛ ذلكَ أنَّ كِتابَه مِمّا يَسيرُ بِرَكْبِ مُعْجَماتِ المَعاني التي تُقَدّمُ اللَّفْظَ أوّلاً، وَيَغدو ذلكَ الفَصْلُ الذي حَشَد فيهِ أَلْفاظَ جارِحةٍ ما حَقْلاً دِلاليًّا مَقْصورًا عَلى ما عُقِدَ العُنوانُ لَهُ، وَمِنْ ذلِكَ الفَصْلُ المَعْقودُ لَهُ العُنوانُ: "في تَفْصيلِ حَرَكاتِ اليَدِ وأشْكالِ وَضْعِها وتَرْتيبِها"[1]، وَسَيظهرُ أنَّ ثَمّ يَدًا داعِيَةً طالِبَةً، ويَدًا مُنادِيَةً، ويَدًا آبِيَةً، ويَدًا حامِيَةً مُسانِدَةً، وَيَدًا مُصَفِّقةً، وَيَدًا سائِلَةً مُتَكَفِّفةً، وَيَدًا قابِضَةً، وَيَدًا حاسِبَةً، وَأَنَّ هُناكَ الكثيرَ مِنْ مَعينِ لُغَةٍ تُقيمُ فُروقًا دِلاليّةً، فَتَجعَلُ لِكُلّ هَيئَةٍ وَدِلالَةٍ دالاً لَفْظِيًّا يَكادُ يَكونُ كَالصّورَةِ الفوتوغْرافِيّةِ.

وَمِنَ الأَلْفاظِ وَالحَرَكاتِ وَالدِّلالاتِ التي وَرَدَ عَليْها في هذا الفَصْلِ قَوْلُهُ:

- إذا نَظَرَ إِنْسانٌ إلى قَوْمٍ في الشَّمْسِ فَألصَقَ حَرْفَ كَفِّهِ بِجَبْهَتِهِ فَهُوَ الاسْتكْفافُ.
- فَإِنْ زادَ فِي رَفْعِ كَفِّهِ عَنِ الْجَبْهَةِ فَهُوَ الاسْتِشْفافُ.
- فَإِنْ كَانَ أَرْفَعَ مِن ذَلِكَ قَليلاً فَهُوَ الاسْتِشْرَافُ.
- فَإِذا جَعَلَ كَفَّيْهِ عَلى المِعْصَمَيْنِ فَهُوَ الاعْتِصامُ.
- فَإِذا وَضَعَهُمَا عَلى العَضُدَيْنِ فَهُوَ الاعْتِضادُ.
- فَإِذا حَرَّكَ السَّبّابَةَ وَحْدَها فَهُوَ الإِلْواءُ.
- فَإِذا دَعا إِنْسانًا بَكَفِّهِ قَابِضًا أصابِعَها إِليْهِ، فَهُوَ الإيماءُ.
- فإِذا حَرّكَ يَدَهُ عَلى عاتِقِهِ وَأَشارَ بِها إِلى مَا خَلْفَهُ أنْ كُفَّ فهُوَ الإِباءُ.
- فَإِذا رَفَع يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلاً بِبُطونِهِما وَجهَهُ لِيَدْعُوَ فَهُوَ الإِقْناعُ.
- فَإِذا أقامَ أصابِعَهُ وضَمَّ بينَها في غَيْرِ الْتِزاقٍ فهُوَ العِقاصُ.
- فَإِذا جَعَلَ كَفَّهُ تُجاهَ عيْنِهِ اتّقاءً مِنَ الشَّمْسِ فَهُوَ النِّشارُ.

---

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 194-196.

- فَإذا جَعَلَ أصَابعَه بَعْضهَا في بَعْضٍ فَهُوَ المُشاجَبَةُ.
- فَإذا ضَرَبَ إحْدى راحَتَيْهِ عَلى الأُخْرى فَهُوَ التَّبَلُّدُ، والتّصْفيقُ.
- فَإذا ضَـمَّ أَصابِعَهُ، وَجَعَلَ إبْهامَه عَلى السَّبّابَةِ، وأَدْخَلَ رُؤوسَ الأصابعِ في جَوْفِ الكَفِّ كَمَا يَعقِدُ حِسَابَهُ عَلى ثَلاثَةٍ وَأرْبَعينَ فَهِيَ القَبْضَةُ.
- فَإذا ضَمَّ أطْرَافَ الأصابعِ فَهِيَ القَبْصَةُ.
- فَإذا بَسَطَ كَفَّه لِلسُّؤَالِ فَهُوَ التَّكَفُّفُ.
- فَإذا أَخَذَ ثَلاثِينَ فَهِي البَزْمَةُ.
- فَإذا أخذ أرْبَعِينَ وَضَمَّ كَفَّهُ عَلى الشّيْءِ فَهُوَ الحَفْنَة.
- فَإذا جَعَلَ إبْهامَهُ في أصولِ أصابِعِهِ مِنْ باطِنٍ فَهُوَ السّفْنَةُ.
- فَإذا حَثا بِيَدٍ واحِدَةٍ فَهِيَ الحَثْيَةُ.
- فَإذا حَثا بِهِمَا جَمِيعاً فَهِيَ الكَثْحَةُ.
- فَإذا جَعَلَ إبْهامَهُ عَلى ظَهرِ السَّبّابَةِ وأَصابِعَهِ في الرَّاحَةِ فَهُوَ الجُمحُ.
- فَإذا أَدارَ كَفَّيْهِ مَعًا وَرَفَعَ ثَوْبَه فألْوى بِهِ فَهُوَ اللَّمْعُ.
- فَإذا قَبَضَ الخِنْصَرَ وَالبِنْصرَ وأقَامَ سَائِرَ الأصابعِ كَأنَه يأكُلُ فَهُوَ القَبْعُ.
- فَإذا نَكَّسَ أَصابِعَهُ وَأقامَ أصولَها فَهُوَ القَفْعُ.
- فَإذا أَدَارَ سَبّابَتهُ وَحْدَها وَقَدْ قَبَضَ أصَابِعَهُ فَهُوَ الفَقْعُ.
- فَإذا جَعَلَ أَصابِعَهُ كُلَّها فَوْقَ الإبْهَام فَهُوَ العَجْسُ.
- فَإذا قَبَضَ أصَابِعَهُ وَرَفَعَ الإبْهَامَ خاصَّة فَهُوَ الضُّوَيْطُ[1].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقدّمَ مِنْ أَلْفاظِ حَرَكاتٍ جَسَدِيّةٍ مَخصوصةٍ ما ساقَهُ الثَّعالِبِيُّ في الفَصْلِ المَوْسومِ بـ"ضُرُوبِ ضَربِ الأعْضَاءِ"[2]، فقَدْ قدّمَ فيهِ دَرسًا دِلاليًّا مُعْجِبًا، وَأنْظارًا مُتبصِّرةً في دِلالةِ الهَيئاتِ وَالحَرَكاتِ الجَسديّةِ، جامِعًا بَينَ الدّالِّ الذي هُوَ اللَّفظَةُ المُعبّرةُ عَنِ الحَرَكَةِ الجَسديّةِ، وَالمَدلولِ الذي هُوَ الصّورةُ المَعنويّةُ التي كانَ يَرسُمُها لَنا الثَّعالِبِيُّ مُحاوِلاً تَجلِيتَها بِالكَلماتِ، فَثمَّ الصَّفْعُ، وَلَه هَيْئَةٌ وَدِلالةٌ، وَاللَّطمُ،

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 194-196.

(2) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 208.

وَاللَّدْمُ، وَالوَكْزُ، وَالوَخْزُ، وَالمُحتَكَمُ في تَعْيينِ دِلالةِ الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ عَلى وَجهٍ مِنَ الإِحْكامِ دونَ الإِبْهامِ أمْرانِ:

- أوّلُهُما أداةُ الضَّربِ، كَاليَدِ أوِ الرِّجْلِ.
- وَثانيهِما مَوقِعُ الضَّربِ، كَالرَّأسِ، أوِ الصَّدْرِ، أوِ القَفا.

وَعِندَ تَلمّسِ هذِهِ المَلامحِ التّمييزِيّةِ وَتَدبّرِها يَغْدو لِكُلِّ حَرَكَةٍ لَفظةٌ خاصَّةٌ وَدِلالةٌ، وَالحَقُّ أنّني لَستُ أريدُ أنْ أُصادِرَ شَيئًا مِمّا أَتى عَليْهِ الثَّعالِبِيُّ في فَصلِهِ ذاكَ، فَفيهِ يَقولُ مُعرِّجًا عَلى حَركاتٍ جَسَدِيَّةٍ مَخْصوصةٍ حَمّالةٍ لِدِلالاتٍ:

- الضَّرْبُ بِالرّاحَةِ عَلى مُقَدَّمِ الرّأْسِ صَقْعٌ.
- وَعَلى القَفا صَفْعٌ.
- وَعَلى الوَجْهِ صَكٌّ.
- وَعَلى الخَدِّ بِبَسْطِ الكَفِّ لَطْمٌ.
- وَبِقَبْضِ الكَفِّ لَكْمٌ.
- وَبِكِلْتا اليَدَيْنِ لَدْمٌ.
- وَعَلى الذَّقَنِ وَالحَنَكِ وَهْزٌ ولَهْزٌ.
- وَعَلى الصّدْرِ والجَنْبِ بِالكَفِّ وَكْزٌ وَلَكْزٌ.
- وَعَلى الجَنْبِ بِالإِصْبَعِ وَخْزٌ.
- وَعَلى الصَّدْرِ والبَطْنِ بالرُّكْبَةِ زَبْنٌ.
- وبالرِّجْلِ رَكْلٌ ورَفْسٌ.
- وَعَلى العَجُزِ بالكَفِّ نَخْسٌ.
- وَعَلى الاسْتِ بِظَهْرِ القَدَمِ ضَفْنٌ[1].

أَلْفاظُ الدَّرَجاتِ الجَسَدِيَّةِ وَالمَراتبِ

وقَدْ يَعمِدُ الثَّعالِبِيُّ إِلى تَناولِ الأَوصافِ الجَسَدِيَّةِ وَالحَرَكاتِ الحَمّالةِ لِمَعانٍ مُعتمِدًا عَلى مَلْحَظِ المَراتِبِ وَالتّدرّجِ، وَهذا التَّقْسيمُ يَنتسِبُ في عِلمِ اللّغةِ الحَديثِ إِلى مَلْحَظِ الحُقولِ الدّلاليّةِ، وَهُوَ مَلْحَظٌ قائِمٌ عَلى افتِراضٍ مُؤدّاهُ أنّ بِمُكْنةِ اللّغَويّ أنْ يُنْزِلَ

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 208.

جُلَّ كَلِماتِ اللّغةِ –إنْ لَمْ يُنْزلْها كلَّها– في مَجالاتٍ دِلاليّةٍ تُستودَعُ فيها، بَعدَ تَصْنيفِها في مَعانٍ عَريضةٍ عامّةٍ[1]، وَهذِهِ المَعاني العامَّةُ تَتمثّلُ في عُنواناتِ الحُقولِ الدِّلاليّةِ، وَيَبقى ثَمَّ امتِيازٌ في كُلّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِماتِ الحَقلِ الواحِدِ، وَبِهذا يَستَقيمُ أنْ يوصَفَ مَعْنى الكَلِمَةِ بِأنّه المُنْتَجُ المُتعيّنُ مِنَ المَوقِعيّةِ المَخْصوصةِ التي تَحتلُّها الكَلِمَةُ بَينَ مَواقِعِ أخَواتِها في الحَقلِ الدّلاليّ الواحِدِ، وَمِنْ تِلكَ العَلاقاتِ الدّلاليّةِ القائِمَةِ بَيْنَ كَلِماتِ الحَقْلِ نَفْسِهِ[2].

وَمِمّا يُجلّي هذا الذي تَقدّمَ الحَقلُ الدِّلاليُّ المَوْسومُ بِالرُّتَب، وَالرُّتبُ في العالَمِ الخارِجيّ كَثيرةٌ كَالألقابِ العِلميّةِ الجامِعيّةِ: أسْتاذ، أسْتاذ مشارِك، أستاذ مُساعِد، مُحاضِر، مُعيد، مُساعِد بَحثٍ وَتَدريسٍ، وَلِذا يكونُ بِمُكْنةِ المَرءِ أنْ يُعيّنَ مَعْنى "مُحاضِر" مُعتمِدًا عَلى المَوقعِ الذي تَسكنُهُ الكَلِمَةُ المُمثِّلةُ لِهذا المَعْنى في الحَقلِ الدِّلاليّ، مُستَشْرِفًا العَلائِقَ المُتَحصِّلةَ بَيْنَها وَبَينَ أخَواتِها، وَهكَذا يَقَعُ التّنافُرُ الذي هُوَ أساسٌ لِفَهمِ المَعاني[3].

وَمِنْ أمْثِلَةِ ما يَخُصُّ هذِهِ المُباحَثةَ في "فِقْه اللّغَةِ" تَعْريجَةُ الثَّعالِبيّ عَلى العُبوسِ، وَمَراتِبِهِ، وَأَلْفاظِ كُلّ مَرْتَبَةٍ[4]، وَالعُبوسُ، كَما هُو مُقَرَّرٌ ذائِعٌ، مَلْمَحٌ جَسَدِيٌّ مَرْكَزُهُ الوَجْهُ، وَلَهُ دَرَجاتٌ أَلْمَحَ إِلَيْها الثّعالِبِيُّ، وَلِكُلّ دَرَجَةٍ لَفْظَةٌ تَخْتَصُّ بِها، فَتَصِفُها، وَالمُحْتَكَمُ في ذلِكَ كُلِّهِ العَلاماتُ الجَسَدِيَّةُ التي تَظْهَرُ في الوَجْهِ، وَمِنْ ذلِكَ قَولُهُ:

- إذا زَوى ما بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَهُوَ قاطِبٌ وَعابِسٌ.
- فَإِذا كَشرَ عَنْ أنْيابِهِ مَعَ العُبوسِ فَهُوَ كالِحٌ.
- فَإِذا زادَ عُبوسُهُ، فَهُوَ باسِرٌ ومُكْفَهِرٌّ.
- فَإِذا كَانَ عُبوسُهُ مِنَ الهَمِّ فَهُوَ ساهِمٌ.

---

(1) انظر: Jackson, Words and their Meaning, P.210.

(2) انظر: Robins, General Linguistics, P.69.

(3) عرج Robins على بعض الرتب العسكرية مبينا فضل الحقل الدلالي على تجلية معنى كلماته، انظر: Robins, General Linguistics, P.69.

(4) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 159.

- فَإذا كان عُبوسُهُ مِنَ الغَيْظِ وَكانَ مَعَ ذَلِكَ مُنْتَفِخًا، فَهُوَ مُبَرْطِمٌ[1].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقدّمَ دَرجاتُ المَشي وَمَراتبُهُ، وَقَدْ وَسَمَ الثَّعالِبِيّ هذا البابَ مِنَ القَولِ بِأنّه فَصلٌ في تَرْتِيبِ مَشْيِ الإنْسَانِ وَتَدْرِيجِهِ إِلى العَدْوِ[2]، وَما مِنْ رَيبٍ أنَّ المِشيةَ في العالَمِ الخارِجيّ لَها أشْكالٌ وَأوْضاعٌ مُنبِئةٌ عَنْ مَعانٍ مَخْصوصةٍ، فَثَمَّ مِشيةٌ بَطيئةٌ، وَأخْرى سَريعَةٌ، وَثالِثةٌ بَينَ بَينَ، وَهذا يَعْني أنَّ لِلمِشيةِ دَرَجاتٍ، وَأَنَّ لكُلِّ دَرجةٍ لَفظةً، وَأَنَّ كُلّ لَفظةٍ تَصِفُ حَرَكَةً جَسديّةً، وَأَنَّ مَجْموعَ هذِهِ الأَلْفاظِ يَقعُ تَحتَ عُنوانٍ جامِعٍ يَلفُّها، وَيُسمّى الحَقلَ الدِّلاليَّ، وَمِمّا عَرَضَ لَه الثَّعالِبِيُّ أنَّ أوّلَ المَشي:

- الدَّبيبُ.
- ثُمَّ المَشْيُ.
- ثُمَّ السَّعْيُ.
- ثُمَّ الإيفاضُ.
- ثُمَّ الهَرْوَلَةُ.
- ثُمَّ العَدْوُ.
- ثُمَّ الشَّدُّ[3].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدّمَ بابُ القَوْلِ عَلى تَرْتيبِ أَحْوَالِ الغَضَبِ وَتَفْصيلِها[4]، وَقَدْ أَتى عَلَيْها الثّعالِبِيُّ، فَأبانَ عَنْ دَرَجاتِها، وَعَنْ بَعْضِ هَيئاتِها الجَسَدِيَّةِ المُتَمَثّلَةِ في رُسومِ أَلْفاظٍ مَخْصوصَةٍ، مِنْها البَرْطَمَةُ، وَالاخْرِنْطامُ، وَالحَنَقُ، وَالغَيْظُ، وَكُلُّ لَفْظَةٍ مِنْها تَصدُقُ عَلى صورَةٍ جَسَدِيَّةٍ مَخْصوصَةٍ، وَمِنْ ذلِكَ قَولُهُ:

- أَوَّلُ مَراتِبِها السُّخْطُ، وهُوَ خِلافُ الرِّضى.
- ثُمَّ الاخْرِنْطامُ وهُوَ الغَضَبُ مع تَكَبُّرٍ وَرَفْعِ رَأْسٍ.
- ثُمّ البَرْطَمَةُ، وهِيَ غَضَبٌ مَعَ عُبوسٍ وانْتِفاخٍ.

---

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 159.

(2) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 197.

(3) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 197.

(4) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 189.

ثُمَّ الغَيْظُ، وهُوَ غَضَبٌ كامِنٌ للعاجِزِ عَنِ التَّشَفّي، وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعالى–: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾[1].

- ثُمَّ الحَرَدُ بِفَتْحِ الرّاءِ وَتَسْكينِها، وهُوَ أنْ يَغْتاظَ الإنْسانُ، فَيَتَحَرَّشَ بالذي غاظَهُ، وَيهُمَّ بِهِ.
- ثُمَّ الحَنَقُ وَهُوَ شِدَّةُ الاغْتِياظِ مَعَ الحِقْدِ.
- ثُمَّ الاخْتِلاطُ وهُوَ أشَدُّ الغَضَبِ[2].

وَلَعلّه يَستَقيمُ القَولُ إنَّ مَعانِيَ هذِهِ الكَلِماتِ تَزْدادُ جلاءً وَوضوحًا بِالنّظَرِ إلى المَوقِعِ الذي تَتَبوّؤُهُ كُلّ كَلِمَةٍ بَينَ بَناتِ حَقلِها؛ إذْ إنَّ هذِهِ النّظريّةَ تَكشِفُ عَنِ التّعالُقِ العُضوِيّ بَينَها، فَضْلاً عَنِ التّمايُزِ الفَردِيّ، ثُمّ إنّ دِراسةَ مَعاني الكَلِماتِ عَلى هذا النّحْوِ؛ نَحوِ تَبويبِها في حُقولٍ دِلاليّةٍ مُتمايِزةٍ هِيَ دِراسةٌ لِنِظامِ التّصوّراتِ، وَالمَوْجوداتِ، وَالعاداتِ، وَالتّقاليدِ، وَهي سَبيلٌ تَنْفي عَن الكَلِمِ التّسيّبَ المَزْعومَ[3].

أَلْفاظُ المَحاسِنِ وَالمَعايِبِ الجَسَديّة

أمّا الأَبوابُ التي كانَ مِضمارُها المَحاسِنَ وَالمَعايبَ الجَسَدِيَّةَ فَكثيرةٌ كَثرةً ظاهِرةً في كِتابِهِ "فقه اللغة"، وَالحَقُّ أَنَّ كَثيرًا مِنْها مِضمارُهُ الجَسدُ، وَلكنَّ إِدْخالَها في مَبحثِ لُغَةِ الجَسَدِ وَالإبانةِ قَدْ يَكونُ فيهِ تَكلّفٌ وَشَططٌ ظاهِرانِ؛ ذلكَ أنَّ كَثيرًا مِنْها أوْصافٌ جَسَدِيَّةٌ لا تَحمِلُ دِلالاتٍ تَواصليّةً، وَمِنْ ذلكَ وُقوفُه عِندَ أَلْفاظٍ وُضِعَتْ بِإزاءِ تِلكَ المَعايبِ الجَسديّةِ، وَمِنْها:

- إذا كانَ صَغيرَ الرَّأْسِ، فَهُوَ أصْعَلُ.
- فإذا كانَ فيهِ عِوَجٌ، فَهُوَ أشْدَفُ.
- فإذا كانَ عَريضَهُ، فَهُوَ أفْطَحُ.
- فإذا كانَتْ بِهِ شَجَّةٌ فَهُوَ أشَجُّ.
- فإذا أدْبَرَتْ جَبْهَتُهُ وَأقْبَلَتْ هَامَتُهُ، فَهُوَ أكْبَسُ.

---

(1) الآية (آل عمران، 119).

(2) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 189.

(3) انظر: أحمد عمر، علم الدلالة، 112-113.

- فإذا كانَ مُعْوَجَّ القَدِّ فَهُوَ أَخْفَجُ.
- فإذا كانَ مائِلَ الشِّقِّ فَهُوَ أَحْدَلُ.
- فإذا كانَ طَويلاً مُنْحَنِيًا فَهُوَ أَسْقَفُ.
- فإذا كانَ مُنْحَنِيَ الظَّهْرِ فَهُوَ أَدَنُّ.
- فإذا خَرَجَ ظَهْرُهُ ودَخَلَ صَدْرُهُ فَهُوَ أَحْدَبُ.
- فإذا خَرَجَ صَدْرُه وَدَخَلَ ظَهْرُهُ، فَهُوَ أَقْعَسُ.
- فإذا كانَ يتكلَّمُ منِ قِبَلِ خَيْشومِهِ فَهُوَ أَغَنُّ.
- فإذا كانَ في صوْتِهِ بُحَّةٌ، فَهُوَ أَصْحَلُ.
- فإذا كانَ يَعْمَلُ بِشِمالِهِ فَهُوَ أَعْسَرُ.
- فإذا كانَ قَصيرَ الأَصابِعِ، فَهُوَ أَكْزَمُ.
- فإذا كانَ مُعْوَجَّ الكَفِّ من قِبَلِ الكوعِ فَهُوَ أَكْوَعُ.
- فإذا كان مُتَباعِدَ ما بَينَ الفَخِذَيْنِ والقَدَمَيْنِ، فَهُوَ أَفْحَجُ، والأَفَجُّ أَقْبَحُ مِنْهُ.
- فإذا كانَ قَبيحَ العَرَجِ فَهُوَ أَقْزَلُ[1].

أَلْفاظُ العَوارِضِ الجَسَدِيَّةِ

وَقَدْ يَحدُثُ أَحْيانًا أَنْ يَعْتَرِيَ المَرْءَ حالاتٌ مَخْصوصةٌ تُفْضي إِلى ظُهورِ عَوارِضَ جَسَدِيَّةٍ تَشي بِحالِهِ، وَتَحملُ دِلالاتٍ مَخصوصةً لا يُنبِئُ عَنْها بِمَقالِه، وَالحَقُّ أَنَّ هذا كَثيرٌ كَثرةً ظاهِرةً في حَياتِنا اليَومِيّةِ، فقَدْ يَرى أَحَدُنا صَديقَه، فَيبادِرُه قَبلَ التّحيّةِ وَالسَّلامِ بِالسّؤالِ عَنْ حالِهِ مُقرِّرًا أنّه قَرَأ في عَيْنَيْهِ أَوْ وَجهِه إِرْهاقًا، أَوْ ضَنَكًا، أَوْ سَهرًا، وَقَدْ تُلمحُ بَعْضُ العَوارِضِ بِأَنَّ مَنْ ظَهرتْ عَلَيْهِ مَريضٌ، بَلْ مَريضٌ بِعلّةٍ مَخْصوصةٍ تُقرّرُها العَوارِضُ الجَسَدِيَّةُ الظّاهِرةُ عَلى صاحِبِها، وَالمَرئيّةُ فيهِ وَعَلَيْهِ، فَيقولُ أَحَدُنا لِمَنْ يَقِفُ وُجاهَه: وَكأَنّكَ في دُوارٍ.

وَالطَّبيبُ في تَشْخيصِهِ لِعِلّةِ زائِرِه المَريضِ يَعتمِدُ كَثيرًا عَلى كَثيرٍ مِنْ تِلكَ العَوارِضِ الجَسَدِيّةِ، وَيَجعَلُها قَرائِنَ وَهَواديَ إِلى مَعانٍ، وَقدِ التَفتَ الثَّعالِبِيُّ التِفاتَةً مُعْجِبةً تُفْضي إِلى التَّقْريرِ بِتَبَصّرِ العَربِ في هذا المَلْحَظِ، واستِعانتِهِمْ بِالعَوارِضِ

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 156-157.

الجَسَدِيَّةِ لِتقريرِ مَعانٍ، وَعَدِّهم لَها سَبيلاً مِنْ سُبُلِ التّواصلِ غَيرِ اللَّفظِيّ عامّةً، ولُغَةِ الجَسَدِ الواشيةِ المُنبئَةِ عَمّا لا يَقولُه لَنا اللّفظُ خاصّةً.

وَمِنْ ذلكَ فَصلُهُ المَعقودُ لَه العُنوانُ: "في تَفْصيلِ أسْماءِ الأمْرَاضِ وَألْقَابِ العِلَلِ وَالأوْجاعِ"[1]، وَقَدْ جَمَعَ فيها بَينَ أقْوَالِ أئمّةِ اللُّغةِ وَاصْطِلاحَاتِ الأطِبَّاءِ مُسْتَفتِحًا فَصلَه ذاكَ بِالتَّقريرِ بِأنَّ المَرَضَ هُو العامُّ، وَأَنَّ العِدَادَ هو المَرَضُ الَّذي يَأْتي لِوَقْتٍ مَعْلومٍ، مِثْلُ حُمَّى الرِّبْعِ[2]، وَالغِبِّ[3]، وَعادِية السَّمِّ[4]، وَفي ذلكَ دِلالةٌ لا بُدَّ مِن اقتِناصها، وَأَنَّ العَينَ قَدْ تَكونُ مُبينَةً عَنْ أَعْراضٍ مَخْصوصةٍ؛ كَاليَرَقانِ، وَأَنَّ بَعْضَ أعْضاءِ الجَسَدِ، وَهَيئاتِه، وَما يَخْرُجُ مِنْه كَالبَوْلِ قَدْ تَكونُ مِنَ المُحتَكَماتِ في تَعْيينِ العِلّةِ، وَالإبانَةِ عَنْها. لِنَرجِعِ النَّظَرَ في عِبارَةِ الثَّعالِبِيّ:

- اليَرَقانُ والأرَقانُ هُوَ أَنْ تَصْفَرَّ عَيْنا الإنسانِ ولَوْنُهُ لامْتلاءِ مَرارَتِهِ، واختِلاطِ المِرَّةِ الصَّفْراءِ بِدَمِهِ.
- وَالجُذامُ عِلَّةٌ تُعَفِّنُ الأعْضاءَ، وتُشَنِّجُها وتُعوِّجُها، وتُبِحُّ الصَّوتَ، وتَمْرُطُ الشَّعرَ.
- وَالبَواسيرُ في المَقْعَدَةِ أَنْ يَخْرُجَ دَمٌ عَبيطٌ، وربَّما كانَ بها نُتوء أوْ غَوْر يسيلُ منهُ صَديدٌ.
- وَالسَّكْتَةُ أنْ يَكُونَ الإنْسانُ كأنَّهُ مُلقًى كَالنّائِمِ يَغِطُّ من غَيرِ نَوْمٍ ولا يُحِسُّ إذا جُسَّ.
- وَالشُّخوصُ أَنْ يَكُونَ مُلْقًى لا يَطْرِفُ وهُوَ شاخِصٌ.
- وَالدُّوارُ أنْ يكونَ الإنْسانُ كَأَنَّهُ يُدارُ بِهِ، وتُظْلِمُ عَيْنُه، وَيهُمُّ بالسُّقوط.
- وَالصَّرَعُ أنْ يَخِرَّ الإنْسَانُ ساقِطًا، وَيلتَوِيَ، وَيضْطَرِبَ، وَيفْقِدَ العَقْلَ.
- وَالسُّباتُ أَنْ يَكونَ مُلقًى كَالنّائِمِ ثُمَّ يحِسّ وَيَتَحَرَّك إلاّ أَنَّهُ مُغَمِّضُ العَيْنَيْنِ، وربَّما فَتَحَهُما ثُمَّ عَادَ.
- وَالفالِجُ ذَهابُ الحِسِّ والحَرَكَةِ عَنْ بَعْضِ أَعْضَائِهِ.

---

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 145-147.

(2) حمى الرّبع حمى تنوب يوما وتترك يومين.

(3) حمى الغِب التي تنوب يوما بعد يوم.

(4) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 145.

- وَاللَّقْوَةُ أَنْ يَتعَوَّجَ وَجْهُهُ ولا يَقْدِرَ عَلى تَغْميضِ إِحْدَى عَيْنَيْهِ.
- وَالتَّشَنُّجُ أَنْ يَتَقَلَّصَ عضْوٌ مِنْ أَعْضَائِهِ.
- وَسَلَسُ البَوْلِ أَنْ يكثِرَ الإِنْسانُ البَوْلَ بلا حُرْقةٍ.
- وَالسِّلُّ أَنْ يَنْتَقِصَ لَحْمُ الإِنسانِ بَعْدَ سُعال ومَرَضٍ.
- وَالدَّوالي عُرُوقٌ تَظْهَرُ في السّاقِ غِلاظٌ مُلْتَوِيَة شَدِيدة الخُضْرَةِ والغِلَظِ.
- وَالخَلَجُ أَنْ يَشْتَكيَ الرَّجُلُ عِظامَهُ مِنْ طُولِ تَعبٍ أَو مَشْي.
- وَالتَّوْصيمُ شِبْهُ فَتْرةٍ يَجِدُهَا الإِنْسَانُ في أَعْضَائِهِ.
- وَالاسْتِسْقاءُ أَنْ يَنْتَفِخَ البَطْنُ وَغَيْرُهُ مِنَ الأَعْضاءِ، وَيدومَ عَطَشُ صاحِبِهِ.
- وَذاتُ الرِّئةِ قَرْحَةٌ في الرِّئَةِ يَضيقُ مِنْها النَفَسُ.
- وَالفَتْقُ أَنْ يَكُونَ بِالرَّجُلِ نُتُوء في مَرَاقِّ البَطْنِ فإِذا هُوَ استَلْقَى وَغَمَزَهُ إِلى داخِل غابَ، وإِذا اسْتَوى عادَ.
- وَدَاءُ الفِيلِ أَنْ تَتَوَرَّمَ السّاقُ كلُّها وَتَغْلُظ[1].

وَمِنْ فُصولِ الثَّعالِبِيّ المُنْتَسِبَةِ إِلى هذا المَبْحثِ؛ مَبْحَثِ العَوارِضِ الجَسَدِيَّةِ إِلْماحاتُهُ إِلى أَحْوالِ العَيْنِ العارِضَةِ(2)، فَقَدْ تَكونُ دِلالَةُ ذلكَ العارِضِ الخَوْفَ، أَوِ السَّهَرَ، أَوِ الأَرَقَ، أَوِ التَّعَبَ، أَوِ المَرَضَ، أَوِ الدَّهْشَةَ وَالانْفِعالَ، وَالحَقُّ أَنَّ كَثيرًا مِنْها ذو دِلالاتٍ لا يَتّسِعُ المَقامُ لِشَرْحِها، وَالإِتْيانِ عَلَيْها، وَمِمّا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ أَلْفاظٍ دالَّةٍ عَلى تِلْكمُ العَوارِضِ:

- حَسَرَتْ عَيْنُهُ إِذا اعْتَراها كَلالٌ مِن طُولِ النَّظَرِ إِلى الشَّيْءِ.
- زَرَّتْ عَيْنُهُ إِذا تَوَقّدَتْ مِنْ خَوْفٍ أَوْ غَيْرِهِ.
- قَدِعَتْ عَيْنُهُ إِذا ضَعفَتْ مِنَ الإِكْبابِ عَلى النَّظَرِ.
- حَرِجَتْ عَيْنُهُ إِذا حَارَتْ، وقَدْ عَبّر ذو الرّمّةِ عَنْ هذا المَعْنى فَأَجادَ في بَيانِ دِلالَةِ العَيْنِ وَإِبانَتِها عَنْ مَكْنوناتِ النَّفْسِ وَحَواشيها:

تَزْدادُ لِلْعَيْنِ إِبْهَاجًا إِذا سَفَرَتْ وَتَحْرَجُ العَيْنُ فيها حينَ تَنْتَقِبُ[3]

---

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 145-147.

(2) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 122.

(3) انظر: ذو الرمة، ديوانه، 65.

- هَجَمتْ عيْنُهُ إذا غارَتْ.
- وَنَقْنَقَتْ إذا زادَ غُؤُورُها، وَكَذلِكَ حَجَّلَتْ وَهَجَّجَتْ.
- وذَهِبَتْ عَيْنُهُ إذا رأتْ ذَهَباً كَثيرًا فَحارَتْ فيهِ.
- وشَخَصَتْ عَيْنُهُ إذا لَمْ تَكَدْ تَطْرفُ مِنَ الحَيْرَةِ.

وَمِنْ أمْثلَةِ فُصولِ العَوارِضِ الجَسَدِيَّةِ التي عَرَضَ لها الثَّعالِبِيُّ حَديثُهُ عَنْ "تَفْصيلِ آثارٍ مُخْتَلِفَةٍ"[1]، وَاللاّفِتُ لِلخاطِرِ الأَوّلِ أنَّ بَعْضَ هذِهِ العَوارِضِ قَدْ تُلْمِحُ إلى دِلالاتٍ مَخْصوصَةٍ، وَمِنْ ذلِكَ أثَرُ السُّجودِ في الوَجْهِ، وَيَسْنُدُ ذلكَ قَوْلُ الحقِّ –تَعالى–: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[2]، أَوْ أثَرُ الكَيِّ، أوِ النَّدْبِ، فَكُلّ تِلْكَ العَوارِضِ الجَسَدِيَّةِ تَتّصِلُ بِنَسَبٍ حَميمٍ إلى مَلْحَظِ التّواصُلِ غَيْرِ اللَّفْظِيِّ المُنْبِئِ عَنْ مَعانٍ وَدِلالاتٍ، وَمِنَ الأَلْفاظِ الدّالَّةِ عَلى هذِهِ الظّاهِرَةِ التي عَرَضَ لَها الثّعالِبِيُّ:

- النَّدْبُ أَثَرُ الجُرْحِ أَوِ البَثْرِ.
- الخَدْشُ والخَمْشُ أَثَرُ الظُّفْرِ.
- الكَدْحُ والجَحْشُ أَثَرُ السَّقْطَةِ والانْسِحاجِ.
- الكَيُّ أَثَرُ النّارِ.
- الوَمْحَةُ أَثَرُ الشَّمْسِ عَلى الوَجْهِ.
- الوَعْكَةُ أَثَرُ الحُمّى.
- النَّهْكَةُ أَثَرُ المَرَضِ.
- السَّجّادَةُ أَثَرُ السُّجُودِ عَلى الجَبْهةِ.
- المَجْل أَثَرُ العَمَلِ في الكَفِّ يُعَالِجُ بِهَا الإِنْسَانُ الشَّيْءَ حَتَى تَغْلُظَ جِلْدتُها[3].

أَلْفاظُ المَقاييسِ الجَسَدِيّة

وَقَدْ يَلْجأُ المَرْءُ مِنّا إلى ابْتِداعِ حَرَكاتٍ جَسَدِيَّةٍ مُعَيّنَةٍ تَكونُ أداةً لِقِياسٍ ما، وَقَدْ تَشيعُ تِلْكَ الحَرَكاتُ فَتَغْدو مِمّا يَنْعقِدُ عَلَيْهِ الإِجْماعُ، وَتَغْدو لكُلِّ وَحْدَةٍ مَقيسَةٍ أَلْفاظٌ

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 107.

(2) الآية (الفتح، 29).

(3) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 107.

مَخْصوصَةٌ مُعَيّنَةٌ، وَمِنْ ذلِكَ اسْتِعانَتُنا بِأَصابِعِ اليَدِ وما بَيْنَها مِنْ تَفاوُتٍ وَتَباعُدٍ، فَغَدَوْنا نَقولُ: هذا شِبْرٌ، وَذاكَ فِتْرٌ، وَقَدْ وَقَفَ الثَّعالِبِيُّ عِنْدَ مَجموعَةٍ مِمّا يَصْدُقُ عَلَيْها هذا الشَّرْحُ، وَمِنْ ذلكَ حَديثُهُ عَنْ "تَفْصيلِ مَا بَيْنَ الأَصابِعِ"[1] عَلى النَّحْوِ الآتي:

- الشِّبْرُ مَا بَيْنَ طَرَفِ الخِنْصِرِ إلى طَرَفِ الإبْهام وَطَرَفِ السَّبّابَةِ.
- الرَّتَبُ ما بَيْنَ طَرَفِ السَّبّابَةِ والوُسْطى.
- العَتَبُ مَا بَيْنَ طَرَفِ الوُسْطى والبِنْصِرِ.
- البُصْمُ ما بَيْنَ البِنْصِرِ وَالخِنْصِرِ.
- الفَوْتُ ما بَيْنَ كُلِّ إِصْبَعَيْنِ طولاً.

أَلْفاظُ الضَّمائِمِ وَالاقْتِراناتِ اللَّفْظِيّةِ الجَسَدِيَّةِ

وَالاقْتِراناتُ اللّفْظِيّةُ مَلْحَظٌ جِدُّ فَعّالٍ في تَعْيينِ المَعْنى[2]، وقَدْ عُرِّفتْ بِأَنَّها ارْتِباطُ الكَلِمَةِ بِأُخْرى ارْتِباطًا يُقَرِّرُهُ العُرْفُ وَالعادَةُ اللّغَوِيّةُ[3]، وَلِذا لَيْسَ رَصْفُ الكَلامِ Collocation أمْرًا مُلقًى عَلى عَواهِنِهِ، فَلَنا أنْ نَقولَ، "ماتَ المَلِكُ"، و"ماتَتِ الشّجرةُ"، ولَيْسَ لَنا أنْ نَقولَ في اللّغَةِ الوَظيفِيّةِ العِلْمِيّةِ: "ماتَ الحَجَرُ، أوِ الخَشبُ، أوِ الجِدارُ"؛ إِذْ إِنَّ المَوْتَ الحَقيقِيَّ لا يَكونُ إِلاّ لِذي حَياةٍ، وَالضّرْبُ الأَخيرُ مِمّا لا يَسْتَقيمُ الاقْتِرانُ اللّفْظِيُّ فيهِ.

وَعَلى صَعيدٍ مُعْجَمِيٍّ آخَرَ، قَدْ يَحْدُثُ أنْ يَصْطَفِيَ النّظامُ اللّغَوِيُّ اقْتِراناتٍ لَفْظِيّةً لازِمَةً لا تَتَبَدَّلُ كَما تَبَدّلَتْ آنِفًا، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُنا: عَطْشانُ إِلى الماءِ، جائِعٌ إِلى الأَكْلِ وَالخُبْزِ، عَيْمانُ إِلى اللّبَنِ، قَرِمٌ إِلى اللّحْمِ[4]، وَنَقولُ أيْضًا: حُسافَةُ التّمْرِ، وقُلامَةُ الظُّفرِ، وَنُشارَةُ الخَشَبِ، وَمُشاطَةُ الشّعْرِ، وَفُتاتَةُ الخُبْزِ، وَبُرايَةُ العودِ، وَبُرادَةُ الحَديدِ[5]، ويُلْحَظُ

---

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 94.

(2) انظر:

Jackson, Words, P.97.

(3) انظر:

Robins, General Linguistics, P.64.

(4) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 182.

(5) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 79.

مِمّا تَقَدَّمَ أَنّها اقتِراناتٌ لَفْظِيّةٌ لازِمةٌ، وَهِي، مِنْ وُجْهةٍ أُخْرى، تَلْتَقي عَلى مَفْهومٍ واحِدٍ يَنْتَظِمُ سَيرورَتَها، وَهُوَ ما يَتَساقطُ مِنَ الشّيْءِ.

وَمِنَ الأَمثِلَةِ الدّالَّةِ عَلى الأَوْصافِ الجَسَدِيَّةِ أنَّ الإِنْسانَ قَدْ يَخْلعُ بَعْضَ ما يَلْبسُ مِمّا يُواري الرّأْسَ، أوِ الجَسَدَ، أَوِ القَدَمَيْنِ، وَلِكُلِّ حالٍ مِنْ تِلكمُ الحالاتِ اقْتِرانٌ لَفْظِيٌّ يَنْبَغي التِزامُهُ؛ ذلِكَ أنّنا نَقولُ:

- رَجُلٌ حافٍ مِنَ النَّعْلِ والخُفِّ – حافي القَدَمَيْنِ.
- عُرْيانُ مِنَ الثِّيابِ - عاري الجَسَدِ.
- حاسِرٌ مِنَ العِمامَةِ- حاسِرُ الرَّأسِ.
- أَعْزَلُ مِنَ السِّلاحِ- أعْزَلُ.
- أَكْشَفُ مِنَ التُّرْسِ.
- أَمْيَلُ مِنَ السَّيْفِ.
- أَجَمُّ مِنَ الرُّمْحِ.
- أَنْكَبُ مِنَ القَوْسِ[1].

وَلَعَلَّ الذي ظَهَرَ أنَّ لِبَعْضِ الحالاتِ أوِ الهَيئاتِ الجَسَدِيَّةِ كَلِماتٍ خاصَّةً تَقْتَرِنُ بِأُخْرى، فَتَكونُ دالَّةً مُبينَةً عَنْ وَصْفٍ جَسَدِيٍّ، وَيُسْتَشْرَفُ مِمّا تَقَدَّمَ مَلْحَظٌ لَطيفٌ مَضْمونُهُ أنَّ الحافِيَ، وَالعارِيَ، وَالحاسِرَ، وَالأعزلَ، كَلِماتٌ تَلْتَقي عَلى مَفْهومٍ واحِدٍ، وهُوَ الخَلْعُ، وَلكِنّ لِكُلِّ كَلِمَةٍ اقْتِرانًا تَمْتازُ بِهِ عَنِ الأُخْرى، فَلَيْسَ يَصِحّ أنْ نَقولَ: حافٍ مِنَ الثّيابِ، أوْ حاسِرٌ مِنَ النِّعْلِ، وَهذا ما وَصفَهُ الثَّعالِبِيُّ بِقَولِهِ: "في الخُلُوّ مِنَ اللِّبَاسِ وَالسِّلاحِ"[2].

وَمِمّا اشْتَملَ عَلَيْهِ كِتابُ "فِقْه اللّغةِ" نَماذِجُ مِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ مِنَ الاقْتِراناتِ اللَّفْظِيّةِ

---

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 91، وقد وقف بالمر عند هذا النظر البنيوي، فأشار إلى مثال قريب مما أنا خائض فيه، ومن ذلك:

Flock of sheep – School Of Whales
Herd of cows- Pride Of Lions.

انظر: بالمر، علم الدلالة، 147.

(2) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 91.

التي تُعَبِّرُ عَنْ حَرَكاتٍ، أوْ أوْصافٍ جَسَدِيّةٍ، أوْ مُتَمِّماتٍ مُسانِدَةٍ تَدُلُّ عَلى مَعانٍ مَخْصوصَةٍ، وَهِيَ اقْتِراناتُ بَعْضِ الأَلْبِسَةِ وَاختِصاصُها بِعُضْوٍ مِنْ أعْضاءِ الجَسَدِ، وَمِنْ ذلِكَ:

- أنَّ العِصابَةَ لِلرَّأْسِ.
- وَأَنَّ الوِشاح لِلصَّدْرِ.
- وَأَنَّ النِّطاقَ لِلخَصْرِ.
- وَأَنَّ الإزارَ لِما تَحْتَ السُّرَّةِ.
- وَأَنَّ الزُّنّار لِوَسَطِ الذِّمِّيّ[1].

وَمِنْ أمْثِلَةِ الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ المَخْصوصَةِ بِألْفاظٍ، وَالمُعبَّرِ عَنْها بِاقْتِراناتٍ لَفْظِيّةٍ تَصِفُ الحَرَكةَ، وَتَقْتَرِنُ بِها، فَلا تَتَنازَلُ هذِهِ الأَلْفاظُ إلاّ في القَليلِ النّادِرِ، وَلا تَحلُّ واحِدَةٌ مَحَلَّ الأُخْرى خَلْعُ الثِّيابِ، فَالخَلْعُ قَدْ يَكونُ عَنِ الرَّأْسِ، فَلِهذِهِ الحَرَكَةِ كَلِمَةٌ خاصَّةٌ تَقْتَرِنُ بِكَلِمَةِ الرَّأْسِ، وَالخَلْعُ قَدْ يَكونُ عَنِ الوَجْهِ، وَلِهذِهِ الحَرَكَةِ كَلِمَةٌ خاصَّةٌ تَدُلُّ عَلَيْها، وَتَصِفُها، وَتَقْتَرِنُ بِكَلِمَة "الوَجْه"، وَمِمّا يَلْحَقُ بِهِ لُحوقًا مَجازِيًّا إبْداءُ النّابِ، أوِ الأَسْنانِ، وَلِكُلِّ حالَةٍ جَسَدِيَّةٍ كَلِمَةٌ مُخْتَصّةٌ عَلى النَّحْوِ الآتي:

- حَسَرَ عَنْ رَأْسِهِ.
- سَفَرَ عَنْ وَجْهِهِ.
- افْتَرَّ عَنْ نابِهِ.
- كَشَرَ عَنْ أَسْنانِهِ.
- أبْدى عَنْ ذِراعِهِ.
- كَشَفَ عَنْ ساقِهِ
- هَتَكَ عَنْ عَوْرَتِهِ[2].

---

(1) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 244.

(2) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 91.

الفَصْلُ الثّالِثُ

لُغَةُ الجَسَدِ في التُّراثِ اللُّغَوِيِّ

ابنُ جِنّي نَموذَجًا

"أَفَلا تَرى إِلى اعْتِبارِهِ بِمُشاهَدَةِ الوُجوهِ، وَجَعْلِها دَليلاً عَلى ما في النُّفوسِ، وَعَلى ذلِكَ قالوا: رُبَّ إِشارَةٍ أَبْلَغُ مِنْ عِبارَةٍ، وَقالَ لي بَعْضُ مَشايِخِنا: أَنا لا أُحْسِنُ أَنْ أُكَلِّمَ إِنْسانًا في الظُّلْمَةِ".

ابن جني، الخصائص، 248/1

ابنُ جِنّي بَيْنَ جَسَدِ اللّغَةِ وَلُغَةِ الجَسَدِ

جُلُّ ما وَرَدَ في "خَصائِصِ" ابنِ جِنّي مِنْ مُدارَساتٍ يَدورُ حَوْلَ المَعْنى، وَقَدِ التَفَتَ في مَواضِعَ مُتَفرّقَةٍ إِلى أنّ لِلمَعْنى رَوافِدَ وَمُحَدِّداتٍ قَدْ تَكونُ لَفْظِيّةً خالِصَةً، وَقَدْ تَكونُ غَيْرَ لَفْظِيّةٍ، وَلَيْسَ يَخْفى عَلى ذي تَأمّلٍ أَنَّ الرّوافِدَ اللّفْظِيّةَ مِمّا يَنْتَسِبُ إِلى اللّغَةِ الصّائِتةِ، وَأنَّ التي هِيَ غَيْرُ لَفْظِيّةٍ مِمّا يَنتسِبُ إِلى الصّامِتةِ، وَمِنْ أَمْثلَةِ الأولى في خَصائِصِه – وَهِيَ كَثيرةٌ جِدًّا- بابُ القَوْلِ عَلى الإِعْرابِ، فَهُوَ "الإِبانَةُ عَنِ المَعاني بِالأَلفاظِ، ألا تَرى أنّكَ إِذا سَمِعْتَ "أَكْرَمَ سَعيدٌ أَباه"، وَ"شَكَرَ سَعيدًا أبوه"، عَلِمْتَ بِرَفْعِ أَحَدِهِما، وَنَصْبِ الآخَرِ، الفاعِلَ مِنَ المَفْعولِ، وَلَوْ كانَ الكَلامُ شَرْجًا واحِدًا لاسْتَبهمَ أَحَدُهُما مِنْ صاحِبِه"[1].

وَمِنْ أَمْثلَةِ الثّانِيَةِ –أَعْني المُحدِّداتِ غَيرَ اللّفْظِيّةِ- ما البَحْثُ مَعْقودٌ عَليْهِ، وَهُوَ لُغةُ الجَسَدِ وَسُهْمَتُها في الإبانَةِ، وَالمُعجِبُ حَقّاً أنّ ابْنَ جِنّي لَمْ يَكُنْ يَفزعُ إِلى جَسَدِ اللّغَةِ البِنْيَويّ المُؤتَلِفِ مِنَ المُسْتوى الصّوْتيّ، وَالصّرْفِيّ، وَالتّرْكيبيّ، وَالمُعجمِيّ، لِتَعْيينِ المَعاني وَالمَقاصِدِ، بَلِ اسْتَشرَفَ، في مَواضِعَ مُتفرّقَةٍ، استِشْرافَةَ المُدقّقِ المُتَبصّرِ، بُعْدًا آخَرَ يَفعَلُ في تَشْكيلِهِ وَتَعْيينِهِ، وَهُوَ لُغةُ الجَسَدِ.

لُغَةُ الجَسَدِ وَالاعْتِياضُ:

يُعَرّجُ ابنُ جِنّي عَلى ظاهِرَةِ الحَذْفِ مِنَ السّياقِ البِنْيَويّ قائِلاً بِصِحَتِها، مُقَرِّرًا أَنَّ الحَذْفَ قَدْ يَكونُ مِنْ نَصيبِ الجُمْلَةِ، وَالمُفْرَدِ، وَالحَرْفِ، وَالحَرَكَةِ، وَلكنّهُ لا يُلْقي حُكمَهُ هذا عَلى عَواهِنِهِ غَيرَ مُقيَّدٍ وَلا مُخَصَّصٍ؛ إِذْ لَيْسَ ثَمّ بُدٌّ مِنْ دَليلٍ يُعتاضُ بِهِ عَنِ المَحْذوفِ، وَإِلاّ تَخلّقَ التّفاصُلُ، وَامّحى التّواصُلُ، "وَكانَ فيهِ ضَرْبٌ مِنْ تَكليفِ عِلمِ الغَيبِ في مَعرفَتِهِ"[2]. وَلِمَعرِفةِ المَحْذوفِ قَرائِنُ وَدَلائِلُ هادِيَةٌ يُلْمِحُ إِلَيْها في بابِهِ ذاكَ، وَمِنْها سياقُ الحالِ وَما يَكتَنِفُ الحَدَثَ الكَلامِيَّ مِنْ أَنْظارٍ خارِجِيّةٍ وَأَحْوالٍ.

وَمِنْها كَذلِكَ لُغةُ الجَسَدِ، وَمِثالُهُ الذّائِعُ المَشْهورُ في ذلكَ حَذْفُ الصّفَةِ، وَقِيامُ قَرائِنَ مُتَضافِرةٍ مَقامَها لِلاعْتِياضِ وَالإِبانَةِ، كَالتّنْغيمِ وَالحَرَكَةِ الجَسَديّةِ التي لَها دِلالَةٌ

(1) انظر: ابن جني، الخصائص، 36/1.

(2) انظر: ابن جني، الخصائص، 362/2.

تُوافقُ دِلالةَ الصّفَةِ المَحْذوفَةِ.

وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ: "سَألْناه فَوَجَدْناه إِنْسانًا"! فهذِهِ العِبارَةُ، وَهِيَ مُنْسَلِخةٌ مِنْ سِياقِها، قَدْ تَغْدو مِنَ المُشْكِلِ المُتَأبّي عَنِ الدّلالَةِ، وَلكِنّها، عِنْدَ اسْتِشْرافِ سِياقِها الحَيّ بِما يَشْتَملُ عَلَيْهِ مِنْ حَرَكاتِ الجَوارِحِ، وَهَيئةِ التّنْغيمِ، وَدَرَجَةِ الصّوْتِ، تَغْدو جَلِيّةً مُحْكَمَةَ الدّلالَةِ، فَكلُّ ما تَقَدَّمَ يَفعَلُ في تَعْيينِ مَعْنى الصّفَةِ المَحْذوفةِ، وَلِذا قَدْ يَكونُ المَحْذوفُ: إِنْسانًا كَريمًا مِفْضالاً، فَالحَرَكَةُ الجَسَديّةُ، وَلْتَكنْ حَرَكَةَ الكَفِّ مَعَ الذِّراعِ، أَوْ تَعابيرَ الوَجْهِ وَالجَبينِ، سَتَشي بِالمَعْنى المُتَعيّنِ، وَسَتَقومُ مَقامَ الصّفَةِ المَحْذوفَةِ.

وَقَدْ يَكونُ المَحْذوفُ بِالضّدِّ، فَتَغْدو الحَرَكاتُ الجَسَديّةُ دالّةً عَلى صِفةٍ أُخْرى غَيْرِ المُتقَدّمةِ، كَتَقْطيبِ الوَجْهِ، وَالامْتِعاضِ، وَإِنْغاضِ الرّأسِ، "وَكَذلِكَ إِذا ذَمَمْتَه وَوَصَفتَه بِالضّيقِ، قُلتَ: سَأَلْناهُ وَكانَ إِنْسانًا! وَتُزوّي وَجْهَكَ، وَتُقطّبُهُ، فَيُغْني ذلِكَ عَن قَولِكَ: إِنْسانًا لَئيمًا، أَوْ لَحِزًا، أَوْ مُبَخّلاً، أَوْ نَحوَ ذلكَ"[1].

وَمِنَ الأَمثِلةِ التي تَسيرُ بِرَكْبِ ما تَقدّمَ قَولُهُ: "سيرَ عَلَيْهِ لَيلٌ"، وَأيُّ لَيْلٍ هو؟ كَلامٌ مُجْتزَأٌ لا نَنْدى مِنْه بِطائِلٍ وَهُوَ عَلى هذِهِ الهَيئةِ، فَقَدْ حُذِفَ رُكنٌ رَئيسٌ مِنْ أَرْكانِهِ، وَلِذلِكَ كانَ لا بُدَّ مِنْ اعتِياضٍ يَسُدّ هذا الفَراغَ الوَظيفِيَّ البِنْيَويَّ، فَتَتضافرُ اللّغَةُ الصّامِتَةُ مَعَ الصّائِتَةِ لِلإبانَةِ وَالدّلالةِ عَلى المَحْذوفِ، وَالحَقّ أَنَّ التّنْغيمَ وَحْدَه في مِثلِ هذا لا يُغْني عَنْ أداءِ المَعْنى، وَلكنّهُ يَتَضافرُ مَعَ حَرَكاتٍ جَسَديّةٍ مُتَعدّدةٍ قَدْ تَقومُ مَقامَ الصّفَةِ المَحْذوفةِ، فَقَدْ يَكونُ اللّيلُ قَصيرًا يَسيرًا فَيأتي بِحَرَكاتٍ لَها دِلالةٌ كَدِلالةِ هذِهِ الصّفَةِ المَحْذوفَةِ، وَقَدْ يكونُ طَويلاً كَلَيْلِ امْرِئِ القَيْسِ، فَيَأتي بِأُخْرى حَمّالاتٍ لِدِلالةٍ مُطابِقةٍ لِدِلالةِ المَحْذوفِ الكَلامِيّ؛ "وَذلكَ أَنّكَ تُحِسُّ في كَلامِ القائِلِ لِذلِكَ، مِنَ التّطْويحِ، وَالتّطْريحِ، وَالتّفْخيمِ، ما يَقومُ مَقامَ قَوْلِهِ: طَويلٌ أَوْ نَحو ذلكَ"[2].

لُغَةُ الجَسَدِ وَإيماءَةُ العَيْنِ:

وَقَفَ ابنُ جِنّي عِنْدَ بابِ القَوْلِ عَلى الفَصْلِ بَيْنَ "القَوْلِ وَالكَلامِ" مُعرّجًا عَلى تَقاليبِ كُلِّ واحِدٍ، جانِحًا إِلى أَنّهُما يَتَعاوَرانِ، فَيوقَعُ كُلّ واحِدٍ مِنَ الكَلامِ وَالقَوْلِ مَوقعَ

(1) انظر: ابن جني، الخصائص، 373/2.

(2) انظر: ابن جني، الخصائص، 372/2.

صاحِبِه[1]، وَفي ثِنْيِ عَرْضِهِ لِهذا المَلْحَظِ التَفَتَ إِلى أنّ اللّغَةَ الصّامِتةَ قَدْ تُؤدّي مَعانِيَ كَما اللّغَةِ الصّائِتةِ مُسْتَشْهِدًا بقَوْلِ الشّاعِرِ:

وَقالَتْ لَهُ العَيْنانِ: سَمْعًا وَطاعَةً وَأَبْدَتْ كَمِثْلِ الدُّرِّ لَمّا يُثَقَّبِ

وَقَدْ تَلمّسَ ابْنُ جِنّي دِلالةَ "قَوْلِ العَينَيْن" مُشيرًا إِلى التّجَوّزِ الذي يَكْتَنفُ هذا التّرْكيبَ؛ إِذْ لا قَوْلَ لَهُما عَلى الحَقيقَةِ، وَلكِنَّ لُغَةَ الجَسَدِ عامّةً، وَهَيْئَةَ العَيْنَينِ في هذا السِّياقِ خاصّةً، قَدْ أَذِنَتا بِتَحقّقِ مَعْنى الطّاعَةِ وَالوَلاءِ؛ إِذْ كانَ مِنْهُما قَوْلٌ يُسْتَقى لا بِالصَّوتِ، وَإِنّما بِالصّمْتِ، فَقَدْ قالَتْ لَهُ العَيْنانِ سَمْعًا وطاعَةً.

وَيشْرحُ ابنُ جِنّي ما أَلْفاه مِنْ مَعْنًى مُتَخلّقٍ مِنْ لُغةِ الجَسَدِ في هذا السّياقِ بِعِبارَةٍ دالّةٍ مُعْجِبَةٍ قائِلاً: "فَإِنّهُ، وَإِنْ لَمْ يَكنْ مِنْهما صَوتٌ، فَإِنّ الحالَ آذَنَتْ بِأَنْ لَوْ كانَ لَهُما جارِحَةُ نُطْقٍ لَقالَتا: سَمْعًا وَطاعَةً، وَقَدْ حَرّرَ هذا المَوْضِعَ، وَأَوْضَحهُ عَنْتَرَةُ بِقَولِهِ:

لَوْ كانَ يَدْري ما المُحاوَرَةُ اشْتَكى وَلَكانَ، لَوْ عَلِمَ الكَلامَ، مُكَلّمي"[2]

الإِشْمامُ قِراءَةُ الشَّفَتَيْنِ:

وَفي حَديثِ ابْنِ جِنّي عَنِ اخْتِلاسِ الحَرَكَةِ يَقفُ عِنْدَ الإِشْمامِ الذي هُوَ أَنْ "تَضمَّ شَفَتَيْكَ مِنْ غَيْرِ صَوْتٍ، وَهذا يُدْرِكُهُ البَصيرُ دونَ الضّريرِ"[3]، وَالذي يَظهَرُ مِنْ هذا التّعْريفِ أنّ الإِشْمامَ ضَرْبٌ مِنَ الحَرَكاتِ الجَسَديّةِ عامّةً، وَحَرَكةِ الشّفاهِ خاصّةً، وَأنّ لَهُ دِلالةً نَحْويّةً، وَقَدْ جلّى هذِهِ الظّاهِرةَ مُسْتَنِدًا إِلى قَوْلِ الرّاجزِ:

مَتى أَنامُ لا يُؤرّقُني الكَرِي لَيْلاً وَلا أَسمعُ أَجْراسَ المَطِي

مُلْمِحًا إِلى أنَّ القائِلَ أرادَ إِشْمامَ القافِ في "يُؤرّقُني"، "وَمَعلومٌ أنّ هذا الإِشْمامَ إِنّما هُوَ لِلعَيْنِ لا لِلأذُنِ"[4]، وَلَوْ كانَ فيهِ حَرَكةٌ إِعْرابيّةٌ لاخْتلّ الوَزنُ، وَلَصارَ مِنَ الكامِلِ، وَالأَبْياتُ كُلُّها مِنَ الرَّجَزِ، وحَذْفُ الحَرَكةِ، أوِ اخْتِلاسُها، قَدْ لا يَسْتقيمُ إِلاّ بِدَليلٍ، وَلِذا وَقَعَ التّضافُرُ بَيْنَ رافِدَي المَعْنى: الرّافِدِ الصّامِتِ، وَالرّافِدِ الصّائِتِ،

(1) انظر: ابن جني، الخصائص، 1/5-34.

(2) انظر: ابن جني، الخصائص، 1/25.

(3) انظر: الأنباري، أسرار العربية، 353.

(4) انظر: ابن جني، الخصائص، 1/74.

فَاطُّرِحَتِ الحَرَكَةُ الإعرابيّةُ، وَقامتِ الشّفاهُ مَقامَها لِتَقولَ إنَّ القافَ مَرْفوعةٌ، "فَإذا قَنعوا مِنَ الحَرَكَة بِأنْ يومِئوا إلَيْها بِالآلَةِ التي مِنْ عادَتِها أنْ تُستَعْمَلَ في النّطْقِ بِها مِنْ غَيْرِ أنْ يُخْرِجوا إلى حِسّ السّمْعِ شَيئًا مِنَ الحَرَكةِ، مُشبَعةً وَلا مُخْتلَسَةً، أَعْني إعْمالَهُم الشّفتَيْنِ لِلإشْمامِ في المَرْفوعِ بِغَيْرِ صَوْتٍ يُسمَعُ هُناكَ، وَلَمْ يَبقَ وَراءَ ذلكَ شَيءٌ يُسْتدَلُّ بِهِ عَلى عِنايَتِهمْ بِهذا الأمْرِ"[1].

مَقولاتٌ كُلّيّةٌ

الوُجوهُ المُشاهَدَةُ:

يُلِحُّ ابنُ جِنّي إلْحاحًا بَيّنًا أمْرُهُ عَلى سُهْمةِ الوُجوهِ المُشاهَدةِ في التّواصُلِ وَالإبانَةِ؛ إذْ إنّها دَليلٌ عَلى ما في النّفوسِ، وَالظّاهِرُ أنّ كَلِمةَ "الوُجوه" فَضْفاضَةٌ تَسْتَغرِقُ حَرَكاتٍ جَسَديّةً، وَجَوارحَ مُتَعدّدةً، فَفي الوَجْهِ العَيْنُ، وَالعَيْنُ في دِلالاتِها الحَرَكيّةِ وَإيماءاتِها عُيونٌ، وَهُناكَ الخَدُّ، وَالفَمُ، وَاللّسانُ، وَالحاجِبُ، وَالشّفاهُ، وَكُلّ هذِهِ الجَوارحِ مِمّا يُمْكنُ أنْ يُقدِّمَ مَعْنًى بَلْ مَعانِيَ.

وَأوّلُ مَقولاتِ ابنِ جِنّي رِوايَةٌ عَنْ بَعضِ مَشايِخِهِ مَفادُها: "وَأنا لا أُحْسِنُ أنْ أُكلّمَ إنْسانًا في الظّلْمَةِ"، وَأحْسبُ أنّه في هذِهِ العِبارةِ يَصْدرُ عَنْ وَعْيٍ بِفَضْلِ لُغةِ الجَسَدِ في التّواصُلِ، فَفي الظُّلْمةِ وَانْطِفاءِ النّورِ تَنْطَفِئُ هذِهِ اللّغَةُ المُبينَةُ التي تَرفدُ المَعْنى، وَتُجَلّي المَقاصِدَ، وَمِمّا هُوَ قَريبٌ مِنْ قَوْلَةِ ابْنِ جِنّي هذِهِ أنَّ المُحْدَثينَ الذي يَتَنالونَ لُغَةَ الجَسَدِ بِالدّرْسِ وَالتّحْليلِ الدِّلاليّ يُقَرّرونَ أنّ مِنْ أفْضلِ السّبُلِ في التّواصُلِ، وَاسْتِشفافِ مَعاني حَرَكاتِ الجَسَدِ، ظُهورَ جَميعِ الجَسَدِ؛ إذْ إنّ مُواراةَ جُزْءٍ مِنْه قَدْ تُفْضي إلى مُواراةِ جُزْءٍ مِنَ المَعْنى، وَيُقَرّرونَ كَذلِكَ أنَّ المُتَخاطِبَيْنِ يَتَبادَلانِ النَّظَراتِ في تَواصُلِهِما الكَلامِيّ الحَيّ تَبادُلاً مِقْدارُهُ(30%-60%) مِنْ مُدّةِ وَقْتِ الحَدَثِ الكَلامِيّ، وَإذا ما زادَ ذلِكَ النّظَرُ عَلى الحَدّ الأَعْلى الذي هُو(60%) فَإنّ لِذلِكَ دِلالاتٍ مَخْصوصَةً مِنْها أَنْ يَكونَ اهْتِمامُ أحَدِهِما بِالشَّخْصِ لا بِما يَقولُ، أوْ بِخُصوصِيّةِ الحَدَثِ الكَلامِيّ وَأَهَمّيّتِهِ.

وَخَيْرُ ما يُتَمثَّلُ بِهِ في هذا المَقامِ قاعِدةٌ عَريضَةٌ لِلشّرَطِيّ المُحَقّقِ مَفادُها أَنّ عَلى المُتَّهمِ أَنْ يُبْدِيَ جَميعَ جَسَدِهِ "جوارحِه" في التّحْقيقِ، وَأنْ يُجْعَلَ في مَكانٍ رَحْبٍ، وَأَنْ

(1) انظر: ابن جني، الخصائص، 330/2.

يُسلَّطَ عَلَيْهِ ضَوءٌ لِيَكونَ جَسَدُهُ في مُواجَهَةٍ وَمُشاهَدةٍ كامِلتَيْنِ مَعَ المُحقّقِ، فَإذا هُوَ زاغَ عَنِ الحَقيقَةِ في لَفْظِهِ، فَلَعَلّ في جَوارِحِهِ، وَهَيئاتِ جَسَدِه، وَحَرَكاتِهِ، ما يَفْضَحُ هذا الزَّيْغَ، وَلَعَلّ هذا، مِنْ وُجْهةٍ أُخْرى، يَلْتَقي، في وَجْهٍ مِنْه، بَلْ في وُجوهٍ، مَعَ مَقولَةِ ابنِ جِنّي: "وَأنا لا أُحْسِنُ أَنْ أُكلّمَ إِنْسانًا في الظّلْمَةِ"؛ ذلكَ أنَّ الحَدَثَ الكَلامِيَّ سَيَفْقِدُ كَثيرًا أوْ قَليلاً مِنْ دِلالاتِهِ التي لا تُسْتَقى مِنَ الرّافِدِ الصّائِتِ فَقَطْ، "أَفَلا تَرى إِلى اعْتِبارِهِ بِمُشاهَدَةِ الوُجوهِ، وَجَعْلِها دَليلاً عَلى ما في النّفوسِ، وَعَلى ذلِكَ قالوا: رُبَّ إِشارَةٍ أَبْلغُ مِنْ عِبارَةٍ"[1].

بَيْنَ اسْتِماعِ الأُذُنِ وَمُقابَلَةِ العَيْنِ:

يَأبى ابنُ جِنّي أَنْ يَكونَ اسْتِماعُ الأُذُنِ مُغْنِيًا عَنْ مُقابَلَةِ العَيْنِ، مُجْزِئًا عَنْهُ، وَلَوْ كانَ ذلِكَ كَذلِكَ لَما تَكَلّفَ القائِلُ، وَلَما كَلّفَ صاحِبَهُ الإِقْبالَ عَلَيْهِ، وَالإِصْغاءَ لَهُ[2]، وَفي ذلِكَ دِلالَةٌ عَلى أنّ اللّغَةَ الصّائِتَةَ لا تُقَدّمُ المَعْنى الكُلّيَّ، بَلْ –كَما يَظْهَرُ مِنْ ثُنائِيّةِ ابنِ جِنّي المُعْجِبَةِ القائِمةِ عَلى اسْتِماعِ الأُذُنِ وَمُقابَلَةِ العَيْنِ– تَتَضافَرانِ معًا خِدْمَةً لِلمَعْنى وَالإِبانَةِ، وَيَسْنِدُ مَذْهَبَه هذا بِاسْتِرفادِ دِلالةِ "العَيْنِ" الجارِحةِ النّاطِقَةِ بِالصَّمْتِ، فَقَدْ يَسْمَعُ المَرْءُ كَلامَ مَوَدّةٍ مَعْسولاً، وَلِلعَيْنَيْنِ وِشايَةٌ تَدحَضُ القَوْلَ فَتَجعَلُهُ بِالضّدِّ، وَلِذلِكَ كلِّهِ احْتَجَّ ابنُ جِنّي بِقَوْلِ الشّاعِرِ مُسْتَشْرِفًا سُهْمَةَ العَيْنِ في الإِبانَةِ:

العَيْنُ تُبْدي الذي في نَفْسِ صاحِبِها مِنَ العَداوَةِ أَوْ وُدٍّ إِذا كانا[3].

وَلَعَلّ هذا يُفْضي إِلى الوُقوفِ عِنْدَ ثُنائِيّةٍ أُخْرى في "الخَصائِص"، وَهِيَ "الجَدَلُ بَيْنَ الإِشارَةِ وَالعِبارَةِ"، فَقَدْ ضَرَبَ مِثالاً دالاً عَلى أنَّ المَرْءَ قَدْ يَقعُ في نَفْسِهِ مَعْنًى باعِثُهُ دِلالَةُ الإِشارَةِ لا العِبارَةِ، "حَتّى لَوْ حَلَفَ مِنْهمْ حالِفٌ عَلى غَرَضٍ دَلّتْهُ عَلَيْهِ إِشارَةٌ لا عِبارَةٌ، لَكانَ عِنْدَ نَفْسِهِ، وَعِنْدَ جَميعِ مَنْ يَحضُرُ حالَهُ، صادِقًا فيهِ، غَيْرَ مُتَّهَمِ الرّأيِ، وَالنّحيزَةِ، وَالعَقْلِ"[4].

---

(1) انظر: ابن جني، الخصائص، 248/1، وانظر مقولة Pease في كتابه:
Body Language, P.22-23.

(2) انظر: ابن جني، الخصائص، 248/1.

(3) انظر: ابن جني، الخصائص، 248/1، وقد تقدم تخريجه ونسبته.

(4) انظر: ابن جني، الخصائص، 249/1.

بَيْنَ المُخْبَرِ وَالمُعايِنِ:

وَلَعَلّهُ مِنْ بَدَهيّ القَوْلِ إنّ مُعايَنَةَ الحَدَثِ الكَلامِيّ وَأَقْطابَهَ تُؤْذِنُ بِتَحقّقِ دِلالَةِ الحَدَثِ الكَلامِيّ الكُلّيّةِ في الكَثيرِ الغالِبِ، وَلكِنَّ هذا الحَدَثَ الكَلامِيَّ قَدْ يَفْقدُ بَعضَ دِلالاتِه عِنْدَ نَقلِهِ، وَمِنْ هُنا قالَتِ العَرَبُ قَبْلاً، وَقالَها ابنُ جِنّي بَعْدًا: "لَيْسَ المُخبَرُ كَالمُعايِنِ"؛ ذلِكَ أنّ ثَمّ أحْوالاً شاهِدةً بِالقُصودِ، حالِفَةً عَلى ما في النّفوسِ[1]، ومِنْ ذلِكَ حادِثَةُ "صَكِّ الوَجهِ" التي هِيَ حِكايَةُ شِكايَةِ امْرَأةٍ عَلى لِسانِ شاعِرٍ:

تَقولُ -وَصَكّتْ وَجْهَها بِيَمينِها- أَبَعْلِيَ هذا بِالرَّحى المُتَقاعِسُ[2]؟!

وَقَدْ عَلّقَ عَلَيْها ابنُ جِنّي مُسْتَشِفّاً فَضْلَ رِوايَةِ هذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَديّةِ في تَعْزيزِ المَعْنى، فَقَدْ جُعِلَتْ هذِهِ الحَرَكَةُ الجَسَديّةُ كَالمَنْبَهَةِ عَلى فَرْطِ التّعَجّبِ، وَالإنْكارِ، وَالتّعاظُمِ، وَلَنا أنْ نَتَصوّرَ أنّ ثَمَّ مُخْبَرًا، وَأنّ ثَمَّ مُعايِنًا لِهذا الحَدَثِ الكَلامِيّ، فَمَنْ ذا الذي يُقْنِعُ اللّغَوِيَّ، أوِ ابْنَ جِنّي مِنْ قَبلُ، أنّ دِلالَةَ الحَدَثِ القارّةَ في نَفْسِ المُعايِنِ هِيَ كَالتي عِنْدَ المُخبَرِ؟! إذْ إنّ المُعايِنَ قَدْ كانَ مِنْ شَأنِهِ أنّه سَمِعَ الصّائتَ، وَعايَنَ الصّامِتَ، أمّا المُخْبَرُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ حَظٌّ إلاّ بِالوَصْفِ وَالتّمْثيلِ مِنَ الصّامِتِ، "فَلَوْ قالَ حاكِيًا عَنْها: أَبَعْلِيَ هذا بِالرّحى المُتَقاعِسُ- مِنْ غَيرِ أنْ يَذكُرَ صَكَّ الوَجْهِ- لأَعلَمَنا أنّها كانَتْ مُتَعجّبَةً مُنْكِرَةً، لكنّهُ لَمّا حَكى الحالَ، فَقالَ: "وَصَكّتْ وَجْهَها" عُلِمَ بِذلِكَ قُوّةُ إنْكارِها، وَتَعاظُمُ الصّورةِ لَها، "هذا مَعَ أنّك سامِعٌ لِحكايَةِ الحالِ، غَيرُ مُشاهِدٍ لَها، وَلَوْ شاهَدتَها لَكُنتَ بِها أَعْرَفَ، وَلِعِظَمِ الحالِ في نَفْسِ تِلكَ المَرْأةِ أبْيَنَ،...، وَلَوْ لَمْ يَنقُلْ إلَينا هذا الشّاعِرُ حالَ هذِهِ المَرْأةِ بِقَولِهِ: "وَصَكّتْ وَجْهَها"، لَمْ نَعرِفْ بِهِ حَقيقةَ تَعاظُمِ الأمْرِ لَها"[3].

---

(1) انظر: ابن جني، الخصائص، 246/2.

(2) أورد الشعر أيضا المبرد في الكامل، 51/1، وفيه: "وصكت صدرها"، واختلف في قائله، ففي الكامل والعقد لأبي مُحَلِّم السعدي، وفي شرح الحماسة للمرزوقي والتبريزي للهذلول بن كعب العنبري.

(3) انظر: ابن جني، الخصائص، 247/1.

الفَصْلُ الرّابِعُ

لُغَةُ الجَسَدِ في التُّراثِ الأُصولِيِّ

الغَزالِيُّ نَموذَجًا

"فَمَنْ سَلّمَ أَنَّ حَرَكَةَ المُتَكَلِّمِ، وَأَخْلاقَهُ، وَعادَتَهُ، وَأَفْعالَهُ، وَتَغَيُّرَ لَوْنِهِ، وَتَقْطيبَ وَجْهِهِ وَجَبينِهِ، وَحَرَكَةَ رَأْسِهِ، وَتَقْليبَ عَيْنَيْهِ، تابِعٌ لِلفَظْه؟ بَلْ هذِهِ أَدلّةٌ مُسْتَقلّةٌ يفيدُ اقْتِرانُ جُمْلَةٍ مِنْها عُلومًا ضَرورِيّةً".

الغزالي، المستصفى، 2/67

في مَقاصِدِ العُنْوانِ

يَتَبَدّى، لِلخاطِرِ الأَوّلِ، أنّ في عُنْوانِ هذِهِ المُباحَثَةِ ثالوثاً يَنتَظِمُ سَيْرورَتَها: أوّلُهُ الإمامُ الغَزالِيُّ، وَثانيه كِتابُهُ "المُسْتَصْفى مِنْ عِلْمِ الأُصولِ"، وَثالِثُهُ تَلمّسُ أَشْتاتٍ مِنْ "لُغَةِ الجَسَدِ" التي عَرَضَ لَها في كِتابِهِ، وَالحَقُّ أنّ هذا الذي تَقَدّمَ يَعوزُهُ فَضْلُ بَيانٍ وَاسْتِدْراكٌ؛ ذلكَ أنّ هذِهِ المُباحَثَةَ لا تُعْنى بِالحَديثِ عَنِ الإمامِ الغَزالِيّ: حَياتِهِ، وَفِكْرِه، وَمُؤَلَّفاتِهِ، فَقَدْ صُنِّفَ فيهِ الكَثيرُ[1]، فَضْلاً عَنْ كَوْنِهِ مِمّنْ مَلَؤوا الدُّنْيا وَشَغَلوا النّاسَ.

أَمّا "المُسْتَصْفى مِنْ عِلْمِ الأُصولِ" فَقَدْ طَلَبَتْ إليْهِ طائِفَةٌ مِنْ مُحَصِّلي عِلْمِ الفِقْهِ تَصْنيفًا في "أُصولِ الفِقْهِ" فَأجابَهُم[2]، وَاسْتَفْتَحَهُ بِبَيانِ حَدِّ الدِّلالَةِ الشَّرْعِيّةِ التي تَغْتَورُ هذا المُصْطَلَحَ مُلْمِحًا إلى أنّها الوُقوفُ عَلى أدِلّةِ الأحْكامِ، وَمَعْرفةِ وُجوهِ دِلالَتِها عَلى الأَحْكامِ مِنْ حَيْثُ الجُمْلةُ لا التّفْصيلُ[3]. وَعِلمُ الأُصولِ عِنْدَ الباجِيّ ما انْبَنتْ عَلَيْهِ مَعْرِفةُ الأَحْكامِ الشّرْعِيّةِ[4]، وَعِنْدَ الآمِدِيّ: أدلّةُ الفِقْهِ، وَجِهاتُ دِلالاتِها عَلى الأَحْكامِ الشّرْعِيّةِ، وَكَيفيّةُ حالِ المُسْتَدلّ بِها مِنْ حَيْثُ الجُمْلةُ لا مِنْ حَيْثُ التّفْصيلُ[5].

أَمّا مَوْضوعُهُ فَلا يَخْرجُ عَنْ أَحْوالِ الأدِلّةِ المُوصِلَةِ إلى الأحْكامِ الشّرْعِيّةِ المَبْحوثِ عَنْها فيهِ، وَأقْسامِها، وَتَبايُنِ مَراتِبِها، وَكَيْفيّةِ اسْتِثْمارِ الأَحْكامِ الشّرْعِيّةِ عَنْها عَلى وَجْهٍ كلّيٍّ[6]، وَمُستَصْفى القَوْلِ في "المُسْتَصْفى" أنّ الأُصولَ لا يُتَعَرَّضُ فيها لإحْدى المَسائِلِ، "وَلا عَلى طَريقِ ضَرْبِ المِثالِ، بَلْ يُتَعَرَّضُ فيها لأَصْلِ الكِتابِ،

---

(1) لمزيد بسط القول في حياة الغزالي انظر: أحمد الشرباصي، الغزالي، دار الجيل، بيروت، 1975م، والبارون كارادوفو، الغزالي، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العلمية، بيروت، 1959م، وأحمد شمس الدين، الغزالي: حياته، آثاره، فلسفته، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م، وأحمد فريد رفعي، الغزالي، دار المأمون، القاهرة، 1936م.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 14/1.

(3) انظر: الغزالي، المستصفى، 17/1.

(4) انظر: الباجي، إحكام الفصول في أحكام الأصول، 171.

(5) انظر: الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، 8/1.

(6) انظر: الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، 8/1.

وَالسّنَّةِ، وَالإِجْماعِ، وَلِشَرائِطِ صِحَّتِها، وَثُبوتِها، ثُمّ لِوُجوهِ دِلالَتِها مِنْ غَيْرِ أَنْ يُتَعَرَّضَ فيها لِمَسْأَلَةٍ خاصّةٍ، فَبِهذا تُفارِقُ أُصولُ الفِقْهِ فُروعَه"[1].

وَجُمْلَةُ الأُصولِ –كَما يُجَلّي هذا المَطْلَبَ الغَزاليُّ– تَدورُ عَلى أَقْطابٍ أربَع:

- أَوّلُها: في الأَحْكامِ، وَالبَداءَةُ بِها أَوْلى؛ إِذْ إِنّها الثّمَرَةُ المَطْلوبَةُ.
- وَثانيها: في الأَدِلّةِ، وَهِيَ الكِتابُ، وَالسّنّةُ، وَالإِجْماعُ.
- وَثالثُها: في طَريقِ الاسْتِثْمارِ، وَالمَقْصِدُ ههُنا وُجوهُ دِلالَةِ الأَدِلّةِ، كَالدِّلالَةِ بِالمَنْظومِ، وَبِالمَفْهومِ، وَبِالاقْتِضاءِ، وَالضّرورَةِ، وَبِالمَعْنى المَعْقولِ.
- وَرابعُها: في المُسْتَثْمِرِ، وهُوَ المُجْتَهِدُ الذي يَحْكُمُ بِظَنِّهِ، وَيُقابِلُهُ المُقلِّدُ الذي يَلزمُهُ اتّباعُهُ[2].

وَالحَقّ أَنّ الذي تَتَرَسّمُهُ هذِهِ المُباحَثَةُ هُوَ اسْتِشْرافُ هذِهِ الظّاهِرَةِ الفاعِلَةِ في تَحْصيلِ المَعْنى، أَوْ تَشْكيلِهِ، أوِ اقْتِناصِهِ، عِنْدَ الإمامِ في مُسْتَصْفاه ذاكَ؛ إِذْ إِنّ المُبْتَغى الأوّلَ مِنْ عِلمِ الأُصولِ–كَما تَقَدّم قَبْلاً– الوُقوفُ عَلى أَدِلّةِ الأَحْكامِ، وَمَعْرِفةُ وُجوهِ دِلالَتِها، وَلِذا لَيْسَ ثَمّ بُدٌّ مِنْ التّوَسّلِ بِإِمْكاناتٍ مُتَباينَةٍ لِلوُصولِ إِلى الأُصولِ، وَالاسْتِعانَةِ بِرَوافِدَ أُخْرى لاسْتِنْباطِ الأَحْكامِ أوِ العِلَلِ، فلَيْسَ يَصِحُّ في الفَهْمِ وَلا يَسْتَقيمُ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ في النّصِّ اللَّفْظِيِّ البِنْيويِّ مُسْتَغْنًى عَمّا سِواهُ، وَمُكْتَفًى في الإِبانَةِ عَنْ مَقاصِدِ الكَلِمِ وَرُسومِ التّعْبيرِ، وَلِذا قَرّرَ الإِمامُ، عَلى وَجْهٍ مِنَ التّحكُّمِ، قاعِدَةً عَريضَةً مُعْجِبَةً في مَعْرِفةِ طَريقِ التَّوْقيفِ، وَهِيَ دائِرَةٌ في فَلَكِ هذا المُتَقدِّمِ بَيانُهُ، وَمَفادُها أَنَّ الحُكْمَ لا يَثْبُتُ إِلاّ تَوْقيفًا، وَلكِنْ، "لَيْسَ طَريقُ مَعْرِفةِ التّوْقيفِ في الأَحْكامِ مُجَرّدَ النّصِّ، بَلِ النّصُّ، وَالعُمومُ، وَالفَحْوى، وَمَفْهومُ القَوْلِ، وَقَرائِنُ الأَحْوالِ، وَشَواهِدُ الأُصولِ، وَأَنْواعُ الأَدِلّةِ"[3].

---

(1) انظر: الغزالي، المستصفى، 18/1، ولمزيد بسط القول في تعريف علم الأصول ونشأته وتطوره انظر: مصطفى الزلمي، دلالات النصوص وطرق استنباط الأحكام في ضوء أصول الفقه الإسلامي، مطبعة أسعد، بغداد، 1983م، 3-14، والسيد عبد الغفار، التصور اللغوي عند الأصوليين، مكتبات عكاظ، الرياض، 1979م، 7-37.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 22/1.

(3) انظر: الغزالي، المستصفى، 363/2.

المَعْنى بَيْنَ لُغَةِ الجَسَدِ وَجَسَدِ اللّغَةِ

إنّ مَفْهومَ المَعْنى عِنْدَ الإمامِ لَيْسَ مَقْصورًا عَلى اللّفْظِ، وَمِنْ هُنا يَتَجَلّى لَنا إلْحاحُ الإمامِ عَلى هذا المَطْلَبِ اللّسانِيّ القائِمِ عَلى إيلاءِ السّياقَيْنِ عَيْنَ العِنايَةِ في اقْتِناصِ مَقاصِدِ الكَلِمِ، ومِنْ ذلِكَ إشاراتُهُ إلى أَثَرِ اسْتِكْمالِ السّياقِ البِنْيَوِيّ في تَعْيينِ المَعْنى، وَالمُتأمِّلُ في "المُسْتَصْفى" يَجِدُ أنّ هذا الأَثَرَ مُسْتَفيضٌ عِنْدَه، وَإخالُ أنّهُ يَحْسُنُ عَرْضُ أمثِلَةٍ عَلى وَجْهِ الاقْتِضابِ، ومِنْ ذلِكَ "المُشْتَرَكُ اللّفْظِيُّ" الذي قَدْ يُشْكِلُ؛ إذْ يَقَعُ تَحتَهُ مَعْنَيانِ، فَقَوْلُنا "عَيْنٌ" مُلْبِسٌ مُحْتَمِلٌ مَعانِيَ مُفْتَرِقةً، تَشْتَمِلُ عَلَيْها مَبانٍ مُتّفِقَةٌ، وَلكِنَّ إدْخالَها في سِياقٍ بِنْيَويّ قَدْ يُؤْذِنُ، في الكَثيرِ الغالِبِ، بِفَهْمِ المُتَعيّنِ مِنْها، وَقَدْ صَرّحَ بِهذا الإمامُ، فَقالَ: "ومَنْ قالَ: حَدُّ اللّوْنِ ما يُدْرَكُ بِحاسَّةِ "العَيْنِ" عَلى وَجْهِ كَذا وَكَذا، فَلا يَنْبَغي أنْ يُنْكَرَ مِنْ حَيْثُ إنّ لَفْظَ العَيْنِ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الميزانِ، وَالشّمْسِ، وَالعُضْوِ الباصِرِ، لأنّ قَرينَةَ "الحاسّةِ" أذْهَبَتْ الاحْتِمالَ، وَحَصَلَ التّفْهيمُ الذي هُوَ مَطْلَبُ السّؤالِ"[1].

وَكَذلِكَ تَصَيّدُه دِلالَةَ كَلِمَةِ "الخَلْق" المُتَلَوّنَةَ بِتَلوّنِ السّياقِ الذي تَرِدُ فيهِ[2]، وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدّم التِفاتَتُهُ إلى تَواصُلِ مُكَوّناتِ السّياقِ البِنْيويّ؛ ذلِكَ أنّ انْفِساخَهُ قَدْ يُفْضي إلى مَعْنًى غَيْرِ مُرادٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ الحَقّ -جَلّ في عُلاهُ-: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤﴾[3]، فَلا حُكْمَ مِنْ هذا التّرْكيبِ الشّريفِ قَبْلَ إتْمامِ الكَلامِ، وَعِنْدَ تَمامِهِ يَغْدو الوَيْلُ مَقْصورًا عَلى مَن وُجِدَ فيهِ شَرْطُ السّهْوِ وَالرّياءِ، لا أنَّ كُلّ مُصَلٍّ دَخَلَ فيهِ "الوَيْلُ"، ثُمّ خَرَجَ البَعْضُ[4].

لُغَةُ الجَسَدِ قَرينَةٌ هادِيَةٌ في الدَّرْسِ الأُصولِيّ

وَفي بابِ القَوْلِ عَلى التّواصُلِ وَالإبانَةِ عِنْدَ الغَزالِيّ نَجِدُه يُعوّلُ كَثيرًا عَلى القَرينَةِ

---

(1) انظر: الغزالي، المستصفى، 44/1، وقارن هذا بما ورد عند Soon من حديث عن كلمة Port المترددة بين معنيين، وكيف أن استكمال السياق البنيوي قد يعمل على رفع الإشكال، انظر: Lexical Ambiguity in Poetry, P.63

(2) انظر حديثه عن دلالة الخلق في الآيات الكريمات: "خالق كل شيء"، والمعنى: موجد، و"تخلقون إفكا"، والمعنى: تكذبون، و"إذ تخلق من الطين كهيئة الطير"، والمعنى: "تقدر"، انظر: المستصفى، 178/2.

(3) الآية (الماعون، 4).

(4) انظر: الغزالي، المستصفى، 212/2.

الهادِيَةِ إلى المَعْنى، أوِ المُرَشِّحَةِ لَهُ، وَهِيَ عِنْدَهُ تَنْتَسِبُ إلى ضَرْبَيْنِ: قَرينَةٍ لَفْظِيّةٍ، وَقَدْ تَقدّمَ الكَلامُ عَلى بَعْضِ أمْثِلَتِها، وَأُخْرى مَعْنويّةٍ لا تُسْتقى مِنَ السِّياقِ البِنْيويّ، وَإِشاراتُهُ إلى تَيْنِكَ القَرينَتَيْنِ كَثيرَةٌ كَثيرَةٌ، وَمِنْ ذلِكَ وُرودُهُ عَلى سُبُلِ اسْتِشْفافِ "البَيانِ" وَحُصولِهِ، فَقَدْ يَكونُ بِعِباراتٍ وُضِعَتْ بِالاصْطِلاحِ وَالتّواضُعِ، ولَيْسَ يَخْفى عَلى ذي نُهْيةٍ أنّه يُلْمِحُ إلى الألْفاظِ وَالتّراكيبِ، وَقَدْ يَكونُ –مِنْ وجْهَةٍ دِلالِيّةٍ تَواصُليّةٍ أُخْرى– بِالفِعْلِ، وَالرّمْزِ، وَالإِشارَةِ[1].

وَالإِشارَةُ عِنْدَ ابنِ حَزْمٍ في أُصولِهِ تَكونُ بِاللّفْظِ وَبَعْضِ الجَوارِحِ[2]، وَقَريبٌ مِنْ هذا كُلِّهِ البَيانُ عِنْدَ الباجِيّ الأُصوليّ؛ إذْ إنّهُ "يَقَعُ بِالقَوْلِ تارَةً، وَيَقَعُ بِالفِعْلِ، وَالإِشارَةِ، وَالرّمْزِ، وَالكِنايةِ، وَشاهِدِ الحالِ..."[3].

وَفي بابِ فَهْمِ المُرادِ مِنَ الخِطابِ تَنَبّهَ الغَزالِيُّ إلى أنَّ النّصَّ قَدْ يَعْتَريهُ احْتِمالٌ، فَلا يُعْرَفُ المُرادُ مِنْهُ عَلى وَجْهِ الإِحْكامِ دونَ الإِبْهامِ، وَالسَّبيلُ إلى هذا كُلِّهِ "القَرينَةُ"، وَالقَرينَةُ عِندَهُ إمّا:

- لَفْظٌ مَكْشوفٌ.
- وَإِمّا إحالَةٌ عَلى دَليلِ العَقْلِ.
- وَإِمّا قَرائِنُ أَحْوالٍ، وَإِشاراتٌ، وَرُموزٌ، وَحَرَكاتٌ، وَسَوابِقُ، وَلَواحِقُ لا تَدخُلُ تَحْتَ الحَصْرِ وَالتّخْمينِ، "يَخْتَصُّ بِدَركِها المُشاهِدُ لَها"[4].

وَمِنْ هذِهِ القَرائِنِ حَرَكاتُ الجَوارِحِ المُعبّرة بِلُغَةِ الجَسَدِ، وَقَدْ عَرّجَ الغَزالِيُّ، غَيْرَ مَرّةٍ، عَلَيْها في مُسْتَصْفاهُ، فَجَعَلَها دَوالَّ مُسْتَقلّةً تَفْعلُ في تَشْكيلِ المَعْنى، بَلْ وَصَلَ الأمْرُ بِهِ إلى عَتَبةِ إنْكارِ كَونِها تابِعَةً لِلألْفاظِ كَما في مَذاهِبِ بَعْضِ الأُصولِيّينَ[5]، فَقالَ في عِبارَةٍ دالّةٍ مُبينَةٍ: "فَمَنْ سَلّمَ أنّ حَرَكةَ المُتَكلّمِ، وَأخْلاقَهُ، وَعادَتَهُ، وَأَفْعالَهُ، وَتَغيّرَ لَوْنِهِ، وَتَقْطيبَ وَجْهِهِ وَجَبينِهِ، وَحَرَكةَ رَأسِه، وَتَقْليبَ عَيْنَيْه، تابِعٌ لِلفْظِهِ؟ بَلْ هذِهِ أَدِلّةٌ مُسْتَقلّةٌ

(1) انظر: الغزالي، المستصفى، 698/1.

(2) انظر: ابن حزم، الإحكام، 47/1.

(3) انظر: الباجي، إحكام الفصول، 302.

(4) انظر: الغزالي، المستصفى، 675/1-676.

(5) انظر: الغزالي، المستصفى، 66/2.

يُفيدُ اقْتِرانُ جُمْلةٍ مِنْها عُلومًا ضَروريّةً"[1].

وَمِنْ هذِهِ الأدِلّةِ المُسْتَقلّةِ التي عَرَضَ لَها الإمامُ أنّا نَعْرِفُ عِشْقَ العاشِقِ لا بِقَوْلِهِ، بَلْ بِأفْعالٍ هِيَ مِنْ أفْعالِ المُحِبّينَ، وَما كانَ أَكْثَرَها وَأَجْلاها لِمَنْ تَبَصّرَ، وَتَنْتَهي كَثرةُ هذِهِ الدّلالاتِ "إلى حَدٍّ يَحْصلُ لَنا عِلمٌ قَطْعِيٌّ بِحُبّهِ، وَكَذلِكَ بِبُغْضِهِ، إذا رُئِيَتْ مِنْهُ أفْعالٌ يُنْتِجُها البُغْضُ، وَكَذلكَ نَعرِفُ غَضَبَهُ وَخَجَلَهُ لا بِمُجَرَّدِ حُمْرةِ وَجْهِهِ، لكنَّ الحُمْرَةَ إحْدى الدّلالاتِ"[2].

وَالظّاهِرُ أنَّ الحَديثَ عَنْ هذا الضّرْبِ مِن القَرائِنِ في الدّرْسِ الدّلاليّ ما هُوَ إلاّ حَديثٌ عَنْ لُغَةٍ تَواصُليّةٍ مُعْجَمُها ما يُسْتَقى مِنَ الشّمائِلِ، وَتَعابيرِ الوَجْهِ، وَحَرَكاتِ الجَوارحِ، في سِياقِها الذي تَقَعُ فيهِ، وَغَيْرِ ذلِكَ مِنَ القَرائِنِ التي "لا يُمْكِنُ حَصْرُها في جِنْسٍ، وَلا ضَبْطُها في وَصْفٍ" كَما قالَ الإمامُ[3].

لُغَةُ الجَسَدِ مُحْتَكَمٌ رَئيسٌ بَيْنَ أَرْبابِ العُمومِ وَأَرْبابِ الخُصوصِ

يَخوضُ الإمامُ في هذا الجَدَلِ الدّائِرِ مُسْتَعينًا بِثاقِبِ بَصَرِهِ، وَبَعيدِ تَأمّلِهِ، مُسْتَرْفِدًا ذَيْنِكَ المُتَقَدّمَيْنِ، مُتّكِئًا في كَثيرٍ مِنْ مُعالَجاتِهِ عَلى فَضْلِ "لُغَةِ الجَسَدِ" في تَقْريرِ العُمومِ أَوِ الخُصوصِ، أَوِ الحُكْمِ بِتَرْجيحِ أَحَدِهِما، وَالحَقُّ أنَّ جَمْعَ نثارِ إلْماحاتِهِ إلى التّواصُلِ غَيْرِ اللّفْظِيّ عامّةً، وَلُغَةِ الجَسَدِ خاصّةً، ولَمْلَمةِ أشْتاتِها، في هذا البابِ عَلى التّعْيينِ، تُفْضي بِالقارِئِ إلى التّقْريرِ بِأنّ الإمامَ الغَزالِيَّ مِمّنْ تَمَثّلوا هذا الأَثَرَ الفاعِلَ في تَشْكيلِ المَعْنى، وَالمُتَمثّلَ عِنْدَهُ بِنَظَريّةِ السّياقِ التي كانَتْ مِنْ حِجارَةِ الأَساسِ التي تُؤَطّرُ لِلمَعْنى لِيَنْبَنِيَ عَلَيْها، بَلْ لِتَكونَ فَيْصَلاً وَمُحْتَكَمًا في كَثيرٍ مِنْ مَواضِعِ مُعالَجاتِهِ.

أَمّا هذا المَبحَثُ؛ أعْني العُمومَ وَالخُصوصَ، فهُوَ مَبْحَثٌ في الدّرْسِ الأُصولِيّ عَريضٌ، وَمُستَصْفى القَوْلِ فيهِ أنَّ المَذاهِبَ فيهِ ثَلاثَةٌ:

- مَذْهبُ أَرْبابِ الخُصوصِ.
- وَمَذْهَبُ أرْبابِ العُمومِ.

---

(1) انظر: الغزالي، المستصفى، 67/2.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 40/1.

(3) انظر: الغزالي، المستصفى، 65/2.

- وَمَذْهبُ الواقِفيّةِ.

وَقَدْ أَدْلى الإمامُ بِدَلْوِهِ في هذا المَبْحَثِ بِحَديثٍ تَتَوَزّعُه خَمْسَةُ أَبْوابٍ، كَالحَديثِ عَنْ تَعارُضِ العُمومَيْنِ، وَبابِ القَوْلِ عَلى الأَدلّةِ المُخَصِّصَةِ، وَتَمْييزِ ما يُمْكنُ دَعْوى العُمومِ فيهِ عَمّا لا يُمْكنُ، وَالعُموم هَلْ لَهُ صيغَةٌ أَمْ لا؟ وَالاسْتِثناءِ وَالشّرْطِ[1]، لِنَرْجِع النّظَرَ فيما يَأتي مِنْ أَمْثِلةٍ نَسْتَشرِفُ بِها لُغَةَ الجَسَدِ في "المُسْتَصْفى":

المِثالُ الأَوّلُ:

المِثالُ الأَوّلُ الذي اسْتَصْفاه الغَزالِيُّ لِبَيانِ هذِهِ الدّعْوى هُوَ الرّجُلُ الذي إِذا قالَ لِجَميعِ نِسائِهِ الحاضِراتِ: طَلّقتُكُنّ، وَلِجَميعِ عَبيدِهِ: أَعْتَقتُكُمْ، فَإِنَّ ذلِكَ قَدْ يَرْتَفِعُ عَنْهُ العُمومُ، وَإِنْ كانَتْ وِشايَةُ العُمومِ تَرِدُ عَلى خاطِرِنا مِنْ ظاهِرِهِ، وَالمُحْتَكَمُ في تَعْيينِ مَعْنى "الخُصوصِ" عِنْدَه جُمْلَةٌ مِنَ العَناصِرِ أَهَمُّها لُغَةُ الجَسَدِ عامّةً، وَاتّجاهُ العَيْنِ أوِ الوَجْهِ في ثنْيِ الخطابِ خاصّةً، فَالدُّخولُ في مَقامِيّاتِ الحَدَثِ الكَلامِيّ، وَالوُقوفُ عَلى تَفاصيلِ هذا المَسْرَحِ اللّغَوِيّ الحَيّ بِتَشْكيلاتِهِ الجَسَدِيّةِ وَالإِشارِيّة، يُفْضِيانِ إِلى تَجلّي مَقْصِدِ "الخُصوصِ"، وَانْزِواءِ مَقْصِدِ العُمومِ المَزْعومِ؛ وَقَدْ تَجَلّى ذلِكَ بِقَوْلَةِ الغَزالِيّ المُعْجِبَةِ: "إِنّما يَكونُ مُخاطِبًا مِنْ جُمْلَتِهِمْ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ، وقَصَدَ خِطابَهُ، وَذلِكَ يُعْرَفُ بِصورَتِهِ، وَشَمائِلِهِ، وَالْتِفاتِهِ، وَنَظَرِه"[2]، وَبِذلِكَ قَرَّرَ الإِمامُ رَفْعَ دَعْوى العُمومِ في بَعْضِ المَسارِحِ اللّغَوِيّةِ مُعْتَمِدًا عَلى "لُغةِ الجَسَدِ".

المِثالُ الثّاني:

وَفي مَقامٍ آخَرَ مُجَلٍّ لِنَظَرِ الإِمامِ المُعْجِبِ القائِمِ عَلى اسْتِرْفادِ الحالِ، وَلُغَةِ الوُجوهِ، لا عَلى وَضْعِ قاعِدةٍ عَريضَةٍ، أَوْ مَوْقِفٍ قَبْلِيّ، كَالتّقريرِ بِالعُمومِ أَوِ الخُصوصِ، وَمِنْ ثَمّ لَيُّ عُنُقِ النّصِّ حَتّى يَسْتَجيبَ لَها أَوْ لِهَوى النّفْسِ، عَرَضَ الغَزالِيُّ صورَةً كَلامِيّةً حَيّةً مَفادُها أَنَّ الرّجُلَ قَدْ يَحْضُرُه جَماعَةٌ مِنَ الغِلْمانِ، وَالبالِغينَ، وَالصّبْيانِ، فَيَقولُ: ارْكَبوا مَعي، وَهُنا لا يُمْكِنُ دَعْوى العُمومِ في لَفْظِهِ ذاكَ مَرّةً ثانِيَةً وَثالِثَةً؛ إِذْ إِنّهُ قَدْ يُريدُ

---

(1) انظر: الغزالي، المستصفى، 52/2، وانظر مبحث العموم والخصوص عند الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، 413/2-وما بعدها.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 126/2.

مَنْ هُمْ أَهْلٌ لِلرّكوبِ دونَ مَنْ لَيْسوا أَهْلاً لِذلِكَ، وَآنَ هذا، فَإِنَّ خِطابَهُ لا يَتناوَلُ إِلاّ مَنْ قَصَدَه، "وَلا يُعْرَفُ قَصْدُه إِلاّ بِلَفْظِهِ، أَوْ شَمائلِهِ الظّاهِرَةِ"[1].

المِثالُ الثّالِثُ:

وَالمِثالُ الثّالِثُ الذي اسْتَصْفاه الإِمامُ لِلتّقْريرِ بِالخُصوصِ أَحْيانًا يَدورُ حَوْلَ قَوْلِ قائِلٍ: "مَنْ دَخَلَ داري فَأَعْطِهِ"[2]، وَيَظْهرُ أَنَّ كَلامَهُ عامٌّ غَيْرُ مُخَصَّصٍ؛ إِذْ يَظْهرُ مِنْ ظاهِرِ هذا التّرْكيبِ البِنْيويّ أَنَّ ثَمّ تَعْميمًا يَعْتَريهِ، فَكلُّ مَنْ يَدخُلُ دارَهُ سَيَكونُ لَهُ نَصيبٌ مِنَ العَطاءِ، وَذلِكَ لَيْسَ كَذلِكَ عِنْدَ الإِمامِ؛ ذلِكَ أَنَّ عَهْدَنا بِصاحِبِ هذا القَوْلِ أَنّهُ لا يَقرُبُ الفاسِقَ، وَلا يُكرِمُهُ البَتّةَ، فَهذِهِ قَرينةٌ مُخَصِّصةٌ تَنْسَخُ ما قَدْ يَقْفِزُ إِلى الخاطِرِ الأَوّلِ مِنْ عُمومٍ، ومِنْ هنا يَظهرُ أَنّ هذا الحَدَثَ الكَلامِيّ لَيْسَ فيهِ عُمومٌ، وَالحَقُّ أَنَّ هذا المِثالَ المُثْبَتَ لَيْسَ لِلجَسَدِ فيهِ دِلالةٌ، وَإِنّما فيهِ تَواصُلٌ غَيرُ لَفْظِيٍّ مِضْمارُهُ عادَةُ المُتَكَلِّمِ، وَإِنّما أَثْبَتُّهُ اسْتِكمالاً لأَنْظارِ الغَزالِيّ القائِلةِ بِاسْتِرْفادِ الحالِ، وَالأَنْظارِ الخارِجِيّةِ في تَعْيينِ الخُصوصِ أوِ العُمومِ.

وَالمُسْتَصْفى مِمّا تَقَدّم أَنَّ الإِمامَ -كَعادَتِهِ المَكْرورَةِ التي غَدَتْ سَمْتًا مَنْهَجِيّاً لازِمًا في مُسْتَصفاهُ- يَجْنَحُ إِلى اسْتِشْرافِ الوَقائِعِ الكَلامِيّةِ الحَيّةِ المُصَوّرةِ بِعِباراتِهِ تَمْثيلاً وَتَعْليلاً وَفَصلَ بَيانٍ مجلٍّ لِذلكَ الدّرْسِ الدِّلاليّ التّواصُليّ، وَالحاصِلُ أَنّه يُعرّجُ عَلى مَسائِلَ طَريفَةٍ لِتَعْيينِ دَعْوى العُمومِ فيها أَوْ لِرَفْعِها، وَهِيَ مَسائِلُ تَتَوَزّعُها أَنْظارٌ دينِيّةٌ، وَلُغَوِيّةٌ، وَعَقْليّةٌ، وَأَحْوالٌ اجْتِماعِيّةٌ هِيَ مَحَطُّ النّظَرِ في هذا الدّرْسِ، وَمِنْ ثَمَّ يُقَرّرُ قاعِدَةً دِلاليّةً تَواصُليّةً عَريضَةً عُنْوانُها عِنْدَه: "**المُخاطَبَةُ شِفاهاً لا يُمْكِنُ دَعْوى العُمومِ فيها**"، صَحيحٌ أَنّهُ قَدْ يَتَجَلّى إِشْكالٌ في تَعْيينِ أَحَدِ هذَيْنِ المَطْلَبَيْنِ في سِياقٍ مَكْتوبٍ أَوْ مُتَقادِمٍ، وَلكِنَّ التّواصُلَ مَعَ مَقامِيّاتِ الحَدَثِ الكَلامِيّ التي تَسْتَغْرِقُه، وَاسْتِحضارَ الأَنظارِ الخارِجيّةِ، وَاسْتِشْرافَ لُغَةِ الجَسَدِ، كُلُّ ذلِكَ كَفيلٌ أَمينٌ بِتَعيُّنِ دِلالَةِ أَحَدِهِما.

لُغَةُ الجَسَدِ مُحْتَكَمٌ رَئيسٌ لِلتَّقْريرِ بِالاسْتِغْراقِ أَوْ عَدَمِهِ

ثُمّ يُجيلُ الإِمامُ نَظَرَهُ في المُساءَلَةِ التي تَقولُ: هَلْ وَضَعَ العَرَبُ صيغَةً تَدلُّ عَلى

---

(1) انظر: الغزالي، المستصفى، 162/2، وانظر أمثلة في هذا المبحث في التنزيل العزيز عنده.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 82/2.

الاسْتِغْراقِ أمْ لا؟ وَاللاّفِتُ لِلخاطِرِ الأوّلِ أنَّ المَدْخلَ الرّئيسَ الذي فاءَ إليْهِ الإمامُ في مُحاوَرَةِ هذِهِ المُساءَلَةِ هُوَ "لُغةُ الجَسَدِ"، وَتَمثّلُ سِياقِ الحالِ الذي يَعْملُ، في كَثيرٍ مِنَ المَواضِعِ وَالمَواقِفِ، عَلى تَعْيينِ العُمومِ أَوِ الخُصوصِ، وَلِذلِكَ كُلِّهِ نَراهُ يَفْزعُ ثانِيَةً، وَثالِثَةً، وَرابِعَةً، إلى قَرائنَ غَيْرِ كَلامِيّةٍ مُحَمَّلةٍ بِدِلالاتٍ تَقومُ مَقامَ جُمَلٍ وَكَثيرِ إسْهابٍ، وَمِنْها رُسومُ التّعابيرِ التي تُسْتَقى مِنْ حَرَكاتِ المُتَكلِّمِ، وَشَمائلِهِ الظّاهِرةِ، وَإشاراتِهِ، وَعاداتِهِ التي تُنْبِئُ عَنْ تَعَيُّنِ دِلالَةِ العُمومِ، أوْ دِلالةِ الخُصوصِ.

ومُسْتَصْفى القَوْلِ فيها –كَما صَرَّحَ بِذلِكَ– أنّ "الاسْتِغْراقَ يُعْلَمُ بِعِلمٍ ضَروريٍّ يَحْصُلُ عَنْ قَرائِنِ أحْوالٍ، وَرُموزٍ، وَإشاراتٍ، وَحَرَكاتٍ مِنَ المُتَكلّمِ، وَتَغيّراتِ وَجْهِهِ، وَأُمورٍ مَعْلومَةٍ مِنْ عادَتِهِ وَمَقاصِدِهِ، وَقَرائنَ مُخْتَلفَةٍ لا يُمْكِنُ حَصْرُها في جِنْسٍ، وَلا ضَبْطُها بِوَصْفٍ، بَلْ هِيَ كَالقَرائِنِ التي يُعْلَمُ بِها خَجَلُ الخَجِلِ، وَوَجَلُ الوَجِلِ، وَجُبنُ الجَبانِ"[1].

لُغَةُ الجَسَدِ مُحْتَكَمٌ رَئيسٌ في الحُكْمِ عَلى مَسْأَلَةِ "العَدَدِ الكامِلِ لِحُصولِ العِلْمِ"

يُعَرّجُ الغَزالِيُّ عَلى هادٍ مُوَجّهٍ لِلمَعْنى، وَهُوَ عادَةُ المُتَكلّمِ التي عُرِفَ بِها، وَطَبَقَتُهُ، وَهَيْئَتُهُ، وَلِباسُهُ، وَحَرَكاتُهُ الجَسَدِيّةُ، وَلَيْسَ يَخْفى، لِلوَهْلَةِ الأولى، أنّنا نَكادُ نَتَمثّلُ نَظَريّةَ السّياقِ التي صَدَعَ بِها "فيرث" عِنْدَ الغَزالِيّ، وَالمَلْحَظُ اللّطيفُ الذي يَحْسُنُ أَنْ يُؤخَذَ بِعَينِ العِنايةِ وَالرّوِيَّةِ أنَّ لِلعادَةِ فَضْلاً في الإبانَةِ عَنِ المَعْنى في مَواضِعَ، وَقَدْ جَعَلَها الإمامُ مَدْخَلاً مُسانِدًا لِتَعْيينِ مَقْصِدِ العُمومِ أوِ الخُصوصِ في الحَدَثِ الكَلامِيّ، "كَيْفَ وَصيغَةُ العُمومِ، وَالأَمْرِ، وَالنّهْيِ، قَطّ لا تَنْفَكُّ عَن قَرينَةٍ مِنْ حالِ المَأمورِ، وَالمَأمورِ بِهِ، وَالآمِرِ"[2].

وَقَدْ وَرَدَ هذا النّظَرُ السّياقِيُّ عِنْدَ الإمامِ في مَسْأَلَةِ "العَددِ الكاملِ لِحُصولِ العِلمِ"، فَلَمْ يَفُتْهُ التّنْبيهُ إلى قَرينَةٍ تَعْضدُ الخَبَرَ اللّغَوِيَّ، وَمِنْ ذلِكَ عَرْضُهُ لِهذِهِ المَسْألَةِ، مُبْتدِئاً بِبَسْطِ القَوْلِ فيها، مُلْمِحًا إلى أنّ عَدَدَ المُخْبِرينَ يَنْقَسِمُ إلى:

---

(1) انظر: الغزالي، المستصفى، 65/2.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 447/1.

- ما هُوَ ناقِصٌ فَلا يُفيدُ العِلمَ.
- وَإِلى ما هُوَ كامِلٌ فَيُؤَدّي الغَرَضَ.
- وَإِلـى مـا هُـوَ زائِـدٌ، وَهُـوَ الـذي يَحْصـلُ العِلـمُ بِبَعْضِـهِ، وَتَقـعُ الزّيـادَةُ فَضْـلاً عَـنِ الكِفايَةِ[1].

لكِنَّ الغَزالِيَّ لا يَترُكُ هذِهِ المَسْألةَ مَفْتوحَةً وَقَدْ غَدا أمْرُ العَددِ المُحْتكَمَ الأوْحَدَ في حُصولِ العِلمِ؛ إذْ إنّه اسْتَدْرَكَ عَلى نَفسِهِ اسْتِدراكًا باعِثُهُ الفَيْءُ إلى لُغةِ الجَسَدِ، وَالمُتمّماتِ المُسانِدَةِ، وَسِياقِ الحالِ، فَرَأى أنَّ الخَبَرَ لا يَسْتَنِدُ إلى مُجَرّدِ العَدَدِ لِلحُكْمِ عَلَيْهِ بِالصّدْقِ، أوْ بِضِدِّهِ، فَقَدْ تَقومُ قَرائِنُ مَخْصوصَةٌ كَلُغَةِ الجَسَدِ مَقامَ العَددِ النّاقِصِ لِتُؤْذِنَ بِتَعْيينِ صِدْقِ الخَبرِ، وَقَدْ أنْكَرَ بَعْضُهم –كَما يَرى الإمامُ– أثَرَ هذا المَطْلَبِ، "وَلَـمْ يَلتَفِتْ إلى القَرائنِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَها أثَرًا، وَهذا غَيرُ مَرْضِيٍّ،...، وَمُجرَّدُ القَرائنِ أيْضًا قَدْ يُورِثُ العِلمَ وَإِنْ لَـمْ يَكـنْ إِخْبارٌ، فَلا يَبْعدُ أنْ تَنْضَـمَّ القَـرائِنُ إلى الإِخْبارِ، فَتَقومَ بَعْضُ القَرائِنِ مَقامَ بَعْضِ العَدَدِ مِنَ المُخْبِرينَ"[2].

وَيَسْتَرْفِدُ الغَزالِيُّ واقِعَةً مِنْ مَنْسوجِ خَيالِهِ مُحامِيًا بِها عَنْ نَظْرَتِه، مُجَلِيّاً لِفِكْرَتِهِ، مُعْتَمِدًا عَلى لُغَةِ الجَسَدِ وَالمُتَمّماتِ المُسانِدَةِ في نَسْخِ فِكرَةِ "العَددِ الكامِلِ لِحُصولِ العِلْمِ"، وَمُسْتَصْفاها أنّهُ لَوْ تَعَيّنَ أَنّ ثَـمّ حَدَثًا كَلامِيًّا مِضْمارُهُ إِخْبارُ خَمْسَةٍ أوْ سِتّةٍ عَنْ مَوْتِ إِنْسانٍ، فَإِنَّ ذلِكَ –أعْني الحَدثَ الكَلامِيَّ– يَغْدو مَعْضودًا بِقَرينَةٍ عُنْوانُها المَقامُ وَهَيْئاتُ المُتَكلّمينَ الجَسَدِيّةُ التي تُفْضي إلى حُصولِ العِلمِ الكامِلِ مِنَ الخَبَرِ، وَالقَرينَةُ هِيَ انْضِمامُ والِدِ المَيّتِ إلى الخَبَرِ وَالمُخْبِرينَ، وَهُوَ –مِنْ وُجهةٍ دِلاليّةٍ سِياقِيّةٍ أُخْرى تُعـدُّ قَرينـةً مُعَيّنـةً– مِـنْ ذوي المَناصِـبِ وَالمـروءةِ التـي تَبْعَثُنـا عَلـى إلحاقِـهِ بِرَكْـبِ مَـنْ يَنْتَسِبونَ إلى عِلْيَةِ القَوْمِ وَخاصّتِهم، وَلكنّهُ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ "حاسِرَ الرّأْسِ، حافِيَ الرّجْلِ، مُمَزَّقَ الثّيابِ، مُضطرِبَ الحالِ، يَصْفقُ وَجْهَه، وهُوَ رَجُلٌ كَبيرٌ ذو مَنْصِبٍ وَمُروءَةٍ، لا يُخالِفُ عادتَـهُ وَمروءَتَـهُ إلاّ عَـنْ ضَـرورَةٍ، فَيجـوزُ أنْ يَكـونَ هـذا قَرينَـةً تَنْضَـمُّ إلـى قَـوْلِ أولئِكَ، فَتَقومُ في التّأثيرِ مَقامَ بقيّةِ العَدَدِ"[3].

---

(1) انظر: الغزالي، المستصفى، 401/1، وانظر حديث ابن حزم عن هذه المسألة والعدد: الإحكام، 102/1.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 403/1.

(3) انظر: الغزالي، المستصفى، 406/1، وفي معرض حديث الآمدي عن هذه المسألة نقل عن =

حَقًّا أنَّ لِلغَةِ الجَسَدِ في مِثْلِ هذا المَوْقِفِ الأَثَرَ الفاعِلَ في تَشْكيلِ الدِّلالَةِ، وَالإبانَةِ، وَالتَّبْيينِ، وَأَنّها مِنْ وجْهةِ نَظَرِ الإمامِ سَدَّتْ مَسَدَّ العَدَدِ الكامِلِ لِحُصولِ العِلْمِ، فَخُروجُ والِدِ المَيّتِ في تِلكَ الأَوْصافِ الجَسَدِيّةِ، وَالحَرَكاتِ، وَالإيماءاتِ، قامَ مَقامَ "العَددِ الزّائِدِ لِحُصولِ العِلمِ" الذي يَعضدُ وُقوعَ الحَدَثِ الكَلامِيّ وَيُؤكِّدُهُ.

لُغَةُ الجَسَدِ ناسِخٌ أَمينٌ لِلاحْتِمالِ

وَلَيْسَ يَخْفى أنّ الكَلامَ، إنْ كَلِمَةً، وَإنْ جُمْلَةً، قَدْ يُشْكِلُ إنِ انْسَلخَ مِنْ سِياقِهِ وَمُلابَساتِ حُدوثِهِ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُنا: هذا حَديثٌ صَحيحٌ، فَقَدْ تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ، أوّلُهُما أنّها قيلَتْ في سِياقِ عِلمِ الحَديثِ وَما يَعقبُهُ مِنْ تَعْديلٍ، وَجَرْحٍ، وَبَيانٍ لِضُروبِ الأحاديثِ الشّريفَةِ، وَقَدْ تَكونُ في سِياقٍ آخَرَ المَقْصِدُ مِنْها أنّ الكَلامَ صَحيحٌ لا شُبْهَةَ عَليْهِ، وَلا شِيَةَ فيهِ، ومِنَ الظّاهِرِ أنَّ الإمامَ نَبّهَ إلى مِثْلِ هذا في مَواضِعَ مُتَفرّقَةٍ في مُسْتَصْفاه[1].

وَمِنْ ذلِكَ دِلالَةُ "الماءِ"، وَالطّريفُ في هذا أَنّنا جَميعًا نَلْتَقي عَلى دِلالَةِ الماءِ تَواضُعًا لِما رانَ عَلَيْهِ إلْفُنا اللّغَوِيُّ المُسْتَحْكِمُ، وَيَنْبَني عَلى هذا أنّنا نُجْمِعُ عَلى الدّلالَةِ المَرْكَزيّةِ المَرْكوزَةِ في الدّالِّ "الماءِ"، وَلكِنَّ لِلماءِ أَحْوالاً دِلالِيّةً تَتَبايَنُ بِتَبايُنِ أَحْوالِهِ في العالَمِ الخارِجِيّ، فَثمّ ماءٌ عَذْبٌ فُراتٌ، وَثانٍ مِلْحٌ أُجاجٌ، وَثالِثٌ آسِنٌ، وَرابِعٌ مِمّا نَسْقي بِهِ الأَنْعامَ وَالبَهائِمَ، وَمِنْ وُجْهةٍ اجْتِماعيّةٍ خارِجيّةٍ أُخْرى، ثَمَّ ماءٌ حَميمٌ، وَثانٍ بارِدٌ، وَثالِثٌ فاتِرٌ بَيْنَ بينَ، فَإذا ما ذُكِرَتْ كَلِمَةُ الماءِ مُطْلَقةً، فإلى أيّ ضَرْبٍ تُومِئُ؟ لَعَلّ الجَوابَ الشّافِيَ لا يَتَعَيّنُ إلاّ بِاسْتِرْفادِ السّياقِ، وَحالِ المُتَكلّمِ، وَالسّامِعِ، وَشَمائِلِهِما وَحَرَكاتِهِما الجَسَدِيّة، وَالمَكانِ، وَالزّمانِ، وَهذا ما أَلْمَحَ إلَيْهِ الإمامُ.

وَلَنا أَنْ نُسَرّحَ الخاطِرَ مَعَه مُتَخيّلينَ أنّ مائِدَةً التَقى عَلَيْها عائِلَةٌ، فَإذا ما قالَ رَبُّها عَلَيْها: "هاتِ الماءَ، فُهِمَ أنّه يُريدُ الماءَ العَذْبَ البارِدَ دونَ الحارّ المِلْحِ"[2]، كُلُّ ذلكَ

=

الغزالي كلامه ومثاله عن والد الميت وخروجه في الحال التي ذكرها الغزالي. انظر: الآمدي، الإحكام، 2/278-279.

(1) ومن الذين أشاروا إلى في فضل سياق الحال في رفع الاحتمال:
Soon, S., Lexical Ambiguity, P.61-73, Leech, Semantics, P.77.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 2/66.

مَعانٍ نَقْتَنِصُها بِهَدي مِنَ السّياقِ بِمَعْناه العَريضِ، وَقَدْ يُؤتَى الطّالِبُ بِالماءِ الحَميمِ في سِياقٍ مَقامِيٍّ آخَرَ، وَاللّطيفُ في هذا كلِّهِ أنَّ المُخاطِب لا يُعَيّنُ نَوْعًا مِنَ الماءِ، بَلْ يُرْسِلُ كَلامَهُ مُجْمَلاً مُعوّلاً عَلى المَعْنى الذي يَقْتضيهِ المَسْرَحُ المَقامِيُّ وَما يُرشّحُه مِنْ نَوْعٍ مَخْصوصٍ مِنَ الماءِ.

لُغَةُ الجَسَدِ وَالدّلالَةُ الصّوْتِيّةُ

ثُمّ يَلتَفِتُ الإمامُ إلى التّنْغيمِ، وَهُوَ مَطْلَبٌ صَوْتِيٌّ لَهُ خَطَرُه في الأَحْداثِ الكَلامِيّةِ الحَيّةِ، وَحَدُّه أنّهُ اخْتِلافُ دَرَجَةِ الصّوْتِ ارْتِفاعًا أوِ انْخِفاضًا، لِيَعْقبَ هذا التّبايُنَ الصّوتِيَّ تَباينٌ مَعْنَوِيٌّ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُنا في حَدَثٍ كَلامِيٍّ حَيٍّ: مُحَمّدٌ جاءَ، وَالحَقُّ أنّ انْسِلاخَ هذا التّرْكيبِ البِنْيويّ مِنْ سِياقِه يُفْضي إلى الوُلوجِ في الاحْتِمالِ مِنْ بَوّابَةٍ عَريضَةٍ، وَلَنْ يُرْفَعَ ذلكَ الاحْتِمالُ إلاّ بِاسْتِرْفادِ الحالِ، فَقَدْ تَكونُ الجُملةُ، عَلى هَيْئةِ تَنْغيمٍ مُعَيّنٍ، اسْتِفْهامِيّةً، وعَلى هَيْئةٍ أُخْرى تَعَجّبِيّةً، وعَلى نَحْوٍ ثالِثٍ خَبَرِيّةً، وَالظّاهرُ أنّهُ لا قِبَلَ لَنا بِتَعْيينِ هذِهِ المَعاني النّحْوِيّةِ في اللّغَةِ المَكْتوبَةِ إلاّ بِالعَوْدِ إلى عَلاماتِ التّرْقيمِ التي تَقومُ مَقامَ التّنْغيمِ، وَقَدْ أَشارَ صاحِبُ نَظَرِيّةِ السّياقِ إلى هذا المَلْحَظِ الفاعِلِ في الإبانَةِ وَتَعْيينِ المَقاصِدِ الكَلامِيّةِ، فَذَهَبَ إلى أنَّ "التّجافِيَ عَنِ الأَنْماطِ التّنْغيمِيّةِ في دِراسَةِ النّحْوِ تَجْعَلُها ناقِصةً قاصِرَةً، وَإلى أنّ دِراسَةَ اللّغَةِ المَنْطوقَةِ في عِلمِ المَعْنى الوَصْفيّ لا تَكونُ مُكْتَمِلةً إلاّ إذا اعْتَمَدتْ عَلى قَواعِدَ صَوْتِيّةٍ لأَنْماطٍ تَنْغيمِيّةٍ..."[1].

وَقَدْ عَدّ الإمامُ "التّنْغيمَ"، وَإنْ لَمْ يُصَرّحْ بِهذا المُصْطَلَحِ اللّسانِيّ الحَديثِ؛ إذْ لا مشاحَةَ في الأَلْفاظِ– قَرينَةً تَنْضافُ إلى مُحَدّداتٍ تُرشّحُ لمَعْنًى دونَ آخَرَ، وَمِثالُ ذلِكَ أنّنا نَعلَمُ قَصْدَ المُتَكلّمِ إذا قالَ –كَما يَقولُ الإمامُ-: "السّلامُ عَلَيْكُم، أنّهُ يُريدُ التّحِيَّةَ، أوْ الاسْتِهْزاءَ، أوِ اللّهْوَ"[2]، وَهكَذا يُقيمُ الغَزالِيُّ بَوْناً جَلِيّاً بَيْنَ مَعانٍ تَتَبايَنُ بِتَبايُنِ التّنْغيمِ وَهَيْئاتِ الجَسَدِ في سِياقٍ ما، فَقَدْ تَغْدو تَحِيّتُنا التي فيها سَلامٌ سُبّةً وَاسْتِخْفافًا بِمَنْ أُلقِيَتْ عَلَيْهِ إذا ما حِيكَتْ بِتَنْغيمٍ يُلتَمَسُ مِنْهُ الاسْتِهزاءُ لا السّلامُ، وَلا يَظْهَرُ ذلِكَ إلاّ بِهَيئةِ التّنْغيمِ المُعَيّنَةِ، وَما يُرافِقُها مِنْ أَحْوالٍ جَسَدِيّةٍ، وَحَرَكاتٍ، وَعَلائِمَ وَجْهِيّةٍ مَخْصوصَةٍ.

---

(1) انظر:

Firth, Paper in Linguistics, P.18.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 66/2.

ما وَراءَ الكَلامِ: لُغَةُ الجَسَدِ بَيْنَ المَسْكوتِ عَنْهُ وَالمَنْطوقِ بِهِ

وَعَلى صَعيدٍ لُغَويّ آخَرَ يُنبّهُ الغَزالِيُّ عَلى أَنّ دِلالَةَ الحَدَثِ الكَلامِيّ الكُلّيّةَ لا تُسْتَقى مِنَ الأَلْفاظِ وَحْدَها؛ ذلكَ أنَّ ثَمَّ مُحَدِّداتٍ أُخَرَ كَلامِيّةً وَغَيرَ كَلامِيّةٍ تَفْعلُ في تَشْكيلِ المَعْنى وَتَعْيينِهِ، وَلِذا تَلقَى القارِئَ، في ثِنْيِ قَراءَتِهِ لِلمُسْتَصْفى، إِشاراتٌ وَمَلاحِظُ مُعْجِبَةٌ تُنْبِئ عَنْ إِلْحاحِ الغَزالِيّ عَلى هذا المَطْلَبِ، وهُوَ القائِلُ: "فَاعْلَمْ أنّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ المَعانِيَ أوّلاً مِنَ الأَلْفاظِ ضاعَ وَهَلَكَ، وَكانَ كَمَنِ اسْتَدْبَرَ المَغْرِبَ وَهُوَ يَطْلُبُهُ"[1].

وَفي مَقامٍ آخَرَ عَرّجَ عَلى مَباحِثَ مَضْمونُها ما يُقتَبَسُ مِنَ الأَلْفاظِ لا مِنْ حَيْثُ صيغَتُها، بَلْ مِنْ حَيْثُ فَحْواها وَإِشارَتُها، ومِنْ ذلِكَ ما يُؤْخَذُ مِنْ إِشارَةِ اللّفْظِ لا مِنَ اللّفْظِ، فَالمُتَكلّمُ قَدْ يُفْهِمُ بِإِشارَتِهِ وَحَرَكتِهِ في أَثْناءِ كَلامِهِ ما لا يَدلُّ عَلَيْهِ نَفْسُ اللّفظِ، وَقَدْ وَسَمَ هذا بِالإِشارَةِ[2]، وَما كانَ أكْثَرَ هذا المَلْحَظَ في كَلامِنا وَمُخاطَباتِنا اليَوْمِيّةِ.

وَمِنْ مُثُلِ ما تَقَدّمَ تَعْريجَةُ الغَزالِيّ عَلى مَبْحَثٍ عُنْوانُه "فَهمُ غَيْرِ المَنْطوقِ بِهِ مِنَ المَنْطوقِ بِدلالَةِ سِياقِ الكَلامِ وَمَقْصودِهِ"[3]، وَعَلى صَعيدٍ لِسانِيٍّ غَرْبِيٍّ، تَتَجلّى لِلقارِئِ مُفارَقَةٌ لَطيفَةٌ بَيْنَ كَلامِ الإِمامِ وَكَلامِ "جون لاينز"، فَقَدْ أَشارَ الأَخيرُ إِلى أنّ مَعْنى الكَلِمَةِ يَتَجاوَزُ ما يُقالُ؛ ذلكَ أنّهُ يَتَضمّنُ ما هُوَ مَقْصودٌ ضِمْنًا، أَوْ ما يُفْتَرَضُ قَبْلاً، وَلِلسّياقِ صِلَةٌ وَثيقَةُ العُرى بِهذا الجُزْءِ مِنْ مَعْنى الوَحَداتِ الكَلامِيّةِ[4]، وَفي مَقامٍ آخَرَ يَلتَمِسُ "لاينز" أنَّ ثَمّ مَسْكوتًا عَنْه أَوْلى مِنَ المَنْطوقِ بِهِ، وَفي هذا يَقولُ في بابِ "الاسْتِدلال وَالتّضْمين": "هُناكَ مَعْنًى اعْتِيادِيٌّ لِلفِعْلِ "Imply"؛ إِذْ بِوُسْعِنا أَنْ نَعْنِيَ ضِمْنًا، بَلْ إِنّنا نَعْني ضِمْنًا، في العادَةِ، شَيْئًا ما بِواسِطَةِ وَحَداتِنا الكَلامِيّةِ يَخْتَلفُ عَمّا نَقولُهُ فِعْلاً"[5].

---

(1) انظر: الغزالي، المستصفى، 55/1.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 220/2.

(3) انظر هذه المباحث: الغزالي، المستصفى، 217/2-225.

(4) انظر:

Lyons, J., Language, Meaning, & Context, P.201.

(5) انظر:

Lyons, Language, P.207.

وَأحْسَبُ أنّ هذا يَلْتَقي مَعَ قَوْلِ الإمامِ، وَمُسْتَصْفاه أَنّ المُتَمَسِّكَ بِالمَفْهومِ وَالفَحْوى لَيْسَ مُتَمَسِّكًا بِلَفْظٍ، بَلْ بِسُكوتٍ[1]، ولَيْسَ يَخْفى أَنّ تِلْكَ مَوْضوعاتٌ لُغَوِيّةٌ دِلالِيّةٌ يَتَعَيّنُ المَقْصِدُ مِنْها بِالنّظَرِ إلى السّياقِ وَما يَكْتَنِفُهُ مِنْ أَنْظارٍ وَمُلابَساتٍ وَمَقامِيّاتٍ تُنْبِئُ عَنِ المَعْنى، وَهُنا يَقْفِزُ إلى الخاطِرِ مَلْحَظٌ لُغَوِيٌّ دِلالِيٌّ تَواصُلِيٌّ مَفادُه أَنّ المَرْءَ قَدْ يَرْمي إلى مَسْكوتٍ عَنْهُ جانِحًا إلى مَنْطوقٍ بِهِ، وَالقُطْبُ الثّاني مِنَ الحَدَثِ الكَلامِيّ يَقْتَنِصُ هذِهِ الدّلالَةَ المَسْكوتَ عَنْها وَفاءً بِلَحْنِ القَوْلِ، وَفَحْواهُ، وَلُغَةِ الجَسَدِ، وَالإشارَةِ، وَالإيماءِ[2].

لُغَةُ الجَسَدِ وَتَعْريفُ الخَبَرِ

وَفي مَعْرِضِ تَعْريجَةِ الإمامِ عَلى حَدِّ الخَبَرِ يَذْكُرُ تَعْريفًا جامِعًا لا مانِعًا؛ إِذْ إِنّه قَدْ أُثِرَ، عَلى وَجْهٍ مِنَ التّحكّمِ، أَنّ الخَبَرَ هُوَ القَولُ الذي يَتَطَرّقُ إِلَيْهِ التّصْديقُ أَوِ التّكْذيبُ، وَمِنْ مِثْلِ ذلِكَ قَوْلُنا: زَيْدٌ قائِمٌ[3]، وَلكِنَّ الغَزالِيَّ قَلّبَ هذا التّعْريفَ فَأَلْفاهُ قاصِرًا، وَالباعِثُ عَلى هذا أَنّهُ فَزِعَ إِلى اسْتِرْفادِ سِياقِ الحالِ عامّةً، وَلُغَةِ الجَسَدِ خاصّةً، فَقَوْلُنا: "زَيْدٌ قائِمٌ" قَدْ يَكونُ خَبَرًا، وَقَدْ يَنْتَفي عَنْهُ الإِخْبارُ، فَإِذا ما صَدَرَ مِنْ نائِمٍ يَهْذي، أَوْ مِمَّنْ انْتَشى بِسُكْرٍ غَلَبَه، فَإِنّه لا يَكونُ خَبَرًا البَتّةَ، "بَلْ يَصيرُ خَبَرًا بِقَصْدِ القاصِدِ إِلى التّعْبيرِ عَمّا في النّفْسِ"[4].

وَالذي يَظْهَرُ لِلمُتَبَصِّرِ مِنْ كَلامِ الإمامِ أَنّهُ يَسْتَبْطِنُ مَقامِيّاتِ الحَدَثِ الكَلامِيّ وَأَقْطابَهُ إِنْ مُرْسِلاً، وَإِنْ مُسْتَقْبِلاً، حَتّى يَصِلَ إِلى تَعْريفٍ جامِعٍ مانِعٍ لا شِيَةَ عَلَيْه، وَمِنْ ذلِكَ حالُ المُتَكَلِّمِ، وَالقَصْدُ، وَالظّرْفُ الذي يَشْتَمِلُ عَلى ذلِكَ الحَدَثِ الكَلامِيّ، وَاللّفْتَةُ اللّطيفَةُ في الكَلامِ المُتَقَدِّمِ آنِفًا أَنّ الإمامَ يَنظُرُ إِلى اللّغَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ قيمَةٌ تواصُلِيّةٌ لَها قُطْبانِ يَتَجاذبانِ أَطْرافَ الحَدَثِ الكَلامِيّ، فَلا يَكونُ الخَبرُ عِنْدَه إِلاّ بِالتّواصُلِ وَالقَصْدِ

(1) انظر: الغزالي، المستصفى، 115/2.

(2) يضرب Mehrabian أمثلة عديدة على اقتناص المسكوت عنه لا من المنطوق به اعتمادا على لغة الجسد والإيماءات والنغمة والتنغيم، ويسميه "الرسالة الصامتة". انظر:
Albert Mehrabian, Silent Messages, P.47.

(3) انظر: الغزالي، المستصفى، 394/1.

(4) انظر: الغزالي، المستصفى، 394/1.

وَالمَقامِ، وَإِلاّ كانَ كَلامًا سائِحًا في هَواءٍ طَلْقٍ لا يَتَعيّنُ مِنْهُ وَظيفَةٌ دِلالِيّةٌ وَلا تواصُلٌ، وَقَدْ بَيّنَ الآمِديُّ الأُصوليُّ أنَّ الخَبَرَ قَدْ يُطْلَقُ عَلى الدّلائِلِ المَعْنويّةِ، وَالإِشاراتِ الحالِيّةِ، "كَما في قَوْلِهِمْ: عَيْناكَ تُخْبِرُني، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلى قَوْلٍ مَخْصوصٍ"[1].

المُسْتَصْفى مِنَ "المُسْتَصْفى"

وَيَعِنّ لي، وَأَنا أُمْسِك عِنانَ القَلَمِ عَنِ الكِتابَةِ، أَنْ أَقِفَ، وَلَوْ عَلى هَيْئَةٍ مِنْ مُقْتَضَبِ القَوْلِ، عِنْدَ أَجْلى ما وَرَدَ في هذِهِ المُباحَثَةِ لِيَكونَ هذا الصّنيعُ اسْتِصْفاءً وَتَجْلِيَةً:

- وَأوّلُ ذلِكَ أَنَّ مَفْهومَ المَعْنى عِنْدَ الإِمامِ الغَزالِيّ واسِعٌ فَضْفاضٌ يَسْتَغْرِقُ ما هُوَ لَفْظِيٌّ، وَما هُوَ غَيْرُ لَفْظِيٍّ، وَفي عِلْمِ الدِّلالَةِ يَقِفُ أَشْياعُ هذا الدَّرْسِ عِنْدَ مَعانٍ غَيْرِ لُغَويّةٍ تُسْتَقى مِنْ دِلالَةِ الجَوارِحِ خاصّةً، وَلُغَةِ الجَسَدِ عامّةً، وَهِيَ تَنْضافُ إِلى المَعاني اللّغَويّةِ؛ كَالصَّرْفِيّةِ، وَالنّحْوِيّةِ، وَالمُعْجَمِيّةِ، وَقَدْ وَقَفَ عِنْدَها الإِمامُ الغَزالِيُّ وَقَفاتٍ طَويلَةً وَقَدْ صارَ أَمْرُها في تَشْكيلِ المَعْنى عَتيدًا مُطَّرِدًا في مُسْتَصْفاهُ، فَعَرّجَ عَلى حَرَكَةِ المُتَكَلِّمِ، وَتَغَيّرِ لَوْنِهِ، وَتَقْطيبِ وَجْهِهِ وَجَبينِهِ، وَحَرَكَةِ رَأسِهِ، وَتَقْليبِ عَيْنَيْهِ، كُلُّ ذلِكَ جَعَلَهُ الإِمامُ قِيَماً دِلاليّةً تَواصُليّةً مُسْتقلّة تفْعَلُ في تَشْكيلِ المَعْنى.
- وثاني ذلِكَ أنَّ في الدَّرْسِ اللِّسانِيّ الحَديثِ بَيانًا عَنْ نَظريّةِ "فيرث" وَأشياعِهِ(context of situation)، وَفيها حَديثٌ عَنِ الأَنْظارِ الخارِجِيّةِ، وَالمَقامِيّاتِ، وَحالِ المُتَكلِّمِ وَالسّامِعِ، وَالمَكانِ وَالزَّمانِ، وَقَدْ تَجلّى هذا البُعدُ الدِّلاليُّ الوَظيفِيُّ عِنْدَ الإِمامِ في رَسْمِهِ دِلالَةَ الحَدَثِ الكَلامِيّ، فَعَرّجَ في مُسْتَصْفاه عَلى قُطْبَي الحَدَثِ الكَلامِيّ، وَالعَلاقَةِ بَيْنَهُما، إِنْ مُرْسِلاً وَإِنْ مُسْتَقْبِلاً، وَمَقامِ الحَديثِ، وَأَثَرِ الزّمانِ، وَالمَكانِ في تَشْكيلِ دِلالةِ الحَدَثِ الكَلاميّ، وَكَذلِكَ عَرَّجَ عَلى الهَيْئاتِ الجَسَديّةِ، وَالأَحْوالِ الخارِجِيّةِ التي تُفْضي بِمَعانٍ لا تَتَعيّنُ مِنْ جَسَدِ اللّغَةِ.
- وَثالِثُها مَقولَةٌ في الدَّرْسِ اللِّسانِيّ الحَديثِ ذاهِبَةٌ إِلى أنّ المَعْنى كُلٌّ مُرَكَّبٌ مِنْ مَقاميّاتٍ خارِجيّةٍ، وَمُسْتَوَياتٍ بِنْيَويّةٍ لُغويّةٍ داخِلِيّةٍ، وَهذا هُوَ مَذْهبُ الإِمامِ في رَسْمِهِ لِحُدودِ "المَعْنى" مِنْ وجْهَةٍ دِلالِيّةٍ تَواصُلِيّةٍ، فَأتى في مُسْتَصْفاه بِالتّنْظيرِ وَالتّطْبيقِ عَلى السِّياقَيْنِ: التّرْكيبِيّ وَالمَقامِيّ وَما يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ هذا الأَخيرُ مِنْ رَوافِدَ تَفعَلُ في تَشْكيلِ المَعْنى، أَوْ تَوْضيحِهِ، أَوْ تَعْزيزِهِ، أَوْ قَلْبِ دِلالَةِ المَنْطوقِ قَلْبًا تامًّا.

---

(1) انظر: الآمدي، الإحكام، 247/2.

الفَصْلُ الخامِسُ

لُغَةُ الجَسَدِ في التّراثِ الفِراسِيِّ

الرازِيُّ نَموذجًا

"اعلـمْ أَنَّ دِلالَـةَ الوَجْـهِ عَلى الأَحْـوالِ النَّفْسـانيّةِ أتـمُّ مِـنْ دِلالَةِ سائِرِ الأعْضاءِ عَلَيْها، فَالأَحْوالُ الظّاهِرَةُ في الوَجْهِ قَوِيّةُ الدِّلالَةِ عَلى الأَخْلاقِ الباطِنَةِ، فَإنَّ لِلخَجالَةِ لَوْنًا مَخْصوصًا في الوَجْهِ، وَلِلخَوْفِ لَوْنًا آخَرَ، وَلِلغَضَبِ لَوْنًا ثالِثًا، وَلِلفَرَحِ لَوْنًا رابِعًا، وَهذِهِ الأَلْوانُ مَتى حَصَلَتْ في الوَجْهِ فَإنّهُ يُقَوّي دِلالتَها عَلى الأَخْلاقِ الباطِنَةِ وَالأَحْوالِ النَّفْسانِيّةِ، فَثَبَتَ أَنَّ دِلالَـةَ الأَحْـوالِ الظّـاهِرَةِ المَوجـودَةِ فـي هـذا العُضْـوِ أَتَـمُّ مِـنْ دِلالَةِ الأَحْوالِ الظّاهِرَةِ المَوْجودةِ في سائِرِ الأَعْضاءِ".

الرازي، الفراسة، 149.

مِهادٌ وَتَأْسيسٌ

وَفي عِلْمِ الفِراسَةِ، إنْ جازَ لأَشْياعِهِ أنْ يُسْبِغوا عَلَيْهِ وَسمَ "عِلم"، شَذَراتٌ كَثيرَةٌ تُنْبِئُ عَنْ مَلحَظَيْنِ مُتلازِمَيْنِ أَوَّلُهُما فَضْلُ الجَسَدِ وَالهَيئاتِ العامّةِ في الإبانَةِ وَالوِشايةِ عَنْ مَكْنوناتِ النَّفْسِ المُستَتِرَةِ، وَثانيهما التِفاتُ المُصنِّفينَ في هذا العِلْمِ أطبّاء وَفَلاسفةً إلى فَضلِ الجَسَدِ وَهَيئاتِهِ المُتباينَةِ بِتَباينِ الأَحْوالِ في نَصبِ دِلالاتٍ مَخْصوصَةٍ يَكادونَ يُجمِعونَ عَليْها، وَالحَقُّ أَنَّ الذي تَترسّمُهُ هذِهِ المُباحَثةُ في هذا المِضْمارِ الوُقوفُ عَلى عِلْمِ الفِراسَةِ تَعْريفِهِ أوّلاً، وَنَشأتِهِ ثانِيًا، وَفَضيلتِهِ ثالثًا، وَأقْسامِهِ رابِعًا، وَالعُلومِ المُتّصلَةِ بِهِ خامِسًا، وَالطّرقِ التي يُعرَفُ بِها أخلاقُ النّاسِ سادِسًا، وَدِلالاتِ الأَعضاءِ سابِعًا:

تَعريفُهُ مِنْ مَنْظورِ "لُغَةِ الجَسَدِ":

أَمّا الذي يَأْتي أوّلاً فَتَعريفُهُ، فَهُوَ كَما وَرَدَ عِندَ الرّازِيّ الاسْتِدْلالُ بِالأَحْوالِ الظّاهِرَةِ عَلى الأَخْلاقِ الباطِنَةِ[1]، وَقيلَ: هُو عِلمٌ مِنَ العُلومِ الطَّبيعِيّةِ تُعْرَفُ بِهِ أَخْلاقُ النّاسِ الباطِنَةُ مِنَ النَّظَرِ إلى أحْوالِهِم الظّاهِرَةِ، كَالألْوانِ، وَالأَشْكالِ، وَالأعْضاءِ[2]، وَما مِنْ رَيْبٍ أَنَّ هذا التَّعريفَ يَتَماهى إلى حَدٍّ كَبيرٍ مَعَ لُغَةِ الجَسَدِ وَإبانَتِها، فَالوُقوفُ عَلى مَكْنوناتِ النَّفْسِ، وَالمَعاني المُسْتَتِرَةِ فيها، قائِمٌ في عِلْمِهِم عَلى وِشاياتٍ مِنَ الجَسَدِ والهَيئاتِ العامّةِ، وَلْنَقلْ بِعبارَتِهِمْ: قائِمٌ عَلى الأَحْوالِ الظّاهِرةِ.

وَقَدْ عَلّلَ ذلِكَ الرّازِيُّ بِإلماحَتِهِ إلى أَنَّ المزاجَ إمّا أَنْ يَكونَ هُو النَّفْسَ، وَإمّا أَنْ يَكونَ آلَةَ النَّفْسِ في أفْعالِها، وَعَلى كِلا التَّقْديرَيْنِ فَالخَلْقُ الظّاهِرُ والخُلُق الباطِنُ لا بُدَّ أنْ يَكونا تابِعَيْنِ لِلمزاجِ، "وَإذا ثَبتَ هذا كانَ الاسْتِدلالُ بِالخَلْقِ الظّاهِرِ عَلى الخُلُقِ الباطِنِ جارِيًا مَجْرى الاسْتِدلالِ بِحُصولِ أحَدِ المُتلازِمَيْنِ عَلى حُصولِ الآخَرِ، وَلا شَكَّ أَنّهُ نَوْعٌ مِنَ الاعْتِبارِ صَحيحٌ"[3].

---

(1) انظر: الرازي، الفراسة، 94، وابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 45.

(2) انظر: جرجي زيدان، علم الفراسة الحديث، 5.

(3) انظر: الرازي، الفراسة، 95، والأنصاري، السياسة في علم الفراسة، 16.

نَشْأتُهُ:

وَأَمّا الذي يَأْتي ثانِيًا فَنَشْأتُهُ، فَقَدْ قيلَ إنَّ هذا العِلْمَ لَيْسَ بِعَرَبِيّ المَولِدِ وَلا النّشأةِ، وَلَيْسَ المَقامُ بِمُتَّسِعٍ لِتَتَبّعِ نَشْأتِهِ وَتَفحّصِها، فَقَدْ قيلَ إنَّ الفِراسَةَ لَمْ تُدوَّنْ وَلَمْ تُعَدَّ عِلمًا قائِمًا بِرأسِهِ قَبلَ ما كتَبَهَ الفَيْلسوفُ اليونانِيُّ "أرسطو" في القَرنِ الرّابِعِ قَبْلَ الميلادِ، وَقَد خَصَّص "أرسطو" لِهذا العِلْمِ سِتّةَ فُصولٍ مُؤَسِّسةٍ، فَذَكَرَ في الإِنْسانِ عَلاماتٍ تُنْبِئُ عَنْ قُوّةِ ذَكائِهِ أَوْ ضَعْفِها، أوْ غَباوَةِ الإِنْسانِ أوْ بَلادَتِهِ مُسْتَدلاً عَلى ذلِكَ بِالمَلامِحِ الجَسَدِيّةِ، وَالأَلوانِ، وَأَشْكالِ الشَّعْرِ، وَالأَعضاءِ، وَالقامَةِ، وَالصَّوْتِ، وَغَيْرِ ذلِكَ[1]، وَقَدْ قيلَ إنَّ "هوميروس" الشّاعِرَ اليونانِيَّ كَتَبَ شَيْئًا مِنْها في عِلْمِ الكَفِّ في القَرْنِ العاشِرِ قَبْلَ الميلادِ تَقْريبًا، وَأَنْكَرَ بَعْضُ الدّارِسينَ ذلِكَ[2].

فَضيلَتُهُ:

أَمّا الذي يَأْتي ثالِثًا فَفَضيلَةُ هذا العِلْمِ، وَقَدْ قَرَّر الرّازِيُّ أَنَّ لَهُ فَضيلَةً وَمَزِيّةً مُسْتَدِلاً عَلَيْهِما بِأدِلّةٍ عَقْليّةٍ وَنَقْليّةٍ، أَمّا النّقْليّةُ فَقَدْ فاءَ إِلَيْها في الكِتابِ وَالسُّنّةِ الشَّريفَيْنِ، فَقَدْ وَرَدَتْ فيهِما إِشاراتٌ تُنْبِئُ عَن فَضْلِهِ، وَتُلْمِحُ إِلَيهِ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُ الحَقِّ -تَقدَّسَ اسمُهُ-:

- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[3].
- وَقَولُهُ: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴿٢٧٣﴾﴾[4].
- وَقَولُه: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[5].
- وَقَولُهُ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[6].

أَمّا بَيانُ فَضيلةِ هذا العِلمِ مِنَ السُّنّةِ النّبويّةِ المُطَهَّرةِ فَقولُهُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

---

(1) انظر: جرجي زيدان، علم الفراسة الحديث، 6.

(2) انظر: جرجي زيدان، علم الفراسة الحديث، 5.

(3) الآية (الحجر، 75).

(4) الآية (البقرة، 273).

(5) الآية (محمد، 30).

(6) الآية (الفتح، 29).

"اتّقوا فِراسَةَ المُؤْمنِ؛ فَإنّهُ يَنْظرُ بِنورِ اللهِ"[1].

أَمّا العَقْليّةُ فَقَدِ اسْتَدَلَّ عَلَيْها مِنْ وُجوهٍ وَأَنْظارٍ اجتِماعِيّةٍ، وَتَواصُليّةٍ، وَطِبّيّةٍ:

- الأوّلُ: أَنَّ الإِنْسانَ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ، وَلا يَنْفَكُّ عَنْ مُخالَطَةِ النّاسِ، وَالشّرُّ فاشٍ في النّاسِ، فَإِذا كانَتْ هذِهِ الصّناعَةُ تُفيدُنا مَعْرِفَةَ أَخْلاقِ النّاسِ في الخَيْرِ وَالشّرِّ كانَتِ المَنْفَعَةُ جَليلَةً.
- الثّاني: أَنَّ راضَةَ البَهائِمِ يَسْتَدِلّونَ بِالصِّفاتِ المَحْسوسَةِ لِلخَيْلِ وَالبِغالِ وَالحَميرِ وَسائِرِ الحَيَواناتِ التي يُريدونُ رِياضَتَها عَلى أَخْلاقِها الحَسَنةِ وَالقَبيحَةِ، فَإِذا كانَ هذا المَعْنى ظاهِرَ الحُصولِ في حَقِّ البَهائِمِ، وَالسِّباعِ، وَالطّيورِ، فَلأَنْ يَكونَ مُعْتَبَرًا في حَقِّ النّاسِ أَوْلى.
- الثّالثُ: أَنَّ أُصولَ هذا العِلْمِ مُسْتَنِدةٌ إِلى العِلْمِ الطّبيعِيّ، وَتَفْريعاتِهُ مُقَرَّرَةٌ بِالتّجارِبِ، وَكانَ مِثْلَ الطِّبّ سَواءً بِسواءٍ، فَكلُّ طَعْنٍ يَتَوجّهُ إِلى هذا العِلْمِ فَهُوَ بِعَيْنِه مُتَوَجّهٌ إِلى الطّبِّ[2].

وَالظّاهِرُ أَنَّ اسْتِدلالَ الرّازِيّ العَقلِيَّ إِنّما كانَ مُنْبَنِيًا عَلى ثلاثَةِ أَنْظارٍ:

- اجتِماعِيّةٍ، وَفيها إِشارَةٌ إِلى أَنَّ الإِنْسانَ مَدنِيٌّ بِالطّبعِ.
- وَتَواصُليّةٍ، وَفيها إِشارَةٌ إِلى المَعاني التي تَقومُ في النَّفْسِ آنَ تَرويضِ البَهائِمِ وَفاءً بِما يُرى في وُجوهِها وَمِنْ هَيئاتِها.
- وَطِبّيّةٍ قَصَدَ مِنْها المَحاماةَ عَنْ هذا العِلمِ؛ ذلِكَ أَنّهُ رأى فيهِ عِلْميّةً كَعِلْميّةِ الطّبِّ.

أَقْسامُهُ:

أَمّا الذي يَأْتي رابِعًا فَأَقْسامُهُ، فَقَدْ قَرَّرَ أَنّهُ عَلى قِسمَيْنِ، وَالحَقُّ أَنَّ أَوّلَ القِسْمَينِ لا يَنْتَسِبُ إِلى مُباحَثَتِنا هذِهِ؛ أَعْني لُغَةَ الجَسَدِ، وَأَنَّ القِسْمَ الثّانِيَ مُنْتَسِبٌ لَها في شَطْرٍ مِنْه، أَمّا القِسْمُ الأَوّلُ مِنْ أَقْسامِ الفِراسَةِ فَهُوَ مُعْتَمِدٌ عَلى الخَواطِرِ التي تَرِدُ عَلى القَلْبِ آنَ

(1) أخرجه الترمذي في السنن، باب "من سورة الحجر"(3127)، 298/5، والطبراني في الأوسط، باب من اسمه بكر(3254)، 312/3، والشهاب القضاعي، في المسند، باب "اتقوا فراسة المؤمن"(433)، (663)، 387/1، وانظر: الرازي، الفراسة، 95، والأنصاري، السياسة في علم الفراسة، 14.

(2) انظر: الرازي، الفراسة، 95-96.

الرّؤْيَةِ وَالتّبَصُّرِ، فَقَدْ يَحْصُلُ خاطِرٌ في القَلْبِ أَنَّ هذا الإِنْسانَ مِنْ حالِهِ وَصِفَتِهِ كَذا وَكَذا مِنْ غَيْرِ أنْ يَدُلَّ عَلى ذلِكَ عَلامَةٌ جِسْمِيّةٌ أوْ إِشارَةٌ مَحْسوسَةٌ، وَالسَّببُ فيهِ ما ثَبَتَ أَنَّ جَواهِرَ النُّفوسِ النّاطِقةِ مُخْتلفَةٌ بِالماهِيّاتِ، فَمِنْها ما يَكونُ في غايَةِ الإِشْراقِ وَالتّجلّي وَالبُعْدِ عَنِ العَلائِقِ الجِسْمِيّةِ، وَمِنْها ما لا يَكونُ، "وَكَما أَنَّ النَّفْسَ تَقْدرُ عَلى مَعْرِفَةِ الغُيوبِ في حالِ النَّوْمِ، فَكَذلِكَ النَّفْسُ المُشْرِقةُ الصّافِيَةُ قَدْ تَقدِرُ عَلى مَعْرِفَةِ المُغَيَّباتِ حالَ اليَقَظَةِ، وَالنُّفوسُ التي شَأنُها ذلِكَ تَكونُ أيْضًا مُخْتلِفةً في هذا المَعْنى في الكَمِّ وَالكَيْفِ، وَهذا القِسْمُ مِمّا لا نَذْكُرُه في هذا الكِتابِ"[1].

أَمّا القِسْمُ الثّاني مِنْ هذا العِلْم فَهُوَ ذو عُرْوَةٍ وُثْقى بِمَبْحثِ لُغَةِ الجَسَدِ الذي نَحنُ فيهِ، وَهُو الاسْتِدلالُ بِالأَحْوال الظّاهِرَةِ عَلى الأَخْلاقِ الباطِنَةِ، وَقَدِ التَفَتَ الرّازِيُّ إِلى ذلِكَ التِفاتَةً مُعْجِبَةً، فَقَدْ قَرَّرَ أَنّهُ "عِلْمٌ يَقينِيُّ الأُصولِ، ظَنّيُّ الفُروعِ"[2]، وأَنّهُ قَدْ يُحْكَمُ بِمُقتَضى الأَحْوالِ الظّاهِرَةِ المَحْسوسَةِ في الجَسَدِ عَلى الأَحْوالِ الباطِنَةِ، "وَهذا النّوْعُ مِنْ عِلْمِ الفِراسَةِ هو الذي يَجْري فيهِ التَّعْليمُ وَالتّعَلّمُ"[3]، والأُمورُ الظّاهِرَةُ مُتَباينَةٌ مِنْها الأَلْوانُ، وَالأَسْنانُ، وَالأَجْناسُ، وَالسَّحَناتُ، وَالأَشْكالُ وَغَيْرُها مِنَ الأُمورِ التي يَطولُ بَيانُها في هذا البابِ[4].

العُلومُ المُتّصِلَةُ بِهِ:

أَمّا الذي يَأْتي خامِسًا فَالعُلومُ المُتّصِلَةُ بِهِ، وَأعْرَفُها عِلْمُ الاخْتِلاجِ وَالضَّرَبانِ، فَهُوَ حَرَكةُ العُضْوِ حَرَكَةً غَيْرَ إِرادِيّةٍ مُرتَبِطَةً بِأَسْبابٍ عُلْويّةٍ؛ ذلِكَ أَنَّ العالَمَ العُلْوِيَّ مُرْتَبِطٌ بِالعالَمِ السّفْلِيّ، وَمُتَطابِقانِ في الأَحْكامِ الإِرادِيّةِ، وَالشّؤونِ الكُلّيّةِ وَالجُزْئِيّةِ بِتَقْديرِ العَزيزِ الحَكيمِ، وَمِنْهُ اخْتِلاجُ الرَّأسِ، وَالعَيْنَيْنِ، وَالحاجِبَيْنِ، وَالخَدَّينِ، وَغَيْرِ ذلكَ[5]، وَقَد أضافَ الرّازِيُّ إِلى ذلِكَ ما يوجَدُ في أَبْدانِ النّاسِ مِنَ الشّاماتِ وَالخيلانِ، وَما

(1) انظر: الرازي، الفراسة، 96-97.

(2) انظر: الرازي، الفراسة، 97.

(3) انظر: الرازي، الفراسة، 97.

(4) انظر: الرازي، الفراسة، 101.

(5) انظر: الطوخي، الدراسة في علم الفراسة، 7.

يوجَدُ في أَبْدانِ الخَيْلِ مِنَ الدّوائِرِ التي سَمَّتْها العَرَبُ بِأَسْماءٍ مَخْصوصَةٍ[1]. وَالحَقُّ أَنَّ ذلِكَ كلَّه لَيْسَ لَه نَسبٌ بِموضوعِ مُباحَثَتِنا لُغَةِ الجَسَدِ.

وَمِنَ العُلومِ المُتَّصِلةِ بِعِلْمِ الفِراسَةِ الاسْتِدلالُ بِالخُطوطِ المَوجودَةِ في الأَكُفِّ وَالأَقْدامِ، فَقَدْ يوجَدُ لَها في التّقاطُعِ، وَالتّبايُنِ، وَالطّولِ، وَالقِصَرِ، دِلالاتٌ مُخْتلِفةٌ، وَكَذلِكَ فيما يوجَدُ بَيْنَها مِنْ فُرَجٍ مُتّسِعةٍ أَوْ مُتَضايِقَةٍ مِنْ أَشْكالٍ يَأْخُذُ مِنْها أَصحابُ الفِراسَةِ دِلالاتٍ أُخْرى يَعتَبِرونَها في أَبْوابِ المَعْرِفَةِ، وَيَحْكُمونَ بِها بِطولِ العُمُرِ تارَةً، أَوْ بِقِصَرِهِ، وَبِالسَّعادَةِ أَوِ الشَّقاوَةِ، وَالغِنى أَوِ الفَقْرِ، وَقَدْ فاءَتْ إِلى هذا الضَّربِ مِنَ الفِراسَةِ العَرَبُ، فَقَدْ جاء في مُعاتَبَةِ الأَعْشى لِمَنْ تَوعَّدَ بِالإِضْرارِ بِهِ:

فَانْظُرْ إِلى كَفّي وَأَسْرارِها هَلْ أَنْتَ إِنْ وَعَدْتَني صابِري[2]

وَمِن هذِهِ العُلومِ صِناعَةُ القِيافَةِ؛ قِيافَةِ الأَثَرِ وَالبَشرِ، أَمّا الأَثَرُ فَيَكونُ بِتَتَبّعِ آثارِ الأَقْدامِ وَالأَخْفافِ وَالحَوافِرِ في الطّرقِ القابِلَةِ لِلأَثَرِ، فَلِلقَدَمِ أَثَرٌ قَدْ يَتَجَلّى عَلى التّرابِ، والقائِفُ قَدْ تَهيّأَ لَه بِهذِهِ الصّناعةِ أَنْ يَتَتَبّعَ الآثارَ حَتّى يَصِلَ إِلى الأَماكِنِ التي ذَهَب إِلَيْها الهارِبونَ مِنَ النّاسِ، وَضَوالُّ الحَيوانِ، "فَيَنتفِعُ النّاسُ بِصاحِبِ هذِهِ الصَّنْعةِ انْتِفاعًا ظاهِرًا في دَركِ الطّلَباتِ، وَوجْدانِ الضَّوالّ، وَهذِهِ الصَّنعَةُ قَوامُها القُوّةُ الباصِرةُ، وَقَوّةُ القُوّةِ المُتَخيّلة وَالحافِظة"[3]. أَمّا قِيافةُ البَشَرِ فَهِيَ صِناعةٌ يُسْتَدَلُّ بِها عَلى مَعْرِفَةِ الأَنْسابِ، وَإِنّما سُمِّيَتْ قِيافَةً لأَنَّ صاحِبَها يَنظُرُ في بَشَراتِ النّاسِ وَجُلودِهِم وَما يَتْبَعُ ذلِكَ مِنْ هَيئاتِ الأَعْضاءِ، فَيَسْتَدِلُّ بِتِلْكَ الأَحْوالِ الجَسديّةِ الظّاهِرَةِ عَلى حُصولِ النَّسبِ[4].

وَمِنَ العُلومِ المُناسِبَةِ لِعِلْمِ الفِراسَةِ حُكمُ مُهَندِسِ المِياهِ وَمُسْتَنبِطِها في البِقاعِ السَّهليّةِ وَالجَبلِيّةِ لإِخْراجِ الأَنْهارِ، وَرَفْعِها إِلى وَجْهِ الأَرْضِ، فَإِنَّ هذِهِ الصَّنعَةَ فيما يَعْظُمُ نَفْعُها في عمارَةِ البُلدانِ، وَإِحْياءِ المَواتِ مِنَ البِقاعِ، فَيَحْتاجُ صاحِبُ هذِهِ الصَّنعَةِ –كَما كانَ ذلِكَ قَبلَ اختِراعِ الآلاتِ وَأَجْهزةِ الفَحْصِ وَالقِياسِ– إِلى حِسٍّ كامِلٍ، وَتخَيّلٍ قَوِيٍّ، وَفِراسَةٍ في مَعْرِفَةِ مَكانِ الماءِ[5].

---

(1) انظر: الرازي، الفراسة، 101.

(2) انظر: الأعشى، الصبح المنير في ديوان أبي بصير، 107، والرازي، الفراسة، 101-102.

(3) انظر: الرازي، الفراسة 103.

(4) انظر: الرازي، الفراسة، 103.

(5) انظر: الرازي، الفراسة، 105.

ومِنَ العُلومِ المُتّصِلةِ بِالفِراسَةِ ما حَصلَ لِلعَرَبِ مِنَ الاسْتِدلالِ بِأحْوالِ البُروقِ وَتَأمُّلِ السَّحابِ عَلى نُزولِ الغَيْثِ أوْ عَدَمِهِ، وَقَدْ خَصَّ الرّازِيُّ العَرَبَ في هذا العِلْمِ؛ ذلِكَ أَنَّ اشْتِدادَ حاجَتِهِمْ إلى الغَيْثِ الذي كانوا بِهِ يَحْيَونَ وَيَتَوَسَّعونَ في السَّقْيِ وَالرَّعْيِ كانَ يُفْضي إلى مُراعاةِ أحْوالِ السُّحُبِ وَالبُروقِ، فَلأَجْلِ كَثرَةِ التَّجْرِبةِ وَقَفوا عَلى ضَوابِطِ تِلْكَ الأَحْوالِ، فَعَرَفوا أَنَّهُ مَتى حَدَثَ الشَّكْلُ الفُلانِيُّ وَالهَيئةُ الفُلانيّةُ في الغَيْمِ نَزَلَ المَطَرُ، وَمَتى لَمْ يَحصُلْ لَمْ يَنْزِلْ، وَقَدِ اعْتَمَدوا في ذلِكَ عَلى مَعالِمَ أهمُّها المَوضِعُ الذي يَنشَأُ فيهِ السّحابُ، وَمَعْرِفَةُ أحْوالِ الجانِبِ المُقابِلِ لِذلِكَ المَنْشَأِ، وَثانيها لَونُ السَّحابِ، وَثالِثُها مَعْرِفَةُ كَونِ السَّحابِ رَقيقًا أَوْ كَثيفًا، وَرابِعُها مَعْرِفَةُ كَيْفِيّةِ أحْوالِ الرِّياحِ، وَخامِسُها مَعْرِفَةُ كَيفيّةِ أحْوالِ البُروقِ، وَعِندَ الوُقوفِ عَلى هذِهِ الأَحْوالِ كانوا يَعرِفونَ أَنَّ ذاكَ السَّحابَ ماطِرٌ لِلجَوْدِ، أوِ الرَّذاذِ[1].

وَالحَقُّ أَنَّ كَثيرًا مِمّا تَقدَّمَ مِنَ المَعارِفِ وَالعُلومِ المُنتَسِبَةِ إلى عِلْمِ الفِراسَةِ لا تَتّصلُ بِمَوضوعِ مُباحثَةِ لُغَةِ الجَسدِ، وَإنّما ذَكَرْتُها إتْمامًا لِلفائِدةِ، وَتَبَصّرًا في عِلْمِ الفِراسَةِ وأقْسامِهِ وَالعُلومِ المُتّصلةِ بِهِ، وَلَعلَّ كَثيرًا مِنْها مِمّا يَتّصلُ بِنَسبٍ حَميمٍ بِالتّواصِلِ غَيْرِ اللَّفْظِيِّ في الدَّرْسِ اللِّسانِيّ الحَديثِ.

الطّرُقُ التي يُعرَفُ بها أخْلاقُ النّاسِ

أَمّا الذي يَأْتي سادِسًا فَالطّرُقُ التي يُعرَفُ بِها أخْلاقُ النّاسِ، وَقَدْ قَرَّرَ الرّازِيُّ أَنَّها سِتّةٌ، وَالحَقُّ أَنَّ مِنْها ما لَهُ لُحْمَةٌ وُثْقى بِلُغَةِ الجَسَدِ، وَأَنَّ مِنْها ما لَيْسَ كَذلِكَ البَتَّةَ، وَإذا ما أَعَدْنا النَّظَرَ فيما قَرَّرَه أهْلُ الدَّرْسِ عامّةً، فَإنَّ هذِهِ الطُّرُقَ التي هِيَ وَسائِلُ اسْتِدلالٍ إمّا أنْ تَكونَ قائِمَةً عَلى الأَحْوالِ وَالهَيْئاتِ الجَسَدِيّةِ، أوِ الأَصْواتِ، أوِ المُشابَهَةِ الجَسديّةِ بَينَ الإنْسانِ وَالحَيَوانِ، أوِ النَّوْعِ الإنْسانِيِّ الجَسديِّ، أوِ الجِنسِ، أوْ تَلازُمِ الأَحْوالِ وَالهَيئاتِ.

دِلالَةُ الهَيْئاتِ الجَسَدِيّةِ

أَمّا أوّلُ هذِهِ الطّرُقِ فَالأَحْوالُ وَالهَيئاتُ الجَسدِيّةُ، وَهذا لَه اتِّصالٌ وَثيقٌ بِما نَحْنُ فيهِ، فَقَدْ قَرَّرَ الرّازِيُّ أَنَّ لأَحْوالِ الإنْسانِ أشْكالاً مَخْصوصَةً وَهَيئاتٍ، وَهِيَ مَصدَرٌ مِنَ

(1) انظر: الرازي، الفراسة، 106.

المصادِرِ التي يُمكِنُ أنْ نَسْتدِلَّ بِها عَلى الخُلُقِ الباطِنِ، "فَإنَّ الإنْسانَ يَحْصُلُ لَهُ حالَ هَيَجانِ الغَضَبِ فيهِ شَكلٌ مَخْصوصٌ، وَهَيئةٌ مَخْصوصَةٌ، وَحالةَ اشتِغالِهِ بِالوِقاعِ شَكلٌ آخَرُ، وَهَيئةٌ أُخْرى، وَحالَةَ استيلاءِ الخَوفِ عَلَيْهِ شَكلٌ ثالِثٌ وَهَيئةٌ ثالِثةٌ، وَهذِهِ الأَشْكالُ وَالهَيئاتُ يُخالِفُ كُلُّ واحِدٍ مِنْها غَيرَها، وَيُباينُها مُبايَنةً مَحْسوسَةً"[1]، وَلَعلَّ هذِهِ الأَنْظارَ المُعْجِبَةَ أفْضَتْ بِهِ إلى التَّقْريرِ بِأَنَّ الخُلُقَ الباطِنَ وَالهَيئاتِ الظّاهِرَةَ أمْرانِ مُتَلازِمانِ في الأَكْثَرِ، فَبَعْدَ الاسْتِقْراءِ التّامِّ عَرَفْنا أَنَّ تِلْكَ الهَيئةَ الظّاهِرَةَ المَخْصوصَةَ بِالغَضَبِ لا تَحصُلُ إلاّ عِنْدَ حُصولِ الغَضَبِ، وَكَذا القَوْلُ في سائِرِ الأَحْوالِ[2].

دِلالَةُ الأَصْواتِ

وَأَمّا ثاني هذِهِ الطُّرُقِ في اعتِبارِ الأَحْوالِ الأَصْواتُ، وَهذا مَبْحَثٌ لَه خَطَرُه في لُغَةِ الجَسَدِ، وَالتّواصُلِ، وَنَصْبِ الدِّلالاتِ، وَتَقْريرُ ذلِكَ عِنْدَه أَنْ تُشاهِدَ الإنْسانَ حالَ استيلاءِ الغَضَبِ عَلَيْهِ يَصيرُ صَوْتُه غَليظًا جَهيرًا، وَعِنْدَ استيلاءِ الخَوْفِ يَصيرُ صَوْتُهُ حادًّا خَفيفًا، وَقَدْ عَلَّلَ ذلِكَ الرّازِيُّ تَعْليلاً طِبّيًّا في عَصْرِهِ ذاكَ قائِلاً: "وَالسَّبَبُ فيهِ أَنَّهُ عِنْدَ استيلاءِ الغَضَبِ عَلَيْهِ تَخْرُجُ الحَرارَةُ الغَريزِيّةُ مِنَ الباطِنِ إلى الظّاهِرِ، فَيَسْخُنُ ظاهِرُ البَشَرةِ، وَالحَرارَةُ توجِبُ تَوْسيعَ المَنافِذِ، وَتَفْتيحَ السُّدُدِ في آلاتِ الصَّوتِ، وَهذِهِ الأَحْوالُ توجِبُ صَيْرورَةَ الصَّوْتِ ثَقيلاً غَليظًا، وَأَمّا عِنْدَ الخَوْفِ فَإنَّ الأَمْرَ يَكونُ بِالعَكْسِ مِنْ ذلِكَ، وَذلِكَ يوجِبُ صَيرورَةَ الصَّوْتِ حادًّا خَفيفًا، وَإذا عَرَفْتَ الكَلامَ في هذَيْنِ المِثالَيْنِ فَاعْتَبِرْ مِثْلَه في سائِرِ الأَحْوالِ"[3]، وَصَفْوَةُ المُسْتَخلَصِ مِنْ ذلِكَ كُلِّه أَنَّ بَيْنَ تِلْكَ الحالةِ النَّفْسِيّةِ وَالصَّوْتِ المَخْصوصِ مُناسَبَةً واجِبَةً، وَمُلازَمَةً تامّةً، فَاسْتَدْلَلْنا بِذلِكَ الصَّوْتِ المَخْصوصِ عَلى حُصولِ الخُلُقِ المَخْصوصِ، وَهذا قانونٌ صَحيحٌ[4].

دِلالَةُ المُقابَلَةِ

وَأَمّا ثالِثُ هذِهِ الطّرُقِ فَالمُقابَلَةُ[5]، فَإذا رُئِيَ إنْسانٌ –كَما يَقولُ الرّازِيُّ- يُشابِهُ

(1) انظر: الرازي، الفراسة، 108.

(2) انظر: الرازي، الفراسة، 109.

(3) انظر: الرازي، الفراسة، 110.

(4) انظر: الرازي، الفراسة، 110.

(5) انظر: الطوخي، الدراسة في علم الفراسة، 30.

حَيَوانًا في أمْرٍ مِنَ الأَحْوالِ الظّاهِرَةِ فَحينَئِذٍ نَسْتدِلُّ بِتِلْكَ المُشابَهَةِ عَلى حُصولِ المُشابَهَةِ في الخُلُقِ الباطِنِ، وَمَرَدُّ ذلِكَ إلى مَقولَةِ "إلْحاقُ الشَّيْءِ بِشَبيهِهِ"، وَهِيَ مِنَ المُقَدِّماتِ المَقْبولَةِ عِنْدَ الجُمهورِ[1].

دِلالَةُ النَّوْعِ

وأَمّا رابِعُ هذِهِ الطّرُقِ فَالنّوْعُ؛ ذلِكَ أَنَّ الإِنْسانَ نَوْعٌ تَحْتَه أصْنافٌ، وَهُمُ الأُمَمُ الكَبيرَةُ، كَالعَرَبِ، وَالفُرْسِ، وَالتُّرْكِ، وَالهِنْدِ، وَغَيْرِ ذلِكَ، وَلِكلِّ واحِدٍ مِنْ هذِهِ الأَصْنافِ خَلْقٌ مَخْصوصٌ في الظّاهِرِ، وَخُلُقٌ مَخْصوصٌ في الباطِنِ، فَإِذا رَأَيْنا الشَّكْلَ الظّاهِرَ الخاصَّ بِبَعْضِ الأَصْنافِ حاصِلاً في إِنْسانٍ حَكَمْنا بِأَنَّهُ حَصَلَ الخُلُق المُلائِمُ لذلِكَ الشَّكْلِ فيهِ، وَمِثالُهُ أَنَّ أَهْلَ مَنطِقَةٍ ما طِوالُ القُدودِ، أَقْوِياءُ القُلوبِ شُجْعان، وَأَنَّ أَهْلَ مَنْطِقَةٍ أُخْرى صِغارُ الجُثَّةِ ضِعافُ القُلوبِ، فَإِذا رَأَيْتَ واحِدًا مِنْ مَنطِقَةٍ عَلى شَكْلِ آخَرَ مِنْ مَنْطِقَةٍ أُخْرى فَاقْضِ بِحُصولِ أَخْلاقِ مَنْ شابَهَهُمْ فيهِ[2].

دِلالَةُ الجِنْسِ

وَأَمّا خامِسُ هذِهِ الطّرُقِ فَالجِنْسُ، فَالذّكورُ –كَما يُقَرِّرُ الرّازِيُّ– مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْواعِ الحَيوانِ أَكْمَلُ حالاً، وَأَقْوى مزاجًا مِنَ الأُنْثى، وَهذا المَعْنى يَقْتَضي أَحْوالاً في البَدَنِ وَأَحْوالاً في النَّفْسِ، فَالذّكورُ أَصْلَبُ أَبْدانًا، وَأَشَدُّ اكْتِنازًا، وَالإِناثُ أَصْغَرُ رَأسًا، وَأَلْطَفُ وَجْهًا، وَأدقُّ عُنُقًا، وَأَضْيَقُ صَدْرًا في الغالِبِ إلاّ في مَواضِعَ مَخْصوصَةٍ، وَالذّكورُ أَعْظَمُ نَبْضًا، وَأَكْثَرُ شَجاعَةً، وَأَشَدُّ غَضَبًا[3].

دِلالاتُ الأَعْضاءِ

أَمّا الذي يَأْتي سابِعًا فَدِلالاتُ الأَعْضاءِ، وَالحَقُّ أَنَّها كَثيرَةٌ كَثْرَةً ظاهِرةً في كُتُبِ الفِراسَةِ، وَأَنَّ مِنْها ما يَصْدُقُ عَلَيْهِ الانْتِسابُ إلى مَبْحَثِ لُغَةِ الجَسَدِ الذي نَحْنُ فيهِ، وَمِنْها ما لا يَصْدُقُ عَلَيْهِ البَتَّةَ، بَلْ هِيَ أمورٌ ميتافيزيقيّةٌ قَدْ لا تَصِحُّ في الفَهْمِ وَلا تَسْتَقيمُ، وَلْنَسْتَصْفِ أَرْبعَةَ أَعْضاءٍ لِتَبَيّنِ دِلالاتِها مِنْ وُجْهَةِ أَهْلِ هذِهِ الصّناعَةِ؛ صِناعةِ الفِراسَةِ،

(1) انظر: الرازي، الفراسة، 113.

(2) انظر: الرازي، الفراسة، 113.

(3) انظر: الرازي، الفراسة، 116.

وَهِيَ:

- الوَجْهُ أوّلاً.
- وَالجَبْهَةُ ثانِيًا.
- وَالعَيْنُ ثالِثًا.
- وَالضّحكُ رابِعًا.
- وَالصَّوْتُ خامِسًا.

في دِلالاتِ الوَجْهِ:

يُقرّرُ الرّازِيُّ في بابِ القَوْلِ عَلى دِلالاتِ الوَجْهِ مِنَ المَقالَةِ الثّانيَةِ أَنَّ دِلالتَهُ عَلى الأَحْوالِ النَّفسِيّةِ أتمُّ مِنْ دِلالَةِ سائِرِ الأعْضاءِ عَلَيْها، وَهذا نَظرٌ ثاقِبٌ لا شِيَةَ عَلَيْهِ وَلا شُبْهةَ، فَالوَجْهُ هُو أصدَقُ الأَعْضاءِ في الدِّلالةِ، وَأبْيَنُها، وَأكْثَرُها وِشايَةً عَلى مَكْنوناتِ النَّفْسِ وَحَواشيها، وَقَدِ اسْتَدَلَّ الرّازِيُّ عَلى ذلِكَ مِنْ وُجوهٍ:

- أَوَّلُها أَنَّ الإِنْسانَ إِنّما كانَ إِنْسانًا لأَجْلِ الفَهْمِ، وَالعَقْلِ، وَالذِّكْرِ، وَالحِفْظِ، وَمَحلُّ هذِهِ الأَحْوالِ هُو الدِّماغُ، "فَإِنَّ الرَّأسَ صَومَعةُ الحَواسِّ، وَمَعْدِنُ الحِفْظِ، وَالذِّكْرِ، وَالفِكْرِ"، وَذلِكَ يَدُلُّ عَلى أَنَّ الرَّأسَ أكْمَلُ الأَعْضاءِ لظُهورِ الآثارِ النَّفْسيّةِ فيهِ بِوَجْهٍ أتَمَّ[1].
- وَثانيها أَنَّ كَمالَ الجَسَدِ إِنّما يَكونُ بِسَببِ الحُسْنِ، وَنُقْصانَ حالِهِ إِنّما يَكونُ بِسَبَبِ القُبْحِ، وَمَحَلُّ ذَيْنِكَ الأَمْرَيْنِ في الوَجْهِ، فَأَمّا سائِرُ الأَعْضاءِ فَلا يُلْتَفَتُ إِلَيْها وَإِلى ما فيها مِنَ الحُسْنِ في مُقابَلَةِ الوَجْهِ.
- وَثالِثُها أَنَّ الأَحْوالَ الظّاهِرَةَ في الوَجْهِ قَويّةُ الدِّلالَةِ عَلى الأَخْلاقِ الباطِنَةِ، فإنَّ لِلخَجلِ لَونًا مَخْصوصًا في الوَجْهِ، وَلِلخَوْفِ لَوْنًا آخَرَ، وَلِلغَضبِ لَوْنًا ثالِثًا مُغايِرًا، وَلِلفَرَحِ لَوْنًا رابِعًا، وَهذِهِ الأَلْوانُ مَتى حَصَلَتْ في الوَجْهِ فَإِنّهُ يُقَوّي دِلالتَها عَلى الأَخْلاقِ الباطِنَةِ وَالأَحْوالِ النَّفْسِيّةِ، "فَثَبَتَ أَنَّ دِلالَةَ الأَحْوالِ الظّاهِرَةِ المَوجودَةِ في هذا العُضْوِ أَتَمُّ مِنْ دِلالَةِ الأَحْوالِ الظّاهِرَةِ المَوْجودةِ في سائِرِ الأَعْضاءِ"[2].

---

(1) انظر: الرازي، الفراسة، 149، وابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 57.

(2) انظر: الرازي، الفراسة، 149.

في دِلالاتِ العَيْنِ:

وَقَدْ عَقَدَ الرّازِيُّ فَصْلاً قائِمًا بِرَأسِهِ عَرّجَ فيهِ عَلى دَلائِلِ العَيْنِ، فَهناكَ دَلائِلُ صِحّيّةٌ، وَهُناكَ دَلائِلُ خُلُقِيّةٌ سُلوكِيّةٌ، وَهُناكَ دَلائِلُ جَمالِيّةٌ خَلْقِيّةٌ، وَغَيْرُ ذلكَ، وَقَدِ اسْتَفْتَحَ فَصْلَه ذاكَ بِالتَّقْريرِ بِأَنَّ العَيْنَ قَدْ تُعْتَبَرُ مِنْ وُجوهٍ:

- أَحَدُها الوَصْفُ؛ كَالحاجِظَةِ وَالغائِرَةِ.
- وَثانيها المِقْدارُ؛ كَالعَظيمَةِ وَالصَّغيرَةِ.
- وَثالِثُها أَحْوالُ الجَفْنِ؛ كَالغَليظِ، وَالرَّقيقِ المُسْتَوي، وَالمُنْقَلِبِ.
- وَرابِعُها قِلّةُ الطَّرْفِ وَكَثْرتُهُ.
- وَخامِسُها حَرَكَةُ الحَدَقَةِ؛ كَالبُطْءِ وَالسّرْعَةِ.
- وسادِسُها أَحْوال المَآقي.
- وَسابِعُها مُشابَهَتُها لِسائِرِ الأَشْياءِ.
- وَثامِنُها لَونُها، وَغَيْرُ ذلِكَ مِمّا يَتَرَكّبُ عَنْ هذِهِ الأَحْوالِ[1].

وَقَدِ انْبَنى عَلى اعْتِبارِهِمْ بِهذا التّقْريرِ تَقْريرٌ بِأَهَمّيتِها في الإِبانَةِ عَنْ حَواشي النّفوسِ وَضمائِرِها، وَأَفْضى ذلِكَ إِلى قَوْلِ ابنِ أَبي طالِبٍ في "السّياسَةُ في عِلْمِ الفِراسَةِ": "فَاعْتَمِدْ عَلى هذا الاعْتِبارِ في تَوَسّمِكَ، واحْكُمْ بِما يَظْهَرُ مِنْهُ"[2].

أَمّا الدَّلائِلُ المَأْخوذَةُ مِنْ كَثْرَةِ الطَّرْفِ وَقِلّتِهِ في عِلْمِ الفِراسَةِ فَمُتَعدِّدَةٌ، فَمَنْ كانَتْ عَيْناهُ تَتَحَرَّكانَ حَرَكَةً سَريعَةً وَحادّةً فَصاحِبُها مَكّارٌ مُحْتالٌ لِصٌّ، وَمَنْ كانَتْ حَرَكاتُ عَيْنَيْهِ بَطيئَةً كَأَنَّها جامِدَةٌ فَهُوَ صاحِبُ فِكْرٍ، فَهذِهِ الدِّلالَةُ مَأخوذَةٌ مِنَ أَنَّ الإِنْسانَ إِذا تَوَغَّلَ في فِكرِهِ فَإِنّهُ يَبْقى مَفْتوحَ العَيْنِ. وَالعَيْنُ الدّائِمَةُ الطَّرْفِ تَدلُّ عَلى الجُنونِ أَوِ الجُبْنِ[3].

أَمّا الدّلائِلُ المَأْخوذَةُ مِنْ كَوْنِ العَيْنِ مُشابِهَةً لِسائِرِ الأَشْياءِ فَمَنْ كانَ نَظَرُهُ مُشابِهًا لِنَظرِ النّساءِ فَهُوَ شَبِقٌ صَلفٌ، وَمَنْ كانَ نَظَرُهُ مُشابِهًا لِنَظَرِ الصّبْيانِ وَكانَ فيها وَفي جُملةِ

(1) انظر: الرازي، الفراسة، 151، وابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 50.

(2) انظر: ابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 50.

(3) انظر: الرازي، الفراسة، 155.

الوَجْهِ ضَحِكٌ وَفَرَحٌ فَإِنّهُ طَويلُ العُمُرِ[1].

أَمّا الدَّلائِلُ المَأْخوذَةُ مِنْ حالِ الجَفْنِ في الغِلَظِ وَالدّقّةِ فَإِذا كانَ الجَفنُ مِنَ العَيْنِ مُنْكَسِرًا أوْ مُلْتَوِيًا فَصاحِبُهُ كَذّابٌ مَكّارٌ، وَالعَرَبُ يَصِفونَ الطَّرْفَ بِالمَرَضِ، وَهُو مِنْ موجِباتِ الحُسْنِ في حَقِّ النِّساءِ، وَفي حَقِّ الرِّجالِ دالٌّ عَلى التَّخَنّثِ وَمُشابَهَةِ النِّساءِ ذَواتِ الغَنْجِ وَالدَّلالِ[2]. أَمّا جُحوظُ العَيْنِ مِنْ وُجْهَةٍ طِبّيّةٍ في وَقْتِهِمْ ذاكَ فَدالٌّ عَلى الأَوْرامِ وَامْتِلاءِ الأَوْعِيةِ الدِّماغِيّةِ، وَالغُؤورُ يَدلُّ عَلى حالةٍ مَرَضِيّةٍ أشارَ إِلَيْها ثَمَ، وَقَدْ يَدلُّ عَلى السَّهَرِ وَالعِشْقِ[3].

وبالجُمْلَةِ، "فَالعيونُ وُجوهُ القُلوبِ، وَأبوابُها التي تَبْدو مِنْها أَحْوالُ النَّفْسِ وَأَسْرارُها، وذلِكَ لاتِّصالِها بِمَواضِعِ القَلْبِ، وَصَفائِها، وَرِقّتِها، فَاحْكُم بِها لِتَحْقيقِ النَّظَرِ وَصِحّتِهِ..."[4]، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ "هيس" ذَهَبَ في كِتابِهِ "العَينُ الفاضِحةُ" إِلى أَنَّ العَيْنَ مِنْ أدقِّ الوَسائِلِ وَأفضَلِها مِنْ بَيْنِ وَسائِلِ الاتِّصالِ الكَثيرَةِ التي يَتَمتّعُ بِها الإِنْسانُ لإِظْهارِ ما يَعْتَمِلُ في نَفسِهِ[5].

في دِلالاتِ الحاجِبِ:

وَلِلحَواجِبِ أَشْكالٌ تُسْتَقى مِنْها هَيْئاتٌ يُقَرِّرُها أَهْلُ الفِراسَةِ، وَالحَقُّ أَنَّ مِنْها ما يُمْكِنُ أَنْ يَصْدُقَ، وَما لا يَصْدُقُ بِاعْتِبارِهِ خَلْقًا ظاهِرًا دالاًّ عَلى خُلُقٍ باطِنٍ، وَقَدْ تَنَبَّهَ أَهْلُ الفِراسَةِ إِلى ذلِكَ فَقَرّروا –كَما سَيأتي بَعْدًا– أَنَّ دِلالاتِ الأَعْضاءِ كُلّها ظَنّيّةُ الدِّلالةِ لا قَطْعِيَّةُ الثّبوتِ، قائِمةٌ عَلى التَّرْجيحِ، وَأَنَّ الدِّلالاتِ قَدْ تَتَعارَضُ.

وَقَدْ قيلَ في عِلمِ الفِراسَةِ إِنَّ أَحْمَدَ الحَواجِبِ دِلالَةً هُو الحاجِبُ المُمْتَدُّ الحَسَنُ الوَضْعِ، وَالنَّباتِ، وَتَناسُبِ الطَّرَفَيْنِ، والمُعْتَدِلُ بَلَجُهُ وَارْتِفاعُهُ عَنِ العَيْنِ قَليلاً، وَارْتِفاعُ مُؤْخرِهِ إِلى جِهَةِ الصُّدْغِ، وَمِنْ دِلالاتِهِ:

- الحاجِبُ الطَّويلُ المُرتَفِعُ الطَّرَفَيْنِ المُمتَدُّ إِلى الصُّدْغِ دالٌّ عَلى العُجْبِ، وَالتّيهِ، وَالصَّلَفِ.

---

(1) انظر: الرازي، الفراسة، 155.

(2) انظر: الرازي، الفراسة، 155.

(3) انظر: الرازي، الفراسة، 132.

(4) انظر: ابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 57.

(5) انظر: Pease, Body Language, P.133.

- الحاجِبُ المُقَنْطَرُ دَليلُ الشَّبَقِ وَالدَّناءَةِ.
- ارْتِفاعُ أحَدِ الحاجِبَيْنِ وَانْخِفاضُ الآخَرِ عِنْدَ الكَلامِ وَالنَّظَرِ دالٌّ عَلى الكِبْرِ.
- ارْتِفاعُ أحَدِ الحاجِبَيْنِ وَانْخِفاضُ الآخَرِ عِنْدَ الكَلامِ، وَالنَّظرِ، وَالحَرَكةِ دالٌّ عَلى خُبْثِ الباطِنِ، وَالمَكْرِ، وَسوءِ الظّنِّ بِالنّاسِ[1].

في دِلالاتِ الضَّحِكِ:

- مَنْ كانَ كَثيرَ الضَّحِكِ فَهُوَ دَمِثٌ مُتَساهِلٌ قَليلُ العِنايةِ بِالأُمورِ.
- وَمَنْ كانَ قَليلَ الضّحكِ فَهُوَ مِصْرارٌ مُخالِفٌ لا يَرْضى بِأعْمالِ النّاسِ.
- وَمَنْ كانَ عالِيَ الضَّحكِ فَهُوَ وَقِحٌ سَليطٌ[2].

في دِلالاتِ الصَّوْتِ وَالنَّفَسِ وَالكَلامِ:

- مَنْ كانَ صَوتُهُ غَليظًا جَهيرًا فَهُوَ شُجاعٌ، فَالصَّوْتُ العَظيمُ الغَليظُ الثَّقيلُ يَدُلُّ عَلى قُوّةِ الحَرارَةِ، فَإنَّ الحَرارَةَ توجِبُ تَوْسيعَ قَصبَةِ الرّئَةِ، وَتَوْسيعَها يوجِبُ عِظَمَ الصَّوْتِ، وَالحَرارَةُ توجِبُ عِظَمَ النَّفَسِ وَتوجِبُ سَعَةَ الصَّدرِ، وَذلِكَ يوجِبُ الشَّجاعَةَ، فَالصَّوْتُ العَظيمُ الغَليظُ يَدُلُّ عَلى الشَّجاعَةِ، أَمّا الصَّوْتُ الصَّغيرُ الدَّقيقُ فَبِالضِّدِّ، فَقَدْ يَكونُ عَلامَةً مِنْ عَلاماتِ الضَّعْفِ[3].
- وَمَنْ كانَ كَلامُهُ سَريعًا فَهُوَ عَجولٌ قَليلُ الفَهْمِ.
- وَمَنْ كانَ كَلامُهُ عالِيًا سَريعًا فَهُوَ غَضوبٌ سَيّءُ الخُلُقِ.
- ومَنْ كانَ كَلامُهُ مُنْخفِضًا فَبِالضِّدِّ.
- وَمَنْ كانَ نَفَسُهُ غَليظًا فَهُوَ عَسرُ النُّطْقِ[4].

وَبَعدَ هذا العَرضِ الدّالِّ بِالاقْتِضابِ، وَالخائِضِ في تَلَمّسِ أشْتاتٍ مِنْ لُغَةِ الجَسَدِ في عِلْمِ الفِراسَةِ حَسْبي الإشارَةُ إلى خاتمَةٍ أسْتَجْمِعُ فيها بَعْضَ ما تَقَدَّمَ، وَأسْتَبْطِنُ فيها مَقولاتٍ جامِعَةً:

---

(1) انظر: الرازي، الفراسة، 151، وابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 48-49.

(2) انظر: الرازي، الفراسة، 160.

(3) انظر: الرازي، الفراسة، 135.

(4) انظر: الرازي، الفراسة، 161.

- أوّلُها أَنَّ التَّعْويلَ في عِلْمِ الفِراسَةِ عَلى الصُّوَرِ الظّاهِرةِ، وَاقْتِناصِ دِلالاتٍ مَخْصوصَةٍ مِنْها، وَهذا ما قَرَّرَه الرّازِيُّ في "الفِراسة"[1]، وَلَيْسَ كُلُّ الصّوَرِ الظّاهِرةِ مِمّا يَنْتَسِبُ إِلى مَبْحَثِ "لُغةِ الجَسَدِ"، وَجَلُّ ما عَرَّجْتُ عَلَيْهِ في هذِهِ المُباحَثةِ هُو مِمّا يَنْتَسِبُ إِلَيْها وَلَوْ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ.
- وَثانيها أَنَّ مَوْضوعَ الفِراسَةِ فَضْفاضٌ عَريضٌ يَتّسِعُ لِمَباحِثَ مُتَنوّعَةٍ، كَفِراسَةِ الكَفِّ، وَقِراءَةِ خُطوطِها، وَتَقاطيعِها، وَمَسافاتِ الخُطوطِ، وَأَشْكالِها، وَفِراسَةِ الخَطِّ الكِتابِيِّ، وَتَعَرُّجِ حُروفِهِ، وَأَشْكالِها، وَفِراسَةِ المُقابَلَةِ القائِمَةِ بَينَ تَلَمّسِ مَلامِحِ الشَّبَهِ بَيْنَ الإِنْسانِ وَالحَيَوانِ، وَفِراسَةِ القِيافَةِ، وَفِراسَةِ الاخْتِلاجِ وَالضَّرَبانِ، وَالحقُّ أَنَّ كُلَّ ما أَوْرَدتُهُ آنِفًا لَيْسَ لَهُ لُحْمَةٌ بِلُغَةِ الجَسَدِ إِلاّ قَليلاً، وَلِذا ضَرَبْتُ عَنْه صَفْحًا في هذِهِ المُباحَثَةِ، أمّا دِلالاتُ الأَعْضاءِ فَهِيَ مَوْضِعُ التّأمّلِ وَالمُناسَبَةِ بَيْنَ لُغَةِ الجَسَدِ وَعِلْمِ الفِراسَةِ، وَلَيْسَ كُلُّ ما وَرَدَ فيها يَصِحُّ أَنْ يَكونَ مُنْتَسِبًا إِلى لُغَةِ الجَسَدِ؛ ذلِكَ أَنّهُ قَدْ رانَ عَلى إِلْفِهِم وَإِجْماعِهِمْ التّواضُعُ عَلى دِلالاتٍ مَخْصوصَةٍ مِنْ هَيْئاتٍ خَلْقِيّةٍ جَسَدِيّةٍ مَخْصوصَةٍ.
- وَثالِثُها أَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْ هذِهِ الدّلالاتِ لَيْسَ دَليلاً يَقينِيًّا، بَلْ هُو –كَما يُقَرِّرُ الرّازِيُّ– دَليلٌ يُفيدُ الظّنَّ الضَّعيفَ، وَكُلّما كانَتِ الدِّلالاتُ المُطابِقَةُ عَلى المَدْلولِ الواحِدِ أَكْثَرَ كانَتْ في إِفادَةِ الظّنِّ أَقْوى، "فَيَجِبُ عَلى صاحِبِ هذا العِلْمِ أَلاّ يَحكُمَ بِالدَّليلِ الواحِدِ وَلا بِالدَّليلَيْنِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَبِرَ جَميعَ الوُجوهِ في هذا البابِ"[2]، وَقَدْ صَرَّحَ بِذلكَ ابنُ أَبي طالِبٍ في "السّياسَةُ في عِلْمِ الفِراسَةِ"، فَقالَ: "وَلا تَعْجَلَنَّ بِالقَضاءِ حَتّى تَلْتَئِمَ شَهاداتُ أَعْلامِ الفِراسَةِ عَلى تَحْقيقِ ما هُو المَحْكومُ بِهِ، وَأَقَلُّها شَهادَتانِ"[3]. وَقَدْ أَلْمَحَ الرّازِيُّ إِلى أَنَّ هذِهِ الدِّلالاتِ الجَسَدِيّةَ المُتّفَقَ عَلَيْها قَدْ تَتَعارَضُ، وَإِذا ما كانَ ذلِكَ كَذلِكَ، فَلَيْسَ ثَمَّ بُدٌّ مِنَ المَصيرِ إِلى التَّرْجيحِ، وَهُوَ مِنْ

(1) انظر: الرزاي، الفراسة، 117.

(2) انظر: الرزاي، الفراسة، 117.

(3) انظر: ابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 27.

وُجوهٍ مُتَعَدّدَةٍ قَدْ يَتَعَذّرُ عَرْضُها في هذِهِ العُجالَةِ[1].

- وَرابِعُها أنَّ مِنَ الدّارِسينَ مَنْ يَرى أنَّ عِلْمَ الفِراسَةِ مِمّا يَنْتَسِبُ إلى بابِ القَوْلِ عَلى الزَّعْمِ، وَالزّعْمُ أَخو الكَذِبِ، وَأنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُنَصِّبُ نَفْسَهُ مُحامِيًا عَنْهُ لِما يَرى فيهِ مِنْ وَجاهَةٍ قَدْ يُنكِرُها آخَرونَ مِنْ بابِ ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾"[2]، وَالحَقُّ أنّني أَرى أنّهُ قَدْ يَتَرَدّدُ بَيْنَ المَنْزِلَتَيْنِ، وَأَصْدُقُهُ ما انْتَسَبَ إلى لُغَةِ الجَسَدِ، وَما سارَ بِرَكْبِها مِمّا يُسَمّى في عِلْمِ اللّسانِ الحَديثِ "التّواصُلَ غَيْرَ اللّفْظِيّ"، وَاللهُ –تَعالى– أَعْلى وَأَعْلَمُ.

وَمِمّنْ قالوا بِصِدْقِها في الكَثيرِ الغالِبِ الشّافِعِيُّ الإمامُ، فَقَدْ رُوِيَتْ عَنْهُ حادِثَةٌ يَتَجَلّى فيها صِدْقُها بَعْدَ أَنْ ظَنَّ أَنّهُ أَنْفَقَ شَطْرًا مِنْ عُمُرِهِ هَباءً مَنْثورًا وَهُوَ يَجْمَعُ مُتَفَرِّقَها، وَيَقْرَأُ كُتُبَها، وَمُسْتَصْفى القَوْلِ فيها أنّهُ رَأى رَجُلاً ذا صِفاتٍ جَسَدِيّةٍ، وَأَحْوالٍ ظاهِرَةٍ تَشي بِسوءِ أَخْلاقِهِ الباطِنَةِ، وَلكِنّهُ رَأى مِنْهُ ما هُوَ بِالضِّدِّ، فَظَنَّ أَنَّ الفِراسَةَ لا تَصْدُقُ، ثُمَّ اكْتَشَفَ عِنْدَما أَصْبَحَ ما أَزاحَ عَنْهُ هذا الوَهمَ، وَفيها يَقولُ: "خَرَجْتُ إلى اليَمَنِ في طَلَبِ كُتُبِ الفِراسَةِ حَتّى كَتَبْتُها وَجَمَعْتُها، ثُمّ لَمّا كانَ انْصِرافي مَرَرْتُ بِطَريقي بِرَجُلٍ وَهُو مُحْتَبٍ بِفِناءِ دارِهِ، أَزْرَقِ العَيْنَيْنِ، ناتِئِ الجَبْهَةِ، سِناطٌ –وَهُوَ الذي لَيْسَ في لِحْيَتِهِ شَعْرٌ– فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ مِنْ مَنْزِلٍ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ الشّافِعِيُّ: وَهذا النَّعْتُ أَخْبَثُ ما يَكونُ في الفِراسَةِ، فَأَنْزَلَني، فَرَأَيْتُهُ أَكْرَمَ رَجُلٍ، بَعَثَ إليَّ بِعَشاءٍ، وَطيبٍ، وَعَلَفٍ لِدابَّتي، وَفِراشٍ، وَلِحافٍ، قالَ: فَجَعَلْتُ أَتَقَلّبُ اللَّيْلَ أَجْمَع، ما أَصْنَعُ بِهذِهِ الكُتُبِ؟ فَلَمّا أَصْبَحْتُ قُلتُ لِلغُلامِ: أَسْرِجْ، فَأَسْرَجَ، فَرَكِبْتُ وَمَرَرْتُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ لَهُ: إذا قَدِمْتَ مَكّةَ وَمَرَرْتَ بِذي طُوى فَاسْأَلْ عَنْ مَنْزِلِ مُحَمَّدِ بنِ إدْريسَ الشّافِعِيّ، فَقالَ لي:

"أَمَوْلىً كُنْتُ أَنا لأَبيكَ"؟ قُلْتُ: لا.

قالَ: "فَهَلْ كانَتْ لَكَ عِنْدي نِعْمَةٌ"؟ فَقُلْتُ: لا.

---

(1) انظر: الرزاي، الفراسة، 118.

(2) الآية (يونس، 39)، وقد عرج جرجي زيدان على مباحث تسير بركب ما تقدم، ومنها "هل الفراسة علم صحيح"، و"هل تصدق الفراسة دائما"، و"هل الفراسة قريحة خاصة"، انظر: جرجي زيدان، علم الفراسة الحديث، 12-18.

قالَ: "فَأيْنَ ما تَكَلَّفْتُ لَكَ البارِحَةَ"؟ قُلتُ: وَما هُوَ؟

قالَ: اشْتَرَيْتُ لَكَ طَعامًا بِدِرْهَمَيْنِ، وَإِدامًا بِكَذا، وَعِطْرًا بِثَلاثَةِ دَراهِمَ، وَعَلَفًا لِدابّتِكَ بِدِرْهَمَيْنِ، وَكِراءُ الفِراشِ وَاللّحافِ دِرْهَمانِ. قالَ: فَقُلْتُ: يا غُلامُ، أعْطِهِ، فَهَلْ بَقِيَ مِنْ شَيءٍ؟ قالَ: نَعَمْ، كِراءُ المَنْزِلِ، فَإِنّي وَسَّعْتُ عَلَيْكَ، وَضَيَّقْتُ عَلى نَفْسي بِتِلكَ الكُتُبِ، فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ بَقِيَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ ذلِكَ؟ قالَ: لا، قُلْتُ: امْضِ خَزاكَ اللهُ، فَما رَأيْتُ قَطُّ شَرًّا مِنْكَ"[1].

(1) انظر: الرازي، أبو حاتم عبد الرحمن، آداب الشافعي ومناقبه، 96-97.

المَطْلَبُ الثّالِثُ

الأَنْظارُ المُسْتَشْرِفَةُ

لُغَةُ الجَسَدِ في النّصِّ القُرآنِيِّ الشَّريفِ
لُغَةُ الجَسَدِ في النّصِّ الحَديثِيِّ الشَّريفِ
لُغَةُ الجَسَدِ في أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ

الفَصْلُ الأوّلُ

لُغَةُ الجَسَدِ في النّصِّ القُرآنِيِّ الشَّريفِ

أمثِلَةٌ جُزئِيّةٌ ومُوَجِّهاتٌ كُلّيّةٌ

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ (آل عمران، 119)

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ (الـــذاريات، 29)

في مَقاصِدِ العُنْوانِ

يَظْهَرُ مِنْ هذا العُنْوانِ العَريضِ أَنّهُ قائِمٌ عَلى ثَلاثَةِ أَقْطابٍ مُؤَسِّسَةٍ، أَوّلُها لُغَةُ الجَسَدِ، وَثانيها النّصُّ القُرْآنِيُّ الشَّريفُ، وَثالِثُها نَماذِجُ جُزْئِيّةٌ تَعْقُبُها مُوَجّهاتٌ كُلّيةٌ، أمّا لُغَةُ الجَسَدِ فَهِيَ بابُ القَوْلِ وَمَطْلَبُ هذِهِ المُباحَثَةِ، وَأمّا النّصُّ القُرْآنِيُّ فَمِضْمارُ المُباحَثَةِ وَمَيْدانُها، وَأَمّا النّماذِجُ الجُزْئِيّةُ فَهِيَ أَمْثِلَةُ المُباحَثَةِ وَأَدَواتُها المُجَلّيةُ، وَأَمّا المُوَجّهاتُ الكُلّيّةُ فَهِيَ صَفْوَةُ المُسْتَخْلَصِ لِما وَرَدَ في المُباحَثَةِ مِنْ فِكَرٍ وَمباحِثَ فَرْعِيَّةٍ.

لُغَةُ الجَسَدِ في التّنْزيلِ العَزيزِ

يُلْفي القارِئُ في التّنْزيلِ العَزيزِ آياتٍ كَريماتٍ تَشْتَمِلُ عَلى أَوْصافٍ مِنَ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ المُؤَدِّيَةِ إِلى مَعانٍ، وَقَدْ تَكونُ تِلْكَ الحَرَكَةُ سَبيلاً مِنْ سُبُلِ وَصْفِ المَعْنى وَتَشْكيلِهِ، وَتَكونُ سَبيلُها الكِنايَةَ، كَتَقْليبِ الكَفَّيْنِ في مَقامِ النّدَمِ في التّنْزيلِ، أَوْ تَقْديمِ رِجْلٍ وَتَأْخيرِ أُخْرى في مَقامِ الحَيْرَةِ وَالتّرَدّدِ في كَلامِنا اليَوْمِيّ، وَقَدْ أُجْمِعَ عَلى أَنّ "الكِنايَةَ أَبْلَغُ مِنَ الإِفْصاحِ، وَالتّعْريضَ أَوْقَعُ مِنَ التّصْريحِ، وَأَنّ لِلاسْتِعارَةِ مَزِيّةً وَفَضْلاً"[1]، ولَوْ قيلَ: أَراكَ تُقَدِّمُ رِجْلاً وَتُؤَخِّرُ أُخْرى فَإِنَّ القائِلَ –كَما يَرى الجُرْجانِيُّ– يوحي لَهُ بِالصّورَةِ التي يَقْطَعُ مَعَها بِالتّحَيّرِ وَالتّرَدّدِ، "وَكانَ هذا أَوْقَعَ مِنْ صَريحِهِ الذي هُوَ قَوْلُكَ: بَلَغَني أَنّكَ تَتَرَدّدُ في أَمْرِكَ، وَأَنّكَ كَمَنْ يَقولُ: أَخْرُجُ أَوْ لا أَخْرُجُ..."[2].

وَقَدْ يَكونُ ذِكْرُ هذِهِ الحَرَكاتِ عَلى سَبيلِ وَصْفِ حَقيقَةٍ عاشَها قُطْبٌ مِنْ أَقْطابِ الحَديثِ أَوِ الحَدَثِ الكَلامِيّ؛ ذلِكَ أَنّها وَقَعَتْ فِعْلاً؛ ثُمّ وَصَفَها اللهُ لَنا عَلى أَنّها كَواشِفُ لِحالاتٍ نَفْسِيّةٍ، وَمِنْها دِلالاتُ حَرَكَةِ الرّأْسِ وَهَيْئَتُهُ؛ كَالرّأْسِ الخَفيضِ المُتَطامِنِ، وتَلْوِيَةِ الرّأسِ وَإِنْغاضِهِ، وَمِنْها العَيْنُ وَهَيْئاتُها المُتَباينَةُ بِتَبايُنِ الحالِ النّفْسِيّةِ وَالسّياقِ، فَثَمَّ العَيْنُ المُزْدَرِيَةُ المُسْتَهْزِئَةُ، وَالأُخْرى الكارِهَةُ السّاخِطَةُ، وَالثّالِثَةُ الدّائِرَةُ

(1) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، 70.

(2) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، 70.

الوَجِلَةُ، وَالرّابِعَةُ الهامِزَةُ الغامِزَةُ، وَالخامِسَةُ المائِلَةُ الزّائِغَةُ، وَالسّادِسَةُ الضّيّقَةُ الكَليلَةُ، وَهُناكَ اليَدُ وَدِلالاتُها، وَالوَجْهُ، وَالخَدُّ، وَالعُنُقُ.

وَفي هذِهِ المُباحَثَةِ الفَرْعِيّةِ تَعْريجٌ عَلى الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ في التّنْزيلِ العَزيزِ؛ لِبَيانِ مَواضِعِها، وَهَيْئاتِها، وَاسْتِشْرافِ أَثَرِها في رَسْمِ المَعْنى، وَتَشْخيصِهِ، وَتَحْليلِ الخِطابِ القُرْآنِيّ الشّريفِ.

لِنَنْظُرْ في بَعْضِ هذا آخِذينَ بِعَيْنِ العِنايَةِ فَضْلَيْنِ لِوُرودِ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ في التّنْزيلِ العَزيزِ؛ أَوّلُهُما فَضْلُها في أَداءِ المَعْنى وَتَشْخيصِهِ، وَثانيهِما ارْتِفاعُ الكَلامِ إِلى طَبَقَةِ الفَصاحَةِ كَما تَقَدَّمَ آنِفًا عِنْدَ الجُرْجانِيّ، وَسَيَتَجَلّى بَعْدًا عِنْدَ الزّمَخْشَرِيّ، وَآنَ ذلِكَ "يَجِدُ السّامِعُ عِنْدَه في نَفسِهِ مِنَ الرَّوْعَةِ وَالاسْتِحْسانِ ما لا يَجِدُهُ عِنْدَ لَفْظِ المَكْنِيّ عَنْهُ"[1]. لِنَنْظُرْ في هَيئاتِ بَعْضِ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ وَدِلالاتِها في التَّنْزيلِ العَزيزِ مُسْتَفْتِحينَ ذلِكَ بِحَرَكَةِ الرّأْسِ وَدِلالاتِها:

مِنْ دِلالاتِ حَرَكَةِ الرّأْسِ وَهَيئاتِها

لِلرّأْسِ حَرَكاتٌ وَهَيئاتٌ حَمّالَةٌ لِدِلالاتٍ مُتَباينَةٍ بِتَبايُنِ الحالِ النّفْسِيّةِ وَالسّياقِ، كَحَرَكَةٍ تُنْبِئُ عَنِ الرّفْضِ، وَأُخْرى عَنِ القَبولِ، وَثالِثَةٍ عَنِ الاسْتِهْزاءِ، وَرابِعَةٍ عَنِ الإِنْكارِ، وَخامِسَةٍ عَنِ التّحِيّةِ، وَقَدِ اسْتَجْمَعَ بَعْضُ مَنْ يَتَصَدّرونَ لِهذا المَطْلَبِ؛ مَطْلَبِ الوُقوفِ عَلى لُغَةِ الجَسَدِ، ثَلاثَ هَيئاتٍ كلّيّةٍ لِلرّأْسِ، وَهِيَ –وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيانٌ عَنْ هذا قَبْلاً– الرّأْسُ الخَفيضُ الذي قَدْ يَكونُ لَهُ مَحْمولاتٌ دِلالِيّةٌ لا قِبَلَ لَنا بِتَعْيينِها إِلاّ بِالسِّياقِ وَالحَرَكاتِ المُصاحِبَةِ؛ كَالخَجَلِ، أَوِ الخَوْفِ، أَوِ الخُضوعِ، أو الاسْتِسْلامِ، أَوِ الضّعْفِ، أَوِ الجُبْنِ، وثانيها الرّأْسُ المَرْفوعُ الذي قَدْ يُلْمِحُ إِلى الكِبْرِ وَالتّعالي، أَوِ العِداءِ، أَوِ الإِباءِ، أو الازْدِراءِ، وَثالِثُها الرّأْسُ المُنْحَني المَثْنِيُّ إِلى جانِبٍ، فَقَدْ يومِئُ إِلى الفِتْنَةِ، أَوِ الغِوايَةِ، أَوِ المُلاطَفَةِ، أَوِ الحَنانِ[2]، وَفي التّنْزيلِ العَزيزِ وَرَدَتْ لِلرّأْسِ هَيْئاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وَمِنْ ذلِكَ:

الرّأْسُ الخَفيضُ المُتَطامِنُ:

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾[3].

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 89/3، وأبو حيان، البحر، 454/6.

(2) انظر: باكو، لغة الحركات، 60-61.

(3) الآية (الأنبياء، 65).

وَسِياقُ الآيَةِ الشّريفُ يُقَرّرُ أنّ مُساءَلَةَ النّبيّ إبْراهيمَ المُفْحِمَةَ أفْضَتْ إلى وُلوجِهِمْ في بابِ الحَيْرَةِ، ورَجْعِ النّظَرِ، وَإطْراقٍ في التّفْكيرِ، وَلِلْمَرْءِ أنْ يَتَصَوّرَ حالَ مَنْ لا حُجّةَ لَهُ حينَ يُساءَلُ، فَيُفْحَمُ، فَيُغْرِقُ في التّفْكيرِ، وَالتّنْقيرِ، وَالتّأمّلِ، إخالُ أنَّ حَرَكَةَ رَأْسِهِ سَتَكونُ عَلى الهَيْئَةِ المَرْسومَةِ آنِفًا، وَالمُنْبِئَةِ عَنِ ارْتِكاسِهِ، وَأَوّلُ خاطِرٍ وَرَدَ عَلى نُفوسِهِمْ أَنّ هؤلاءِ لا يَنْطِقونَ، "فَتَحَيّروا وَعَلِموا أَنّها لا تَنْطِقُ"[1].

وَقَدِ التَفَتَ الشّريفُ الرّضِيُّ إلى هذا التّصْويرِ المُعْجِبِ المُبينِ عَنْ حالِهِمْ، فَالمُرادُ بِهِ "وَصْفُ ما لَحِقَهُم مِنَ الخُضوعِ، وَالاسْتِكانَةِ، وَالإطْراقِ عِنْدَ لُزومِ الحُجّةِ، فَكَأَنّهُمْ شُبّهوا بِالمُتَرَدّي عَلى رَأسِهِ تَدْويخًا بِنُصوعِ البَيانِ، وَإبْلاسًا عِنْدَ وُضوحِ البُرْهانِ[2].

وَمِنْ مِثْلِ حَرَكَةِ الرّأسِ المُنْبِئَةِ عَنِ العَجْزِ وَالذّلِّ قَوْلُهُ الحَقُّ -تَقَدّسَ اسْمُهُ-: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾[3]. وَلِلمَرْءِ أنْ يُسَرِّحَ خواطِرَهُ مُتَمَثّلاً هذِهِ الصّورَةَ يَوْمَ يَقومُ النّاسُ لِرَبِّ العالَمينَ، فَأمّا المُجْرِمون الذي أوتوا كُتُبَهُمْ بِشَمائِلِهِمْ فَقَدْ نَدِموا وَلاتَ حينَ مَنْدَمٍ، وَصاروا أذِلّةً قَلْبًا وَقالبًا، فَالرّؤوسُ مَنْكوسَةٌ مُتَطامِنَةٌ مُطَأْطَأةٌ مِنَ الذّمِّ، وَالخِزْيِ، وَالحُزْنِ، وَالذّلِّ، وَالغَمِّ[4].

تَلْوِيَةُ الرّأْسِ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾[5].

وَفي تَلْوِيَةِ الرّأسِ يَتَجَلّى مَعْنى الاسْتِهْزاءِ وَالإباءِ، وَالحقّ أنّ هذِهِ حَرَكَةٌ جَسَدِيّةٌ شائِعٌ استِعْمالُها، بَيّنٌ مَعْناها في يَوْمِنا هذا، وَسِياقُ الآيَةِ يُنْبِئُ عَنْ هذا المَعْنى الذي جاءَ في جَنْبِ المُنافِقينَ، فَلَمّا نَزَلَ القُرْآنُ بِصِفَتِهم، مَشى إلَيْهِم عِشائِرُهُمْ، قائِلينَ: افْتُضِحْتُم بِالنِّفاقِ، فَاطْلبوا أَنْ يُسْتَغْفَرَ لَكُم، فَكانَ جَوابُهُمْ بِهذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ اسْتِهْزاءً وَإباءً[6].

---

(1) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 77/7، وانظر ما قاله القرطبي، الجامع، 200/11.

(2) انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، 156.

(3) الآية (السجدة، 12).

(4) انظر: القرطبي، الجامع، 64/14.

(5) الآية (المنافقون، 5).

(6) انظر: القرطبي، الجامع، 83/18.

وَقَدِ التَمَسَ الطّبرسِيُّ مِنْ هذِهِ الحَرَكَةِ مَعْنَيَيْنِ مُتَقارِبَيْنِ، أَوّلُهُما أنّهمْ أكْثَروا تَحْريكَها بِالهُزْءِ، وَثانيهما أنّهُمْ أَمالوها إِعْراضًا عَنِ الحَقِّ، وَكَراهَةً لِذِكْرِ النّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وَكُفْرًا وَاسْتِكْبارًا[1]، وَفي إِمالَتِها بِالهزْءِ إِعْراضٌ عَنِ الحَقِّ، فَالمَعْنَيانِ الواقِعانِ تَحْتَ هذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَديّةِ صالِحانِ لا يَتَدافَعانِ.

إِنْغاضُ الرّأْسِ:

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾[2].

يَظْهرُ مِنْ هذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ مَشْهَدُ حِوارٍ يَتَجاذبُهُ قُطْبانِ: مُؤْمِنٌ مُثْبِتٌ، وَجاحِدٌ مُنْكِرٌ يَتَوَسّلُ لِبَثِّ إِنْكارِهِ بِالرّافِدَيْنِ: الصّامِتِ، وَهُو إِنْغاضُ الرّأْسِ، وَالصّائِتِ، وَهُو قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ: "فَسَيَقولونَ مَتى هُو؟". أمّا عَنْ دِلالَةِ إِنْغاضِ الرّأْسِ فَهِيَ قائِمَةٌ عَلى تَحْريكِهِ تَحْريكَ المُسْتَهْزِئِ المُسْتَخِفِّ المُسْتَبْطِئِ لِما أَنْذِروا بِهِ[3]، وَقَدْ قالَ القُرْطبِيُّ: وَأَنْغَضَ رَأسَه أيْ حَرَّكَهُ كَالمُتَعَجِّبِ مِنَ الشَّيْءِ[4].

مِنْ دِلالاتِ حَرَكَةِ العَيْنِ وَهَيْئَتِها

قيلَ إِنَّ "العَيْنَ بابُ القَلْبِ، فَما كانَ في القَلْبِ ظَهَرَ في العَيْنِ"[5]، وَقَدْ وَرَدَ لِلعَيْنِ ذِكْرٌ كَثيرٌ في كَلامِ الشّعَراءِ، ولا بَأْسَ بِإيرادِ نَموذَجَيْنِ مُمَهِّدَينِ لاسْتِشْرافِ هذا المَبْحَثِ في التَّنْزيلِ العَزيزِ:

أَوّلُهُما قَوْلُ الشّاعِرِ:

عَيْناكِ قَدْ دَلَّتا عَيْنَيَّ مِنْكِ عَلى ... أَشْياءَ لَوْلاهُمـــــا ما كُنْتُ أَدْريهـا

وَالعَيْنُ تَعْلَمُ مِنْ عَيْنَيْ مُحَدِّثِها ... إِنْ كانَ مِنْ حِزْبِها أَوْ مِنْ أَعاديها[6]

وَثانيهما قَوْلُ آخَرَ:

---

(1) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 14/10.

(2) الآية (الإسراء، 51).

(3) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 205/6.

(4) انظر: القرطبي، الجامع، 178/10.

(5) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 115/2.

(6) الشعر مما ينسب لسبط بن التعاويذي، ديوانه، 490، وانظر: العباسي، معاهد التنصيص، 132/1.

فَالعَيْنُ تَقْرَأُ مِنْ لِحاظِ جَليسِها ما خُطَّ مِنْهُ في ضَميرِ الخاطِرِ

وَلَكَمْ قُطوبٍ عَنْ وِدادٍ خالصٍ وَتَبَسُّمٍ عَنْ غِلِّ صَدْرٍ واغِرِ[1]

وَقَدْ وَرَدَ لِلعَيْنِ في التّنْزيلِ العَزيزِ صُوَرٌ حَرَكِيّةٌ تَتَبايَنُ بِتَبايُنِ السّياقِ وَالحالِ، فَانْبَنى عَلى ذلِكَ تَبايُنٌ في الدِّلالَةِ التي تُرَشِّحُ لَها كُلُّ حَرَكَةٍ لِلعَيْنِ، وَهذا –مِنْ وُجْهَةٍ أُخْرى– مِمّا يَنْدَرِجُ تَحْتَ بابِ "وَالعَيْنُ تَنْطِقُ وَالأَفْواهُ صامِتَةٌ"، فَهُناكَ العَيْنُ المُزْدَرِيَةُ الهازِئَةُ، وَالعَيْنُ الكارِهَةُ السّاخِطَةُ، وَالعَيْنُ الدّائِرَةُ الوَجِلَةُ، العَيْنُ المائِلَةُ الزّائِغَةُ، والعَيْنُ الضّيقَةُ الكَليلَةُ، وَالعَيْنُ الهامِزَةُ الغامِزَةُ... لِنَتَبَصّرْ فيما يَأْتي بَسْطًا لِلقَوْلِ، وَرَفْعًا لِلإِجْمالِ المُتَقَدِّمِ:

العَيْنُ المُزْدَرِيَةُ الهازِئَةُ:

وَقَدْ وَرَدَ هذا المَعْنى في قَوْلِ الحَقِّ –تَقَدّسَ اسْمُهُ– عَلى لِسانِ نَبِيِّهِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾[2]. وَالظّاهِرُ أَنّها عَيْنُ الكافِرِ الجاحِدِ التي يَسْتَصْغِرُ بِها المُؤْمِنينَ الفُقَراءَ، وَما كان جَوابَ نوحٍ إلاّ أنْ قالَ إنّهُ لا يَقولُ لِهؤلاءِ الفُقَراءِ الذين يَسْتَخفّونَهم، وَيَسْتَقلّونَهُمْ، وَتَحْتَقِرُهم أعْيُنُهُم، لَنْ يُؤتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا[3].

العَيْنُ الكارِهَةُ السّاخِطَةُ:

وَقَدْ تَجَلّتْ هذِهِ الدّلالَةُ في قَوْلِهِ –تَبارَكَ– ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾[4]. وَقَدْ كَثُرَ كَلامُ المُفسِّرينَ عَنْ دِلالَةِ العَيْنِ في هذا السّياقِ الشّريفِ، وَالظّاهِرُ أَنّ هَيْئَتَها هُهُنا تُؤْذِنُ بِتَعَيّنِ مَعْنى العِداءِ، وَالمَعْنى الكلّيُّ: يَنْظُرونَ إِلَيْكَ عِنْدَ تِلاوَةِ القُرْآنِ، وَالدّعاءِ إِلى التّوْحيدِ، نَظَرَ عَداوَةٍ، وَبُغْضٍ، وَإِنكارٍ لِما يَسْمَعونَهُ، فَكَأَنّهُمْ يَكادونَ يَصْرَعونَكَ بِحِدَّةِ نَظَرِهِمْ تِلْكَ، وَقَدْ عَرّجَ الطّبرسِيُّ عَلى أَثَرِ رَسْمِ هذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ في تَوْصيفِ المَعْنى، فَهذا "مُسْتَعْمَلٌ في الكَلامِ، يَقولونَ: نَظَرَ إِلَيَّ فُلانٌ

---

(1) انظر: العباسي، معاهد التنصيص، 131/1، ونسبه إلى محمد بن شبل.

(2) الآية (هود، 31).

(3) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 199/5، وانظر ما قاله القرطبي فيها، الجامع، 19/9، وأبو حيان، البحر المحيط، 219/5.

(4) الآية (القلم، 51).

نَظْرَةً يَكادُ يَصْرَعُني، وَنَظَرًا يَكادُ يَأْكُلُني فيهِ، وَتَأويلُهُ كُلّه أنّهُ نَظَرَ إِليَّ نَظَرًا لَوْ أَمْكَنَهُ مَعي أَنْ يَأْكُلَني أوْ يَصْرَعَني لَفَعَلَ"[1].

العَيْنُ الدّائِرَةُ الوَجِلَةُ:

وَقَدْ وَرَدَ هذا المَعْنى في قَوْلِ الحَقِّ –تَقَدَّسَ اسْمُهُ– في وَصْفِ المُنافِقينَ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [2]، وَسِياقُ الآيَةِ الشّريفُ يَدورُ في مِضْمارِ خَوْفِهِمْ مِنَ القِتالِ وَانْصِرافِهِمْ عَنْهُ، فَهُمُ الأَشِحّةُ الأَضِنّاءُ وَقْتَ البَأسِ وَالشِّدادِ، وَالسّالِقونَ بِأَلْسِنَةٍ حَدادٍ، وَقَدْ تَجَلّى أَثَرُ خَوْفِهِمْ وَتَجافيهِمْ عَنْها في العُيونِ الدّائِرَةِ المُضطرِبَةِ، فَإِذا ما ذُكِرَ القِتالُ صاروا يَنْظُرونَ كَما يَنْظُرُ المَغْشِيُّ عَلَيْهِ مِنْ مُعالَجَةِ سَكَراتِ المَوْتِ حَذَرًا، وَخَورًا، وَلِواذًا[3]، وَقَدْ أَجادَ القُرْطبِيُّ في اسْتِشْرافِ مَعْنى حَرَكَةِ هذِهِ الجارِحَةِ في هذا السّياقِ الشّريفِ، فَدَورانُ الأَعْيُنِ باعِثُهُ ذَهابُ العَقْلِ حَتّى لا يَصِحَّ مِنْهُمُ النّظَرُ إِلى أيِّ جِهَةٍ، وَقيلَ "لِشِدّةِ خَوْفِهِمْ حَذَرًا أنْ يَأتِيَهُمُ القَتْلُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ"[4].

العَيْنُ الهامِزَةُ الغامِزَةُ:

وَقَدْ تَجَلّتْ هذِهِ الحَرَكَةُ العَيْنِيّةُ في قَوْلِهِ –تَبارَكَ–: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [5]، وَلِلمُفَسِّرينَ في "خائِنَةِ الأَعْيُنِ" أَقْوالٌ وَمَذاهِبُ لَيْسَ المَقامُ مَقامَها، وَإِنّما يَعْنينا ما يَنْتَسِبُ إِلى لُغَةِ الجَسَدِ بِنَسَبٍ حَميمٍ، فَقَدْ قيلَ إِنّ خِيانَتَها هِيَ مُسارَقَةُ النّظَرِ إِلى ما لا يَحِلُّ النّظَرُ إِلَيْهِ، وَقيلَ هُو الرّمْزُ بِالعَيْنِ[6]، وَقالَ القُرْطُبِيُّ هِيَ الهَمْزَةُ

---

(1) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 78/10. وقد قال القرطبي إن المعنى قد يكون "يعتانونك"، وينظرون إليك شزرا بتحديق شديد. انظر: القرطبي، الجامع، 166/18، والشريف الرضي، تلخيص البيان، 300، وأبو حيان، البحر، 311/8.

(2) الآية (الأحزاب، 19).

(3) انظر: الزمخشري، الكشاف، 255/3، وأبو حيان، البحر، 214/7.

(4) انظر: القرطبي، الجامع، 101/14، وانظر ما قاله الطبرسي، مجمع البيان، 108/8.

(5) الآية (غافر، 19).

(6) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 335/8.

بِالعَيْنِ، وَالرّمْزُ بِها، وَالإِغْماضَةُ فيما لا يُحِبُّ اللهُ[1].

وَقَدْ وَرَدَ عَلى دِلالَةِ هذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ الشّريفُ الرَّضِيُّ، فَعَدَّ قَوْلَ الحَقِّ "خائِنَة الأَعْينِ" اسْتِعارَةً يُرادُ بِها الرّيْبُ في كَسْرِ الجَفْنِ، وَمَرامِزِ العُيونِ، وَقَدْ سَمّى الحَقُّ ذلِكَ خِيانَةً لأَنّهُ أَمارَةٌ لِلرّيبَةِ، وَمُجانِبٌ لِلعِفّةِ[2]، وَقَدْ قالَ أبو حَيّانَ في مَعْرِضِ تَعْريجِهِ عَلى خائِنَةِ الأَعْيُنِ وَما تُخْفي الصّدورُ: لَمّا كانَتِ الأَفْعالُ التي يُقْصَدُ بِها التّكَتّمُ بَدَنِيّةً فَأَخْفاها "خائِنَة الأعين" مِنْ كَسْرِ جَفْنٍ، وَغَمْزٍ، وَنَظَرٍ يُفْهِمُ مَعْنًى، أَوْ قَلْبِيّةً ضَميرِيّةً، ذَكَرَ اللهُ أَنّ عِلْمَهُ مُتَعَلّقٌ بِهِما التّعَلّقَ التّامَّ[3].

العَيْنُ المائِلَةُ الزّائِغَةُ:

وَقَدْ تَجَلّى هذا المَعْنى في قَوْلِهِ –تَبارَكَ–: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [4]، وَلِلمَرءِ أَنْ يَتَخَيّلَ في المَوْقِفِ ذاكَ أَعْداءً يَتَرَبّصونَ بِالنّبِيّ وَصَحْبِهِ الدّوائِرَ، وَمُنافِقينَ مُرْجِفينَ في المَدينَةِ، وَخَطَرًا مُحْدِقًا مُحيطًا كَإِحاطَةِ الخَنْدَقِ بِها، وَقَدْ ظَهَرَ ذلِكَ عَلى جَوارِحِهِمْ، فَغَدَتْ دالّةً ناطِقَةً بِلِسانِ المَقالِ وَالحالِ، فَزَيْغُها مَيْلُها عَنْ مُسْتوى نَظَرِها فِعْلَ الوالِهِ الجَزِعِ[5]، فَقَدْ مالَتْ عَنْ كُلِّ شَيءٍ فَلَمْ تَنْظُرْ إِلاّ إِلى عَدُوِّها مُقْبِلاً مِنْ كُلِّ جانِبٍ، "وَعَدَلَتْ عَنْ مَقَرِّها مِنَ الدّهْشَةِ وَالحَيْرَةِ كَما يَكونُ الجَبانُ فَلا يَعْلَمُ ما يُبْصِرُ"[6].

وَقَدْ أَلْمَحَ إِلى هذِهِ الحَرَكَةِ العَيْنِيّةِ الشّريفُ فَقالَ مُسْتَشْرِفًا مَعْنى هذا الوَصْفِ الجَسَدِيّ: "فَالمُرادُ بِهِ تَشَتّتُ أَلْحاظِها، وَعُدولُها عَنْ جِهَةِ اسْتِقامَتِها نَظَرًا إِلى مَطالِعِ الخَوْفِ، وَجَزَعًا مِنْ مَواقِعِ السّيْفِ، وَمِنْ عادَةِ الخائِفِ المُتَوَقِّعِ أَنْ يَكْثُرَ التِفاتُهُ، وَتَتَقَسّمَ أَلْحاظُهُ"[7].

---

(1) انظر: القرطبي، الجامع، 198/15.

(2) انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان، 242.

(3) انظر: أبو حيان، البحر، 438/7.

(4) الآية (الأحزاب، 10).

(5) انظر: أبو حيان، البحر، 211/7.

(6) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 95/8، والقرطبي، الجامع، 95/14.

(7) انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان، 218.

العَيْنُ الضّيّقَةُ الكَليلَةُ:

وَقَدْ تَجَلّى هذا المَعْنى في قَوْلِ الحَقّ: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [1]، وَقَدْ وَقَفَ بَعْضُ القَرَأةِ عِنْدَ "خاشِعينَ" مُسْتَشْرِفين مَفْصِلاً صَوْتِيّاً لِلإبانَةِ عَنِ المَعْنى، ذاهِبينَ إلى أَنَّ شِبْهَ الجُمْلَةِ "مِنَ الذّلّ" مُتَعَلّقٌ بـ"يَنْظرونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ"[2]، وَقَدِ الْتَمَسَ المُفَسّرونَ مِنْ قَوْلِ الحَقّ "طَرْفٍ خَفِيٍّ" دِلالاتٍ مُتَعَدّدةً، فَقَدْ يَكونُ أَنّهم لا يَرْمُقونَ أَبْصارَهُمْ لِلنّظَرِ رَمقًا تامّاً، لأَنَّهُمْ ناكِسو الرُّؤوسِ، وَالعَرَبُ تَصِفُ الذّليلَ بِغَضِّ النّظَرِ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ، وَكَأَنّ حَرَكَةَ عَيْنِهِمْ تُفْضي إلى القَوْلِ بِأَنّهُمْ يَنْظُرونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ، وَقَدْ يَكونُ أَنّهُمْ يَنْظُرونَ إِلَيْها بِجَميعِ أَبْصارِهِمْ لِما يَرَوْنَ مِنْ أَصْنافِ العَذابِ[3]، وَلَعَلّ الأَشْبَهَ وَالأَلْيَقَ بِمَقْصودِ الكَلامِ أَنّ المُتَعَيّنَ مِنْ وَصْفِ هذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ أنّ نَظَرَهُم إِلَيْها هُوَ نَظَرُ الخائِفِ الذّليلِ، وَالمُرْتابِ الظّنينِ الذي لا يَنْظُرُ إِلاّ مُسْتَرِقًا، وَلا يَغُضُّ إِلاّ مُشْفِقًا[4].

وَالحَقّ أَنَّ الزّمَخْشَرِيَّ قَدِ اسْتَشَفَّ هذا المَعْنى قَبْلاً، فَأَلْمَحَ إلى أنّ نَظَرَهُمْ يَبْتَدِئُ مِنْ تَحْريكٍ لأَجْفانِهِمْ ضَعيفٍ خَفِيٍّ بِمُسارَقَةٍ، كَما تَرى المَصْبورَ يَنْظُرُ إلى السّيْفِ، وَهكَذا نَظَرُ النّاظِرِ إلى الكارِهِ، وَلا يَقْدرُ أَنْ يَفْتَحَ أَجْفانَهُ عَلَيْها، وَيَمْلأَ عَيْنَهُ مِنْها كَما يَفْعَلُ في نَظَرِهِ إلى المُتَحابّ[5].

وَبَعْدُ، فَبابُ الحَديثِ عَنِ العُيونِ يَطولُ، وَفَضْلُها في الدِّلالَةِ وَالتّواصُلِ ظاهِرٌ لا يَخْفى عَلى المَرْءِ في مُخاطَباتِهِ اليَوْمِيّةِ، وَحَسْبي بَعْدَ ذلِكَ كُلِّهِ قَوْلُ الشّاعِرِ مُسْتَشْرِفًا فَضْلَ العَيْنِ في التّواصُلِ، مُلتَمِسًا وَشائِجَ بَيْنَ العَيْنِ وَالقَلْبِ، مُقَرِّرًا صَمْتَ الأَفْواهِ، وَنُطْقَ العُيونِ في مَواضِعَ:

إِنَّ العُيونَ عَلى القُلوبِ شَواهِدٌ فَبَغيضُها لَكَ بَيِّنٌ وَحَبيبُها

---

(1) الآية(الشورى، 45).

(2) انظر: القرطبي، الجامع، 31/16، وأبو حيان، البحر، 501/7.

(3) انظر: القرطبي، الجامع، 31/16، والطبرسي، مجمع البيان، 43/9.

(4) انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان، 250.

(5) انظر: الزمخشري، الكشاف، 474/3، وأبو حيان، البحر، 501/7.

وَإذا تَلاحَظَــتِ العُيــونُ تَفاوَضَــتْ وَتَحَــدَّثَتْ عَمّــا تُجِــنُّ قُلوبُهــا
يَــنْطِقْنَ وَالأَفْــواهُ صــامِتَةٌ فَمــا يَخْفــى عَلَيْــكَ بَريئُهــا وَمُريبُهــا[1]

مِنْ دِلالاتِ حَرَكَةِ اليَدِ

يَتَجَلّى مَعْنى النّدَمِ مِنْ حَرَكاتٍ جَسَدِيّةٍ في ثَلاثِ هَيْئاتٍ مِضْمارُها اليَدُ، وَهِيَ:

- ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [2].
- ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [3].
- ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ [4].

هـا نَحـنُ أولاءِ نَعـودُ إِلـى ظـاهِرَةِ التّـرادُفِ فـي الحَرَكَـةِ الجَسَـدِيّةِ؛ ذلِـكَ أنّ هـذِهِ الحَرَكاتِ الثّلاثَ تَلْتَقي عَلى مَعْنًى واحِدٍ جِماعُهُ النّدامَةُ وَالأَسَفُ.

- أَمّا الأولى فَهِيَ حِكايَةُ حالِ رَجُلٍ أَصْبَحَ يُقَلّبُ كَفَّيْهِ نَدامَةً عَلى ما أَنْفَقَ في جَنّتِهِ لَمّا أُحيطَ بِثَمَرِهِ، فَقَدْ أَلْفاها خاوِيَةً عَلى عُروشِها.
- أَمّا الثّانِيَةُ فَهِيَ حِكايَةُ حالِ ظالِمٍ يَعَضُّ عَلى يَدَيْهِ نَدامَةً، فَالأَخِلاّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ إِلاّ المُتّقينَ.
- أَمّا الثّالِثَةُ فَهِيَ حِكايَةُ حالِ قَوْمٍ اتَّخَذوا مِنْ حليّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا مِنْ دونِ اللهِ، فَلَمّا فاؤوا إِلى رُشْدِهِمْ، وَسُقِطَ في أَيْديهِمْ، اعْتَرَفوا بِذُنوبِهِمْ.

وَاللاّفِتُ لِلخاطِرِ أَنّ هـذِهِ الآياتِ الثّلاثَ تَتَقارَبُ في سياقِها الكُلّيّ وَحَرَكَتِها، فَأَوّلُها، كَما يَظْهَرُ، ظُلْمٌ للنّفْسِ، كَما كانَ مِنْ أَمْرِ مَنْ أَشْرَكَ بِرَبِّهِ في الأولى، وَالذي اتّخَذَ خَليلَ سوءٍ في الثّانِيَةِ، وَالذين عَبَدوا العِجْلَ في الثّالِثَةِ، وَثانيها نَدَمٌ وَلاتَ حينَ

---

(1) انظر: الآبي، الأنس والعرس، 178، وقد نسبه إلى ابن درهم، وابن عبد ربه، العقد الفريد، 116/2، ونسبه إلى محمود الوراق.

(2) الآية (الكهف، 42).

(3) الآية (الفرقان، 27).

(4) الآية (الأعراف، 149).

المَنْدَمِ، وَيَعْقُبُ هذا كُلَّهُ حالٌ نَفْسِيّةٌ تَظْهَرُ عَلى الجَوارِحِ كَما ظَهَرَتْ عَلى اليَدِ، فَالأوّلُ أصْبَحَ يُقَلّبُ كفَّيْهِ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، وَهَيئَةُ تَقْليبِ الكَفَّيْنِ أنْ يُبْدِيَ باطِنَ كَفِّهِ، ثُمّ يُعَوّجَ كَفَّهُ حَتّى يَبْدُوَ ظَهْرُها، وَهِيَ فِعْلَةُ النّادِمِ المُتَحَسِّرِ عَلى شَيْءٍ قَدْ فاتَهُ، المُتَأسِّفِ عَلى فُقْدانِهِ، وَقيلَ أَصْبَحَ يَصْفِقُ بِيَدَيْهِ[1].

أَمّا في الثّانِيَةِ، وَهِيَ عَضُّ الظّالِمِ عَلى يَدَيْهِ، فَهِيَ كَذلِكَ فِعْلَةُ النّادِمِ المُتَفَجّعِ، وَقَدْ عَدَّها أبو حَيّانَ مَجازًا يُعَبّرُ بِها عَنِ التّحَيُّرِ، وَالغَمِّ، وَالنّدَمِ، وَالتّفَجّعِ، فَقَدْ جاءَ في المَثَلِ: "يَأكُلُ يَدَيْهِ نَدَمًا، وَيَسيلُ دَمْعُهُ دَمًا"[2].

أَمّا في الثّالِثَةِ، وَهِيَ السّقوطُ في اليَدِ، فَهذا أُسْلوبٌ كِنائِيٌّ لَيْسَ فيهِ مِنَ الحَقيقَةِ شَيءٌ، فَيُقالُ لِكُلِّ مَنْ نَدِمَ وَعَجزَ عَنْ شَيءٍ: سُقِطَ في يَدِهِ، وَأُسْقِطَ في يَدِهِ[3]. وَلَمّا عَرّجَ الزّمَخْشَرِيُّ عَلى هذِهِ الآيَةِ أشارَ إِلى أَنّ المَعْنى: "اشْتَدّ نَدَمُهُمْ وَحَسْرَتُهُم"، لأَنّ مِنْ شَأْنِ مَنِ اشْتَدّ نَدَمُهُ وَحَسْرَتُهُ أَنْ يَعَضَّ يَدَهُ غَمًّا، فَتَصيرَ يَدُهُ مَسْقوطًا فيها، لأَنَّ فاه قَدْ وَقَعَ فيها[4]، وَقيلَ إِنّها مَأْخوذَةٌ مِنْ هَيْئَةٍ جَسَدِيّةٍ ناطِقَةٍ تَعْتَري النّادِمَ، وَلِذلِكَ يُطَأْطِئُ رَأْسَهُ، وَيَضَعُ ذَقَنَهُ عَلى يَدِهِ، مُعْتَمِدًا عَلَيْها، وَيَظَلُّ عَلى صورَةٍ لَوْ نُزِعَتْ يَدُهُ لَسَقَطَ عَلى وَجْهِهِ، كَأَنَّ اليَدَ مَسْقوطٌ فيها[5]، وَصَفْوَةُ القَوْلِ في هذا الأُسْلوبِ الكِنائِيّ الرّفيعِ أَنّها "لا شَيْءَ عَلى الحَقيقَةِ هُناكَ سُقِطَ في أيْديهِمْ"[6].

---

(1) انظر ما قيل فيها: الصولي، أدب الكتاب، 16، وأبو حيان، البحر، 123/6، والقرطبي، الجامع، 266/10.

(2) انظر: أبو حيان، البحر، 454/6، والقرطبي، الجامع، 19/13، والطبرسي، مجمع البيان، 232/7.

(3) انظر: الفراء، معاني القرآن، 393/1، وأبو عبيدة، مجاز القرآن، 228/1، والأخفش، معاني القرآن، 337، وابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، 172، واليزيدي، غريب القرآن، 138.

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 118/2.

(5) انظر هذه التفاسير: أبو حيان، البحر المحيط، 392/4، وقد عرج على معنى آخر، وهو أنها مأخوذة من "السقيط"، وهو ما يغشى الأرض بالغدوات شبه الثلج، والسقيط يذوب بأدنى حرارة ولا يبقى، ومن وقع في يده السقيط لم يحصل على شيء منه البتة، فصار هذا القول مثلا لكل من خسر، وكانت عاقبته الندامة.

(6) انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان، 60.

وَقَدْ وَقَفَ الزّمخْشَرِيُّ عِنْدَ هذِهِ الحَرَكاتِ مُلْمِحًا إلى ذُيوعِها بَيْنَ النّاسِ، وَتَواضُعِهِمْ عَلى مَعْناها، فَقَدْ أَشارَ إلى أَنّ "عَضَّ الأَنامِلِ، وَاليَدَيْنِ، وَالسّقوطَ في اليَدِ، وَأَكْلَ البَنانِ، وَحَرْقَ الأَسْنانِ، وَالأَرْمَ[1]، وَفُروعَها، كِناياتٌ عَنِ الغَيْظِ وَالحَسْرَةِ، لأَنّها مِنْ رَوافِدِها، فَيَذْكرُ الرّادِفَةَ، وَيَدُلُّ بِها عَلى المَرْدوفِ، فَيَرْتَفِعُ الكَلامُ بِهِ في طَبَقَةِ الفَصاحَةِ، وَيَجِدُ السّامِعُ عِنْدَهُ في نَفْسِهِ مِنَ الرَّوْعَةِ وَالاسْتِحْسانِ ما لا يَجِدُهُ عِنْدَ لَفْظِ المَكْنِيِّ عَنْهُ"[2].

حَرَكَةُ اليَدِ بَيْنَ إيماءَةِ السُّكوتِ وَإِبْداءِ الغَيْظِ:

ظَهَرَ هذا المَعْنى مِنَ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ في قَوْلِ الحَقِّ –تَقَدَّسَ اسْمُهُ-: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ [3]، وَقَدْ تَباينَتْ أَقْوالُ المُفَسِّرينَ في اسْتِشْفافِ هَيْئَةِ "رَدِّ أيْديهِمْ في أَفْواهِهِمْ" تَبايُنًا انْبَنى عَلَيْهِ اخْتِلافٌ في دِلالَةِ هذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ، فَقَدْ قيلَ:

- إنّها تومِئُ إلى الغَيْظِ وَالكَيْدِ، فَقَدْ جَعَلوا أيْدِيَ أَنْفُسِهِمْ في أَفْواهِ أَنْفُسِهِمْ لِيَعَضّوها غَيْظًا، وَقَريبٌ مِنْ هذا قَوْلُهُ – تَعالى-: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[4].
- إنّها تومِئُ إلى الحَيْرَةِ وَالعَجَبِ؛ ذلِكَ أَنّهُمْ سَمِعوا كِتابَ اللهِ، فَعَجِبوا وَرَجَعوا إلى أَنْفُسِهِم، وَرَدّوا أَيْدِيَهُم إلى أَفْواهِهِمْ مُطْرِقينَ مُتَأَمِّلينَ.
- إنّها إشارَةٌ مَعْناها "اسْكُتْ"، فَلَمّا قالَ لَهُمْ رَسولُ اللهِ إنّهُ رَسولٌ مِنَ اللهِ إلَيْهِمْ أَشاروا بِأَصابِعِهِمْ إلى أَفْواهِهِمْ أَنِ اسْكُتْ تَكْذيبًا لَهُ، وَرَدّاً لِقَوْلِهِ، وَاسْتِبْشاعًا لِما جاءَ بِهِ.
- إنّها تُومِئُ بِالهُزْءِ وَالضّحِكِ، فَمِنْ عادَةِ مَنْ يَغْلِبُهُ الضّحكُ أَحْيانًا أَنْ يَرْفَعَ يَدَهُ إلى فيهِ[5].

---

(1) أَرَم على الشيء: عض عليه، وأَرَمه أكله.

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 89/3، وأبو حيان، البحر، 454/6.

(3) الآية (إبراهيم، 9).

(4) الآية (آل عمران، 119).

(5) انظر هذه المعاني وغيرها: القرطبي، الجامع، 226/9، والطبرسي، مجمع البيان، 48/6-49، وأبو حيان، البحر، 397/5.

مِنْ دِلالاتِ حَرَكَةِ الأَصابِعِ

يَظْهَرُ مِنْ حَرَكَةِ الأصابعِ في التّنْزيلِ العَزيزِ أَنّها مومِئَةٌ إلى ثَلاثِ دِلالاتٍ:

- أَوّلُها الخَوْفُ.
- وَثانيها الغَيْظُ.
- وَثالِثُها التّصامُمُ.

وَهذِهِ الدِّلالاتُ تَجَلّتْ في الآياتِ الشَّريفاتِ التّالِياتِ:

- ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [1].
- ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [2].
- ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ﴾ [3].

إِخالُ أَنَّ الحَرَكةَ المُتَجَلِّيَةَ في الآيَةِ الأولى إِنّما تَدُلُّ عَلى الخَوْفِ، وَلَعَلَّ الذي يَسْنَدُ ذلِكَ هُوَ اسْتِشْرافُ السّياقِ القُرْآنِيِّ الشّريفِ، فَهُوَ آخِذٌ في مَقامِ الحَديثِ عَنِ البَرْقِ الذي يَكادُ يَخْطَفُ الأَبْصارَ، وَإِذا كانَتْ تِلْكَ حالَهُمْ مَعَ البَرْقِ، فَكَيْفَ حالُهُمْ مَعَ مِثْلِ ذلِكَ الرَّعْدِ؟[4].

وَقَدْ جَنَحَ بَعْضُ المُفَسِّرينَ إِلى أَنَّ في دِلالَةِ هذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ القائِمَةِ مَقامَ دِلالَةِ الخَوْفِ اللّفْظِيَّةِ اتِّساعًا مَجازِيًّا، فَالمُرادُ "الأَناملُ" لا الأَصابعُ، وَقَدْ جاءَ ذلِكَ لِنُكْتَةٍ بَلاغِيّةٍ في ذِكْرِ الأَصابعِ لِما فيها مِنَ المُبالَغَةِ ما لَيْسَ في ذِكْرِ الأَناملِ، فَالمَجْعولُ مِنَ الأَصابعِ في الآذانِ رُؤوسُها؛ ذلِكَ أَنَّ فيهِ إِشْعارًا بِأَنَّهُمْ يُبالِغونَ في إِدْخالِ أَصابِعِهِمْ في آذانِهِمْ فَوْقَ العادَةِ المُعْتادَةِ في ذلِكَ فِرارًا مِنْ شِدّةِ الصَّوْتِ[5].

وَلَعَلَّ الذي يَنْبَغي خَتْمُ هذِهِ المُباحَثَةِ الجُزْئِيّةِ بِهِ أَمْرانِ:

---

(1) الآية (البقرة، 19).

(2) الآية (نوح، 7).

(3) الآية (آل عمران، 119).

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 216/1.

(5) انظر: الزمخشري، الكشاف، 217/1.

- أَوّلُهُما دِلالِيٌّ.
- وَثانيهِما جَمالِيٌّ بَيانِيٌّ.

أمّا الدِّلالِيُّ فَإِنَّ قَوْلَهُ الشّريفَ "يَجْعَلونَ أَصابِعَهُم في آذانِهِم" في هذا السِّياقِ عَلى وَجْهِ التَّعْيينِ يَدُلُّ في مُعْجِمِ لُغَةِ الجَسَدِ عَلى الخَوْفِ، بَلْ عَلى المُبالَغَةِ في الخَوْفِ وَالتّوَقّي مِنْهُ. وَأَمّا الجَمالِيُّ البَيانِيُّ فَهُوَ قائِمٌ عَلى كَوْنِ قَوْلِهِ –تَعالى-: "يَجْعَلونَ أَصابِعَهُمْ" ذا أَلَقٍ جَمالِيٍّ مُشِعٍّ يَفوقُ التَّعْبيرَ المُباشِرَ "يَخافونَ"، فَكان هذا الوَصْفُ الحَرَكِيُّ وَصْفًا لِحالٍ نَفْسِيّةٍ تَعْتَريهم في سياقِهِمْ ذاكَ، وَرَسْمًا حَرَكِيًّا صورِيًّا مادّتُهُ الأَلْفاظُ اللّغَوِيّةُ المُنْبِئَةُ عَنِ المَعْنى.

أمّا الآيَةُ الثّانِيَةُ المُتَقَدِّمُ بَيانُها فَقَدِ اشْتَمَلَتْ عَلى ذِكْرِ الأَصابِعِ كَما الأُولى، وَلكِنَّ الدِّلالَةَ المُنْبِئَةَ عَنْها مُغايِرَةٌ، وَلَعَلَّ هذا يُفْضي بِنا إِلى رَجيعٍ مِنَ القَوْلِ في تَعْريفِ المُشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ، فَالكَلِمَةُ الواحِدَةُ، وَهِيَ دالٌّ، قَدْ يَقَعُ تَحْتَها مَعْنيانِ أَوْ أَكْثَرُ، وَلا يَتَعَيّنُ أَحَدُهُما في الغالِبِ إِلاّ بِالمُضِيِّ مَعَ السِّياقِ وَاسْتِشْرافِ حُدودِهِ وَضَمائِمِهِ، وَكَذلِكَ الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ؛ فَهِيَ دالٌّ يَصْدُقُ عَلَيْهِ تَعْريفُ المُشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ الحَمّالِ لِمَعْنَيَيْنِ أَوْ مَعانٍ، وَمِن ذلِكَ ما أَنا خائِضٌ فيهِ، فَفي الأولى كانَتْ دِلالَةُ الحَرَكَةِ الخَوْفَ الشّديدَ، وَفي هذِهِ الثّانِيَةِ كانَتْ دِلالَةُ الحَرَكَةِ نَفْسِها التّصامُمَ وَالمُبالَغَةَ في الإِنْكارِ لِئَلاّ يَسْمَعوا دَعْوَةَ الحَقِّ، وَزادوا عَلى ذلِكَ مُماحَكَةً وَمُعاياةً وَإِنكارًا حَرَكَةً أُخْرى تَحْمِلُ كُلَّ تِلْكُمُ الدِّلالاتِ، وَهِيَ اسْتِغْشاءُ الثِّيابِ، وَتَغْطِيَةُ الوُجوهِ لِئَلاّ يَرَوْهُ، فَهُمْ يَرْفُضونَ السّماعَ وَالرّؤْيَةَ: سَماعَ الدّعْوَةِ، وَرُؤْيَةَ الدّاعي، "فَاستِغْشاء الثّيابِ إِذًا زِيادَةٌ في سَدِّ الآذانِ حَتّى لا يَسْمَعوا، أَوْ لِتَنْكيرِهِمْ أَنْفُسَهُم حَتّى يَسْكُتَ، أَوْ لِيُعَرِّفوهُ إِعْراضَهُمْ عَنْهُ، وَقيلَ هُوَ كِنايَةٌ عَنِ العَداوَةِ"[1]، كُلُّ ذلِكَ كانَ بُغْضًا وَإِنْكارًا وَتَوَلِّيًا عَنْ سَماعِ النّصْحِ، أَوْ رُؤْيَةِ النّاصِحِ الأَمينِ[2].

أَمّا الآيَةُ الشّريفَةُ الثّالِثَةُ فَهِيَ التي تُنْبِئُ عَن حالِ أَفْرادِ البِطانَةِ الذين لا يَأْلون

(1) انظر: القرطبي، الجامع، 194/18، وانظر ما قاله الزمخشري، الكشاف، 162/4، والطبرسي، مجمع البيان، 104/10، وأبو حيان، البحر، 332/8.

(2) انظر: أبو حيان، البحر، 332/8.

المُسْلِمينَ خَبالاً، وَاللّطيفُ المُعْجِبُ في هذا الخِطابِ القُرْآنِيّ الرّائِقِ الرّاقي أنّهُ قامَ في هـذا السّـياقِ عَلى المُقابَلَـةِ التّصْـويريَّةِ، فَـثَمَّ فِئَـةٌ مُؤْمِنَـةٌ، وَتُقـابِلُهُمْ بِطانَـةٌ مِـنَ اليَهـودِ أوِ المُنافِقينَ كـافِرَةٌ، وَثَـمَّ حُـبٌّ يَقَـعُ مِـنْ بَعْضِ المُسْـلِمينَ يُقابِلُـهُ كُرْهٌ يَقَـعُ مِنَ البِطانَـةِ، وَثَـمَّ إيمانٌ يُقابِلُهُ كُفْرٌ، وَثَمّ اصْطِناعُ التَّوادِّ في الظّاهِرِ، وَإِضْـمارُ الغَيْظِ وَالعَداوَةِ في الباطِنِ، وَهُمْ يَقولونَ آمِنوا بِالذي أُنْزِلَ عَلى الذينَ آمَنوا وَجْهَ النّهارِ، وَاكْفُروا آخِرَهُ.

وَقَـدْ وَرَدَ فيهـا حَرَكَـةٌ جَسَـدِيّةٌ أُخْـرى مِضْـمارُها الأَنامِـلُ، وَهِـيَ دالّـةٌ عَلى التّغَيّظِ، وَالتّحَرُّقِ، وَالحَنَقِ، قائِمَةٌ عَلى تَصْويرِ المُقابَلَةِ في المَشاعِرِ بَيْنَ الباطِنِ وَالظّاهِرِ: ظاهِرِ النِّفـاقِ وَاصْـطِناعِ المَـوَدَّةِ مِصْـداقًا لِقَوْلِـهِ -تَعـالى-: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾[1]، وَبـاطِنِ الكُفْرِ، وَالغَيْظِ، وَالإِنْكارِ المُتَمَثّلِ في الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ المَرْسومَةِ بِالكَلِماتِ، وَالمُقابِلَةِ لِلصّورَةِ الأُخْرى، وَالجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، فَكانَ جَوابُ إِتْيانِهِمْ عَضَّ الأَنامِلِ مِنَ الغَيْظِ قَوْلَهَ الحَقَّ: ﴿لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ﴾[2].

وَقَدْ تَكونُ هذِهِ الحَرَكَةُ في سِياقِها القُرْآنِيّ الشَّريفِ فِعْلاً حَقيقِيًّا أَتى بِهِ هؤُلاءِ، وَقَدْ تَكـونُ كِنايَـةً، وَالأَمْـرانِ مُحْـتَمَلانِ، وَقَـدْ ذَهَـبَ أَبـو حَيّـانَ إِلـى أنَّ ظـاهِرَ هـذِهِ الحَرَكَـةِ الجَسَدِيّةِ فِعْلُ ذلِكَ، فَوَقَعَ مِنْهُمْ عَضُّ الأَنامِلِ لِشِدَّةِ الغَيْظِ مَعَ عَدَمِ القُدْرَةِ عَلى إِنْفاذِ ما يُريدونَ، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبي طالِبٍ:

وَقَدْ صالَحوا قَوْمًا عَلَيْنا أَشِحَّةً يَعَضّونَ عَضًّا خَلْفَنا بِالأَباهِمِ[3].

مِنْ دِلالاتِ الوَجْهِ وَإيحاءاتِهِ

تَقَـدّمَ قَـبْلاً فـي بـابِ القَـوْلِ عَلـى الأَنْظـارِ المُمَهّـدَةِ أَنَّ أَهْـلَ هـذا الـدَّرْسِ يُقَسِّـمُونَ الحَرَكـاتِ الجَسَـدِيّةَ قِسْـمَيْنِ: فِطْرِيّـةً باعِثُهـا فِطْـرَةُ اللهِ التي فَطَـرَ الخَلْـقَ عَلَيْهـا، وَمُكْتَسَـبَةً تَتَخَلّـقُ عِنْـدَ المَـرْءِ بِالاكْتِسـابِ وَالـتّعَلّمِ، وَالـذي يَخُـصُّ هـذِهِ المُباحَثَـةَ فـي هـذا المَقـامِ الضّـرْبُ الأَوّلُ مِـنَ الحَرَكـاتِ؛ أَعْنـي الحَرَكـاتِ الفِطْرِيّـةَ، فَقَـدْ تَـرَدّدَتْ بَـيْنَ سِـتّةِ مَعـانٍ

(1) الآية (آل عمران، 119).

(2) الآية (آل عمران، 119).

(3) انظر: أبو حيان، البحر، 44/2، وانظر كذلك: الزمخشري، الكشاف، 459/1، والطبرسي، مجمع البيان، 288/2، والقرطبي، الجامع، 117/4.

سُمِّيَتْ بِالانْفِعالاتِ السّتّةِ العالَمِيّةِ، وَهِيَ مِمّا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالوَجْهِ وَتعْبيراتِهِ وَإيماءاتِهِ المُنْبِئَةِ عَنْ مَعانٍ، وَالحَمّالَةِ لِدِلالاتٍ تُقْتَبَسُ مِنْ هذا المَجْرى الصّامِتِ لا الصّائِتِ، وَقَدْ وَرَدَتْ هذِهِ المَعاني في التّنْزيلِ العَزيزِ في مَواضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، وَكانَ الوَجْهُ بِجُمْلَتِهِ الباعِثَ الأَوَّلَ، وَالدّالَّ المُعَبِّرَ المُخَصِّصَ لِتِلْكُمُ المَعاني المُتَباينَةِ بِتَبايُنِ السِّياقاتِ، فَظَهَرَتْ:

- دِلالَةُ البَهْجَةِ وَالحُبورِ في قَوْلِ الحَقِّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩﴾ [1].
- وَدِلالَةُ الخَوْفِ في قَوْلِ الحَقِّ: "﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ [2]، وَكَذلِكَ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ [3].
- وَدِلالَةُ الغَضَبِ في قَوْلِ الحَقِّ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢﴾ [4]، وَكَذلِكَ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾ [5].
- وَدِلالَةُ الاشْمِئْزازِ المَقْرونَةُ بِالغَضَبِ في قَوْلِ الحَقِّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾ [6].
- وَدِلالَةُ التّعَجّبِ في قَوْلِ الحَقِّ: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩﴾ [7].

وَمِمّا يَنْضافُ إِلى تِلكُمُ الدِّلالاتِ:

- دِلالَةُ الرّاحَةِ وَالتّنَعُّمِ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤﴾ [8]، وَكَذلِكَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ [9].
- دِلالَةُ العِبادَةِ وَحُسْنِ السَّمْتِ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [10].
- دِلالَةُ الانْقِياد وَالاسْتِسْلامِ: "﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [11].
- دِلالَةُ الضَّلالِ وَالتّخَبّطِ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢﴾ [12].

وَالذي يَظْهَرُ بِجلاءٍ في جُلِّ هذِهِ الآياتِ أَنّها تَقومُ عَلى رَسْمِ مَشاهِدَ مُتَقابِلَةٍ يَوْمَ

---

(1) الآية (عبس، 38-39).
(2) الآية (القيامة،24-25).
(3) الآية (عبس، 40-41).
(4) الآية (المدثر،21-22).
(5) الآية (النحل، 58).
(6) الآية (الحج، 72).
(7) الآية (الذاريات، 29).
(8) الآية (المطففين، 24).
(9) الآية (الغاشية، 8).
(10) الآية (الفتح، 29).
(11) الآية (طه، 111).
(12) الآية (الملك، 22).

القِيامَةِ، وَقَدْ كانَ عِمادُ هذا الرَّسْمِ تَصْويرَ الهَيْئاتِ الخارِجِيّةِ المُنْبِئَةِ عَنِ الأَحْوالِ النَّفْسِيّةِ في مَقامِ العَرْضِ عَلى اللهِ، وَفي مَقامِ الفَوْزِ أَوِ الخُسْرانِ المُبينِ، وَقَدْ تَجَلّى ذلِكَ بِالوَصْفِ الجَسَدِيّ عامّةً، وَالوَجْهِيّ خاصّةً لِما لِلْوَجْهِ مِنْ بَيانٍ، وَتَبْيينٍ، وَإِبانَةٍ تَتَقَدّمُ اللَّفْظَ في ذلِكَ المَوْقِفِ:

- فَثَمَّ وُجوهٌ تَبْيَضُّ.
- وَأُخْرى تَقِفُ وُجاهَها مُسْوَدّةً.
- وَثَمّ وُجوهٌ مُسْفِرَةٌ، مُضيئَةٌ مُتَهَلِّلَةٌ كَالصّبْحِ إِذا أَسْفَرَ.
- وَثَمَّ وُجوهٌ يَعْلوها السّوادُ وَالغُبارُ استيحاشًا وَخَوْفًا مِمّا قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ.
- وَثَمَّ وُجوهٌ ناضِرَةٌ مِنْ نُضْرَةِ النّعيمِ قَدْ وَجَدَتْ ما وَعَدَ رَبُّها حَقًّا.
- وَثَمَّ وُجوهٌ أُخْرى باسِرَةٌ خائِفَةٌ شَديدَةُ العُبوسِ تَتَرَقّبُ أَنْ يُفْعَلَ بِها داهِيَةٌ تَقْصِمُ فِقارَ الظَّهْرِ[1]، وَهكذا تَمْضي هذِهِ المُقابَلاتُ بَيْنَ هذَيْنِ الفُسْطاطَيْنِ في مَشْهَدٍ غَيْبِيٍّ صوَّرَه الحَقُّ تَصْويرًا يَسْتَشْرِفُ فيه المَرْءُ الظّاهِرَ وَالباطِنَ، أَمّا الظّاهِرُ فَهُوَ وَصْفُ الأَحْوالِ الجَسَدِيّةِ، وَأَمّا الباطِنُ فَهُوَ وَصْفُ الأَحْوالِ النَّفْسِيّةِ، فَغَدا مَشْهَدًا حَيًّا واقِعًا لِمَنْ تَدَبَّرَ أَوْ تَبَصَّرَ.

أَمّا دِلالَةُ الغَضَبِ في سِياقِ الآيَةِ الشّريفَةِ فَقَدِ التَفَتَ إِلَيْها ثُلّةٌ مِنَ المُفَسِّرينَ كَالزَّمَخْشَرِيّ، وَالقُرْطُبِيّ، وَأبي حَيّانَ، فَأَشاروا إِلى أَنّهُ قَطَّبَ وَكَلَحَ لَمّا ضاقَتْ عَلَيْهِ الحِيَلُ، وَقيلَ قَطَّبَ في وَجْهِ رَسولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ثُمَّ زَحَفَ مُدْبِرًا، وَتَشاوَسَ مُسْتَكْبِرًا[2]، وَقَدْ أَشارَ القُرْطُبِيُّ إِلى أَنّهُ قَطَّبَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ في وُجوهِ المُؤْمِنينَ، وَالعَبْسُ مَصْدَرُ "عَبَسَ"، وَمَعْناه التَّقْطيبُ، وَ"بَسَرَ" مَعْناه أَنّ وَجْهَهُ تَغَيَّرَ وَاسْوَدَّ[3]، وَقيلَ إِنَّ الباسِرَ هُوَ الشَّديدُ العُبوسِ[4].

أَمَّا دِلالَةُ الاشْمِئْزازِ، وَلَعَلَّها تَكونُ مُرَكَّبَةً مَقْرونَةً بِالغَضَبِ وَالتّجَهُّمِ، فَقَدْ ظَهَرَتْ

(1) انظر ما قاله: الزمخشري، الكشاف، 192/4، والقرطبي، الجامع، 147/19.

(2) انظر ما قيل عن هذه الآية: الزمخشري، الكشاف، 183/4، والقرطبي، الجامع، 50/19، وأبو حيان، البحر، 366/8.

(3) انظر: القرطبي، الجامع، 50/19.

(4) انظر: الزمخشري، الكشاف، 192/4.

جَلِيّةً في وَصْفِ الحَقِّ "تَعْرِفُ في وُجوهِ الذين كَفَروا المُنْكَرَ"، وَقَدْ ذَهَبَ أَبو حَيّانَ إِلى أَنَّ المُنْكَرَ في سِياقِهِ ذاكَ المَساءَةُ، وَالتّجَهّمُ، وَالبُسورُ، وَالبَطْشُ الدّالُّ عَلى سوءِ المُعْتَقَدِ، وَخُبْثِ السَّريرَةِ؛ "لأَنَّ الوَجْهَ يَظْهَرُ فيهِ التّرَحُ وَالفَرَحُ اللّذانِ مَحَلُّهُما القَلْبُ"[1].

أَمّا دِلالَةُ التّعَجُّبِ المُعَبّرُ عَنْها بِحَرَكَةٍ جَسَدِيّةٍ شائِعَةٍ فَكانَتْ صَكَّ الوَجْهِ، وَقَدْ وقَفَ ابنُ جِنّي عِنْدَ هذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ في مَقامٍ آخَرَ، مُلْتَمِسًا فَضْلَها في الكَشْفِ عَنِ الحالَةِ النّفْسِيّةِ التي تَعْتَري مَنْ يَأْتيها، وَإِيحاءاتِها المُتَجَلّيَة في ظِلالِ التّعَجّبِ وَالبَهْتِ، فَوَرَدَ عَلى حادِثَةِ "صَكِّ الوَجْهِ" التي هِيَ حِكايَةُ شِكايَةِ امْرَأَةٍ[2].

وَمِمّا يُمْكِنُ أَنْ يَنْضافَ إِلى دِلالاتِ الوَجْهِ وَإِيحاءاتِهِ حَرَكَتانِ وَرَدَتا في التّنْزيلِ العَزيزِ، وَهُما تَصْعيرُ الخَدِّ، وَثَنْيُ العِطْفِ، وَالحَقُّ أَنَّهُما تَنْتَسِبانِ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ إِلى مَبْحَثِ "الوَجْهِ"، وَقَدْ تُثْبِتانِ في مَوْضِعٍ آخَرَ مُسْتَقِلٍّ، وَقَدِ ارْتَضَيْتُ إِثْباتَهُما هٰهُنا لِما في ذلِكَ مِنْ لُحْمَةٍ وَوَشائِجَ بَيْنَ هاتَيْنِ الحَرَكَتَيْنِ وَالوَجْهِ، بَلْ إِنَّ الوَجْهَ يَتّسِعُ لإِدْراجِهِما فيهِ، وَهُما عَلى النَّحْوِ الآتي:

- **تَصْعيرُ الخَدِّ**:

يَظْهَرُ مَعْنى الكِبْرِ وَالخُيَلاءِ عَلى الإِنْسانِ في هَيئاتٍ مُتَباينَةٍ، فَقَدْ يَشي بِهذا المَعْنى لَفْظٌ يَصْدُرُ مِنْ مُتَلَفِّظٍ ما، وَقَدْ تَدُلُّ عَلَيْهِ هَيئَةٌ جَسَدِيّةٌ تَظْهَرُ عَلى الجَوارِحِ، فَتَغْدو ناطِقَةً كَما اللّفْظِ، فَيُقالُ إِنّهُ مُتَكَبّرٌ مَزْهوٌّ بِنَفْسِه، وَهَيئَةُ "تَصْعيرِ الخَدِّ" واحِدَةٌ مِنَ التي تَظْهَرُ عَلى الجَوارِحِ، وَأَصْلُ ذلِكَ مَأْخوذٌ مِنَ الصَّعَرِ الذي هُوَ داءٌ يُصيبُ البَعيرَ فَيَلْوي مِنْهُ عُنُقَهُ[3]، وَقَدْ وَقَفَ المُفَسِّرونَ عِنْدَ هذِهِ الدّلالَةِ الآتِيَةِ مِنْ هذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ في قَوْلِ الحَقِّ –تَقَدَّسَ اسْمُهُ–: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾[4]:

---

(1) انظر: أبو حيان، البحر، 358/6.

(2) تقدم ذلك في باب القول على لغة الجسد عند ابن جني، وتعليقه على قول الشاعر "تقول وصكت وجهها بيمينها".

(3) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 67/8، والزمخشري، الكشاف، 234/3، والقرطبي، الجامع، 47/14، وابن منظور، اللسان، مادة "صعر".

(4) الآية (لقمان، 18).

- فَالزّمَخْشَرِيُّ يَرى أنَّ المُتَعَيّنَ هُو: أَقْبِلْ عَلى النّاسِ بِوَجْهِكَ تَواضُعًا، وَلا تُوَلِّهِمْ شِقَّ وَجْهِكَ وَصَفْحَتَه كَما يَفْعَلُ المُتَكَبّرونَ[1].

- وَالقُرطُبِيّ يَقولُ: لا تُمِلْ خَدَّكَ لِلنّاسِ كِبْرًا عَلَيْهِمْ، وَإِعْجابًا، وَاحْتِقارًا لَهُمْ. وَقيلَ هُو أَنْ تَلْوِيَ شِدْقَكَ إذا ذُكِرَ الرَّجُلُ عِنْدَكَ كَأَنّكَ تَحْتَقِرُهُ، فَأَقْبِلْ عَلَيْهِم مُتَواضِعًا مُسْتَأْنِسًا[2].

- وَالشّريفُ الرّضِيُّ يَقولُ: "فَكَأَنّهُ أَمَرَهُ أَلاّ يَشْمَخَ بِأَنْفِهِ، وَيُعْرِضَ بِوَجْهِهِ مِنَ الكِبْرِ تَشْبيهًا بِالبَعيرِ إذا أصابَهُ ذلِكَ الدّاءُ، ومِنْ صِفاتِ الكِبْرِ رَفْعُ الطّرْفِ حَتّى كَأَنّهُ مَعْقودٌ بِالسّماءِ"[3].

- وَأبو حَيّانَ يَقولُ إنّ المَعْنى: لا تُوَلِّهِمْ بِشِقِّ وَجْهِكَ كَفِعْلِ المُتَكَبِّرِ، وَأَقْبِلْ عَلى النّاسِ بِوَجْهِكَ مِنْ غَيْرِ كِبْرٍ وَلا إِعْجابٍ[4].

- ثَنْيُ العِطْفِ:

وَهذِهِ مِنَ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ التي يُسْتَدَلُّ بِها عَلى مَعْنى الكِبْرِ وَالإِعْراضِ، وَقَدْ وَرَدَ هذا المَعْنى في قَوْلِ الحَقِّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[5].

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ المُفَسِّرين بـ"ثانيَ" عَلى أَنّها مُتَعَلّقَةٌ بِـ"يجادلُ"، وَالمَعْنى الكُلِّيُّ عِنْدَهُمْ قائِمٌ عَلى اسْتِشْرافِ الدّلالَةِ مِنْ هذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ، فَقَدْ قيلَ إنّ المُتَعَيّنَ هُو: يُجادِلُ مُتَكَبّرًا لاوِيًا عُنُقَهُ بِقُبْحٍ، شامِخًا بِأَنْفِهِ[6].

وَقَدْ جَمَعَ الزّمَخْشَرِيُّ بَيْنَ "تَصْعيرِ الخَدِّ" وَ"ثَنْيِ العِطْفِ" تَحْتَ بابٍ دِلالِيٍّ واحِدٍ؛

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 234/3.

(2) انظر: القرطبي، الجامع، 74/14.

(3) انظر: الشريف الرضي، تلخيص المجازات، 213.

(4) انظر: أبو حيان، البحر، 183/7.

(5) الآية (الحج،8-9).

(6) انظر: أبو حيان، البحر، 329/6.

ذلِكَ أنَّ "ثَنْيَ العِطْفِ عبارَةٌ عَنِ الكِبْرِ وَالخُيَلاء، كَتَصْعيرِ الخَدِّ، وَلَيِّ الجيدِ"[1]، وَقَدْ تَأَوّلَها القُرْطُبِيُّ عَلى مَعْنَيَيْن أحَدُهُما لَيُّ العُنُقِ مَرَحًا وَتَعَظّمًا، وَثانيهما لَيُّهُ مُعْرِضًا، وَالعِطْفُ ما انْثَنى مِنَ العُنُقِ، فَكَأَنَّ آتِيَ هذِهِ الحَرَكَةِ "مُعْرِضٌ عَنِ الحَقِّ في جِدالِهِ، وَمُوَلٍّ عَنِ النّظَرِ في كَلامِهِ"[2].

مِنْ دِلالاتِ المِشْيَةِ وَإيحاءاتِها

وَرَدَتِ المِشْيَةُ في غَيْرِ مَوْضِعٍ شَريفٍ في غَيْرِ هَيْئةٍ، وَقَدْ أَعْقَبَ تَباينُ تِلكُمُ الهَيْئاتِ تَبايُنًا في الدّلالاتِ وَالإيحاءاتِ، فَهُناكَ مِشْيَةٌ حَمّالَةٌ لِدِلالَةِ الوَقارِ، وَأُخْرى حَمّالَةٌ لِدِلالَةِ الكِبْرِ وَالتّبَخْتُرِ، وَثالِثَةٌ دالّةٌ عَلى الحَياءِ، وَرابِعَةٌ عَلى الجِدِّ وَالعِنايَةِ، وَخامِسَةٌ باعِثَةٌ عَلى إثارَةِ الشّهْوَةِ، وَسادِسَةٌ عَلى الطّمَأْنينَةِ وَالأَناةِ.

لِنَنْظُرْ في الآياتِ الكَريماتِ:

- ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾[3].
- ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[4].
- ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾[5].
- ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾[6].
- ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾[7].
- ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾[8].
- ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[9].

---

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 6/3.

(2) انظر: القرطبي، الجامع، 12/12، وقد أشار الشريف إلى هذين المعنيين أيضا. انظر: تلخيص البيان، 170.

(3) الآية (الإسراء، 37).
(4) الآية (الفرقان، 63).
(5) الآية (القيامة، 33).
(6) الآية (القصص، 25).
(7) الآية (ياسين، 20).
(8) الآية (لقمان، 19).
(9) الآية (النور، 31).

أَمّا في الآيَةِ الأولى فَفيها نَهْيٌ صُراحٌ عَنْ مِشْيَةٍ ذاتِ هَيْئةٍ تُثيرُ في النَّفْسِ اخْتِيالاً؛ ذلِكَ أَنّها تومِئُ إِلى الكِبْرِ، وَالتّطاوُلِ، وَالشّدَّةِ، وَالمَقْصِدُ مِنْ هذا النَّهْيِ الرّبّانيّ أَمْران:

- أوّلُهُما تَهَكّمٌ بِالمُخْتالِ الظانّ بِنَفْسِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.
- وَثانيهِما التّقْريرُ بِأَنّهُ لَنْ يَجْعَلَ فيها خَرْقًا بِدَوْسِه لَها، وَشِدّةِ وَطْأَتِهِ، وَلَنْ يَبْلُغَ الجِبالَ بِتَطاوُلِهِ[1].

وَقَدْ جاء في "الإِنْصاف": "وَفي هذا التّهَكّمِ وَالتّقريعِ لِمَنْ يَعْتادُ هذِهِ المِشْيَةَ كِفايَةٌ في الانْزِجارِ عَنْها، وَلَقَدْ حَفِظَ اللهُ عَوامَّ زَمانِنا عَنْ هذِهِ المِشْيَةِ، وَتَوَرَّطَ فيها قُرّاؤُنا وَفُقَهاؤُنا"[2]، وَقَدْ قَرَنَ الحَقُّ –تَعالى– بَيْنَ المَرَحِ وَالكِبْرِ؛ ذلِكَ أَنَّ غَلَبَةَ السّرورِ وَالفَرَحِ يَصْحَبُها التّكَبّرُ وَالاخْتِيالُ، وَلِذلِكَ عَلّلَ بِقَوْلِهِ: "إِنّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ..."، وَالمَعنى أَنّكَ لَنْ تَخْرِقَ بِمَشْيِكَ عَلى عَقِبَيْكَ كِبْرًا وَتَنَعّمًا، ولَنْ تَبْلُغَ الجِبالَ بِالمَشْيِ عَلى صُدورِ قَدَمَيْكَ تَفاخُرًا وَطولاً، وَنظيرُهُ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾[3].

أَمّا التَّمَطّي في الآيَةِ الثّالِثَةِ فَهُوَ التَّبَخْتُرُ، وَقَدْ تَبايَنُ وَجْهُ القَوْلِ عَلى أَصْلِهِ الاشْتِقاقِيّ، فَقيلَ إِنَّ الجَذْرَ المُؤَلّفَ هُوَ مِنَ "المَطا"، وَهُوَ الظَّهْرُ، وَالمَعْنى المُتَعَيّنُ: يَلْوي مَطاهُ، وَقيلَ أَصْلُهُ "يَتَمَطَّطُ"، وَالمَعْنى المُتَعَيّنُ التَّمَدُّدُ مِنَ التّثاقُلِ وَالتّكَسُّلِ، فَكَأَنّهُ يَتَثاقَلُ عَنِ الدّاعي إِلى الحَقِّ، وَفي هَيئَةِ تِلكَ المِشْيَةِ دِلالَةٌ عَلى التَّبَخْتُرِ وَقِلّةِ الاكْتِراثِ، "فَالمُطَيْطاءُ التَّبَخْتُرُ وَمَدُّ اليَدَيْنِ في المَشْيِ"[4]، وَقيلَ إِنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في أَبي جَهْلٍ، "وَإِنَّها كانَتْ مِشْيَتَهَ وَمِشْيَةَ قَوْمِهِ بَني مَخْزومٍ، وَكانَ يُكْثِرُ مِنْها"[5].

وَفي مُقابِلِ هذِهِ المِشْيَةِ المَذْمومَةِ وَالمَذْمومِ آتيها مِشْيَةٌ أُخْرى مَنْدوبَةٌ ظَهَرَتْ في سِياقِ الآيَةِ الثّانيةِ، وَهِيَ مِشْيَةُ المُؤْمِنِ في تَؤُدَةٍ، وَسَكينَةٍ، وَحُسْنِ سَمْتٍ، فَلا يَضْرِبُ بِقَدَمِهِ، وَلا يَخْفِقُ بِنَعْلِهِ أَشَرًا وَلا بَطَرًا[6]، وَلِذلِكَ وُصِفَ الرّسولُ في شَمائِلِهِ الشّريفَةِ

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 449/2.

(2) انظر: ابن المُنَيّر، الإنصاف، 449/2.

(3) الآية (الفرقان، 63)، وانظر: أبو حيان، البحر، 34/6.

(4) انظر: القرطبي، الجامع، 75/19.

(5) انظر: أبو حيان، البحر، 381/8.

(6) انظر: الزمخشري، الكشاف، 99/3، وأبو حيان، البحر، 469/6.

بِأنّهُ كانَ يَتَكَفّأُ في مَشْيِهِ كَأنَّما يَمْشي في صَبب[1]. وَفي الآيَةِ الرّابِعَةِ تَظْهَرُ مِشْيَةُ المُتَأدّبِ المُسْتَحْيي، فَقَدْ جاءَتْهُ تَمْشي مُتَحَفِّزَةً مُسْتَحْيِيَةً"[2].

أَمّا مِشْيَةُ السَّعْيِ فَهِيَ دالّةٌ عَلى الجِدِّ وَالعِنايَةِ، وَلِلسَّعْيِ أَمْسِ مَعْنًى مُفارِقٌ لِما رانَ عَلَيْهِ إِلْفُنا اللّغَوِيُّ اليَوْمَ؛ ذلِكَ أنّنا إِذا أَنْعَمْنا النّظَرَ في دِلالَتِها بِاعْتِبارِ الأَصْلِ لا الحالِ، فَإِنّنا سَنَجِدُ أَنّها كانَتْ تَدُلُّ عَلى الإِسْراعِ في المَشْيِ[3]، وَقَدْ جاءَ في اللّسانِ أَنَّ "السّعْيَ عَدْوٌ دونَ الشَّدِّ، وَفي الحَديثِ "إِذا أَتَيْتُمَ الصّلاةَ فَلا تَأْتُوها وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَلكِنِ ائْتوها وَعَلَيْكُمُ السّكينَةُ"،...، فَالسّعْيُ هُنا العَدْوُ، سَعى إِذا عَدا"[4].

وَتَظْهَرُ دِلالَةُ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ المُتَعَيّنَةُ مِنْ هَيئَةِ هذِهِ المِشْيَةِ "السّعْي" في قَوْلِـــــهِ –تَعالى–: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [5]، وكَذلِكَ في قَوْلِهِ: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ...﴾[6]، فَقَدْ قيلَ إِنّ هذا الرّجُلَ كانَ مَنْزِلُهُ عِنْدَ أَقْصى بابٍ مِنْ أَبْوابِ المَدينَةِ، فَلَمّا بَلَغَهُ أَنّ قَوْمَهُ قَدْ كَذَّبوا الرُّسُلَ وَهَمّوا بِقَتْلِهِمْ "جاءَ يَعْدو وَيَشْتَدُّ..."[7].

وَأَمّا في الآيَةِ الأُخْرى فَقَدْ شَرَحَ هَيْئَةَ هذِهِ المِشْيَةِ وَدِلالَتَها أبو حيّانَ فَقالَ: "يَسْعى: يَشْتَدُّ في مَشْيِهِ، وَلَمّا أَمَرَ فِرْعَونُ بِقَتْلِهِ خَرَجَ الجَلاوِزَةُ مِنَ الشّارِعِ الأَعْظَمِ لِطَلَبِهِ، فَسَلَكَ الرّجُلُ طَريقًا أُخْرى أَقْرَبَ إِلى موسى"[8]، وَلِلْقارِئِ أَنْ يَتَخَيّلَ كَيْفَ سَتَكونُ هَيْئَةُ مِشْيَةِ

---

(1) انظر: أبو حيان، البحر، 469/6، وقد أخرج الحديث الترمذي في السنن، باب ما جاء في صفة النبي(3638)، 599/5، وابن حبان في الصحيح، ذكر وصف التكفي، (6310)، 217/14، وابن أبي شيبة في المصنف، (31805)، 328/6.

(2) انظر: الزمخشري، الكشاف، 171/3، وأبو حيان، البحر، 109/7.

(3) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "سعى"، وابن قتيبة، تأويل المشكل، 509.

(4) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "سعى"، والراغب في مفرداته يرى أن السعي المشي السريع، وهو دون العدو، انظر: المفردات، 261.

(5) الآية (ياسين، 20).

(6) الآية (القصص، 20).

(7) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 202/8.

(8) انظر: أبو حيان، البحر، 106/7، والجَلاوِزة مفردها الجِلْواز، وقيل معناها الشُّرَطِيّ.

مَنْ يُريدُ أَنْ يَقولَ لآخَرَ يَهُمُّهُ أمْرُهُ إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعوا لَكَ لِيَقْتُلوكَ...إِنّها السَّعْيُ وَالرَّكْضُ.

أَمّا مِشْيَةُ الإِثارَةِ وَضَرْبُ الأَرْضِ بِالرِّجْلِ إِلْهابًا وَتَهْييجًا فَباعِثَةٌ عَلى لَفْتِ النَّواظِرِ، وَاسْتِدْعاءِ الشَّهْوَةِ مِنْ مَكامِنِها، وَسَيَأْتي فَضْلُ بَيانٍ مُجَلٍّ لَها في بابِ القَوْلِ عَلى المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ بَعْدًا في هذا البَحْثِ.

المُتَمِّماتُ المُسانِدَةُ في التّنْزيلِ العَزيزِ

وَقَدْ كانَ لِلمُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ ظُهورٌ في التّنْزيلِ العَزيزِ، وَفَضْلٌ في الإِبانَةِ وَالتّواصُلِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنّها تُمِدُّنا بِمَعانٍ مَخْصوصَةٍ؛ ذلِكَ أنَّ بَعْضَها تَوابِعُ لأَعْضاءِ الجَسَدِ المومِئَةِ، وكَواشِفُ لِلحالاتِ النّفْسِيّةِ وَالذِّهْنِيّةِ التي تَعْتَري صاحِبَها. وَلْنَنْظُرْ في ثَلاثَةِ مُتَمِّماتٍ وَرَدَتْ في التّنْزيلِ العَزيزِ اسْتِشْرافًا لِدِلالَتِها مِنْ جِهَةٍ، وَما رَمى إِلَيْهِ الحَقُّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرى.

- أَمّا أَوّلُها فَالنَّعْلُ التي بَدا أنَّ خَلْعَها مَجْلَبَةٌ لِلتّبَرّكِ.
- وَأَمّا ثانيها فَالقَميصُ الذي كانَ مَنْبَهَةً عَلى حَصْحَصَةِ الحَقِّ، مَدْعاةً إِلى الوُقوفِ عَلى حقيقَةِ زَعْمٍ رُمِيَ بِهِ بَريءٌ.
- وأَمّا ثالثُها فَالخَلْخالُ الذي هُو مَفسَدَةٌ في سياقِ لَفْتِ النّظَرِ وَإِبْداءِ الزّينَةِ لِغَيْرِ مَنْ يجوزُ لَهُ أنْ يَطّلِعَ عَلَيْها، وَقَدْ تَجَلّى ذلِكَ كلُّه في الآياتِ الشّريفاتِ الآتِياتِ:

- ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [1].
- ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾"[2].
- ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [3].

أمّا "خَلْعُ النَّعْلَيْنِ" فَحَرَكَةٌ جَسَدِيّةٌ تَنْتَسِبُ إِلى المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ، وَلَعَلَّ لَها دِلالاتٍ مُتَباينَةً وَهِيَ مُجَرَّدَةٌ مِنْ سِياقِها، فَقَدْ تَدُلُّ عَلى أنَّ آتيَها بِهِ أذًى مِنْ رِجْلَيْهِ، أوْ بِهِ

(1) الآية (طه، 12).

(2) الآية (النور، 31).

(3) الآية (يوسف، 26-27).

مَسٌّ، أوْ تَواضَعَ في مَقامٍ ما فَخَلَعَ نَعْلَيْهِ تَبَرّكًا وَتَطامُنًا، وَلَعَلَّ الدِّلالَةَ الأخيرَةَ هِيَ المُتَعيّنَةُ مِنْ ذلِكَ السِّياقِ، فَقَدْ قيلَ إنَّ موسى –عَلَيْهِ السّلامُ– أُمِرَ بِذلِكَ لِيُباشِرَ الوادِيَ بِقَدَمَيْهِ مُتَبَرّكًا بِهِ، وَقيلَ لأنَّ الحَفْوَةَ تَواضُعٌ للهِ، وَمِنْ ثَمَّ طافَ السّلَفُ بِالكَعْبَةِ حافينَ، وَمِنْهُم مَنْ اسْتَعْظَمَ دُخولَ المَسْجِدِ بِنَعْلَيْهِ[1].

وَالذي يَتَجَلّى في قَوْلِهِ –تَعالى–: "وَلا يَضْرِبْن" أَنَّ ثَمَّ نَهْيًا عَنِ الإِتْيانِ بِحَرَكَةٍ جَسَدِيّةٍ تَسْنُدُها بَعْضُ المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ، أعْني الخَلْخالَ، وَالمَعْنى المُتَعَيّنُ أَنَّ المَرْأةَ لا يَجوزُ لَها أنْ تَضْرِبَ الأَرْضَ بِرِجْلِها إذا مَشَتْ لِتُسْمِعَ صَوْتَ خَلْخالِها؛ وَلَعَلَّ النّهْيَ عَنْ ذلِكَ كَالنَّهْيِ عَنْ إبْداءِ الزّينَةِ، فَإسْماعُ صَوْتِ الزّينَةِ، وَهِيَ مِنَ المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ، كَإبْداءِ الزّينَةِ في مَذْهَبِ القُرْطُبِيّ[2]، وَالغَرَضُ مِنْ هذا النَّهْيِ عَنْ هذِهِ الحَرَكَةِ هُوَ التّسَتّرُ، وَلَعَلَّ سَبَبَ نُزولِ هذِهِ الآيَةِ هُوَ ما وَقَعَ حَقًّا بِسَببٍ مِنْ هذِهِ الفِعْلَةِ التي أتَتْها امْرَأةٌ اتَّخَذَتْ بُرَتَيْنِ مِنْ فِضّةٍ، فَمَرَّتْ عَلى القَوْمِ فَضَرَبَتْ بِرِجْلِها الأَرْضَ فَوَقَعَ الخَلْخالُ فَصَوَّتَ، وَسَماعُ هذِهِ الزّينَةِ أَشَدُّ تَحْريكًا لِلشَّهْوَةِ مِنْ إبْدائِها"[3].

وَقَدْ ذَهَبَ ابنُ حَزْمٍ بَعيدًا في تَلَمُّسِ خَفايا النّفْسِ الأُنْثَوِيّةِ في إتْيانِ هذِهِ الحَرَكَةِ وَالمُتَمِّمِ المُسانِدِ؛ ذلِكَ أنَّ المَرْأةَ إذا مَرَّتْ عَلى الرِّجالِ قَدْ لا يُلْتَفَتُ إلَيْها، وَلا يُشْعَرُ بِها، وَهِيَ تَكْرَهُ أَلاّ يُنْظَرَ إلَيْها، فَإذا فَعَلْنَ ذلِكَ نَبَّهْنَ عَلى أَنْفُسِهِنَّ، وَذلِكَ بِحُبِّهِنّ في تَعَلّقِ الرّجالِ بِهِنّ، "وَهذا مِنْ خَفايا الإعْلامِ بِحالِهِنّ"[4].

أَمّا القَميصُ، وَهُوَ مِنَ المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ في قِصّةِ يوسُفَ –عَلَيْهِ السّلامُ– فَكانَ ذا سُهْمَةٍ كَبيرَةٍ في تَشْكيلِ القِصّةِ وَحَبْكِها مِنْ مُفْتَتَحِها إلى مُنْتَهاها:

- فَقَدْ كانَ سَبيلاً مِنْ سُبُلِ التّسَتّرِ في إخْفاءِ جَريمَةِ طَرْحِ يوسُفَ أَرْضًا.
- وَسَبيلاً أُخْرى مِنْ سُبُلِ دَرْءِ التّهمَةِ عَنِ النّبِيّ الكَريمِ.
- وَسَبيلاً مُعْجِزَةً في شِفاءِ النّبِيّ أَبي النّبِيّ.

(1) انظر: الزمخشري، الكشاف، 531/2.

(2) انظر: القرطبي، الجامع، 158/12.

(3) انظر: القرطبي، الجامع، 158/12، وانظر ما قيل في هذه الحركة والمتمم المساند: الطبرسي، مجمع البيان، 192/7، وأبو حيان، البحر، 414/6.

(4) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، 414/6، وانظر قول ابن حزم في طوق الحمامة، 121.

وَقَدْ ظَهَرَ في الآياتِ الكَريماتِ التّالِيَةِ:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (1).
- ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (2).
- ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ (3).

فَفي بابِ القَوْلِ عَلى دَرْءِ التّهمَةِ كانَ لِلقَميصِ بَعْدَ المُراوَدَةِ صورَةٌ وَدِلالَةٌ أَفْضَتا إِلى الوُقوفِ عَلى الحَقيقَةِ التي غَدَتْ سائِرَةً عَلى لِسانِ نِسْوَةٍ في المَدينَةِ قائِلاتٍ: امْرَأَةُ العَزيزِ تُراوِدُ فَتاها!! وَلَعَلَّ أَنْظارَ ذلِكَ الرَّجُلِ المُعْجِبَةَ، وَالمُتَبَصِّرَةَ في حالِ ذلِكَ القَميصِ، وَسيلَةٌ مِنَ وَسائِلِ التّحَقّقِ وَالتّثَبُّتِ في مَوْقِعِ الشّبهَةِ أوِ الجَريمَةِ، وَلَيْسَ يَفوتُنا في هذا المَقامِ أنَّ المُحَقِّقينَ في أيّامِنا هذِهِ يَتَشَبَّثونَ بِمِثْلِ تِلْكَ التَّفْصيلاتِ في مَسْرَحِ الحَدَثِ، وَيَجْعَلونَها مِنَ الدَّلائِلِ الهَوادي لِلْحَقيقَةِ في غايَتِهِمْ، وَلِلمَعْنى في غايَتِنا.

وَكَذلِكَ كانَ القَميصُ، في تَشْكيلٍ آخَرَ، وَإِخْراجٍ مَشْهَدِيٍّ مُبايِنٍ لِحالِهِ بَعْدَ المُراوَدَةِ، وَسيلَةً مِنْ أَخْوَةِ يوسُفَ لِلدِّلالَةِ عَلى أَنَّ الذِّئْبَ قَدْ أَكَلَهُ، فَاسْتَعانوا عَلى مَقْصودِهِمْ بِالوَسيلَتَيْنِ:

- الصّائِتَةِ، وَهِيَ كَلامُهُمْ وَقَوْلُهُم لأَبيهِمْ.
- وَالصّامِتَةِ، وَهِيَ اسْتِرْفادُ الدِّلالَةِ مِنَ المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ التي تَوَهَّموها في مَسْرَحِ الجَريمَةِ المُصْطَنَعَةِ.

وَكانَ القَميصُ في سِياقٍ ثالِثٍ ذا دِلالَةٍ مُعْجِزَةٍ؛ إِذْ كانَ رَديفًا لِلدَّواءِ، مَجْلَبَةً لِلشِّفاءِ، مَشْهَدَةً بِحَياةِ صاحِبِهِ وَوُجودِهِ الذي طالَ انْتِظارُهُ، ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (4).

الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ في جَنْبِ اللهِ

وَقَدْ تَكونُ الحَرَكَةُ التي هِيَ في جَنْبِ اللهِ مِمّا لا يُحْمَلُ عَلى مَحْمِلِ الحَقيقَةِ؛ ذلِكَ

(1) الآية (يوسف، 18).
(2) الآية (يوسف، 26-28).
(3) الآية (يوسف، 93).
(4) الآية (يوسف، 96).

أَنَّها تَسْتَحيلُ عَلى اللهِ، وَقَدْ يَكونُ الباعِثُ عَلى وَصْفِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ، أَوْ إِثْباتِها في التَّنْزيلِ العَزيزِ، تَوْضيحَ أَمْرٍ ما بِالتَّمْثيلِ وَالتَّشْبيهِ، "فَلِلعَرَبِ المَجازاتُ في الكَلامِ، وَمَعْناها طُرُقُ القَوْلِ وَمَآخِذُهُ، فَفيها الاسْتِعارَةُ، وَالتَّمثيلُ، وَالقَلْبُ، وَالتّقْديمُ وَالتّأخْيرُ، وَالحَذْفُ، وَالتَّكْرارُ، وَالإِخْفاءُ، وَالإِظْهارُ، وَالتَّعْريضُ، وَالإِفْصاحُ، وَالكِنايَةُ، وَالإيضاحُ،.. مَعَ أَشْياءَ كَثيرَةٍ سَتَراها في "أَبْوابِ المَجازِ"، وَبِكُلِّ هذِهِ المَذاهِبِ نَزَلَ القُرْآنُ"[1].

وَمِنْ ذلِكَ اليَدُ الجارِحَةُ في جَنْبِ اللهِ، كَما في قَوْلِهِ -تَعالى-: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[2]، وَلا يَخْفى أَنَّ هذِهِ الحَرَكَةَ الجَسَدِيّةَ إِنّما يَأْتيها المُتَحالِفونَ وَالمُتَبايعونَ، فَهَلْ للهِ يَدٌ عَلى وَجْهِ الحَقيقَةِ؟ وَبِذا سَيُحْمَلُ هذا الخِطابُ القُرْآنِيُّ عَلى وَجْهٍ مِنَ التَّشْبيهِ وَالتَّجْسيمِ، أَمْ كانَتْ تِلْكَ الحَرَكَةُ في سِياقِها تَوْضيحًا عَلى سَبيلِ المَجازِ، وَبِذا سَيُفْهَمُ عَلى وَجْهٍ مِنَ التَّنْزيهِ؟ وَقَدْ أُوِّلَتْ اليَدُ في تِلْكَ الآيَةِ بِالنِّعْمَةِ، أَيْ نِعْمَةِ اللهِ في المُبايَعَةِ لِما يُسْتَقْبَلُ مِنْ مَحاسِنِها، وَقيلَ: قُوّةُ اللهِ فَوْقَ قُواهم في نَصْرِكَ وَنَصرِهِمْ، وَقالَ الزّمَخْشَرِيُّ: "أَكّدَ تَأْكيدًا عَلى طَريقَةِ التّخْييلِ، فَقالَ: يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْديهِمْ، وَاللهُ -تَعالى- مُنَزَّهٌ عَنِ الجَوارِحِ، وَعَنْ صِفاتِ الأَجْسامِ"[3]، وَقيلَ: يَدُ اللهِ في الثّوابِ فَوْقَ أَيْديهِمْ في الوَفاءِ[4].

وَالحَقُّ أَنَّ هذِهِ الحَرَكَةَ الجَسَدِيّةَ وَما هُوَ مِنْ نَحْوِها في التَّنْزيلِ العَزيزِ مِمّا أُلْحِقَ بِآياتِ الصِّفاتِ، وَقَدْ عُدّتْ مِنَ المُتَشابِهِ[5]، وَلَسْتُ إِخالُ أَنَّ مَلْمَحَ التّشابُهِ فيها آتٍ مِنْ جِهَةِ كَوْنِها مُشْكِلَةً حَقّاً، وَإِنّما هُوَ آتٍ مِنْ تَبايُنِ الوُجُهاتِ في المُعْتَقَدِ، وَطَرائِقِ التّفْكيرِ وَالاسْتِدْلالِ، وَقَدْ اخْتَلَفَ النّاسُ في الوارِدِ مِنْها فَكانوا عَلى ثَلاثِ شُعَبٍ:

- أَوّلُها: تَغْييبُ التّأْويلِ وَانْتِفاؤُهُ، فَالآياتُ مُحْكَماتٌ تُفْهَمُ عَلى ظاهِرِها.
- وَثانيها: الاعْتِقادُ بِالتّأويلِ مَعَ الإِمْساكِ عَنْهُ.

---

(1) انظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، 21.

(2) الآية (الفتح، 10).

(3) انظر: الزمخشري، الكشاف، 543/3، وأبو حيان، البحر، 92/8.

(4) انظر: القرطبي، الجامع، 177/16.

(5) انظر: الراغب، المفردات، 254، والزركشي، البرهان، 78/2، والسيوطي، الإتقان، 685.

- وَثالِثُها: الاعْتِقادُ بِالتّأويلِ مَعَ الإِقْدامِ عَلَيْهِ بِما يَليقُ بِهِ عَزّ[1].

وَلَعَلّ الذين قالوا بِتَغْييبِ التّأويلِ وَانْتِفائِهِ قَدْ عَوّلوا عَلى مُطابَقَةِ المَعْنى لِظاهِرِ اللّفْظِ، أَمّا الذين اعْتَقَدوا بِوُجوبِ حَمْلِ الكَلامِ عَلى خِلافِ المَفْهومِ مِنْ حَقيقَتِهِ فَقَدْ بَدا لَهُمْ اسْتِحالَةُ التّشْبيهِ وَالتّجْسيمِ في حَقِّ اللهِ، وَمِنْ ذلِكَ ذِكْرُ "الوَجْهِ"، فَقَدْ تَرَدّدوا بَيْنَ المَنْزِلَتَيْنِ؛ مَنْزِلَةِ الأَخْذِ بِالظّاهِرِ، وَمَنْزِلَةِ التّأْويلِ[2].

وَمِنْ نَحْوِ ما تَقَدّمَ صِفَةُ القُرْبِ، وَالفَوْقِيّةِ، وَالمَجيءِ، وَالرّضا، وَالغَضَبِ، وَالعَجَبِ[3]، وَالذي يَبْدو أَنّ تِلْكَ الصّفاتِ ما جاءَتْ إِلاّ في سِياقٍ لُغَوِيّ كَريمٍ يَجْري مَجْرى لُغَةِ العَرَبِ في مُخاطَباتِها، وَكُلُّ صِفَةٍ تَسْتَحيلُ حَقيقَتُها عَلى اللهِ تُفَسَّرُ بِلازِمِها[4]، وَعِنْدَ هذا يَظْهَرُ المُتَدَبّرُ بِرَوِيّةٍ وَلُطْفِ نَظَرٍ مُتَجافِياً عَنْ مَذْهَبِ الشّطَطِ وَالتّكَلّفِ في تَغْييبِ التّأويلِ أوِ اسْتِحْضارِه، بَلْ يَقْصِدُ إِلى الغَرَضِ المُتَعَيّنِ مِنْ تِلْكُمُ الصّفاتِ كَمَنْ يَنْظُرُ إِلى المَعْنى مِنْ سِتْرٍ رَقيقٍ، فَيُعَوّلُ عَلى المَعْنى الكُلّيّ السّياقِيّ؛ ذلِكَ أَنّ جَميعَ الأَغْراضِ النّفْسِيّةِ: أَعْني الرّحْمَةَ، وَالفَرَحَ، وَالسّرورَ، وَالغَضَبَ، وَالحَياءَ، وَالمَكْرَ، وَالاسْتِهْزاءَ، لَها أوائِلُ وَلَها غاياتٌ.

وَمِنْ ذلِكَ "الغَضَبُ"، فَإِنّ أَوّلَهُ غَلَيانُ دَمِ القَلْبِ، وَغايَتُهُ إِرادَةُ إِيصالِ الضّرَرِ إِلى المَغْضوبِ عَلَيْهِ، فَلَفْظُ الغَضَبِ في حَقِّ اللهِ لا يُحْمَلُ عَلى أَوّلِهِ الذي هُوَ غَلَيانُ دَمِ القَلْبِ، بَلْ عَلى غَرَضِهِ الذي هُوَ إِرادَةُ الإِضْرارِ، وَكَذلِكَ الحَياءُ،...، لَهُ أَوّل، وَهُوَ انْكِسارٌ يَحْصُلُ في النّفْسِ، وَلَهُ غَرَضٌ وَهُوَ تَرْكُ الفِعْلِ، فَلَفْظُ الحَياءِ في حَقّ اللهِ عَلى تَرْكِ الفِعْلِ لا عَلى انْكِسارِ النّفْسِ"[5].

المَقولاتُ الكُلّيّةُ

لَعَلّهُ يَسْتَقيمُ بَعْدَ هذا العَرْضِ أَنْ يُقالَ إِنَّ في التّنْزيلِ العَزيزِ نَمَطًا تَواصُلِيًّا يُمْكِنُ أَنْ يُسَمّى "لُغَةَ الجَسَدِ"، أَوِ "التّواصُلَ غَيْرَ اللّفْظِيّ"، وَجُلُّ ما تَقَدّمَ قَبْلاً مِنْ دِلالاتٍ وَهَيئاتٍ وَحَرَكاتٍ كانَ نَماذِجَ جُزْئِيّةً يُرادُ مِنْها تَجْلِيَةُ هذِهِ الظّاهِرَةِ عامّةً، وَبَيانُ بَعْضِ تَجَلّياتِها في

(1) انظر: الزركشي، البرهان، 78/2.
(2) انظر: الزركشي، البرهان، 80/2.
(3) انظر: السيوطي، الإتقان، 688.
(4) انظر: السيوطي، الإتقان، 692.
(5) انظر: السيوطي، الإتقان، 692.

التَّنْزيلِ العَزيزِ خاصّةً، وَالذي يَأْتي عَقِبَ ذلِكَ هُوَ المُوَجّهاتُ الكُلّيّةُ التي تَجْمَعُ نثارَ ما تَقَدّمَ، وتَجْعَلُهُ كالعِقْدِ الذي يَنْتَظِمُهُ سِلْكٌ جامِعٌ لأَشْتاتِهِ، وَقَدْ قَسّمْتُ تِلكَ المَقولاتِ الكُلّيّةَ إِلى ثَلاثَةِ أَقْسامٍ:

- أَوّلُها الاحْتِراسُ.
- وَثانيها التّفْسيرُ.
- وَثالِثُها الاسْتِدْراكُ.

أوّلاً: الاحْتِراسُ

أمّا الاحْتِراسُ فَهُوَ آخِذٌ في غَوْرَيْنِ اثْنَيْنِ:

أوّلُهُما أنّ ما وَرَدَ ههُنا قَليلٌ مِنْ كَثيرٍ يَحْتاجُ إِلى مُصَنَّفٍ قائِمٍ بِرَأْسِهِ حَتّى يَسْتَغْرِقَهُ بَحْثًا وَاسْتِشْرافًا، فَثَمَّ الإِشارَةُ، وَالرَّمْزُ، وَالوَحيُ في القُرْآنِ الكَريمِ، وَمِنْ ذلِكَ إِشارَةُ مَرْيَمَ -عَلَيْها السّلامُ- لَمّا صامَتْ عَنِ الكَلامِ، فَلَمْ تُكَلّمْ في يَوْمِها ذاكَ إِنْسِيًّا، فَاسْتَرْفَدَتْ مِنْ لُغَةِ الجَسَدِ عامّةً، وَالإِشارَةِ خاصّةً، التّواصُلَ وَالإِبانَةَ عَنْ مَكْنونِ لَفْظِها، وَخاصِّ جَوابِها وَمُرادِها، فَكانَ ذلِكَ كَذلكَ، فَرَدَّ عَلَيْها قَوْمُها وَفاءً بِما كانَ مِنْها مِنْ لُغَةٍ جَسَدِيّةٍ صامِتَةٍ غَيْرِ صائِتَةٍ: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [1].

وَكَذلِكَ زَكَرِيّا الذي جَعَلَ اللهُ آيَتَهُ أَلاّ يُكَلِّمَ النّاسَ ثَلاثَةَ أَيّامٍ إِلاّ رَمْزًا وَإِيحاءً قائِمَيْنِ عَلى التّواصُلِ غَيْرِ اللَّفْظِيّ[2]، وَما كانَ أَكْثَرَ حُضورَ هذِهِ الظّاهِرَةِ في التّنْزيلِ العَزيزِ، وَذلِكَ كُلُّه إِيماءاتٌ تَواصُلِيّةٌ، وَكَواشِفُ لِحالاتٍ نَفْسِيّةٍ، وَدَوالُّ عَلى مَعانٍ مَعْنَوِيّةٍ، كَالفَرَحِ، أَوِ الحُزْنِ، أَوِ الجَزَعِ، أَوِ الخَوْفِ، وَهُناكَ وَهُناكَ الكَثيرُ مِنْ مَعينٍ خالِدٍ لا يَنْضُبُ، وهذا يَكْثُرُ إِنْ تَتَبّعْتُهُ، وَقَدْ أَوْرَدْتُ أَمْثِلَةً تُنَبّهُ عَلى الغَرَضِ الذي قَصَدْتُهُ.

وَثانيهِما أَنَّ تَعْيينَ مَعْنى حَرَكَةٍ جَسَدِيّةٍ ما عَلى وَجْهِ الإِحْكامِ يَجِبُ أَلاّ يَكونَ بِمَعْزِلٍ عَنِ السِّياقِ الذي تَرِدُ فيهِ، وَلَيْسَ يُنْسى الالْتِفاتُ إِلى ما يُصاحِبُها مِنْ حَرَكاتٍ أُخْرى تَتَرافَدُ وَتَتَضافَرُ في الإِبانَةِ وَالبَيانِ[3]، فَالحَرَكَةُ -وَقَدْ تَقَدَّمَتْ إِلْماحَةٌ إِلى هذا-

---

(1) الآية (مريم، 29).

(2) كان ذلك مصداقا لقوله -تعالى-: "قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا"، الآية(آل عمران، 41).

(3) انظر:

Pease, Body Language, P.17.

كَالكَلِمَةِ، فَلَها دِلالَةٌ مُجَرَّدَةٌ مَبْثوثَةٌ في بُطونِ المُعْجَماتِ، وَلَها دِلالَةٌ أوْ دِلالاتٌ أُخْرى تَتَبايَنُ بِتَبايُنِ السِّياقِ، وَتَبايُنِ ما يُصاحِبُها مِنْ كَلِماتٍ أُخْرى، وَهذِهِ هِيَ حالُ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ في لُغَةِ الجَسَدِ، وَمِنَ المُثُلِ المُجَلّيَةِ لِهذِهِ الفِكْرَةِ صورَةٌ ناطِقَةٌ بِالإبانَةِ عَنْ وَصْفِ حالِ الكافِرينَ يَوْمَ القِيامَةِ وَصْفًا قَلْبِيّاً وَقالَبِيّاً، فَالحَقُّ يَقولُ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [1]، وَفي هذِهِ الآيَةِ وَصْفٌ ذو دِلالاتٍ لِحَرَكاتٍ جَسَدِيّةٍ نَسْتَعينُ عَلى تَعْيينِها بِدِلالَةِ السِّياقِ الكُلّيّةِ التي تَتَجَلّى عَلى جَوارِحِهم عَيْنًا، وَرَأْسًا، وَطَرْفًا، وَمِشْيَةً[2].

ثانِيًا: التَّفْسيرُ

أَمّا التّفْسيرُ فَالمَقْصِدُ مِنْهُ بيانُ سُهْمَةِ الحَرَكاتِ وَفَضْلِها في الدّلالَةِ، وَالإبانَةِ، وَالتّواصُلِ عَلى وَجْهٍ كُلّيٍّ ذي عُمومٍ استِكْمالاً لِمُتَطَلَّباتِ الدَّرسِ، وَاسْتِشْرافًا لِلأَنْظارِ التَّفْسيرِيّةِ، فَقَدْ بَدا لي أَنَّ الحَرَكَةَ الجَسَدِيّةَ في سِياقِها القُرْآنِيّ الشّريفِ تُؤَدّي أَغْراضًا وَوَظائِفَ مُتَعَدِّدةً، وَأنَّ بِمُكْنَةِ الدارس أَنْ يَتَناوَلَها مِنْ وُجهاتٍ مُتَباينات، كَالوجهَةِ الدِّلالِيّةِ، وَالوجهَةِ النَّفْسِيّةِ، وَالوجْهةِ اللَّفْظِيّةِ، وَالوجْهَةِ البَلاغِيّةِ الجَمالِيّةِ، والوجْهَةِ التَّرْبَوِيّةِ، والوجْهَةِ التّوْضيحِيّةِ.

- أَمّا الوجْهَةُ الدِّلالِيّةُ فَقَدْ تَكونُ الحَرَكةُ الجَسَدِيّةُ مِنَ الرّوافِدِ التي تُغَذّي المَعْنى، وتُعَزِّزُ فِكْرَتَهُ وَدِلالتَهُ الكُلّيّةَ؛ وَذلِكَ نَحْوُ قَوْلِ الحَقِّ –تَعالى-: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾ [3]، وَلَعَلَّ اسْتِشْرافَ السِّياقِ البِنْيَويّ يُفْضي إلى أنْ تَكونَ الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ المُتَعَيّنَةُ في قَوْلِهِ -تَعالى-: "وَإِذْ زاغتِ الأَبْصارُ" تَدُلُّ عَلى الخَوْفِ وَرَمْيِ النَّظَرِ في تَخَوّفٍ وَتَخَطّفٍ، ولَيْسَ يَخْفى، مِنْ وجْهَةٍ أُخْرى، أَنَّ هذِهِ الدّلالَةَ تَتَعَيّنُ مِنْ قَوْلِهِ –تَعالى- الذي جاءَ عَقِبَها: "وَبَلغتِ القُلوبُ الحَناجِرَ"، فَالحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ هُنا رافِدٌ مُهِمٌّ يُعَزِّزُ المَعْنى المُتَشَكّلَ في سِياقِهِ البِنْيَوِيّ اللَّفْظِيّ، وَلَعَلَّ أَصْدَقَ ميسَمٍ يُمْكِنُ أَنْ يُسْبَغَ عَلى هذِهِ الحَرَكَةِ،

---

(1) الآية (إبراهيم، 42-43).

(2) انظر ما قيل في هذه الآية: الطبرسي، مجمع البيان، 9/6-70، والقرطبي، الجامع، 247/9، وأبو حيان، البحر، 418/5-419، والشريف الرضي، تلخيص البيان، 113.

(3) الآية (الأحزاب، 10).

وَعَلى ما هُوَ مِنْ نَحْوِها، أنَّها مِنَ الرّوافِدِ المُعَزِّزةِ لِلمَعْنى.

- وَأمّا الوجْهَةُ النَّفْسِيّةُ فَقَدْ تَكونُ الحَرَكَةُ مِنَ الكَواشِفِ لِحالاتٍ نَفْسِيّةٍ؛ ذلِكَ أنّها وَرَدَتْ في سِياقِها الشّريفِ عَلى سَبيلِ وَصْفِ حَقيقَةٍ عاشَها قُطْبٌ مِنْ أَقْطابِ الحَديثِ أوِ الحَدَثِ الكَلامِيّ؛ ذلِكَ أنّها وَقَعَتْ فِعْلاً؛ ثُمّ وَصَفَها اللهُ لَنا عَلى أنّها كَواشِفُ لِحالاتٍ نَفْسِيّةٍ، وَمِنْها دِلالاتُ الرّأْسِ الخَفيضِ المُتَطامِنِ في مَقامِ التَّنْكيسِ وَالارْتِكاسِ، وَمِنْها كَذلِكَ قَوْلُهُ –تَعالى–: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾[1]، فَالدِّلالَةُ المُتَعَيِّنَةُ مِنْ هذِهِ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ مُنْبِئَةٌ عَنْ حالٍ نَفْسِيّةٍ تَعْتَري أَهْلَها في ذلِكَ السِّياقِ وَما يَلْتَفُّ بِهِمْ مِنْ أَحْوالٍ، وَأَهْوالٍ، وَقَرائِنَ.
- وَأمّا الوجْهَةُ اللَّفْظِيّةُ فَقَدْ تَغْدو الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ مِمّا يَسُدُّ مَسَدَّ كَلِمَةٍ، أوْ كَلامٍ، أوْ كَلِماتٍ، فَيَكونُ الوَصْفُ الحَرَكِيُّ في سِياقِهِ الشَّريفِ قائِمًا عَلى مَبْدَأ الاعْتِياضِ، كَما في قَوْلِ الحَقِّ –تَقَدَّسَ اسْمُهُ–: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[2]، وَلَعَلَّ قَوْلَه "يُقلّبُ كَفَّيْهِ" يَعْني في مُعْجمِ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ في هذا السِّياقِ النَّدَمَ، وَكَأنَّ السِّياقَ اللَّفْظِيَّ: "فَأصْبَحَ نادِمًا عَلى ما أنْفَقَ فيها..."، فَكانَتْ تِلْكَ الحَرَكَةُ مِنَ البَدائِلِ التي تَقومُ مَقامَ سِياقٍ لَفْظِيٍّ، إنْ كَلِمَةً، وَإنْ جُمْلَةً، وَإنْ كَلامًا كَما في قَوْلِ الحَقِّ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾[3].
- وَأمّا الوجْهَةُ البَلاغِيّةُ الجَماليّةُ فَقَدْ تَغْدو الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ في سِياقِها الشَّريفِ ذاتَ أَلَقٍ مُشِعٍّ يَبْعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي إعْجابًا وَاسْتِرْجاعًا لِلقَوْلَةِ المَأْثورَةِ المُفْضِيَةِ إلى التَّقْريرِ بِأَنَّ لَهُ حَلاوَةً، وَأَنّ عَلَيْهِ طَلاوَةً، وَأَنَّ أَعْلاهُ لَمُثْمِرٌ، وَأَنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَما هُوَ بِقَوْلِ بَشَرٍ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ –تَعالى–: ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾[4]، فَلِلْمَرْءِ أنْ يُعيدَ عَلى صاغي سَمْعِهِ في كَثيرٍ مِنَ الرّوِيّةِ وَالتّدَبُّرِ البَوْنَ المُتَجَلّيَ بَيْنَ قَوْلِ النّاسِ "فَأصْبَحَ نادِمًا"، وَقَوْلِ رَبِّ النّاسِ: "فَأصْبحَ يُقلّبُ كَفَّيْهِ".
- وَأمّا الوجْهَةُ التّرْبَوِيّةُ فَقَدْ تَغْدو الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ في سِياقِها القُرْآنِيّ الشّريفِ ذاتَ أُفُقٍ تَرْبَوِيّ يَصْرِفُ الأَبْصارَ تِلْقاءَ ما هُوَ مَنْدوبٌ يُبيحُهُ الشّارِعُ، فَيَحُثُّ عَلَيْهِ، أَوْ ما هُوَ مَكْروهٌ يَمُجُّه الشّارِعُ فَيُعاقِبُ عَلَيْهِ، وَمِنْ تَجَلّياتِ الأولى قَوْلُ الحَقِّ في حَضْرَةِ

---

(1) الآية (الأحزاب، 19).
(2) الآية (الكهف، 42).
(3) الآية (مريم، 29).
(4) تقدم تخريجها.

قُدْسِ الـذّاتِ، وَالتّجَلّـي، وَالتّكْلـيمِ: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [1]، وَمِـنْ تَجَلّياتِ الأُخْرى قَوْلُ الحَقِّ مُؤَدِّبًا، وَمُحَذِّرًا، وَمُنْكِرًا عَلى مَنْ يَأتي هذا المَحْظورَ المُسْتَهْجَنَ مِنَ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ، وَالمُتَمَثِّلَ في وَصْفِهِ جَسَدِيًّا وَحَرَكِيًّا: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [2]، وَ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [3]، وَ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ [4].

ثالِثًا: الاسْتِدْراكُ

أَمّا ثالِثَةُ الأَثافي في بابِ القَوْلِ عَلى المَقولاتِ الكُلّيّةِ فَالاسْتِدْراكُ، وَبِاسْتِجْماعِ ذلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَكونُ الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ في التّنْزيلِ العَزيزِ مِنَ الرّوافِدِ، أَوِ الكَواشِفِ، أَوِ السَّوادِّ، أَوَ النَّواقِلِ، أَوِ المَحاسِنِ:

- مِنَ الرّوافِدِ المُعَزِّزَةِ لِلمَعْنى.
- أَوِ الكَواشِفِ المُجَلّيةِ لِلأَحْوالِ النّفْسِيّةِ وَالهَيئاتِ المَقامِيّةِ.
- أَوِ السّوادِّ القائِمَةِ مَقامَ بَسْطٍ مِنَ الكَلامِ وَتَطْويلٍ.
- أَوِ النَّواقِلِ التي تَنْقُلُ لَنا صورَةَ الحَدَثِ بِلَفْظِهِ وَحَرَكتِهِ التي وَقَعَتْ حَقًّا لا تَجَوّزًا.
- أَوِ المَحاسِنِ البَيانِيّةِ المُعْجِبَةِ الباعِثَةِ في النَّفْسِ إِمْتاعًا ومُؤانَسَةً.
- وَقَدْ تَجْتَمِعُ هذِهِ الدِّلالاتُ جَميعُها أَوْ جُلُّها في حَرَكَةٍ واحِدَةٍ مُتَشَكِّلَةٍ في سِياقٍ واحِدٍ، كَما في قَوْلِ الحَقِّ –تَقَدّسَ اسمُهُ–: "فَصَكَّتْ وَجْهَها"، فَهذِهِ الحَرَكَةُ مِنَ السّوادِّ التي سَدَّتْ مَسَدَّ قَوْلِنا: "فَتَعَجَّبَتْ مُنْكِرَةً مُسْتَهْجِنَةً"، وَمِنَ الكَواشِفِ النّفْسِيّةِ المُنْبِئَةِ عَنْ حَواشي نَفْسِ امْرَأةٍ عَجوزٍ بُشِّرَتْ بِحَمْلٍ فَولادَةٍ، وَمِنَ النّواقِلِ التي وَصَفَتْ لَنا ذلِكَ الحَدَثَ الكَلامِيَّ، فَنُقِل لَنا بِنَصِّهِ وَبِصَكِّ الوَجْهِ الذي قامَتْ بِهِ العُجوزُ حَقًّا لا تَجَوّزًا، وَمِنَ المَحاسِنِ البَيانِيّةِ المُعْجِبَةِ التي تُثيرُ في النَّفْسِ اسْتِحْسانًا، وَمِنَ الرّوافِدِ المُعَزِّزَةِ لِلمَعْنى في سِياقِهِ اللَّفْظِيِّ القائِمِ عَلى هَيئةِ قَصَصٍ يَشْتَمِلُ عَلى خِطابٍ قُرْآنِيٍّ حِوارِيٍّ أَوْ سردِيٍّ ذي طَرافَةٍ، بَلْ فَرادَةٍ، بَلْ إِعْجازٍ.

---

(1) الآية (طه، 12).
(2) الآية (لقمان، 18).
(3) الآية (الإسراء، 37).
(4) الآية (النور، 31).

الفَصْلُ الثّاني

لُغَةُ الجَسَدِ في الحَديثِ النَّبَوِيِّ الشَّريفِ

أَمْثِلَةٌ جُزْئِيّةٌ وَمُوَجِّهاتٌ كُلّيّةٌ

"عَدا يَهودِيٌّ عَلى جارِيَةٍ فَأَخَذَ أَوْضاحًا كانَتْ عَلَيْها، وَرَضَخَ رَأْسَها، فَأَتى بِها أَهْلُها رَسولَ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهِيَ في آخِرِ رَمَقٍ وَقَدْ أُصْمِتَتْ، فَقالَ لَها رَسولُ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ قَتَلَكِ، فُلانٌ؟ لِغَيْرِ الذي قَتَلَها، فَأَشارَتْ بِرَأْسِها أَنْ لا، فَقالَ لِرَجُلٍ آخَرَ غَيْرِ الذي قَتَلَها، فَأَشارَتْ بِرَأْسِها أَنْ لا، فَقالَ: فَفُلانٌ، لِقاتِلِها، فَأَشارَتْ بِرَأْسِها أَنْ نَعَمْ...".

البخاري، الصحيح، كتاب الديات، باب "من أقاد بالحجر"، (1717/963).

في مَقاصِدِ العُنْوانِ

يَتَجَلّى مِنْ ذلِكَ العُنْوانِ العَريضِ أنَّهُ مُؤْتَلِفٌ مِنْ قُطْبَيْنِ مُؤَسِّسَيْنِ، أَوّلُها اسْمُ هذا الدَّرْسِ، وَهُوَ "لُغَةُ الجَسَدِ"، وَثانيهِما مِضْمارُ هذا الدَّرْسِ، وَهُوَ الحَديثُ النَّبَوِيُّ الشَّريفُ. أَمّا القُطْبُ الأَوَّلُ فَقَدْ تَقَدّمَ بَيانُهُ، وَأَمّا القُطْبُ الثّاني مِنْ أَقْطابِ هذا الدَّرْسِ فَهُوَ الحَديثُ النَّبَوِيُّ الشّريفُ، وَهُوَ "ما صَدَرَ عَنِ الرَّسولِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- مِنْ قَوْلٍ، أَوْ فِعْلٍ، أَوْ تَقْريرٍ، أوْ صِفَةٍ"، وَإِخالُ أنَّ هذِهِ الظّاهِرَةَ في الحَديثِ، أَعْني "لُغَةَ الجَسَدِ"، شَطْرٌ مِنْهُ؛ ذلِكَ أنّها تَنْتَسِبُ إلى الفِعْلِ، أَوِ التَّقْريرِ، أوِ الصّفَةِ كَما سَيَأتي بَعْدًا، وَقَدِ ارْتَضَيْتُ صَحيحَ البُخارِيِّ مَوْئِلاً أَفيءُ إِلَيْهِ في الغالِبِ في تَمَثّلِ هذِهِ الظّاهِرَةِ، وَتَخْريجِ شَواهِدِها ما اسْطَعْتُ إلى ذلِكَ سَبيلاً.

اسْتِشْرافُ الظّاهِرَةِ في الحَديثِ الشَّريفِ:

إنَّ القارِئَ لِحَديثِ الرَّسولِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يَرِدُ عَلى أَحاديثَ نَبَوِيّةٍ شَريفَةٍ فيها حَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ مُلْمِحَةٌ حينًا، وَمُصَرِّحَةٌ حينًا آخَرَ بِدِلالاتٍ، بَلْ قَدْ تَقومُ تِلْكُمُ الحَرَكاتُ وَالإيماءاتُ مَقامَ كَلِمةٍ، أوْ كَلِماتٍ، أوْ جُمَلٍ، وقَدْ تَكونُ مِنَ الرّوافِدِ المُعَزِّزَةِ لِلمَعْنى المُتَجَلّي في هَيْئَةِ كَلامٍ مَنْطوقٍ، وَقَدْ تَكونُ في سِياقٍ رابِعٍ سَبيلاً مِنْ سُبُلِ تَجْلِيَةِ المَعْنى، أوْ تَمْثيلِهِ[1]، وَلَسْتُ أُريدُ أَنْ أصادِرَ شَيْئًا مِمّا يَأْتي عِقَبَ الوُقوفِ عَلى دِلالاتِ الجَوارِحِ الشَّريفَةِ، فَفيها مُسْتَغْنًى وَمُسْتَأْنَفٌ لِما أُلْمِحُ إِلَيْهِ في هذا المَقامِ.

مِنْ هَيْئاتِ الوَجْهِ وَدِلالاتِهِ

أَمّا الوَجْهُ الشَّريفُ في الحَديثِ النَّبَوِيّ فَقَدْ كانَ لَهُ حَظٌّ وافِرٌ في الظّهورِ وَالإبانَةِ وَالتّواصُلِ، وقَدْ تَجَلّى ذلِكَ بِسَبيلَيْنِ:

- أولاهُما الوَصْفُ العامُّ القائِمُ عَلى التّقْريرِ بِسُهْمَةِ الوَجْهِ الشَّريفِ في التّواصُلِ.
- وَثانِيَتُهُما الوَصْفُ المُخَصِّصُ لِهَيْئَةِ الوَجْهِ في سِياقٍ ما.

---

(1) لمزيد بسط القول في وظائف الحركات الجسدية انظر: Pease, Body Language, P. 6. وباكو، لغة الحركات، 29.

أَمّا أَمْثِلَةُ السَّبيلِ الأولى فَمِنْها ما جاءَ في وَصْفِهِ الشَّريفِ: "كانَ أَشَدَّ حَياءً مِنَ العَذْراءِ في خِدْرِها، فَإِذا رَأى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْناهُ في وَجْهِهِ"[1]، وَكَذلِكَ قَولُهُم: "فَرُئِيَ ذلِكَ في وَجْهِهِ"[2].

وَأَمّا ثانِيَةُ السّبُلِ فَمُثُلُها كَثيرَةٌ في كُتُبِ الأَحاديثِ، فَقَدْ كانَ ناطِقًا دالاًّ، فَبِهِ تَعَيَّنَتْ كَثيرٌ مِنَ المَعاني السِّتِّ العالَمِيّةِ، وَغَيْرِها مِنَ المَعاني التي تَجَلَّتْ في سِياقاتٍ أُخَرَ مُخْتَلِفَةٍ، وَمِنْ ذلكَ دِلالَةُ الحُزْنِ، وَدِلالَةُ الغَضَبِ، وَدِلالَةُ الفَزَعِ، وَدِلالَةُ الإِنْكارِ وَالاسْتِهْجانِ، وَدِلالَةُ الجوعِ، وَغَيْرُ ذلِكَ مِن المَعاني التي قَدْ تَقومُ في نَفْسِ النّظّارَةِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِمْ ذلِكَ الوَجْهَ؛ فَنَحْنُ كَثيرًا ما نَسْتَعْمِلُ "الوَجْهَ عَلى نَحْوٍ مُشابِهٍ لِما نَتَكَلّمُ"[3].

لِنَرْجِعِ النّظَرَ في الأَحاديثِ الآتِيَةِ لاسْتِشْرافِ الدِّلالاتِ التي تُسْتَقى مِنْها:

الوَجْهُ المُسْتَبْشِرُ الفَرِحُ:

وَهذا مَعْنًى وَرَدَ غَيْرَ مَرّةٍ في الحَديثِ الشّريفِ، وَقَدْ ظَهَرَ بِجلاءٍ عَلى وَجْهِهِ الشّريفِ، وَمِنْ ذلِكَ أَنَّهُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ- دَخَلَ عَلى عائِشَةَ "مَسْرورًا تَبْرقُ أَساريرُ وَجْهِهِ"[4]، وَقَدْ وَصَفَتْهُ عائِشَةُ بِقَوْلِها: "إِذا سُرَّ اسْتَنارَ وَجْهُهُ كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنّا نَعْرِفُ مِنْهُ ذلِكَ"[5].

وَمِنْ تَجَلِّياتِ هذِهِ الهَيْئَةِ المُفْضِيَةِ إِلى تَجَلّي تِلكَ الدِّلالَةِ أَنَّ المِقْدادَ بْنَ الأَسْودِ الذي دَعا عَلى المُشْرِكينَ يَوْمَ بَدْرٍ قالَ لِلنّبِيِّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- مُطَمْئِنًا وَمُنَفِّرًا لِلقِتالِ: "لا نَقولُ كَما قالَ قَومُ موسى: "اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا هٰهُنا قاعِدونَ"،

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب "من لم يواجه الناس بالعتاب"، (979/594)، 353/4.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب "وفد بني تميم"، (810/184)، 289/3.

(3) انظر: مايكل كوربالیس، في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم، 140.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب "صفة النبي صلى الله عليه وسلم"، (85/24)، 31/3.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب "صفة النبي صلى الله عليه وسلم"، (87/24)، 31/3.

وَلكِنّا نُقاتِلُ عَنْ يَمينِكَ، وَعَنْ شِمالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ، وَخَلْفَكَ، "فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ أَشْرَقَ وَجْهُهُ"[1].

وَكَذلِكَ حَديثُ كَعْبِ بْنِ مالِكٍ المُتَخَلِّفِ عَنِ القِتالِ، فَقَدْ قَرَأَ هذا المَعْنى في وَجْهِهِ الشّريفِ، وَكانَ ذلِكَ داعِيًا لَهُ بِالاطْمِئْنانِ، وَعَلامَةً بِأَنَّ الرَّسولَ قَدِ اسْتَغْفَرَ لَهُ، فَقالَ: "فَلَمّا سَلّمْتُ عَلى رَسولِ اللهِ قالَ: وَهُوَ يَبْرقُ أَساريرُ وَجْهِهِ مِنَ السّرورِ، أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ، وَكانَ رَسولُ اللهِ إِذا سُرَّ اسْتَنارَ وَجْهُهُ كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنّا نَعْرِفُ ذلِكَ مِنْهُ"[2].

الوَجْهُ الكارِهُ المُنْكِرُ:

وَكَما كانَ الصّحابَةُ مِنْ حَوْلِهِ يَعْرِفونَ سُرورَهُ وَاسْتِبْشارَهُ مِنْ وَجْهِهِ، فَكَذلِكَ كانوا يَعْرِفونَ كَراهَةَ أَمْرٍ مِنْ وَجْهِهِ أَيْضًا، وَمِنْ ذلِكَ حَديثُ شُعْبَةَ المُتَقَدِّمُ بَيانُهُ آنِفًا، وَالمُقَرِّرُ أَنَّهُ "إِذا كَرِهَ شَيْئًا عُرِفَ في وَجْهِهِ"[3]، وَقَدْ وَقَعَ ذلِكَ في أَحاديثَ شَتّى، وَمِنْها حَديثُ عائِشَةَ لَمّا أَخْبَرَتْهُ بِأَنّها اشْتَرَتْ نُمْرقَةً فيها تَصاويرُ، فَلَمّا رَآها قامَ عَلى البابِ، وَلَمْ يَدْخُلْ، فَرَأَتْ عائِشَةُ في وَجْهِهِ الشَّريفِ كَراهِيَةً لِما كانَ مِنْها، وَقَدْ قَرَّرَتْ ذلِكَ المَعْنى الذي رَأَتْهُ في قَوْلِها: "فَعَرَفْتُ في وَجْهِهِ الكَراهِيَةَ"[4]، فَتَواصَلَتْ مَعَهُ مُذْعِنَةً للّغَةِ الصّامِتَةِ وَدِلالاتِها التي تَبَدَّتْ في وَجْهِهِ الشَّريفِ، مُجيبَةً باللُّغَةِ الصّائِتَةِ المُسْتَدْرِكَةِ قائِلَةً: "يا رَسولَ اللهِ، أَتوبُ إِلى اللهِ وَإِلى رَسولِهِ"[5]، وَاللاّفتُ لِلخاطِرِ أَنَّ إيماءَةَ وَجْهِ الرَّسولِ في حَديثِهِ الشَّريفِ الذي لَيْسَ بِقَوْلٍ في هذا السّياقِ كانَتْ مَصْدَرًا مِنْ مصادِرِ التَّشْريعِ لَنا بَعْدًا، وَلِعائِشَةَ قَبْلاً.

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ أَنَّهُ كانَ إِذا رَأى غَيْمًا، أَوْ سَمِعَ ريحًا، عُرِفَ في وَجْهِهِ الكَراهِيَةُ،

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب قول الله –تعالى-: "إذ تستغيثون ربكم"، (452/119)، 160/3.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب "غزوة تبوك"، (859/195)، 314/3.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب "صفة النبي صلى الله عليه وسلم"، (93/24)، 31/3.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب النكاح، باب "هل يرجع إذا رأى منكرا..."، (112/77)، 48/4.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب النكاح، باب "هل يرجع إذا رأى منكرا..."، (112/77)، 48/4.

وَالحَقُّ أَنَّهُ مَعْنًى قَدْ يُثيرُ في النَّفْسِ اسْتِغْرابًا، وَقَدْ كانَ ذلِكَ كَذلكَ، فَقَدِ التَفَتَتْ إِلى ذلِكَ عائِشَةُ، فَساءَلَتْهُ في ذلِكَ قائِلَةً: "يا رَسولَ اللهِ، إِنَّ النّاسَ إِذا رَأَوا الغَيْمَ فَرِحوا رَجاءَ أَنْ يَكونَ فيهِ المَطَرُ، وَأَراكَ إِذا رَأَيْتَهُ عُرِفَ في وَجْهِكَ الكَراهِيَةُ، فَقالَ: يا عائِشَةُ، ما يُؤْمِنُني أَنْ يَكونَ فيهِ عَذابٌ..."[1].

وَمِنْ أَمْثِلَةِ هذا الوَجْهِ الكارِهِ وَدِلالَتِهِ أَنَّهُ دَخَلَ عَلى عائِشَةَ -عَلَيْها السّلامُ- وَعِنْدَها رَجُلٌ، "فَكَأَنَّهُ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ، كَأَنَّهُ كَرِهَ ذلِكَ"، فَقالَتْ مُسْتَدْرِكَةً: إِنّه أَخي، فَرَدَّ مُجَلِّيًا عِلّةَ المَعْنى الذي رُئِيَ في وَجْهِهِ الشّريفِ، وَهُوَ كَراهَةُ ما كانَ قَدْ صَدَرَ مِنْها: "انْظُرْنَ مَنْ إِخْوانُكُنَّ، فَإِنّما الرَّضاعةُ مِنَ المَجاعَةِ"[2].

الوَجْهُ المُغْضَبُ:

وَقَدْ عُبِّرَ عَنْ هذا المَعْنى في الأَحاديثِ النّبَوِيّةِ بِغَيْرِ لَفْظٍ، وَمِنْ ذلِكَ:

- "تَمَعَّرَ وَجْهُهُ"[3].
- "احْمَرَّ وَجْهُهُ"[4].
- "تَلَوَّنَ وَجْهُ رَسولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ"[5].
- "احْمَرَّتْ وَجْنَتاه"[6].
- "رُئِيَ الغَضَبُ في وَجْهِهِ"[7].

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، باب قوله "فلما رأوه عارضا مستقبل..."، (1255/477)، 508/3.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب النكاح، باب "من قال لا رضاع بعد حولين"، (40/22)، 19/4.

(3) تمعّر لونه ووجهه إذا تغير وعلته صفرة، وأصله قلة النضارة، وعدم إشراق اللون، وهو من قولهم: "مكان أمعر"، وهو الجدب الذي لا خصب فيه، انظر: لسان العرب، مادة "معر"، والبخاري، الصحيح، 260/2، 264، 340/4.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب في اللقطة، باب "الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره"، (89/71)، 111/1، وباب "إذا جاء صاحب اللقطة بعد سنة..."، (654/423)، 263/2.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصلح، باب "إذا أشار الإمام بالصلح فأبى..."، (911/585)، 367/2، وباب قوله "فلا وربك لا يؤمنون..."، (1011/287)، 376/3.

(6) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب العلم، باب "الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره"، (89/71)، 111/1، وباب "إذا جاء صاحب اللقطة بعد سنة..."، (654/423)، 263/2.

(7) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، باب قول الله -تعالى-: "وصل عليهم"، =

- "فَيَغْضَبُ حَتّى يُعْرَفَ الغَضَبُ في وَجْهِهِ"[1].
- "حَتّى رَأَيْتُ الغَضَبَ في وَجْهِهِ"[2].

وَالظّاهِرُ مِمّا تَقَدَّمَ أَنَّ هَيْئَةَ الغَضَبِ كانَتْ تُقْرَأُ في وَجْهِهِ الشَّريف، وَمِنْ أَمْثِلَتِها أَنَّ رَجُلاً جاءَ إِلى النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- فَسَأَلَهُ عَنِ اللُّقَطَةِ ما حُكْمُها، فَأجابَهُ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِ السّائِلُ وَأَثْقَلَ حَتّى سَألهُ عَنِ لُقَطةِ الإِبِلِ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ ذلِكَ، وَظَهَرَ الغَضَبُ في وَجْهِهِ "حَتّى احْمَرَّتْ وَجْنَتاهُ"، أَوْ قالَ: "احْمَرَّ وَجْهُهُ"، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى في مَوْضِعٍ آخَرَ: "فَتَمَعَّرَ وَجْهُهُ"[3]، فَقالَ مُسْتَدْرِكًا: "ما لَكَ وَلَها، مَعَها سِقاؤُها، وَحِذاؤُها، تَرِدُ الماءَ، وَتَرْعى الشَّجَرَ، فَذَرْها حَتّى يَلْقاها رَبُّها"[4].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ حَديثُ القِسْمَةِ، فَقَدْ قالَ رَجُلٌ مُعْتَرِضًا عَلى قِسْمَةِ النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ-: "إِنَّ هذِهِ لَقِسْمَةٌ ما أُريدَ بِها وَجْهُ اللهِ، فَأَتَيْتُ النَّبِيّ فأخْبَرْتُهُ، فَغَضِبَ حَتّى رَأَيْتُ الغَضَبَ في وَجْهِهِ، ثُمَّ قالَ: يَرْحَمُ اللهُ أخي موسى، قَدْ أوذِيَ أَكْثَرَ مِنْ هذا فَصَبرَ"[5].

وَمِنْ أَمْثِلَةِ قِراءَةِ مَعْنى الغَضَبِ في وَجْهِهِ الشَّريفِ أَنَّهُ حَكَمَ لِلزُّبَيْرِ بِالسِّقايَةِ أَوّلاً، فَقالَ: اسْقِ يا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الماءَ إِلى جارِكَ، فَقالَ الأَنْصارِيُّ مُعْتَرِضًا مُناكِفًا: يا رَسولَ اللهِ، أَنْ كانَ ابنَ عَمّتِكَ؟ فَتَلَوّنَ وَجْهُهُ غَضَبًا لِما كانَ مِنْهُ، فَنَزَلَ قَوْلُ الحَقِّ -تَعالى-:

=

428/4، (1206/721).

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "أنا أعلمكم بالله..."، (19/13)، 73/1.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الأنبياء، الباب (1561/924)، 618/2.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب في اللقطة، باب "إذا أخبره رب اللقطة بالعلامة..."، (648/415)، 260/2، وباب "إذا جاء صاحب اللقطة بعد سنة ردها..."، (654/423)، 263/2.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب العلم، باب "الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره"، (89/71)، 111/1.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الأنبياء، الباب(1561/924)، 618/2، وكتاب الأدب، باب "من أخبر صاحبه بما يقال فيه"، (941/575)، 340/4، وكتاب الدعوات، باب قول الله -تعالى-: "وصل عليهم"، (1206/721)، 428/4.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[1].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ أَنَّهُ أَهْدى إِلى عَلِيٍّ حُلّةً سِيَراء، فَلَبِسها، فَأتى النَّبِيَّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، "فَرَأَيْتُ الغَضَبَ في وَجْهِهِ، فَشَقَقْتُها بَيْنَ نِسائي"[2]، وَالظّاهِرُ أَنَّ وَجْهَهُ الشَّريفَ في ذلِكَ السِّياقِ مَصْدَرُ تَشْريعٍ، وَقَدْ ظَهَرَ فيهِ مَعْنى "اطَّرِحْها، فَما أَهْدَيْتُها لَكَ لِتَلْبَسَها"، فَفي الحَديثِ إِذًا دِلالَتانِ: إِحْداهُما تَواصُلِيّةٌ تُنْسَبُ إِلى مِضْمارِ الصَّمْتِيّاتِ، وَالبَيانِ بِلا لِسانٍ، وأُخْرى فِقْهِيّةٌ تُقْتَبَسُ مِنْ غَضَبِهِ الذي ظَهَرَ في وَجْهِهِ الشّريفِ، وَهِيَ قائِلَةٌ بِحُرْمَةِ العِلّةِ الباعِثَةِ عَلى الغَضَبِ في ذلِكَ الحَديثِ.

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ الحَديثُ الذي رَواه أَبو هُرَيْرَةَ، فَبَيْنَما يَهودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ أُعْطِيَ بِها شَيْئًا كَرِهَهُ، فَقالَ: لا وَالذي اصْطَفى موسى عَلى البَشَرِ، فَلَطَمَهُ رَجُلٌ، فَذَهَبَ إِلى النَّبِيِّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- شاكِيًا قائِلاً: يا أَبا القاسِمِ، إِنَّ لي ذِمّةً وَعَهْدًا، فَما بالُ فُلانٍ لَطَمَ وَجْهي، فَقالَ: لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ، فَذَكَرَهُ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ حَتّى رُئِيَ الغَضَبُ في وَجْهِهِ، ثُمَّ قالَ: لا تُفَضِّلوا بَيْنَ أَنْبِياءِ اللهِ"[3]. وَلَيسَ يَخْفى أَنَّ هذا الحَدَثَ الكَلامِيَّ يُسْتَقى مِنْهُ دِلالَتانِ: إِحْداهُما تَواصُلِيّةٌ، وَهِيَ تَحَقّقُ مَعْنى الغَضَبِ الذي رُئِيَ في وَجْهِهِ، وَثانِيَتُهما فِقْهِيّةٌ تَشْريعِيّةٌ؛ ذلِكَ أَنَّ لِليَهودِيِّ ذِمّةً وَعَهْدًا، وَأَنَّ ثَمَّ نَهْيًا في المُفاضَلَةِ بَيْنَ الرُّسُلِ.

وَالمُتَبَصِّرُ في الأَحاديثِ الشَّريفَةِ يَجِدُ أَنَّ الصَّحابَةَ كَثيرًا ما كانوا يَلْتَفِتونَ إِلى دِلالاتِ الوَجْهِ الشَّريفِ في الإِبانَةِ وَالتّواصُلِ، فَكانوا يُكَيِّفونَ حَديثَهُمْ، وَتَخاطُبَهُم، وَتَواصُلَهُم، مُعْتَمِدينَ عَلى المَعْنى المُنْبَعِثِ مِنْهُ، وَمِنْ ذلِكَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ، "فَلَمّا رَأى عُمَرُ ما في وَجْهِهِ" أَوْقَفَ الحَوارَ تَأَدُّبًا وَتلَطّفًا قائِلاً: "يا رسولَ اللهِ، إِنّا نَتوبُ إِلى اللهِ عَزَّ

---

(1) الآية (النساء، 65)، وانظر: البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، الباب (1011/287)، 376/3.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الهبة، باب "هدية ما يكره لبسها"، (824/533)، 327/2، وكتاب اللباس، باب "الحرير للنساء"، (732/449)، 280/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الأنبياء، باب قول الله -تعالى-: "وإن يونس لمن المرسلين"، (1570/931)، 621/2.

وَجَلَّ"[1].

وَكَما كانَ أَصْحابُهُ يَقْتَنِصونَ المَعانِيَ، وَيَعْتَمِدونَ عَلى رُسومِ الحَرَكاتِ الوَجْهِيّةِ في التّواصُلِ، فَإِنَّ الأَمْرَ كَذلِكَ مَعَهُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَقَدْ كانَتْ لَهُ فِراسَةٌ في قِراءَةِ المَعاني المُتَأَتّيَةِ مِنْ وَجْهِ مَنْ يَقِفُ وُجاهَهُ، وَمِنْ ذلِكَ حَديثُ عَليٍّ -عَلَيْهِ السّلامُ- عِنْدَما اعْتَراهُ غَضَبٌ وَإِنْكارٌ لِما قامَ بِهِ حَمْزَةُ عَمُّهُ، فقَدْ رَأى أَنَّ شارِفَيْهِ قَدْ أُجِبَّتْ أَسْنِمَتُهُما، وَبُقِرَتْ خَواصِرُهُما، وَأُخِذَ مِنْ أَكْبادِهِما، فَلَمْ يَمْلِكْ عَيْنَيْهِ حينَ رَأى ذلِكَ المَنْظَرَ، فَدَخَلَ عَلى النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- لِيَبُثَّهُ هَمَّهُ، "فَعَرَفَ النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- مِنْ وَجْهي الذي لَقيتُ"[2]، فَابْتَدَرَهُ النَّبِيُّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- بِالمُساءَلَةِ لِما رَأى في وَجْهِهِ مِنْ جَزَعٍ وَإِنْكارٍ بِقَوْلِهِ: "ما لَكَ؟". وكَذلِكَ الحَديثُ الذي سَيَأْتي عَلَيْهِ بَيانٌ بَعْدًا، وَهوَ إِبْصارُهُ في وَجْهِ أبي هُرَيْرَةَ الجوعَ[3].

الوَجْهُ الدّالُّ عَلى الجوعِ:

لَعَلَّ مِنْ فُضولِ القَوْلِ إِنّ مَنْ يَتَمَلّكُهُ الجوعُ قَدْ يُفْضي بِهِ إِلى التَّقْريرِ عَنْ حالِهِ بِلَفْظِهِ، وَقَدْ تَشي عَلائِمُ مَخْصوصَةٌ تُنْسَبُ إِلى مَبْحثِ "الصَّمْتِيّاتِ" بِحالِهِ، فَتَكونُ في إِبانَتِها كَاللَّفْظِ، بَلْ أَبْلَغَ في مَواضِعَ أُخَرَ، وَقَدْ وَرَدَ في حَديثِ ابْنِ مَسْعودٍ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصارِ "أَبْصَرَ في وَجْهِ النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- الجوعَ فَدَعاهُ"[4]، وَهُوَ أَنْصارِيٌّ كانَ لَهُ غُلامٌ لَحّامٌ، فَقالَ لَهُ: اصْنَعْ لي طَعامَ خَمْسَةٍ لَعَلّي أَدْعو النَّبِيَّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- خامِسَ خَمْسَةٍ.

وَالحَقُّ أَنَّ تَبَصّرَ الأَنْصارِيّ لِهذا المَعْنى في وَجْهِ الرَّسولِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- قَدْ كانَ مِثْلُهُ مِنَ الرَّسولِ مَعَ أبي هُرَيْرَةَ، فَقَدْ تَفَرَّسَ في وَجْهِهِ الجوعَ، فَدَعاهُ فَأَطْعَمَهُ،

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب العلم، باب "الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره"، (91/71)، 111/1.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الخمس، باب "فرض الخمس"، (1264/837)، 503/2.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب "كيف كان عيش النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه..."، (1317/788)، 466/4.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المظالم والغصب، باب "إذا أذن إنسان لآخر شيئا جاز"، (675/440)، 271/2.

وَقَدْ أَلْمَحَ أبو هُرَيْرَةَ –كَما وَرَدَ في صَحيحِ البُخارِيّ– إِلى أَنَّهُ كانَ جائِعًا يَعْتَمِدُ بِكَبِدِهِ عَلى الأَرْضِ مِنَ الجوعِ، وَيَشُدُّ الحَجَرَ عَلى بَطْنِهِ، فَلَقَدْ قَعَدَ يَوْمًا عَلى طريقِهِمُ الذي مِنْهُ يَخْرُجونَ، فَمَرَّ أبو بَكْرٍ، فَسَأَلَهُ عَنْ آيَةٍ مُعَمِّيًا عَنْ حالِهِ، عَلَّهُ يَسْتَجيبُ، وَما سَأَلَهُ إِلاّ لِيَسْتَتْبِعَه، فَلَمْ يَفْعَلْ، وكَذلِكَ عُمَرُ، "ثُمَّ مَرَّ بي أَبو القاسِمِ صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَتَبَسَّمَ حينَ رَآني، وَعَرَفَ ما في نَفْسي وَما في وَجْهي"[1].

الوَجْهُ المُسْتَهْجِنُ المُسْتَعْتِبُ:

وَقَدْ تَجَلَّتْ تِلْكَ الدِّلالَةُ لَمّا أَهْدى أَحَدُهُم إِلى الرَّسولِ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ– حِمارًا وَحْشِيًّا، فَرَدَّ الرَّسولُ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– هَدِيَّتَهُ، وَلمّا كانَ ذلِكَ كَذلِكَ، رَأى في وَجْهِ المُهْدي مَعْنًى مومِئًا إِلى الاسْتِهْجانِ وَالاسْتِغْرابِ، فَاسْتَدْرَكَ عَلَيْهِ بِبَيانٍ شَريفٍ ناطِقٍ يَرُدُّ بِهِ عَلى ذلِكَ المَعْنى الصّامِتِ المَرْئِيِّ في وَجْهِهِ: "أَما إِنّا لَمْ نَرُدَّه عَلَيْكَ إِلاّ أَنّا حُرُمٌ"[2].

الوَجْهُ الفَزِعُ الخائِفُ:

وَتِلْكَ هَيْئَةٌ مَعْروفَةٌ لَنا بِها عَهْدٌ وَإِلْفٌ حَميمانِ، فَالخائِفُ وَجْهُهُ مُنْبِئٌ عَنْ حالِهِ، ناطِقٌ بِما يُكابِدُهُ وَيُخالِجُهُ، وقَدْ وقَعَ ذلِكَ في الحَديثِ الشَّريفِ يَوْمَ حَدَّثَهُمْ عَنْ يَوْمِ القِيامَةِ وَأَحْوالِها وَأَهْوالِها، وَكَيْفَ أَنَّ الحامِلَ تَضَعُ حَمْلَها، وَأَنَّ الوَليدَ يَشيبُ، وَأَنَّ النّاسَ يُرَوْنَ كَأَنَّهُمْ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى، فَشَقَّ ذلِكَ عَلى النّاسِ "حَتّى تَغَيَّرَتْ وُجوهُهُمْ"[3].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ حَديثُ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ أَنَّهُ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– اسْتَيْقَظَ مِنَ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقولُ: لا إِلهَ إِلاّ الله، وَيْلٌ لِلعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ رَدْمُ يَأْجوجَ وَمَأجوجَ..."[4].

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب "كيف كان عيش النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه..."، (1317/788)، 466/4.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الهبة، باب "قبول هدية الصيد"، (786/512)، 314/2.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، باب قوله: "وترى الناس سكارى"، (1166/415)، 455/3.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الفتن، باب قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: "ويل للعرب من =

وَمِنْ مِثْلِ وُرودِ تِلْكمُ المَعاني في الحَديثِ الشَّريفِ أَنَّ امْرَأةً قالَتْ إِنَّ خُبَيْبًا الأَنْصارِيَّ اسْتَعارَ مِنْها موسى يَسْتَحِدُّ بِها وَهُوَ أَسيرٌ فَأَعارَتْهُ، فَأَخَذَ لَها ابْنًا وَهِيَ غافِلَةٌ عَنْهُ، فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلى فَخِذِهِ، وَالموسى بِيَدِهِ، فَوَهِمَتْ إِذْ ظَنَّتْ أَنَّهُ يُريدُ ذَبْحَهُ، "فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفها خُبَيْبٌ في وَجْهي، فَقالَ: تَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ ما كُنْتُ لأَفْعَلَ ذلِكَ"[1].

الوَجْهُ المُشيحُ المُتَعَوِّذُ:

يَشيعُ في كَلامِنا قَوْلُنا "أشاحَ بِوَجْهِهِ"، وَهذا وَصْفٌ لِحَرَكَةٍ جَسَدِيّةٍ تُنْبِئُ عَنِ الإِعْراضِ والتَّنْحِيَةِ، وَفي صِفَةِ رَسولِ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- أَنَّهُ إِذا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشاحَ[2]، وَقَدْ صَدَرَتْ هذِهِ الحَرَكَةُ عَنِ الرَّسولِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- عِنْدَما ذَكَرَ النّارَ في مَعْرِضِ حَديثِهِ عَنِ اتِّقائِها، وَاللَّفْتَةُ المُعْجِبَةُ حَقًّا أَنَّهُ كانَ في حديثِهِ ذاكَ يوصي بِاتِّقاءِ النّارِ، فَعَنْ عَدِيِّ بنِ حاتِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- ذَكَرَ النّارَ، فَأَشاحَ بِوَجْهِهِ، فَتَعَوَّذَ مِنْها ثُمَّ قالَ: اتَّقوا النّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ[3]، فَكانَتْ تِلْكَ الوَصِيّةُ مُرادِفَةً لإِشاحَةِ وَجْهِهِ عِنْدَ ذِكْرِها، فَتَعَوَّذَ مِنَ النّارِ قَوْلاً وَعَمَلاً في ذلِكَ السِّياقِ، فَأَمّا بِالقَوْلِ فَهُوَ ظاهِرٌ، وَأَمّا بِالعَمَلِ فَبِإِشاحَةِ الوَجْهِ الشَّريفِ، وَلَعَلَّ هذا يُعَزِّزُ مَقولةَ أَهْلِ هذا الدَّرْسِ الذّاهِبَةَ إِلى أَنَّ "الإِشارَةَ مَبْنِيّةٌ أَساسًا عَلى المُشابَهَةِ التَّشْخيصِيّةِ"[4].

الوَجْهُ الطَّلْقُ البَسّامُ:

هَيْئَةٌ وَجْهِيّةٌ مَنْدوبٌ إِتْيانُها، مَأْجورٌ آتيها، وَقَدْ كانَ الرَّسولُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يُلِحُّ عَلَيْها، فَتَجَلَّتْ في سيرَتِهِ وَشمائِلِهِ الزّكِيّةِ قَوْلاً لَفْظِيًّا، وَعَمَلاً حَرَكِيًّا، أَمّا تَجَلّيها قَوْلاً فَقَدْ كانَ: "وَتَبَسُّمُكَ في وَجْهِ أخيكَ صَدَقَةٌ"[5]، وَأَمّا تَجَلّيها عَمَلاً وَدَيْدَنًا

=

شر قد اقترب"، (1886/1071)، 676/4.

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب "هل يستأسر الرجل"، (1222/809)، 488/2.

(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة "شيح".

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب "صفة الجنة والنار..."، (1425/822)، 499/4.

(4) انظر: مايكل كوربالیس، في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم، 212.

(5) انظر: الترمذي، السنن، باب ما جاء في صنائع المعروف(1956)، 339/4، وابن حبان، الصحيح، ذكر كتبة الله جل وعلا الصدقة للمسلم بتبسمه في وجه أخيه المسلم(474)، 221/2.

فَما وَرَدَ مِنْ قَوْلِ أحَدِهِمْ: "ما حَجَبَني النَّبِيُّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- مُنْذُ أسْلَمْتُ، وَلا رَآني إلاّ ابْتَسَمَ في وَجْهي"[1]، وقَدِ التَفَتَ الجاحِظُ إلى هذا، "لأنَّ العَرَبَ تَجْعَلُ الحَديثَ، وَالبَسْطَ، وَالتّأْنيسَ، وَالتّلقّي بِالبِشْرِ مِنْ حُقوقِ القِرى، وَمِنْ تَمامِ الإكْرامِ"[2].

وَما مِنْ رَيْبٍ أنَّها حَرَكَةٌ تَفْعَلُ فِعْلَها في بِناءِ المُجْتَمَعِ، وَتَلاطُفِ أهْلِهِ، وَتَعاطُفِهِمْ وَتَكاتُفِهِمْ، وقَدْ كانَ ذلِكَ شَأْنَ الرَّسولِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- حَتّى مَعَ المُتَخَلّفينَ الذين طَفِقوا يَعْتَذِرونَ إلَيْهِ، وَيَحْلِفونَ لَهُ، وَكانوا بِضْعَةً وَثَمانينَ، فَقَبِلَ مِنْهُمْ عَلانِيَتَهُمْ، وَبايَعَهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، فَلَمّا جاءَ كَعْبُ بنُ مالِكٍ، وَهُوَ واحِدٌ مِنْهُمْ، سَلَّمَ عَلَيْهِ، فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- "ابْتِسامَةَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قالَ: تَعالَ، فَجِئْتُ أمْشي حَتّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقالَ ما خَلَّفَكَ..."[3]، حَقًّا أنَّهُ خُلُقٌ عَظيمٌ، وَنَبِيٌّ كَريمٌ، وَمُعَلِّمٌ أمينٌ، بِالمُؤْمنينَ رَؤوفٌ رَحيمٌ، لَقَدْ كانَ شَأنُهُ مَعَ الذين رَضوا بِأنْ يَكونوا مَعَ القَواعِدِ وَالخَوالِفِ شَأْنَ المُغْضَبِ المُبْتَسِمِ، صاحِبِ العِتابِ الرَّقيقِ الرّاقي، فَكانَ أُنْموذَجًا في الدَّعْوَةِ، وَالسّلوكِ، وَالتّواصُلِ.

لَعَلَّ الحَديثَ عَنْ دِلالاتِ الوَجْهِ في الحَديثِ النَّبَويّ الشَّريفِ عامَّةً، ودِلالَةِ وَجْهِهِ الشَّريفِ خاصّةً، إنْ مُرْسِلاً، وَإنْ مُسْتَقْبِلاً، يَكْثُرُ إنْ تَتَبّعْتُهُ، وَقَدْ أوْرَدْتُ أمْثِلَةً تُنَبِّهُ عَلى الغَرَضِ الذي قَصَدْتُهُ، وَتَبْقى هذِهِ المُباحَثَةُ الفَرْعِيّةُ مُحْتاجَةً إلى قُفْلَةٍ مُؤْتَلِفَةٍ مِنْ شِقَّيْنِ:

أوّلُهُما:

أهَمِيّةُ اسْتِشْرافِ سِياقِ دِلالَةِ الوَجْهِ الشَّريفِ، فَانْسِلاخُ الحَرَكَةِ مِنْ سِياقِها مَجْلَبَةٌ لِتَعَدّدِ المَعاني التي تَقَعُ تَحْتَها، وَلانْتِسابِها إلى ظاهِرَةِ المُشْتَرَكِ الحَرَكِيّ، فَاحْمِرارُ الوَجْهِ مَثَلاً قَدْ يَكونُ مُنْبِئًا عَنِ الخَجَلِ، أَوِ الخَوْفِ، أَوِ المَرَضِ، وَاسْتِرْفادُ السِّياقِ يُعَيِّنُ المَعْنى المُرادَ مِنْ تِلْكَ الهَيْئَةِ الحَرَكِيَّةِ عَلى وَجْهِ التَّعْيينِ، وَلِذلِكَ كانَ احْمِرارُ وَجْهِهِ الشَّريفِ في سِياقٍ ذا دِلالَةٍ عَلى الفَزَعِ، وفي آخَرَ ذا دِلالَةٍ عَلى الغَضَبِ، وفي ثالِثٍ عَلى الإنْكارِ، وَهكَذا دَوالَيْكَ.

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب "التبسم والضحك"، (968/590)، 350/4.

(2) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 10/1.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب "غزوة تبوك"، (859/195)، 311/3.

وَثانيهما:

أَنَّ وَجْهَهُ الشَّريفَ مَصْدَرٌ مِنْ مَصادِرِ التَّشْريعِ، فَرُؤْيَةُ الغَضَبِ مَثَلاً في وَجْهِهِ الشَّريفِ قَدْ تُؤْذِنُ بِالقَوْلِ إِنَّ ما كانَ سَبَبًا باعِثًا عَلى ذلِكَ مُحَرَّمٌ يُؤْثَمُ فاعِلُهُ، أَوْ مَكْروهٌ يُنْدَبُ تَرْكُهُ، وَالأَمْرُ بِالضِّدِّ في دِلالَةِ الفَرَحِ أَوِ القَبولِ.

وَبَعْدُ، فَها نَحْنُ أولاءِ نَقِفُ أَمامَ وَجْهٍ شَريفٍ ناطِقٍ مُبينٍ حَمّالٍ لِدِلالاتٍ لَسْتُ أَزْعمُ أَنَّني أَتَيْتُ عَلَيْها كُلِّها حَتّى تَفَرَّسْتُها، وَلكِنّني أَوْرَدْتُ أَمْثِلَةً تَدُلُّ عَلى الغَرَضِ الذي عُقِدَ لَهُ عُنْوانُ هذِهِ المُباحَثَةِ، وَقَدْ بَدا أَنَّ الوَجْهَ ذو سُهْمَةٍ ظاهِرَةٍ في تَحْقيقِ ذلِكَ التّواصُلِ، وَالبَيانِ بِلا لِسانٍ.

مِنْ هَيْئاتِ الرَّأْسِ وَدِلالاتِها:

مِنَ المُقَرَّرِ المُسْتَحْكِمِ أَنَّ الرَّأْسَ صَوْمَعَةُ البَدَنِ، وَجامِعُ الحَواسِّ الخَمْسِ الظّاهِرَةِ، وَمِنْهُ تَنْجَلي الآياتُ، وَتَتَراءى العَلاماتُ، وَتَصْدقُ الأَماراتُ[1]، وَفي "عِلمِ الحَرَكِيّةِ" تَقَدّمَ أَنَّ لِلرّأسِ هَيئاتٍ مُخْتلِفةً، كالمَرْفوعِ، والخَفيضِ، وَالمائِلِ، وَلِكلِّ هَيْئَةٍ دِلالاتٌ مَخْصوصَةٌ، وَقَدْ كانَ لِلرّأسِ حُضورٌ في الحَديثِ النَّبَوِيِّ الشَّريفِ، وَفَضْلٌ ظاهِرٌ في التَّواصُلِ وَالإِبانَةِ، وَقَدْ تَجَلّى في هَيْئاتٍ مُتَباينَةٍ سَآتي عَلى تِسْعٍ حَمّالاتٍ لِتِسْعِ دِلالاتٍ:

أَوّلُها: الرَّأْسُ المُتَكَلِّمُ القائِلُ "نَعَم":

وَقَدْ وَقَعَ ذلِكَ في حَديثِ وَفاةِ الرَّسولِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَقَدْ دَخَلَ عَبْدُ الرّحْمنِ بنُ أبي بَكْرٍ عَلى عائِشَةَ أمِّ المُؤْمِنينَ، وَبِيَدِهِ سِواكٌ، وَعائِشَةُ مُسْنِدَةٌ رَسولَ اللهِ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ إِلى السِّواكِ نَظَرَ الطّالِبِ المُسْتَعْطي، فَقامَ في نَفْسِ عائِشَةَ مَعْنًى مَفادُهُ أَنَّهُ يُريدُ السِّواكَ، فَبادَرَتْهُ بِالسّؤالِ قائِلَةً: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَجابَ الرَّسولُ مُعْتَمِدًا عَلى حَرَكَةِ رَأسِهِ الشَّريفِ المُفْضِيَةِ إِلى مَعْنى القَبولِ، وَالقائِلَةِ بِهِزّةِ الرَّأْسِ إِلى الأَسْفَلِ: "نَعَم" نَظَرًا لِما كانَ يُعالِجُهُ مِنْ شِدَّةٍ، وَيُقاسيهِ مِنْ أَلَمٍ، فَناوَلَتْهُ السّواكَ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ مَرَضُ المَوْتِ، فَقالَتْ مُسْتَدْرِكَةً: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَقالَ بِرَأْسِهِ الشّريفِ ثانِيَةً أَنْ نَعَمْ[2].

---

(1) انظر: ابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 45.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب "مرض النبي صلى الله عليه وسلم"، (885/199)، 322/3.

يَظْهَرُ أَنّنا نَقِفُ عِنْدَ حَدَثٍ تَواصُلِيٍّ بَيْنَ قُطْبَيْنِ اثْنَيْنِ اعْتَمَد فيهِ القُطْبُ الأَوَّلُ في إِبانَتِهِ وَتَواصُلِهِ عَلى المَجْرى الصّائِتِ الكَلامِيّ، وَاعْتَمَدَ فيهِ الثّاني –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– عَلى المَجْرى الصّامِتِ الحَرَكِيّ، فَانْعَقَدَ التّواصُلُ، وَاقْتُنِصَتِ الرّسالَةُ، وَكانَ لِلرّأسِ الشَّريفِ فَضْلٌ ظاهِرٌ في ذلِكَ كُلِّهِ، وَكانَ سَبيلَ اسْتِدلالٍ إِلى المَعْنى الذي أَرادَهُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ.

وَقَدْ يَكونُ الأَمْرُ بِالضِّدِّ مِمّا تَقَدَّمَ، كَأَنْ يَكونَ رَأْسُ مَنْ يَقِفُ وُجاهَ الرَّسولِ ناطِقًا مُتَكَلِّمًا، وَسَبيلاً مُؤَدِّيًا إِلى التَّواصُلِ وَالإِبانَةِ وَالاسْتِدْلالِ عَلى المَعاني التي يُعَيِّنُها قُطْبُ الحَدَثِ الكَلامِيّ الآخَرُ، وَقَدْ تَجَلّى ذلِكَ في الحَديثِ الذي رَواهُ أَنَسُ بنُ مالِكٍ، وَفيهِ أَنَّ يَهودِيًّا رَضَّ رَأسَ جارِيَةٍ بَيْنَ حَجَرَيْنِ، فَجيءَ بِها إِلى النَّبِيِّ وَبِها رَمَقٌ، فَسَأَلَها النَّبِيُّ مُسْتَفْهِمًا قائِلاً: فُلانٌ قَتَلَكِ؟ فَاسْتَرْفَدَتْ مِنْ حَرَكَةِ رَأْسِها الدِّلالَةَ وَالإِجابَةَ نَظَرًا لِضَعْفِ حالِها، وَقِلّةِ حيلَتِها في مَقامِها ذاكَ، رافِعَةً رَأْسَها إِلى الأَعَلى قائِلَةً بِهِ "لا"، فَأَعادَ عَلَيْها سُؤالَهُ الشَّريفَ قائِلاً: فُلانٌ قَتَلَكِ؟ فَأَشارَتْ بِرَأْسِها إِلى الأَعَلى أَنْ لا، فَقالَ في الثّالِثَةِ: فُلانٌ قَتَلَكِ؟ فَخَفَضَتْ رَأْسَها لِلدِّلالَةِ عَلى صِحّةِ ما ذَكَرَ، فَدَعا بِهِ الرّسولُ، فَلَمْ يَزَلْ حَتّى اعْتَرَفَ، فَرُضَّ رَأسُهُ بِالحِجارَةِ[1].

وَالظّاهِرُ في هذا الحَديثِ المُتَقَدِّمِ بَيانُهُ أَنَّ المُرْسِلَ قَدْ فاءَ إِلى المَرْجِعِ اللّغَوِيِّ المُشْتَرَكِ في التّواصُلِ، فَكانَتْ سَبيلُهُ إِلى ذلِكَ الكَلامَ المَنْطوقَ، وَأَنَّ المُسْتَقْبِلَ فَهِمَ مَقْصِدَهُ وَرُسومَ كَلامِهِ، فَكانَتِ اسْتِجابَتُهُ مَبْنِيَّةً عَلى اللّغَةِ الصّامِتَةِ، فَانْعَقَدَ التّواصُلُ، وَقالَ الرَّأْسُ بِحَرَكَتَيْنِ مومِئَتَيْنِ "لا"، وَقالَ في الثّالِثَةِ "نَعَمْ"، أَمّا "لا" فَكانَتْ هَيْئَتُها رَفْعَ الرَّأْسِ إِلى أَعْلى، وَأَمّا "نَعَمْ" فَكانَ الدّالُّ عَلَيْها خَفْضَ الرَّأْسِ إِلى الأَسْفلِ.

ثانيها: الرَّأْسُ الخَفيضُ الرّافِضُ المُعْتَذِرُ:

وَقَدْ تَجَلّى ذلِكَ المَعْنى لَمّا جاءَتِ امْرَأَةُ النَّبِيِّ فَقالَتْ: "يا رسولَ اللهِ، جِئْتُ أَهَبُ لَكَ نَفْسي"، فَنَظَرَ إِلَيْها الرّسولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَصَعَّدَ النَّظَرَ، "ثُمَّ طَأْطَأَ رَسولُ اللهِ

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الوصايا، باب "إذا أومأ المريض برأسه إشارة بينة جاز"، (945/611)، 389/2، وكتاب الديات، باب "من أقاد بالحجر"، (1717/963)، 606/4، وكتاب الديات، باب "إذا أقر بالقتل مرة قتل به"، (1722/968)، 609/4.

رَأسَهُ"[1]، وَكانَ في تِلْكَ الطَّأْطَأَةِ إيماءَةُ رَفْضٍ، وَانْتِفاءُ قَبولٍ، وَلَمّا قَرَأتْ تِلْكَ المَرْأةُ هذا المَعْنى في حَرَكَةِ رَأْسِهِ الشّريفِ، وَلَمّا رَأَتْ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فيها شَيْئًا، لَمّا كانَ ذلِكَ كَذلِكَ، انْثَنَتْ وَجَلَسَتْ، فَقامَ آخَرُ مِنْ أَصْحابِهِ فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِها حاجَةٌ فَزَوِّجْنيها"[2]، وَمُسْتَصْفى القَوْلِ في هذا الحَدَثِ أَنَّ إِطْراقَةَ الرَّسولِ، وَطَأْطَأَتَهُ لِرأسِهِ الشَّريفِ، كانَتا جَوابًا صامِتًا غَيْرَ لَفْظِيٍّ، مُلْمِحًا بِالرَّفْضِ وَالاعْتِذارِ.

ثالِثُها: الرَّأْسُ المُسْتَنْكِرُ المُسْتَهْجِنُ:

وَقَدْ يَكونُ لِلرَّأْسِ هَيْئَةٌ حَرَكِيّةٌ تومِئُ في سِياقِها إلى دِلالَةِ الاسْتِنْكارِ، أَوْ الاسْتِهْجانِ، وَالحَقُّ أَنَّ هذا المَعْنى لا يَتَعَيّنُ بِالرَّأْسِ وَحْدَهُ، وَإِنّما بِجُمْلَةٍ مِنَ الجَوارِحِ التي يَتَصَدّرُها الرَّأْسُ، وَقَدْ وَقَعَ ذلِكَ في الحَديثِ الشَّريفِ الذي رَواه أَبو موسى فَقالَ: "جاءَ رَجُلٌ إِلى النَّبِيّ فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، ما القِتالُ في سَبيلِ اللهِ، فَإِنَّ أَحَدَنا يُقاتِلُ غَضَبًا، وَيُقاتِلُ حَمِيّةً"، فَلَمْ يَرُقْ ذلِكَ لِرسولِ اللهِ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأسَهُ مُسْتَدْرِكًا مُسْتَهْجِنًا لِما كانَ قَدْ صَدَرَ مِنْهُ، مُعَقِّبًا بِقَوْلِهِ: "مَنْ قاتَلَ لِتَكونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيا فَهُوَ في سَبيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ"[3].

رابِعُها: الرَّأْسُ المُشيرُ المُعَيّنُ لِلجِهَةِ، وَالمُجَلّي لِلحالِ:

وَفي ثِنْيِ اسْتِشْرافِ هَيْئاتِ الرَّأْسِ وَدِلالاتِها في الحَديثِ الشَّريفِ بَدا أَنَّ الرَّأْسَ كانَ أَداةَ تَواصُلٍ وَإِبانَةٍ في الصّلاةِ التي يَحْرُمُ فيها الكَلامُ، وَلَمّا كانَ ذلِكَ كَذلِكَ، عَدَلَ المُرْسِلُ عَنِ التَّواصُلِ بِالمَجْرى الصّائِتِ الكَلامِيّ إِلى المَجْرى الصّامِتِ الحَرَكِيّ، مُسْتَعينًا في ذلِكَ عَلى أَداءِ مَقْصودِهِ، وَمُتَحَلِّلاً مِنْ حَرَجِ الكَلامِ في ثِنْيِ الصَّلاةِ، وَقَدْ كانَ ذلِكَ في الحَديثِ الذي رَوَتْهُ أَسْماءُ لَمّا أَتَتْ عائِشَةَ فَإِذا النّاسُ قِيامٌ يُصَلّونَ، وَإِذا هِيَ قائِمَةٌ تُصَلّي في وَقْتٍ لَمْ يُتَعارَفْ عَلى أَنَّهُ وَقْتُ صَلاةٍ مَفْروضَةٍ، فَعَجِبَتْ مِنَ الأَمْرِ عَجَبًا انْبَنى عَلَيْهِ مُساءَلَةٌ كَلامِيّةٌ قالَتْ فيها لِعائِشَةَ المُصَلّيَةِ: "ما لِلنّاسِ؟" فَأَشارَتْ عائِشَةُ

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب النكاح، باب "تزويج المعسر"، (25/15)، 13/4.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب النكاح، باب "تزويج المعسر"، (25/15)، 13/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب العلم، باب "من سأل وهو قائم عالما جالسا"، (121/88)، 124/1، وقد عرج على هذه الحركة، أعني رفع الرأس "بحركة مفاجئة" غدويس وغروست، لغة الجسد، 45.

بِرَأسِها إلى السَّماءِ[1] مُلْمِحَةً إلى الشَّمْسِ كُسوفِها، فَقالَتْ أسْماءُ: آيَةٌ؟ فَقالَتْ بِرَأْسِها مُجيبَةً مُتَواصِلَةً تَواصُلاً غَيْرَ لَفظِيٍّ ثانِيَةً: نَعَمْ[2].

خامِسُها: الرَّأْسُ الرّاكِعُ وَالسّاجِدُ:

وَهذِهِ هَيْئَةٌ أُخْرى مِنْ هَيْئاتِ رَأْسِهِ الشَّريفِ التي اهْتَدى لِمَعْناها أصْحابُهُ، فَفي سَفَرِهِ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– كانَ يُصَلّي عَلى ظَهْرِ راحِلَتِهِ حَيْثُ كانَ وَجْهُهُ، مومِئًا بِرَأْسِهِ، مُقيمًا تِلْكَ الحَرَكَةَ مَقامَ رُكوعِهِ وَسُجودِهِ في صَلاتِهِ[3].

سادِسُها: الرَّأْسُ الحَزين المُنَكَّسُ:

وَهذِهِ هَيْئَةٌ أُخْرى مِنْ هَيْئاتِ الرَّأْسِ وَأوْضاعِهِ المُنْبِئَةِ عَنْ حالٍ نَفْسِيَّةٍ لِمَنْ يَأْتيها، وَلَها مَقاماتٌ مِنْها مَقامُ الحُزْنِ، وَمَقامُ النَّدامَةِ، وَمَقامُ الخِزْيِ، وَقَدْ وَرَدَتْ في التَّنْزيلِ العَزيزِ في قَوْلِ الحَقِّ –تَقَدَّسَ اسمُهُ–: "وَلَو تَرى إِذِ المُجْرِمونَ ناكِسو رُؤوسِهِمْ عِنْدَ ربِّهِم رَبَّنا أبْصَرْنا وسَمِعْنا فَارْجِعْنا..."[4]، وَقَدْ جاءَ في الحَديثِ أَنَّ الرَّسولَ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– حينَ افْتَقَدَ ثابِتَ بنَ قَيْسٍ قالَ لَه رَجُلٌ: أنا أَعْلَمُ عِلْمَهُ يا رَسولَ اللهِ، فَأتاهُ، فَوَجَدَه جالِسًا في بَيْتِهِ، "مُنَكِّسًا رَأسَهُ، فَقالَ: ما شَأنُكَ؟ فَقالَ شَرٌّ كانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النّبِيِّ، وَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النّارِ"، فَأخْبَرَ النَّبِيَّ بِحالِهِ وَهَيئتِهِ التي هُوَ عَلَيْها، فَرَجَعَ إِلَيْهِ بِالبُشْرى قائِلاً: إِنّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النّارِ[5].

سابِعُها: الرَّأْسُ المُعْذِرُ إلى رَبِّهِ المُتَوَجّهُ إِلَيْهِ:

وَقَدْ ظَهَرَ ذلِكَ جَلِيًّا في خُطْبَةِ الرَّسولِ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– البَليغَةِ المُسْتَوْعِبَةِ

---

(1) في بعض الروايات "بيدها"، انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الوضوء، باب "من لم يتوضأ إلا من الغشي المثقل"، (179/134)، 150/1.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الوضوء، باب "من لم يتوضأ إلا من الغشي المثقل"، (179/134)، 150/1، وكتاب الجمعة، (869/586)، 423/1، وكتاب السهو، باب الإشارة في الصلاة (1154/785)، 531/1، وكتاب الطلاق، باب الإشارة في الطلاق والأمور، 100/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب "تقصير الصلاة"، باب الإيماء على الدابة(1025/704-1026)، 484/1، والباب (1032/708)، 486، وهذا في باب التطوع في صلاة السفر.

(4) الآية (السجدة، 12).

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب "علامات النبوة"، (140/26)، 50/3.

في حجّةِ الوَداعِ، فَقَدِ اشْتَمَلَتْ عَلى أحْوالٍ، وَتَعاليمَ، وَوَصايا، وَكَأنَّ تِلْكَ الخُطْبَةَ كانَتِ القُفْلَةَ التي خَتَمَ بِها دَعْوَتَهُ مِصْداقًا لِقَوْلِ رَبِّهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾"[1]، وَقَدِ التَفَتَ الرّاوي إلى حَرَكَةِ رَأْسِ الرَّسولِ التِفاتَةً مُعْجِبَةً لِما لَها مِنْ دِلالَةٍ مَقامِيّةٍ وَإيحاءٍ، فَرَوى تِلْكَ الحَرَكَةَ كَما رَوى لَفْظَ الخُطْبَةِ، فَقالَ: "فَإنَّ دِماءَكُمْ، وَأمْوالَكُمْ، وَأعْراضَكُمْ، عَلَيْكُمْ حَرامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا في بَلَدِكُمْ هذا في شَهْرِكُمْ هذا، فَأعادَها مِرارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَه فَقالَ: اللّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ"[2]، وَفي رَفْعِ الرَّأْسِ الشَّريفِ دِلالَةٌ عَلى مَعْنى التّوَجُّهِ إلى اللهِ، وَالإقْرارِ بِما بَلَّغَ، وَرَجائِهِ مِنْ رَبِّهِ القَبولَ.

ثامِنُها: الرَّأْسُ القاطِرُ وَدِلالَةُ الإعْجالِ:

وَقَدْ تَدُلُّ هَيْئَةُ الرَّأْسِ في مَقاماتٍ مَخْصوصَةٍ عَلى حالِ صاحِبِها، وَالهَيْئاتُ كَثيرَةٌ كَما الأَحْوالِ، وقَدْ ظَهَرَ ذلِكَ في الحَديثِ الذي رَواهُ أبو سَعيدٍ الخُدْريُّ أنَّ الرَّسولَ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– أَرْسلَ إلى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصارِ، فَجاءَهُ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ، فَقامَتْ في نَفْسِ الرَّسولِ دِلالَةٌ مُتَخَلِّقَةٌ مِنْ هَيْئَةِ الأَنْصارِيّ الذي جاءَ وَلِسانُ حالِهِ يَقولُ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [3]، فَبادَرَهُ النَّبِيُّ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– بِقَوْلِهِ: "لَعَلَّنا أعْجَلْناكَ، فَقالَ: نَعَم"[4].

تاسِعُها: الرَّأْسُ الأَشْعَثُ الأغْبَرُ:

وَالحَقُّ أَنَّ تِلكَ الهَيْئَةَ قَدْ تَكونُ ذاتَ دِلالاتٍ مُتَعَدّدَةٍ وَهِيَ مُنْسَلِخَةٌ مِنْ سِياقِها، وَلِلمَرْءِ أَنْ يُسَرِّحَ خاطِرَهُ مُلْتَمِسًا دِلالاتٍ وَمَعانِيَ تَصْدُقُ عَلَيْها تِلكَ الهَيْئَةُ، وَقَدْ وَرَدَتْ في مَقامِ المَدْحِ وَالثَّناءِ عَلى أَهْلِها في الحَديثِ الشَّريفِ، فَقَدْ تَكونُ فيها دِلالَةٌ عَلى التّشاغُلِ بِالجِهادِ وَالسَّيْرِ في سَبيلِ اللهِ عَنِ الشَّعْرِ، وَإسدالِهِ، وَتَطْييبِهِ، وَلِذا قالَ الرّسولُ: "طوبى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعنانِ فَرَسِهِ في سَبيلِ اللهِ، أشْعَثَ رَأسُهُ، مُغْبَرّةٍ قَدَماه"[5].

---

(1) الآية (المائدة، 3).

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الحج، باب "الخطبة أيام منى"، (6/3)، 6/2.

(3) الآية (طه، 84).

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الوضوء، الباب (175/131)، 148/1.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب "الحراسة في الغزو في سبيل الله"، (1078/712)، 438/2.

وَفي حَديثٍ آخَرَ كانَتْ هذِهِ الصّفَةُ مِمّا اعْتَرى جِبْريلَ عَلَيْهِ السّلامُ، فَلَمّا رَجَع -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يَوْمَ الخَنْدَقِ، وَوَضَعَ السّلاحَ، وَاغْتَسَلَ، أَتاهُ جِبْريلُ وَقَدْ عَصَبَ الغُبارُ رَأسَهُ، فَقالَ لَه حاثًّا وَمُنَهِّضًا وَمُرْشِدًا: وَضَعْتَ السِّلاحَ؟ فَوَاللهِ ما وَضَعْتُهُ[1].

وَبَعْدُ، فَالحَديثُ عَنْ هَيْئاتِ الرَّأْسِ وَدِلالاتِها يَطولُ، وَفيما قَدّمْتُهُ مُكْتَفًى دالٌّ بِالاقْتِضابِ عَلى فَضْلِ الرَّأْسِ في التَّواصُلِ وَالإبانَةِ، وَأُقْفِلُ هذِهِ المُباحَثَةَ الفَرْعِيّةَ بِالإلْماحَةِ إلى أرْبَعَةِ مَلاحِظَ:

- **أَوّلُها**: اسْتِدْلالُ الرَّسولِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- بِحَرَكَةِ رَأْسِ مَنْ كانَ يَقِفُ وُجاهَهُ، كَالجارِيَةِ المُساءَلَةِ وَالمُجيبَةِ بِالاعْتِمادِ عَلى مَلْحَظِ الصَّمْتِيّاتِ وَالحَرَكِيّاتِ.
- **وَثانيها**: اسْتِدْلالُ أصْحابِهِ بِحَرَكَةِ رَأسِهِ الشّريفِ، وَتَعْويلُهُمْ عَلى المَعاني المُتَأتّيَةِ مِنْها.
- **وَثالِثُها**: فَضْلُ السِّياقِ في تَعْيينِ دِلالَةِ الهَيْئَةِ وَالحَرَكَةِ، فَالرَّأْسُ الأشْعَثُ المُغْبَرُّ قَدْ يَكونُ حَمّالاً لِمَعانٍ، وَلكِنَّ السِّياقَ الذي وَرَدَ فيهِ كانَ مُحْتَكَمًا أَمينًا في إسْباغِ دِلالَةٍ واحِدَةٍ عَلى وَجْهٍ مِنَ الإحْكامِ.
- **وَرابِعُها**: قِيامُ حَرَكَةِ الرَّأْسِ في بَعْضِ السّياقاتِ مَقامَ الكَلامِ، وقَدْ كانَتْ في سِياقاتٍ أُخَرَ مِنْ مُعَزّزاتِ المَعْنى المَنْطوقِ، فَتَعَيَّنَتِ الدّلالَةُ الكُلّيَّةُ بِالرّافِدَيْنِ: الصّائِتِ المَنْطوقِ المُنْتَسِبِ إلى "الكَلامِيّاتِ"، وَالصّامِتِ الحَرَكِيّ المُنْتَسِبِ إلى "الصَّمْتِيّاتِ".

مِنْ هَيْئاتِ العَيْنِ وَدِلالاتِها

تَقَدّمَ أَنَّ العَيْنَ قَدْ تَغْدو في سِياقٍ ما لِسانًا فَصيحًا مُتَكَلّمًا يَنْطِقُ بِمَعانٍ، فَيَسْتَجيبُ مَنْ يُعاينُها، بَعْدَ اقْتِناصِ مُرادِها المُتَشَكِّلِ مِنْ هَيْئَةِ تَشَكّلِها، اسْتِجابَةً عَمَلِيّةً، أوْ كَلامِيّةً، وَلِلعَيْنِ في الحَديثِ الشَّريفِ هَيْئاتٌ مُتَعَدّدَةٌ تُسْتَقى مِنْها دِلالاتٌ، وَتَتَعَيّنُ بِها مَعانٍ، وَأهَمُّها دِلالَةُ الإعْجابِ المُسْتَقاةُ مِنَ العَيْنِ المُعْجَبَةِ، وَدِلالَةُ التّثاقُلِ وَالتَّراخي المُسْتَقاةُ مِنَ العَيْنِ الكَليلَةِ المُتَثاقِلَةِ، وَدِلالَةُ الرِّضى وَالقَبولِ المُسْتَقاةُ مِنَ العَيْنِ الرّاضِيَةِ المَرْضِيَّةِ، وَدِلالَةُ التّفَحُّصِ وَالتّدَبُّرِ المُسْتَقاةُ مِنَ العَيْنِ المُتَبَصّرَةِ المُتَأمِّلَةِ، وَدِلالَةُ الخُشوعِ المُسْتَقاةُ

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد، باب "الغسل بعد الحرب"، (1006/661)، 415/2.

مِنَ العَيْنِ الباكِيَةِ، وَدِلالَةُ الطَّلَبِ وَالاسْتِنْطاءِ، وَغَيْرُ ذلِكَ.

لِنَنْظُرْ في سَبْعِ هَيْئاتٍ حَمّالاتٍ لِسَبْعَةِ مَعانٍ:

العَيْنُ المُعْجَبَةُ المُسْتَحْسِنَةُ:

مِنَ الدِّلالاتِ التي تُعَيِّنُها العَيْنُ عامّةً، وَطَبيعَةُ النَّظْرَةِ خاصّةً، دِلالَةُ الإِعْجابِ، وَهذا مَعْنًى كَثُرَ وَرودُهُ في شِعْرِ الشُّعراءِ، وَمِنْ ذلِكَ:

وَعَيْنُ ذي الوُدِّ ما تَنْفَكُّ مُقْبِلَةً تَرى لَها مَحْجرًا شَبًّا وَإِنْسانا[1]

وَقَدْ وَرَدَ هذا المَعْنى في الشِّعْرِ كَثيرًا، وَقَدْ وَقَعَ ذلِكَ في الحَديثِ الشَّريفِ كَذلِكَ، فَمِنْ ذلِكَ أنَّ امْرَأةً مِنْ خَثْعَمَ جاءَتِ النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- مُسْتَفْتِيَةً، وَكانَ مَعَهُ الفَضْلُ، وَهُوَ رَديفُهُ، فَجَعَلَ الفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْها نَظَرَ المُعْجَبِ بِحُسْنِها، وَتَنْظُرُ هِيَ إِلَيْهِ، فَما كانَ مِنَ الرَّسولِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- إلاّ أنْ صَرَفَ بِيَدِهِ الشَّريفَةِ وَجْهَ الفَضْلِ إِلى الشِّقِّ الآخَرِ[2]؛ ذلِكَ أنَّ تِلْكُمُ النَّظَراتِ وَالتَّرامُقَ كانا مِمّا يَنْتَسِبُ إِلى بابِ القَوْلِ عَلى خائِنَةِ الأَعْيُنِ المَنْهِيِّ عَنْ إِتْيانِها.

العَيْنُ المُسْتَنْطِيَةُ الطّالِبَةُ:

وَقَدْ يَكونُ مِنَ العَيْنِ نَظَرٌ يُفيدُ مَعْنى الطَّلَبِ وَالاسْتِنْطاءِ، وَالحَقُّ أَنَّ هذا المَلْحَظَ في التَّواصُلِ غَيْرِ اللَّفْظِيِّ كَثيرٌ في حياتِنا اليَوْمِيّةِ، وقَدْ نَقَلَ لَنا الرّواةُ ذلِكَ في كُتُبِ الحَديثِ النَّبَوِيِّ، وَمِنْ ذلِكَ أنَّ عَبْدَ الرَّحْمنِ بنَ أبي بَكرٍ دَخَلَ عَلى النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- في مَرَضِ مَوْتِهِ وَبِيَدِهِ سِواكٌ، فَأَخَذَ الرَّسولُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَرَ الطّالِبِ بِالصَّمْتِ وَالإِيماءِ، فَتَواصَلَتْ عائِشَةُ مَعَ ذلِكَ الطَّلَبِ بِاسْتِجابَةٍ سَريعَةٍ قائِمَةٍ عَلى تَقديمِهِ لَهُ بَعْدَ تَلْيينِهِ، وَقَدْ تَجَلّى ذلِكَ في قَوْلِها –عَلَيْها السّلامُ-: "فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّواكَ، فَقُلْتُ آخُذُهُ لَكَ"[3]، وَفي رِوايَةٍ دالّةٍ مُعَبِّرَةٍ عَنْ دِلالَةِ نَظَرِ الرّسولِ-صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ-: "فَأَبَدَّهُ رَسولُ اللهِ بَصَرَهُ"[4]، أيْ أعْطاه بُدّتَهُ مِنَ

(1) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 217، وقد تقدم تخريجه.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الحج، الباب (1415/963)، 637/1، وكتاب الاستئذان، الباب (1103/652)، 392/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب مرض النبي (885/199)، 322/3.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب مرض النبي (877/199)، 319/3.

النَّظَرِ؛ أيْ حَظَّهُ[1].

العَيْنُ الفاحِصَةُ المُتَبَصِّرَةُ:

وَقَدْ تَجَلّى ذلِكَ المَعْنى لَمّا جاءَتِ امْرَأةٌ إلى رَسولِ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- فَوَهَبَتْ نَفْسَها إلَيْهِ، "فَجَعَلَ النَّبِيّ يَنْظُرُ إلَيْها، وَيُصَعِّدُ النَّظَرَ فيها، وَيُصَوِّبُهُ"[2]، وَلَيْسَ يَخْفى أنَّ في نَظَرِ الرَّسولِ الشَّريفِ ذاكَ دِلالَةً تَكادُ تُلْمِحُ إلى تَدَبّرِ الرَّسولِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- لِطَلَبِها، وَتَفَحّصِهِ لَها، وَقَدْ تَقَدَّمَ أنَّ جَوابَهُ كانَ قائِمًا عَلى اسْتِرْفادِ الدِّلالَةِ مِنْ حَرَكَةِ الرَّأْسِ خاصّةً، وَالصَّمْتِيّاتِ عامّةً.

العَيْنُ المُتَثاقِلَةُ الكَليلَةُ:

وَقَدْ يَهْتَدي المَرْءُ إلى مَعْنى التّثاقُلِ وَالتّراخي مِنْ عَيْنِ مَنْ يَقِفُ وُجاهَهُ، وقَدْ يَكونُ الباعِثُ عَلى ذلِكَ أُمورًا مُتَباينَةً؛ كَالتَّعَبِ، أوِ السُّكْرِ، أوِ المَرَضِ، أوْ غَيْرِ ذلِكَ، وَقَدْ وَقَفَ الرَّسولُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ- عَلى ذلِكَ المَعْنى لَمّا رَأى حَمْزَةَ عَمَّه في حالٍ يَصْدُقُ عَليْها وَصْفُ ما تَقَدَّمَ، فقَدْ جاءَ في الحَديثِ أنَّ الرَّسولَ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- اسْتَأذَنَ مِمّنْ مَعَ عَمِّهِ بِالدّخولِ، فَأُذِنَ لَهُ، فَإذا هُمْ قَوْمٌ شَرْبٌ[3]، فَطَفِقَ رَسولُ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يَلومُ حَمْزَةَ فيما فَعلَ[4]، فَإذا حَمْزَةُ قَدْ "ثَمِلَ مُحْمَرَّةً عَيْناهُ"، فَنَظَرَ حَمْزَةُ إلى رَسولِ اللهِ نَظَرَ المُتَثاقِلِ الشّارِبِ، "ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ، فَنَظَرَ إلى رُكْبَتِهِ، ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ، فَنَظَرَ إلى سُرّتِهِ، ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ، فَنَظَرَ إلى وَجْهِهِ، ثُمَّ قالَ: هَلْ أنْتُمْ إلاّ عَبيدٌ لأَبي، فَعَرَفَ النَّبِيُّ أنَّهُ قَدْ ثَمِلَ..."[5].

العَيْنُ الشّاخِصَةُ وَالبَصَرُ الحَديدُ:

جاءَ في الحَديثِ الشَّريفِ عَنْ عائِشَةَ قالَتْ: "كانَ النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يَقولُ: إنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتّى يَرى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنّةِ، ثُمَّ يُخَيَّر، فَلَمّا نَزَلَ بِهِ وَرَأسُهُ عَلى

(1) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة "بدد".

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب النكاح، باب "تزويج المعسر"، (25/15)، 13/4.

(3) كان ذلك قبل تحريم الخمر، انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المساقاة، باب "بيع حطب والكلأ"، (600/381)، 240/2.

(4) لامه في شارفي علي بن أبي طالب، فقد أجب أسنمتهما، وبقر خواصرهما، وأخذ من أكبادهما.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الخمس، باب فرض الخمس، (1264/837)، 504/2.

فَخِذي، غُشِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفاقَ، فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلى سَقْفِ البَيْتِ، ثُمَّ قالَ: اللّهُمّ الرَّفيقَ الأَعْلى..."[1]، وَالحَقُّ أَنَّ هذا المَعْنى مُشاهَدٌ مَعروفٌ في الغالِبِ لِمَنْ يُعاينُ مَنْ حَضَرَهُ المَوْتُ، وَهُوَ مِنْ وُجْهَةٍ أُخْرى، مَعْنًى مُقَرَّرٌ في التَّنْزيلِ العَزيزِ في قَوْلِ الحَقَّ –تَقَدَّسَ اسمُهُ-: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [2].

العَيْنُ الباكِيَةُ الخاشِعَةُ:

وَمِنْ هَيْئاتِ العَيْنِ الباكِيَةُ، وَلِذلِكَ بَواعِثُ مَخْصوصَةٌ وَأَعْراضٌ، فَقَدْ يَكونُ باعِثُ ذلِكَ الخَوْفَ، أوِ الجَزَعَ، وَهذا مَعْنًى مُقَرَّرٌ شائِعٌ في الحَديثِ النَّبَوِيّ الشَّريفِ، فَقَدْ قالَ رَسولُ اللهِ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ-: "عَينانِ لا تَمَسُّهُما النّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ باتَتْ تَحْرُسُ في سَبيلِ اللهِ"[3]، وَفي مَقامٍ آخَرَ دالٍّ عَلى ما أَنا خائِضٌ فيهِ، قالَ ابنُ مَسْعودٍ إِنَّ النَّبِيَّ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- قالَ لَهُ: اقْرَأْ عَليَّ، فَقَرَأَ سورَةَ النِّساء حَتّى أتى عَلى قَوْلِهِ الحَقّ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[4]، قالَ: حَسبُكَ، فَالتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذا عَيْناهُ تَذْرِفانِ"[5].

العَيْنُ الرّاضِيَةُ المَرْضِيَّةُ:

وَقَدْ يَظْهَرُ مِنَ العَيْنِ مَعْنى الرِّضى وَالقَبولِ، وَقَدْ يَكونُ الأَمْرُ بِالضِّدِّ، وَقَدْ وَرَدَ في الحَديثِ الشَّريفِ عَنِ ابنِ مَخْرَمَةَ أَنَّ الرَّسولَ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- قَسَّمَ أَقْبِيَةً وَلَمْ يُعْطِ مَخْرَمَةَ شَيْئًا، فَقالَ مَخْرَمَةُ، يا بُنَيَّ، انْطَلِقْ بِنا إِلى رَسولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَفَعَلَ، فَقالَ: ادْخُلْ فَادْعُهُ، فَقالَ: فَدَعَوْتُهُ لَهُ، فَخَرَجَ وَعَلَيْهِ قباءٌ مِنْها، فَقالَ: خَبّأْتُ هذا لَكَ، فَنَظَرَ مَخرَمَةُ إِلَيْهِ نَظَرَ الرّاضي المُطْمَئِنّ، وَقالَ: "رَضيَ مَخْرَمَةُ"[6].

وَحَسْبي بَعْدَ هذا العَرْضِ لِبَعْضِ هَيئاتِ العَيْنِ وَدِلالاتِها الإِشارَةُ إِلَيْها في مَوضِعَيْنِ:

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب آخر ما تلكم به النبي، (895/200)، 325/3.

(2) الآية (ق، 22).

(3) انظر: الترمذي، السنن، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله (1639)، 175/4.

(4) الآية (النساء، 41).

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب فضائل القرآن، الباب (1475/602)، 600/3.

(6) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب اللباس، الباب (693/431)، 269/4.

- الأوّل: الشّعْرُ العربِيُّ.
- وَالثّاني: المَثَلُ العَربِيُّ.

فَقَدْ قيلَ شِعْرًا:

إِشـــاراتُ العُيـــونِ مُتَرْجِمـــــاتٌ ... لِمـا تَطْـوي القُلـوبُ عَـنِ القُلـــوبِ
إِذا هِـــي تَرْجَمَـــتْ بِـــاللَّحْظِ سِـــرًّا ... تَهادَتْ بَيْنَهـــا عِلْـــــمُ الغُيـــوبِ
وَفـــي إِغْضـــائِها مَعْنًـــى لَطيـــــفٌ ... تُريـدُ بِـــــهِ مُكايَـدَةَ الرَّقيـــــبِ
فَيَرْجِـعُ مـا لَـهُ بِالغَيـبِ عِلْـــــمٌ ... وَقَـدْ أَغْضَـتْ عَلـى عِلْـمٍ عَجيـبِ[1]

وَقيلَ:

وَعَيْنُ الفَتى تُبْدي الذي في ضَميرِهِ ... وَتَعْرِفُ بِالنَّجْوى الحَديثَ المُعَمَّسا[2]

وَقَدْ قيلَ نَثْرًا:

- "شاهِدُ البُغْضِ النَّظَرُ"[3].
- وَ"رُبَّ طَرْفٍ أَفْصَحُ مِنْ لِسانٍ"[4].
- "وَالبُغْضُ تُبْديهِ لَكَ العَيْنانِ"[5].

مِنْ هَيْئاتِ اليَدِ وَدِلالاتِها[6]:

ما كانَ أَكْثَرَ ظُهورَ اليَدِ في هَيْئاتٍ مُخْتَلِفاتٍ في الحَديثِ الشَّريفِ، فَكانَ ثَمَّ:

- يَدٌ مُشيرَةٌ مُعَيِّنَةٌ لِلمَكانِ، وَالجِهَةِ، وَالكَمِّيَّةِ، وَالشَّيْءِ، وَالحالِ.
- وَكانَ ثَمَّ يَدٌ آمِرَةٌ ناطِقَةٌ.
- وَيَدٌ ثالِثَةٌ عادَّةٌ.

---

(1) انظر: الخالديان، المختار من شعر بشار، 63.

(2) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 79/1، والمعمَّس الغامض المظلم.

(3) انظر: الميداني، مجمع الأمثال، 445/1، والزمخشري، المستقصى، 126/2.

(4) انظر: الميداني، مجمع الأمثال، 337/1.

(5) انظر: الميداني، مجمع الأمثال، 337/1.

(6) انظر هيئات اليد ووظائفها ودلالاتها عند:

Pease, Body language, P.54-68, Geddes, Body Language, P.12-15.

وباكو، لغة الحركات، 42-52.

- وَيَدٌ مُؤَكِّدَةٌ.
- وَيَدٌ مُقَلِّلَةٌ.
- وَيَدٌ مُسْتَنْطِيَةٌ طالِبَةٌ.
- وَيَدٌ راقِيَةٌ ماسِحَةٌ.
- وَيَدٌ مُهَدِّئَةٌ مُطَمْئِنَةٌ.
- وَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ.
- وَيَدٌ مُبايِعَةٌ.
- وَيَدٌ حانِيَةٌ مُتَلَطِّفَةٌ.
- وَيَدٌ مُعَوِّذَةٌ.
- وَيَدٌ مُنْفِقَةٌ.
- وَيَدٌ صارِفَةٌ مُنْكِرَةٌ.
- وَيَدُ الصّحْبَةِ وَالتّلازُمِ، وَغَيْرُ ذلكَ مِنَ المَعاني التي قَرَّرَتْها هَيْئاتٌ حَرَكِيّةٌ مَخْصوصَةٌ سَآتي عَلى بَعْضِها، وَمِنْها:

اليَدُ المُشيرَةُ المُعَيّنَةُ:

كَثيرًا ما تُسْتَعْمَلُ اليَدُ في إشارَةِ التَّعْيينِ؛ تَعْيينِ الجِهَةِ، أَوِ المَكانِ، أَوِ الشَّيءِ، أَوِ الكَمّيّةِ، أَوِ الزَّمانِ، وَاللاّفِتُ لِلنّظَرِ مِنْ وُجْهَةٍ سُلوكِيّةٍ أَنَّ الطِّفْلَ الصَّغيرَ يُشيرُ إِلى الأَشْياءِ قَبْلَ التّكَلّمِ، فَتَكونُ إِشارَتُهُ المُتَخَلِّقَةُ عَنْ يَدِهِ أَوْ يَدَيْهِ وَجْهًا مِنْ وُجوهِ التَّواصُلِ غَيْرِ اللَّفْظِيِّ، وَنائِبًا أَمينًا يَقومُ مَقامَ النّطْقِ الذي لَمّا يَكْتَمِلْ عِنْدَهُ، "وَلكِنَّهمْ حالَما يَتَعَلّمونَ أَسْماءَ الأَشْياءِ التي يُشيرونَ إِلَيْها، تَبْدأُ إِشارَةُ التَّعْيينِ في الاخْتِفاءِ التَّدْريجِيِّ، وَلكِنْ تَحُلُّ مَحَلّها أَشْكالٌ مِنَ الإِشارَةِ"[1].

وَقَدْ وَقَعَ جُلُّ ذلِكَ في الحَديثِ النّبَوِيِّ، فَكانَتِ اليَدُ مُتَكَلِّمَةً ناطِقَةً بِإِشارَتِها وَتَعْبيراتِها الحَرَكِيَّةِ الدّالّةِ، وَمِنْ ذلكَ إِشارَةُ اليَدِ المُعَيّنَةِ لِلكَمّيّةِ في حَديثِ كَعْبِ بنِ مالِكٍ، فَقَدْ تَقاضى ابنُ أَبي حَدْرَدٍ دَيْنًا لَهُ عَلَيْهِ في المَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْواتُهُما حَتّى سَمِعَها الرَّسولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ، فَنادى كَعْبًا، فَأَمَرَهُ بِدَفْعِ شَطْرٍ مِنْ

(1) انظر: مايكل كورباليس، في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم، 120.

دَيْنِهِ بِيَدِهِ الشَّريفَةِ لا بِلَفْظِه، "فَأَشارَ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ"[1]، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "فَأَشارَ بِيَدِهِ كَأَنَّهُ يَقولُ النِّصْف، فَأَخَذَ نِصْفَ ما لَه عَلَيْهِ"[2]، فَاقْتَنَصَ كَعْبٌ مُرادَ النَّبِـــيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- المُتَعَيّنَ مِنْ حَرَكَةِ يَدِهِ الشّريفَةِ، فَأَجابَهُ مُعْتَمِدًا عَلى المَجْرى الصّائِتِ قائِلاً: قَدْ فَعَلْتُ يا رَسولَ اللهِ، فَقالَ الرّسولُ: "قُمْ فَاقْضِهْ". وَالذي يَظْهَرُ مِنْ هذا الحَدَثِ التَّواصُلِيّ المُتَرَدِّدِ بَيْنَ الكَلامِيّاتِ وَالصَّمْتِيّاتِ أَنَّ اليَدَ كانَتْ آمِرَةً مُعَيّنَةً لِلكَمّيَةِ.

وَقَدْ تَكونُ اليَدُ المُشيرَةُ مُعَيّنَةً لِلمَكانِ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ: "الإيمانُ ههُنا"، وَأَشارَ بِيَدِهِ إِلى اليَمنِ"[3]، وَاللاّفتُ أَنَّ إِشارَتَهُ تِلكَ قامَتْ مَقامَ الكَلِماتِ، وَلَمّا جاءَ الرّاوي الأَمينُ نَقَلَ لَنا الحَرَكَةَ مَرْسومَةً بِالكَلِماتِ، فَقالَ نُطْقًا ما قالَه الرَّسولُ بِيَدِهِ حَرَكَةً: "وَأَشارَ بِيَدِهِ إِلى اليَمنِ". وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ "أَنَّ رَسولَ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- صَلّى لَنا يَوْمًا الصَّلاةَ، ثُمَّ رَقِيَ المِنبَرَ، فَأَشارَ بِيَدِهِ قِبَلَ قِبْلَةِ المَسْجِدِ، فَقالَ: قَدْ أُريتُ الآنَ مُنْذُ صَلَّيْتُ لَكُمُ الصَّلاةَ الجَنّةَ وَالنّارَ مُمثَّلَتَيْنِ في هذا الجِدارِ"[4].

وقَدْ تَكونُ اليَدُ المُشيرَةُ مُعَيّنَةً لِلجِهَةِ، وَهذا قَريبٌ مِمّا تَقَدَّمَهُ، وَمِنْ ذلِكَ أَنَّهُ لَمّا قامَ خَطيبًا أَشارَ نَحْوَ مَسْكَنِ عائِشَةَ، فقالَ: "ههُنا تَطْلُعُ الفِتْنَةُ ثَلاثًا، مِنْ حَيْثُ يَطلُعُ قَرْنُ الشَّيْطانِ"[5]، وفي رِوايَةٍ أُخْرى: "أَلا إِنَّ الفِتْنَةَ ههُنا، يُشيرُ بِيَدِهِ نَحْوَ المَشْرِقِ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطانُ"[6].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ إِشارَةُ الأَعْمى الضّريرِ إِلى الرَّسولِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَقَدِ اسْتَأْذَنَ النَّبِيُّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ- فَأَذِنَ لَهُ، فَقالَ لَهُ: "أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ،

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصلاة، الباب (451/324)، 262/1، وكتاب الخصومات، الباب (639/408)، 257/2، وكتاب الصلح، الباب (914/587)، 368، وكتاب الطلاق، الباب (149)، 100/4.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصلح، باب "هل يشير الإمام بالصلح"، (910/583)، 366/2.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، الباب (829/191)، 301/3.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، الباب (1333/789)، 470/4.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الخمس، الباب (1276/840)، 508/2.

(6) انظر: مسلم، الصحيح، باب الفتنة من المشرق، (2905)، 2229/4، والبخاري، كتاب الفتن، الباب (1916/1083-1917)، 685/4.

فَأَشَرْتُ إليْهِ إلى المَكانِ الذي أحِبُّ، فَقامَ..."[1]، وكَذلِكَ قَولُهُ لابنِ أمِّ أوْفى: "اجْدحْ لي[2]، ثُمَّ رَمى بِيَدِهِ هٰهُنا، ثُمَّ قالَ: إذا رَأيْتُمُ اللّيْلَ أقْبَلَ مِنْ هُنا، فَقَدْ أفْطَرَ الصّائِمُ"[3].

وَقَدْ تَكونُ اليَدُ المُشيرَةُ مُعَيّنَةً شَيْئًا مَخْصوصًا، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ: "لَوْلا أنّكُم تُغْلَبونَ لَنَزَلْتُ حَتّى أضَعَ الحَبْلَ عَلى هٰذِهِ، يَعْني: عاتِقه، وَأَشارَ إلى عاتِقِهِ"[4]، وَكَذلِكَ قَوْلُهُ: "أُمِرْتُ أنْ أسْجُدَ عَلى سَبْعَةِ أعْظُمٍ: عَلى الجَبْهَةِ، وَأَشارَ بِيَدِهِ عَلى أنْفِهِ، وَاليَدَيْنِ..."[5]، وعِنْدَ النّسائِيّ: "وَوَضَعَ يَدَهُ عَلى جَبْهَتِهِ، وَأمَرَّها عَلى أنْفِهِ، وَقالَ هذا واحِدٌ"، وَالظّاهِرُ أنَّ هٰذِهِ الحَرَكَةَ أفْضَتْ إلى قِيامِ أحْكامٍ فِقْهِيّةٍ، فقَدْ قالَ الشّافِعِيّةُ وَالمالِكِيّةُ: يُجْزِئُ عَلى بَعْضِ الجَبْهَةِ، وَيُسْتَحَبُّ عَلى الأَنْفِ، لأنَّهُ إنّما ذُكِرَ بِالإشارَةِ، فَكانَ مَنْدوبًا، وَالجَبْهَةُ هِي الواقِعَةُ في صَريحِ اللَّفْظِ، فَلَوْ تَرَكَ السَّجودَ عَلى الأَنْفِ لَجازَ، وَلَوِ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ وَتَرَكَ الجَبْهَةَ لَمْ يَجُزْ[6]، كُلُّ ذلِكَ مَرَدُّه إلى حَرَكَتِهِ الشَّريفَةِ، وَإشارَتِهِ بِيَدِهِ، وَتَمْثيلِهِ لِلمَعْنى.

اليَدُ المُنْفِقَةُ:

وَقَدْ تَكونُ هَيْئَةُ حَرَكَةِ اليَدِ دالّةً عَلى الإنْفاقِ، راسِمَةً لِهذا المَعْنى بِحَرَكَتِها، وَمِنْ ذلِكَ أنَّ أبا ذَرٍّ سَمِعَ الرَّسولَ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يَقولُ في ظِلِّ الكَعْبَةِ: "هُمُ الأَخْسرونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ، فَقالَ: مَنْ هُمْ بِأبي أنْتَ وَأمّي يا رَسولَ اللهِ، فَقالَ الأَكْثَرونَ أمْوالاً، إلاّ مَنْ قالَ بِيَدِهِ هكَذا، وَهكَذا، وَهكَذا"[7]، وَالمَعْنى المُرادُ: المُنْفِقونَ الذين

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الأذان، الباب (646/443)، 333/1.

(2) أي: حَرِّك السويق بعود ليذوب في الماء، انظر: ابن حجر، فتح الباري، 438/9.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، الباب (197/120)، 79/2، والحق أن هذا كثير في كتب الحديث، ومن ذلك لما رجع من خيبر بدا له أحد، فقال: "هذا جبل يحبنا ونحبه، ثم أشار بيده إلى المدينة، وقال: اللهم إني أحرم ما بين لابتيها..."، كتاب الجهاد والسير، الباب (1080/713)، 439/2، وكذلك الإشارة إلى العراق في حديث: "وأهوى بيده قبل العراق"، كتاب استتابة المرتدين، الباب (1770/995)، 628/4، وكذلك إشارة جبريل إلى مساكن بني قريظة، كتاب المغازي، الباب (601/147)، 216/3.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الحج، الباب (1525/1037)، 674/1.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب صفة الصلاة، الباب (768/527)، 385/1.

(6) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب صفة الصلاة، شرح حديث (768)، 384/1.

(7) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الأيمان والنذور، الباب (1491/842)، 523/4.

يُنْفِقونَ أمْوالَهُمْ بِأيْديهِمْ وَلا يَكْنِزونَها، وَمِثْلُ ذلِكَ قَوْلُهُ: "ما أحبَّ أَنَّ أُحُدًا لي ذَهَبًا تَأْتي عَليَّ لَيْلَةٌ أوْ ثَلاثٌ عِنْدي مِنْهُ دينارٌ أرْصدُهُ لِدَيْنٍ إلاّ أنْ أَقولَ بِهِ في عِبادِ اللهِ هكَذا، وَهكَذا، وَهكَذا، وَأرانا بِيَدِهِ"[1]، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "وَأَشارَ أبو شِهابٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَنْ يَمينِهِ، وَعَنْ شِمالِهِ"[2]، وَبِذا تَغْدو كَلِمَةُ "هكَذا" الأولى ذاتَ مَعْنًى، وَهُوَ "بَيْنَ يَدَيْهِ"، وَالثّانِيَة مَعْناها: "عَنْ يَمينِهِ"، وَالثّالِثَةُ مَعْناها: "عَنْ شِمالِهِ".

اليَدُ المُبايِعَةُ:

وَقَدْ تَكونُ مِنَ اليَدِ حَرَكَةٌ مَخْصوصَةٌ تُفيدُ دِلالَةَ المُبايَعَةِ وَالصَّفْقَةِ، وَالذي يَسْتَحِقُّ الوُقوفُ عِنْدَهُ بِكَثيرٍ مِنْ لُطْفِ النّظَرِ وَالرَّوِيَّةِ هُوَ تَلَمُّسُ الرّابِطِ الاشْتِقاقِيِّ بَيْنَ "صَفَّقَ" وَ"الصَّفْقَةِ"؛ إذْ إنّ الصّفْقَةَ المُبايَعَةُ، وَهِيَ، في هذا كُلِّهِ، مَأْخوذَةٌ مِنْ أصْلٍ مادِيٍّ هُوَ التّصْفيقُ؛ ذلِكَ أنّ هذِهِ الدّلالَةَ قائِمَةٌ عَلى تَصْويرٍ حَرَكِيٍّ يَقَعُ آنَ انْعِقادِ البَيْعِ أَوِ الشّراءِ، "وَإنّما قيلَ لِلبَيْعَةِ صَفْقَةٌ لأنَّهُمْ كانوا إذا تَبايَعوا تَصافَقوا بِالأَيْدي"[3]، "لأَنَّ المُتَعاهِدَيْنِ يَضَعُ أحَدُهُما يَدَهُ في يَدِ الآخَرِ، كَما يَفْعَلُ المُتَبايِعانِ"[4]، وَقَدْ جاءَ في الحَديثِ في بَيْعَةِ الرّضْوانِ بَعْدَما ذَهَبَ "عُثْمانُ إلى مَكّةَ، فَقالَ رَسولُ اللهِ بِيَدِهِ اليُمْنى: هذِهِ يَدُ عُثْمانَ، فَضَرَبَ بِها عَلى يَدِهِ، فَقالَ: هذِهِ لِعُثْمانَ"[5].

اليَدُ المُقَلِّلَةُ المُزَهِّدَةُ:

وَقَدْ يَسْتَعْمِلُ المَرْءُ يَدَهُ أوْ يَدَيْهِ قاصِدًا الإلْماحَ إلى التَّكْثيرِ أوِ التَّقْليلِ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- عَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنَّهُ ذَكَرَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَقالَ: "فيهِ ساعَةٌ لا يُوافِقُها عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ قائِمٌ يُصَلّي يَسْألُ اللهَ -تَعالى- إلاّ أعْطاهُ إيّاهُ، وَأَشارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُها"[6]، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "وَقالَ بِيَدِهِ، قُلْنا يُقَلِّلُها، يُزَهِّدُها"[7].

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الاستئذان، الباب (1142/680)، 406/4.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب في الاستقراض، الباب (612/388)، 244/2.

(3) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "صفق".

(4) انظر: ابن الأثير، النهاية، 38/3، وابن منظور، اللسان، مادة "صفق".

(5) انظر: البخاري، الصحيح، 76/3، 200/3.

(6) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة، (882/594)، 428/1.

(7) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، الباب (1267/763)، 447/4.

اليَدُ المُسَلِّمَةُ:

وَمِنَ المُقَرَّرِ أنَّ السَّلامَ يَكونُ بِالقَوْلِ، أوْ بِالفِعْلِ، أوْ بِكِلَيْهِما، وَقَدْ وَقعَ السَّلامُ بِالإِشارَةِ في حَديثِ الرَّسولِ، فَعَنِ ابْنِ عَبّاسٍ أنَّ النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- طافَ بِالبَيْتِ عَلى بَعيرٍ كُلَّما أَتى الرُّكْنَ أَشارَ إِلَيْهِ"[1]، وَفي رِوايَةٍ أخْرى: "أشارَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ عِنْدَه ثُمَّ كَبَّرَ"[2].

اليَدُ العادّةُ المُحْصِيَةُ:

وَقَدْ يَسْتَعينُ المَرْءُ بِيَدِهِ، أوْ يَدَيْهِ، في إِحْصاءِ مُرادِهِ أوْ عَدِّهِ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ: "إِنّا أمّةٌ أمّيّةٌ لا نَكْتُبُ وَلا نَحْسبُ، الشّهْرُ هكَذا وَهكَذا، يَعْني تِسْعَةً وَعِشْرينَ، وَمَرَّةً ثَلاثينَ"[3]، وَفي رِوايَةٍ: "الشَّهْرُ هكَذا وَهكَذا، وَخَنَسَ الإِبْهامَ في الثّالِثَةِ"[4]، وَفي رِوايَةٍ ثالِثَةٍ: الشَّهْرُ هكَذا، وَهكَذا، وَهكَذا، يَعْني ثَلاثينَ، ثُمَّ قالَ: هكَذا، وَهكَذا، وَهكَذا، يَعْني تِسْعَةً وَعِشْرينَ"[5].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ أنَّهُ لَمّا ماتَ جاءَ مالٌ أبا بَكْرٍ مِنْ قِبَلِ العَلاءِ بنِ الحَضْرمِيّ، فَقالَ أبو بَكرٍ: مَنْ كانَ لَه عَلى النَّبِيّ دَيْنٌ، أَوْ كانَتْ لَهُ قَبْلَهُ عِدَةٌ فَلْيَأْتِنا، فَقالَ أحَدُهُم: وَعَدَني رَسولُ اللهِ أَنْ يُعْطِيَني هكَذا، وَهكَذا، وَهكَذا، فَبَسَطَ يَدَيْهِ ثَلاثَ مَرّاتٍ، قالَ: فَعَدَّ في يَدي خَمْسَ مِئَةٍ ثُمَّ خَمْسَ مِئَةٍ، ثُمَّ خَمْسَ مِئَةٍ[6].

اليَدُ المُجيبَةُ النّافِيَةُ المُطَمْئِنَةُ:

وَقَدْ يَسْتَعينُ المُرْسِلُ بِيَدِهِ لِلإِشارَةِ إِلى الإِجابَةِ المُشْتَمِلَةِ عَلى الطَّمْأنَةِ وَالنَّفْيِ، وَتَكونُ تِلكَ الحَرَكَةُ مُرادِفَةً في دِلالَتِها لِقَوْلِنا: "لا عَلَيْكَ"، أو "لا حَرَجَ"، وَبِذا يَترافَدُ المَجْرَيانِ: الصّامِتُ والصّائِتُ في الإِبانَةِ، وَمِنْ ذلِكَ أنَّ ابْنَ عَبّاسٍ قالَ: "إِنَّ النَّبِيَّ سُئِلَ في حجّتِهِ فَقيلَ لَه: ذَبَحْتُ قَبْلَ أنْ أَرْمِيَ، فَأَوْمَأ بِيَدِهِ وَقالَ: لا حَرَجَ، فَقالَ: حَلَقْتُ قَبْلَ

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الحج، باب من أشار إلى الركن(1506/1023)، 668/1.
(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الحج، باب التكبير عند الركن(1507/1024)، 668/1.
(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، الباب (172/100)، 69/2.
(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، الباب (167/98)، 67/2.
(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الطلاق، باب اللعان، (224/150)، 103/4.
(6) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الشهادات، الباب (889/571)، 357/2.

أنْ أَذْبَحَ، فَأَوْمَأ بِيَدِه، وَقالَ: لا حَرَجَ"[1].

اليَدُ المُسْتَخِفَّةُ:

وَقَدْ يومِئُ المَرْءُ بِيَدِهِ إلى أمْرٍ ما مُعْلِنًا بِتِلْكَ الحَرَكَةِ اليَدَوِيّةِ الاسْتِخْفافَ وَالتَّقْليلَ، وَقَدْ وَقَعَ ذلِكَ في الحَديثِ الشَّريفِ، فَعَنِ ابنِ عَبّاسٍ أَنَّهُ قالَ: "إِنَّ المُؤْمِنَ يَرى ذُنوبَهُ كَأَنَّهُ قاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخافُ أنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفاجِرَ يَرى ذُنوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ عَلى أَنْفِهِ، فَقالَ بِه هكَذا، قالَ أَبو شِهابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ"[2].

وَالظّاهِرُ أَنَّ كَلِمَةَ "هكَذا" كانَتْ مِنْ إِطْلاقِ القَوْلِ عَلى الفِعْلِ، فَالفاجِرُ لِقلّةِ عَمَلِهِ يَقِلُّ خَوْفُه، فَيَسْتَهينُ بِالمَعْصِيَةِ، وَدَلَّ التَّمْثيلُ الأَوَّلُ عَلى عامّةِ الخَوْفِ وَالاحْتِرازِ مِنَ الذّنوبِ، وَالثّاني عَلى نِهايَةِ قِلّةِ المُبالاةِ وَالاحْتِفالِ بِها، لِكَوْنِهِ أَخَفَّ الطَّيْرِ وَأَحْقَرَهُ، وَلأَنَّهُ يُدْفَعُ بِالأَقَلِّ، وَبِالأَنْفِ لِلمُبالَغَةِ في اعتِقادِهِ خِفَّةَ الذَّنْبِ عِنْدَهُ، لأَنَّ الذُّبابَ قَلَّما يَنْزِلُ عَلى الأَنْفِ، وَإِنّما يَقْصِدُ غالِبًا العَيْنَ، وَبِاليَدِ تَأْكيدًا لِلخِفّةِ[3].

اليَدُ المُعَمِّمَةُ الشّامِلَةُ:

وَقَدْ يَعْمِدُ المَرْءُ إلى يَدِهِ لِيُعَمِّمَ مُرادَهُ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ: "أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ دورِ الأَنْصارِ؟ فَقالوا: بَلى يا رَسولَ اللهِ، قالَ: بَنو النّجّارِ، ثُمَّ الذينَ يَلونَهُمْ...ثُمَّ قالَ بِيَدِهِ، فَقَبَضَ أصابِعَهُ، ثُمَّ بَسَطَهُنَّ كَالرّامي بِيَدِهِ، ثُمَّ قالَ: "وَفي كُلِّ دورِ الأَنْصارِ خَيْرٌ"[4]، وَالظّاهِرُ مِنْ هذِهِ الحَرَكَةِ التَّعْميمُ وَالشُّمولُ، فَتَرافَدَتِ الدِّلالَتانِ في أَداءِ هذا المَعْنى، وَكانَتِ الحَرَكَةُ مُساندَةً لِلّفْظِ في تَقْريرِ المَعْنى.

اليَدُ المُؤَكِّدَةُ:

وَقَدْ يُحَرِّكُ المَرْءُ يَدَهُ حَرَكَةً المَقْصِدُ مِنْها تَأكيدُ ما هُو خائِضٌ فيهِ مِنْ قَولٍ، وَهُوَ كَثيرٌ في حَياتِنا اليَوْمِيّةِ، وَمِنْ ذلِكَ تَأْكيدُ عائِشَةَ لِحَدَثٍ قامَتْ بِهِ تَأْكيدًا لَفْظِيًّا كَما هُوَ مُقَرَّرٌ في دَرْسِ النَّحْوِ، وَتَأْكيدًا حَرَكِيًّا أداتُهُ الجَوارِحُ، فَقَدْ قالَتْ في الحَديثِ الذي وَرَدَ

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، (84/67)، 107/1.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، باب التوبة، (1178/706)، 418/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، باب التوبة، (1178/706)، 418/4.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الطلاق، باب اللعان، (222/150)، 102/4-103.

في صَحيحِ البُخارِيّ: "طَيّبْتُ رَسولَ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- بِيَدَيَّ هاتَيْنِ حينَ أَحْرَمَ، وَلِحِلّهِ حينَ أَحَلَّ قَبْلَ أنْ يَطوفَ، وَبَسَطَتْ يَدَيْها"[1] إِلْحاحًا وَتَأْكيدًا عَلى فِعْلَتِها تِلْكَ، وَتِبْيانًا لِحُكْمٍ فِقْهِيٍّ.

اليَدُ الآمِرَةُ النّاطِقَةُ:

وَقَدْ يَتَعَسّرُ عَلى المَرْءِ في مَقامِيّاتٍ ما الكَلامُ، فَتَتَعَطّلُ لُغَةُ الكَلامِ، فَيَسْتَرْفِدُ المَرْءُ مِنَ الجَسَدِ عامّةً، وَجَوارِحِهِ خاصّةً، العَوْنَ عَلى الدّلالَةِ وَالإِبانَةِ، فَتَقومُ حَركاتُهُ الصّادِرَةُ عَنْ جَوارِحِهِ مَقامَ كَلِماتِهِ، وَبِذا يَتَحَقّقُ المَثَلُ الفَرَنْسِيُّ الشّائِعُ، وَهوَ ذو دِلالَةٍ عالَمِيّةٍ: "يَتَحَدّثُ بِيَدَيْهِ"[2]، وَمِنْ ذلِكَ إِشارَةُ النَّبِيّ بِيَدِهِ الشَّريفَةِ إِلى أَبي بَكْرٍ بِالمُكْثِ مَكانَهُ، وَإِتْمامِ صَلاتِهِ في مَرَضِهِ الذي ماتَ فيهِ[3].

وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "فَلَمّا أَكْثَروا التَفَتَ أَبو بَكْرٍ، فَإِذا النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- في الصَّفِّ، فَأَشارَ إِلَيْهِ أنْ مَكانَكَ"[4]، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "فَأَوْمَأ إِلَيْهِ النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- أَنِ امْضِ، وَأَوْمَأ بِيَدِهِ هكَذا" [5]، وَهذا كَما هُو ظاهِرٌ تَواصُلٌ غَيْرُ لَفْظِيٍّ حَمّالٌ لِمَعانٍ تُفْضي بِالمُتَلَقّي إِلى اسْتِجابَةٍ.

وَفي مَقامٍ آخَرَ أَنَّهُ كَشَفَ سِتْرَ عائِشَةَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ صُفوفٌ، فَتَبَسّمَ يَضْحَكُ، فَنَكَصَ أبو بَكْرٍ عَلى عَقِبَيْهِ ظانًّا أَنَّ الرَّسولَ يُريدُ أنْ يَخْرُجَ، فَأَشارَ بِيَدِهِ أَنْ أَتِمّوا، ثُمَّ دَخَلَ الحُجْرَةَ، وَتُوُفّيَ مِنْ يَوْمِهِ[6].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ أَنَّهُ قالَ في مَرَضِهِ وَقَدِ اشْتَدَّ وَجَعُهُ: هَريقوا عَليَّ الماءَ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهنَّ لَعَلّي أَعْهدُ إِلى النّاسِ...ثُمَّ طَفِقْنا نَصُبُّ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ القِرَبِ، حَتّى طَفِقَ يُشيرُ إِلَيْنا بِيَدِهِ أنْ قَدْ فَعَلتُنَّ"[7].

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الحج، الباب (20/14)، 12/2.

(2) انظر: باكو، لغة الحركات، 43.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصلح، الباب (896/574)، 360/2.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب العمل في الصلاة، الباب (1119/762)، 518/1.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الأحكام، الباب (2005/1132)، 719/4.

(6) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب العمل في الصلاة، الباب (1123/765)، 519/1.

(7) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الوضوء، الباب (192/143)، 1/ 157، وكتاب المغازي، =

وَكَذلِكَ نَهْيُهُ بِيَدِهِ الشَّريفَةِ عَنِ الحَديثِ، وَالإِشارَةُ بِالتّأخُّرِ وَالتّراجُعِ، فَقَدْ وَرَدَ مِنْهُ نَهْيٌ عَنِ الصَّلاةِ بَعْدَ العَصْرِ، فَدَخَلَ عَلى أمِّ سَلَمَةَ، وَعِنْدَها نِسْوَةٌ، فَصَلّى بَعْدَ العَصْرِ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ الخادِمَةَ فَقالَتْ: "قومي إِلى جَنْبِهِ، فَقولي: تَقولُ أُمُّ سَلَمَةَ: يا رَسولَ اللهِ، أَلَمْ أَسْمَعْكَ تَنْهى عَنْ هاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ، فَأَراكَ تُصَلّيهِما، فَإِنْ أَشارَ بِيَدِهِ فَاسْتَأْخِري، فَفَعَلَتِ الجارِيَةُ، فَأَشارَ بِيَدِهِ فَاسْتَأْخَرَتْ"[1]، وَالمُلاحَظُ هُنا أَنَّ إِشارَةَ اليَدِ سَدّتْ مَسَدَّ الكَلامِ في مَقامٍ يُمْنَعُ فيهِ الكَلامُ، وَهُوَ الصّلاةُ، فَهُنا "تَتَدَخّلُ الإِشاراتُ اليَدَوِيّةُ بِسُرْعَةٍ إِذا مُنِعَ الكَلامُ، بَلْ تُسَيْطِرُ عَلى بَعْضِ العَناصِرِ التَّرْكيبِيّةِ"[2].

اليَدُ المُصَوِّرَةُ الرّاسِمَةُ لِلمَعْنى:

وَقَدْ يَعْمِدُ المَرْءُ إِلى يَدِهِ، أَوْ يَدَيْهِ كِلتَيْهِما لِرَسْمِ مُرادِهِ مُساوِقًا بَيْنَ الدِّلالتَيْنِ الصّامِتَةِ وَالصّائِتَةِ، لِيكونَ صَنيعُهُ ذاكَ شَرْحًا وَتَجْلِيَةً وَتَفْسيرًا لِمُرادِهِ، وَمِنْ ذلِكَ شَرْحُهُ لِقَوْلِ الحَقِّ -تَقَدّسَ اسْمُهُ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾[3]، فَقَدْ مَثّلَ الرَّسولُ هَيْئَةَ الإِقامَةِ بِيَدِهِ الشَّريفَةِ كَما وَرَدَ: "قالَ سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ بِيَدِهِ هَكذا، وَرَفَعَ يَدَهُ فَاسْتَقامَ"[4].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ رَسْمُهُ لِدِلالَةِ الهَرَجِ رَسْمًا حَرَكِيًّا مُساوِقًا لِلدِّلالَةِ المَنْطوقَةِ، فَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قالَ: "يُقْبَضُ العِلْمُ، وَيَظْهَرُ الجَهْلُ وَالفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الهَرَجُ، قيلَ: يا رسولَ اللهِ، وَما الهَرَجُ: فَقالَ: هكَذا بِيَدِهِ، فَحَرَّكَها كَأَنَّهُ يُريدُ القَتْلَ[5]، فَجَعَلَ -صَلّى اللهُ عَليهِ وَسَلّم- إِشارَتَهُ بِيَدِهِ كَنُطْقِهِ بِأَنَّ المُرادَ القَتْلُ[6]، وَالمُلاحَظُ هُهُنا ثَلاثَةُ أُمورٍ:

- أَوّلُها: قِيامُ الحَرَكَةِ مَقامَ الكَلامِ.

=

الباب(881/199)، 320/3، وكتاب الطب، الباب (613/384)، 240/4.

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، الباب (814/186)، 291/3.

(2) انظر: مايكل كوربالیس، في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم، 217.

(3) الآية (الكهف، 77).

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الإجارة، الباب (503/308)، 191/2.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس(83/67)، 107/1.

(6) انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، 405/3.

- وَثانيها اعْتِمادُهُ عَلى دِلالَةِ الصّامِتِ الحَرَكِيّ في شَرْحِ الصّائِتِ اللَّفْظِيّ.
- وثالِثُها أنَّ الرّاوِيَ الأَمينَ نَقَلَ الدِّلالَتَيْنِ مَعًا، فَرَوى الحَديثَ بِلَفْظِهِ، وَالحَرَكَةَ بِهَيْئَتِها.

وَمِنْ ذلِكَ وَصْفُهُ الشَّريفُ لِمُسْتَرِقي السَّمْعِ، وَهُوَ حَديثٌ طَويلٌ، فَقَدْ قالَ: "وَمُسْتَرِقو السَّمْعِ هكَذا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ"، وَوَصَفَ الرّاوي بِكَفِّهِ فَحَرَفَها، وَبَدَّدَ بَيْنَ أصابِعِهِ[1]، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "وَفَرَّجَ بَيْنَ أصابِعِ يَدِهِ اليُمْنى، نَصَبَها بَعْضَها فَوْقَ بَعْضٍ"[2].

اليَدُ الدّاعِيَةُ المُتَطَلِّبَةُ:

وَهِيَ حَرَكَةٌ دينِيّةٌ ذائِعَةٌ لَنا بِها عَهْدٌ، فَرَفْعُ اليَدَيْنِ ذو دِلالَةٍ عَلى الطَّلَبِ مِنَ اللهِ، وَالتّوَجّهِ إِلَيْهِ بِالسّؤالِ، وَهِيَ سُنّةٌ وَرَدَتْ عَنِ الرَّسولِ، فَعَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ أَنَّهُ قالَ: "كانَ النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- لا يَرْفَعُ يَدَيْهِ في شَيْءٍ مِنْ دُعائِهِ إِلاّ في الاسْتِسْقاءِ، وَأَنَّهُ لا يَرْفَعُ حَتّى يُرى بَياضُ إِبْطَيْهِ"[3]، وَفي حَديثٍ آخَرَ: "ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتّى رَأَيْنا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ"[4]، وَفي حَديثٍ ثالِثٍ أَنَّهُ قالَ: إِنَّهُ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقالَ: "رَأَيْتُ بَياضَ إِبْطَيْهِ: اللّهمَّ إِنّي أَبْرأُ إِلَيْكَ مِمّا صَنعَ خالِدٌ"[5].

حَرَكاتٌ يَدَوِيّةٌ مُرَكَّبَةٌ:

وَقَدْ تَتَراكَبُ الحَرَكاتُ، فَيَنْشَأُ عَنْ ذلِكَ حَرَكَةٌ مُؤْتَلِفَةٌ مِنْ جارِحَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، مُؤَدِّيَةٌ إِلى مَعْنًى مَخْصوصٍ مُعَيَّنٍ مِنْ هَيْئَةِ تِلكَ الحَرَكَةِ المُرَكَّبَةِ، وَالحَقُّ أَنَّ هذِهِ الظّاهِرَةَ مِمّا يَتَجَلّى في اللّغَتَيْنِ: الصّائِتَةِ وَالصّامِتَةِ، فَفي الصّائِتَةِ الكَلِمَةُ الواحِدةُ حَمّالَةٌ لمَعْنًى إِشارِيٍّ مُعْجمِيٍّ[6]، وقَدْ تَتَراكَبُ الكَلِماتُ، فَيَنْشَأُ ما يُعْرَفُ بِالاقْتِراناتِ اللَّفْظِيّةِ[1]، وَكَذلِكَ

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، الباب (1226/454)، 491/3.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، الباب (1125/379)، 429/3.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الاستسقاء، الباب (965/658)، 460/1.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الهبة، الباب (809/523)، 322/2.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، باب رفع الأيدي في الدعاء(725)، 430/4.

(6) المعنى الإشاري هو المعنى المبثوث في المعجم، وهو ما يشير إليه الدال من مدلول يلتقي عليه أبناء اللغة الواحدة، فهو مؤتلف من قطبين: الفكرة "Concept"، والصورة الصّوتية Sound =

الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ، فَمِنْها حَرَكاتٌ مُفْرَدَةٌ، وَمِنْها حَرَكاتٌ مُتَراكِبَةٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ، وَقَدْ كانَ لَها ظُهورٌ جَلِيٌّ في التَّنْزيلِ العَزيزِ، وَمِنْ ذلِكَ اقْتِرانُ اليَدِ بِالرَّأْسِ، وَمَسْحُ الوَجْهِ بِاليَدِ، وَأَخْذُ اليَدِ بِاليَدِ، وَالْتِقاءُ اليَدِ الواحِدَةِ بِالأُخْرى، وَحَرْفُ الوَجْهِ بِاليَدِ، وَوَضْعُ اليَدِ عَلى الظَّهْرِ، وَغَيْرُ ذلكَ مِنَ اقْتِراناتٍ حَرَكِيّةٍ دالّةٍ عَلى مَعانٍ مَخْصوصَةٍ عَلى النَّحْوِ الآتي:

وَضْعُ اليَدِ عَلى الرَّأْسِ: اليَدُ الحامِيَةُ المُغَطّيَةُ

وَهذِهِ حَرَكَةٌ تَتَعَدَّدُ مَعانيها وَهِيَ مُنْسَلِخَةٌ مِنْ سِياقِها، فَقَدْ يَكونُ المُتَعَيّنُ مِنْها أَنَّ مَنْ يَأْتيها بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ، أَوْ أَنَّها تُلْمِحُ إِلى التّألّمِ، أَوْ غَيْرِ ذلِكَ، وَقَدْ حَمَلَتْ في الحَديثِ النَّبَوِيّ الشَّريفِ مَعْنًى آخَرَ، وَهُوَ حِمايَةُ الرَّأْسِ مِنْ شِدّةِ الحَرّ في الهاجِرَةِ، فَعَنْ أبي الدَّرْداءِ قالَ: "خَرَجْنا مَعَ النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- في بَعْضِ أَسْفارِهِ في يَوْمٍ حارٍّ حَتّى يَضَعَ الرّجُلُ يَدَهُ عَلى رَأْسِهِ مِنْ شِدّةِ الحَرّ..."[2].

أَخْذُ اليَدِ بِاليَدِ: حَرَكَةُ التّلازُمِ وَالصّحْبَةِ

وَلَيْسَ يَخْفى أَنَّ تِلكَ الحَرَكَةَ قَدْ تَدُلُّ عَلى التّلازُمِ، وَالصّحْبَةِ، وَالتّآلُفِ، وَقَدْ وَرَدَتْ غَيْرَ مَرّةٍ في الحَديثِ النَّبَوِيّ الشَّريفِ، وَمِنْ ذلِكَ أَنَّهُمْ كانوا مَعَ النَّبِيّ -صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ- وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ[3].

وَفي حَديثٍ آخَرَ يَنْضافُ مَعْنًى آخَرُ، وَهوَ مَعْنى القِيادَةِ وَالهِدايَةِ، وقَدْ وَرَدَ ذلِكَ في حَديثِ المِعْراجِ، فَقَدْ نَزَلَ جِبْريلُ عَلَيْهِ السّلامُ، فَفَرَجَ صَدْرَهُ الشَّريفَ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِماءِ زَمْزَم، ثُمَّ جاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمانًا، فَأَفْرَغَها في صَدْرِهِ ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ الشَّريفَةِ فَعَرَجَ بِهِ إِلى السَّماءِ[4].

وَقَدْ يَنْضافُ إِلى تِلْكمُ المَعاني مَعْنًى مُتَعَيّنٌ مِنْ هذِهِ الحَرَكَةِ، كَأَنْ يَكونَ في أَخْذِ

=

"Image"، ومن مجموعهما ينشأ المعنى الإشاريReferential Meaning". انظر: دي سوسير، فصول في علم اللغة العام، 121-122، وبالمر، علم الدلالة، 46.

(1) تقدم تعريفها والتمثيل عليها في باب القول على لغة الجسد عند الثعالبي.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، الباب (201/121)، 80/2.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب فضائل أصحاب النبي، الباب (213/36)، 74/3، وكتاب الاستئذان، باب المصافحة، (1137/677)، 404/4.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الحج، الباب (1526/1038)، 675/1.

اليَدِ بِاليَدِ تَطْمينًا وَتَسْلِيَةً، فَفي يَوْمِ بَدْرٍ وَالرَّسولُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- في قُبّةٍ يَدْعو مُلِحًّا عَلى رَبّهِ مُتَضَرّعًا قائِلاً: "اللّهُمَّ إِنّي أَنْشدُكَ عَهْدَكَ، وَوَعْدَكَ، اللّهُمّ إِنْ تَشَأْ ألاَّ تُعْبَدَ بَعْدَ اليَوْمِ، فَأَخَذَ أبو بَكْرٍ بِيَدِهِ الشَّريفَةِ فَقالَ: حَسْبُكَ يا رَسولَ اللهِ، ألْحَحْتَ عَلى رَبّكَ..."[1].

اليَدُ الماسِحَةُ المُسَكّنَةُ المُتَعَطّفَةُ:

وَقَدْ يَكونُ إِمْرارُ اليَدِ عَلى الشَّيْءِ، إِنْ رَأْسًا، وَإِنْ وَجْهًا، وَإِنْ شَيْئًا آخَرَ، ذا دِلالَةٍ عَلى مَعانٍ مَخْصوصَةٍ؛ كَالتّعَطّفِ، أوِ التَّهْدِئَةِ، أوِ التّسْلِيَةِ، أوِ الفَحْصِ، أوِ التَّعْويذِ، وَالحَقُّ أَنَّ هذِهِ الحَرَكَةَ المُرَكَّبَةَ ظاهِرَةُ الحُضورِ في الحَديثِ النَّبَوِيّ الشَّريفِ، وَمِنْ ذلكَ الحَديثُ الذي فيهِ بَيانٌ عَنِ الجِذْعِ الذي كانَ يَقومُ عَلَيْهِ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَلَمّا وُضِعَ لَه المِنْبَرُ، تَجافى عَنْهُ الرَّسولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَسُمِعَ لَهُ صَوْتٌ كَصَوْتِ العِشارِ، حَتّى نَزَلَ الرَّسولُ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَسَكَنَ[2]، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "فَمَسَحَ يَدَه عَلَيْهِ".

وَمِنْ تِلْكمُ الدِّلالاتِ؛ أَعْني دِلالَةَ إِمْرارِ اليَدِ عَلى الشَّيْءِ وَمَسْحِهِ، التَّلَطّفُ وَالمُبارَكَةُ، فَقَدْ فَعَلَها النَّبِيُّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- "فَوَضَعَ يَدَهُ الشَّريفَةَ عَلى رَأْسي، وَأَخَذَ بِأُذُني يَفْتِلُها"[3]، وَكَذلِكَ أنَّ أحَدًا مِنَ الصّحابَةِ تَشَكّى بِمَكَّةَ شَكْوى شَديدَةً، فَجاء النَّبِيُّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يَعودُهُ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلى جَبْهَتِهِ، ثُمَّ مَسَحَ عَلى وَجْهِهِ وَبطْنِهِ[4].

وَفي رِوايَةٍ أُخْرى عَنْ عائِشَةَ أَنَّهُ كانَ يُعَوّذُ بَعْضَهُمْ بِمَسْحِهِ بِيَمينِهِ، وَيُسْنِدُ ذلِكَ بِقَوْلِهِ: "أَذْهِبِ الباسَ، رَبَّ النّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشّافي، لا شِفاءَ إِلاّ شِفاؤُكَ"[5]، وَهِيَ

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، الباب (1302/503)، 523/3.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الجمعة، الباب (865/583)، 422/1، وكتاب المناقب، الباب (113/26-114-115)، 38/3، 39.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الوضوء، الباب (178/133)، 149/1، وكتاب التفسير، الباب (996/273)، 369/3، 370.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المرضى والطب، الباب (564/353)، 222/4.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الطب، الباب (647/402)، 251/4، ومسلم، الصحيح، باب =

حَرَكَةٌ كانَ يَأْتيها عَلى نَفْسِه، فَكانَتْ يَدُهُ الشَّريفَةُ راقِيَةً ماسِحَةً مُطَمْئِنَةً مُبارِكَةً مُبارَكَةً، فَقَدْ كانَ يَنْفُثُ عَلى نَفْسِهِ في مَرَضِهِ الذي ماتَ فيهِ بِالمُعَوِّذاتِ، "فَلَمّا ثَقلَ كُنْتُ أَنا أَنْفُثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِها"[1].

وَقَدْ يَكونُ المُتَعَيِّنُ مِنْ هذِهِ الحَرَكَةِ المُرَكَّبَةِ الجسَّ وَالتَّفَحّصَ، وَأَشْهَرُ مَقامِيّاتِها تَفَحّصُ الطَّبيبِ المَريضَ، فَعَنِ ابْنِ مَسْعودٍ أَنَّهُ دَخَلَ عَلى رَسولِ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- وَهُوَ يوعَكُ وَعكًا شَديدًا، "فَمَسِسْتُهُ بِيَدي، فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، إِنّكَ توعَكُ وَعكًا شَديدًا"[2]، وَلَقَدْ قامَ هذا المَعْنى في نَفْسِ ابنِ مَسْعودٍ مِنْ حَرَكَتِهِ التي قامَ بِها، فَكانَتْ مَصْدَرًا مِنْ مَصادِرِ المَعْرِفَةِ، وَالوُقوفِ عَلى المَعاني، كَما اللَّفْظِ.

وَقَدْ يَكونُ المَقْصِدُ مِنْها التّعَوّذَ، وَكَثيرًا ما كانَ النَّبِيُّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يَمْسَحُ النَّوْمَ بِيَدَيْهِ الشَّريفَتَيْنِ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَدْ بَدا ذلِكَ في حَديثِ ابنِ عَبّاسٍ لَمّا باتَ عِنْدَ مَيمونَةَ خالَتِهِ، "فَاسْتَيْقَظَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ"[3].

ضَرْبُ اليَدِ بِالفَخِذِ:

وَهِيَ حَرَكَةٌ مُرَكَّبَةٌ تَعَيَّنَ فيها التَّقْريرُ بِالتَّقْديرِ وَالتَّحْقيقِ في حَديثِ رَسولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَعَنْ عَلِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- طَرَقَهُ وَفاطِمَةَ عَلَيْهِما السَّلامُ، فَقالَ: أَلا تُصَلّونَ، فَقالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ يا رَسولَ اللهِ، إِنّما أَنْفُسُنا بِيَدِ اللهِ، فَإِذا شاءَ أَنْ يَبْعَثَنا بَعَثَنا، فَانْصَرَفَ رَسولُ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- حينَ قالَ لَهُ ذلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعَهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾[4].

وَبَعْدُ، فَحَرَكاتُ اليَدِ كَثيرَةٌ، وَدِلالاتُها مُتَعَدِّدَةٌ، وَأَثَرُها في التّواصُلِ كَبيرٌ كَبيرٌ،

=

استحباب رقية المريض، (2191)، 1721/4.

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الطب، الباب (632/394)، 247/4.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المرضى والطب، الباب (565/353)، 222/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الوضوء، الباب (178/133)، 149/1.

(4) الآية (الكهف، 54)، وانظر: البخاري، الصحيح، كتاب الاعتصام، الباب (2151/1183)، 765/4.

وَحَسْبُنا في هذا المَقامِ الإِشارَةُ إِلى كَوْنِها اللُّغَةَ الرَّسْمِيَّةَ التّواصُلِيّةَ عِنْدَ الصُّمِّ وَالبُكْمِ، وَقَدْ كانَتْ فيما تَقَدّمَ بَيانُهُ:

- مُسانِدَةً لِلمَعْنى المَنْطوقِ.
- وَمُؤَكِّدةً.
- وَقائِمَةً مَقامَهُ.
- فَكانَتْ نائِبًا أَمينًا عَنْهُ، كلُّ ذلِكَ يُفْضي إِلى اسْتِرْجاعِ مَقولَةِ "باكو" التي تَذْهَبُ فيها إِلى عالَمِيّةِ العِبارَةِ: "يَتَحَدّثُ بِيَدَيْهِ"[1].

مِنْ هَيْئاتِ الأَصابِعِ وَدِلالاتِها

وَالحَقُّ أَنَّ هذا المَبْحَثَ يَكادُ يَكونُ فَرْعًا عَنْ أَصْلٍ؛ فَرْعًا عَنِ اسْتِشْرافِ هَيْئاتِ اليَدِ وَدِلالاتِها، وَقَدِ ارْتَضى الباحِثُ أَنْ يُفْرِدَهُ عَنِ اليَدِ نَظَرًا لِطولِهِما مَعًا، وَتَشَعُّبِ دِلالاتِهِما، وَقَدْ بَدا لي في دَرْسِ هَيْئاتِ الأَصابِعِ فَضْلُها في:

- إِقامَةِ التَّواصُلِ غَيْرِ اللَّفْظِيِّ أَوّلاً.
- وَالإِبانَةِ عَنْ كَثيرٍ مِنَ المَعاني وَالمُراداتِ ثانِيًا.
- وَشَرْحِ المَعاني وَرَسْمِها وَتَشْكيلِها عَلى هَيْئَةٍ تَظْهَرُ فيها المَعاني مُجَسَّدَةً مُحَسَّةً ثالِثًا.
- وَقِيامِ الحَرَكَةِ مَقامَ الأَلْفاظِ رابِعًا.

لِنَرْجِعِ النَّظَرَ في الحَرَكاتِ الآتِيَةِ اسْتِشْرافًا لِلدِّلالاتِ التي تَقَعُ تَحْتَها:

حَرَكَةُ التّلازُمِ وَالصّحْبَةِ:

وَقَدْ بَدا ذلِكَ المَعْنى في قَوْلِهِ -صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ-: "كَيْفَ بِها وَقَدْ زَعَمَتْ أَنَّها قَدْ أَرْضَعَتْكُما مَعًا، وَأَشارَ بِإِصْبَعَيْهِ السّبّابَةِ وَالوُسطى"[2]، وكَذلِكَ في قَوْلِهِ: "أنا وَكافِلُ اليَتيمِ في الجَنّةِ هكَذا، وَأَشارَ بِالسّبّابَةِ وَالوُسْطى..."[3].

---

(1) انظر: باكو، لغة الحركات، 43.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب النكاح، باب شهادة المرضعة(42/24)، 20/4.

(3) انظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان(226/150)، 103/4، وأحمد بن حنبل(241هـ)، المسند، حديث أبي مالك سهل بن سعد، (22871)، 333/5، والترمذي، السنن، باب ما جاء في رحمة اليتيم، (1918/4)، 321/4.

لَعَلّه يَحْسُنُ أَنْ يُسَرَّحَ الخاطِرُ لِنَتَخَيّلَ أنّ سامِعًا سَمِعَ قَوْلَ الرَّسولِ الكَريمِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- مُنْسَلِخًا مِنْ سياقِهِ، غَيْرَ مُخَصَّصٍ بِالحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ المُعَيّنَةِ للدّلالَةِ أوِ الدّلالاتِ، أحْسَبُ أنّ نَصيبَه مِنَ التَّواصُلِ مَعَهُ سَيَكونُ في أسْفَلِ سُلّمِ دَرَجاتِ الإبانَةِ، فَما المُتَعَيّنُ مِنْ "هاتَيْنِ"؟ وَإلى أيّ وُجْهَةٍ يَرْمي بِهاتَيْنِ؟ وَأنّى لَنا بِاسْتِشْرافِ مَقْصودِها إلاّ إذا كانَ ذلِكَ مِنْ قِبَلِ رَمْيِ النّظَرِ في تَكَهُّنٍ وَتَخَطّفٍ؟ وَمِنْ هُنا يَتَخَلّقُ في الخاطِرِ ثانِيَةً، وثالِثَةً، وَرابِعَةً، أنَّ الرّسالَةَ في شَطْرٍ كَبيرٍ مِنْها لا تَقومُ في دِلالَتِها الكُلّيّةِ عَلى ظاهِرِ اللّفْظِ، وَأنّ النّصَّ عِنْدَما يُنْقَلُ بَعْدًا، أوْ عِنْدَما يَتَقادَمُ بِهِ العَهْدُ، فَيَصيرُ مُعَمَّرًا قَدْ تَغافَلَ عَلَيْهِ الزّمانُ، يَفْقِدُ قَليلاً أوْ كَثيرًا مِنْ مَحْمولاتِهِ الدّلالِيّةِ، وَمَرامي صاحِبِهِ الأَوّلِ.

أَمّا الحَديثُ الشَّريفُ في سِياقِهِ الحَيّ فَلَمْ يَكُنْ ذلِكَ كَذلِكَ فيهِ، لأَنَّ النّظّارَةَ وَشُهودَ حَضْرَتِهِ الشَّريفَةِ رَأَوْا حَرَكَةً جَسَدِيّةً أفْضَتْ إلى تَعَيّنِ المَعْنى عَلى وَجْهٍ مِنَ الإحْكامِ، وَهُوَ مَعْنى الصّحْبَةِ وَالتّلازُمِ، وَلمّا جاء الرّاوي في حَرَكَةِ رِوايَةِ الحَديثِ لَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنْ رِوايَةِ الحَرَكَةِ؛ إذْ هِيَ عِمادُ الحَديثِ، وَعَلَيها عَقْدُ الكَلامِ، فَكانَ ذلِكَ بِتَمَثّلِهِ حَرَكَتَهُ الشّريفَةَ التي عِمادُها تَلازُمُ السّبّابَةِ وَالوُسْطى، وَاقْتِرانُهُما مَعًا، لِيَكونَ حَظُّ كافِلِ اليَتيمِ كَما كانَ حَظُّ سَبّابَتِهِ وَوُسْطاهُ الشّريفَتَيْنِ مِنْ تَلازُمٍ، فرُوِيَتِ الحَرَكَةُ بِالكَلِماتِ تَجْلِيَةً وَتَحْقيقًا لِلمَعْنى المُرادِ، فَأُضيفَ عَلى السِّياقِ الشَّريفِ أَلْفاظٌ ذاتُ دِلالَةٍ تُوافِقُ دِلالَةَ "الحَرَكَةِ"؛ إذْ إنّ المُعَوَّلَ عَلَيْهِ هُوَ المَعْنى، وَطُرُقُ تَحَصُّلِهِ، وَرَوافِدُ تَغْذِيَتِهِ، مُتَكاثِرَةٌ مُتَعالِقَةٌ.

حَرَكَةُ التّلازُمِ وَالتّرادُفِ:

وَقَدْ تَجَلَّتْ تِلكَ الدّلالَةُ في حَرَكَتِهِ الوارِدَةِ في قَوْلِهِ الشّريفِ: "بُعِثْتُ أَنا وَالسّاعَةَ كَهاتَيْنِ مِنْ هذِهِ، أوْ قالَ: كَهاتَيْنِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ السّبّابَةِ وَالوُسْطى"[1]، وَفي رِوايَةٍ ثالِثَةٍ: "رَأَيْتُ رَسولَ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- قالَ بِإِصْبَعَيْهِ هكَذا بِالوُسْطى وَالتي تَلي الإبْهامَ"[2]، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "وَيُشيرُ بِإِصْبَعَيْهِ، فَيَمُدّ بِهِما"[3].

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الطلاق، باب اللعان (223/150)، 103/4.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، النازعات (1361)، 554/3.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، الباب (483/810)، 483/4.

وَلَيْسَ يَخْفى أنَّ تِلكَ الحَرَكَةَ ذاتُ دِلالَةٍ عَلى التّلازُمِ وَالتّرادُفِ، وَهُوَ مَعْنًى قَريبٌ مِمّا تَقَدّمَتْ مُباحَثَتُهُ، فَكَأنَّ السّاعَةَ مُرادِفَةٌ في الوَقْتِ لِرِسالَتِهِ، وَقَدْ جَنَحَ الرَّسولُ الأكْرَمُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- إلى تَمْثيلِ ذلِكَ المَعْنى عامِدًا إلى مَلْحَظِ "الصّمتِيّاتِ"؛ ذلِكَ أنَّ مُبَلّغَ الإشارَةِ أبْعَدُ مِنْ مُبَلّغِ الصّوْتِ، وَهذا "بابٌ تَتَقَدّمُ فيهِ الإشارَةُ الصّوْتَ"([1])، فَدِلالَةُ الحَرَكَةِ إذًا مُتّفِقَةٌ مَعَ دِلالَةِ اللَّفْظِ، وَاللاّفِتُ لِلخاطِرِ أنَّ الرّاوِيَ حَمَلَ الحَديثَ بِحَرَكَتِهِ، وَنَقَلَهُ لَنا بَعْدًا، فَوَفّى المَعْنى حَقَّهُ في الرِّوايَةِ وَالنّقْلِ.

حَرَكَةُ التّفارُقِ وَالبَيْنونَةِ:

وَقَدْ يَكونُ الأمْرُ بِالضّدِّ، فَيَعْمِدُ المُرْسِلُ إلى الإلْماحِ بِحَرَكَةِ أصابِعِهِ إلى التّفارُقِ وَالتّبايُنِ، وَهذِهِ حَرَكَةٌ مُفارِقَةٌ لِما تَقَدَّمَ، بَلْ ضِدُّها؛ ذلِكَ أنَّ تَفْريقَ الأَصابِعِ قَدْ يَكونُ فيهِ دِلالَةٌ عَلى تَفْريقِ ما المُرسِلُ مُتَحَدِّثٌ عَنْهُ، وَكَأنَّ ما كانَ بَيْنَ الأَصابِعِ مِنَ افْتِراقٍ قَدْ وَقعَ بَيْنَ الأَشْياءِ المُعَرَّجِ عَلى ذِكْرِها، وَمِنْ ذلِكَ أنَّ رَجُلاً لاعَنَ امْرَأتَهُ، فَقالَ بِإصْبَعِهِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ إصْبَعَيْهِ السّبّابَةِ وَالوُسْطى"([2])، وَالظّاهِرُ أنَّها حَرَكَةٌ تَمْثيلِيّةٌ تُسْتَعارُ لِلمُشابَهَةِ بَيْنَ الحَدَثِ المُرادِ نَقْلُهُ، وَالحَرَكَةِ التي تُصَوِّرُ ذلِكَ الحَدَثَ.

حَرَكَةُ التّداخُلِ وَالاخْتِلاطِ:

وَقَدْ يُجْنَحُ إلى تَمْثيلِ المَعْنى وَتَصْويرِهِ تَصْويرًا جَسَديًّا قائِمًا عَلى هَيْئَةِ الأَصابِعِ، فَمِنْ ذلِكَ التَّشْبيكُ؛ تَشْبيكُها لِلدّلالَةِ عَلى تَداخُلِها وَتَعاضُدِها، أوِ اخْتِلاطِها وَالْتِباسِ بَعْضِها بِبَعْضٍ، فَالحَرَكَةُ هذِهِ وَفْقًا لِلمُتَقدِّمِ بَيانُهُ، يَقَعُ تَحْتَها مَعْنَيانِ، فَهِيَ مُشْتَرَكٌ حَرَكِيٌّ مُلْبِسٌ إذا لَمْ يُعَيَّنْ سِياقُهُ الذي فيهِ يَرِدُ، وَالمُفارَقَةُ المُعْجِبَةُ حَقًّا أنَّ هذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ قَدْ وَقَعا في الحَديثِ النَّبَويّ الشَّريفِ، أَمّا المَعْنى الأَوَّلُ فَقَدْ وَرَدَ في قَوْلِهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ-: "المُؤْمِنُ لِلمُؤْمنِ كَالبُنْيانِ المَرْصوصِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أصابِعِهِ"([3]).

---

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 79/1، وابن رشيق، العمدة، 309/1.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الطلاق، الباب (234/158)، 107/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع، (459/329)، 265/2، وكتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين، (909/558)، 331/4.

وَالمَعْنى المُتَعَيّنُ مِنْ هذِهِ الحَرَكَةِ أنْ تَكونُ مُرادِفَةً في دِلالَتِها لِدِلالَةِ البُنْيانِ المَرْصوصِ، فَهِيَ حَمّالَةٌ لمَعْنى التّكاتُفِ وَالتّعاطُفِ، وَأَمّا المَعْنى الثّاني، وَهُوَ مَعْنى الاخْتِلاطِ وَالالْتِباسِ[1]، فَقَدْ تَعَيّنَ في قَوْلِهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ-: "كَيْفَ بِكَ إذا بَقيتَ في حُثالَةٍ مِنَ النّاسِ بِهذا، قالَ: وَشَبَّكَ النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ- بَيْنَ أصابِعِهِ"[2]، وَالظّاهِرُ في هذا الحَديثِ الشَّريفِ أَنَّ الحَرَكَةَ لَمْ تَكُنْ مُسانِدًا، أوْ مُعَزِّزًا لِلمَجْرى الصّائِتِ، بَلْ كانَتْ بَديلاً أمينًا مِمّا يُرى وَلا يُسْمَعُ، وَالبَوْنُ بَيْنَ الحَرَكَتَيْنِ في الحَديثَيْنِ، فَضْلاً عَنِ البَوْنِ الدِّلالِيّ المُتَعَيّنِ، أنَّ دِلالَةَ الصّامِتِ الحَرَكِيَّةَ في الحَديثِ الأَوَّلِ كانَتْ رافِدًا لِلدِّلالَةِ الصّائِتَةِ اللَّفْظِيّةِ، وَمُعَزِّزًا لَها، فَهِيَ تَوْكيدٌ حَرَكِيٌّ قائِمٌ مَقامَ التّوْكيدِ اللَّفْظِيّ.

حَرَكَةُ الإشارَةِ وَتَعْيينِ المَكانِ:

وَكَما وَقَعَتْ إشارَةُ التَّعْيينِ بِاليَدِ عامّةً، فَقَدْ وَقَعَتْ بِالإِصْبعِ خاصّةً، وَكَثيرًا ما نَأتي هذِهِ الحَرَكَةَ في أَداءاتِنا التّواصُلِيّةِ اليَوْمِيّةِ[3]، وَقَدْ غَدَتْ هذِهِ الحَرَكَةُ لِكَثْرَتِها، وَشُيوعِها، وَعالَمِيّتِها، مَثَلاً عَرَبِيًّا أَصيلاً، فَقيلَ: "فُلانٌ يُشارُ إِلَيْهِ بِالبَنانِ" لِتَمَيّزِهِ وَنُبوغِهِ وَبَذّهِ أَقْرانَهُ، وَالحَقُّ أنَّ "الإِشارَةَ بِاليَدِ أوِ الأَصابِعِ لِتَعْيينِ شَيءٍ ما (pointing) هِيَ إِشارَةٌ لَها أَهَمّيَّةٌ خاصّةٌ؛ لأَنَّها تُقَدِّمُ حَلاًّ واحِدًا لِمُشْكِلَةِ المَرْجِعِيّةِ، أيْ أَنَّنا نَسْتَطيعُ أنْ نَدُلَّ عَلى ما تَعْنيهِ الكَلِمَةُ بِالإِشارَةِ إِلى مَرْجِعِيّتِها"[4]، وَقَدْ جاءَتْ هذِهِ الحَرَكَةُ في الحَديثِ الشَّريفِ الذي قالَ فيهِ: "إذا رَأَيْتُمُ اللَّيْلَ أَقْبَلَ مِنْ هُنا، فَقَدْ أَفْطَرَ الصّائِمُ، وَأَشارَ بِإِصْبَعِهِ قِبَلَ المَشْرِقِ"[5].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ الذي قالَتْهُ المَرْأَةُ مِنْ حَديثٍ طَويلٍ لَمّا أَتَتْ أَهْلَها بَعْدَ أنِ احْتَبَسَتْ عَنْهُمْ، فَقالوا لَها مُسائِلينَ: ما حَبَسَكِ يا فلانَةُ، قالَتْ: العَجَب، لَقِيَني رَجُلانِ،

---

(1) عرج على هذه الحركة "بيس" في كتابه "لغة الجسد"، ورأى أن لها دلالة سلبية، وأن أحد مندوبي المبيعات قد خسر معاملته المادية بسببها، فقد غدا لون يديه أبيض، وقد عقدت الأصابع فتداخلت، فكانت، كما يقول، ذات دلالة على خيبة الأمل، وعلى هيئة غير ودية، انظر: Pease, Body Language, P.56.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع، (458/329)، 265/1.

(3) انظر: باكو، لغة الحركات، 45.

(4) انظر: مايكل كوربالس، في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم، 72.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، باب "يفطر بما تيسر"، (213/130)، 85/2.

فَذَهَبا بي إلى هذا الذي يُقالُ لهُ الصّابِئُ، فَفَعَلَ كَذا وَكَذا، فَوَاللهِ إنَّهُ لأَسْحَرُ النّاسِ مِنْ بَيْنِ هذِهِ وَهذِهِ، وَقالَتْ بِإصْبَعَيْها الوُسْطى وَالسّبّابَةِ، فَرَفَعَتْهُما إلى السَّماءِ، تَعْني السَّماءَ وَالأَرْضَ..."[1].

حَرَكَةُ العَدِّ وَالحِسابِ:

وَقَدْ تَجَلَّتْ تِلكَ الدِّلالَةُ بِحَرَكَةِ الأَصابِعِ كَما تَجَلَّتْ بِحَرَكَةِ اليَدِ قَبْلاً، وَمِنْ ذلِكَ أَنَّهُ "قيلَ لِلرّسولِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ-: زَعَموا أنَّ عامِرًا قَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، قالَ: مَنْ قالَهُ، قالَ: فُلانٌ، وَفُلانٌ، وَفُلانٌ، فَقالَ: كَذَبَ مَنْ قالَهُ، إنَّ لَهُ لأَجْرَيْنِ، وَجَمَعَ بَيْنَ إصْبَعَيْهِ، إنَّهُ لَمُجاهِدٌ مُجاهِدٌ"[2]، وَلْنَلْحَظْ أنَّ ثَمَّ تَوْكيدَيْنِ في الحَديثِ، أحدُهُما لَفْظِيٌّ، وَثانيهِما حَرَكِيٌّ، أَمّا اللَّفْظِيُّ فَقَدْ تَجَلّى مَرَّتَيْنِ: الأولى في اسْتِعمالِهِ "إنَّ" مَعَ اللاّمِ المُزَحْلَقَةِ، وَكَذلِكَ في تَكْرارِ كَلِمَةِ "مُجاهد" مَرَّتَيْنِ، أَمّا الثّانِيَة، وَفيها التّوْكيدُ الحَرَكِيُّ، فَقَدْ ظَهَرَ في حَرَكَةِ إصْبَعَيْهِ الشَّريفَتَيْنِ المُؤَكِّدَتَيْنِ، وَفي مِثْلِ هذِهِ الأَحاديثِ تَلْتَقي الدِّلالَتانِ: الصّائِتَةُ اللَّفْظِيّةُ، وَالصّامِتَةُ الحَرَكِيّةُ، وَإنْ شِئْنا فَلْنَقُلْ: الكَلامِيّاتُ وَالصَّمْتِيّاتُ في الإبانَةِ وَالتّواصُلِ.

الأَصابِعُ المُقَلِّلَةُ:

وَالحَقُّ أَنَّ هذِهِ المُباحَثَةَ قَدْ عُرِّجَ عَليها في بابِ القَوْلِ عَلى اليَدِ وَدِلالاتِها، وَلكِنْ، لَها رِوايَةٌ أُخْرى تُفْضي إلى فُسْحَةٍ مِنْ إلْحاقِها بِرَكْبِ هذِهِ المُباحَثَةِ المُنْتَسِبَةِ إلى دِلالَةِ الأصابِعِ، فقَدْ يَعْمِدُ المَرْءُ إلى تَشْكيلِ أَصابِعِهِ تَشْكيلاً المَقْصِدُ مِنْهُ التّقْليلُ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُه -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ-: "في الجُمُعَةِ ساعَةٌ لا يُوافِقُها مُسْلِمٌ قائِمٌ يُصَلّي يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا إلاّ أَعْطاهُ، وَقالَ بِيَدِهِ، فَوَضَعَ أنملَتَهُ عَلى بَطْنِ الوُسْطى وَالخِنْصِرِ، قُلْنا يُزَهِّدُها"[3]، وَقَدَ شَرَحَ هذِهِ الحَرَكَةَ ابنُ حَجَرٍ مُلْتَمِسًا دِلالاتٍ مُتَعَدِّدَةً، وَقَدْ تَجَلّى ذلِكَ في قَوْلِهِ: "وَقالَ بِيَدِهِ: أيْ أَشارَ بِها، وَهُوَ مِنْ إطْلاقِ القَوْلِ عَلى الفِعْلِ، وَقَدْ قيلَ إنَّ المُرادَ بِوَضْعِ الأنملَةِ في وَسَطِ الكَفِّ الإشارَةُ إلى أنَّ ساعَةَ الجُمُعَةِ في وَسَطِ يَوْمِ الجُمُعةِ، وَبِوَضْعِها

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب التيمم، باب الصعيد الطيب، (331/238)، 212/1.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، الباب (1024/612)، 368/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الطلاق، باب الإشارة، (217/149)، 101/4.

عَلى الخِنْصرِ الإِشارَةُ إِلى أَنَّها في آخِرِ النَّهارِ؛ لأَنَّ الخِنْصرَ آخِرُ أَصابعِ الكَفِّ"[1].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ، أَعْني دِلالَةَ التَّقْليلِ المُتَعَيِّنَةَ مِنْ هَيْئَةِ الأَصابعِ، أَنَّهُ "نَهى عَنِ الحَريرِ إِلاّ هكَذا، وَأَشارَ بِإِصْبَعَيْهِ اللّتَيْنِ تَلِيانِ الإِبْهامَ"[2]، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "وَصَفَّ لَنا النَّبِيُّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- إِصْبَعَيْهِ، وَرَفَع زُهَيْرٌ الوُسْطى وَالسّبّابَةَ"[3].

حَرَكَةُ تَمْثيلِ المَعْنى:

وَقَدْ يَعْمِدُ المَرْءُ إِلى أَصابِعِهِ لِيَتّخِذَها مَدْخَلاً إِلى إِشارَةِ تَعْيينِ الكَمّيّةِ، وَمِنْ ذلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَزِعًا مُهَلِّلاً قائِلاً: لا إِلهَ إِلاّ اللهُ، وَيْلٌ لِلعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ رَدْمُ يَأْجوجَ وَمَأجوجَ مِثلَ هذا، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ بِالتي تَليها[4]، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "عَقَدَ سُفْيانُ تِسْعينَ، أَوْ مِئَةً"[5]، وَفي ثالِثَةٍ: "وَعَقَدَ وُهَيْبٌ تِسْعينَ"[6]، وَقَدْ فَسَّرَ ذلِكَ ابنُ حَجَرٍ بِقَوْلِهِ: "وَحَلّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهامِ وَالتي تَليها، وَهِيَ صورَةُ عَقْدِ التِّسْعينَ، وَوَجْهُ إِدْخالِهِ في التَّرْجَمَةِ أَنَّ العَقْدَ عَلى صِفَةٍ مَخْصوصَةٍ لإِرادَةِ عَدَدٍ مَعْلومٍ يَتَنَزّلُ مَنْزِلَةَ الإِشارَةِ المُفْهِمَةِ فَإِذا اكْتَفى بِها عَنِ النُّطْقِ مَعَ القُدْرَةِ عَلَيْهِ دَلَّ عَلى اعْتِبارِ الإِشارَةِ مِمّنْ لا يَقْدِرُ عَلى النُّطْقِ بِطَريقِ الأَوْلى"[7].

وَفي إِشارَةِ تَعْيينِ الكَمّيّةِ تِلْكَ رَسْمٌ للمَعْنى وَتَمْثيلٌ، وَفيها، مِنْ جِهَةٍ أُخْرى، تَقْديمٌ لِلدّلالَةِ الحَرَكِيَّةِ المُنْتَسِبَةِ إِلى مَطْلَبِ "الصَّمْتِيّاتِ" عَلى الدّلالَةِ المُنْتَسِبَةِ إِلى "الكَلامِيّاتِ"، فَهِيَ "تُخْبِرُ بِطَريقَةٍ ما عَمّا لا يَسْتَطيعُ الكَلامُ أَنْ يُخْبِرَ بِهِ، فَالنّاسُ تَصْدُرُ عَنْهُمْ بِصورَةٍ مُمَيَّزَةٍ إِشاراتٌ وَهُمْ يَتَكَلَّمونَ، وَالتَّأْشيرُ في الحَقيقَةِ يَنْقُلُ أَحْيانًا مَعْلوماتٍ

(1) انظر: ابن حجر، فتح الباري، 437/9.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب اللباس، باب لبس الحرير، (719/444)، 277/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب اللباس، باب لبس الحرير، (720/444)، 277/4.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، (127/26)، 44/3.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الطلاق، باب الإشارة، (216/149)، 100/4، وكتاب الفتن، الباب (1886/1071)، 676/4.

(6) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج، (1955/1096)، 699/4، وقد تقدم الحديث عن مفهوم العقد، انظر: البغدادي، خزانة الأدب، 538/6.

(7) انظر: ابن حجر، فتح الباري، 437/9.

مَهمّةً لا يَحْمِلُها الكَلامُ، وَمُعْظَمُ النّاسِ عِنْدَما يُطْلَبُ مِنْهُمْ وَصْفُ شَيْءٍ مُلْتَوٍ يَلْجَأونَ إِلى تَمْثيلِه بِاليَدِ، وَعِنْدَما يُقالُ شَيْءٌ مَعَ حاجِبَيْنِ مَرْفوعَيْنِ -وَهِيَ مِنْ إِشاراتِ الوَجْهِ، فَقَدْ يَكونُ لِذلكَ مَعْنًى مُخْتَلِفٌ اخْتِلافًا جَوْهَرِيًّا"[1].

هَيْئاتٌ عامّةٌ وَمُتَمِّماتٌ مُساندَةٌ

لَعَلّهُ يَحْسُنُ قَبْلَ الوُلوجِ في مُتَطَلَّباتِ هذِهِ المُباحَثَةِ الفَرْعِيّةِ تَجْلِيَةُ المُرادِ مِنْها وَمِمّا يَتَعَيّنُ مِنَ العُنْوانِ المَعْقودِ لَها، فَالمَقْصِدُ مِنَ الهَيْئاتِ العامّةِ الأَحْوالُ التي يَظْهَرُ عَلَيْها المَرْءُ في شَكْلِهِ الخارِجِيّ العامّ، وَمِنْ أَمْثِلَتِها المُخَصِّصَةِ الدّالّةِ عَلَيْها هَيْئَةُ الجِلْسَةِ، وَالوِقْفَةِ، وَالمِشْيَةِ وَاللِّبْسَةِ، وَغَيْرِ ذلِكَ، وَمِنْ أَمثِلَةِ بَعْضِ الهَيْئاتِ العامّةِ التي وَرَدَتْ في الحَديثِ النَّبَوِيّ الشَّريفِ:

هَيْئَةُ اللِّبْسَةِ:

ما مِنْ شَكٍّ أَنَّ هَيْئَةَ اللِّباسِ مُؤْذِنَةٌ بِتَقْريرِ مَعانٍ تَقومُ في نَفْسِ الرّائينِ، أَوِ النّظّارَةِ، فَقَدْ يَقْفِزُ في النَّفْسِ عِنْدَ مُشاهَدَةِ هَيْئَةِ شَخْصٍ في لِباسِهِ أَنَّهُ ابنُ طَبَقَةٍ اجْتِماعِيّةٍ تُنْسَبُ إِلى العِلْيَةِ، أَوْ أَنَّهُ فَقيرٌ، بَلْ قَدْ تَشي بِطَبيعَةِ عَمَلِهِ وَمِهْنَتِهِ، أَوْ بِعُمُرِهِ، أَوْ بِجِنْسِهِ، أَوْ بِسُلوكِهِ، وَأَخْلاقِهِ، وَبَعْضِ شَمائِلِهِ، وَالحَقُّ أَنَّ سَرْدَ الدِّلالاتِ التي تَنْبَني عَلى ذلِكَ كَثيرَةٌ تَقَدَّمَ الحَديثُ عَنْها في مَطْلَبِ "الأَنْظارِ المُمَهِّدَةِ"[2]، وَمِنْ الدِّلالاتِ التي قَرَّرَتْها هَيْئاتُ اللِّبْسَةِ في الحَديثِ الشَّريفِ:

دِلالَةُ التَّكَبّرِ وَالخُيَلاءِ:

إِظهارُ هذا المَعْنى يَكونُ بِغَيْرِ سَبيلٍ، وَمِنْها المِشْيَةُ، وَهِيَ حَرَكَةٌ جَسَدِيّةٌ مَنْهِيٌّ عَنْها، مَذْمومٌ صاحِبُها، وَقَدْ وَرَدَتْ في التَّنزيلِ العَزيزِ في قَوْلِ الحَقِّ -تَعالى-: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾[3]، وَقَدْ يَتَجَلّى ذلِكَ المَعْنى مِنْ هَيْئَةِ اللِّباسِ التي نَهى عَنْها الرَّسولُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- بِقَوْلِهِ: "مَنْ جَرَّ ثَوبَهُ خُيَلاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ

(1) انظر: مايكل كوربالیس، في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم، 118.

(2) أتى الثعالبي على فصل في هيئات اللباس، فتحدث عن بعض الهيئات والدلالات، ومنها السَّدْل، والتأبط، والاضطباع، والتلبب، والتلفع، والقُبوع وغير ذلك. انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 207.

(3) الآية (لقمان، 18).

إِلَيْهِ يَوْمَ القِيامَةِ"[1]، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "لا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ إِلى مَنْ جَرَّ إِزارَهُ بَطَرًا"[2].

دِلالَةُ التَّبَذّلِ وَالفَقْرِ:

وَقَدْ تَشي هَيْئَةُ اللِّباسِ بِحالِ صاحِبِها في هذِهِ الجِهَةِ عَلى وَجْهِ التَّعْيينِ، وَقَدْ قَرَأَ هذا المَعْنى سَلْمانُ الفارِسِيُّ لَمّا رَأى أُمَّ الدَّرْداءِ؛ ذلِكَ أَنَّ الرَّسولَ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- آخى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبي الدَّرْداءِ، فَقَصَدَهُ سَلْمانُ زائِرًا مُسَلِّمًا، "فَرَأى أُمَّ الدَّرْداءِ مُتَبَذِّلَةً"، فَقامَ في نَفْسِهِ هذا المَعْنى المُتَخَلِّقُ مِنْ هَيْئَةِ لِباسِها، فَقالَ لَها مُسْتَفْهِمًا مُسْتَدْرِكًا وَفاءً بِما قامَ في نَفْسِهِ مِنْ دِلالَةِ هَيْئَةٍ: "ما شَأْنُكِ؟"، فَكَشَفَتْ لَهُ عَنِ العِلّةِ الباعِثَةِ عَلى هَيْئَةِ لِباسِها، وَالواشِيَةِ بِالتَّبَذّلِ، قائِلَةً: "أخوكَ أَبو الدَّرْداءِ لَيْسَ لَهُ حاجَةٌ في الدُّنْيا..."[3]، فَاسْتَدْرَكَ سَلْمانُ قائِلاً: "إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا"[4].

دِلالَةُ التَّنَعُّمِ وَالتَّرَفِ:

وَقَدْ يَكونُ الأَمْرُ بِالضِّدِّ، فَتَشي هَيْئَةُ اللِّباسِ بِأَنَّ صاحِبَها مِنْ أَهْلِ مَعيشَةِ التَّرَفِ وَالرَّغَدِ، وَقَدْ كانَ ذلِكَ في حَديثِ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ لَمّا جاءَ العاص بنُ عَمْرٍو، وَكانَ سَيِّدًا في قَومِهِ مُطاعًا، "وَعَلَيْهِ حُلّةٌ حَبرَةٌ، وَقَميصٌ مَكْفوفٌ بِحَريرٍ"[5]، وَهُمْ يُريدونَ قَتْلَ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ يَوْمَ أَسْلَمَ، فَمَنَعَ النّاسَ مِنَ ابْنِ الخَطّابِ قائِلاً: لا سَبيلَ إِلَيْهِ، فَكَرَّ النّاسُ مِنْ أَمامِهِ[6].

دِلالَةُ الافْتِقارِ إِلى اللهِ وَإِظْهارُها:

وَقَدْ وَرَدَ في الحَديثِ الشَّريفِ هَيْئَةٌ قُصِدَ مِنْها إِظْهارُ الافْتِقارِ إِلى اللهِ، وَهِيَ حَرَكَةٌ تَجَلَّتْ في سِياقٍ مَخْصوصٍ جِدًّا، وَهُوَ سِياقُ الاسْتِسْقاءِ، فَقَدْ خَرَجَ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب اللباس، الباب (676/421)، 264/4.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب اللباس، الباب (680/421)، 265/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، الباب (225/137)، 88/2.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، الباب (225/137)، 88/2.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام عمر، (369/97)، 125/3.

(6) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام عمر، (369/97)، 125/3.

وَسَلّمَ- إلى المُصَلّى يُصَلّي، وَلَمّا دَعا اللهَ مُسْتَمْطِرًا اسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ، وَحَوَّلَ رِداءَهُ[1]، وَفي رِوايَةٍ: "قَلَبَ رِداءَهُ"[2]، وَكانَ فيها إظْهارُ مُنْتَهى الفَقْرِ إلى صاحِبِ مُنْتَهى الغِنى.

وَصَفْوَةُ المُسْتَخْلَصِ مِمّا تَقَدَّمَ أنَّ هَيْئَةَ اللِّباسِ كانَتْ لَها دِلالاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ في الحَديثِ النَّبَوِيّ الشَّريفِ، فَقَدْ كانَتْ ذاتَ دِلالَةٍ عَلى الحالِ النَّفْسِيّةِ، كَالتّكَبّرِ وَالخُيَلاءِ، وَكانَتْ ذاتَ دِلالَةٍ عَلى الحالِ الاجْتِماعِيّةِ وَالطَّبَقَةِ، كَالغِنى وَالفَقْرِ، وَكانَتْ كَذلِكَ ذاتَ دِلالَةٍ عَلى أحْكامٍ فِقْهِيّةٍ تَشْريعِيّةٍ، كَمَنْعِ جَرِّ الإزارِ بَطَرًا، أَوْ لُبْسِ الحَريرِ، وَقَدْ ظَهَرَ المَعْنى الأَخيرُ لَمّا أَهْدى الرَّسولُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- إلى عُمَرَ حُلّةً سِيَراء، فَرَآها عَلَيْهِ، فَقالَ: إنّي لَمْ أُرْسِلْ بِها إلَيْكَ لِتَلْبَسَها، إنّما يَلْبَسُها مَنْ لا خَلاقَ لَهُ"[3].

هَيْئَةُ المِشْيَةِ:

وَلِلمِشْيَةِ هَيْئاتٌ وَأحْوالٌ تُنْبِئُ عَنْ دِلالاتٍ مُتَباينَةٍ، وَقَد أَتى عَلى كَثيرٍ مِنْها الثّعالِبِيُّ في "فِقْهُ اللّغَةِ"[4]، وَالنّاظِرُ المُتَدَبِّرُ في الحَديثِ الشَّريفِ يَقِفُ عَلى بَعْضِ تِلكَ الدِّلالاتِ المُتَباينَةِ بِتَبايُنِ هَيْئَةِ المِشْيَةِ، وَمِنْها:

مِشْيَةُ المَريضِ المُتَثاقِلِ:

وَقَدْ ظَهَرَتْ هذِهِ الدِّلالَةُ في وَصْفِ الرَّسولِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- في مَرَضِ مَوْتِهِ، فَقَدْ وَجَدَ في نَفْسِهِ خِفّةً، فَخَرَج يُهادي بَيْنَ اثْنَيْنِ، "وَرِجْلاهُ تَخطّانِ مِنَ الوَجَعِ"[5]، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "كَأنّي أَنْظُرُ إلَيْهِ يَخطُّ بِرِجْلَيْهِ الأَرْضَ"[6]، وَقَدْ وُصِفَتْ هذِهِ المِشْيَةُ في "عِلْمِ الحَرَكِيّةِ"، فَقيلَ: "الخُطْوَةُ المائِعَةُ، السّاقُ المُجَرْجَرَةُ، القَدَمانِ المُثقَلَتانِ، العَيْنُ الغامِضَةُ"[7].

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الاستسقاء، الباب (964/656)، 460/1.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، الباب (1212/727)، 430/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب البيوع، الباب (355/218)، 135/2.

(4) انظر: الثعالبي، فقه اللغة، 198-199.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الأذان، الباب (671/461)، 323/1.

(6) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الأذان، الباب (671/461)، 343/1، وكتاب الطب، الباب (613/384)، 240/4.

(7) انظر: باكو، لغة الحركات، 55.

مِشْيَةُ الفارّ النّاكِصِ عَلى عَقِبَيْهِ:

وَما مِنْ رَيْبٍ أَنَّ لِلفارّ النّاكِصِ هَيْئَةً مَخْصوصَةً تَشي بِحالِهِ التي هُوَ عَلَيْها، فَفي حَديثِ أُحُدٍ عَنِ البَراءِ بنِ عازِبٍ أَنَّهُ قالَ: "فَأَنا وَاللهِ رَأَيْتُ النّساءَ يَشْتَدِدْنَ قَدْ بَدَتْ خَلاخِلُهُنّ وَأَسْوُقُهُنَّ، رافِعاتٍ ثِيابَهُنَّ"[1].

مِشْيَةُ اصْطِناعِ التّكَبّرِ وَالتّبَخْتُرِ:

وَهِيَ مِشْيَةٌ مُسْتَقْبَحَةٌ مَذْمومٌ صاحِبُها، وَلكِنَّ لَها سِياقًا آخَرَ حَميدًا أَثْنى عَلَيْهِ الرّسولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ قَصَدَها أبو دُجانةَ قَصْدًا بَعْدَ أَنْ أَخَذَ السَّيْفَ مِنْ رَسولِ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَخْرَجَ عِصابَةً فَعَصَبَ بِها رَأْسَه، ثُمَّ أَخَذَ يَتَبَخْتَرُ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، فَقالَ رَسولُ اللهُ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إِنّها لَمِشْيَةٌ يَبْغضُها اللهُ إِلاّ في هذا المَوْطِنِ"، وَفي رِوايَةٍ أُخْرى: "فَرَبَطَ عَلى عَيْنَيْهِ عِصابَةً حَمْراءَ، فَرَفعَ حاجِبَيْهِ عَنْ عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبْرِ، ثُمّ مَشى بَيْنَ يَدَيْ رَسولِ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِالسَّيْفِ"[2].

هَيْئَةُ الجِلْسَةِ:

وَلِلجِلْسَةِ هَيْئاتٌ وَأَوْضاعٌ مُقَرَّرَةٌ في عِلْمِ الحَرَكِيّةِ[3]، وَمِنْ هَيْئاتِها في الحَديثِ النَّبَويّ الشَّريفِ:

جِلْسَةُ المُتَعَلِّمِ المُسْتَرْشِدِ:

وَقَدْ وَرَدَتْ في الحَديثِ الذي جاءَ فيهِ: "بَيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ اللهِ – صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– ذاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدُ سَوادِ الشَّعْرِ، لا يُرى عَلَيْهِ أَثَرُ السّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنّا أَحَدٌ، حَتّى جَلَسَ إِلى النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفّيْهِ عَلى فَخِذَيْهِ وَقالَ: يا مُحَمّدُ، أَخْبِرْني عَنِ الإِسْلامِ... ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثَ مَلِيّاً، ثُمَّ قالَ لي: يا عُمَرُ، أَتَدْري مَنِ السّائِلُ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسولُهُ أَعْلَمُ، قالَ: فَإِنّهُ جِبْريلُ أَتاكُم يُعَلّمُكُمْ دينَكُمْ[4].

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد، الباب (1216/803)، 485/2.

(2) انظر: الطبراني، المعجم الكبير، عمر بن قتادة(14)، 9/19، وكذلك: سماك بن خرشة(6508)، 104/7، وفيض القدير، حرف السين، 277/4.

(3) انظر هذا المبحث: Pease, Body Language, P.182.، وباكو، لغة الحركات، 56.

(4) انظر: الدارقطني، السنن، باب المواقيت، (207)، 282/2، والبيهقي، السنن، باب المرأة تزور =

لَـيْسَ يَسْـتَقيمُ فـي الـذّهْنِ أنْ يَـذْهَبَ الظّـنّ بِالقـارِئِ إِلـى أنّ أوْصـافَ الحَرَكـاتِ الجَسَـدِيّةِ التي أثْبَتَهـا راوي الحَـديثِ قَـدْ جـاءَتْ مِـنْ بـابِ التّزَيّـدِ أَوِ الفُضـولِ؛ ذاكَ أَنّهـا مُحَمَّلَةٌ بِدِلالاتٍ مَخْصوصَةٍ في سِياقِها الخاصّ ذاكَ، وَقَدْ شَهِدَ أَهْلُ الحَضْرَةِ مِنَ السّائِلِ حَرَكـاتٍ دالّـةً عَلـى فَضْـلِ أدَبِ المُـتَعَلِّمِ المُسْتَرْشِـدِ، فَلَـمْ يَجْلِـسْ جُلـوسَ الضّـيْفِ، أوِ الآكِلِ، أوِ المُسْتَوْفِزِ، لا وَلَـمْ يَقِفْ وِقْفَةَ العَجِلِ، وَلَـمْ تَصْـدُرْ عَنْهُ إِشاراتٌ أوْ حَرَكـاتٌ جَسَـدِيّةٌ دالّـةٌ عَلى أنَّهُ أتى مُمْتَحِنًا يُعـايي الأَذْهـانَ، بَلْ تَراجَعَـتْ كُـلُّ هـذِهِ الاحْتِمـالاتِ الدِّلالِيّةِ لِيَقومَ مَقامَها دِلالَةُ جِلْسَةِ المُتَعَلِّمِ المُسْتَرْشِدِ، فَقَدْ جَلَسَ وُجاهَ الرَّسـولِ الكَـريمِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- مُسْنِدًا رُكْبَتَيْهِ إِلى رُكْبَتَيْهِ دِلالَةً عَلى المُواجَهَةِ وَالتّلَقّي المُباشِرِ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلى فَخِذَيْه(أي فَخِذَي السّائِلِ)، تَحْقيقًا لِمَطْلَـبٍ تَأدُّبِ السّائِلِ في حَضْـرَةِ المَسْؤولِ.

وَالمُفارَقَةُ المُعْجِبَةُ حَقًّا أنّهُمْ في "عِلْمِ الحَرَكِيّةِ" وَ"لُغَةِ الجَسَـدِ" يَقِفـونَ عِنْدَ مَبْحَثِ "الاتّجاهـاتِ" وَدِلالاتِهـا، وَلَعَـلَّ الهَيْئَـةَ التي جَلَـسَ عَلَيْهـا جِبْريـلُ -عَلَيْـهِ السَّـلامُ- مِمّـا يَنْتَسِبُ في مُصْطَلَحِهِمْ إِلى "التَّشْكيلِ المُغْلَقِ"، فَفيها يَكـونُ "الشَّخْصـانِ المُتَقابِلانِ عَلى دَرَجَـةٍ كَبيـرَةٍ مِـنَ الصَّـداقَةِ وَالخُصوصِـيّةِ، وَالزّاوِيَـةُ المُتَشَـكِّلَةُ بَـيْنَ جِـذْعَيْهِما تَـتَقَلّصُ مِنْ(90) إِلى صِفْرٍ"[1]، وَكَذلِكَ كانَ دُخولُ جِبْريلَ إِلى ما يُسَمّى "المَنْطِقَةَ العَميقَةَ" أوِ "الحَميمِيّة"، وَكُلُّ هذِهِ المَعاني التي تَقومُ في النَّفْسِ باعِثُها الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ الدّالّةُ عَلى مَعـانٍ مَخْصوصَـةٍ، وَقَـدْ أَلْمَـحَ إِلـى هـذا شـارِحُ الصّـحيحِ قـائِلاً: "وَجَلَـسَ عَلـى هَيْئَـةِ المُتَعَلِّمِ"[2].

=

زوجها، (8393)، 324/4، والنووي، شرح صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، 274/1.

(1) انظر: Pease, Body Language, P.180.

(2) قال: "وجلس على هيئة المتعلم"، انظر: النووي، شرح صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، 272/1، وقد وقف عند ما هو قريب من هذه الهيئة "بيس"، فقال مصورا هيئة الموظف مع الرئيس: "وهو جالس على الكرسي، ويضع يديه على ركبتيه، ووجهه للأسفل". انظر: Pease, Body Language, P.166.

الانْتِقالُ مِنْ هَيْئَةٍ إلى هَيْئَةٍ:

قَدْ يَتَحَوّلُ المَرْءُ في خِطابِهِ مِنْ هَيْئَةٍ إلى هَيْئَةٍ أُخْرى في جِلْسَتِهِ، وَلَعَلَّ الانْتِقالَ مِنْ هَيْئَةٍ إلى أُخْرى بَواعِثُهُ كَثيرَةٌ، كَالانْتِقالِ مِنْ مُسْتَوًى خِطابِيٍّ إلى آخَرَ أعلى مِنْهُ، فَيَنْعَكِسُ هذا التّحَوّلُ الخِطابِيُّ عَلى هَيْئَةِ الجِلْسَةِ، فَيُعَدَّلُ فيها، أوْ مِنْها، وَهِيَ أشْبَهُ ما تَكونُ بِدَرْسِ الالتِفاتِ في عِلْمِ البَلاغَةِ[1]، وَقَدِ التَفَتَ الرّواةُ، عَلى نَحْوٍ مُعْجِبٍ، إلى أثَرِ ذلِكَ في الإبانَةِ، وَجَذْبِ المُتَلَقّي عَلى نَحْوٍ تَواصُليٍّ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ عَنْ أكْبَرِ الكَبائِرِ، وَهِيَ الإشْراكُ بِاللهِ، وَعُقوقُ الوالِدَيْنِ، ثُمَّ لَمّا أتى عَلى الثّالِثَةِ جَلَسَ بَعْدَ أنْ كانَ مُتّكِئًا لِخُطورَةِ ما سَيَرِدُ عَلَيْهِ، فَقالَ بَعْدَ الانتِقالِ مِنْ هَيْئَةٍ إلى هَيْئَةٍ: "أَلا وَهُوَ قَوْلُ الزّورِ، فَما زالَ يُكَرِّرُها حَتّى قُلْنا لَيْتَهُ سَكَتَ"[2].

وَالظّاهِرُ أنَّ في تَكْرارِها تَأْكيدًا لَفْظِيًّا، وَأنَّ في تَعْديلِ الجِلْسَةِ تَوْكيدًا حَرَكِيًّا مُنْبِئًا عَنْ أهَمّيّةِ ما سَيأْتي بَيانُهُ، وَبِذا تَضافَرَتِ الدِّلالَتانِ: الصّائِتَةُ وَالصّامِتَةُ في تَأْدِيَةِ الغَرَضِ المَقْصودِ وَالإبانَةِ، وَقَدْ أتى ابنُ مَسْعودٍ هذِهِ الحَرَكَةَ، وَهِيَ تَعْديلُ الجِلْسَةِ، فَقَدْ جاءَ أنَّ أحَدَهُم أتاهُ، "وَكانَ مُتّكِئًا فَجَلَسَ، فَقالَ: مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ..."[3].

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ بُروكُ عُمَرَ عَلى رُكْبَتَيْهِ إسْلامًا، وَاسْتِسْلامًا، وَإقْرارًا، فَكانَتْ جِلْسَتُهُ بَعْدَ وُقوفِهِ جِلْسَةَ المُقِرِّ المُعْتَرِفِ المَوقِنِ بِنُبُوّةِ رَسولِهِ الكَريمِ، فَعَنْ أنَسِ بنِ مالِكٍ أنَّ النَّبِيَّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- خَرَجَ حينَ زاغَتِ الشَّمْسُ فَصَلّى الظّهْرَ، وَذَكَرَ السّاعَةَ، وَذَكَرَ فيها أُمورًا عِظامًا، ثُمَّ قالَ: مَنْ أحَبَّ أنْ يَسْألَ عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْألْ، فَلا تَسْألوني عَنْ شَيْءٍ إلاّ أخْبَرْتُكُمْ ما دُمْتُ في مَقامي هذا، فَأكْثَرَ النّاسُ في البُكاءِ، وَأكْثَرَ

---

(1) الالتفات انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة، أو انصراف المتكلم عن الخطاب إلى الإخبار، وهو عكس الأول؛ كقوله –تعالى-: "حَتّى إذا كُنتُمْ في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِريحٍ طَيِّبَةٍ"، أو انصراف المتكلم من الإخبار إلى التكلم، أو انصراف الكلام إلى الغيبة، انظر ما قيل عنه: ابن المعتز، البديع، 106، وقدامة، نقد الشعر، 87، والعسكري، كتاب الصناعتين، 438، وابن رشيق، العمدة، 45/2.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الشهادات، باب "ما قيل في شهادة الزور"، (864/552)، 341/2، كتاب الاستئذان، باب "من اتكأ بين يدي أصحابه"، (1148/685)، 408/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، تفسير سورة الروم، (1198)، 479/3.

أَنْ يَقولَ: "سَلوني"، فَقالَ لَهُ رَجُلٌ مُمْتَحِنًا: مَنْ أبي؟ فَقالَ: أَبوكَ حذافَةُ...فَبَرَكَ عُمَرُ عَلى رُكْبَتَيْهِ وَقالَ: رَضينا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسلامِ دينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا..."[1].

هَيئتُهُ الشَّريفَةُ عِنْدَ نُزولِ الوَحْيِ:

وَكانَتْ تَصْدُرُ عَنِ النَّبِيِّ إيماءاتٌ وَحَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ تُنْبِئُ مَنْ حَوْلَهُ بِأَنَّهُ يوحى إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ في عالَمٍ آخَرَ غَيْرِ عالَمِهِمُ الذي فيهِ يَعيشونَ، وَالحَقُّ أَنَّها إيماءاتٌ وَعَلائِمُ مُتَعَدّدَةٌ، فَقَدْ كانَ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يُعالِجُ مِنَ التَّنْزيلِ شِدّةً تَظْهَرُ عَلى كَثيرٍ مِنْ جَوارِحِهِ، وَمِنْ أَجْلاها تَحْريكُ الشَّفَتَيْنِ، فَعَنِ ابنِ عَبّاسٍ أَنَّ النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- كانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ عِنْدَ نُزولِ الوَحْيِ"[2]، وَمِنْها ما يَغْشى وَجْهَهُ الشَّريفَ مِنْ عَلاماتٍ مَخْصوصَةٍ؛ كَاحْمِرارِهِ، وَمِنْ ذلِكَ وَصْفُهُمْ لَهُ: "فَأَدْخَلَ يَعْلى رَأْسَهُ، فَإِذا هُوَ مُحْمَرُّ الوَجْهِ يَغِطُّ"[3]، وَمِنْها الغَطيطُ، وَالمَعْنى المُتَعَيِّنُ مِنَ الغَطيطِ الصَّوْتُ، وَمِنْهُ غَطيطُ النّائِمِ، وَهُوَ تَرْديدُهُ حَيْثُ لا يَجِدُ مَساغًا[4]، وَصَفوَةُ القَوْلِ أَنَّ الحَرَكَةَ الجَسَدِيّةَ كانَتْ مِنَ الدَّلائِلِ الهادِيَةِ إِلى مَعْرِفَةِ نُزولِ الوَحْيِ عَلَيْهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ.

هَيْئَةُ المُشاكِسِ:

وَفي عِلْمِ الفِراسَةِ يُشارُ إِلى أَوْصافٍ جَسَدِيّةٍ مَخْصوصَةٍ تُفْضي إِلى القَوْلِ بِأَنَّ صاحِبَها مُشاكِسٌ سَيِّءُ الخُلُقِ وَالسَّجِيّةِ، وَأَنَّ آخَرَ ذو أَوْصافٍ حَميدَةٍ تَشي بِأَنَّهُ سَهْلُ الخُلُقِ لَيِّنُهُ[5]، وَفي عِلْمِ الحَرَكِيّةِ يُشارُ إِلى هَيئاتٍ مُتَعَدّدَةٍ تُبْرِزُ هذا المَعْنى[6]، وَقَدْ جاءَ في الحَديثِ النَّبَوِيِّ الشَّريفِ وَصْفٌ جَسَدِيٌّ لِشَخْصٍ يَمْرُقُ مِنَ الدّينِ كَما تَمْرُقُ الرّمِيّةُ مِنَ السَّهْمِ، فَقيلَ في وَصْفِهِ: "فَأَقْبَلَ عَلَيْنا رَجُلٌ غائِرُ العَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الوَجْنَتَيْنِ، ناتِئُ الجَبينِ، ناشِزُ الجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلوقُ الرَّأْسِ، مُشَمِّرُ الإِزارِ، فَقالَ: يا مُحَمّدُ، اتَّقِ

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب مواقيت الصلاة، الباب (507/362)، 285/1.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب التوحيد، باب قول الله -تعالى-: "لا تحرك لسانك"، (2323/1238)، 829/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب فضائل القرآن، الباب (1411/571)، 580/3.

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة "غطط".

(5) انظر: ابن أبي طالب، السياسة في علم الفراسة، 48، 49، 51.

(6) انظر: باكو، لغة الحركات، 92.

اللهَ، فَقالَ مُسْتَدْرِكًا عَلَيْهِ، مُسْتَهْجِنًا ما كانَ قَدْ صَدَر مِنْهُ: "وَيْلَكَ، أَوَلَسْتُ أحَقَّ أهْلِ الأَرْضِ أنْ يَتّقِيَ اللهَ"[1]، ثُمَّ أرْدَفَ النَّبِيّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- قائِلاً: "إنّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هذا قَوْمٌ يَتْلونَ كِتابَ اللهِ رَطْبًا لا يُجاوِزُ حَناجِرَهُم، يَمْرُقونَ مِنَ الدّينِ كَما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرّمِيّةِ، وَلَئِنْ أدْرَكْتُهُم لأَقْتُلَنَّهمْ قَتْلَ ثَمودَ"[2].

أَمّا المُتَمِّماتُ المُسانِدَةُ في الحَديثِ الشّريفِ، وَيُخصُّ في هذا المَقامِ ما لَهُ لُحْمَةٌ بِالجانِبِ الدِّلالِيّ التّواصُلِيّ، فَمِنْها العَصا، وَالسَّوْطُ، وَالمِخْصَرَةُ، وَالعودُ، وَالقِناعُ، وَالسَّيْفُ، وَالطّيبُ، لِنَنظرْ في دِلالاتِ ما يَأتي بَيانُهُ:

العَصا الشّريفَةُ:

وَالمُتَدَبّرُ لِلحَديثِ النَّبَوِيّ الشَّريفِ يَجِدُ أنَّهُ اسْتَعانَ بِعَصاهُ عَلى أَداءِ مُرادِهِ، وَتَعْيينِ مَعانيهِ، فَقَدْ سَخَّرَها في بَعْضِ المَواقِفِ لِهذا الغَرَضِ الدِّلالِيّ التّواصُلِيّ، وَالحَقُّ أَنَّ مَفْهومَ العَصا واسِعٌ في الحَديثِ، فَمِنْ ذلِكَ "المِخْصَرةُ"، وَ"العودُ"، وَ"العَصا"، وقَدْ ظَهَرَ بِها المَعْنى مَرْسومًا مَرّةً، وَمَرّةً مُمَثَّلاً، وَمَرَّةً مُقَرَّرًا مُؤَكَّدًا عَلى الهَيْئاتِ التّالِيَةِ:

المَعْنى مَرْسومًا:

وَقَدْ كانَ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ- وَهُوَ يُبينُ عَنْ مَقاصِدِ كَلِمِه وَرُسومِ تَعابيرِهِ يَتَّخِذُ وَسائِلَ شَتّى، وَسُبُلاً تَوْضيحِيّةً، وَمِنْ ذلِكَ رَسْمُ المَعْنى المُرادِ عَلى الأَرْضِ، وَفي ذلِكَ إبانَةٌ غَيْرُ لَفْظِيّةٍ ظاهِرٌ أَمْرُها، "فَالإشارَةُ مَبْنَيّةٌ أَساسًا عَلى المُشابَهَةِ التَّشْخيصِيّةِ"[3]، وَمِثالُها أَنَّهُ "خَطَّ مُرَبَّعًا عَلى الأَرْضِ، وَخَطَّ خَطًّا في الوَسَطِ، خارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطُطًا صِغارًا إلى هذا الذي في الوَسَطِ مِنْ جانِبِهِ الذي في الوَسَطِ، وَقالَ: هذا الإنْسانُ، وَهذا أَجَلُهُ مُحيطٌ بِهِ، أوْ قَدْ أحاطَ بِهِ، وَهذا الذي هُوَ خارِجٌ أَمَلُهُ، وَهذِهِ الخُططُ الصّغارُ الأَعْراضُ، فَإِنْ أَخْطَأهُ هذا نَهَشَهُ هذا، وَإِنْ أخْطَأهُ هذا نَهَشَهُ هذا"[4].

وَفي سُنَنِ ابْنِ ماجَةَ: "أنّهُ خَطَّ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطًّا وَسَطَ الخَطِّ المُرَبَّعِ، وَخُطوطًا

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، الباب (797/178)، 284/3.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، الباب (797/178)، 284/3.

(3) انظر: مايكل كوربالیس، في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم، 212.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب "في الأمل وطوله"، (1284/775)، 455/4-456.

إِلى جانِبِ الخَطِّ الذي وَسَطَ الخَطِّ المُرَبَّعِ، وَخَطًّا خارِجًا مِنَ الخَطِّ المُرَبَّعِ، فَقالَ: أَتَدْرونَ ما هذا: قالوا: اللهُ وَرَسولُهُ أَعْلَمُ، قالَ: هذا الإِنْسانُ الخَطُّ الأَوْسَطُ، وَهذِهِ الخُطوطُ إِلى جَنْبِهِ الأَعْراضُ تَنْهشُهُ، أَوْ تَنْهسُهُ، مِنْ كُلِّ مَكانٍ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هذا أصابَهُ هذا، وَالخَطُّ المُرَبَّعُ الأَجَلُ المُحيطُ، وَالخَطُّ الخارِجُ الأَمَلُ[1].

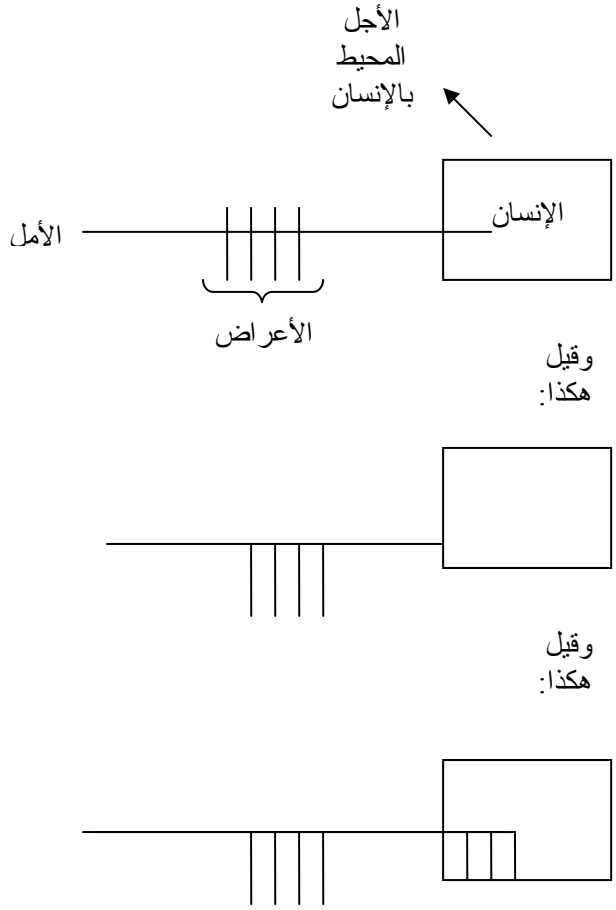

وَقَدِ اسْتَعانَ الرَّسولُ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِالرَّسْمِ التَّمْثيلِيِّ لِتَجْلِيَةِ المَعْنى وَالتَّفْسيرِ، وَمِنْ ذلِكَ الحَديثُ الذي رَواهُ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعودٍ: "خَطَّ رَسولُ اللهِ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قالَ: هذا سَبيلُ اللهِ مُسْتَقيمًا، قالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمينِهِ وَشِمالِهِ، ثُمَّ قالَ: هذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْها سَبيلٌ إِلاّ عَلَيْهِ شَيْطانٌ يَدْعو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: "وَأَنَّ

(1) انظر: ابن ماجة، السنن، باب الأمل والأجل، (4231)، 1414/2.

هذا صِراطي مُسْتَقيمًا فَاتّبِعوهُ وَلا تَتّبِعوا السُّبُلَ"[1].

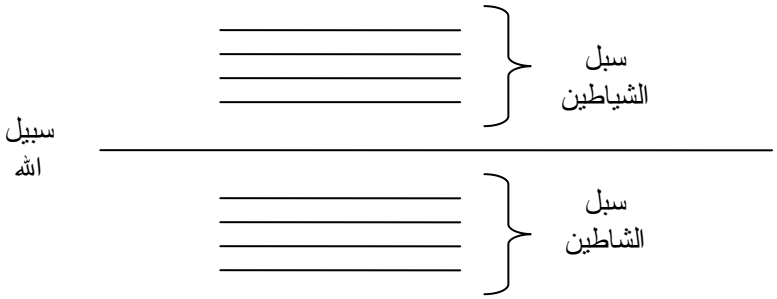

وَفي مِثالٍ آخَرَ مُبينٍ عَمّا أَنا خائِضٌ فيهِ سُئِلَ أبو عَبْدِ اللهِ جَعْفَرُ بنُ مُحَمّدِ بنِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- عَنْ قَوْلِ رَسولِ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لا يَزْني الزّاني حينَ يَزْني وَهُوَ مُؤْمِنٌ"، فَأَبانَ عَنِ المَعْنى المُتَعَيّنِ فيهِ بِالرَّسْمِ عَلى الأَرْضِ، وَهُوَ ما نَتَعارَفُ عَلى تَسْمِيَتِهِ بِالوَسائِلِ التَّوْضيحِيّةِ، فَغَدا المُتَعَيّنُ مِنْهُ مَرْسومًا، فَقَدْ أَدارَ دارَةً كَبيرَةً في الأَرْضِ، وَأَدارَ في وَسَطِها دارَةً صَغيرَةً، وَقالَ: الكَبيرَةُ هِيَ الإِسْلامُ، وَالصَّغيرَةُ هِيَ الإيمانُ، فَإِذا زَنى خَرَجَ في ذلِكَ الوَقْتِ مِنَ الإيمانِ إِلى الإِسْلامِ، فَإِنْ كَفَرَ خَرَجَ مِنَ الدّارةِ الكَبيرَةِ إِلى الشِّرْكِ وَالكُفْرِ"[2].

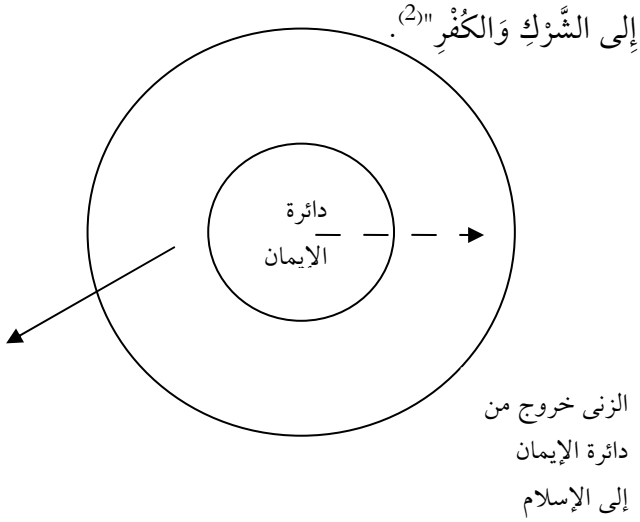

(1) انظر: أحمد بن حنبل، المسند، آخر أحاديث عبد الله بن عباس(4437)، 465/1، والنيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة الأنعام(3241)، 348/2، والبزار، المسند، عاصم بن بهدلة(1718)، 131/5.

(2) انظر: ابن راهويه، المسند(418)، 387/1، والقالي، الأمالي، 173/3.

المَعْنى مُمَثَّلاً:

وَفي تَواصُلٍ حَرَكِيٍّ غَيْرِ لَفْظِيٍّ آخَرَ فاءَ الرَّسولُ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– إِلى عَصاهُ في تَمْثيلِ مَقْصِدِهِ، فَعَقَدَ مُقابَلَةً بَيْنَ حالَتَيْنِ مُقَرِّرًا أَنَّ بَيْنَهما وَجْهَ شَبَهٍ ظاهِرٍ، وَابْتَدرَ أَمْرَهُ بِتَمْثيلِ المَعْنى الذي أَدّاهُ مَرَّتَيْنِ في الحَدَثِ نَفْسِهِ: مَرّةً مُمَثَّلاً بِعَصاهُ، وَأُخْرى مَنْطوقًا بِلَفْظِهِ الشَّريفِ، وَقَدْ ظَهَرَ التّوافُقُ الدِّلالِيُّ بَيْنَ الحَرَكاتِ التَّمْثيلِيّةِ وَما أرادَ أَنْ يوصِلَهُ، وَمِثالُهُ أَنَّهُ "مَرَّ بِشَجَرَةٍ يابِسَةِ الوَرَقِ، فَضَرَبَها بِعَصاهُ، فَتَناثَرَ الوَرَقُ، فَقالَ: الحَمْدُ للهِ، وَسُبْحانَ اللهِ، وَلا إِلهَ إِلاّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَتُساقِطُ مِنْ ذُنوبِ العَبْدِ كَما تَساقَط وَرَقُ هذِهِ الشّجَرَةِ"[1].

المَعْنى مُقَرَّرًا وَمُحَقَّقًا:

وَقَدِ اسْتَعْمَلَ الرَّسولُ المِخْصَرةَ، وَفي بَعْضِ الرِّواياتِ العود، في أحاديثِهِ، وَالمِخْصَرةُ شَيْءٌ يَأْخُذُهُ الرّجُلُ بِيَدِهِ لِيَتَوَكّأَ عَلَيْهِ، مِثْلُ العَصا[2]، وَهُوَ أَيْضًا مِمّا يَأْخُذُ المَلِكُ يُشيرُ بِهِ إِذا خَطَبَ، وَقَدْ قيلَ في ذلِكَ:

يَكادُ يُزيلُ الأَرْضَ وَقْعُ خِطابِهِمْ إِذا وَصَلوا أَيْمانَهمْ بِالمَخاصِرِ[3]

وَقَدْ كانَ المَقْصِدُ مِنْها التّقْريرَ بِالتَّقْديرِ، فَعَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ كانَ في جَنازَةٍ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– عودًا فَجَعَلَ يَنكُتُ في الأَرْضِ، فَقالَ: ما مِنْكمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاّ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النّارِ أَوْ مِنَ الجَنّةِ"[4]. وَقيلَ: "كانَ مَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ"[5].

تَقَلُّدُ السَّيفِ:

وَتَقَلُّدُ السَّيْفِ حَرَكَةٌ تَنْتَسِبُ إِلى بابِ القَوْلِ عَلى المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ، فَقَدْ يُقْصَدُ مِنْها التّزَيّنُ، أَوِ الجِدُّ، أَوِ التّحَوّطُ وَالاحْتِرازُ، أوِ الحَثُّ عَلى الحَرْبِ، وَقَدْ كانَتْ لَها

(1) انظر: الترمذي، السنن، الباب(3533/98)، 544/5.

(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة "خصر".

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة "خصر".

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب القدر، باب "وكان أمر الله قدرا مقدورا"، (1460/827)، 511/4، وكتاب التوحيد، الباب(2349/1249)، 838/4.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، الباب (1376/552)، 562/3.

دِلالاتٌ في الحَديثِ الشَّريفِ مِنْها الشّجاعَةُ وَالإِقْدامُ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ أَنَّهُ قالَ: كانَ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- أَحْسَنَ النّاسِ، وَأَجْوَدَ النّاسِ، وَأَشْجَعَ النّاسِ، فَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدينَةِ لَيْلَةَ سَمِعوا صَوْتًا، فَتَلَقّاهُمُ النَّبِيُّ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- عَلى فَرَسٍ وَهُوَ مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ، فَقالَ: لَمْ تُراعوا، لَمْ تُراعوا"[1].

تَقنّعُ الوَجْهِ:

وَقِناعُ الوَجْهِ مِنَ المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ الحَمّالةِ لِدِلالاتٍ؛ كَالتّسَتُّرِ، أَوِ اتِّقاءِ البَرْدِ، أَوْ غَيْرِ ذلِكَ، وَهذِهِ الحَرَكَةُ أَتاها الرَّسولُ قاصِدًا التّسَتّرَ عَنْ عُيونِ القَوْمِ، فَفي حَديثِ الهِجْرَةِ عَنْ عائِشَةَ أَنَّها قالَتْ: "بَيْنا نَحْنُ جُلوسٌ في بَيْتِنا في نَحْرِ الظَّهيرَةِ، فَقالَ قائِلٌ لأَبي بَكْرٍ: هذا رَسولُ اللهِ مُقْبِلاً مُتَقَنِّعًا في ساعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتينا فيها"[2].

الإِشارَةُ بِالسَّوْطِ:

وَكانَتْ مِنْهُ إِشارَةٌ بِالسَّوْطِ طَلَبًا لِلسَّكينَةِ، وَقَدْ بَدا هذا في حَديثِ ابنِ عَبّاسٍ لَمّا دَفَعَ النَّبِيُّ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يَوْمَ عَرَفَةَ، فَسَمِعَ النَّبِيّ وَراءَهُ زَجْرًا شَديدًا، وَضَرْبًا، وَصَوْتًا لِلإِبِلِ، فَأَشارَ بِسَوْطِهِ إِلَيْهِمْ، وَقالَ: "أَيّها النّاسُ، عَلَيْكُمْ بِالسَّكينَةِ"[3]، وَقَدْ تَقَدَّمَ في بابِ القَوْلِ عَلى "لُغَةِ الجَسَدِ عِنْدَ الجاحِظ" أَنَّه جَعَلَ المَخاصِرَ، وَالعصِيَّ، وَالسِّياطَ، مِنَ المُتَمِّماتِ التي تُؤَدّي مَعانِيَ تَنْضافُ إِلى الأَلْفاظِ؛ إِذْ إِنّ المَخاصِرَ وَالعصِيَّ مِنْ مَرافِقِ الخُطْبَةِ.

وَالحَديثُ عَنِ المُتَمِّماتِ المُسانِدَةِ يَطولُ شَرْحُهُ، وَيَتّسِعُ وَصْفُهُ وَاسْتِجْلاءُ مُثُلِهِ، فَمِنْها الطِّيبُ، وَالتّطَيّبُ المَنْدوبُ الذي كانَ يُداوِمُ عَلى إِتْيانِهِ، فَقَدْ قيلَ في وَصْفِ شَمائِلِهِ الأَثيرَةِ: "وَلا شَمِمْتُ ريحًا قَطُّ، أَوْ عَرْفًا قَطّ، أَطْيَبَ مِنْ ريحِ النَّبِيّ أَوْ عَرفِهِ"[4].

---

(1) انظر: مسلم، الصحيح، باب في شجاعة النبي(2307)، 1802/4، والترمذي، السنن، باب ما جاء في الخروج عند الفزع، (1687)، 199/4.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب اللباس، باب التقنع، (699/435)، 271/4.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الحج، الباب (1557/1056)، 686/1.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، الباب (91/24)، 32/3.

وَكَذلِكَ السِّواكُ الذي قالَ عَنْهُ إنّه مَطْهَرَةٌ لِلفَمِ، مَرْضاةٌ لِلرَّبِّ[1]. وَكَذلِكَ الرَّأْسُ العَصيبُ المُنْبِئُ عَنْ مَرَضٍ أفْضى إلى ظُهورِهِ في تِلكَ الحالِ[2]، وَغَيْرُ ذلِكَ كَثيرٌ لا يَتّسِعُ المَقامُ لَهُ.

الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ بَيْنَ أَداءِ المُرْسِلِ وَتَمْثيلِ الرّاوي الأَمينِ

لَعَلَّ أحَدَنا إذا ما أرادَ أنْ يَنْقُلَ رِسالَةً كَلامِيّةً حُمِّلَها إلى آخَرَ يَحْرصُ عَلى أَدائِها كَما أُريدَ، وَلَعَلَّ الأمانَةَ تَغْدو أثْقَلَ عِنْدَما تَكونُ الرّسالَةُ مُحَمَّلَةً بِحَرَكاتٍ جَسَدِيّةٍ مُشْتَمِلةٍ عَلى إيماءاتٍ، وَدِلالاتٍ حَرَكِيّةٍ، وَتَغْدو الأَمانَةُ أَثْقَلَ وَأَثْقَلَ عِنْدَما يَكونُ المُرادُ تَوْصيلُهُ رِسالَةَ النَّبِيّ الكَريمِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - المُتَمَثِّلةَ في أحاديثِهِ الشَّريفَةِ، وَلِذلِكَ نَهَدَتْ ثُلّةٌ مِنَ الرُّواةِ الأُمَناءِ وَالأَوْصِياءِ، فَنَقَلوا لَنا كَثيرًا مِنَ الأَحاديثِ مُلْتَفِتينَ عَلى نَحْوٍ مُعْجِبٍ، وَعَيْنٍ مُبْصِرَةٍ، إلى حَرَكاتِهِ الشّريفَةِ، وَإيماءاتِهِ، وَشَمائِلِهِ، وَتَعابيرِ وَجْهِهِ، وَيَدِهِ، وَيَدَيْهِ، وَعَيْنِهِ، وَغَيْرِ ذلِكَ، مُقَرِّرينَ سُهْمَتَها في الإبانَةِ، وَالتّواصُلِ؛ ذلِكَ أَنَّ مَفْهومَ الحَديثِ لَمْ يَكُنْ مَقْصورًا عَلى لَفْظِهِ الشَّريفِ فَقَطْ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرى، كانَ الرَّسولُ يَسْتَعينُ بِجَوارِحِهِ، بَلْ كانَ يُحِلُّها مَحَلَّ اللَّفْظِ، فتَكونُ دالّةً كَما اللَّفْظِ، بَلْ أبْلَغَ في مواضِعَ.

لِنَنْظُرْ في ثَلاثَةِ أَحاديثَ:

- "إذْ أَتاني آتٍ فَشَقَّ ما بَيْنَ هذِهِ إلى هذِهِ"[3].
- "...التّقْوى هٰهُنا"[4].
- "ثُمّ قالَ: أَلا أُحَدّثُكُما بِأَشْقى النّاسِ؟ قُلْنا: بَلى يا رَسولَ اللهِ، قالَ: أُحَيْمِر ثَمودَ الذي

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، الباب (114)، 76/2.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الصلاة، الباب(447/321)، 260/1.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، (393/104)، 132/3.

(4) انظر الحديث: أحمد بن حنبل، المسند، مسند أبي هريرة(7714)، 277/2، والنووي، شرح صحيح مسلم، باب تحريم ظلم المسلم، 356/15.

عَقَرَ النّاقَةَ، وَالذي يَضْرِبُكَ يا عَليُّ عَلى هذِهِ، حَتّى يَبلَّ مِنْها هذِهِ"[1].

لَعَلَّ الذي يَظْهَرُ أنّ هذِهِ الأَحاديثَ الشَّريفَةَ في أصْلِها المُتَقادِمِ تَتَرَدّدُ بَيْنَ قُطْبَيْنِ: لَفْظِيٍّ تُسْتَقى مِنْهُ دِلالَةٌ، وَآخَرَ حَرَكِيّ تُسْتَقى مِنْهُ دِلالَةٌ أيْضًا، وَقَدْ كانَ مَنْ حَضَرَ مَجْلِسَهُ الشَّريفَ ذاكَ مُدْرِكًا لِما أَرادَهُ –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ– مُسْتَعينًا عَلى تَعْيينِ المَعْنى المُرادِ بِالسِّياقِ بِمَعْناهُ العَريضِ: الحالِيّ وَالمَقالِيّ، وَلَيْسَ يَخْفى أَنّ حَرَكَتَهُ الجَسَدِيّةَ هِيَ التي عَيَّنَتِ المَعْنى وَخَصَّصَتْهُ، وَلَمّا سارَ الحَديثُ بَيْنَ النّاسِ، وَلَمّا تَناقَلَهُ الرّواةُ، وَلَمّا انْسَلَخَ مِنْ سِياقِهِ الحَيِّ –لَمّا كانَ ذلِكَ كَذلِكَ– كانَ مَبْدَأُ الاعْتِياضِ مَطْلَبًا رَئيسًا مُؤَسِّسًا لِتَعْيينِ الدِّلالَةِ للاّحِقينَ، فَهُمْ لَيْسوا شُهودَ الحَضْرَةِ تِلْكَ، لا وَلا مِنَ الذين عايَنوا حَرَكَتَهُ الشَّريفَةَ التي جاءَتْ لِتَعْيينِ الجِهَةِ وَالمَكانِ، وَلِذا اعْتاضَ الرّاوي في رِوايَتِهِ الحَديثَ عَنِ "الحَرَكَةِ" بِالرِّوايَةِ، فَقالَ مُسْتَدْرِكًا مُجَلِّيًا لِلحَرَكَةِ في الحَديثِ الأَوّلِ: "ما يَعْني بِهِ مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إلى شِعْرَتِهِ"، وَفي الثّاني: "وَأَشارَ بِيَدِهِ إلى صَدرِه ثَلاثَ مَرّاتٍ..."[2]، وَفي الثّالِثِ: وَوَضَعَ يَدَهُ عَلى قرْنِهِ، حَتّى يَبلَّ مِنْها هذِهِ، وَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ"، ولَعَلَّ هذا يُؤْذِنُ بِالوُقوفِ عِنْدَ مَقولَةِ العَرَبِ قَبْلاً، وَابْنِ جِنّي بَعْدًا: "لَيْسَ المُخْبَرُ كَالمُعايِن"؛ ذلِكَ أنّ ثَمَّ أحْوالاً شاهِدَةً بِالقُصودِ، حالِفَةً عَلى ما في النُّفوسِ[3].

وَقَدْ ظَهَرَتْ رِوايَةُ الحَرَكَةِ في الحَديثِ الشَّريفِ بِأَلْفاظٍ مَخْصوصَةٍ أَشْهَرُها:

- "وَقالَ بِكَذا"، وَهِيَ رِوايَةٌ لِلفِعْلِ بِالقَوْلِ، وَرِوايَةٌ لِلحَرَكَةِ بِالكَلِمَةِ، وَلِذلِكَ كَثُرَ قَوْلُ الرّاوي الأَمينِ النّاقِلِ لِلحَرَكَةِ، وَالمُمَثِّلِ لَها بِكَلِماتٍ مِنْ خاصِّ لَفْظِهِ: "فَقالَ بِيَدِهِ"[4]، وَ"قالَ بِرَأْسِهِ"[5]، وَ"قالَ بِإِصْبَعَيْهِ"[6]، وَ"قالَ هَكَذا"[7].

---

(1) انظر: النسائي، السنن الكبرى، ذكر أشقى الناس(8538)، 153/5، وفيض القدير، حرف الهمزة، 99/3.

(2) انظر الحديث: أحمد بن حنبل، المسند، مسند أبي هريرة(7714)، 277/2، والنووي، شرح صحيح مسلم، باب تحريم ظلم المسلم، 356/15.

(3) انظر: ابن جني، الخصائص، 246/2.

(4) انظر: الترمذي، السنن، باب "في أي دور الأنصار خير"، (3910)، 716/5.

(5) انظر: أحمد بن حنبل، المسند، مسند أبي هريرة، (1313)، 290/2.

(6) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الطلاق، الباب(234/158)، 107/4.

(7) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب في اللقطة، الباب(658/426)، 265/2.

- وَمِنْ أَلْفاظِها المُمَثّلَةِ "هكَذا"، وَالمَعْلومُ أَنَّ "هكَذا" مُقَرّرَةٌ لِلهَيْئةِ، مُعيّنَةٌ لِلحالِ، وَمِنْ ذلِكَ "مَرَّ عَلى أَنْفِهِ هكَذا"[1]، وَ"فَجَعَلَ بِها هَكَذا"[2].
- وَمِنْ أَلْفاظِها "هذا"، أَوْ "بِهذا"؛ كَقَوْلِهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ-: "إِنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَلا بِحُزْنِ القَلْبِ، وَلكِنْ يُعَذِّبُ بِهذا، وَأَشارَ إِلى لِسانِهِ"[3].
- وَمِنْ أَلْفاظِها صَريحُ الشَّرْحِ وَالتَّمْثيلِ، كأَنْ يَعمِدَ الرّاوي إِلى شَرْحِ الحَرَكَةِ وَتَمْثيلِها وَتَحْويلِها مِنْ حَرَكَةٍ إِلى مَنْطوقٍ مَوْصوفٍ بِالكَلِماتِ، وَمِنْ ذلِكَ أَنَّ الرَّسولَ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- في خُطْبَةٍ لَمْ يُسْمِعِ النِّساءَ، "فَأَتاهُنَّ وَمَعَهُ بِلالٌ ناشِرًا ثَوْبَهُ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ أَنْ يَتَصَدّقْنَ، فَجَعَلَتِ المَرْأَةُ تُلْقي"[4]، وَالظّاهِرُ أَنَّ المَفْعولَ بِهِ لِـ"تُلْقي" مَحْذوفٌ نُطْقًا، مَذْكورٌ حَرَكَةً وَتَمْثيلاً، وَلَمّا حُمِلَ هذا الحَديثُ، وَأُريدَ نَقْلُهُ وَرِوايَتُه، كانَ لا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ المَفْعولِ بِهِ الذي هُوَ في أَصْلِهِ حَرَكَةٌ جَسَدِيّةٌ، فَلِذلِكَ قالَ الرّاوي: "وَأَشارَ إِلى أُذُنِهِ وَإِلى حَلْقِهِ"[5]، وَالمَعْنى: أَخَذَتِ النِّساءُ تُلْقي الذَّهَبَ الذي هُو في آذانِهِنَّ وَحُلوقِهِنّ.

المُصَنِّفونَ وَلُغَةُ الجَسَدِ

وَقَدْ يَقومُ في النَّفْسِ مُساءَلَةٌ عَنْ دَوْرِ المُصَنِّفينَ في مَظانِّ الحَديثِ في دَرْسِ هذِهِ الظّاهِرَةِ، وَالظّاهِرُ أَنّهُمُ التَفَتوا إِلَيْها كَما الْتَفَتَ الرّواةُ مِنْ قَبْلُ، فَكُلُّ ما ذُكِرَ في هذِهِ الوَرَقَةِ قَليلٌ مِنْ كَثيرٍ، وَهُوَ مَأْخوذٌ مِنْ كُتُبِهِم المُصَنَّفَةِ، وَإِذا ما أُرْجِعَ فيها النّظَرُ؛ أَعْني في الأَحاديثِ التي تَظْهَرُ فيها الحَرَكاتُ وَالإيماءاتُ، فَإِنّها تُقْسَمُ إِلى قِسْمَيْنِ:

الأَوّل: أَحاديثُ اشْتَمَلَتْ عَلى هذِهِ الظّاهِرَةِ عامّةً، وَالحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ خاصّةً، فَأُثْبِتَ كُلُّ حَديثٍ في بابِهِ تَحْتَ عُنْوانٍ يَلُفُّهُ، فَكانَتْ مُفَرَّقَةً في أَبْوابٍ مُتَناثِرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ بِاخْتِلافِ المَوْضوعِ المَعْقودِ لَهُ ذلِكَ العُنْوانُ.

---

(1) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، باب التوبة، (1178/706)، 418/4.

(2) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الوضوء، الباب(137/103)، 134/1.

(3) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الطلاق، الباب(149)، 100/4.

(4) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة، باب العرض في الزكاة، (1355/917)، 611/1.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة، باب العرض في الزكاة، (1355/917)، 611/1.

وَالثّاني أَحاديثُ اشتَمَلَتْ عَلى حَرَكاتٍ جَسَدِيّةٍ فَجُمِعَتْ في قُرْحَةٍ واحِدَةٍ، فَأُثْبِتَتْ تَحْتَ بابٍ ارْتَضى لَهُ المُصنِّفُ عُنْوانًا قائِمًا بِرَأْسِهِ، وَمِنْ ذلِكَ:

- "بابُ الإِشارَةِ في الصّلاةِ"[1].
- وَ"بابُ الإِشارَةِ بِالسّكوتِ"[2].
- وَ"بابُ الإِشارَةِ بِرَدِّ السَّلامِ"[3].
- وَ"بابُ الإِشارَةِ فيما يَنوبُهُ في صَلاتِهِ يُريدُ بِها إِفْهامًا"[4].
- وَ"بابُ الإِشارَةِ" في صَحيحِ البُخاريّ، وَمِنْ ذلِكَ الإِشارَةُ في الطَّلاقِ وَالأُمورِ، وَقَدْ جَمَعَ فيهِ البُخاريُّ نَماذِجَ فاقِعَةَ الدّلالَةِ عَلى هذِهِ الظّاهِرَةِ خاصّةً، وَالبَيانِ بِلا لِسانٍ عامّةً، وَمِنْ ذلِكَ أنَّ الأَخْرَسَ "قَدْ يَقْذِفُ امْرأتَهُ بِكِتابَةٍ، أَوْ إِشارَةٍ، أَوْ بِإيماءٍ مَعْروفٍ، فَهُوَ كَالمُتَكَلّمِ، لأنَّ النّبِيَّ قَدْ أجازَ الإِشارَةَ في الفَرائِضِ"[5]، وَقَد ذَهَبُ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ -كَما يَقولُ البُخارِيُّ- إِلى أنَّ الطَّلاقَ قَدْ يَقَعُ بِكتابٍ، أَوْ إِشارَةٍ، أَوْ إيماءٍ، وَقالَ بَعْضُهُم: إِذا قالَ: أَنْتِ طالِقٌ وَأشارَ بِأصابِعِهِ إِشارَةً تُبينُ مِنْهُ بِإِشارَتِهِ فَقَدْ مَضى الطَّلاقُ، وَقالوا: إِذا كَتَبَ الأَخْرَسُ الطَّلاقَ بِيَدِهِ لَزِمَهُ، وَإِذا قالَ الأَصَمُّ وَالأَخْرَسُ بِرَأْسِهِ جازَ[6].

المَقولاتُ الكُلّيَّةُ

لَعَلّهُ يَسْتَقيمُ بَعْدَ هذا العَرْضِ أنْ يُقالَ إِنَّ في الحَديثِ النّبَوِيّ الشَّريفِ نَمَطًا تَواصُليًّا يُمْكنُ أَنْ يُسَمّى "لُغَةَ الجَسَدِ"، أوِ "التّواصُلَ غَيْرَ اللّفْظِيّ"، وَجُلُّ ما تَقَدّمَ قَبْلاً

(1) ورد هذا الباب في غير مصنف من كتب الحديث، ومن ذلك: البخاري، الصحيح، كتاب السهو، باب "الإشارة في الصلاة"، (1153/785)، 530/1-531، وسنن أبي داود، باب "الإشارة في الصلاة"(75)، 284/1، وسنن الدار قطني، باب "الإشارة في الصلاة"، (2)، 83/2، ومصنف عبد الرزاق، "الإشارة في الصلاة"، 258/2، وعون المعبود، "الإشارة في الصلاة"، 155/3.

(2) انظر: البيهقي، السنن الكبرى، 221/3.

(3) انظر: البيهقي، السنن الكبرى، 258/2.

(4) انظر: البيهقي، السنن الكبرى، 261/2.

(5) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الطلاق، باب (150)، 102/4-103.

(6) انظر: البخاري، الصحيح، كتاب الطلاق، باب (150)، 102/4-103.

مِنْ دِلالاتٍ، وَهَيئاتٍ، وَحَرَكاتٍ، كانَ نَماذِجَ جُزْئِيّةً يُرادُ مِنْها تَجْلِيَةُ هذِهِ الظّاهِرَةِ عامّةً، وَبَيانُ بَعْضِ تَجَلّياتِها في الحَديثِ خاصّةً، وَالذي يَأْتي عَقِبَ ذلِكَ هُوَ المُوَجِّهاتُ الكُلّيّةُ التي تَجْمَعُ نثارَ ما تَقَدّمَ، وَتَجْعَلُهُ كَالعِقْدِ الذي يَنْتَظِمُهُ سِلْكٌ جامِعٌ لأَشْتاتِهِ:

أَوّلُها أنَّ المَبْثوثَ في هذِهِ المُباحَثَةِ الفَرْعِيّةِ قَليلٌ قِلَّةً بالِغَةً مِنْ كَثيرٍ كَثْرَةً ظاهِرَةً، وَالمَقْصِدُ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ التَّعْريفُ بِهذِهِ الظّاهِرَةِ أوّلاً، وَتَلَمّسُها في الحَديثِ النّبَوِيّ الشَّريفِ ثانِيًا، وَالتَّعْريجُ على أَجْلى شَواهِدِها، وَمَواضِعِ تَمَثّلِها فيهِ ثالِثًا، وَبَيانُ فَضْلِها في إِقامَةِ التّواصُلِ، وَالإِبانَةِ، وَالبَيانِ، وَالتَّبْيينِ، رابِعًا.

وَثانيها أنَّ مِنَ الهَيئاتِ الوارِدَةِ في الحَديثِ الشّريفِ عامّةً، وَهذِهِ المُباحَثَةِ خاصّةً ما هُو عالَمِيٌّ يَرينُ عَلَيْهِ إِلْفُ أَبْناءِ البَشَرِ، فَيَعْرِفونَ مَعْناه مَعْرِفَةً جَمْعِيّةً يَنْعقِدُ إِجْماعُهُمْ عَلَيْها، وَمِنْ ذلكَ المَعاني العالَمِيّةُ التي تَظْهَرُ في الوَجْهِ؛ كَالفَرَحِ، وَالحُزْنِ، وَالخَوْفِ، وَغَيْرِ ذلِكَ، وَمِنْها ما خاصٌّ أوْ ما هُوَ مُنْتَسِبٌ إِلى خاصٍّ الخاصِّ، كَالحَرَكاتِ الدّينِيّةِ الحَمّالَةِ لِدِلالاتٍ.

وَثالِثُها أَنَّ مِن الهَيئاتِ الوارِدَةِ في الحَديثِ الشّريفِ عامّةً، وَهذِهِ الوَرَقَةِ خاصّةً ما هُوَ تِلْقائِيٌّ يَظْهَرُ عَلى الجَوارِحِ دونَ تَعَمُّلٍ أوِ اجْتِلابٍ؛ كَالذي رُئِيَ في وَجْهِهِ الشَّريفِ مِنْ مَعاني الفَرَحِ، أَوِ الغَضَبِ، وَأنَّ مِنْها ما هُوَ مُجْتَلَبٌ مُسْتَدْعًى قَصْدًا لِحاجاتٍ في النّفْسِ شَتّى، كَتَشْبيكِ اليَدَيْنِ في رَسْمِ صورَةِ البُنْيانِ المَرْصوصِ، وَما شاكَلَها مِمّا يُعَدُّ مَقْصودًا مُجْتَلَبًا غَيْرَ تِلْقائِيٍّ أوْ فِطْرِيٍّ.

وَرابِعُها أنَّ الرَّسولَ الكَريمَ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَدْ عَوّلَ عَلَيْها في تَواصُلِهِ مَعَ مَنْ حَوْلَهُ، وَقَدْ أَفْضَتْ جَوارِحُهُ الشّريفَةُ بِحَرَكاتٍ مَخْصوصَةٍ إِلى التَّعْبيرِ عَنْ مَقاصِدِهِ، فَكانَتْ ناطِقَةً حينًا، وَمُسانِدَةً لِلمَنْطوقِ حينًا آخَرَ، وَمُجَلّيَةً لَهُ حينًا ثالِثًا، وَقَدْ كانَتْ كَذلِكَ مَصْدرًا مِنْ مَصادِرِ المَعْنى الذي يَقومُ في نَفْسِهِ عِنْدَما كانَ يَقْرَؤُها في إيماءاتِ مَنْ هُوَ أَمامَهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلاً التّمْثيلُ عَلى ذلِكَ كُلِّهِ.

وَخامِسُها التِفاتُ الرُّواةِ الذين نَهَدوا لِحَمْلِ الحَديثِ التِفاتاتٍ مُعْجِبَةً إِلى الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ الصّادِرَةِ عَنِ الرَّسولِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أوْ عَمّنْ كانَ بِحَضْرَتِهِ، وَلِذلِكَ كُلِّهِ كانَ مِنْهُمْ رِوايَةٌ لِلحديثِ الشَّريفِ رِوايَةَ حَرَكَةٍ وَرِوايَةَ لَفْظٍ، فَجَمَعوا في نَقْلِ الأَحاديثِ بَيْنَ رِوايَةِ الكَلامِيّاتِ وَرِوايَةِ الحَرَكِيّاتِ عِلْمًا مِنْهُمْ بِأَنّهُما شِقّانِ مُتَلازِمانِ في الدِّلالَةِ

وَالإِبانَـةِ، وَوَفـاءً بِـالمَعْنى الـذي أَدّاهُ الرّسـولُ بِالسَّـبيلَيْنِ: الصّـائِتِ اللّفظِـيّ، وَالصّـامِتِ الحَرَكِيّ، وَلِذلكَ نَقَلوا الحَرَكاتِ بِخاصّ لَفْظِهِمْ، وَحَوَّلوها مِنْ حَرَكاتٍ مَرْئِيّةٍ مُشاهَدَةٍ في الحَدَثِ الكَلامِيّ الحَيّ إِلى حَرَكاتٍ مَنْطوقَةٍ مَرْسومَةٍ مُمَثَّلَةٍ بِالكَلِماتِ في الحَديثِ المَحْمولِ وَالمَنْقولِ.

وَسادِسُـها التِفـاتُ المُصَـنِّفينَ فـي الحَـديثِ الشَّـريفِ إِلـى الهَيئـاتِ الحَرَكِيّـةِ عامّـةً، وَبـابِ الإِشـارَةِ خاصّـةً، فَعَقَـدَ بَعْضُـهُمْ لَهـا؛ أَعْني الإِشـارَةَ، بابًـا قائِمًـا بِرَأْسِـهِ بَـيْنَ أَبْـوابِ الأَحاديـثِ المَجْموعَـةِ إِشـارَةً مِـنْهم إِلـى أَنَّهـا جُـزْءٌ مِـنَ الحَـديثِ النّبَـوِيّ الشَّـريفِ الـذي يُحْرَصُ عَلى رِوايَةِ حَرَكَتِهِ كَما يُحْرَصُ عَلى رِوايَةِ لَفْظِهِ.

وَسابِعُها أَنَّ هَيئاتِ الجَوارِحِ وَدِلالاتِها الوارِدَةَ في هذِهِ المُباحَثَةِ يُمْكِنُ أَنْ تُسْتَبْطَنَ مِـنْ وُجهـاتٍ مُتَبايِنَـةٍ، وَمِـنْ ذلِـكَ الوجْهَـةُ الدِّلالِيّـةُ، وَالوُجْهـةُ التّواصُـلِيّةُ، وَالوجْهَـةُ التَّشْريعِيّةُ، وَالوجْهَةُ النَّفْسِيّةُ، أَمّا مِنَ الوجْهَةِ الدِّلالِيّةِ فَقَدْ بَدا أَنَّ لِلهَيئاتِ وَظائِفَ مُتَبايِنَةً، فَقَـدْ تَكـونُ رافِـدًا مُعَـزِّزًا لِلمَعْنى المَنْطـوقِ، وَقَـدْ تَكـونُ نائِبًـا أَمينًـا يَقـومُ مَقامَـهُ، فَيُـؤَدّي غَرَضَهُ، وَقَدْ تَكونُ مُؤَكِّدَةً وَمُمَثِّلَةً لِمَعْناهُ المَنْطوقِ بِالمَعْنى المُحَسّ وَالمُمَثَّلِ بِالحَرَكاتِ، وَقَدْ تَكونُ موجِزَةً مُخْتَصِرَةً كَما أَلْمَحَ إِلى ذلِكَ ابنُ أَبي الإِصْبَعِ بِقَوْلِهِ: "هُو أَنْ يَكونَ اللّفْظُ القَليلُ دالاً عَلى المَعْنى الكَثيرِ، حَتّى تَكونَ دِلالَةُ اللَّفْظِ كَالإِشارَةِ بِاليَدِ، فَإِنّها تُشيرُ بِحَرَكَةٍ واحِدَةٍ إِلى أَشْياءَ كَثيرَةٍ لَو عُبِّرَ عَنْها بِأَسْمائِها احْتاجَتْ إِلى عِبارَةٍ طَويلَةٍ، وَأَلْفاظٍ كَثيـرَةٍ، وَالفَـرْقُ بَيْنَـهُ وَبَـيْنَ الإِيجـازِ أَنَّ الإِيجـازَ بِأَلْفـاظِ المَعْنـى المَوْضـوعَةِ لَـهُ، وَأَلْفـاظَ الإِشارَةِ لَمْحَةٌ دالّةٌ، فَدِلالَةُ اللَّفْظِ في الإِيجازِ دِلالَةُ مُطابَقَةٍ، وَدِلالَةُ اللّفْظِ في الإِشارَةِ إِمّا دِلالَةُ تَضَمّنٍ، أَوْ دِلالَةُ الْتِزامٍ"[1]، وَلِذلكَ كُلِّه فَإِنَّ الحَرَكاتِ الجَسَـدِيّةَ وَالهَيئاتِ في هـذا الدَّرْسِ، أَعْني دَرْسَ لُغَةِ الجَسَدِ في الحَديثِ النّبَوِيّ الشَّريفِ عَزَّزَتْ، وَسَـدَّتْ، وَأَكَّـدَتْ، وَشَرَحَتْ، وَمَثَّلَتْ، وَخَصَّرَتْ.

أَمّـا مِـنَ الوُجْهَـةِ التّواصُـلِيّةِ فَقَـدْ بَـدا أَنَّ الحَرَكـاتِ الجَسَـدِيّةَ شَـطْرٌ رَئيسٌ فـي دَرْسِ التّواصُلِ غَيْرِ اللَّفْظِيّ، وَكَثْرَةُ الشَّواهِدِ المَبْثوثَةِ في هذِهِ المُباحَثَةِ تُغْني عَـنْ تَكْرارِها هُنا. أَمّا مِنَ الوُجْهَةِ النَّفْسِيّةِ فَقَدْ كانَتِ الحَرَكاتُ وَالهَيئاتُ الجَسَـدِيّةُ دَوالَّ بَرّانِيّةً عَلى أَحْوالِ

(1) انظر: ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، 82.

أصْحابِها الجَوّانِيّةِ، وَكَواشِفَ عَنْ مَعانٍ مَكْنونَةٍ يُمْكِنُ أنْ يُفْصِحَ المَرْءُ عَنْها إفْصاحَ نُطْقٍ، وَهـذا هُـوَ مِضْـمارُ اللّغَـةِ الصّـائِتَةِ وَالكَلامِيّـاتِ، وَإفْصـاحَ حَرَكَـةٍ، وَهـذا هُـو مِضْـمارُ الصَّـمْتِيّاتِ وَالحَرَكيّـاتِ. أمّـا مِـنَ الوُجْهَـةِ التّشْـريعِيّةِ فَـإنَّ تَلمُّسَ هـذِهِ الهَيئـاتِ، وَتَقْليـبَ النَّظَرِ فيها، في الحَديثِ النَّبَوِيّ الشَّريفِ لَمِنَ الدَّواعي المُقَرّرةِ بِالتَّشريعِ حَلالِهِ وَحَرامِهِ.

وَثامِنُها التَّعْريجُ عَلى مِثالٍ يَكادُ يَكونُ جامِعًا لِجُلِّ ما تَقَدَّمَ مِنْ حَرَكـاتٍ، وَدِلالاتٍ، وَمُتَمِّماتٍ، وَهَيْئاتٍ، وَهُوَ حَديثُ وَفـاةِ الرَّسـولِ صَـلّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، وَقَـدْ أثْبَتُّ بَعْضَ مَعالِمِهِ، وَها أنَذا أجْمَعُ مُتَفَرِّقَهُ، وَأُلَمْلِمُ نثارَه مِنْ صَحيحِ البُخارِيّ عامّةً، أَمّا الحَرَكـاتُ فَقَدْ كانَتْ مِنَ اليَدِ، وَالرَّأْسِ، وَالعَيْنِ، وَالقَدَمِ، وَأمّا الدِّلالاتُ فَمُتَعَدِّدَةٌ، فَالرَّأْسُ الشَّـريفُ قَـدْ سُـئِلَ فَأجـابَ "نَعَـم"، وَالعَـيْنُ طَلَبَـتِ السّـواكَ فَاسْـتُجيبَ لَهـا، وَاليَـدُ أَمَـرَتْ أَبـا بَكْـرٍ بِالمُكْـثِ مَكانَـهُ وَهُـوَ قـائِمٌ يُصَـلّي، وَأمَـرَتْ نِسـاءَهُ -صَـلّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ- أَنْ كَفى فَقَـدْ فَعَلْتُنّ. أمّا الهَيئاتُ فَقَدْ ظَهَرَتْ هَيْئَةُ المِشْيَةِ الدّالّةِ عَلى التّثاقُلِ وَالمَرَضِ، وَهَيْئَةُ النَّظَرِ الشّـاخِصِ الحَديـدِ، وَأمّـا المُتمِّمـاتُ المُسـانِدَةُ فَأجْلاهـا الـرَّأْسُ العَصـيبُ الـدّالُّ عَلـى المَرَضِ، حَقًّا أنَّ هذا السَّرْدَ المُتَقَدّمَ بَيانُهُ يُبَرْهِنُ أنَّ المَعْنى لا يُمْكِنُ أنْ يُؤْخَذَ أوْ يُعَيَّنَ مِنْ دِلالاتِ الأَلْفاظِ فَقَطْ، فَهُناكَ عَناصِرُ أُخْرى تُقَدّمُ مَعانِيَ[1].

(1) انظر: مهدي عرار، ظاهرة اللبس في العربية، 71-83.

الفَصْلُ الثّالِثُ

لُغَةُ الجَسَدِ في أَدبِ العِشْقِ والعُشّاقِ

أَمْثِلةٌ جُزْئِيّةٌ ومُوَجِّهاتٌ كُلّيّةٌ

أَشــارَتْ بِعَينَيهــا إِشــارةَ خــائِفٍ ... حِـذارَ عُيـونِ الكاشِـحينَ فَسَـلَّمتْ
فَـردَّ عَلَيهـا الطَّـرْفُ مِنّـي سَـلامَها ... وَأَوْمــا إِلَيْهــا أَسْــكُني فَتَبَسَّــمتْ
وَأَوْمَـتْ إِلـى طَرفـي يَقـولُ لِطَرفهـا ... بِنا فَوقَ ما تَلقى فَأَشجَتْ وَتَيَّمتْ
فَلَـوْ سُـئِلتْ أَلحاظُنـا عَـن قُلوبِنـا ... إِذنْ لاشْـتَكتْ مِمّـا بِهـا وَتَبرَّمـتْ
وَمـا هكـذا إِلاّ عُيـونُ ذوي الهـوَى ... إِذا خافَـتِ الأَعْـداءَ يَومًـا تَكلَّمَـتْ

ابن داود، الزهرة، 149/1

نالتْ هذِهِ الظّاهِرةُ؛ ظاهِرَةُ العِشْقِ حَظًّا وافِرًا مِنَ التَّصنيفِ وَالتَّأليفِ الذي تَجلّى في ثَلاثةِ ضُروبٍ في تُراثِنا العَرَبِيّ:

أوّلُها الأَخْبارُ المُتفرِّقةُ، وَالشَّذَراتُ المُتناثِرةُ التي كانَ يَأتي عَلَيْها مُصنِّفٌ ما في مُصنَّفٍ لَمْ يُخصَّصْ لهذِهِ الظّاهرةِ، وَمِنْ ذلِكَ "العِقدُ الفَريد"، وَ"أمالي القالِيّ".

وَثانيها ما جادَتْ بِهِ قَرائحُ الشُّعراءِ العُشّاقِ وَالمُشَبِّبينَ الذينَ أَغْنَوا التّراثَ العَربيَّ، وَالحقُّ أنّهمْ كُثْرٌ، وَأَنَّ شِعرَهمْ أَكثرُ، بَلْ صارَ بَعضُهمْ مَضْرِبًا لِلمَثلِ في عِشْقِهِ وَسيرَتِهِ وَما أُثِرَ عَنْهُ مِن أشعارٍ رَقيقَةٍ تُثيرُ كامِنَ الجَوى، وَتُحرِّكُ ساكِنَ الوَجدِ، وَمِنْ هؤلاءِ أبو ذُؤَيبٍ الهُذَليُّ، وَعُروَةُ بنُ حِزامٍ، وَكُثيِّرُ عَزّةَ، وَجَميلُ بُثَينَةَ، وَالعَبّاسُ بنُ الأَحنَفِ، وَقَدْ أَتى عَلى بَعضِهمْ مَروانُ بنُ أَبي حَفصةَ، فَغَدوْا في شِعرِهِ مَضرِبًا مِنْ مَضارِبِ المَثَلِ وَالتَّمْثيلِ[1]:

إنَّ الغَــوانِيَ طالَمــا قَتَّلْنَنــا ... بِعُيــونِهِنَّ وَلا يَــدِينَ قَتــيلا
مِـنْ كُـلِّ آنِسَـةٍ كَـأَنَّ حِجالَهـا ... ضُــمِّنَّ أَحْــوَرَ فــي الكُنــاسِ
أَرْدَيْـنَ عُـروَةَ وَالمُـرقِّشَ قَبْلَـهُ ... وَكَذا أَخا نَهْدٍ تَرَكْنَ جَديلا[2]
وَلقَـدْ تَـركْنَ أبـا ذُؤَيْـبٍ هائِمًـا ... وَلقَــدْ تَــبَلْنَ كُثَيِّــرًا وَجَمــيلا
وَتَـركْنَ لابْـنِ أَبي رَبيعَـةَ مَنْطِقًـا ... فـيهِنَّ أَصْـبَحَ سـائِرًا مَحْمـولا
إلاّ أَكُــنْ مِمَّــن قَــتَلنَ فِــإنَّني ... مِمَّـنْ تَـرَكْنَ فُـؤادَهُ مَخْبـولا[3]

وَثالِثُها المُصنَّفاتُ المُفرَدَةُ لِهذِهِ الظّاهِرَةِ وَأعْلامِها وَحِكاياتِهم وَآثارِهِم عَلى وَجهِ التَّعْيينِ وَالإحكامِ، وَاللاّفِتُ لِلخاطِرِ أَنَّ مِنَ المُصنِّفينَ في هذِهِ الظّاهِرَةِ أَعْلامًا مِنَ العُلَماءِ وَالفُقَهاءِ وَذوي الصّيتِ وَالرِّياسَةِ، وَمِنْهُمْ ابنُ داودَ الظّاهِريُّ(297هـ) صاحِبُ

(1) انظر باب "ذكر من ضرب به المثل من العشاق" عند الشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 11.

(2) أخو نهد هو عبد الله بن العَجلان النهدي الشاعر الجاهلي.

(3) انظر الشعر: المبرد، الكامل، 862/2، والشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 13.

"الزُّهَرة"، وَالخَرائِطيُّ(327هـ) صاحِبُ "اعْتِلال القُلوبِ في أَخْبارِ العُشّاقِ وَالمُحِبّينَ"، وَالسّريُّ الرَّفّاءُ(366هـ) صاحِبُ "المُحِبّ وَالمَحْبوب"، وَالشّيخُ الرّئيسُ ابنُ سينا(428هـ) صاحِبُ "رِسالة في العِشقِ"، وَالحُصْرِيُّ القَيْروانِيُّ(453هـ) صاحِبُ "المَصون في سِرّ الهَوى المَكْنونِ"، وَابنُ حَزْمٍ الفَقيهُ الظّاهِرِيُّ(456هـ) صاحِبُ "طَوق الحَمامَةِ في الأُلفةِ وَالأُلاّفِ"، وَابنُ السَّرّاجِ(500هـ) صاحِبُ مَصارِعِ العُشّاقِ"، وَابنُ الجَوْزيّ"(597هـ) صاحِبُ "أَخْبار النّساءِ"، وَابنُ قَيّمِ الجَوْزِيّةِ(751هـ) صاحِبُ "رَوضَة المُحبّينَ"، وَالشِّهابُ مَحمودٌ الحَلبِيُّ(725هـ) صاحِبُ "مَنازل الأَحْبابِ وَمَنازِهُ الأَلْبابِ"، وَالحافِظُ المُحدِّثُ مُغْلَطاي(762هـ) صاحِبُ "الواضِح المُبين في ذِكرِ مَنِ استُشهدَ مِنَ المُحِبّينَ"، وَابنُ أبي حَجَلةَ(776هـ) صاحِبُ "ديوان الصَّبابَةِ"، وَلِسانُ الدّينِ بنُ الخَطيبِ(776هـ) صاحِبُ "رَوضَة التَّعريفِ بِالحبِّ الشَّريفِ"، وَالبِقاعيُّ إِبراهيمُ بنُ عُمرَ(885هـ) صاحبُ "أَسْواق الأَشْواقِ"، وَالأَنطاكِيُّ داودُ(1008هـ) صاحِبُ "تَزْيين الأَسْواقِ بِتَفصيلِ أَشْواقِ العُشّاقِ".

تَعْريفُهُ:

وَلِلعِشقِ في "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ" تَعريفاتٌ ما كانَ أَكثَرَها، وَالذي يَعْنينا في هذا المَقامِ ما كانَ مُتّصِلاً بِلغَةِ الجَسَدِ بِسَببٍ، أَوْ ضارِبًا فيها بِسَهمٍ، وَالحَقُّ أَنَّ الذي يَقومُ في النَّفْسِ آنَ تَمثُّلِ تِلْكُم التَّعريفاتِ وَاستِشْرافِها هُو أَنَّ لِلغَةِ الجَسَدِ حُضورًا جَلِيًّا في تَعْريفِ العِشْقِ، وَتَمْثيلِ هذا المَفهومِ المَعْنويّ المُجَرَّدِ تَمْثيلاً مُحَسَّا مُشَخَّصًا بِما يَصدُرُ عَنِ الجِسمِ مِنْ حَرَكاتٍ، وَبِما يَظهَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوالٍ وَشَمائِلَ جَسَدِيَّةٍ، وَعَلائِمَ دالّةٍ عَلى عِشقِ مَنْ ظَهَرَتْ فيهِ وَعَليْهِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الأَصمَعِيّ أَنَّهُ قالَ: قُلتُ لأَعْرابِيّةٍ: ما تَعدّونَ العِشْقَ فيكمْ؟ قالتْ: القُبلة، وَالضّمّة، وَالغَمْزَة، ثُمَّ أنشَدتْ تَقولُ:

ما الحُبّ إلاّ قُبلَـةٌ وَغَمزُ كَفٍّ وَعَضُـــدْ

ما الحُبُّ إلاّ هكَذا إِنْ نُكِحَ الحُبُّ فَسَدْ

ثُمَّ قالَتْ: فَكَيفَ تَعدّونَ العِشْقَ فيكمْ؟ قُلتُ: يَقعُدُ بَينَ رِجْلَيْها ، ثُمَّ يُجهِدُ نَفسَه، قالَتْ: يا ابنَ أَخي، ما هذا عاشِقًا، هذا طالِبُ وَلدٍ[1].

(1) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 84.

وفي مَفْهومٍ لِلعِشقِ آخَرَ يَتَجلّى أَنَّ علاماتِهِ ما هي إلاّ جَسَدِيَّةٌ تَشي بِحالِ صاحِبِها، فَعَينٌ باكِيَةٌ، وَأُخْرى مُناجِيةٌ مُتكلِّمَةٌ، وَجِسمٌ نَحيلٌ، وَلِسانٌ أَخْرَسُ لا يطيقُ جَوابًا:

وَلَمّا شَكَوْتُ الحُبَّ قالَتْ كَذَبْتَني أَلَستُ أَرى مِنكَ العِظامَ كَواسِيا
وَما الحُبُّ حَتّى يَلْصَقَ الجِلْدُ بِالحَشا وَتَخْرَسَ حَتّى لا تَجيبَ المُنادِيا
وَتَضْعُفَ حَتّى لا يُبَقّي لَكَ الهَوى سِوى مُقلَةٍ تَبْكي بِها وَتُناجِيا[1]

وَقَدْ ساءَلَ المَأمونُ يَحْيى بنَ أَكثَمَ عَنِ العِشْقِ ما هُو، فَقالَ: سَوانِحُ تَسْنَحُ لِلمَرءِ، فَيَهيمُ بِها قَلبُهُ، وَتُؤثِرُها نَفسُهُ، فَقالَ لَهُ ثُمامَةُ: اسكتْ يا يَحْيى، إِنَّما شَأنُكَ أنْ تُفتيَ في مَسألَةِ طَلاقٍ، أَوْ مُحرَمٍ صادَ ظَبْيًا، أَوْ قَتلَ نَملةً، فَقالَ المَأمونُ: قُلْ يا ثُمامَةَ، فَقالَ: العِشْقُ جَليسٌ مُمتِعٌ، وَأليفٌ مُؤْنِسٌ، وَصاحِبٌ مالِكٌ، وَمَلِكٌ قاهِرٌ، مَسالِكُهُ لَطيفَةٌ، وَمَذاهِبُهُ غامِضَةٌ، وَأحْكامُهُ جائِرَةٌ، مَلَكَ الأَبدانَ وَأرْواحَها، وَالقُلوبَ وَخَواطِرَها، والعُيونَ وَنَواظِرَها، وَالعُقولَ وَآراءَها، وَأعْطى عِنانَ طاعَتِها، وَقِيادَ مُلْكِها، تَوارى عَنِ الأَبْصارِ مَدخلُهُ، وَغمضَ في القُلوبِ ملكه، فَقالَ لَهُ المأمونُ: أحْسنْتَ يا ثُمامةُ، وَأمَرَ لَهُ بِألفِ دينارٍ[2].

وَقَدِ التَمسَ "أَرسطو" تَعْريفًا آخَرَ للعِشقِ، مُبْتدِئًا بِأَنَّهُ حالَةٌ نَفسِيّةٌ تَنشَأُ عَنْها حالَةٌ جَسَدِيَّةٌ واشِيَةٌ بِحالِ صاحِبِها؛ كَالرِّعْدةِ في الأَطْرافِ، وَالصُّفْرةِ في الأَبْدانِ، وَاللَّجْلَجةِ في الكَلامِ، وَمِنْ ذلِكَ ما قيلَ عَنْهُ بِأَنَّ العِشْقَ "جَهلٌ عارِضٌ صادَفَ قَلبًا فارِغًا، دَقَّ عَنِ الأَفْهامِ مَسْلَكُه، وَخَفِيَ عَنِ الأَبصارِ مَوضِعُهُ، وَحارَتِ العُقولُ في كَيفيّةِ تَمكُّنِهِ،...، ثُمَّ يَتغشّى عَلى سائِرِ الأَعْضاءِ، فَيُبْدي الرِّعدةَ في الأَطْرافِ، وَالصُّفرَةَ في الأَبْدانِ، وَاللَّجْلَجَةَ في الكَلامِ، وَالضَّعفَ في الرَّأيِ، وَالزَّلَلَ وَالعثارَ حَتّى يُنسَبَ صاحِبُهُ إِلى الجُنونِ"[3].

---

(1) انظر: ابن داود، الزهرة، 92/1، والرواية مختلفة، والوشاء، الموشى، 78، والسراج، مصارع العشاق، 116/1، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 87/1، وقد نسبه ابن داود إلى أم حمادة الهمدانية، وفي الوساطة للمجنون.

(2) انظر: السراج، مصارع العشاق، 13/1، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 51/1.

(3) انظر: مغلطاي، الواضح المبين، 49، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 53/1.

وَلابنِ حَزْمٍ في "طَوق الحَمامَةِ" مَذهَبٌ في الكَلامِ عَلى ماهِيّةِ الحُبّ، فَأوّلُهُ -كَما يَرى- هَزلٌ، وَآخِرُهُ جِدٌّ، دَقَّتْ مَعانيهِ لِجَلالَتِها عَنْ أَنْ توصَفَ، فَلا تُدرَكُ حَقيقَتُها إلاّ بِالمُعاناةِ، ولَيْسَ بِمُنكَرٍ في الدِّيانَةِ، وَلا بِمَحْظورٍ في الشَّريعةِ؛ إِذِ القُلوبُ بِيدِ اللهِ تَقدَّسَتْ أَسماؤُهُ[1]. وَقَدْ رَأى أَنَّ المَحبَّةَ ضُروبٌ، فَأفضَلُها مَحبّةُ المُتَحابّينَ في اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ إمّا لاجتِهادٍ في العَمَلِ، وَإمّا لاتّفاقٍ في أَصْلِ النِّحْلَةِ وَالمَذْهبِ، وَإمّا لِفَضلِ عِلمٍ يُمنَحُهُ الإِنسانُ، وَمَحبّةُ القَرابَةِ، وَمَحبّةُ الأُلفَةِ وَالاشتِراكِ في المَطالِبِ، وَمَحبّةُ التَّصاحُبِ وَالمَعرِفةِ، وَمَحبّةُ البِرّ يَضَعُه المَرءُ عِندَ أَخيهِ، وَمَحبّةُ الطَّمعِ في جاهِ المَحْبوبِ، وَمَحبّةُ المُتَحابّينَ لِسرٍّ يَجْتَمعانِ عَلَيْهِ يَلزَمُهُما سَترُهُ، وَمَحبّةُ بُلوغٍ لِلَذّةٍ وَقَضاءِ الوَطَرِ، وَمَحبّةُ العِشْقِ التي لا عِلَّةَ لَها إلاّ ما ذَكَره مِنَ اتّصالِ النَّفوسِ[2].

عَلاماتُهُ الجَسَديّةُ:

كَثيرًا ما يَتَكَلّفُ المُمَثّلونَ في أَدائِهِمْ لِمَشْهَدٍ عِشْقِيٍّ حَرَكاتٍ جَسَدِيّةً تُبرِزُ هذا المَعْنى الوُجْدانِيَّ، وَتُحيلُهُ إلى واقِعٍ مَرْئِيٍّ مُشَخَّصٍ بِالحَرَكاتِ، وَالإيماءاتِ، وَالهَيْئاتِ، فَيُسَبِّلونَ العُيونَ، وَيَتَصاغَرونُ أَمامَ المَعْشوقِ، وَيُميلونَ الرَّأْسَ تَلَطُّفًا وَتَدَلُّلاً، وَبِالجُمْلَةِ فَإِنّهُمْ يُبْرِزونَ هذا المَعْنى لِلنَّظارَةِ إِبْرازًا سَبيلُهُ لِسانُ الحالِ وَالمَقالِ، جامِعينَ بِذلِكَ بَيْنَ رافِدَيِ المَعْنى الرَّئيسَيْنِ: الصّامِتِ وَالصّائِتِ، لِلإبانَةِ عَنِ المَعْنى العِشْقِيِّ المُرادِ عَرْضُهُ عَلى خَشَبةِ المَسْرَحِ، أَوْ بَثُّهُ في نُفوسِ النَّظّارَةِ، وَلإقامَةِ الدَّلائِلِ وَالعَلائِمِ عَلى ذلِكَ العِشْقِ في مَشْهَدِ التَّمْثيلِ، وَمَسْرَحِ التَّخْييلِ.

وَقَدْ جاءَ في أَخْبارِ "طَوق الحَمامَةِ" أَنَّ ابنَ حَزْمٍ كانَ يَومًا بِالمَريّةِ قاعِدًا في دُكّانِ إِسْماعيلَ بنِ يونُسَ الطَّبيبِ الإِسرائيلِيِّ، وَكانَ الأَخيرُ بَصيرًا بِالفِراسَةِ، مُحْسِنًا لَها، فَقالَ لَهُ أَحَدُ أَهْلِ تِلْكَ الحَضْرةِ: ما تَقولُ في هذا؟ وَأَشارَ إلى رَجلٍ مُنْتَبِذٍ عَنْهُمْ ناحِيةً، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ساعَةً يَسيرَةً ثُمَّ قالَ: هُو رَجلٌ عاشِقٌ، فَقالَ لَهُ: صَدَقتَ، فَمِنْ أَينَ قُلتَ هذا؟ قالَ: لِبَهْتٍ مُفْرِطٍ ظاهِرٍ عَلى وَجهِهِ فَقطْ دونَ سائِرِ حَرَكاتِهِ"[3].

---

(1) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 6-7.

(2) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 8-9.

(3) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 20.

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ الحِكايَةُ التي ساقَها الشِّهابُ الحَلبِيُّ عَنْ فِراسَةِ هَوْذَةَ بنِ عَليٍّ، فَقَدْ دَعا فِتيانَ قَومِهِ، فَلمّا مَثلَوا بَيْنَ يَديْهِ صُفوفًا، وَازْدَحَموا عَلَيْهِ عُكوفًا، أَذِنَ بِانبِساطِهِمْ وَتَآنُسِهِمْ، فَلمَحَ فيهِمْ فَتًى يَنطِقُ طَرْفُه بِظَرْفِه، "إلاّ أنّه ناحِلُ البَدَنِ، ذابِلُ الشَّفَةِ، غائِرُ العَيْنَيْنِ، مُتَتابِعُ النَّفَسِ، شاحِبُ اللَّوْنِ، فَعَرَفَ بِالفِراسةِ أنّهُ عاشِقٌ..."[1].

وَالظّاهِرُ مِنْ تَيْنِكَ الحادِثَتَيْنِ المَسوقَتَيْنِ أَنَّ عَلائمَ جَسَدِيَّةً مَخْصوصَةً أَفْضَتْ بِصاحِبِ الفِراسةِ إِلى أنْ يَتوسَّمَ بِأَنَّ ذاكَ عاشِقٌ، وَهذا مُؤْذِنٌ –مِنْ وُجْهَة أُخْرى– بِالتَّقْريرِ بِأَنَّ العُشّاقَ تَظهَرُ عَليْهِمْ عَلاماتٌ جَسَدِيَّةٌ مَخْصوصَةٌ يَقْفوها الفَطِنُ، وَيَهْتدي إِلَيْها الذّكِيُّ، فَتكونُ تِلْكَ العَلاماتُ حَمّالَةً لمَعانٍ وَقِيمٍ تواصُليّةٍ يَصْدقُ عَلَيْها قَوْلُ العَبّاسِ بنِ الأَحْنَفِ:

حَتّى إِذا اقتَحَمَ الفَتى لُجَجَ الهَوى جاءَت أُمورٌ لا تُطاقُ كِبارُ
وَإِذا نَظَرْتَ إِلى المُحِبِّ عَرَفتَهُ وَبَدَت عَلَيْهِ مِنَ الهَوى آثارُ[2]

وَقَولُهُ:

أُخفي الهَوى وَهْوَ لا يَخَفى عَلى أَحَدٍ إِنّي لَمُستَتِرٌ في غَيْرِ مُستَتَرِ[3]

وقَوْلُ أبي نُواسٍ:

عَلامَةُ العاشِق في وَجهِهِ هَذا أَسيرُ الحُبِّ مَكتوبُ[4].

وقَوْلُ قَيْسِ بْنِ ذَريحٍ:

نَهاري نَهارُ الوالِهينَ صَبابَةً وَلَيْلي تَنْبو فيهِ عَنّي المَضاجِعُ
قَدْ كُنتُ قَبْلَ اليَومِ خِلْوًا وَإِنَّما تُقَسَّمُ بَينَ الهالِكينَ المَصارِعُ
وَلِلحُبِّ آياتٌ تَبَيَّنُ بِالفَتى شُحوبٌ وَتَعْرى مِنْ يَديْهِ الأَشاجِعُ[5]

وقَوْلُ آخَرَ:

وَإِذا نَظَرْتَ قَرَأتَ بَينَ عُيونِنا سِمةَ الهَوى هذا حَبيبُ حَبيبِ[6].

---

(1) انظر: الشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 194.
(2) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 139.
(3) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 141.
(4) انظر: أبو نواس، ديوانه، 63.
(5) انظر: الأنطاكي، تزيين الأسواق، 152/1.
(6) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 261.

وَقَدْ أتى عَلى هذا المَطلَبِ الخَرائِطيُّ في "اعْتِلال القُلوبِ" مُفْرِدًا لَهُ بابًا ارْتَضى لَهُ اسمَ "دِلالَة المَحبّةِ وَشَواهِدها"[1]، وَالحَقُّ أَنَّ جُلَّ الشَّواهِدِ المُقَرِّرةِ بِالمَحبّةِ في "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ" إِنَّما هِيَ علائِمُ جَسَدِيَّةٌ تَواصُليّةٌ دالّةٌ، وَمِنْ أَهَمِّ تَجلّياتِها العَيْنُ المُتكلِّمَةُ التي هِيَ أَداةٌ رَئيسَةٌ مِنْ أَداوتِ التَّراسُلِ وَالتَّواصُلِ في "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ"، وَقَدْ مَثَّلَ عَلى ذلِكَ بِمُثُلٍ مُتعَدِّدةٍ، وَمِنْها أَنَّ رَجُلاً قالَ: رَأيتُ رَجُلاً يَسْعى بَينَ الصَّفا وَالمَروَةِ وَهُوَ يَقولُ:

فَيا حَبَّذا سَعْيي إِلَيْها مُكاتِمًا عَلى خِفْيَةٍ مِنْ حاسِدٍ وَمَراقِبِ
وَاللهِ لا أَنْسى تَكاتُمَنا الهَوى إِذا ما جَلَسْنا بَينَ لاحٍ وَكــاذِبِ
يُخاطِبُها طَرْفي فَيَفْهَمُ طَرْفُها وَلَيْسَ لَنا لَفظٌ بِغَيرِ الحَواجِــبِ

"فَقلْتُ: يا هذا، وَما للهِ حَجَجْتَ! قالَ: وَهَلِ الحَجُّ إِلاّ لَهُ، وَلكِنّها فَيضَةُ صَدرٍ، بَحرٌ مِنَ الحُبِّ ما رَكِبَ فيهِ أَحَدٌ إِلاّ غَرِقَ، فَاعْذرْ مَنْ لَوِ ابْتُليتَ بِدائِهِ عَذَرَكَ، وَالله يا هذا، لقَدْ وَصَلَ إِلى قَلْبي مِنْ ذِكرِ لَذّةِ مَنْ أُحِبُّ في هذا المَوْضِعِ ما لَمْ يُوصِلْه إِليْه شَيءٌ مِنَ النّعيمِ، وَلَوْ خَلدتُ في نَعيمِ الدّنْيا كُلِّها إِلى انْقِضائِها، ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْهِ ساعَةً، ثُمَّ أفاقَ فَقلتُ: ما أَحَلَّ بِكَ ما أَرى؟ قالَ: تَوَهَّمْتُها جالِسَةً مَعي كَعادَتِها، ثُمَّ ذَكَرَتِ النَّوى فَأصابَني ما رأيتَ، هذا لِذِكْرِها عَلى البُعدِ، فَكَيفَ تَظُنّني وَالشّعبُ مُلتَئِم؟ قُلتُ: أَظنُّ أَكْثرَ مِنْ هذا؟ قالَ: إِي وَاللهِ بِما لا يُحصيهِ إِلاّ الرّبُّ تَبارَكَ وَتَعالى، قُلتُ: وَما يُبكيكَ وَهذا فَرَحُكَ؟ قالَ: أَخافُ انْقِطاعَ المُنى قَبْلَ اللِّقاءِ، فَعَذرْتُهُ عَلى الأَمْرِ، ثُمَّ انْصَرَفتُ وَأنا لَهُ راحِمٌ"[2].

وَقَدْ أَتى عَلى شَواهِدِ المَحبَّةِ وَعَلائِمِها الأَنطاكِيُّ فَقَسّمَها قِسمَينِ اثْنَينِ: أَوّلُهُما أَحْوالٌ يَتّصِفُ بِها البَدنُ، وَذلِكَ نَحو تَغيّرِ الأَلوانِ، وَالعَينَيْنِ، وَتَواترِ النَّبضِ، وَالخَفَقانِ، وَاعتِقالِ اللِّسانِ، وَربَّما ازْدادَتْ هذِهِ الأَعْراضُ عِندَ رُؤيَةِ المَحْبوبِ أَوْ سَماعِهِ، وَثانيها أَحْوالٌ يَتّصِفُ بِها الفِكرُ، كَفَسادِ الذِّهنِ وَما يُشاكِلُه أَوْ يَنْشأُ عَنْه[3].

(1) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 216.
(2) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 218.
(3) انظر: الأنطاكي، تزيين الأسواق، 66/1.

أَمّا ابنُ حَزْمٍ فقَدْ كانَ مِنْ أَكْثَرِ الذين طَرَقوا هذا البابَ، وَأَوْسَعوا فيهِ القَولَ، وَقَدْ رَصَدَ لِلمَحَبّةِ عَلاماتٍ واشِيَةً بِها[1]، وَالذي يَعْنينا في هذا المَقامِ ما كانَ مُنْتَسِبًا إِلى "لُغَةِ الجَسَدِ" انْتِسابًا دِلالِيًّا وَتَواصُلِيًّا، فَمِنْها النَّظْرَةُ وَهَيئَتُها، وَالخُشوعُ، وَالإِقْبالُ بِالوَجْهِ عَلى المَعْشوقِ، وَالإِنصاتُ لَهُ، وَالإِسراعُ بِالسَّيرِ نَحوَهُ، وَالتَّباطُؤُ في القِيامِ عَنْهُ، وَالحُمرَةُ التي تَتَجلّى في الوَجهِ، وَالنُّحولُ، وَالبُكاءُ، وَالسَّهَرُ.

وَالظّاهِرُ أَنَّ بَعْضَ تِلكَ العَلاماتِ الجَسَدِيّةِ قَدْ غَدَتْ صُوَرًا مُتَوارَثَةً يَتَلَقّفُها الشُّعراءُ، وَيُتابِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فيها، وَقَدْ لا يَكونُ لَها أَصْلٌ في الحَقيقَةِ وَلا وَجْهٌ، فَضْلاً عَنْ كَوْنِها خارِجَةً عَنْ حَدِّ المَعْقولِ، وَإِنّما صارَتْ سَمْتًا أُسْلوبِيًّا مُتَّبَعًا، وَمِنْ ذلِكَ النُّحولُ، وَالبُكاءُ، وَالسَّهَرُ، وَقَدِ الْتَفَتَ ابْنُ حَزْمٍ إِلى مَجازِيّةِ هذِهِ الصُّوَرِ الجَسَدِيّةِ أَحْيانًا، فَقالَ: "مِثْل الإِفْراطِ في صِفَةِ النُّحولِ، وَتَشْبيهِ الدّموعِ بِالأَمْطارِ، وَأَنّها تَرْوي السّفارِ، وَعَدَمِ النَّوْمِ البَتَّةَ، وَانْقِطاعِ الغِذاءِ جُمْلَةً، إِلاّ أَنَّها أَشْياءُ لا حَقيقَةَ لَها، وَكَذِبٌ لا وَجْهَ لَهُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ حَدٌّ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا"[2].

أَمّا تَفصيلُ عَلاماتِ العِشْقِ عِندَ ابنِ حَزمٍ فَعَلى النَّحْوِ الآتي:

أَوّلُ عَلاماتِ المَحبّةِ الجَسَديّةِ إِدْمانُ النَّظَرِ، وَقَدْ فَسَّرَ ذلِكَ تَفْسيرًا نَفْسِيًّا وَتَواصُلِيًّا فَقالَ: "وَالعَيْنُ بابُ النَّفْسِ الشّارِعِ، وَهِيَ المُنَقِّبَةُ عَنْ سَرائِرِها، وَالمُعبّرَةُ لِضَمائِرِها، وَالمُعْرِبَةُ عَنْ بَواطِنِها، فَتَرى النّاظِرَ لا يَطرفُ، يَتَنَقّلُ بِتَنقّلِ المَحْبوبِ، وَيَنْزوي بِانزِوائِهِ، وَيَميلُ حَيْثُ مالَ كَالحِرباءِ مَعَ الشَّمْسِ"[3]، وَفي ذلِكَ قالَ شِعرًا:

فَلَيْسَ لِعَيْني عِندَ غَيْرِكِ مَوْقِفٌ كَأَنَّكِ ما يَحْكونَ مِنْ حَجَرِ البَيْتِ

أُصَرِّفُها حَيْثُ انْصَرَفْتُ وَكَيْفَما تَقَلَّبْتُ كَالمَنْعوتِ في النَّحْوِ وَالنَّعْتِ[4]

وَقَدْ وَرَدَ عَلى هذا المَعْنى الشّعراءُ العُشّاقُ كَثيرًا، فَأَثْبَتوهُ في أَشْعارِهِمْ، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُ العَبّاسِ بنِ الأَحْنَفِ:

---

(1) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 13-20، ونقلها عنه مغلطاي في الواضح المبين، 105-119.

(2) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 148.

(3) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 13.

(4) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 13.

يا مَن يُسائِلُ عَن وَجْدي لأُظْهِرَهُ إِنَّ المُحِبَّ لتَبْـدو مِنـهُ أَسْـرارُ
فَاسْمَعْ مُناقَلَتي وَانْظُرْ إِلى نَظَري إِنْ كانَ مِنْكَ لِما في الصَّدْرِ إِنْكارُ[1]

وَمِثْلُ ما تَقَدَّمَ آنِفًا قَوْلُ العَبّاسِ بنِ الأَحْنَفِ أيْضًا:

يَدُلُّ عَلى ما بِالمُحِبِّ مِنَ الهَـوى تَقَلَبُ عَيْنَيهِ إِلى شَخْصِ مَنْ يَهـوى
وَإِنْ أَضمَرَ الحُبَّ الَّذي في فُؤَادِهِ فَإِنَّ الَّذي في العَيْنِ وَالوَجْهِ لا يَخْفى[2].

وَقَولُ ابْنِ الدُّمَيْنَةِ:

أَفـي كُـلِّ يَـوْمٍ أَنْـتَ رامٍ بِلادَهـا بِعَيْنَـيْنِ إِنْسـاناهُما غَرِقـانِ
إِذا اغْرَوْرَقَت عَينايَ قَالَ صَحابَتى لَقَـدْ أُولِعَـتْ عَينـاكَ بِـالهَمَلانِ[3]

وَصَفوَةُ المُسْتَخلَصِ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ قَوْلُ الخَرائِطِيِّ: "لَوْ لَمْ يَكنْ لِلمُحبّينَ شَهيدٌ عَلى أَنْفُسِهِمْ فيما يَدَّعونَ مِنَ المَحبّةِ إِلاّ مَلاحظةَ أَبْصارِهِم في اسْتِدراكِهِم مَواجيدَهمْ لَكَفاهُمْ"[4].

وَمِنْ عَلاماتِه الإِقْبالُ بِالحَديثِ، فَما يَكادُ يُقبِلُ عَلى سَوى مَحْبوبِهِ وَلَوْ تَعمَّدَ غَيرَ ذلِكَ، وَإِنَّ التَّكلُّفَ لَيَستَبينُ لِمَنْ يَرمُقُهُ فيهِ.

وَمِنْها الإِسراعُ بِالسَّيرِ نَحوَ المَكانِ الذي يَكونُ فيهِ، وَالتّعمّدُ لِلقُعودِ بِقُربِهِ، وَالدّنْوُ مِنهُ، وَالتّباطُؤُ في المَشي عِندَ القِيامِ عَنْهُ، وَقَدْ قالَ في ذلِكَ شِعْرًا:

وَإِذا قُمـتُ عَنـكَ لَـمْ أَمْـشِ إِلاّ مَشْيَ عانٍ يُقادُ في نَحوِ الفَناءِ
في مَجيئي إِلَيْكَ أَحْتَثُّ كالبَدْ رِ إِذا كـانَ قاطِعًـا لِلسَّـماءِ
وَقِيامي إِنْ قُمتُ كَالأَنْجُمِ العا لِيَـةِ الثّابِتـاتِ فـي الإِبْطـاءِ[5]

وَمِنْها بَهْتٌ يَقعُ، وَرَوعَةٌ تَبدو عَلى المُحِبّ عِنْدَ رُؤيَةِ مَنْ يُحبُّ فَجْأَةً، وَطُلوعِهِ بَغتَةً.

---

(1) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 132.
(2) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 18.
(3) انظر: ابن الدمينة، ديوانه، 31، والبيت الأول في ديوان عروة بن حزام، 34.
(4) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 217.
(5) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 13.

وَمِنْها اضطِرابٌ يَبْدو عَلى المُحِبّ عِنْدَ رُؤيَةِ مَنْ يُشبِهُ مَحبوبَهُ أَوْ عِنْدَ سَماعِ اسمِهِ فَجْأَةً، وَقَدْ وَرَدَ عَلى هذِهِ العَلامَةِ العُشّاقُ مِنَ الشُّعراءِ، فَقالَ أبو صَخرٍ الهُذَليُّ:

وَإنّي لَتَعْروني لِذِكْراكِ هِزَّةٌ كَما انْتَفَضَ العُصفورُ بَلّلهُ القَطْرُ
فَما هُو إلاّ أَنْ أَراها فُجاءَةً فَأُبْهَت لا عُرْفٌ لَـدَيّ ولا نُكْـرُ[1]

وَقالَ عُروَةُ بنُ حِزامٍ:

وَإنّي لَتَعْروني لِذِكْراكِ رِعْدَةٌ لَها بَيْنَ جِسْمي وَالعِظامِ دَبيبُ
وَما هُوَ إلاّ أَنْ أَراها فُجـاءَةً فَأُبْهَت حَتّى ما أَكادُ أُجِيبُ[2]

وَقالَ عُمرُ بنُ أَبي رَبيعَةَ:

وَإنّي لَتَغْشاني لِذِكْرِكِ رَوْعَةٌ يَخِفُّ لَها ما بَيْنَ كَعْبي إلى قَرْني[3]

وَمِـنْ عَلاماتِـهِ وَشَـواهِدِهِ الظّـاهِرَةِ لِكُـلّ ذي بَصـرٍ المُجاذَبَـةُ عَلـى الشَّـيءِ يَأخـذُهُ أحَدُهُما، وَكَثرَةُ الغَمزِ الخَفِيّ، وَالمَيلُ بِالاتّكاءِ، وَتَعمّدُ لَمْسِ اليَدِ عِنْدَ المُحادَثَةِ، وَلَمْسُ ما أمْكَنَ مِنَ الأَعْضاءِ الظّاهِرةِ، وَالإِطْراقُ وَشِدّةُ الانْفِلاقِ، فَبينَما هو طَلَقُ الوَجْهِ، خَفيفُ الحَرَكاتِ صار مُنطَبِقًا مُتَثاقِلاً، حائِرَ النَّفْسِ، جامِدَ الحَرَكةِ، يَبْرَمُ مِنَ الكَلمَةِ، وَيَضْجَرُ مِنَ السُّؤالِ.

وَمِنْ علاماتِهِ نُحولُ الجِسمِ وَالحَقُّ أَنَّ مِثلَ هذِهِ العَلامَةِ في "أدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ" مُتَكاثِرةٌ، وَالأَثَرَ بِها مُستَفيضٌ، وَقَدْ غَدَتْ سَمْتًا تَصْويرِيًّا مَجازِيًّا في شِعْرِ العُشّاقِ، وَقَدْ عقَدَ ابنُ داودَ لَها بابًا قائِمًا بِرأسِهِ سَمّاهُ "نُحول الجَسَدِ مِنْ دَلائِلِ الكَمدِ"، وَقَدْ ساقَ فيهِ نُتَفًا مِنَ الأَشْعارِ التي خاضَتْ في هذِهِ الظّاهِرةِ، وَقَدِ اسْتَفتَحَ هذا البابَ بِكلامٍ يُفسّرُ فيهِ صِحّةَ هذا القَوْلِ مِنْ جِهةِ الطّبِّ[4]، ومِمَّنْ أتى عَلى هذِهِ العَلامَةِ مِنَ الشّعَراءِ:

ابْنُ الدُّمَيْنَةِ في قَوْلِهِ:

---

(1) انظر الشعر: الأصفهاني، الأغاني، 107/24، وفيه: "لتعروني فترة"، والبغدادي، خزانة الأدب، 254/3.

(2) انظر: عروة بن حزام، ديوانه، 22، والأصفهاني، الأغاني، 132/24، ومغلطاي، الواضح المبين، 283.

(3) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 402.

(4) انظر: ابن داود، الزهرة، 400/1.

خَليلـيَّ مَكْنـونُ الهَـوى صَـدَعَ الحَشـا كَيـفَ بمَكْنـونِ الهَـوى تَرَيـانِ
بَرَى الحُبُّ جِسْمى غَيْرَ جُثمانِ أَعْظُمي بَلِيـنَ وَإنّـي نـاطِقٌ بِلِسـاني[1]

والعَبّاسُ بنُ الأَحنَف:

إِنَّمـا أَبْكـي عَلـى جَسَـدٍ دْ بَـراهُ الشَّـوْقُ وَالكَمَـدُ[2]

وَكَذلِكَ قَولُهُ:

حَتّى بَرى جِسْمي هَواكِ فَما تُرى إِلاّ عِظامٌ يُبَّسٌ وَجُلودُ[3].

وَعُمرُ بنُ أَبي رَبيعَةَ:

مـا كُنْـتُ أَحسَـبُ أَنَّ حُبًّـا قـاتِلي حَتّـى بُليـتُ بِمـا بَـرى جِسْـمي
أَوْرَثتِنـي داءً أُخـامِرُهُ أَسْـماءُ بَـزَّ اللَّحْـمَ عَـنْ عَظْمـي[4]

وَبشّارُ بنُ بُرْدٍ:

كَفـى خَليلَـيَّ هَـوًى شَـفَّني لا يَعْـدَمُ النّاصِـحُ أَنْصـاحا
قـولا لِمَـنْ لَـمْ تَرَيـا مِثلَـهُ فـي مَحْفِـلٍ جِسْـمًا وَأَلْواحـا[5]

وَأبو نُواسٍ:

جِنـانُ أَضْـنى جَسَـدي حُـبُّكُمْ فَلَيْـسَ إِلاّ شَبَـحٌ قـائِمُ
وَلَـيْسَ لـي جَيْـبُ قَمـيصٍ وَلا يَثْبُـتُ فـي خِنْصَـرِيَ الخـاتَمُ[6]

وَصَريعُ الغَواني:

سَـلَبَ الهَـوى عَقْلـي وَقَلْبـي عَنْـوَةً لَـمْ يُبْـقِ مِنّـي غَيْـرَ جِسْـمٍ شـاحِبِ[7]

وَابنُ الفارِضِ:

---

(1) انظر: ابن الدمينة، ديوانه، 32.
(2) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 116.
(3) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 130.
(4) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 365.
(5) انظر: بشار بن برد، ديوانه، 268.
(6) انظر: أبو نواس، ديوانه، 563.
(7) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 185.

قُـلْ تَرَكْـتُ الصَّـبَّ فـيكُمْ شَـبَحًا ... مـا لَـهُ مِمّـا بَـراهُ الشَّـوْقُ فَـيّ
خافِيًـا عَـنْ عائِـدٍ لاحَ كَمـا ... لاحَ فـي بُرْدَيْـهِ بَعْـدَ النَّشْـرِ طَـيْ
صـارَ وَصْـفُ الضّـرِّ ذاتِيًّـا لَـهُ ... عَـنْ عَنـاءٍ وَالكَـلامُ الحَـيُّ لَـي
كَهِـلالِ الشّـكِّ لَـوْلا أَنَّـهُ ... أَنّ عَيْنـي عَيْنـهُ لَـمْ تَتَـأَيْ[1]

وَمِـنْ عَلاماتِـهِ فـي "أَدَبِ العِشْـقِ وَالعُشّـاقِ" القَلَـقُ وَالاضـطرابُ النّاشِـئُ عَـنْ أَحَـدِ أَمْرَيْنِ: أَحَدُهما عِنْدَ رَجائِهِ مَلْقاةَ مَنْ يُحبُّ، فَيَعرِضُ عِنْدَ ذلِكَ حائِلٌ، فَيَصيرُ العاشِقُ قَلِقًا مُضطرِبًا جائِيًا وَذاهِبًا لا يَقرُّ بِهِ قَرارٌ، وَلا يَثبُتُ في مَكانٍ واحِدٍ، مُقْبِلاً مُدْبِرًا قَدِ اسْتَخَفّهُ السُّرورُ بَعْدَ رَكانةٍ، وَأَشاطَهَ بَعْدَ رَزانَةٍ[2]، وَالثّاني عِنْدَ حادِثٍ يَحدُثُ بَيْنَهُما مِنْ عِتابٍ لا تُدْرى حَقيقَتُهُ إِلاّ بِالوَصْفِ، وَقَدْ تَجَلّى هذا المَعْنى في قَولِ إِبْراهيمَ المَوْصِلِيّ في ذاتِ الخال، فقَدْ قيلَ لَها زَعْمًا بِأَنَّ حَبيبَها أَتاها مُعْرِضًا، فَلَمْ تَرَ في ذلِكَ ضَيْرًا؛ لأَنّها تَمْلِكُ ما يُؤَرِّقُهُ وَيُقْلِقُهُ وَيُفْضي إِلى اصْطِكاكِ قَدَمَيْهِ:

وَقـالوا لهـا: هـذا حَبيبُـكِ مُعرِضًـا ... فَقالَـتْ: أَلا إِعْراضُـهُ أَيْسَـرُ الخَطْـبِ
فَمَـا هـيَ إِلاّ نَظْـرَةٌ بِتَبَسُّـمٍ ... فَتَصْـطَكُّ رِجْـلاهُ وَيَسْـقُطُ لِلجَنْـبِ[3]

وَمِنْ عَلاماتِهِ السَّهرُ الذي هُو مِنْ أَعْراضِ المُحِبّينَ، وَقَدْ أَكْثَرَ الشّعراءُ في وَصفِهِ، وَحَكَوْا أَنّهمْ رُعاةُ الكَواكِبِ، وَواصِفو طولِ اللّيلِ، وَقَدْ أَفْرَدَ لَهُ ابنُ داودَ في "الزُّهرة" بابًا خاصًّا سَمّاهُ "مَنْ قَصرَ نَومُهُ طالَ لَيلُهُ"[4]، وَكَذلِكَ فَعلَ الخَرائِطيُّ في "اعْتلال القُلوبِ" في بابِ "ذِكر الاستِراحةِ إِلى البُكاءِ وَالعَجزِ عَنْ حَملِ الهَوى"[5].

وَمِـنْ أَعْراضِـهِ الجَـزَعُ الشَّـديدُ، وَالحُمـرةُ المُقطَّعـةُ تَغلـبُ عِنْـدَما يُـرى مِـنْ إِعْـراضِ مَحْبوبِهِ عَنْهُ، وَنِفارِهِ مِنْه[6].

وَمِنْ علاماتِهِ الزَّفيرُ، وَقِلّةُ الحَرَكةِ، وَالتّأوّهُ، وَتَنفّسُ الصّعداءِ، وَقَدْ وَقَفَ عِنْدَ هذِهِ

(1) انظر: عمر بن الفارض، ديوانه، 199.
(2) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 18.
(3) انظر: ابن داود، الزهرة، 79/1، والسراج، مصارع العشاق، 306/1.
(4) انظر: ابن داود، الزهرة، 382/1.
(5) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 288.
(6) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 18.

العَلاماتِ الجَسَدِيَّةِ المُنْبِئةِ عَنْ عِشقِ صاحِبِها ابنُ داودَ في "الزُّهرة"، فَلِلْهَوى "دِلالاتٌ تَتَبيّنُ في الزَّفَراتِ، وَاللَّونِ، وَالنَّظَرِ، وَالإشاراتِ،...، وَمُفتَقِدُها أيْضًا يَراها وَإنْ لَمْ يَعرفْ لَها شَبيهًا عِنْدَ تَلاقي المُتَحابّينِ"[1]، وَقَدْ وَرَدَ عَلى هذا المَعْنى الشّاعِرُ الذي تَردّدَ بَيْنَ تَعمِيةٍ بِالقالِ، وَتَجلِيةٍ بِالحالِ، وَكانَ السَّبقُ لِلأخيرِ، فَقالَ:

لا خَيْرَ في عاشِقٍ يُخْفي صَبابَتَهُ بِالقَوْلِ وَالشَّوْقُ مِنْ زَفَراتِهِ بادِ
يُخْفي هَواهُ وَما يَخْفى عَلى أَحَدٍ حَتَّى عَلى العيسِ وَالرُّكْبانِ وَالحادي[2]

وَالبُكاءُ مِنْ عَلاماتِ المُحِبّ، وَلكِنّهمْ يَتَفاضَلونَ فيهِ، فَمِنهمْ غَزيرُ الدّمْعِ، هامِلُ الشُّؤونِ، تُجيبُهُ العَينُ، وَمِنْهُمْ جَمودُ العَيْنِ، عَديمُ الدَّمعِ، وَقَدْ عقَدَ لهذِهِ العَلامَةِ العِشقِيّةِ ابنُ داودَ في "الزُّهرة" بابًا جَمعَ فيهِ نُتَفًا مِنْ أَشْعارِ العُشّاقِ وَغَيرِهِم، وَقَدْ وَسَمَه بِأَنَّهُ بابُ "مَنْ غَلَبَ عَزاهُ كَثرَ بُكاهُ"[3]، وَقَدْ قالَ ابنُ حَزْمٍ في ذلِكَ شِعرًا مُلْمِحًا إلى سُهْمةِ العَيْنِ وَدُموعِها في إبْداءِ العِشْق وَفَضحِهِ:

إذا كَتَمَ المَشْغوفُ سِرَّ ضُلوعِهِ فَإنَّ دُموعَ العَيْنِ تُبْدي وَتَفْضَحُ
إذا ما جُفونُ العَيْنِ سالَتْ شُؤونُها فَفي القَلبِ داءٌ لِلغَرامِ مُبَرِّحُ[4]

وَمِنْ قَبلِ ابنِ حَزْمٍ صَوَّرَ العَبّاسُ بنُ الأَحْنَفِ مُحاوَلةَ طَيِّهِ ما يُلاقي مِنَ الهَوى، وَنَميمَ سَواكِبِ العَبَراتِ التي تَفضَحُ ما يُحاولُ طَيَّهُ:

لَقَدْ كُنْتُ أَطْوي ما أُلاقي مِنَ الهَوى حِذارًا وَأُخْفيهِ وَأَكتُمُهُ جُهْدي
فَنَمَّتْ عَلى قَلْبي سَواكِبُ عَبْرَةٍ تَجودُ بِها عَيْنايَ سَحًّا عَلى خَدّي
وَفي هَمَلانِ العَيْنِ أَعْدَلُ شاهِدٍ عَلى غَيْبِ ما يُخْفي الضَّميرُ مِنَ الوَجْدِ[5]

وَالمَعْنى الذي قَرَّرهُ العَبّاسُ بنُ الأَحْنَفِ وَابنُ حَزْمٍ هو نَفسُهُ الذي أَتى عَلَيْهِ صَريعُ الغَواني، وَلكِنَّ الأَخيرَ غالَبَ دَمعَه وَداراهُ، فَلَمْ تَنكَشِفِ السّرائِرُ، لا وَلَمْ تُخَلْ:

لَوْلا مُداراةُ دَمْعِ العَيْنِ لانكَشَفَتْ مِنّي سَرائِرُ لَمْ تَظْهَرْ وَلَمْ تُخَلِ[6]

---

(1) انظر: ابن داود، الزهرة، 425/1.
(2) لعله لابن داود، انظر: ابن داود، الزهرة، 425/1.
(3) انظر: ابن داود، الزهرة، 391/1.
(4) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 19.
(5) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 115.
(6) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 2.

والبُكاءُ في "أدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ" باعِثُهُ شَيْئانِ أوّلُهُما الاشْتِياقُ، وَثانيهما خَوفُ الفِراقِ، فَإنْ هُمُ نَأَوْا بَكى شَوقًا، وَإنْ هُمُ دَنَوْا بَكى خَوْفًا:

وَما في الأَرْضِ أَشْقى مِن مُحِبٍّ ... وَإِنْ وَجَدَ الهَوى حُلْوَ المَذاقِ
تَراهُ باكِيًا في كُلِّ وَقْتٍ ... مَخافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لاشْتِياقِ
فَيَبْكي إِنْ نَأى شَوْقًا إِلَيهِمْ ... وَيَبْكي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الفِراقِ
فَتَسْخنُ عَينُهُ عِنْدَ التَّنائي ... وَتَسخنُ عَينُهُ عِنْدَ التَّلاقي[1]

وَقَدِ التَفتَ إِلى هذا المَعْنى أَبو نُواسٍ مُقَرِّرًا أَنَّ لِسانَهُ وَقلبَهُ يُحاوِلانَ كَتمَ الهَوى، وَلكِنَّ الوِشاياتِ التي تَتَخلّقُ مِنَ الدَّمعِ تَأبى ذلِكَ أَنْ يَكونَ، وَإِذا ما اسْطاعَتِ العَيْنُ إِلى ذلِكَ سَبيلاً فَإِنَّ عَلامَةَ النُّحولِ الجَسَديّ تَشي بِحالِهِ العِشقِيّةِ، لِيَغدُوَ أَمْرُ العِشْقِ المُتَمكِّنِ في نَفسِهِ مَفْضوحًا ذائِعًا مَرئِيًّا بِما يُرى مِنْ عَلاماتٍ جَسَدِيَّةٍ واشِيةٍ:

لِساني وَقَلْبي يَكْتُمانِ هَواكُمُ ... وَلكِنَّ دَمْعي بِالهَوى يَتَكَلَّمُ
وَلَوْ لَمْ يَبُحْ دَمْعي بِمَكْنونِ حُبِّكِمْ ... تَكَلَّمَ جِسْمٌ بِالنُّحولِ يُتَرْجِمُ[2]

وَقَدْ وَرَدَ هذا المَلمَحُ العِشقِيُّ في قَولِ أَبي نُواسٍ أَيْضًا:

فَمَنْ كانَ مِنّا عاشِقًا فاضَ دَمْعُهُ ... وَعاوَدَهُ بَعْدَ السُّرورِ نَحيبُ[3].

وَهذا هُو مَذهَبُ صَريعِ الغَواني القائِلِ بِأَنَّ الوَجدَ عَلامَتُهُ الإِفراطُ في البُكاءِ إِلى حَدِّ نَزيفِ العَيْنِ لِمائِها، وَخَفَقانِ الأَحشاءِ:

دَعاني وَإِفْراطَ البُكاء فَإِنَّني ... أَرى اليَوْمَ فيهِ غَيْرَ ما تَرَيانِ
فَلا وَجْدَ حَتّى تَنزِفَ العَيْنُ ماءَها ... وَتَعْتَرِفَ الأَحْشاءُ بِالخَفَقانِ[4]

وَمِنْ عَلاماتِهِ تَلوُّنُ العاشِقِ، وَحبسُ لِسانِهِ، وَخَفَقانُ قَلبِهِ، وَارتِعادُ مَفاصِلِه، وقد عقَدَ ابنُ أَبي حَجَلَةَ في "ديوان الصَّبابَةِ" بابًا يَخوضُ في هذِهِ العَلامَةِ، وَهُوَ "اصْفرارُ لَونِهِ عِنْدَ

(1) الشعر لماني الموسوس، انظر: شعره، 80، وابن داود، الزهرة، 141/1، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 221/1.
(2) انظر: أبو نواس، ديوانه، 574.
(3) انظر: أبو نواس، ديوانه، 44.
(4) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 341.

رُؤيَةِ مَحْبوبِهِ، وَخَفَقانُ قَلبِهِ، وَطَيَرانُ عَقلِهِ"، وَكَذلِكَ في "تَزْيين الأَسْواقِ"، وَقَدْ وَسَمَه بـ"خَفَقان القَلبِ وَالتّلوينِ عِنْدَ اجتِماعِ المُحِبّينَ"[1]، وَقَدْ جُمِعَتْ مَعًا في قَولِ القائِلِ:

لـــــي فـــي مَحَبَّتِـهِ شُـهودٌ أَرْبَـعُ وَشُهـــــودُ كُـــــلِّ قَضِـيّةٍ اِثْنـــانِ
خَفَقــانُ قَلْبــي وَارْتِعــادُ مَفاصِــلي وَصَــفارُ لَــوْني وَاعْتِقــالُ لِســاني[2]

وَقَدْ عَرَّجَ عَلى عَلامَةِ الخَفَقانِ البَهاءُ زُهَيرٌ فَقالَ:

وَمُشَـــــبَّه بِالغُصْـــــنِ قَـــــلْ بـــــي لا يَـــزالُ عَلَيْـــــهِ طـــائِرْ
لا تُنْكِـــــروا خَفَقـــــانَ قَـــــلْ بـــي وَالحَبيـــبُ لَـــدَيَّ حاضِـــرْ
مَـــــــا القَلْـــــــبُ إلاّ دارُهُ ضُـرِبَتْ لَـهُ فيهـــا البَشـائِـــرْ[3]

وَكَذلِكَ قَوْلُ الأَنطاكِيّ وَقَدْ جَمَعَ في الاعتِذارِ بَيْنَ تَغيّرِ اللَّونِ وَالخَفَقانِ فَقالَ:

قالَـــتْ أَراكَ إِذا عـــايَنْتَني وَجِـــلاً عَـــديمَ لَـــونٍ بَهـــيجٍ كُنْـــتَ تَملكُـــهُ
وَالقَلـــبُ مِنـــكَ خَفـــوقٌ لا يُسَـــكِّنُهُ شَـــيءٌ فَيـــا لَيْـــتَ شِـــعْري مـــا يُحَرِّكُـــهُ
فَقلْتُ ما تَدْري إِنَّ الشَّمسَ إِنْ جُمِعَتْ بِالبَـــدرِ بَعْـــدَ تَمـــامِ النّـــورِ تُنْهِكُـــهُ
وَالطَّيْـرَ إِنْ أَلِـفَ الغُصـنَ الرَّطيـبَ وَقَـدْ مـادَتْ بِـهِ الـرّيحُ هَـلْ يَخْفـى تَحَرُّكُـهُ[4]

وَكَذلِكَ إِشارَةُ العَبّاسِ بنِ الأَحْنَفِ إِلى بُكاءِ العُشّاقِ، وَتَغيُّرِ أَلْوانِهِمْ:

وَسَـوابِقُ العَبَـراتِ فَـوقَ خُدودِهِـــــم دِرَرٌ تَفـــيضُ كَأَنَّهـــــا القَطْـــــرُ
مُتَغَيِّـرينَ مِـــنَ الهَـــوى أَلْوانُهُـــم مِمّـــــا تُجِـــنُّ قُلـــوبُهُمُ صُفـــــرُ
صَـرْعى عَلـى جِسْـرِ الهَـوى لِشَـقائِهِم يَتَصَبَّـــــرونَ وَمـــا بِهِـــــم صَـــبْرُ
لَـــــمْ يَشرَبوا غَيْـرَ الهَـــوى فَكَـأَنَّهُمْ بِهِـــــمُ لِشِّـــــدَةِ مـا لَقـوا سُـكْرُ[5]

وَقَدْ جَمَعَ عُروَةُ بَيْنَ ثَلاثِ عَلاماتٍ عِشقِيّةٍ جَسَدِيَّةٍ في مُقطَّعةٍ، فَعرَّجَ عَلى نُحولِ

---

(1) انظر: الأنطاكي، تزيين الأسواق، 76/2.

(2) انظر: مغلطاي، الواضح المبين، 108، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 221/2.

(3) انظر: البهاء زهير، ديوانه، 119، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 80/2.

(4) انظر: الأنطاكي، تزيين الأسواق، 80/2.

(5) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 163، وأتى على هذه الأبيات ابن داود في الزهرة، وابن أبي حجلة في ديوان الصبابة.

الجَسدِ، وَخَفَقانِ القَلبِ، وَبُكاءِ العَينِ، فَقالَ:

أَغَرَّكُمـــا لا بـــارَكَ اللهُ فيكُمـــا قَميـــصٌ وَبُـــرْدا يَمْنَـــةٍ زَهَـــوانِ
مَتـى تَكْشِـفا عَنّـي القَمـيصَ تَبَيَّنـا بِـيَ الضُّـرَّ مِـنْ عَفْـراءَ يـا فَتَيـانِ
وَتَعْتَرِفـــا لَحْمًـــا قَلـــيلاً وَأَعْظُمًـــا دِقاقًـــا وَقَلْبًـــا دائِـــمَ الخَفَقـــانِ
عَلـى كَبِـدي مِـنْ حُـبِّ عَفـراءَ قَرْحَـةٌ وَعَيْنـايَ مِـنْ وَجْـدٍ بِهـا تَكِفـانِ[1]

وَقَدْ وَرَدَ الشُّحوبُ وَالاصْفِرارُ في شِعْرِ كُثَيِّرٍ:

تَقولُ ابْنَةُ الضَّمْرِيّ ما لَكَ شاحِبًا وَلَونُكَ مُصْفَرٌ وَإِنْ لَمْ تَخَلَّقِ[2].

وَقَدْ فَسّرَ تَلوّنَ البَدَنِ تَفْسيرًا طِبِّيًّا الأَنْطاكِيُّ، مُقَرِّرًا أَنَّ استيلاءَ سُلطانِ المَحبّةِ وَالعِشْقِ مِنَ المَعْشوقِ عَلى العاشِقِ أَعظَمُ استيلاءً مِنْ سُلطانِ القَهرِ وَالعَظَمَةِ وَالنّاموسِ السُّلْطانِيِّ[3]، وَرَدَّ ظُهورَ عِلّةِ اصفِرارِ لَونِ العاشِقِ، وَارتِعادِ مَفاصِلِهِ، وَخَفَقانِ قَلبِهِ، إِلى حَرارَةٍ لَحْظِيّةٍ تَنشَأُ فيهِ؛ لأَنَّ الاستِبْشارَ بِالاجتِماعِ الموجِبِ لِلفَرحِ المُنْتِجِ لِحَركَةِ الحَرارَةِ إِلى خارجٍ لَيُفْضي إِلى الحُمرَةِ، وَصَفارُ اللّونِ يُعارِضُهُ لِشدّةِ الشَّفَقةِ وَالخَوفِ مِنْ نَحوِ واشٍ، وَسُرعَةِ تَفْريقٍ، وَاليَأسُ الموجِبُ لإِخْمادِ الحَرارَةِ، أَوْ جَذبِها إِلى داخلٍ هُوَ المُنتِجُ لِصُفرَةِ اللَّوْنِ[4].

وَقَدْ أَضيفَ إِلى هذِهِ الشَّواهِدِ وَالعَلاماتِ العِشقِيّةِ الجَسَدِيَّةِ عَلاماتٌ خاصَّةٌ بِالنِّساءِ، وَمِنْ ذلِكَ:

- عَضُّها عَلى شَفَتِها السُّفْلى.
- وَدَمْعُ عَيْنَيْها.
- وَضَربُها بِيَدَيْها عَلى عَضُدَيْها وَثَدْيَيْها.
- وَإِظهارُ مَحاسِنِها لِمَنْ تَهْواهُ موهِمَةً بِأَنَّها تُري ذلِكَ بَعْضَ أَهْلِها.
- وَنَظَرُها إِلى أَعْطافِها.

(1) انظر: عروة بن حزام، ديوانه، 36.
(2) انظر: كثير، ديوانه، 204.
(3) انظر: الأنطاكي، تزيين الأسواق، 76/2.
(4) انظر: الأنطاكي، تزيين الأسواق، 76/2.

وَالحَقُّ أَنَّ حَصرَ تِلْكَ الشَّواهِدِ وَالعَلاماتِ يَكثُرُ وَيَطولُ، وَقَدِ التَفَتَ إِلى ذلِكَ الحافِظُ مُغْلَطاي فَقالَ: "وهذِهِ المَعاني أَوْسَعُ ذَرعًا مِنْ أَنْ تَبلُغَها مُذاكَرَةٌ، أَوْ تَحْويها مُحاوَرَةٌ، وَإِنّما أَخَذْنا بِها يَسيرًا مِنْ كَثيرٍ، وَثِمادًا مِنْ بُحورٍ"[1].

التَّراسُل والتَّواصُل الجَسَدِيّانِ في أدبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ

لقَدْ تَضافَرتْ مَجموعَةٌ مِنَ العَوامِلِ التي أَفْضَتْ بالجَسَدِ إِلى أَنْ يَكونَ ذا سُهمةٍ كَبيرَةٍ في التَّواصُلِ وَالإِبانَةِ في "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ"، وَالحَقُّ أَنَّ أَهْلَ العِشْقِ يُفْصِحونَ عَنْ حَواشي النّفوسِ، وَمَكْنوناتِ الضَّمائِرِ، مُعْتَمدينَ عَلى رافِدَي المَعْنى الرَّئيسَيْنِ: الكَلامِيّاتِ وَالصَّمْتِيّاتِ، أَمّا الكَلامِيّاتُ فَأَمْرُها ذائِعٌ، وَأَشْهرُها أَشْعارُ الغَزلِ وَالمَواجِدِ العِشقِيّةِ، وَأَمّا الصَّمْتِيّاتُ وَالحَرَكِيّاتُ فَعَلَيْها عَقدُ البابِ وَالمَوْضوعِ، وَقَدْ وَصَفَها الشّعَراءُ في أَشْعارِهِم، وَرَسَموا تِلْكُمُ الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةَ الحَمّالةَ لِمَعانٍ بِالكَلماتِ، فَغَدتْ في أَحايينَ صُوَرًا ناطِقةً لأَحْداثٍ كَلامِيّةٍ، فَلِلأفْواهِ إِشارَةٌ بَلْ إِشاراتٌ، وَلِلحَواجِبِ غَمزٌ ذو دِلالَةٍ، وَلِلأجْفانِ تَكْسيرٌ، وَلِلكَفِّ تَسْليمٌ، وَلِلعُيونِ كَلامٌ إيمائِيٌّ جَسَديٌّ يَضيقُ عَنْهُ الوَصفُ في هذا المَقامِ، لقَدْ عَبَّرَ الشّاعِرُ عَنْ هذِهِ المَعاني فَقالَ مُتمنّيًا أَنْ يَضمَّهُ وَمَعْشوقَتَه بَيتٌ، وَأَنْ يَكونَ تَواصُلُهُما بِالإِشاراتِ الجَسَدِيَّةِ، وَالإيماءاتِ المُعبّرَةِ، لِما فيها مِنْ إِبانَةٍ عَنِ المَقاصِدِ، وَبَيانٍ بِلا لِسانٍ، وَمُسْتَغْنًى عَنِ الكَلامِيّاتِ في مَقامِهِ ذاكَ:

أَلَيْسَ عَجيبًا أَنَّ بَيْتًا يَضُمُّني ... وَإِيّاكِ لا نَخْلو وَلا نَتَكَلّمُ
سِوى أَعْيُنٍ تُبْدي سَرائِرَ أَنْفُسٍ ... وَتَقْطيعِ أَنْفاسٍ عَلى النّارِ تُضْرَمُ
إِشارَةَ أَفْواهٍ وَغَمزَ حَواجِبٍ ... وَتَكْسيرَ أَجْفانٍ وَكَفٍّ تُسَلِّمُ
وَأَلْسُنُنا مَعْقودةٌ عَنْ شَكاتِنا ... وَأَبْصارُنا عَنْها الصَّباباتُ تُفْهِمُ[2]

وتِلْكَ أُمْنيّةُ عاشِقٍ رَضِيَ بِالإِبانَةِ الآتِيةِ مِنَ الجَسَدِ، وَمِثْلُها أُمْنيةُ آخَرَ كَفاهُ مِنْ مَعْشوقِهِ الضَّنينِ سَلامٌ بِعَينٍ، أَوْ بِحاجِبٍ، فَقالَ:

وَإِنَّ الَّذي أَرْضى بِهِ مِنْ نَوالِها ... عَلَيْها وَإِنْ ضَنَّتْ بِهِ لَيَسيرُ

---

(1) انظر: مغلطاي، الواضح المبين، 120.

(2) انظر: ابن داود، الزهرة، 153/1، وابن عبد ربه، العقد الفريد، 171/5، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 336/1.

سَلامٌ بِعَيْنٍ أَوْ سَلامٌ بِحاجِبِ إذا ما بِهِ لَمْ تَدْرِ كَيْفَ تُشيرُ[1]

التَّراسُلُ بِالوَجْهِ

وَلَستُ بِمُبالِغٍ إِنْ قُلتُ إنَّ الوَجْهَ الأَداةُ الرَّئيسَةُ في التَّراسُلِ وَالتَّواصُلِ الجَسَديَّينِ في "أَدَبِ العِشقِ وَالعُشّاقِ"، وَالمُحتَكَمُ الرَّئيسُ في الإِبانةِ وَتَعيينِ المَقاصِدِ الجَوّانِيّةِ، وَالوَجْهُ –وَقَدْ تَقَدَّمَ فَضلُ بَيانٍ عَن هذا قَبْلاً– مُشتمِلٌ عَلى جَوارِحَ أُخْرى تَقعُ فيهِ، وَأهمُّها العَيْنانِ، وَالحاجِبانِ وَالفَمُ، وَفيهِ تَتَجَلّى المَعاني السّتُّ العالَمِيّةُ، وَقَدْ عوَّلَ العُشّاقُ مِنَ الشّعراءِ عَلَيْهِ كَثيرًا في التَّواصُلِ وَالتَّراسُلِ الجَسَدِيَّينِ، فَعَرَّجوا عَلى العَيْنِ، وَنَظَراتِها، وَهَيئاتِها، وَمَعانيها، وَالحاجِبَينِ، وَالمَعاني التي تَظهَرُ في الوَجْهِ، وَغَيرِ ذلِكَ مِمّا يَقومُ في النَّفْسِ مِنْ مَعانٍ تُقرِّرُها الهَيْئَةُ وَالرّؤيَةُ الحَيّةُ مِمّا "لا يُمْكنُ حَصْرُها في جِنْسٍ، وَلا ضَبْطُها في وَصْفٍ"[2].

التَّبَسُّمُ وَدِلالاتُهُ:

وَلِلتّبسّمِ دِلالاتٌ مُتَباينةٌ، وَأحْوالٌ مُتعدِّدةٌ، فَمِنْه تَبسّمُ المُتَعجِّبِ، وَتَبسُّمُ المُسْتَهزِئِ، وَتَبسُّمُ المُنكِرِ، وتَبسُّمُ المَسْرورِ، وَالحَقُّ أَنَّ ذلِكَ كُلَّه يُدرَكُ بِالمُعايَنَةِ وَالتَّبصّرِ، وَمِنْ أَمْثلَتِها في أدَبِ العِشقِ وَالعُشّاقِ أنَّ عاشِقًا دَخَلَ عَلى مَعْشوقَتِهِ مَرَّةً، فَأَنْكَرَتْ عَلَيْهِ فِعلَتَه إِنْكارَ مُعاياةٍ وَمُناكَفَةٍ، وَأَقْسَمتْ بَعيْشِ أَبيها، وَحُرمَةِ إِخْوَتِها إِنْ لَمْ يَخرجْ لَتُنَبِّهَنَّ عَلَيْهِ الحَيَّ، فَهَمَّ بِالخُروجِ مَخافَةَ يَمينِها، وَلكنّهُ انْثَنى عَنْ ذلِكَ وَفاءً بِما قَرَأَ في وَجْهِ مَعْشوقَتِه مِنْ رضًى وَتَدلّلٍ مَرْسومَيْنِ في ابتَسامَةٍ تَجلَّتْ في الوَجْهِ قائِلةٍ بِلِسانِ الحالِ الجَسَديّ بِأَنَّ القَسَمَ ذاكَ ما هُو إِلاّ لِلدّعابَةِ، وَكَأَنَّ وَجهَ المَعْشوقِ عامّةً، وَهَيْئَةَ التَّبَسُّم خاصّةً، قالا "ابْقَ حَيْثُ أَنْتَ، فَما هي إِلاّ مُداعَبةٌ"، ولقَدْ صَوَّرَ هذا المَشْهَدَ الحَرَكيَّ التَّعْبيرِيَّ عُمَرُ بنُ أَبي رَبيعَةَ فَقالَ:

فَقَعَدْتُ مُرتَقِباً أُلِمُّ بِبَيتِها حَتّى وَلَجتُ بِهِ خَفِيَّ المَوْلَجِ
قالَتْ وَعَيشِ أَبي وَحُرمَةِ إِخوَتي لأُنَبِّهَنَّ الحَيَّ إِنْ لَمْ تَخْرُجِ

---

(1) انظر: ابن داود، الزهرة، 159/1.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 65/2.

فَخَرَجْتُ خَوْفَ يَمينِها فَتَبَسَّمَتْ فَعَلِمتُ أَنَّ يَمينَها لَمْ تَحْرَجِ[1]

وَفي مَشْهَدٍ آخَرَ يوصي العاشِقُ رَسولَهُ بِالتّلطّفِ وَحُسنِ التّأنّي في التّأَتّي لِلمَعْشوقِ، وَأَنْ يُكيّفَ تَواصُلَه اللَّفظِيَّ المُنتسِبَ إِلى الكَلامِيّاتِ مَعَ ما يَرى في وَجْهِها مِنْ مَعانٍ تُنْسَبُ إِلى الصَّمْتِيّاتِ، فَإِنِ انْشَرحَ صَدْرُها، وَتَهلّلَ وَجْهُها بِالتَّبَسُّمِ وَالانْبِساطِ، زادَ وَأَسْهبَ، وَقالَ قَوْلاً لَيّنًا، وَإِنْ هِيَ قَطَّبَتْ وَتَجهَّمتْ، وَإِنْ هُو قَرَأ في وَجهِها مَعْنى الغَضَبِ وَالإِنْكارِ لِلرّسولِ وَلِلرّسالةِ فَعَلَيْهِ بِالمُغالَطةِ، وَالادِّعاءِ بِأَنَّهُ لا يَعرِفُهُ، وَصَوَّرَ ذلِكَ كُلَّه الوَأْواءُ الدِّمشقِيُّ فَأحسنَ إِذْ قالَ:

بِاللهِ رَبِّكُما عوجا عَلى سَكَني وَعاتِباهُ لَعَلَّ العَتْبَ يَعْطِفُهُ
وَحَدِّثاهُ وَقولا في حَديثِكُما ما بالُ عَبْدِكَ بِالهِجْرانِ تُتْلِفُهُ
فَإِنْ تَبَسَّم قولا في مُلاطَفَةٍ ما ضَرَّ لَوْ بِوِصالٍ مِنْكَ تُسْعِفُهُ
وَإِنْ بَدا لَكُما في وَجْهِهِ غَضَبٌ فَغالِطاهُ وَقولا لَيْسَ نَعْرِفُه[2]

وتِلْكَ هِي حالُ مَعْشوقَةِ عُمَرَ بنِ أَبي رَبيعَةَ، فَلَمَّا التَقَيا قَرَأت في وَجهِهِ مَعْنى السُّرورِ، وَكانَ مَصدَرُ تِلْكُمُ المَعرفَةِ التي قامَتْ في نَفسِها هَيْئَةَ تَبسُّمِ المَسْرورِ:

فَلَمّا التَقَيْنا باحَ كُلٌّ بِسِرّهِ وَأَبدى لَها مِنّي السُّرورَ تَبَسُّمي[3].

وَمِنْ مَعاني التَّبَسُّمِ التي مِضْمارُها الوَجْهُ "التّعَجّبُ"، وَمِنْ ذلِكَ قَوْلُ عُمرَ بنِ أبي ربيعَةَ:

وَيَقولُ إِنَّكِ قَدْ عَلِمْتِ بِأَنَّكُمْ أَصبَحتُمُ يا بِشْرُ أَوْجَهَ ذي دَمِ
فَتَبَسَّمَتْ عَجَبًا وَقالَت حَقُّهُ أَلاّ يُعَلِّمَنا بِما لَمْ نَعْلَمِ[4]

التَّجهُّمُ وَالقُطوبُ:

وَكَما يَظهَرُ في الوَجْهِ التَّبَسُّمُ بِدِلالاتِهِ المُتباينةِ فَكَذلِكَ الأَمرُ بِالضّدِّ في مَقاماتٍ أُخَرَ، فَهناكَ التّجهّمُ وَالقُطوبُ، وَمِنْ أَمْثلَةِ ذلِكَ ما كانَ يَراه كُثَيِّرٌ في وَجهِ المَعْشوقِ

(1) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 84، ومغلطاي، الواضح المبين، 180.
(2) انظر: الكتبي، الوافي بالوفيات، 249/2، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 89/2.
(3) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 325.
(4) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 345.

فَيَقرؤُهُ، فَتَنْتَصِبُ دِلالتُهُ في نَفْسِهِ:

أَراكُـــم إذا مـــا زُرتُكُـــمْ وَزِيـــارَتي قَليـــلٌ يُـــرَى فِـــيكُم إِلَـــيَّ قُطـــوبُ[1]

وَمِـنْ مِثْلِ الـذي قَـرَأَهُ كُثَيِّرٌ ما جاءَ في شِكايَةِ العَبّاسِ بـنِ الأَحْنَفِ مِـنْ صَـدٍّ بَعـدَ وِصالٍ، وَتَمنُّعٍ بَعدَ عَطاءٍ، وَتَقْطيبٍ بَعدَ تَبسُّمٍ:

أَذاقَتــكَ طَعْــمَ الحُــبِّ ثُــمَّ تَنَكَّــرَتْ عَلَيـكَ بِوَجْـهٍ لَـم يَكُـنْ يَعْـرِفُ القَطْبـا[2]

وَمِنَ البَواعِثِ عَلى التّجهّمِ المُباغَتَةُ فيما لا يُرْتَضى أَوْ يُتوقَّعُ، وَقَدْ أَتى عَلى هذا المَعْنى عُمَرُ بنُ أَبي رَبيعَةَ لَمّا دَخَلَ عَلَيْها البَيتَ، فَتَجهَّمَتْ خائِفَةً، فَهَدَّأَ مِنْ رَوْعِها، وَخَفَّضَ جَأْشَها تَودّدُهُ وتَلَطّفُهُ:

فَطَرَقْـتُ بـابَ العامِرِيَّـــةِ مـــوهِنًا فِعْـلَ الرّفيـقِ أَتاهُـــمُ لِلمَوْعِـــدِ

فَتَجَهَّمَـتْ لَمّـا رَأَتْنـــي داخِـــلاً بِتَلَهُّـــفٍ مِـــنْ قَوْلِهـا وَتَهَـدُّدِ

ثُـمَّ ارْعَـوَتْ شَـيْئًا وَخَفَّـضَ جَأْشَـها بَعـدَ الطُّمـوحِ تَهَجُّـدي وَتَـوَدُّدي[3]

وَقَدْ يَكونُ حالُ وَجْهِ المَعْشوقِ التّجهّمَ المُجتَلَبَ غَيرَ المَقْصودِ تَمنّعًا وَتَدلّلاً، وَهذا مَعْنًى أَتى عَلَيْهِ صَريعُ الغَواني، وَقَدِ التَفَتَ إِلى دِلالَةِ التّجهّمِ المُجتَلَبَةِ المُتكلَّفَةِ، وَإِلى الحُسنِ المَقْرونِ بِها، وَالمُتجلّي في وَجْهِها وَهِيَ عَلى هَيْئَةِ التّجهّمِ وَالتّمنّعِ المُتَكلَّفَتَيْنِ:

شَـكَوْتُ إِلَيْهـا حُبَّهـا فَتَبَسَّمَـــــتْ وَلَـــمْ أَرَ شَمْسًـــا قَبْلَهـــا تَتَبَسَّـــمُ

فَقُلْـتُ لَهـا جـودي فَأَبْـدَت تَجَهُّمًـا لِتَقتُلَنـــي يـــا حُسْـــنَها إِذْ تَجَهَّـــمُ[4]

الحَياءُ وَالخَوفُ:

وَيَنْضافُ إِلى دِلالاتِ التّجهّمِ، وَالقُطوبِ، وَالتَّبَسُّمِ، وَالغَضَبِ، التي تتَجَلّى في الوَجْهِ دِلالَتا الحَياءِ وَالخَوْفِ، وَلكُلٍّ مِنْهُما لَونٌ خاصٌّ لا يَتعيّنُ إِلاّ في سِياقِهِ الحَيّ، وَكَثيرًا ما وَرَدَ الشُّعَراءُ عَلى هذا المَعْنى الجَسَديّ التَّعْبيريّ في أَشْعارِهِمْ، فَأَشاروا إِلى لَوْنِ الحُمْرةِ في الوَجْهِ الدّالِّ عَلى الحَياءِ، وَإِلى الصُّفْرةِ الدّالّةِ عَلى البَهْتِ، أَوِ الخَوْفِ، أَوِ الأَرَقِ المُتَخلِّقِ مِـنَ العِشْـقِ وَأَحْوالِـهِ وَأَهْوالِـهِ، وَالشّـائِعُ النَّمطِـيُّ فـي "أَدَبِ العِشْـقِ

(1) انظر: كثير، ديوانه، 49. (2) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 26.

(3) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 106. (4) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 178.

وَالعُشّاقِ" أَنْ تَكونَ المَعْشوقَةُ حَيّيَةً خَجولاً تَظهَرُ عَلَيْها إيماءاتُ الخَجَلِ وَعَلائِمُهُ في قَوْلِها، وَفِعْلِها، وَشَكْلِها، وَقَدْ جاءَ عَلى لِسانِ ابْنِ أَبي حَجَلَةَ:

زارَ الحَبيبُ وَوَجْهُ الوَرْدِ خَجْلانُ فَاصْفَرّ حينَ تَثَنّى قَدُّهُ البانُ[1]

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ قَوْلُ عَليّ بْنِ الجَهْمِ:

طَلَعَتْ فَقالَ النّاظِرونَ إِلى تَصويرِها ما أَعْظَمَ اللهَ

وَدَنَتْ فَلَمّا سَلَّمَتْ خَجِلَتْ وَالتَفَّ بِالتُّفّاحِ خَدّاها[2]

وَإِذا كانَ هذا حالَ المَعْشوقِ وَحَظّه في مِثْلِ ذلِكَ المَقامِ فَإِنَّ وَجْهَ العاشِقِ يَغْدو أَحْيانًا أَصْفَرَ هَيْبَةً مِنْ جَلالِها، وَمِنْ لَطيفِ الجَمْعِ بَيْنَ وَصْفِ المَعْشوقِ بِالاحْمِرارِ، وَالعاشِقِ بِالاصْفِرارِ قَوْلُ ابنِ أَبي الحَديدِ مِنْ قَصيدَتِهِ التي أَوّلُها:

الصَّبْرُ إِلاّ عَنْ فِراقِكَ يَجمُلُ وَالصَّعْبُ إِلاّ مِنْ مَلالِكَ يَسْهلُ

يَصْفَرُّ وَجْهي حينَ أَنْظُرُ حُسْنَهُ خَوْفًا وَيُدْرِكُهُ الحَياءُ فَيَخْجَلُ

فَكَأَنَّ ما بِخُدودِهِ مِنْ خَمْرَةٍ ظَلَّتْ إِلَيْها مِنْ دَمي تَتَنَقّلُ[3]

الوَجْهُ بَيْنَ الصَّكِّ وَالصّدِّ:

وَمِنَ الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ الدِّلالِيّةِ التي أَتى عَلَيْها العُشّاقُ مِنَ الشّعَراءِ "صَكُّ الوَجْهِ"، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلاً في بابِ القَوْلِ عَلى تَلَمّسِ هذِهِ الظّاهِرَةِ عِندَ ابْنِ جِنّي حَديثُهُ المُعْجِبُ الذي تَجْتَمِعُ فيهِ الأَنْظارُ الدِّلالِيّةُ، وَالنَّفْسِيّةُ، وَالتّواصُلِيّةُ عَلى تَفسيرِ هذِهِ الحَرَكَةِ في قَوْلِ الشّاعِرِ:

تقولُ وَصَكّتْ وَجْهَها بِيَمينِها أَزَوْجيَ هذا بِالرَّحى المُتَقاعِسُ

فَقُلْتُ لَها لا تَعْجَبي وَتَبَيَّني بَلائي إِذا الْتَفَّتْ عَلَيَّ الفَوارِسُ[4]

ولَيْسَ يَخْفى أَنّها اسْتِجابَةٌ حَرَكِيّةٌ لِباعِثٍ يَقومُ في النّفْسِ، أَوْ يَنقَدِحُ في الخاطِرِ؛

---

(1) أثبته لنفسه ابن أبي حجلة في ديوان الصبابة في الباب الثالث عشر الموسوم بـ"الإشارة إلى الوصل والزيارة"، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 109/2.

(2) انظر: علي بن الجهم، ديوانه، 190، والخرائطي، اعتلال القلوب، 161.

(3) انظر: الأنطاكي، تزيين الأسواق، 78/2.

(4) انظر الشعر: المبرد، الكامل، 51/1، وفيه: "وصكت صدرها"، واختلف في قائله، ففي الكامل والعقد لأبي مُحَلِّم السعدي، وفي شرح الحماسة للمرزوقي والتبريزي للهذلول بن كعب العنبري.

كَالتّعجُّبِ مَثَلاً، أَوِ التّخوّفِ، وَمِنْ أَمثِلةِ دِلالتِها عَلى التّعَجّبِ قَوْلُ الفَرزْدقِ:

تقـولُ وَصَـكَّتْ حـرَّ خـدَّيْ مَغيظـةٍ عَلى الزَّوْجِ حَرّى ما تَـزالُ تَلهَّفُ[1]

وَكَذلِكَ قَوْلُ ابنِ أَبي رَبيعَةَ فيما هو مِنْ نَحوِ "الصّكِّ":

فَلَـمْ يَرُعْهـا وَقَـدْ نَضَّـتْ مَجاسِـدَها إِلاّ سَـوادٌ وَراءَ البَيْـتِ يَسْتَتِـرُ

فَلَطَّمَـتْ وَجْهَهـا وَاسْـتَنْبَهَت مَعَهـا بَيْضـاء آنِسَـة مِـنْ شَـأْنِها الخَفَـرُ[2]

هذا الصّكُّ، وَأَمّا الصّدُّ فَقَدْ يَعمِدُ أَحَدُ قُطْبَيِ العِشقِ، وَكَثيرًا ما يَكونُ المَعْشوقُ، إِلى الصّدِّ بِالوَجْهِ ساعَةَ اللِّقاءِ، فَيَكونُ مِنْهُ نَأيٌ بِالجانِبِ، وَإِشاحَةٌ بِالوَجْهِ دالّةٌ عَلى شَيءٍ يَعتَمِلُ في نَفسِهِ، كَالحَياءِ، أَوِ التّمنُّعِ، أَوِ الرَّفْضِ، أَوِ الإِنْكارِ، أَوِ الإِغاظَةِ، وَفي الأَخيرِ قالَ الشّاعِرُ:

وَقالَـتْ وَصَـدَّتْ وَجْهَهـا لِتَغيظَنِـي أَبِالصَّـدِّ تُجْزَى أَمْ عَلى الـذَّنْبِ توصَـلُ[3]

وَفي صَدِّ الحَياءِ قالَ ابنُ عَبْدِ رَبِّهِ:

بِنَفْسـي التـي ضَـنّتْ بِـرَدِّ سَـلامِها وَلَـوْ سَـأَلَتْ قَتْلـي وَهَبْـتُ لَهـا قَتْلـي

إِذا جُئتُهـا صَـدَّتْ حَيـاءً بِوَجْهِهـا فَتَهْجُرنـي هَجْـرًا أَلَـذَّ مِـنَ الوَصْـلِ[4]

وَفي صَدِّ التّمنُّعِ وَالتّدلّلِ قالَ عُمرُ بنُ أَبي رَبيعَةَ:

ثُـمَّ صَـدَّتْ بِوَجْهِهـا عَمْـدَ عَـيْنٍ زَيْنَـبٌ لِلقَضـاءِ أُمُّ الحُبـابِ[5]

هَزُّ الرَّأْسِ:

وَلِلرَّأسِ نَصيبٌ مِنَ الظُّهورِ في أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ، وَأَكثَرُ صُورِ وُرودِهِ مِنْ وُجْهَةِ دِلالِيّةٍ مُهْتَزًّا لِحاجاتٍ في النَّفْسِ شَتّى، وَمِنْها هَزُّهُ تَعجُّبًا، أَوِ اسْتِهْزاءً، أَوْ تَوعُّدًا وَوَعيدًا، أَوْ لَوْمًا، أَوْ إِغاظَةً وَمُناكَفَةً، وَقَدْ وَرَدَتْ جُلُّ تِلْكُم الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ في أَشْعارِهِمْ عَلى الهَيْئاتِ الآتِياتِ:

- هَزُّ الرَّأْسِ تَعَجُّبًا، وَمِنهُ قَوْلُ عُمرَ بنِ أَبي رَبيعَةَ:

---

(1) الشعر للفرزدق، وما وجدته في طبعة دار الكتب العلمية، وقد أورده أبو زيد القرشي، الجمهرة، 413 من القصيدة نفسها التي في ديوانه.

(2) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 135.

(3) انظر: ابن داود، الزهرة، 95/1.

(4) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 325/4.

(5) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 57.

فَهَزَّتْ رَأسَها عَجَبًا وَقالَت مَنْ بِذا أَمَرَكْ
أَهَذا سِحرُكَ النِّسْوا نَ قَدْ خَبَّرْنَني خَبَرَك[1]

وَكَذلِكَ قَوْلُ العَرْجِيّ:

فَهَزَّت رَأسَها عَجَبًا وَقالَـــتْ مازِحٌ مَزَحا
فَيا عَجَبًا لِمْوقِفِنـــا وَغَيَّبَ ثَمَّ مَنْ كَشَحا[2].

- هَزُّ الرَّأْسِ اسْتِهزاءً وَوَعيدًا:

تَقولُ وَهَزَّتْ رَأْسَها وَتَضاحَكَتْ سَتَعلَمُ يا مِسْكينُ مَنْ صاحِبُ الذَّنْبِ[3]

- هَزُّ الرَّأْسِ مُناكَفَةً وَإِغاظَةً:

وَقالَتْ وَهَزَّتْ رَأسَها لِتغيظَني أَبِالصَّدِّ تُجْزَى أمْ عَلى الذَّنبِ تُوصَلُ[4]

- هَزُّ الرَّأْسِ ضِرارًا:

وَلَوَتْ رَأسَها ضِرارًا وَقالَتْ إِذ رَأَتني: اختَرْتَ ذلِكَ أَنْتا
حينَ آثَرْتَ بِالمَوَدَّةِ غَيْـــري وَتَناسَيْتَ وَصْلَنا وَمَلِلْتا[5]

- هَزُّ الرَّأْسِ لَوْمًا:

أَبيني لَنا كَيْفَ السَّبيلُ إِلى التـــي نَأَتْ غَرْبَة عَنّا بِها ما تُلائِمُ
فَقالَت وَهَزَّت رَأسَها: لَوْ أَطَعْتَنا تَجَنَّبْتَها أَيّامَ قَلْبُكَ سالِمُ[6].

التَّراسُلُ بِالعَينِ

وَللعَيْنِ ظُهورٌ جَليٌّ في "أَدَبِ العِشقِ وَالعُشّاقِ"، وَنَصيبٌ كَبيرٌ مِنَ التّراسُلِ وَالتّواصُلِ، وَالحَقُّ أَنَّها أَكْثرُ أَعْضاءِ الوَجهِ ظُهورًا في هذا المِضْمارِ، وَسَيأتي بَعْدًا أَنّها نابَتْ عَنِ اللَّفْظِ، وَسَدَّتْ مَسَدَّه، وَأَنّها في مَقاماتٍ أُخَرَ سانَدَتْهُ، وَأَنّها في مَقاماتٍ أُخَرَ

(1) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 202.
(2) انظر: العرجي، ديوانه، 195، والبيتان كذلك في ديوان عمر بن أبي ربيعة، 86.
(3) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 271.
(4) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 279، وفي رواية: "وقالت وصدت وجهها".
(5) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 76.
(6) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 331.

ناقَضَتْه، فَغَدا لَها مَعْنًى مُخالفٌ لِمَعْنى اللَّفظِ، فَكانَ ثَمَّ عَينٌ مُتكلِّمَةٌ، وَأُخْرى مُسَلِّمَةٌ مُحَيِّيةٌ، وَثالِثَةٌ مُعاهِدةٌ وَفِيّةٌ، وَرابِعةٌ مُسِرّةٌ مُخْفِيةٌ، وَخامِسَةٌ سائِلَةٌ مُسْتَفهِمةٌ، وَسادِسَةٌ قائِلَةٌ مُجيبَةٌ، وَسابِعَةٌ واشِيَةٌ فاضِحَةٌ، وَثامِنةٌ باكِيَةٌ مَحْزونَةٌ، وَتاسِعَةٌ مَشوقَةٌ هائِمَةٌ، وَغَيرُ ذلك مِمّا وَرَدَ عَليْهِ العُشّاقُ مِنَ الشّعَراءِ فَوَصَفوهُ في أَشْعارِهِمْ، وَقَرّروهُ في أَحْكامِهِمْ، فَكانَتِ العَينُ عِنْدَهمْ مُظْهِرَةً لِعَلائِمِ العِشقِ، مُبْدِيَةً لِمَكْنوناتِ الضَّمائِرِ، قائِمَةً مَقامَ الأَلْسُنِ، وَقَدْ تَجلّى الحَديثُ عَنِ العَيْنِ في أَدَبِ العِشقِ وَالعُشّاقِ في شِعْبَينِ اثْنَيْنِ، أَوّلُهُما النَّظَريُّ النَّثْريُّ، وَثانيهما الشِّعْريُّ الإِبْداعِيُّ.

النّظَرِيُّ النَّثرِيُّ:

وَمِنَ الشَّواهِدِ عَلى "النَّظَريّ النَّثرِيّ" الفَصلُ الذي عَقَدَه ابنُ حَزْمٍ في "طَوق الحَمامَةِ" عَنِ العَينِ مُرْتَضِيًا لَه اسمَ "الإِشارَة بِالعَينِ"[1]، مُعَرِّجًا فيهِ عَلى سُهْمَتِها في الإِبانَةِ وَالتّواصُلِ، وَقَدِ اسْتَفتَحَ كَلامَه عَنِ البابِ الثّامِنِ بِالتَّعْريضِ بِالقَوْل لِيَكونَ مِهادًا لِلبابِ الذي يَليهِ، وَهُوَ الإِشارَةُ بِالعَيْنِ، فَلا بُدَّ لكُلِّ مَطْلوبٍ مِنْ مَدْخَلٍ إِليْهِ، وَسَبَبٍ يُتَوصَّلُ بِهِ نَحْوَه، فَأَوّلُ ما يَفيءُ إِليْهِ أَهْلُ العِشْقِ في كَشفِ ما يَجدونَهُ إِلى أَحِبَّتِهِمْ هُوَ التَّعْريضُ بِالقَولِ، إِمّا بِإِنْشادِ شِعْرٍ، أَوْ بِإِرْسالِ مَثَلٍ، أَوْ بِتَعمِيَةِ بَيْتٍ، أَوْ بِتَسليطِ كَلامٍ، فَإِنْ رَأى العاشِقُ المُعرِّضُ أُنْسًا وَتَسْهيلاً زادَ، وَإِنْ عايَنَ ما هُو بِالضِّدِّ تَراجَعَ وَتَحايَلَ مُغالِطًا وَمُعْتَذِرًا، وَقَدْ يَكونُ ذلكَ كُلُّه "إِمّا بِلَفظٍ، أَوْ بِهَيْئَةِ الوَجْهِ، وَالحَرَكاتِ"[2].

ثُمَّ يَتْلو التَّعْريضَ بِالقَبولِ إِذا وَقَعَ الإِشارَةُ بِلَحْظِ العَيْنِ، "وَإِنّهُ لَيَقومُ في هذا المَعْنى المَقامَ المَحْمودَ، وَيَبْلُغُ المَبْلَغَ العَجيبَ، وَيُقْطَعُ بِهِ وَيُتَواصَلُ، وَيوعَدُ وَيُهَدَّدُ، وَيُنْتَهَرُ وَيُبْسَطُ، وَيُؤْمَرُ وَيُنْهى، وَتُضْرَبُ بِهِ الوُعودُ، وَيُنَبَّهُ عَلى الرَّقيبِ، وَيضْحَكُ وَيُحْزَنُ، وَيُسْأَلُ وَيُجابُ، وَيُمْنَعُ وَيُعْطى، ولكُلِّ واحِدٍ مِنْ هذِهِ المَعاني ضَرْبٌ مِنْ هَيْئَةِ اللَّحْظِ لا يوقَفُ عَلى تَحديدِهِ إِلاّ بِالرّؤْيَةِ، وَلا يُمْكِنُ تَصْويرُهُ وَلا وَصْفُهُ إِلاّ بِالأَقلِّ مِنْهُ، وَأَنا واصِفٌ ما تَيَسَّرَ مِنْ هذِهِ المَعاني"[3]:

- فَالإِشارَةُ بِمُؤْخرِ العَيْنِ الواحِدَةِ نَهيٌ عَنِ الأَمْرِ.

---

(1) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 32.

(2) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 31.

(3) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 32.

- وَتَفْتيرُها إِعْلامٌ بِالقَبولِ.
- وَإِدامَةُ نَظَرِها دَليلٌ عَلى التّوجُّعِ وَالأَسَفِ.
- وَكَسرُ نَظَرِها آيَةُ الفَرَحِ.
- وَالإِشارَةُ إِلى إِطْباقِها دَليلٌ عَلى التَّهْديدِ.
- وَقَلْبُ الحَدَقَةِ إِلى جِهةٍ ما ثُمَّ صَرْفُها بِسرْعَةٍ تَنْبيهٌ عَلى مُشارٍ إِلَيْهِ.
- وَالإِشارَةُ الخَفِيّةُ بِمُؤْخرِ العَيْنَيْنِ كِلتَيْهِما سُؤالٌ.
- وَقلبُ الحَدَقةِ مِنْ وَسَطِ العَيْنِ إِلى المُوقِ بِسُرعَةٍ شاهِدُ المَنْعِ.
- وَتَرْعيدُ الحَدَقَتَيْنِ مِنْ وَسَطِ العَيْنَيْنِ نَهيٌ عامٌّ، "وَسائِرُ ذلِكَ لا يُدْرَكُ إِلاّ بِالمُشاهَدَةِ"[1].

ثُمّ يُفسِّرُ ابنُ حَزْمٍ تَقْديمَ العَيْنِ وَأَسْبَقِيّتَها في هذا المَقامِ عَلى السَّمْعِ مُعَلِّلاً ذلِكَ بِفَضْلِها الحاصِلِ في جَوْهَرِها؛ ذلكَ أَنّهُ أَرْفَعُ الجَواهِرِ، وَأَعْلاها مَكانًا؛ لأَنَّها نورِيّةٌ لا تُدْرَكُ الأَلْوانُ بِسِواها، وَلا شَيءَ أَبْعدُ مَرْمًى، وَلا أَنْأى غايَةً مِنْها؛ لأَنّنا نُدرِكُ بِها أَجْرامَ الكَواكِبِ التي في الأَفْلاكِ البَعيدَةِ، وَنَرى بِها السَّماءَ عَلى شِدّةِ ارْتِفاعِها وَبُعْدِها، ولَيْسَ هذا لِشَيءٍ مِنَ الحَواسّ؛ كَالذَّوْقِ وَاللَّمْسِ اللَّذَيْنِ لا يُدْرَكانِ إِلاّ بِالمُجاوَرَةِ، وَالسَّمْعِ وَالشَّمِّ اللَّذَيْنِ لا يُدْرَكانِ إِلاّ مِنْ قَريبٍ، "وَدَليلٌ عَلى ما ذَكَرْناهُ مِنَ النَّظرِ أَنّكَ تَرى المُصَوِّتَ قَبْلَ سَماعِ الصَّوْتِ، وَإِنْ تَعمَّدتَ إِدْراكَهُما مَعًا، وَإِنْ كانَ إِدْراكُهُما واحِدًا لَما تَقَدّمَتِ العَيْنُ السَّمْعَ"[2].

الشِّعْرِيُّ الإِبْداعِيُّ:

أَمّا الشَّواهِدُ عَلى المِضْمارِ الثّاني لِلعَيْنِ في أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ، وَهُوَ الشِّعْرِيُّ الإِبْداعِيُّ، فَهِيَ كَثيرَةٌ كَثيرَةٌ، وَقَدْ تَجلَّتْ في أَشْعارِ العُشّاقِ مِنَ الشّعَراءِ، وَفيما يَلي فَضْلُ بَيانٍ يَأخُذُ في أَنْحاءِ هذا المِضْمارِ وَيُجَلّيهِ:

أَتى العَبّاسُ بنُ الأَحْنَفِ عَلى الوَجْهِ عامّةً، وَالعَيْنِ خاصَّةً، فَبَيَّنَ أَثَرَها في التَّواصُلِ وَالإِبانَةِ في مَقاماتِ العِشْقِ، فَالعُشّاقُ سُكوتٌ، وَالهَوى هُو المُتَكلِّمُ، وَتَظهَرُ العَيْنُ ناطِقًا

(1) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 31-33.

(2) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 33.

أَمينًا مُعبّرًا عَمّا في الضَّمائِرِ، فَبِها يَظهَرُ الغَضَبُ، وَبِها يَظهَرُ الرِّضى، وَبِها يُتَكَلَّمُ، وَهِيَ تُجيبُ وَتُفْهِمُ، فَقالَ وَأجادَ:

تُحَـدِّثُ عَنّـا فـــي الوُجـوهِ عُيونُنـا وَنَحْــنُ سُــكوتٌ وَالهَــوى يَــتَكَلَّمُ
وَنَغْضَــبُ أَحْيانًــا وَنَرْضــى بِطَرْفِنــا وَذلِـكَ فيمـا بَيْنَنـا لَيْـــسَ يُعْلَـــمُ
إِذا مـــــا اتَّقَيْنـا رَمْقَـةً مِـن مُبَلِّــغٍ فَأَعْيُنُنـــا عَنّا تُجيـــبُ وَتَفْهَــمُ[1]

أَمّا أَبو نُواسٍ فَقَدْ جَعَلَ لِلعَيْنِ لُغَةً خاصّةً، وَلَعَلَّ في شِعْرِهِ الذي لَمّا يَأْتِ بَيانُهُ بَعْدُ تَأْصيلاً لِهذا المُصْطَلَحِ الحَديثِ، وَهُوَ "لُغَةُ الجَسَدِ"، أَوْ "لُغَةُ العُيونِ"، فَقَدْ صَرَّحَ بِهِ، وَأَتى عَلَيْهِ في مُقَطَّعَةٍ، ذاهِبًا إِلى أَنَّ هذِهِ اللّغة مِنْ أَجَلِّ اللّغاتِ، بَلِ اللّغات كُلّها تَسْجدُ لِهذِهِ اللّغَةِ العالَمِيّةِ التّواصُلِيّةِ:

تَجْمَــعُ عَيْنــي وَعَيْنَهــا لُغَــــــةٌ مُخالِـــــــفٌ لَفْظُهـــا لِمَعْناهـــا
إِذا اقْتَضـــاها طَرْفـــي لَهـــا عِـــدَةً عَرَفْـــتُ مَرْدودَهـــا بِفَحْواهـــا
ذي لُغَـــةٌ تَسْـــجُدُ اللُغـــاتُ لَهـــا أَلغَزَهـــــا عاشِـــقٌ وَعَمّاهـــا[2]

وَفي مَسارِحِ العِشقِ وَالعُشّاقِ تُظهِرُ العَيْنُ مَعانِيَ مُتَباينَةً كَالرِّضى، وَالغَضَبِ، وَالحُبِّ، وَالوَعْدِ، وَالوَعيدِ، وَالتَّحيّةِ، وَالخَوْفِ، وَالتّكلّمِ، وَالمُساءَلَةِ، وَالإِجابَةِ، وَبِكُلِّ نَطقَ العُشّاقُ مِنَ الشُّعَراءِ كَما نَطَقَتْ عُيونُهمْ قَبْلاً فَتَواصَلَتْ وَتَراسَلَتْ، وَيَجمَعُ ذلِكَ قَوْلُ ابْنِ الدُّمَيْنَةِ:

إِذا كَبِـــدانا خافَتـــا صَـــرْفَ نِيَّـــةٍ وَعاجِـــلَ بَيْـــــنٍ ظَلَّتـــا تَجِبانِ
يُخَبِّـــرُ طَرْفانـــا بِمـــا فِـــي قُلُوبِنـــا إِذا اســتَعْجَمَت بِـالمَنْطِقِ الشَّـفَتانِ[3]

وَمِثْلُ ما تَقَدَّمَ اسْتِغْناءُ أَحْمدَ بنِ طَيْفورٍ بِما حَدَّثَتْه بِهِ الأَبْصارُ، فَاسْتَغْنى بِها عَمّا يُردَّدُ في الكُتُبِ، وَرَأى مَعْنى العِشْقِ مَكْتوبًا في جِباهِ العاشِقِ وَالمَعْشوقِ، فَالمَعْنى قَدْ

(1) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 273، والخرائطي، اعتلال القلوب، 204، ومغلطاي، الواضح المبين، 319.

(2) انظر: أبو نواس، ديوانه، 671.

(3) انظر: ابن الدمينة، ديوانه، 199، والشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 324، ومغلطاي، الواضح المبين، 381، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 234/1.

يُقتَنَصُ مِنَ الكَلامِيّاتِ، أَوْ مِنَ الصَّمْتِيّاتِ، أَوْ مِنْ كِلَيْهِما، وَمِنْ أَحَدِهِما اقْتَنَصَ المَعْنى، فَقالَ:

تُحَـدِّثُنا الأَبصـارُ مـا فـي قُلوبِنـا فَنَغْنى بِهـا عَمّا يُـرَدَّدُ فـي الكُتـبِ
عَلاماتُنـا مَكْتوبَـةٌ فـي جِباهِنـا حَبيبانِ مَوْقوفانِ في سُبُلِ الحُـبِّ[1]

لِنَرْجِعِ النّظَرَ في المَعاني التي أَبْدَتْها عُيونُ العُشّاقِ فَوَصَفوها لَنا رَسْمًا بِالكَلِماتِ:

- العَيْنُ الهائِمَةُ العاشِقَةُ:

وَشاهِدُها قَوْلُ ابنِ داودَ:

نَظَـرْتُ إِلَيْـهِ نَظْـرَةَ مُسْتَهـامٍ فَأَثَّـرَ نـاظِري فـي وَجْنَتَيْـهِ
فَلاحَظَنـي وَقَـدْ أَثْبَـتُّ وَجْـدًا فَأَثَّـرَ فـي الفُـؤادِ بِمُقْلَتَيْـهِ[2]

وَمِثْلُها عَينُ ابْنِ زَيْدون:

كَمْ نَظْرَةٍ لَكَ في عَيْني عَلِمْتَ بِها يَوْمَ الزِّيارَةِ أَنَّ القَلْبَ قَدْ ذابا[3].

-العَيْنُ المُسلِّمَةُ المُتَكلِّمَةُ: وَشاهِدُها قَوْلُ أبي نُواسٍ:

فَـدَيْتُ مَـنْ كَلَّمَنـي طَرْفُـهُ سِـرًّا مِـنَ النّـاسِ وَمَـنْ يَنْطِـقُ
أَوْمـا بِعَيْنَيْـهِ بِتَسْـليمَةٍ وَقَلبُـهُ مِـنْ وَجَـلٍ يَخْفِـقُ
فَرُحْـتُ مَسْـرورًا بِمـا نِلتُـهُ وَالقَلْـبُ فيـهِ جَمْـرَةٌ تَحْـرِقُ[4]

وَكَذلِكَ قَوْلُ وَضّاح اليَمَنِ:

سَـمَوْتُ إِلَيْهـا بَعْـدَ مـا نَـامَ بَعْلُهـا وَقَـدْ وسَّدَتـهُ الكَفَّ في لَيْلَةِ الصَّرَدْ
أَشـارَتْ بطَـرْفِ العَـيْنِ أَهْـلاً وَمَرْحَبًـا ستُعْطى الذي تَهْوَى عَلى رَغْمِ مَنْ حَسَدْ[5]

وَكَذلِكَ قَوْلُ العَبّاسِ بْنِ الأَحْنَفِ:

وَمُراقَـبٍ رَجَـعَ السَّـلامَ بِطَرْفِـهِ وَمُحَيَّـرٍ لَـمْ يَسْـتَطِعْ تَسْـليما[6]

(1) انظر: ابن داود، الزهرة، 152/1.
(2) الشعر لابن داود، انظر: الزهرة، 135/1.
(3) انظر: ابن زيدون، ديوانه، 76.
(4) انظر: أبو نواس، ديوانه، 447.
(5) انظر: وضاح اليمن، ديوانه، 143.
(6) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 266.

وَكَذلِكَ قَوْلُ صَريعِ الغَواني:

بَعَـــثْنَ إِلـــى خُلانِهِـــنَّ تَحِيَّـــةً بِأَلْحـاظِ أَبْصـارٍ شَـواهِدَ جُحَّـدِ[1]

-العَيْنُ المُسِرَّةُ المُخْفِيَةُ: وَشاهِدُها قَوْلُ أَحْمَدَ بنِ طَيْفور في مَشْهَدٍ حِوارِيٍّ أَلْفاظُهُ كَسْرُ العَيْنِ وَالجَفْنَيْنِ، وَتَوَرُّدُ الوَجْنَتَيْنِ:

كَتَبْـتُ إِلـى الحَبيـبِ بِكَسْـرِ عَيْنـي كِتابًـا لَيْـــسَ يَقْـــرَؤُهُ سِـــواهُ

فَأَخبَرَنـــــي تَـوَرُّدُ وَجْنَتَيْـــهِ وَكَسْـــرُ جُفونِـــهِ أَنْ قَـــدْ قَـــراهُ[2]

وَمِثلُهُ قَوْلُ النّاشِئِ الأَكْبَرِ:

فَلَمّـــا تَلاقَيْنـــا كَتَـــبْنَ بَأَعْيُـــنٍ لَنـــا كُتُبًـا أَعْجَمْنَهـــا بِالحَواجِبِ

فَلَمّـــا قَرَأنـــاهُنَّ سِـــرًّا طَوَيْنَهـــا حِذار الأعـادي بِـازْوِرارِ المَناكِـبِ[3]

- العَيْنُ الفاضِحَةُ الواشِيَةُ: وَشاهِدُها قَوْلُ أَبي نُواسٍ:

يَدُلُّ عَلى ما في الضَّميرِ مِنَ الفَتى تَقَلُّبُ عَيْنَيْهِ إِلى شَخْصِ مَنْ يَهْوى[4]

وَكَذلِكَ قَوْلُ بَشّارٍ:

فَاعْذُرينـــــي يا أُمَّ بَكْـــــرٍ فَإِنَّ الْـ ـــحُـــــبَّ فـي مَنْطِقـي وَعَيْنَـيَّ بـادِ

لَيْسَ يَخْفى طَرْفُ المُحِبِّ وَلا كَسْـ ـــرَةُ عَيْـــــنِ العَـدُوِّ عَنْـدَ اعتِيـادِ[5]

وَكَذلِكَ قَولُ القُطامِيِّ:

نَظَـــرَتْ إِلَيْـــكَ بِمُقْلَـــةٍ مَكْحولَـــةٍ نَظَـــرًا يَكـــادُ بِطَرْفِـــهِ يَـــتَكَلَّمُ[6]

وَكَذلِكَ قَوْلُ الأَحْوَصِ:

فَأَبْـدَتْ كَثيـرًا نَظْرَتـي مِـنْ صَـبابَتي وَأَكْثَـــرُ مِنْـهُ مـــا تُجِـنُّ الأَضـالِعُ

وَلِلعَـينِ أَسْـرابٌ تَفـيضُ كَأَنّمـــــا تُعَلُّ بِكُحْلِ الصابِ مِنْها المَدامِعُ[7]

---

(1) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 71.

(2) الشعر لأحمد بن طيفور، انظر: ابن داود، الزهرة، 151/1.

(3) الشعر للناشئ الأكبر، انظر: الشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 183.

(4) انظر: أبو نواس، ديوانه، 28.

(5) انظر: بشار بن برد، ديوانه، 282.

(6) انظر: القطامي، ديوانه، 156.

(7) انظر: الأحوص، ديوانه، 96، والشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 253.

وَكَذلِكَ قَوْلُ أَبي نُواسٍ:

يا ساحِرَ الطَّرْفِ أَنْتَ الدَّهْرَ وَسْنانُ سِرُّ القُلوبِ لَدى عَيْنَيْكَ إِعْلانُ
إِذا امْتَحَنْتَ بِطَرْفِ العَيْنِ مُكْتَتَمًا ناداكَ مِنْ طَرْفِهِ بِالسِّرِّ تِبْيانُ
تَبْدو السَّرائِرُ إِنْ عَيْناكَ رَنَّقَتا كَأَنَّما لَكَ في الأَوْهامِ سُلْطانُ[1]

- العَيْنُ الحَديدُ: وَشاهِدُها قَوْلُ أَبي نُواسٍ:

وَيُعْمِلُ الطَّرْفَ نَحْوي إِنْ مَرَرْتُ بِهِ حَتّى لَيُخْجِلُني مِنْ حِدَّةِ النَّظَرِ[2]

- العَيْنُ الشّاهِدَةُ: وَشاهِدُها قَوْلُ النّاشِئِ الأَكْبَرِ:

عَيْناكِ شاهِدتانِ أَنَّكِ مِنْ حَرِّ الهَوى تَجِدينَ ما أَجِدُ
بِكِ ما بِنا لكِنْ عَلى مَضَضٍ تَتَجَلَّدينَ وَما بِنا جَلَدُ[3]

وَمِثلُهُ قَوْلِ أَبي نُواسٍ:

عَيْنايَ تَشْهَدُ أَنّي عاشِقٌ لَكُمُ يا دُمْيَةً صَوَّروها في المَحاريبِ[4]

- العَيْنُ المُسلِّمَةُ الوَجِلةُ: وَشاهِدُها قَوْلُ عُمَرَ بنِ أَبي رَبيعَةَ:

وَلَمّا التَقَيْنا بِالثَّنِيَّةِ أَوْمَضَتْ مَخافَةَ عَيْنِ الكاشِحِ المُتَنَمِّمِ
أَشارَتْ بِطَرْفِ العَينِ خَشيَةَ أَهلِها إِشارَةَ مَحْزونٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ
فَأَيقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قالَ مَرْحَبًا وَأَهْلاً وَسَهْلاً بِالحَبيبِ المُتَيَّمِ[5]

- العَيْنُ الشّاكِيةُ المُتكلِّمَةُ: وَشاهِدُها قَوْلُ أَحمَدَ بْنِ طَيْفور:

عَرَفَتْ بِالسَّلامِ عَينَ الرَّقيبِ وَأَشارَتْ بِلَحْظِ طَرْفٍ مُريبِ
وَشَكَتْ لَوْعَةَ النَّوى بِجُفونٍ أَعْرَبَتْ عَنْ لِسانِ قَلْبٍ كَئيبِ
رُبَّ طَرْفٍ يَكونُ أَفْصَحَ مِنْ لَفْ ظٍ وَأَبْدى لِمُضمَراتِ القُلوبِ[6]

---

(1) انظر: أبو نواس، ديوانه، 606.

(2) انظر: أبو نواس، ديوانه، 281.

(3) الشعر للناشئ الأكبر، انظر: الشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 219، ومغلطاي، الواضح المبين، 54.

(4) انظر: أبو نواس، ديوانه، 41.

(5) انظر: عمر بن ربيعة، ديوانه، 326.

(6) الشعر مما ينسب لأحمد بن طيفور، انظر: ابن داود، الزهرة، 150/1.

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ قَوْلُ إبراهيمَ النَّظّامِ:

وَنَشْكو بِالعُيونِ إذا التَقَيْنا ... فَنَفْهمُهُ وَيَعلمُ ما أَرَدْتُ
أَقولُ بِمُقْلَتي أَنْ مِتُّ شَوْقًا ... فَيُوحي طَرْفُهُ أَنْ قَدْ عَلِمْتُ[1]

وَكَذلِكَ قَوْلُ الشّاعِرِ:

يُكلِّمُ طَرْفي طَرْفَها حينَ نَلْتَقي ... وَإِنْ كانَ فينا لِلعِتابِ صُدودُ
فَإِنْ نَحْنُ صِرْنا لِلفِراقِ تَلاحَظَتْ ... لَنا بِهَوانا أَعْيُنٌ وَخُدودُ
فَنَحْنُ كَأَنَّا بِالقُلوبِ وَذِكْرِها ... إذا ما افْتَرَقْنا حاضِرونَ شُهودُ[2]

– العَيْنُ المَشوقَةُ: وَشاهِدُها قَوْلُ عُمَرَ بنِ أَبي رَبيعَةَ:

فَعَرَفنَ الشَّوْقَ في مُقْلَتِها ... وَحَبابُ الشَّوْقِ يُبْديهِ النَّظَر[3]

وَكَذلِكَ قَولُهُ:

وَنَظَرْتُ نَظْرَةَ عاشِقٍ دَنِفٍ ... بادي الصَّبابَةِ عازِمٍ نَظَرُه[4]

– العَيْنُ المُنادِيَةُ: وَشاهِدُها قَوْلُ عُمَرَ بنِ أَبي رَبيعَةَ:

قومي تَصَدَّيْ لَهُ لِيُبصِرَنا ... ثُمَّ اغْمِزيهِ يا أُخْتُ في خَفَر
قالَتْ لَها قَدْ غَمَزتُهُ فَأَبى ... ثُمَّ اسبَطَرَّتْ تَسْعى عَلى أَثَري[5]

– العَيْنُ المُعاهِدةُ: وَشاهِدُها قَوْلُ العَبّاسِ بنِ الأَحْنَفِ:

وَقَدْ أَبْدَتْ لَكَ العَيْنانِ أَنّي ... عَلى طولِ النَّوى لَكَ غَيْرُ قالِ
وَلَسْتُ وَإِنْ بَدَأتَ بِقَطْعِ حَبْلي ... عَلى حالٍ لِوَصْلِكُمُ بِسالِ[6]

وَمِثلُهُ قَوْلُ ابنِ أبي طاهِرٍ:

أُلاحِظُها خَوْفَ المُراقَبِ لَحْظَةً ... فَأَشْكو بِطَرْفي ما بِقَلْبي مِنَ الوَجْدِ

---

(1) انظر: ابن داود، الزهرة، 154/1.

(2) انظر: ابن داود، الزهرة، 153/1، وهي بلا نسبة في الزهرة.

(3) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 168.

(4) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 187.

(5) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 163.

(6) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 254.

فَتَفْهَمُـهُ عَـنْ لَحْـظِ عَيْنـي بِقَلْبِهـا فَتُومي بِطَرْفِ العَيْنِ أَنّي عَلى العَهْدِ[1]

وَمِثلُهُ:

أَشَـرْتُ إِلَيْهـا هَـلْ عَرَفْـتِ مَـوَدَّتي فَرَدَّتْ بِطَرْفِ العَيْنِ أَنّي عَلى العَهْدِ[2]

- العَيْنُ المَحْزونَةُ: وَشاهِدُها قَوْلُ العَبّاسِ بنِ الأَحْنَفِ:

نَظَـرَتْ إِلَيـكَ بِمُقلَـةٍ مَحْزونَـةٍ نَظَرَ الصَّحيحِ إِلى المَريضِ المُدْنَفِ

وَلَقَـدْ رَفَعْـتُ لَهـا الـرِّداءَ مُوَدِّعًـا بَعْـدَ البُكـاءِ وَبَعْـدَ طـولِ المَوْقِفِ[3]

وَكَذلِكَ قَوْلُ الحُسَيْنِ بنِ مُطَيْرٍ:

وَلـي نَظْرَةٌ بَعْـدَ الصُّـدودِ مِـنَ الجَـوى كَنَظْـرَةِ ثَكْلـى قَـدْ أُصـيبَ وَليـدُها[4]

- العَيْنُ الباكِيَةُ: وَشاهِدُها قَوْلُ الشّاعِرِ وَقَدْ جَعَلَ الدَّموعَ أَلْسِنَةَ القُلوبِ:

وَقائِلَـةٍ وَقَـدْ بَصُـرَتْ بَدَمْـعٍ عَلـى الخَـدَّيْنِ مُنْحَـدِرٍ سَـكُوبِ

دُمـوعُ العاشِـقينَ إِذا تَوالَـتْ بِظَهْـرِ الغَيْـبِ أَلْسِـنَةُ القُلُـوبِ[5]

وَكَذلِكَ قَوْلُ العَبّاسِ بنِ الأَحْنَفِ:

وَإِنّـي لَـذو عَيْنَـيْنِ: عَـيْنٍ شَـجِيَّةٍ وَعَـيْنٍ تَراهـا دَمْعُهـا الـدَّهْرَ سـاجِمُ

أُعَـذِّبُ عَيْنـي بِالبُكـاءِ كَأَنَّنـي عَـدُوٌّ لِعَيْنـي جاهِـدًا لا أُسـالِمُ[6]

وَمِثْلُهُ قَوْلُ ابْنِ زَيْدون:

أَلا لَيْـتَ شِـعْري هَـلْ أُصـادِفُ خَلْـوَةً لَـدَيْكِ فَأَشْـكو بَعْـضَ مـا أَنـا واجِـدُ

---

(1) انظر: ابن داود، الزهرة، 152/1.

(2) انظر البيت بلا نسبة عند ابن عبد ربه في العقد الفريد، 170/5، والأنطاكي في تزيين الأسواق، 336/1.

(3) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 212.

(4) انظر: الحسين بن مطير الأسدي، ديوانه، 49، وانظر: الشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 95، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 134/1.

(5) الشعر مختلف في نسبته، فقيل لأبي الشيص، والبيت الأول في ديوان ديك الجن، 153، وانظر: السراج، مصارع العشاق، 218/2، والعباسي، معاهد التنصيص، 93/4.

(6) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 271.

رَعى اللهُ يَوْمًا فيهِ أَشْكو صَبابَتـــي وَأَجفـانُ عَيْنـي بِالـدُّموعِ شَـواهِدُ[1]

وَكَذلِكَ قَوْلُ السَّرّاجِ في "مَصارِعِ العُشّاقِ":

يَطْــوي أَحاديــثَ وَجْــدِهِ وَدُمــو عُ العَـيْنِ فـي فَيضِـهِنَّ تَنشُـرُها[2]

وَحَسْبي بَعْدَ هذا العَرْضِ الدّالِّ بِالاقْتِضابِ، وَالخائِضِ في التّراسُلِ وَالتّواصُلِ بِالعَيْنِ في أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ قَولُ ابنِ حَزْمٍ عَنْها: "وَاعْلَمْ أَنَّ العَيْنَ تَنوبُ عَنِ الرُّسُلِ، وَيُدْرَكُ بِها المُرادُ، وَالحَواسُّ الأَرْبَعُ أَبْوابٌ إِلى القَلْبِ، وَمَنافِذُ نَحْوَ النَّفْسِ، وَالعَيْنُ أَبْلَغُها وَأَصَحُّها دِلالَةً، وَأَوْعاها عَمَلاً، وَهِيَ رائِدُ النَّفْسِ الصّادِقُ، وَدَليلُها الهادي، وَمِرْآتُها المَجْلُوّةُ التي بِها تَقِفُ عَلى الحَقائِقِ، وَتُمَيِّزُ الصّفاتِ، وَتَفْهَمُ المَحْسوساتِ، وَقَدْ قيلَ: "لَيْسَ المُخْبَرُ كَالمُعايِنِ"، وَقَدْ ذَكَرَ ذلِكَ "أَفْليمون" صاحِبُ الفِراسَةِ، وَجَعَلَها مُعْتَمَدةً في الحُكْمِ"[3].

التَّراسُل بِالحاجِبَيْنِ

وَمِمّا يَنْضافُ إِلى التَّراسُلِ بِالعُيونِ الحَواجِبُ التي أَشارَ العُشّاقُ مِنَ الشُّعَراءِ إِلى فَضْلِها في الإِبانَةِ وَالتّواصُلِ، فَكَثيرًا ما كانوا يَقْرنونَها بِالعَيْنِ، وَهِيَ كَذلِكَ حَقًّا، فَحَرَكَةُ الحَواجِبِ لا تَنفَكُّ عَنْ حَرَكَةِ العُيونِ، وَهِيَ بِهذا التَّقْريرِ المُتَقَدِّمِ بَيانُهُ عَونٌ لِلعُيونِ في التَّراسُلِ وَالتَّواصُلِ الجَسَدِيَّيْنِ، بَلْ تَتَشكّلُ مِنْهما وَحْدَةٌ دِلاليّةٌ تَأتَلِفُ مِنْ تَضافُرِهِما، وَمِنَ المَعاني التي أَبْدَتْها الحَواجِبُ في "أَدَبِ العِشقِ وَالعُشّاقِ" التَّحيّةُ، وَالتَّكلّمُ، وَالإِشارَةُ، وَالتَّوْديعُ، فَغَدَتْ مِمّا تُقْضى بِها الحَوائِجُ، وَتُنالُ الرَّغائِبُ، وَمِمّا قيلَ في وَصْفِ الدِّلالاتِ التي تُجَلّيها الحَواجِبُ في مَقاماتِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ:

لا شَـيْءَ أَحْسَـنُ مِـنْ أَيّـامِ مَجْلِسِـنا إِذْ نَجْعَلُ الرُّسلَ في ما بَيْنَنا الحَدَقا

وَإِذْ حَواجِبُـــا تَقْضـــي حَوائِجَنـــا وَشَكْلُنـــا فـي الهَوى نَلقَاهُ مُتّفِقا[4]

---

(1) انظر: ابن زيدون، ديوانه، 46.

(2) انظر: السراج، مصارع العشاق، 3/2، ومغلطاي، الواضح المبين، 313، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 229/2.

(3) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 33.

(4) انظر: الوشاء، الموشى، 285، والسراج، مصارع العشاق، 67/1.

وَكَما كانَتِ العُيونُ مَدْخَلاً مِنْ مَداخِلِ التَّواصُلِ في مَقاماتِ التَّعْمِيَةِ وَالرُّقَباءِ فَكَذلِكَ كانَتِ الحَواجِبُ:

إِذْ نَحنُ نَسْتَرِقُ الحَديثَ وَفَوْقَنا ... مِثْلُ الظَّلامِ مِنَ الغُبارِ الأَقْتَمِ
وَنَظَلُّ نُظْهِرُ بِالحَواجِبِ بَيْنَنا ... ما فِي النُّفُوسِ وَنَحنُ لَمْ نَتَكَلَّمِ[1]

وَمِثلُهُ قَوْلُ أَبي العَبّاسِ النّاشِئِ مُعبّرًا عَنْ هذا المَعْنى، مُصوِّرًا العُيونَ كاتِبَةً لِمَكْنوناتِ الضَّمائِرِ، وَالحَواجِبَ مُعْجِمَةً لِتِلْكَ الكُتُبِ، وَالعاشِقَيْنَ قارِئَيْنِ لِتِلْكَ المَعاني المَرْسومةِ بِالعَيْنِ وَالحاجِبِ:

فَلَمّا تَلاقَيْنا كَتَبْنَ بِأَعْيُنٍ ... لَنا كُتُبًا أَعْجَمْنَها بِالحَواجِبِ
فَلَمّا قَرَأناهُنَّ سِرًّا طَوَيْنَها ... حِذار الأَعادي بازْورارِ المَناكِبِ[2]

وَمِنَ الدِّلالاتِ التي أَظْهَرَها الحاجِبُ في أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ التَّسْليمُ في مَقامِ الوَداعِ، وَقَدْ صَوَّرَ هذا المَعْنى صَريعُ الغَواني فَقالَ:

أَحْيَيْنَ لَيلَتَهُنَّ بي وَبِمَجْلِسي ... في قَصْفِ قَيناتٍ وَعَزْفِ ضَوارِبِ
حَتّى إِذا وَدَّعْنَني أَهْدَيْنَ لي ... تَسْليمَهُنَّ بِأَعْيُنٍ وَحَواجِبِ[3]

التَّراسُلُ بِالكَفِّ وَالبَنانِ

وَمِمّا عَوّلَ عَلَيْهِ أَهْلُ العِشْقِ في تَواصُلِهِمْ غَيرِ اللَّفظِيِّ عامّةً، وَلُغَةِ الجَسَدِ خاصّةً، البَنانُ وَالكَفُّ، وَقَدْ غَدا كُلٌّ مِنْهُما ناطِقًا أَمينًا، وَدالاً حَرَكِيًّا حَمّالاً لِمَعانٍ تَتَعيّنُ في سِياقاتِها، وَبِاسْتِجْماعِ ثُلّةٍ مِنَ المُثُلِ التي وَرَدَتْ فيها الكَفُّ أَوِ البَنانُ، وَبِاستِشرافِ مَواضِعِها يَتَبيّنُ لِلمُتدبِّرِ بِرويّةٍ وَلُطفِ نَظَرٍ أَنَّها كَثُرَتْ في مَقاماتِ التّخفّي، وَالتَّعْمِيةِ، وَحَذرِ الرُّقَباءِ، وَلَمّا كانَ التَّواصُلُ اللَّفظِيُّ مَحْظورًا في ذلِكَ المَقامِ، وَلَمّا كانَتِ الدَّواعي وَاللَّواعِجُ قَويّةَ التَّجاذُبِ لَهُمْ، لَمّا كانَ ذلِكَ كَذلِكَ، عَمَدوا إِلى العُدولِ عَنِ العِبارَةِ إِلى الإِشارَةِ، وَعَنِ التَّصْريحِ اللَّفْظِيِّ إِلى التَّلْويحِ الحَرَكِيِّ، فَغَدتْ لُغةُ الجَسَدِ في "أدبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ" مَلْحَظًا فاقِعَ الدِّلالَةِ، جَليَّ الحُضورِ، وَمُحتَكَمًا رَئيسًا مِنْ مُحْتَكَماتِ التَّواصُلِ، وَالتَّراسُلِ، وَالإِبانَةِ.

---

(1) الشعر للفرزدق في ديوانه، 551، وقد نسبت خطأ لابن الدمينة في ملحق ديوانه، 211.
(2) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 218، والحصري، المصون في سر الهوى المكنون، 103.
(3) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 188.

وَمِنَ المُثُلِ الدَّالّةِ عَلى ذلِكَ –وَما كانَ أَكْثَرَها في هذا المِضْمارِ– قَوْلُ كُثَيِّرٍ عَشيّةَ نَهْيِها لَهُ عَنِ الكَلامِ بِإيماءَةٍ مِنْ يَدِها، فَكانَ مِنْها كَلامٌ بِلا كَلامٍ، وَبَيانٌ بِلا لِسانٍ:

عَشِـيَّةَ أَوْمَـت وَالعُيـونُ حَواضِـرٌ إِلَـيَّ بِرَجْـعِ الكَـفِّ أَلاّ تَكَلَّمـا
فَأَعْرَضْـتُ عَنْهـا وَالفُـؤادُ كَأَنَّمـا يَـرى لَـو تُناديـهِ بِـذلِكَ مَغْنَمـا[1]

وَمِـنَ المَعـاني التي رَسَـمَتْها حَركَـةُ الكَـفِّ أوِ البَنـانِ التَّسْـليمُ، وَالتّحيّـةُ، وَالتّوديـعُ، وَالكَفُّ، وَالنَّهيُ، وَالتَّحْذيرُ، وَإِشارَةُ التَّنْبيهِ لاستِجْلابِ الخاطِرِ، وَالتّكلّمُ، وَمِنَ الشَّواهِدِ عَلـى بَعْـضِ مـا تَقَـدَّمَ بَيانُـهُ قَـوْلُ مـاني المُوَسْـوَسِ مُلتَمِسًـا فَضْـلَ البَنـانِ فـي التَّراسُـلِ وَالتّواصُلِ، مُعَرِّجًا عَلى جَواباتِها دونَ الكَلامِ:

بَنـانُ يَـدٍ تُشـيرُ إِلـى بَنـانٍ تَجاوَبَتـا وَمـا يَتَكَلَّمـانِ
جَـرى الإيمـاءُ بَيْنَهُمـا رَسـولاً فَـأَحْكَمَ وَحْيَـهُ المُتَناجِيـانِ
فَلَـوْ أَبْصَـرتَهُ لَغَضَضْـتَ طَـرْفًا عَـنِ المُتَنـاجِيَيْنِ بِـلا لِسـانِ[2]

وَمِنْ شَواهِدِ البَنانِ عَلى التَّحيّةِ وَالتَّسليمِ قَوْلُ البُحتريّ وَقَدْ قَرَنَ بَيْنَ إِلوائِها بِالسَّلامِ بِالبَنان الخَضيبِ، وَإِشارَتِها بِاللَّحظِ الطَّروبِ في قَولِهِ:

لَـوَتْ بِالسَّـلامِ بَنانًـا خَضـيبا وَلَحْظًـا يَشـوقُ الفُـؤادَ الطَّروبـا[3]

وَكَذلِكَ إِشارَةُ عُمَرَ بنِ أَبي رَبيعَةَ إِلى دِلالةِ حَرَكةِ البَنانِ عَلى التَّحيّةِ في مَقامٍ لا يُبْدي المَقالَ لِسانٌ:

أَشـارَتْ إِلَيْنـا بِالبَنـانِ تَحِيَّـةً فَـرَدَّ عَلَيْهـا مِثْـلَ ذاكَ بَنـانُ
فَقالَـتْ وَأَهـلُ الخَيْفِ قَدْ حانَ مِنْهُمُ خُفـوفٌ وَمـا يُبْـدي المَقـالَ لِسـانُ[4]

أَمّا حَرَكةُ البَنانِ الحَمّالةُ لِدِلالةِ التَّوديعِ في مَقاماتِ البَيْنِ وَالارْتِحالِ، فَمِنْها قَوْلُ الشّاعِرِ:

---

(1) انظر: كثير، ديوانه، 311.

(2) الشعر لماني الموسوس، وقد ورد في مجموع شعره، 99، وكذا في الأغاني، 189/23، وانظر: ابن داود، الزهرة، 152/1.

(3) انظر: البحتري، ديوانه، 90/1، وابن داود، الزهرة، 111/1.

(4) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 377.

لَمّا أَناخوا قُبَيْلَ الصّبْحِ عيسَهُمُ وَثَوَّروها فَثارَتْ بِالهَوى الإِبِلُ
وَأَبرَزَتْ مِنْ خِلالِ السَّجْفِ ناظِرَها تَرْنو إِلَيَّ وَدَمْعُ العَيْنِ يَنْهَمِلُ
وَوَدَّعَتْ بِبَنانٍ خِلتُهُ عَنَماً فَقُلتُ لا حَمَلَتْ رِجلاكَ يا جَمَلُ[1]

أَمّا حَرَكَةُ البَنانِ الحَمّالةُ لِدِلالةِ التَّحْذيرِ في حَضْرَةِ الرُّقَباءِ وَالعُيونِ فَتَتَجَلّى في قَولِ عُمرَ بنِ أبي رَبيعَةَ:

لَمَعَتْ بِأَطْرافِ البَنانِ لَنا إِنّا نُحاذِرُ أَعيُنَ الرَّكْبِ[2]

وَمِثلُها قَوْلُ ذي الرُّمّةِ في إِشارَةِ الأَصابِعِ ساعَةَ الوَداعِ:

غَدَوْنَ فَأَحسَنَّ الوِداعَ وَلَمْ تَقُلْ كَما قُلْنَ إِلاّ أَنْ تُشيرَ الأَصابِعُ
وَأَخْذُ الهَوى فَوْقَ الحَلاقيمِ مُخْرِسٌ لَنا أَنْ نُحَيّى أَوْ نُسَلِّمَ مانِعُ
وَخالَسْنَ تَبْسامًا إِلَيْنا كَأَنَّما تُصيبُ بِهِ حَبَّ القُلوبِ القَوارِعُ[3]

وَأَمّا حَرَكَةُ البَنانِ الحَمّالةُ لمَعْنى الإِشارَةِ وَالتَّنْبيهِ وَاستِجْلابِ الخاطِرِ فقَدْ تَجلّتْ في الحِكايةِ التي يَرْويها العَبّاسُ بنُ الأَحنَفِ شِعرًا وَقَدْ كانَ في جنازَةٍ فَرَأى فَوزَ مَعْشوقَتَه، فَأشارَ إِلَيْها بِالبَنانِ لِتَلتفِتَ استِجْلابًا لِنَظرِها، وَتَنْبيهًا لَها، فَما كانَ مِنْها إِلاّ الإِعْراضُ، وَالتَّبَسُّمُ طَورًا، وَالتَّقْطيبُ طَورًا:

وَلي يَوْمَ شَيَّعْتُ الجِنازَةَ قِصَّةٌ غَداةَ بَدا البَدرُ الذي كانَ يُحْجَبُ
أَشَرْتُ إِلَيْها بِالبَنانِ فَأَعْرَضَتْ تَبَسَّمُ طَوْرًا ثُمَّ تَزْوي فَتَقْطِبُ
غَداةَ رَأَيْتُ الهاشِميَّةَ غُدْوَةً تَهادى حَوالَيْها مِنَ العَيْنِ رَبْرَبُ
فَلَمْ أَرَ يَوْمًا كانَ أَحْسَنَ مَنظَرًا وَنَحْنُ وُقوفٌ وَهيَ تَنْأى وَنَنْدُبُ[4]

وَأَمّا حَرَكَةُ الكَفِّ الحَمّالةُ لِمَعْنى التّرجّي وَإِرْجاءِ الرّحلَةِ فقَدْ تَجَلّى في قَولِ عُمَرَ ابنِ أَبي رَبيعَةَ وَقَدْ جَعلَ الباعِثَ عَلى هذا المَعْنى مَلْحَظَينِ جَسَديَّيْنِ مُنتسِبَيْنِ إِلى الصَّمتِيّاتِ، وَهُما مَفيضُ العَبرَةِ، وَمَوْمى الكَفِّ، فَقالَ:

---

(1) الشعر لماني الموسوس في مجموع شعره، 85، وانظر: السراج، مصارع العشاق، 21/1، والشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 79، ومغلطاي، الواضح المبين، 241.

(2) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 32.

(3) انظر: ذو الرمة، ديوانه، 271، وابن داود، الزهرة، 263/1.

(4) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 28.

وَمَفـيضَ عَبْرَتِهـا وَمَـومى كَفِّهـا وَرِداءُ عَصْـبٍ بَيْنَنـا مَنْشـورُ
أَنْ أَرْجِ رِحْلَتَـكَ الغَـداةَ إِلـى غَـدٍ وَثَـواءُ يَـوْمٍ إِنْ ثَوَيـتَ يَسـيرُ[1]

وَقَدْ تَتشَكّلُ حَرَكاتٌ مُركَّبَةٌ تَتَضافَرُ فيها الكَفّانِ مَعَ جارِحَةٍ أُخْرى لِتُشكِّلَ دِلالَةً واحِدةً مِنْ حَركَةٍ مُركَّبَةٍ مُؤتَلِفةٍ في صورَتِها التَّشْكيلِيّةِ مِنْ جَوارَحَ مُتباينَةٍ، وَمِنْ ذلِكَ عَضُّ الإِبْهامِ، وَصَكُّ الوَجْهِ، أَمّا الأَخيرةُ فقَدْ تَقَدَّمَ عَلَيْها كَلامٌ في بابِ القَوْلِ عَلى التَّراسُلِ بِالوَجهِ، وَأَمّا الأولى فَهِيَ حَرَكةٌ عالَمِيّةٌ دالّةٌ عَلى الخَوفِ أوِ النَّدَمِ أَوْ ما يَدورُ في فَلَكِ هاتَيْنِ الدِّلالتَينِ، وَقَدْ أَتى عَلَيْها عُمَرُ بنُ أَبي رَبيعَةَ فَأَكْثَرَ مِنْها في شِعْرِهِ، فَقالَ:

فَلَمّـا تَقَضّـى اللّيْـلُ قالَـتْ فَتاتُهـا أَرى قَبْـلَ أَنْ يَسـتَيقِظَ الحَـيُّ أَرْفَـقُ
وَعَضَّـتْ عَلـى إِبهامِهـا وَتَنَكَّبَـت قَريبًـا وَقالَـتْ إِنَّ شَـرَّكَ مُلْحِـقُ[2]

وَقالَ أَيْضًا:

دَخَلْـتُ عَلـى خَـوْفٍ فَأَرَّقْـتُ كاعِبًـا هَضـيمَ الحَشـا رَيّـا العِظـامِ كَسـولا
فعَضَّـتْ عَلـى الإِبْهـامِ مِنْهـا مَخافَـةً عَلَـيَّ وَقالَـتْ قَـدْ عَجِلْـتَ دُخـولا[3]

وَقالَ كَذلِكَ:

فَحَيَّيْـتُ إِذْ فاجَأْتُهـا فَتَوَلَّهَـتْ وَكـادَت بِمَخفـوضِ التَحِيَّـةِ تَجْهَـرُ
وَقالَـتْ وَعَضَّـتْ بِالبَنـانِ فَضَـحْتَني وَأَنْـتَ امـرُؤٌ مَيْسـورُ أَمْـرِكَ أَعْسَـرُ[4]

وَقالَ المَجْنونُ:

وَفـي الظَّعْـنِ بَيْضـاءُ العَـوارِضِ طَفْلَـةٌ مُبتلَّـةٌ يُصْبـي الحَليمَ ابْتِسـامُها
إِذا سُـمْتَها التَّقْبيـلَ صَـدَّتْ وَأَعْرَضَـتْ صُـدودَ شَـموسِ الخَيْـلِ ضَـلَّ لِجامُهـا
وَعَضَّـتْ عَلـى إِبْهامِهـا حـينَ أَوْمَـأَتْ أَخـافُ عُيونًـا أَنْ تَهُـبَّ نِيامُهـا[5]

وَصَـفوَةُ المُستخلَصِ مِـنْ كُـلِّ مـا تَقَـدَّمَ أَنَّ لِلكَـفِّ وَالبَنـانِ أَثَـرًا فـي التَّواصُـلِ

(1) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 149.
(2) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 258.
(3) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 297.
(4) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 121، والشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 271، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 117/1.
(5) انظر: ابن داود، الزهرة، 134/1.

وَالتَّراسُلِ الجَسَديَّيْنِ، وَحَسْبي بَعدَ هذا العَرْضِ إلماحَةُ العَبّاسِ بنِ الأَحْنَفِ إلى فَضْلِهِما في الإبانَةِ، وَقِيامِهِما مَقامَ الكَلامِ في حَضْرَةِ الرُّقَباءِ وَالعُيونِ:

يـــا مَـــن يُكـــاتِمُني تَغَيُّـــرَ قَلْبِـــهِ سَـــأَكُفُّ نَفْســـي قَبْـــلَ أَنْ تَتَبَرَّمـــا
سَـأَكُفُّ عَنْـكَ وَفـي يَـدَيَّ بَقِيَّـــــةٌ مِـنْ حَبْـلِ وَصْـلِكَ قَبْـلَ أَنْ يَتَصَـرَّما
يـا لَلرِّجـالِ لِعاشِـقَيْنِ تَوافَقـــــا فَتَخاطَبـا مِـــن غَيْـــــرِ أَنْ يَتَكَلَّما
حَتّـــى إذا خَشِـــيا الوُشـــاةَ وَأَشْـــفَقا جَعَـلا الإشـارَةَ بِالأَنامِـــلِ سُـلَّما[1]

الرَّقيبُ في "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ"

وَفي مَسْرَحِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ تَظهَرُ شَخصِيّةُ الرَّقيبِ المُسْتَقبَحَةُ، وَقَريبٌ مِنْ هذِهِ الشَّخصِيّةِ الكاشِحُ، وَالعَذولُ، وَالواشي، وَغالِبًا ما يَكونُ الرَّقيبُ مِنْ مُعوِّقاتِ التَّواصُلِ وَالتَّراسُلِ بَيْنَ العُشّاقِ، وَلَمّا كانَ العاشِقُ يَتَوارى مِنْ عُيونِ الرُّقَباءِ، وَلَمّا كانَ الرُّقَباءُ مُلاحِظينَ وَمتابِعينَ لِلعاشِقِ أَيْنَما وَلّى وَجْهَهُ، وَصَرَفَ بَصَرَه، لَمّا كانَ ذلِكَ كذلِكَ، وَجَبَ عَلى العُشّاقِ ابتِداعُ وَسائِلَ أُخْرى لِلتّواصُلِ وَالتَّراسُلِ في حَضْرَةِ الرُّقَباءِ، وَوَجَبَ عَلَيهِمْ، مِنْ وُجْهَةٍ أُخْرى، التَّعْمِيَةُ عَمّا تُجنُّهُ نُفوسُهمْ، وَالتَّضْليلُ عَمَّا يَعتمِلُ في قُلوبِهِمْ، وَسَبيلُهُمْ إلى هذا المَأْمولِ الصَّعْبِ لُغةُ الجَسَدِ الصّامِتةُ، وَالبَيانُ بِلا لِسانٍ.

وَقَدْ أَتى عَلى ذِكرِ الرَّقيبِ في "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ" ابنُ داودَ، فَعقَدَ بابًا سَمّاهُ "مَنْ وَفى لَهُ الحَبيبُ هانَ عَلَيْهِ الرّقيبُ"[2]، وَكَذلِكَ أَفْرَدَ ابنُ حَزْمٍ بابًا مِنْ أَبْوابِ "طَوْق الحَمامةِ" في هذا المَطْلَبِ[3] مُلْمِحًا إلى سُهْمَةِ عَناصِرَ غَيرِ كَلامِيّةٍ في الإبانَةِ وَالتَّواصُلِ وَالتَّراسُلِ في حَضْرَةِ الرُّقَباءِ، فَفي مِثلِ تِلْكُمُ المَواقِفِ تَتَوارى الكَلامِيّاتُ، وَتتَجَلّى الصَّمْتِيّاتُ وَالحَرَكِيّاتُ الدّالّةُ المُبينَةُ عَنْ حَواشي النُّفوسِ، وَإذا لَمْ يَكنْ في الرَّقيبِ حيلَةٌ، وَلا وُجِدَ إلى تَرَضّيهِ سَبيلٌ "فَلا طَمَعَ إلاّ بِالإشارَةِ بِالعَيْنِ هَمْسًا، وَبِالحاجِبِ أَحْيانًا، وَالتَّعْريضِ اللَّطيفِ بِالقَولِ، وَفي ذلِكَ مُتعَةٌ وَبَلاغٌ إلى حين يَقنعُ بِهِ المُشْتاقُ، وَفي ذلِكَ أقولُ شِعْرًا:

عَلـى سِـيّدي مِنّـي رَقيـبٌ مُحـافِظٌ وَفِـيَّ لِمَـنْ والاهُ لَيْـــــسَ بِناكِـــثِ

---

(1) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 266.

(2) انظر: ابن داود، الزهرة، 146/1.

(3) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 50.

وَيَقطَـعُ أَسْـبابَ اللُّبانَـةِ فـي الهَـوى وَيَفعَـلُ فيهـا فِعْـلَ بَعْـضِ الحَـوارِثِ
كَـأَنَّ لَـهُ فـي قَلبِـــهِ ريبَـةً تُـــرى وَفـي كُـلِّ عَـيْنٍ مُخْبِـرٌ بِالأحـادِثِ"[1]

وَمِـنْ مِثْلِ ما أَشارَ إِلَيْهِ ابنُ حَزْمٍ شِكايةُ "نُصَيْبٍ" لَمّا دَخَلَ عَلى عَبدِ العَزيزِ بنِ مَروانَ، فَقالَ لَهُ الأَخيرُ: هَلْ عَشِقْتَ يا نُصَيبُ؟ فَقالَ: نَعمْ، جَعَلَني اللهُ فِداءَكَ، وَمِنَ العِشْقِ أَفْلَتَتْني إِلَيْكَ البادِيَةُ. قالَ: وَمَنْ عَشِقتَ؟ قالَ: جارِيَةً لِبَني مدلِجٍ، فَأَحْدَقَ بِها الواشونَ، فكُنْتُ لا أَقدِرُ عَلى كَلامِها إِلاّ بِعينٍ، أَوْ إِشارَةٍ، فَأَجلِسُ عَلى الطَّرِيقِ حَتّى تَمرَّ بي فَأراها، فَفي ذلِكَ أَقولُ:

جَلَسْـتُ لهَـا كَيْمَـا تَمـــرَّ لعَلّـــي أُخَالِسُـــها التَّسْـــليمَ، إِنْ لَـــمْ تُسَـــلِّمِ
فَلَمّـا رَأَتْنـي وَالوُشـاةَ تَحَـــــدّرَتْ مَـدَامِعُها خَوْفًـا وَلَـــــمْ تَتَكَلّـــــمِ
مَساكينُ أَهْلُ العِشْقِ ما كُنْتُ أَشْتَرِي حَيـاةَ جَميـعِ العاشِـقِينَ بِدِرْهَـــمِ[2]

وَأَشْنعُ ما يَكونُ الرَّقيبُ إِذا كانَ مِمَّن امْتُحِنَ بِالعِشْق قَبْلا، وَدُهِيَ بِهِ، ثُمَّ عُرِّيَ عَنْهُ بَعدَ إِحكامِهِ لِمَعانيهِ، فَعندَ ذلِكَ يَكونُ راغِبًا في صِيانَةِ مَنْ يُراقِبُه، عارِفًا بِأَدْواءِ أَهْلِ العِشْقِ وَسُبُلِهِمْ في التَّواصُلِ وَالتَّراسُلِ الجَسديّ، وَهُوَ عَلى تِلْكَ الحالِ بَلاءٌ –كَما يَصفُهُ ابنُ حَزمٍ– مَصْبوبٌ يَحِلُّ عَلى أَهْلِ الهَوى، وَقَدْ قال فيهِ:

رَقيـــبٌ طالَمـــا عَـــرَفَ الغَرامـــا وَقاســـى الوَجْـــدَ وَامْتَنَـــعَ المَنامـــا
وَلاقـــى فـــي الهَـــوى أَلَمًـــا أَليمًـــا وَكـــادَ الحُـــبُّ يـــورِدُهُ الحِمامـــا
وَأَتْقَـــنَ حيلَـــةَ الصَّـــبِّ المُعَنّـــى وَلَـــمْ يُضِـــعِ الإِشـــارَةَ وَالكَلامـــا
وَأَعْقَبَـــه التّســـلّي بَعْـــدَ هـــذا وَصـــارَ يَـــرى الهَـــوى عـــارًا وَذامـــا
وَصَـــيَّرَ دونَ مَـــنْ أَهْـــوى رَقيبًـــا لِيُبْعِـــدَ عَنْـــهُ صَـــبًّا مُسْـــتَهاما
فَـــأَيُّ بَلِيّـــةٍ صُـــبَّتْ عَلَيْنـــا وَأَيُّ مُصـــيبَةٍ حَلَّـــتْ لِمامـــا[3]

وَقَدْ أَتى عَلى مَسْرَحِ العُشّاقِ في حَضْرَةِ الرُّقَباء أَهلُ العِشْق مِنَ الشُّعَراءِ، فَوَصَفوهُ لَنا مُسْتَشرِفينَ التَّواصُلَ غَيرَ اللَّفظِيّ، وَمُحاولَةَ التّواري مِنَ الرُّقَباءِ، وَالتَّخاطبَ مَعَ

(1) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 52.
(2) انظر: السراج، مصارع العشاق، 55/2، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 219/1.
(3) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 52.

مَعْشوقيهِم تَخاطُبًا مُنْتسِبًا إلى الصَّمتِيّاتِ وَالحَرَكِيّاتِ، وَفي ذلِكَ المَسْرَحِ العِشْقِيّ، وَفي تِلْكَ الحَضْرَةِ؛ حَضْرَةِ الرُّقَباء، قَدْ تُضرَبُ المَواعيدُ، وَقَدْ تُلْقى التّحيّةُ، وَالسّلامُ، وَقَدْ يَقعُ التّشَكّي وَالتّشاكي، وَقَدْ يَكونُ التَّواصُلُ وَالتّراسُلُ، كُلّ ذلِكَ عِمادُهُ الجَسَدُ عامّةً، وَالعَيْنُ خاصّةً:

لِنَرجِعِ النَّظرَ في خَمْسةِ مَقاماتٍ وَرَدَتْ في "أدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ"، وَأَوّلُها مَشْهَدٌ وَصَفَهُ أَحْمَدُ بنُ طَيْفور، فَقالَ:

وَمُلاحِظٍ سَرَقَ السَّلامَ بِطَرْفِهِ ... حَذَرَ العُيونِ وَرِقْبَةً لِلحارِسِ
راجَعْتُهُ بِلِسانِ طَرْفٍ ناطِقٍ ... يُخْفي البَيانَ عَلى الرَّقيبِ الجالِسِ
فَتَكَلَّمَتْ مِنّا الضَّمائِرُ بِالَّذي ... نُخْفي وَفازَ مُجالِسٌ بِمُجالِسِ[1]

وَفي مَقامٍ آخَرَ مُشاكِلٍ يَفيءُ أَهْلُ العِشْقِ إلى العُيونِ لِتَكونَ مُترجِمَةً عَمّا في القُلوبِ، وَالحَواجِبِ لِتَخطَّ كَلِماتٍ مِنْ نَوعٍ حَرَكِيٍّ يُسَمّى "الغَمزَ":

إذا خِفْنا مِنَ الرُّقباءِ عَيْنًا ... تَكلَّمَتِ العُيونُ عَنِ القُلوبِ
وَفي غَمْزِ الحَواجِبِ مُسْتَراحٌ ... لِحاجاتِ المُحِبِّ إلى الحَبيبِ[2]

وَفي مَقامٍ ثالِثٍ تَناسَخَ المُراقَبانِ السُّطورَ التي كُتِبَتْ بِالجُفونِ وَعَلَيْها، فَغَدَوا مُتَكلِّمَيْنِ بِكلامٍ غَيرِ لَفظِيٍّ، وَمُتَراسِلَيْنِ تَراسُلاً إشارِيًّا:

وَمُراقَبَيْنِ يُكاتِمانِ هَواهُما ... جَعَلا الصُّدورَ لِما تُجِنُّ قُبورا
يَتَلاحَظانِ تَلاحُظًا فَكَأَنَّما ... يَتَناسَخانِ مِنَ الجُفونِ سُطورا[3]

وَفي مَقامٍ رابعٍ تَتَجَلّى التَّعْمِيَةُ في حَضْرَةِ الرَّقيبِ وَالحاسِدِ:

فَيا حَبَّذا سَعْيي إلَيْها مُكاتِمًا ... عَلى خِفْيَةٍ مِنْ حاسِدٍ وَمُراقِبِ
وَاللهِ لا أَنْسى تَكاتُمَنا الهَوى ... إذا ما جَلَسْنا بَيْنَ لاحٍ وَكاذِبِ

---

(1) الشعر لأحمد بن طيفور، انظر: ابن داود، الزهرة، 151/1.

(2) الشعر مما ينسب إلى مجنون ليلى، انظر: ابن داود، الزهرة، 150/1.

(3) انظر: ابن داود، الزهرة، 150/1، والخرائطي، اعتلال القلوب، 218، والشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 81، وقد اختلف في قائله، فمنهم من ينسبه إلى الرقاشي، ومنهم من ينسبه إلى محمد ابن أبي أمية.

يُخاطِبُهـــا طَرْفـــي فَـــيَفْهَمُ طَرْفُهـــا ولَـيْسَ لَنـا لَفْـظٌ بِغَيْـرِ الحَواجِـبِ[1]

وَفي مَقامٍ خامِسٍ نَجِدُ أَنَّ ثَـمَّ عَينَيْنِ اثْنَتينِ: عَيْنًا لِلحَبيبِ تُخالِسُ، وَعَيْنًا لِلرَّقيبِ تُحارِسُ:

وَلي سَكَنٌ إِنْ غابَ أَوْ غِبتُ لَـمْ نَجِدْ لِـذي البَأسِ عِندَ البَأسِ إِنْسًـا نُؤانِسُـهْ
كِلانـا يُنـاجي فـي الضَّـميرِ حَبيبَـهُ بِأَلْسُـنِ عِشْـقٍ لَفظُهُـنَّ وَساوِسُـهْ
وَمَهْمـا التَقَيْنـا وَالوُشـاةُ فَطَرْفُـهُ يُخـالِسُ نَحْـوي بِـالهَوى وَأُخالِسُـهْ
لِعَيْنِـيَ مِـنْ عَيْنَيْـهِ عَـيْنٌ تَفَـرَّدَتْ بِلَحْظي وَأُخْرى لِلرَّقيبِ تُحارِسُـهْ[2]

التَّعْمِيَةُ وَالتَّضْليلُ في "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ"

وَمِنْ أَعْرافِ "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ مُحاوَلَةُ سترِ المَحبَّةِ وَإِخْفائِها، وَعَدمُ التَّواصُلِ في حَضْرَةِ الوُشاةِ، وَالعُذّالِ، والرُّقَباء، وَلكِنَّ العاشِقَ أَمْرُهُ مَفْضوحٌ، وَعَينُهُ بِهِ نامّةٌ، وَحَرَكاتُهُ وَسَكَناتُهُ عَلَيْهِ دالّةٌ، وَبِهِ واشِيَةٌ:

وارَحْمَـــةً لِلعاشِـــقينَ تَكَلّفـــوا ســـتْرَ المَحبّـــةِ وَالهَـــوى فَضّـــاحُ[3]

وَلِذا وَجَبَ أَنْ يُعمِّيَ عَنْ عِشقِهِ بِحَرَكاتٍ جَسَدِيَّةٍ ساتِرةٍ لِمَعْنى العِشْقِ المَرْكوزِ في نَفسِهِ، أَوْ ناسخَةٍ لَهُ ظاهِريًّا، وَقَدْ تَصدُرُ عَنْهُ حَرَكاتٌ جَسَدِيَّةٌ فاضِحةٌ لأَمْرِهِ وَعِشقِهِ، وَآنَ هذا يَعمِدُ إِلى الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ لتَضْليلِ النّظّارةِ مِنْ رُقَباءَ، وَعُذّالٍ، وَكُشَّحٍ، كَتْمًا لِلعِشقِ، وَصَوْنًا لِلمَعْشوقِ، وَمُراعاةً لِلضّميرِ وَالمَشاعِرِ، وَاللاّفِتُ لِلخاطِرِ أَنَّ فَواضِحَ عِشقِهِ إِنَّما يَأتي بَعْضُها مِنْ "لُغةِ الجَسَدِ"؛ كَالعَيْنِ، وَالنَّظْرَةِ، وَالدَّمْعةِ، وَأَنَّ سَواتِرَ العِشْقِ إِنَّما يَأتي بَعضُها مِنْ لُغةِ الجَسَدِ كَذلكَ، فَالضِّدّانِ: السّواتِرُ وَالفَواضِحُ، مَصْدَرُهُما واحِدٌ، وَأَداتُهُما في هذا السِّياقِ واحِدةٌ.

أَوّلاً: التَّعْمِيَةُ بِصَرْفِ النَّظَرِ تِلْقاءَ جِهَةٍ ما:

وَمِن الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ الفَواضِحِ إِدْمانُ النَّظرِ، وَصَرفُهُ تِلقاءَ المَعْشوقِ، وَلَعلَّ ذلِكَ مُفْضٍ إِلى تَعيّنِ شَخْصِ المَعْشوقِ وَمَكانِهِ وَمَقرّهِ، وَلِذلِكَ أَوْصَتْ مَعشوقَةُ عُمَرَ بنِ

(1) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 218.

(2) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 218.

(3) الشعر للسهروردي من قصيدته الحائية المشهورة، انظر: ياقوت، معجم الأدباء، 614/5.

أَبي رَبيعَةَ عَلى لِسانِهِ أَنْ يَمنَحَ طَرفَ عَينَيْهِ غَيْرَها، وَأنْ يُولّي وَجهَهُ شَطْرًا غَيرَ شَطرِها، لِيَكونَ في هذِهِ الحَرَكةِ الجَسَدِيَّةِ التي هِيَ صَرفُ النَّظرِ عَنْها صَرفُ نَظَرٍ لِلنّظّارَةِ عَنْ شَخصِ المَعْشوقَةِ أَوْ مَكانِها، إنّها إِذًا حَرَكَةٌ جَسَدِيَّةٌ حَمّالَةٌ في مَقْصِدِها الكُلّيّ، وَمَغْزاها المَقامِيّ، لِمَعْنى التَّضْليلِ وَالتَّعمِيَةِ:

إذا جِئتِ فَامْنَحْ طَرْفَ عَينَيْكَ غَيْرَنا لِكَيْ يَحْسِبوا أَنَّ الهَوى حَيْثُ تَنظُرُ[1].

وَمِمّا يَسيرُ بِرَكْبِ ما تَقَدَّمَ قَولُ عُمَرَ بنِ أَبي رَبيعَةَ مُعزّزًا هذا المَعْنى، مُلتَمِسًا فَضْلَ لُغةِ الجَسَدِ في التَّعْمِيَةِ وَالاسْتِخفاءِ وَالتَّضْليلِ، وَنَصْبِ مَعْنًى مُخالِفٍ لِهَوى نَفسِهِ في نَفْسِ النّظّارَةِ أَوِ الرُّقَباءِ:

لَمّا دَخَلتُ مَنَحْتُ طَرْفي غَيْرَها عَمْدًا مَخافَةَ أَنْ يُرى رَيعُ الهَوى[2].

وَإِذا كانَتِ الوَصِيّةُ في قِصّةِ عُمَرَ بنِ أَبي رَبيعَةَ مِنَ المَعْشوقَةِ إِلى العاشِقِ، فَإِنَّ الأَمْرَ بِالضِّدِّ عِندَ آخَرَ؛ إِذْ إِنّهُ يَطلُبُ إِلَيْها أَنْ تَغضَّ جُفونَها عَنْهُ، وَأَنْ تَنظُرَ أَمَمًا حِفْظًا لِهذا المَفْهومِ العِشْقِيّ، وَخَوْفًا مِنَ افْتِضاحِ العِشْقِ، وَاحْتِراسًا مِنْ وِشايَةٍ قَدْ تَتخَلّقُ مِنْ هَيْئَةِ نَظْرتِها وَاتّجاهِها:

غُضّي جُفونَكِ عَنّي وَانْظُري أَمَمًا فَإِنَّما افتُضِحَ العُشّاقُ بِالمُقَلِ[3]

ثانِيًا: التَّعْمِيَةُ بِصَرْفِ النَّظَرِ تِلْقاءَ السَّماءِ أَوِ الأَرْضِ:

وَما مِنْ رَيْبٍ أَنَّ النَّظْرَةَ، وَهَيئَتَها، وَاتّجاهَها، كُلّ ذلِكَ دالٌّ يُفاءُ إِليْهِ في التّواصُلِ، وَيُعتَمَدُ عَلَيْهِ في إِقامَةِ الأَحْكامِ، وَتَقْريرِ الأَدلّةِ، وَقَدْ تَبايَنَ أَهلُ العِشْقِ في سَتْرِ ذلكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ سَتَرَ ذلِكَ بِمَنحِ طَرْفِ عَيْنَيْهِ ناحِيةً ما، وَقَدْ تَقَدَّمَ هذا آنِفًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ النَّظرِ إِلى المَعْشوقِ مُولِّيًا نَظَرَه إِلى الأَرْضِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَضَ مُولِّيًا نَظَرَه إِلى السَّقْفِ، كُلّ ذلِكَ مِمّا يُعدُّ مُحاوَلَةً لِصَرفِ نَظَرِ الجُلَساءِ وَالرُّقَباءِ عَنِ المَعْشوقِ، وَاسْتِدراجِهِ إِلى غَيرِ مَكانِ نَظرِ القَلبِ، وَفي صَرفِ النَّظَرِ نَحوَ السَّقفِ تَعميَةٌ قالَ عَنْها أَحمَدُ بنُ طَيْفور:

---

(1) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 124.

(2) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 25.

(3) انظر: الأنطاكي، تزيين الأسواق، 279/1.

إذا مـــا التَقَيْنـــا وَالوُشـــاةُ بِمَجْلِـــسٍ فَلَـيْسَ لَنـا رُسـلٌ سِـوى الطَّـرفِ بِـالطَّرْفِ
فَـــإِنْ غَفَـــلَ الواشـــونَ فُـــزْتُ بِنَظْـــرَةٍ وَإِنْ نَظَـروا نَحْـوي نَظَـرْتُ إِلـى السَّـقْفِ
أُســـارِقُ مَوْلاهـــا السُّـــرورَ بِقُرْبِهـــا وَأَهْجُرُ أَحْيانا وَفي هَجرِهِم حَتْفـــي[1]

وَفي النَّظرِ إِلى الأَرْضِ قالَ الشّاعِرُ:

إِذا غَفِلـــوا عَنَّـــا نَطَقْنـــا بِأَعْيُـــنٍ مِـراضٍ وَإِنْ خِفْنـا نَظَرْنـا إِلـى الأَرْضِ
شَـــكَا بَعْضُـــنا لَمَّـــا التَقَيْنـــا تَسَـــتُّرًا بِأَبْصـارِنا مـا فـي النُّفـوسِ إِلـى بَعْـضِ[2]

وَقَدْ حاوَلَ ذلِكَ صَريعُ الغَواني حينَ ذَهبَ زائِرًا وَلَـمْ يُحِدَّ نَظرَةَ عَينَيْهِ دَفعًا لِوَهمِ العاذِلِ، وَسترًا لِلعِشقِ ، وَلكنّهُ أَيْقَنَ أَنَّ العَيْنَ فاضِحَةٌ أَمْرَه، هاتِكةٌ ما يُحاوِلُ سَتْرَهُ:

ذَهَبـــتُ وَلَـــمْ أُحْـــدِدْ بِعَينِـــيَ نَظـــرَةً وَأَيقَنـــتُ أَنَّ العَـــينَ هاتِكَـــةٌ سَـــتْري[3]

ثالِثًا: التَّعْمِيَةُ بِصَدِّ الوَجْهِ وَإِعْراضِ الجَسَدِ:

وَقَريبٌ مِنْ حيلَةِ صَرْفِ النَّظَرِ عَنِ المَعْشوقِ الصّدُّ وَالإِعْراضُ بِالوَجْهِ وَالجَسَدِ دونَ القَلبِ وَالهَوى، وَفي ذلِكَ قالَ:

إِذا جِئتُهـا وَسْـطَ النِّسـاءِ مَنَحْتُهـــا صُـــدودًا كَـــأَنَّ الـــنَّفْسَ لَـــيْسَ تُريـــدُها
وَلـي نَظْـرَةٌ بَعـدَ الصُّـدودِ مِـنَ الجَـوى كَنَظـرَةِ ثَكْلـى قَـدْ أُصـيبَ وَحيـدُها[4]

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ أَنَّ عاشِقًا نَأى بِجانِبِهِ عَنْ مَعْشوقِهِ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ إِعْراضًا جَسَديًّا مُجْتَلَبًا المَقْصِدُ مِنْهُ التّعميَةُ وَالإِخْفاءُ، فَقالَ في ذلِكَ واصِفًا الإِعْراضَ الجَسَديَّ، وَالإِقْبالَ القَلبِيَّ:

أَمُـــرُّ مُجَنِّبًـــا وَهَـــوايَ فيـــهِ وَطَرْفـــي عَنْـــهُ مُنْكَسِـــرٌ كَليـــلُ
وَقَلْبـــي فيـــهِ مُحْتَـــبِسٌ فَهَـــلْ لـــي إِلـــى قَلْبـــي وَمالِكِـــهِ سَـــبيلُ[5]

وَمِثلُهُ قَوْلُ آخَرَ:

---

(1) الشعر لأحمد بن طيفور، انظر: ابن داود الزهرة، 148/1.

(2) انظر: ابن داود، الزهرة، 148/1.

(3) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 105.

(4) اختلف في قائله، فقيل للمجنون، وقيل للعوام بن عقبة، انظر: ابن داود، الزهرة، 182/1، والأنطاكي، تزيين الأسواق، 134/1.

(5) الشعر مما ينسب للمجنون، انظر: ابن داود، الزهرة، 182/1.

حَبيبـــي حَبيـــبٌ يَكْـــتُمُ النَّـــاسَ أَنَّـــهُ لَنـــا حـــينَ تَرْمينـــا العُيـــونُ حَبيـــبُ
يُباعِـــدُني فـــي المُلْتَقـــى وَفُـــــؤادُهُ وَإِنْ هُـــوَ أَبْـــدى لـــي البِعـــادَ قَريـــبُ
وَيُعْـــرِضُ عَنِّـــي وَالهَـــوى مِنْـــهُ مُقْبِـــلٌ إِذا خـــافَ عَيْنًـــا أَوْ أَشـــارَ رَقيـــبُ
فَتَخْـــرَسُ مِنَّـــا أَلْسُـــنٌ حـــينَ نَلْتَقِـــي وَتَنْطِـــقُ مِنَّـــا أَعْيُـــنٌ وَقُلـــوبُ[1]

وَفي مَقامٍ عِشْقِيٍّ آخَرَ يُوصيهِ أَهْلُ خاصّتِهِ وَبِطانتِهِ بِإِخفاءِ الهَوى، وَعَدمِ البَوْحِ بِهِ، وَلكِنَّ هـذِهِ المُحاوَلـةَ المُنْتَسِبَةَ إِلـى التَّعْمِيَـةِ وَالاسْـتِخفاءِ وَالتَّضْـليلِ مَفْضـوحةٌ بِـالعَيْنِ الواشِـيةِ بِالعِشـقِ، وَالمُتَكلّمَـةِ عَـنْ صـاحِبِها، وَالمُنْبِئـةِ عَـنْ ضَـميرِهِ المَكْنـونِ بِمَقالِـهِ، وَالمَفْضوحِ بِأَحْوالِهِ:

يَقولـونَ لـي أَخْـفِ الهَـوى لا تَـبُحْ بِـهِ وَكَيْـفَ وَطَرفـي بِـالهَوى يَـتَكَلَّمُ[2]

رابِعًا: تَعْمِيَةُ البُكاءِ وَإِخْفاؤُهُ:

- إِخْفاءُ البُكاءِ بِالتَّثاؤُبِ:

أَمّا البُكاءُ فقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلاً أَنَّهُ مِنْ عَلائِمِ المَحبّةِ في "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ"، وَأَنَّ الشّعراءَ قَدْ أَوْردوهُ كَثيرًا في أَشْعارِهِمْ، وَأَنّهُ، مِنْ وُجْهَةٍ ثالِثةٍ، مِمّا يَفضَحُ العاشِقَ، وَيذيعُ سِرَّهُ، وَلَمّا كانَ ذلِكَ كذلِكَ، كانَ لا بُدَّ لِلعاشِقِ مِنَ اصْطِناعِ حَرَكاتٍ جَسَدِيَّةٍ تَكونُ كَالدَّوافِعِ لَه، أَوِ السَّواتِرِ لِلعاشِقِ وَالمَعْشوقِ، وَمِنْ هذِهِ الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ التّثاؤُبُ المُجتَلَبُ الذي حاوَلَ الشّاعِرُ أَنْ يَسترَ بُكاءً باعِثُهُ العِشقُ، وَعَيْنًا أَمَضّها النَّوى:

وَلَمّـا أَبَـتْ عَيْنـايَ أَنْ تَكْتُمـا البُكـا وَأَنْ تَحْبِسـا سَـحَّ الـدُّموعِ السَّـواكِبِ
تَثاءَبْـتُ كَـيْ لا يُنْكِـرَ الـدَّمعَ مُنْكِـرٌ وَلكِـنْ قَلـيلاً مـا بَقـاءُ التَّثـاؤُبِ[3]

- إِخْفاءُ البُكاءِ بِالنَّظَرِ إِلى أَعْلى:

وَفي مَسْرَحٍ عِشْقِيٍّ آخَرَ غَدا العَبّاسُ بنُ الأَحْنَفِ بُكاؤُهُ دَليلٌ عَلى هَواهُ، وَلَمْ يَكنْ ثَمَّ بُدٌّ مِنْ سِتْرِ هذا الدّليلِ، أَوْ دَفعِهِ، فَعَمَدَ إِلى التَّعْمِيَةِ المُنْتَسِبَةِ إِلى "لُغةِ الجَسَدِ" مُقَرِّرًا

---

(1) انظر: ابن داود، الزهرة، 148/1.

(2) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 178.

(3) اختلف في قائله، فقيل هو لأحمد بن أبي فنن، وقيل لعلي بن الجهم، وهو كذلك في ديوانه، 109، وانظر: ابن داود، الزهرة، 424/1، والشهاب الحلبي، منازل الأحباب، 183.

وُجوبَ مُداراةِ الجَليسِ عَلى البُكاءِ، وَإِنْ غالَبه البُكاء فَلَمْ يَقوَ عَلى رَدِّه، فعَلَيْهِ أَنْ يَنظُرَ إِلى أُفُقِ السَّماءِ طَويلاً:

أَمْسى بُكاكَ عَلى هَواكَ دَليلا فَامْنَعْ دُموعَكَ أَنْ تَفيضَ هُمولا
دارِ الجَليسَ عَلى البُكاءِ فَإِنْ بَدا فَانْظُرْ إِلى أُفُقِ السَّماءِ طَويلا[1]

- **إِخْفاءُ البُكاءِ بِالبُرْدِ:**

وَفي مَوقِفٍ عِشْقِيٍّ آخَرَ انْهَملَ دَمْعُ العاشِقِ في الرِّداءِ صَبابَةً، فَجَنحَ إِلى سَتْرِهِ بِبُردِهِ، وَإِخفائِهِ عَنْ صِحابِهِ، وَلكِنَّ أَحَدَهمُ التَفَتَ إِلى ذلِكَ فَتَنَبَّهَ لِمَعْناه، فَقالَ لَهُ مُكاشِفًا، فَأَنْكَرَ الشّاعِرُ ذلِكَ سَتْرًا لِلعِشقِ، وَدَفْعًا لِظَنِّ جَليسِهِ، وَإِلْحاحًا عَلى إِبْرازِ جَلَدِهِ، جانِحًا إِلى أنّ البُكاءَ باعِثُهُ رَمَدٌ أَهاجَ العَيْنَ بِالتَّسْكابِ:

فَانْهَلَّ دَمْعي في الرِّداءِ صَبابَةً فَسَتَرتُهُ بِالبُرْدِ دونَ صِحابي
فَرَأى سَوابِقَ عَبْرَةٍ مُهَراقَةٍ بَكْرٌ فَقالَ بَكى أَبو الخَطّابِ
فَمَرَيْتُ نَظرَتَهُ وَقُلْتُ أَصابَني رَمَدٌ فَهاجَ العَيْنَ بِالتَّسْكابِ[2]

- **إِخْفاءُ البُكاءِ بِالأَنامِلِ:**

وَقَدْ يَعمِدُ العاشِقُ لِستْرِ هذا الفاضِحِ الجَسدِيِّ إِلى أَنامِلِهِ كَما هيَ حالُ صَريعِ الغَواني:

إِنّي لأَسْتُرُ عَبْرَتي بِأَنامِلي جُهْدي لِتَخْفى وَالبُكاءُ مُغالِبي[3]

خامِسًا: التَّعْمِيَةُ بِمَحْوِ الأَثَرِ الجَسَدِيّ:

- **التَّعْمِيَةُ بِمَحْوِ الأَثَرِ في التُّرابِ:**

وَقَدْ تَكونُ التَّعْمِيَةُ سَبيلُها مَحوُ الأَثَرِ الجَسَديّ أَوِ المَعنويّ، كَآثارِ المِشيَةِ في التُّرابِ، أَوْ أَثَرِ الطّيبِ، أَوْ غَيرِ ذلِكَ مِمّا يَشيعُ في مُلتَقى العُشّاقِ، فقَدْ يُرى مِنَ العاشِقِ الزّائِرِ عَلاماتٌ وَآثارٌ مُنْبِئَةٌ عَنْ تَواصُلِهِ أَوْ وَصْلِه، دالّةٌ عَلى كَوْنِهِ قَدْ أَلَمَّ بِدِيارِ المَعْشوقَةِ أَوْ بَيتِها، ولَيْسَ ثَمَّ بُدٌّ مِن مَحْوِ هذا الأَثَرِ وَدَرسِهِ، وَقَدْ تَجلَّتْ هذِهِ الصّورَةُ في شِعْرِ عُمَرَ

(1) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 258، وابن داود، الزهرة، 423/1.
(2) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 50.
(3) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 185.

ابنِ أَبي رَبيعَةَ غَيرَ مَرّةٍ، وَمِنْها:

يَسْحَبْنَ خَلفي ذُيولَ الخَزِّ آوِنَةً وَناعِمَ العَصْبِ كَيْلا يُعرَفَ الأَثَرُ[1]

وَمِثْلُها:

ثُمَّ قُمْنا لَمّا تَجَلّى لَنا الصُبْ حُ نُعَفّي أَثارَنا بِالتّرابِ[2]

وَمِثْلُها:

تُعَفّي عَلى الآثارِ أَنْ تُعْرَفَ الخُطى ذُيولُ ثِيابٍ يُمْنَةٍ وَمَطارِفُ[3]

- التَّعْمِيَةُ بِمَحْوِ أَثَرِ القُبْلَةِ في الخَدّ:

وَمِنْ تَجلّياتِ "مَحْوِ الأَثَرِ" في أَدِبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ مَسْحُ أَثَرِ القُبْلةِ التي أَثَّرَتْ في الخَدِّ، وَقَدْ صَوَّرَ أبو نُواسٍ هذا المَشْهَدَ تَصويرًا فَنِّيًّا قائِمًا عَلى كَونِ أَثَرِها مِمّا يُرى في الوَجْهِ كَالخَطِّ، فَيُعجَمُ، فَيُقْرَأ، وَلِذا وَجَبَ مَحْوُها بِالمَسْحِ، ولَيْسَ يَخْفى أنّهُ مَشْهَدٌ يَنتسِبُ إِلى التَّواصُلِ غَيرِ اللَّفظِيِّ عامّةً، وَلُغةِ الجَسَدِ خاصّةً:

يا ماسِحَ القُبْلَةِ مِنْ خَدِّهِ مِنْ بَعْدِ ما قَدْ كانَ أَعْطاها

خَشيتَ أَنْ يَعْرِفَ إِعْجامَها مَوْلاكَ في الخَدِّ فَيَقْراها

وَلَوْ عَلِمْنا أَنَّهُ هَكَذا كُنّا إِذا بُسْنا مَسَحْناها

فَصارَ فيها رَسْمُها باقِيًا يَعْرِفُها مَنْ يَتَهَجّاها

وَلا تَرَكناها عَلى حالِها وَلامُها مِنْها مَحَوْناها

فَكانَ باقي الإِسمِ لي قُبَّة بِالفَتْحِ في خَدِّكَ مَجْراها[4].

- التَّعْمِيَةُ بِإِقْلالِ الطِّيبِ:

وَمِنْ تَجَلّياتِ التَّعْمِيَةِ المُنْتَسِبَةِ إِلى "مَحوِ الأَثَرِ" إِقلالُ الطّيبِ؛ ذلِكَ أَنّهُ مِنَ المُتمِّماتِ المُسانِدَةِ الهادِيَةِ إِلى مَعانٍ مَخْصوصَةٍ، فَفي مَقامِ عِشْقِيٍّ ظَهَرَ أَنَّ الطّيبَ قَدْ يَفوحُ إِذا ما زارَ العاشِقُ وَقَدْ تَضَمّخَ بِهِ فَأَكْثَرَ مِنْهُ، فقَدْ يَقومُ في نَفسِ أَهْلِها أَنَّ ثَمَّ زائِرًا

(1) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 136.

(2) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 35.

(3) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 242.

(4) انظر: أبو نواس، ديوانه، 678.

مُنْتابًا قَدْ أَلَمَّ بِدارِها، وَهذا مِنَ التَّواصُلِ غَيْرِ اللَّفظِيّ، وَلِذلِكَ وَصَّتِ المَعشوقَةُ بَشّارًا بِأَنْ يُقلَّ تَطَيّبًا خَشيَةَ فَوْحِ المِسكِ، فَتكونَ غَرَضًا لِلْعِدى:

لَمْ أَنْسَ ما قالَتْ وَأَترابُها ... في مَعْرَكٍ يَنْظِمْنَ مِسْباحا
أَقْلِل مِنَ الطّيبِ إذا زُرْتَنا ... إنّي أَخافُ المِسْكَ إنْ فاحا
لا تَترُكَنّا غَرَضًا لِلعِدى ... إنْ كُنْتَ لِلأَهْوالِ سَبّاحا
لَمْ أَدْرِ أَنَّ المِسْكَ واشٍ بِنا ... إنَّ حارَ بابُ الدارِ مِسْباحا[1]

المِشْيَةُ في أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ

تَتبايَنُ المِشيَةُ في "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ" تَبايُنًا باعِثُهُ السِّياقُ الذي وَرَدَتْ فيهِ، وَلِلسِّياقِ، في الأَنْظارِ اللِّسانِيّةِ الحَديثَةِ، مَفْهومٌ عَريضٌ فَضْفاضٌ يَشتَمِلُ عَلى شُخوصِ الحَدَثِ الكَلامِيّ، وَزَمانِهِ، وَمَكانِهِ، وَآثارِهِ، وَالأَنْظارِ الخارِجِيّةِ المُلابِسَةِ لَهُ، فقَدْ تَكونُ المِشْيةُ هَيئَتُها استِخْفاءٌ في سِياقٍ ما، واستِحْياءٌ في سِياقٍ آخَرَ، وَتَبَختُرٌ وَتَخايلٌ في سِياقٍ ثالِثٍ، وَتَفتّلٌ وَتَثنٍّ وتَأَوّدٌ في سِياقٍ رابِعٍ، وَإِسْراعٌ في خامِسٍ، وَقَدْ تَكونُ المِشيَةُ مِشيَةَ رَجلٍ، وَقَدْ تَكونُ مِشيَةَ أُنْثى مِكْسالٍ تَمْشي الهُوَيْنا كَما يَمْشي الفَتى الوَجِلُ، وَلِلعاشِقِ مِشْياتٌ خاصَّةٌ في الثَّقافَةِ العَربِيّةِ، وَلِلمَعْشوقِ مِشْياتٌ أُخْرى مُفارِقَةٌ في أَحْيانٍ، وَقَدْ أَتى العُشّاقُ مِنَ الشُّعَراءِ عَلى كُلِّ ما تَقَدَّمَ مِنْ أَوْصافٍ وَهَيْئاتِ مَشْيٍ، فَرَسَموها بِالكَلِماتِ في أَشْعارِهِمْ، وَجَسَّدوها بِصُوَرٍ مُتَخيَّلَةٍ جادَتْ بِها قَرائِحُهمْ، مُلتَفِتينَ في ذلِكَ إِلى دِلالاتِها مِنْ وُجْهَةٍ تَواصُلِيّةٍ، وَنَفسيّةٍ، وَاجتِماعِيّةٍ.

وَمِنَ الهَيْئاتِ التي شاعَتْ في أَدَبِ العِشْقِ والعُشّاقِ مِشيَةُ المَرْأةِ المِكْسالِ المُتَهادِيةِ، وَمِشيَةُ الهُوَيْنا، وَمِشيَةُ الوَسْنى وَالنَّشْوى، وَمِشيَةُ الخائِفةِ المُسْتَخْفيَةِ، وَغَيرُ ذلِكَ، وَجِماعُ دِلالاتِ ما تَقَدَّمَ الرِّقّةُ وَالنُّعومَةُ مِنْ جِهةٍ، وَالتَّنَعّمُ وَالرَّخاءِ مِنْ جِهةٍ ثانِيةٍ، وَالإِغْراءُ الجِنسِيُّ مِنْ جِهةٍ ثالِثةٍ.

لِنَنظُرْ فيما يَأتي مِنْ هَيْئاتٍ جَسَدِيَّةٍ مِضمارُها "المِشيَةُ":

-مِشْيَةُ التَّهادي وَالتَّأوّدِ:

وَقَدْ أتى عَلى هذِهِ الهَيْئَةِ عُمرُ بنُ أبي رَبيعَةَ، فَقالَ:

---

(1) انظر: بشار بن برد، ديوانه، 269.

بِكُـلِّ كَعـابٍ طَفْلَـةٍ غَيْـرِ حَمْشَـةٍ وَتَمْشـي الهُوَينـا مـا تُجـاوِزُهُ فِتْـرا
وَظَلَّـتْ تَهـادى ثُـمَّ تَمْشـي تَـأَوُّدًا وَتَشْـكو مِـرارًا مِـنْ قَوائِمِهـا فَتْـرا[1]

وَمِثلُها ما جاءَ بِهِ ابنُ زَيدون:

تَهـادى لَطيفَـةَ طَـيِّ الوِشـاحِ وَتَرْنـو ضَـعيفَةَ كَـرِّ المُقَـلْ
مَشَـيْنَ يُهـادِينَ رَوْضَ الرُّبـى بِيـانِعِ رَوْضِ الصِّـبا المُقتَبَـلْ
فَمِـنْ قُضُـبٍ تَتَثَنّـى بِريـحِ وَمِـن قُضُـبٍ تَتَثَنّـى بِـدَلّ[2]

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ مِنْ مِشْيَةٍ دِلالتُها التّنعّمُ وَالنّعومةُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ:

وَلَمّـا تَـدانى الصُّـبحُ نـادَوْا بِرحلَـةٍ فَقُمـنَ كَسـالى مَشْيُهُـنَّ تَـأَوُّدُ[3]

وقَوْلُ القُطامِيّ:

فـأَقْبَلنَ مـا يَمْشـينَ إلاّ تَـأوّدًا حِسـانُ الوُجـوهِ ضـافِياتُ الـذَّوائبِ[4]

وقَوْلُ عُمرَ بنِ أبي رَبيعَةَ:

وَتَمْشـي فـي تَأَوُّدِهـا هُوَينـا المَشْـيِ فـي بَـدَدِ
كَمـا يَمْشـي مَهـيضُ العَـظْ مِ بَعْـدَ الجَبْـرِ فـي الصَّـعَدِ[5]

- **مِشْيَةُ الوَجِلِ المُترقِّبِ**:

وَفي مَسْرَحٍ عِشْقِيٍّ آخَرَ تَبدو المَعْشوقَةُ خائِفةً مُترقِّبَةً تَنظُرُها أَعْيُنُ الرُّقَباءِ، فَيَغْشاها ما يَغْشاها مِنْ خَوفٍ تَظهرُ عَلائِمُهُ عَلى الجَوارِحِ وَالهَيْئاتِ الجَسَديّةِ، فَتَغْدو المِشْيَةُ كَاستِخْفاءِ الوَجِلِ وَالمُترقِّبِ، وَمِمّا يُجلّي هذِهِ الهَيْئَةَ وَصفُ صَريعِ الغَواني لِهذا المَشْهَدِ الحَرَكِيّ:

وَزائِـرَةٍ رُعْـتُ الكَـرى بِلِقائِهـا وَعادَيْتُ فيها كَوْكَبَ الصُّبْـحِ وَالفَجْرا
أَتَتْنـي عَلـى خَـوْفِ العُيـونِ كَأَنَّهـا خَـذولٌ تُراعـي النَّبْتَ مُشعَرَة ذُعْرا

---

(1) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 145.

(2) انظر: ابن زيدون، ديوانه، 230.

(3) انظر: كثير، ديوانه، 117.

(4) انظر: القطامي، ديوانه، 45.

(5) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 110.

إذا مـا مَشَـتْ خافَـتْ نَميمَـةَ حَلْيِهـا تُداري عَلى المَشْيِ الخَلاخيلَ وَالعِطْرا[1]

وَمِنْ مِثْلِ ما تَقَدَّمَ مِنْ مِشْيَةٍ هَيئَتُها الخَوفُ تَصويرُ القُطامِيِّ لِمِشْيَةِ مَعْشوقَتِهِ بِمِشْيَة الأَفْعى المُنْحازَةِ جانِبًا مَخافَةَ الضّارِبِ:

فَسَـلَّمْتُ وَالتَّسـليمُ لَـيْسَ يَسُرُّهـا وَلكنّـهُ حَقٌّ عَلـى كُلِّ جانِبِ

فَـرَدَّتْ سَـلامًا كارِهًـا ثُـمَّ أَعرَضَـتْ كَما انْحازَتِ الأَفْعى مَخافَةَ ضارِبِ[2]

وَكَذلِكَ وَصْفُ عُمَرَ بنِ أَبي رَبيعَةَ لِمِشْيَة مَعشوقَتِهِ في رِقبَةٍ مِنَ الخَوفِ:

فَجـاءَت تَهـادى عَلـى رِقْبَـةٍ مِـنَ الخَـوفِ أَحْشـاؤُها تُرعَـدُ[3]

وَكَذلِكَ قَوْلُهُ في مَقامٍ آخَرَ:

قامَـتْ تَـراءى عَلـى خَـوْفٍ تُشَـيِّعُني مَشْيَ الحَسيرِ المُزَجّى جُشِّمَ الصَّعَدا[4]

-مِشْيَةُ التَّبخْترِ وَالاخْتِيالِ:

وَمِنَ الهَيْئاتِ الدّالّةِ عَلى الاخْتِيالِ وَالتّكبّرِ قَوْلُ عُمرَ بنِ أَبي رَبيعَةَ:

لَـمْ يُصِـبْها نَكَـدٌ فيمـا مَضـى ظَبْيَـةٌ تَخْتـالُ فـي مِشْـيَتِها[5]

- مِشْيَةُ الغِوايَةِ:

وَقَدْ تَكونُ دِلالةُ المِشْيَةِ الغِوايَةَ وَاستِدْعاءَ شَهوَةِ العاشِقِ، وَمِنَ المُثُلِ الدّالّةِ عَلَيْها قَوْلُ أَبي نُواسٍ مُصوِّرًا تَمايلَ المَرْأةِ وَتَثَنّيَها وَهِيَ تُحاوِرُهُ:

قالَـتْ وَقَـدْ جَعَلَـتْ تَمايَـلُ لـي كَتَمايُـلِ الماشـي عَلـى الـدَّفِّ[6]

وَفي أَخْبارِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ يَرْوي ابنُ حَزْمٍ أَنَّ جارِيَةً اشتَدَّ وَجْدُها بِفَتًى مِنْ أَبْناءِ الرّؤَساءِ، وَهُوَ لا عِلمَ عِندَهُ، فَكَثرَ غَمُّها، وَطالَ أَسَفُها إِلى أَنْ ضَنِيَتْ بِحبّهِ، فَلَمّا تَمادى الأَمْرُ، عَرَّضَتْ لَهُ بِالشِّعْرِ، فَلَمْ يَأبَهْ في كُلِّ هذا إِلى أَنْ عيلَ صَبْرُها، وَضاقَ صَدرُها، وَلَمْ تُمْسِكْ نَفسَها في قَعْدَةٍ كانَتْ لَها مَعَه في بَعضِ اللَّيالي مُنْفَرِدَيْنِ، وَلَمّا حانَ قِيامُها

(1) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 45.

(2) انظر: القطامي، ديوانه، 48.

(3) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 94.

(4) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 100.

(5) انظر: عمر بن أبي ر بيعة، ديوانه، 78.

(6) انظر: أبو نواس، ديوانه، 418.

عَنْهُ بَدَرَتْ إِلَيْهِ فَقَبّلَتْهُ، ثُمَّ وَلَّتْ في ذلِكَ الحينِ وَلَمْ تُكلِّمْه بِكَلمَةٍ، وَهِيَ تَتَهادى في مَشْيِها أَمامَه وَتَتَبخْترُ، فَوَصفَ ذلِكَ ابنُ حَزْمٍ قائِلاً مُصوِّرًا مَشْيَها في صُوَرٍ بَيانِيّةٍ عَذْبَةٍ:

كَأَنَّهــا حــينَ تَخْطــو فــي تَأوّدِهــا قَضيبُ نَرْجسَةٍ فـي الـرَّوْضِ مَيّـاسُ
كَأَنَّمــا خُلْــدُها فــي قَلْــبِ عاشِــقِها فَفيــهِ مِــنْ وَقْعِهــا خَطَــرٌ وَوَسْــواسُ
كَأَنَّمــا مَشــيُها مَشْــيُ الحَمامَــةِ لا كَــدٌّ يُعــابُ وَلا بُــطءٌ بِــهِ بــاسُ[1]

تِلْكَ بَعضُ هَيْئاتِ مَشْيِ المَعْشوقِ في أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ، وَلِمِشْيَةِ العاشِقِ صُوَرٌ أُخْرى عِندَهُمْ، فَكَثيرًا ما يَكونُ يَرقُبُ غَفلَةً مِنْ أَهْلِها، أَوْ مِنَ الرُّقَباءِ لِيَنالَ حَظًّا مِنْها، وَقَدْ يَتجاوَزُ أَحْراسًا عَلَيْها وَمَعْشرًا حِراصًا لَوْ يُسرّونَ مَقْتلَه، فَتَكونُ مِشيَتُهُ في هذا المَشْهَدِ العِشْقِيّ كمِشْيَةِ المُسْتَخْفي في اللّيْلِ، أَوِ السّارِبِ بِالنَّهارِ، وَمِنْ هذِهِ المَشاهِدِ التي تَجَلَّتْ في أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ ما رَسَمَه صَريعُ الغَواني وَهُوَ يُقابِلُ بَيْنَ هَيئَتَيْنِ: مِشْيَةِ المَعشوقِ الماشي الهُوَيْنا، وَمِشْيَة العاشِق المُرادِفِ الماشي في خِفْيةٍ وَاسْتِتارٍ:

قامَتْ تَمَشّى الهُوَينا نَحْوَ قُبَّتِها وَقُمْتُ أَمْشي خَفِيَّ الشَّخْصِ مُسْتَتِرا[2].

وَكَذلِكَ كانَتْ مِشْيَةُ عُمَرَ بنِ أَبي رَبيعَةَ مُنْضافًا إِلَيْها تَقنُّعُه وَقَدْ وَصَفَ نَفسَه بِأَنَّهُ أَخو الخَفاءِ في مِشيَتِهِ وَتَقنُّعِه:

فَــأَتَيْتُهُم عِنْــدَ العِشــاءِ مُخــاطِرًا حَــذِرَ الأَنــيسِ وَلَــيْسَ شَــيْئًا يَســمَعُ
أَقبَلْــتُ أُخْفــي مِشْــيَتي مُتَقَنِّعًــا وَأَخو الخَفاءِ إِذا مَشى يَتَقَنَّــعُ[3]

وَفي مَشْهَدٍ ثالِثٍ مُضارِعٍ لِما تَقَدَّمَ وَصْفُهُ مَشى عُمَرُ وَهُوَ يُخْفي وَطْأَهُ مَخافَةَ العُيونِ وَالنُّظّارِ، يَرفَعُ ذَيْلَ ثِيابِهِ حَتّى يُخْفِيَ آثارَه التي قَدْ يُهْتَدى بِها إِلَيْهِ، فَتكون عُنْصرًا مِنْ عَناصِرِ التَّواصُلِ غَيْرِ اللَّفظِيّ:

ثُــمَّ أَقبَلْــتُ رافِــعَ الــذَّيْلِ أُخْفــي الْــ ــوَطْءَ أَخْشــى العُيــونَ وَالنُظّــارا[4]

وَكَذلِكَ قَولُهُ:

---

(1) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 61.
(2) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 214.
(3) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 227.
(4) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 158.

فَقَعَـــدتُ مُرتَقِبـــاً أُلِـــمُّ بِبَيْتِهـــا حَتّـى وَلَجْـتُ بِـهِ خَفِـيَّ المَـوْلَجِ[1]

وَقولُهُ:

وَخُفِّضَ عَنّي النَّوْمُ أَقبَلْتُ مِشيَةَ الْـ ـــحُبابِ وَرُكْني خَشْيَةَ الحَيّ أَزْوَرُ[2]

مَقولاتٌ كُلّيّةٌ

وَبَعْدَ هذا العَرْضِ الآخِذِ في اسْتِشرافِ مَلامِحَ مِنْ لُغَةِ الجَسَدِ في أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ يَقومُ في النَّفْسِ سُؤالٌ خائِضٌ في تَفْسيرِ شُيوعِ هذِهِ الظّاهِرَةِ وَتَكاثُرِها في هذا المِضْمارِ، وَيَبْقى حَقًّا عَلى الباحِثِ الإجابَةُ عَنْه اسْتِكمالاً لِمُتَطلَّباتِ البَحْثِ، وَاسْتِشْرافًا لأَنْظارٍ تَفْسيريّةٍ تَجْمَعُ نثارَ ما تَقَدَّمَ، وَتَنْظِمُهُ في عِقْدِ مَقولاتٍ كُلّيّةٍ جامِعَةٍ:

أَمّا أَوّلُها فَطَبيعَةُ هذِهِ الظّاهِرَةِ:

لَعلَّ مِنَ البَواعِثِ الرَّئيسَةِ التي أَفْضَتْ إلى تَخَلّقِ هذِهِ الظّاهِرَةِ وَتَكاثُرِها في أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ طَبيعَةَ هذا المَوضوعِ الإنْسانِيّ العالَمِيّ، فَالعِشْقُ، وَهُوَ مَفْهومٌ مَعْنويٌّ مُجَرَّدٌ، لَهُ عَلاماتٌ وَأَماراتٌ تُصَدِّقُها الجَوارِحُ، وَالعاشِقُ، مِنْ وُجْهَةٍ أُخْرى، يُبرِزُ عِشقَهُ بِحالِهِ قَبْلَ مَقالِهِ، فَتَغْدو جَوارِحُهُ الجِسْميّةُ، وَحَرَكاتُهُ، وَهَيْئاتُهُ، شاهِدًا أَمينًا، وَناطِقًا مُبينًا، وَدالاً عَلى حالِهِ العِشْقِيّةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ في بابِ القَوْلِ عَلى عَلاماتِ العِشْقِ كَثيرٌ مِنَ العَلاماتِ الجَسَدِيَّةِ المُبينَةِ عَنْ حالِ صاحِبِها، وَالمُصَدِّقَةِ لِعِشْقِهِ، وَالفاضِحَةِ لِضَميرِهِ المُسْتَتِرِ، وَمِمَّنْ أَفْصَحوا عَنْ هذا المَعْنى مِنَ العُشّاقِ العَبّاسُ بنُ الأَحْنَفِ، وَهُوَ القائِلُ:

جَحَدتُ الهَوى حَتّى إذا كَشَفَ الهَوى غِطاءَ جُحودي وَاسْتَنارَتْ حَقائِقُهْ

سَكَتُّ وَلَمْ أَمْلِكْ شَهاداتِ حُبِّكُمْ وَنَمَّتْ عَلى وَجْهي وَجِسْمي نَواطِقُهْ

وَأَصْبَحتُ مَنْسوبًا إلى العِشْقِ كُلَّما ذُكِرْتُ وَلا يَدْرونَ مَنْ أَنا عاشِقُهْ[3]

وَكَذلِكَ قَوْلُ أَحْمَدَ بنِ طَيْفور:

تَكلَّم عَمّا في الصُّدورِ عُيونُنا وَتَفْقَهُ عَنّا أَعْيُنٌ وَحَواجِبُ

فَمَنْ قالَ إنَّ الحُبَّ يَخْفى لِذي الهَوى إذا ما رَأى أَحْبابَهُ فَهوَ كاذِبُ[4]

---

(1) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 84.

(2) انظر: عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، 121.

(3) انظر: العباس بن الأحنف، ديوانه، 226.

(4) الشعر لأحمد بن طيفور، انظر: ابن داود، الزهرة، 425/1.

وَأمّا ثانيها فَالعُرفُ العَرَبيُّ الاجْتِماعِيُّ:

وَمِنَ البَواعِثِ عَلى شُيوعِ هذِهِ الظّاهِرةِ، وَالمُفَسِّراتِ لَها، العُرفُ العَرَبِيُّ الاجتِماعِيُّ الذي رانَ عَلى قُلوبِ العَرَبِ، فَتَواصُلُ الذَّكَرِ مَعَ الأُنْثى وَاجْتِماعُهُما، وَتَجاذُبُهُما لَواعِجَ الهَوى، وَحُرقَةَ الجَوى، كُلّ ذلِكَ مِنَ المَحْظوراتِ التي لا يُبيحُها الدّينُ، وَلا يَرْتَضيها العُرفُ العَرَبِيُّ الاجتِماعِيُّ ذاكَ، وَلِذا كانَ عَلى مَنْ وَقَرَ العِشْقُ في قَلبِهِ أَنْ يَجِدَ بَديلاً يَسْتَعينُ بِهِ عَلى التَّواصُلِ وَالتّراسُلِ، فَكانَ التَّواصُلُ غَيرُ اللَّفظِيّ عامّةً، وَلَغةُ الجَسَدِ خاصَّةً، مِمّا يُستَعان بِهِ عَلى هذا، وَمِمّا يَسنُدُ هذِهِ الوُجْهَةَ التَّفْسيريّةَ ما جَأَرَ بِهِ نُصَيْبٌ مِنَ الشَّكْوى في حَضْرَةِ عَبْدِ العَزيزِ بنِ مَرْوانَ، فقَدْ سَأَلَهُ الأَخيرُ قائِلاً: هَلْ عَشِقْتَ يا نُصَيبُ؟ فَكانَ جَوابُهُ بِالإيجابِ، مُلْمِحًا إِلى أَنَّهُ لَمْ يَكنْ بِقادِرٍ عَلى التَّواصُلِ مَعَها قائِلاً: "فَما كُنْتُ أَقْدِرُ عَلى كَلامِها إِلاّ بِعَيْنٍ، أَوْ بَنانٍ، أَوْ إِشارَةٍ عَلى طَريقٍ، أَوْ إيماءٍ"[1].

وَقَدْ رَسَمَ هذا المَعْنى أَحَدُ أَهْلِ العِشْقِ المُبْتَلَيْن قائِلاً:

أَشارَتْ بِعَيْنَيْها إِشارَةَ خائِفٍ ... حِذارِ عُيونِ الكاشِحينَ فَسَلَّمَتْ
فَرَدَّ عَلَيْها الطَّرْفُ مِنّي سَلامَها ... وَأَوْما إِلَيْها أَسْكُني فَتَبَسَّمتْ
وَأَوْمَتْ إِلى طَرْفي يَقولُ لِطَرْفِها ... بِنا فَوْقَ ما تَلْقى فَأَشْجَتْ وَتَيَّمَتْ
فَلَوْ سُئِلَتْ أَلْحاظُنا عَنْ قُلوبِنا ... إِذَنْ لاشْتَكَتْ مِمّا بِها وَتَبَرَّمَتْ
وَما هكَذا إِلاّ عُيونُ ذَوي الهَوَى ... إِذا خافَتِ الأَعْداءَ يَوْمًا تَكَلَّمَتْ[2]

وَأمّا ثالِثُها فَشُيوعُ الرُّقَباءِ وَالعُيونِ:

وَمِمّا يَنْضافُ إِلى ما تَقَدَّمَ مِنْ أَنْظارٍ عُرْفِيّةٍ وَاجتِماعِيّةٍ شُيوعُ الرُّقَباءِ، وَالعُذّالِ، وَالوُشاةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ في بابِ "الرَّقيب في أدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ" بَيانٌ خائِضٌ في تَفْسيرِ شُيوعِهِ وَأَثَرِهِ في تَجلّي ظاهِرَةِ التَّواصُلِ غَيرِ اللَّفظِيّ في مَقاماتِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ، وَلَمّا كانَ ذلِكَ كذلِكَ غَدا عَلى العاشِقِ اسْتِفْزازُ طاقاتِ الجَسَدِ في التّواصُلِ، وَابْتِداعُ الوَسائِلِ

(1) انظر: الخرائطي، اعتلال القلوب، 333.

(2) انظر: ابن داود، الزهرة، 149/1.

لِلتّراسُلِ، وَالجُنوحُ في ذلِكَ كُلِّه إلى التَّعْمِيَةِ وَالكِتْمانِ خَوْفًا مِنَ الرُّقَباءِ وَالعُيونِ، وَمُحاوَلَةِ التَّجافي عَنِ الوُلوجِ في مَزالِقِ الحَرَجِ الاجتِماعِيِّ، وَتَجاوُزِ العاداتِ وَالأَعْرافِ التي هَيِ مُحْتَكَمٌ رَئيسٌ في تَعْيينِ ما هُوَ مُتَقَبَّلٌ حَسَنٌ، أَوْ مُسْتَقبَحٌ مَرْذولٌ، وَمِمّا يَسنُدُ هذِهِ الوُجْهَةَ مِنَ الأَنْظارِ المُفَسِّرةِ لِشُيوعِ هذِهِ الظّاهِرَةِ قَوْلُ الرَّقاشِيِّ:

إذا نَحنُ خِفْنا الكاشِحينَ فَلَمْ نُطِقْ ... كَلامًا تَكَلَّمْنا بِأَعْيُنِنا سِرًّا
نَصُدّ، إذا ما كاشِحٌ مالَ طَرْفُهُ ... إلَيْنا، وَنُبْدي ظاهِرًا بَيْنَنا هَجْرا
فَإِنْ غَفلوا عَنّا رَأَيْتَ خُدودَنا ... تَصافَحُ، أَوْ ثَغْرًا قَرَعْنا بِهِ ثَغْرا
فَنَقْضي وَلَمْ يُعْلَمْ بِنا كُلُّ حاجَةٍ ... وَلَمْ نُظْهِرِ الشَّكْوى وَلَمْ نَهْتِكِ السِّتْرا
وَلَوْ قَذَفَتْ أَحْشاؤُنا ما تَضَمَّنَتْ ... مِنَ الوَجدِ وَالبَلوَى إِذَنْ قَذَفَتْ جَمْرا

وَأمّا رابِعُها فَالتَّقْليدُ وَالاتِّباعُ:

وَمِنَ المُفَسِّراتِ لِشيوعِ الظّاهِرَةِ مَلْحَظُ التَّقْليدِ وَاتّباعِ الشّعَراءِ لبَعْضِهِمْ، وَجَرْيِهِمْ عَلى مَأْلوفٍ مِنَ الصّوَرِ التي انْعَقَدَ عَلَيْها إِجْماعُهُم، فَشاعَتْ في أَشْعارِهِمْ وَكَثُرَتْ، وَصارَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُعَبِّرُ عَنْ ذلِكَ المَعْنى الجَمْعِيِّ بِأُسْلوبِهِ الفَرْدِيِّ، وَمِنْ هذِهِ الصّورِ الجَسَدِيَّةِ نُحولُ العاشِقِ وَفَناؤُهُ، وَقَدْ تَتَبَّعْتُها في أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ، فَكانَتْ جَليّةَ الحُضورِ لا يَكادُ شاعِرٌ إلاّ وَقَدْ أَتى عَلَيْها، وَقَدْ أَشَرْتُ إلى ذلِكَ في بابِ القَوْلِ عَلى عَلاماتِ العِشْقِ وَشَواهِدِه، وَكَذلِكَ صورَةُ العاشِقِ البَكّاءِ، وَمِشْيَةِ الهُوَيْنا وَالوَجَلِ الخاصَّةُ بِالنِّساءِ الظَّريفاتِ العَفيفاتِ، وَغَيرُ ذلِكَ كَثيرٌ كَثيرٌ.

وَأمّا خامِسُها فَالحَياءُ:

وَمِنَ البَواعِثِ المُنْتَسِبَةِ إلى الأَنْظارِ النَّفْسِيّةِ، والمُفَسِّراتِ لِشُيوعِها، الحَياءُ الذي يَعْتَري المَعْشوقَةَ في الكَثيرِ الغالِبِ، فَالحَياءُ عاقِدٌ لِلسانِ، كاتِمٌ لِلبَيانِ، وَإِذا كانَ أَثَرُ الحَياءِ كَذلِكَ، فَلا بُدَّ مِنْ سَبيلٍ أُخْرى لِلْبَيانِ، وَالتَّواصُلِ، وَالتَّراسُلِ، وَقَدْ تَكونُ لُغَةُ الجَسَدِ، وَالإِشاراتُ، وَالإِيماءاتُ، مِمّا يَقومُ مَقامَ البَيانِ بِاللّسانِ في مِثْلِ تِلكُمُ المَقاماتِ. وَلَعَلَّ خَيْرَ المُثُلِ المُجلِّيَةِ لِهذا المَلْحَظِ النَّفْسِيِّ صَمْتُ البِكرِ الدّالُّ عَلى رِضاها في مَقامِ التَّزْويجِ، فَقَدْ وَرَدَ عَنْ رَسولِ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- أَنّهُ أَمَرَ أَنْ

(1) انظر: ابن داود، الزهرة، 149/1، والمبرد، الكامل، 884/2، والسراج، مصارع العشاق، 96/1.

تُسْتَأمَرَ النِّساءُ في أَبْضاعِهِنّ، فَأشارَتْ عائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْها- إلى أَنَّ البِكْرَ تَسْتَحْيي، فَقالَ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ-: "إِذْنُها صِماتُها، وَرُوِيَ: سُكوتُها رِضاها"[1].

وَكَذلِكَ قَوْلُ الشّاعِرِ:

وَمُتَــرَّفٍ عَقَــلَ الحَيــاءُ لِســانَهُ فَكَلامُــهُ بِــالوَحْيِ وَالإيمــاءِ[2]

وَأَمّا سادِسُها فَرِوايَةُ حَدَثِ العِشْقِ:

وَمِنَ البَواعِثِ كَذلِكَ رِوايَةُ حَدَثِ العِشْقِ رِوايَةً تَفْصيلِيّةً يَأْتي فيها العاشِقُ الشّاعِرُ، أَوِ الـرّاوي عَلـى تَفاصـيلِ الحَـدَثِ العِشْـقِيّ وَمـا اشْـتَمَلَ عَلَيْـهِ صَـمْتِيّاتٍ، وَكَلامِيّـاتٍ، وَحَرَكِيّـاتٍ، فَيوقِـفُ المُتَلقّي فـي الحَـدَثِ المُـرادِ نَقْلُـهُ، أَوْ وَصْـفُهُ، عَلـى كَـلامِ العُيـونِ، وَإِشاراتِ البَنانِ، وَإيماءاتِ الحَواجِبِ في حَدَثٍ عِشْقِيٍّ كانَ قَدْ عايَنَه، فَوَصَفَه، فَوَفّاهُ حَقَّهُ في النَّقْلِ وَالتَّصْويرِ، فَيَكونُ ناقِلاً أَمينًا، وَشاهِدًا مُبِينًا، وَمِنَ الأَمْثِلَةِ المُبينَةِ عَنْ ذلِكَ عُمَرُ بـنُ أَبـي رَبيعَـةَ الـذي كـانَ مولَعًـا فـي رِوايَـةِ الحَـدَثِ العِشْـقِيّ روايَـةً يَسْتَشـرِفُ فيهـا شُخوصَ الحَدَثِ، وَزَمانَهُ، وَمَكانَهُ، وَالحَرَكاتِ الجَسَدِيّةَ، وَالإيماءاتِ، وَالإِشاراتِ.

وَمِنْ مِثْلِ هذِهِ الأَحْداثِ العِشْقِيّةِ التي يُعْنى بِها العاشِقُ الشّاعِرُ بِرِوايَةِ الحَرَكَةِ في رِوايَةِ قِصّتِهِ قَوْلُ صَريعِ الغَواني:

لايَنْثُنُهـا بِـاخْتِلاسِ اللَّحْـظِ فَانْخَشَـعَتْ لِلحُـبِّ جارِيَـةٌ أَقْسـى مِـنَ الحَجَـر

أَتْبَعْتُهـا نَظَـري حَتّـى إِذا عَلِمَـتْ مِنّـي الهَـوى قارَضَـتْني الـوَدَّ بِـالنَّظَرِ

فَـنَحْنُ مِـنْ خَطَـراتِ الحُـبِّ فـي وَجَـلٍ وَمِـنْ تَقَلُّـبِ طَرْفَيْنـا عَلـى خَطَـرِ[3]

وَأَمّا سابِعُها فَاسْتِجْلابُ الهَوى:

وَمِمّا يُفَسَّرُ بِهِ شُيوعُ هذِهِ الظّاهِرَةِ تَعَمُّدُ إِتْيانِ الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ في "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ"، وَمِنَ المَقاصِدِ المُتَعيّنَةِ مِنْ ذلِكَ لَفْتُ الأَنْظارِ، وَاستِجْلابُ الخَواطِرِ، وَهذا مَلْحَظٌ عَرَّجَ عَلَيْهِ ابنُ حَزْمٍ في "طَوق الحَمامَة" مُشيرًا إِلى أَنّهُ شَيءٌ يَصِفُهُ لِلنّاظِرِ الذي

---

(1) أخرجه البخاري في الصحيح، باب "لا يجوز نكاح المكره"، (6546)، 2547/6، وأحمد بن حنبل في المسند، مسند أبي هريرة، (7131)، 229/2.

(2) انظر: أبو نواس، ديوانه، 12.

(3) انظر: صريع الغواني، ديوانه، 272.

يَراهُ عيانًا، فَما رَأى قَطُّ امْرَأةً في مَكانٍ تُحِسُّ أَنَّ رَجُلاً يَراها، أَوْ يَسمَعُ حِسَّها، إلاّ وَأَحْدَثَتْ حَرَكةً فاضِلةً كانَتْ عَنْها بِمَعزِلٍ، وَأَتَتْ بِكَلامٍ زائِدٍ كانَتْ عَنْهُ في غُنْيةٍ، مُخالِفَيْن لِكَلامِها وَحرَكتِها قَبْلَ ذلِكَ، وَشَأنُ تِلْكَ المَرْأةِ هُو شَأنُ ذلِكَ الرّجُلِ، فَالرّجالُ كذلِكَ إذا أَحَسّوا بِالنِّساءِ، "وَإمّا إظهارُ الزّينَةِ، وَتَرْتيبُ المَشْيِ، وَإيقاعُ المَزْحِ عِندَ خُطورِ المَرْأةِ بِالرّجُلِ، وَاجْتِيازِ الرّجُلِ بِالمَرأةِ، فَهذا أَشْهرُ مِنَ الشَّمسِ في كُلِّ مَكانٍ، وَاللهُ -عَزَّ وَجلَّ- يَقولُ: "وَقُلْ لِلمُؤمنينَ يَغُضّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحفَظوا فُروجَهُمْ"، وَقالَ -تَقَدّسَتْ أَسْماؤُهُ-: "وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفينَ مِنْ زينَتِهِنَّ"، فَلَوْلا عَلِمَ اللهُ -عَزَّ وَجلَّ- بِرِقّةِ إغْماضِهِنّ في السَّعيِ لإيصالِ حُبّهِنّ إلى القُلوبِ، وَلُطْفِ كَيْدِهِنّ في التّحَيّلِ لاسْتِجلابِ الهَوى، لَما كَشَفَ اللهُ عَنْ هذا المَعْنى البَعيدِ الغامِضِ"[1].

(1) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، 121.

وَيَعِنُّ لي، وَأَنا أُمْسِكُ عِنانَ القَلَمِ عَنِ الكِتابَةِ، وَأُلَمْلِمُ أَوْراقي في مُخْتَتَمِ هذا الدَّرْسِ، أَنْ أُعَرِّجَ، وَلَوْ عَلى هَيْئَةٍ مِنْ مُقْتَضَبِ القَوْلِ وَمُجْمَلِهِ، عَلى أَجْلى ما وَرَدَ فيهِ لِيَكونَ هذا الصّنيعُ اسْتِصْفاءً وَتَجْلِيَةً. أمّا المَقولاتُ التي أخْتِمُ بِها فَعِدّتُها ثَمانٍ:

- أَوّلُها اسْتِذْكارٌ.
- وَثانيها احْتِراسٌ.
- وثالِثُها تَفْسيرٌ.
- وَرابِعُها تَقْريرٌ.
- وَخامِسُها اسْتِدْراكٌ.
- وَسادِسُها عالَمِيّةٌ.
- وَسابِعُها فاتِحَةٌ.
- وَثامِنُها اقْتِباسٌ.

أَوّلُها اسْتِذْكارٌ:

لَقَدْ بَدا أنَّ هذِهِ مُباحَثَةٌ أَتَيْتُ فيها عَلى الدِّلالَةِ التي تَتَخَلَّقُ مِنْ "لُغَةِ الجَسَدِ"، وَقَدِ ائْتَلَفَتْ مِنْ ثَلاثَةِ مَطالِبَ عَريضَةٍ: أَوَّلُها: الأَنْظارُ المُمَهِّدَةُ التي قُصِدَ مِنْها التَّعْريجُ عَلى مِهادٍ يَسْتَجْمِعُ حَديثًا عَنِ البَيانِ بِلا لِسانٍ، وَحَديثًا آخَرَ عَنْ سُهْمَةِ لُغَةِ الجَسَدِ في الإِبانَةِ وَالتّواصُلِ، وَحَديثًا عَنْ لُغَةِ الإِشارَةِ التي يَنْعَقِدُ عَلَيْها إِجْماعُ الصّمِّ وَالبُكْمِ، وَالتَّمْثيلِ الصّامِتِ الذي يَفيءُ أَهْلُهُ إِلى "لُغَةِ الجَسَد" في الإِبانَةِ عَنِ المَقاصِدِ، وَحَديثًا عَنْ تَرَدّدِ لُغَةِ الجَسَدِ بَيْنَ الفِطْرِيّ وَالمُكتَسَبِ، وَالعامِّ وَالخاصِّ، وَالتَّواصُلِ وَالتَّفاصُلِ. أَمّا بابُ القَوْلِ عَلى "الأَنْظارِ المُؤَصِّلَةِ" فَقَدْ قُصِدَ مِنْهُ تَأْصيلُ دَرْسِ هذِهِ الظّاهِرَةِ، وَتَلَمُّسُ مَواضِعِ وُرودِها في بَعْضِ دِراساتِ القُدَماءِ؛ وذلكَ نَحوُ تَلَمّسِها عِنْدَ بَعْضِ البَلاغِيّينَ، وَالمُعْجَمِيّينَ، وَاللُّغَوِيّينَ، وَالأُصولِيّينَ، وَالفَلاسِفَةِ وَالفِراسِيّينَ، وَكانَ ذلِكَ مِنْ خِلالِ أَعْلامٍ مَخْصوصَةٍ. أَمّا بابُ القَوْلِ عَلى "الأَنْظارِ المُسْتَشْرِفَةِ" فَقَدْ قُصِدَ مِنْهُ اسْتِشْرافُ هذِهِ

الظّاهِرَةِ في نُصوصِ العَرَبيّةِ المُتَقادِمَةِ، وَتَلَمُّسُ تَجَلِّياتِها، وَدِلالاتِها، وَأَغْراضِها، فَكانَ مُؤْتَلِفًا مِنْ ثَلاثِ مُباحَثاتٍ فَرْعِيّةٍ: الأولى مِضْمارُها التَّنْزيلُ العَزيزُ، وَالثّانِيَةُ مِضْمارُها الحَديثُ النّبَوِيُّ الشَّريفُ، وَالثّالِثَةُ مِضْمارُها أَدَبُ العِشْقِ وَالعُشّاقِ.

وَثانيها احْتِراسٌ:

أمّا الاحْتِراسُ فَفيهِ إِشارَةٌ إِلى أنَّ المَبْثوثَ في هذِهِ المُباحَثاتِ قَليلٌ قِلَّةً بالِغَةً مِنْ كَثيرٍ كَثْرَةً ظاهِرَةً، وَلَمْ يَكُنْ مَقْصِدُ الباحِثِ الاسْتِقْصاءَ وَالتَّطْويلَ، بلْ كانَ التَّعْريفَ بِهذِهِ الظّاهِرَةِ أوّلاً، وَتَأصيلَ دَرْسِها عِنْدَ عُلَماءِ العَرَبِيّةِ ثانِيًا، وَالتَّعْريجَ عَلى أَجْلى شَواهِدِها، وَمَواضِعِ تَمَثّلِها في نُصوصِ العَرَبِيّةِ المُتَقادِمَةِ ثالِثًا، وَبَيانَ فَضْلِها في إِقامَةِ التّواصُلِ، وَالإِبانَةِ، وَالبَيانِ، وَالتَّبْيينِ، رابِعًا.

وثالِثُها تَفْسيرٌ:

أمّا التّفسيرُ فَقَدْ بَدا لِلباحِثِ أنَّ "لُغَةَ الجَسَدِ" في سِياقِها التّواصُلِيِّ الحَيِّ المُشاهَدِ تُؤدّي أغْراضًا وَوظائِفَ مُتَعَدّدةً، وأنّها قَدْ تُتَناولُ مِنْ وُجُهاتٍ مُتَباينات، كَالوُجْهَةِ الدِّلالِيّةِ، وَالوُجْهةِ النَّفْسِيّةِ، والوُجْهَةِ البَلاغِيّةِ الجَماليّةِ، والوُجْهَةِ التَّرْبَوِيّةِ، والوُجْهَةِ التّوْضيحِيّةِ التَّمْثيلِيّةِ.

أمّا الوُجْهةُ الدِّلالِيّةُ فَقَدْ تَكونُ الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ مِنَ الرّوافِدِ التي تُغَذّي المَعْنى، وتُعَزِّزُ فِكْرتَهُ وَدِلالتَهُ الكُلّيّةَ؛ وَبِذا تَتَضافَرُ الحَرَكِيّاتُ وَالكَلامِيّاتُ في الإِبانَةِ وَأَداءِ المُراداتِ، وَقَدْ تَكونُ نائِبًا أَمينًا يَقومُ مَقامَهُ، فَيُؤدّي غَرَضَه مِنْ وُجْهةٍ لَفْظِيّةٍ، فَقَدْ تَغْدو الحَرَكةُ الجَسَديّةُ مِمّا يَسُدُّ مَسَدَّ الكَلامِ، فَيَكونُ الوَصْفُ الحَرَكيُّ في سِياقِه قائِمًا على مَلْحَظِ الاعْتِياضِ، وَتَكونُ تِلكَ الحَرَكَةُ مِنَ البَدائِلِ التي تَقومُ مَقامَ سِياقٍ لَفظِيٍّ، إِنْ كَلِمَةً، وَإِنْ جُمْلةً، وَإِنْ كَلامًا.

وَقَدْ تَكونُ موجِزَةً مُخْتَصِرَةً كَما جاءَ قَبْلاً، وَ"هُو أنْ يَكونَ اللّفْظُ القَليلُ دالاًّ عَلى المَعْنى الكَثيرِ، حَتّى تَكونَ دِلالةُ اللَّفظِ كَالإِشارَةِ بِاليَدِ، فَإِنّها تُشيرُ بِحَرَكَةٍ واحِدَةٍ إِلى أَشْياءَ كَثيرةٍ لَو عُبِّرَ عَنْها بِأَسْمائِها لاحْتاجَتْ إِلى عِبارَةٍ طَويلةٍ، وَأَلْفاظٍ كَثيرةٍ"[1]، وَلِذلكَ كُلِّه فَإِنَّ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةَ وَالهَيئاتِ في هذا الدَّرْسِ، تُعَزِّزُ، وَتَسُدُّ، وَتُؤَكِّدُ، وَتَشْرَحُ،

(1) انظر: ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، 82.

وَتُمَثِّلُ، وتُخَصِّرُ.

وَأمّا الوُجْهةُ التّوْضيحِيّةُ التَّمْثيليّةُ فَقَدْ تَكونُ لُغَةُ الجَسَدِ مُمَثِّلَةً للمَعْنى المُرادِ تَوْصيلُهُ تَمْثيلاً مُحَسًّا مُشَخَّصًا بِالحَرَكاتِ وَالإيماءاتِ، وَلَعَلَّ المِثالَ القَريبَ الحاضِرَ حَرَكاتُ المَقاييسِ الجَسَدِيّةِ؛ كَالشِّبْرِ، أَوْ إِشارَةِ الطّولِ، أوِ الضَّخامَةِ، وَلَيْسَ يَخْفى أَنَّنا كَثيرًا ما نَفيءُ إِلى الإِشاراتِ الجَسَدِيّةِ، وَالحَرَكاتِ، وَالإيماءاتِ، لِرَسْمِ المَعْنى رَسْمًا جَسَدِيًّا تَصْويريًّا، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَمْثِلَةٌ مِنْ ذلِكَ في بابِ القَوْلِ عَلى اسْتِشْرافِ هذِهِ الظّاهِرَةِ في الحَديثِ النّبَويِّ الشَّريفِ، وَبِذا تَكونُ وَظيفَةُ لُغَةِ الجَسَدِ في مِثْلِ هذِهِ المُثُلِ وَالسِّياقاتِ التَّمْثيلَ وَالتَّوْضيحَ.

وَأمّا الوُجْهةُ النَّفْسِيّةُ فَقدْ تَكونُ لُغَةُ الجَسَدِ وَحَرَكاتُها مِنَ الكَواشِفِ عَنْ حالاتٍ نَفْسِيّةٍ ما كانَ أَكْثَرَها في حَياتِنا اليَوْمِيّةِ؛ وَمن الدّوالِّ البَرّانِيّةِ عَلى أَحْوالِ أَصْحابِها الجَوّانِيّةِ المَكْنونَةِ التي يُمْكِنُ أَنْ يُفْصِحَ المَرْءُ عَنْها إِفْصاحَ نُطْقٍ، وَهذا هُو مِضْمارُ اللّغَةِ الصّائِتَةِ وَالكَلامِيّاتِ، وَإِفْصاحَ حَرَكَةٍ، وَهذا هُوَ مِضْمارُ الصَّمْتِيّاتِ وَالحَرَكِيّاتِ؛ كَالرَّأْسِ الخَفيضِ المُتَطامِنِ في مَقامِ التَّنْكيسِ وَالارْتِكاسِ، أَوْ قَضْمِ الأَظافِرِ، أَوْ مَسْرَحِ التَّدْخينِ الحَمّالِ لِمَعانٍ وَإيحاءاتٍ تَقَدَّمَ بَيانٌ عَنْها.

وَأمّا الوُجْهَةُ البَلاغِيّةُ الجَماليّةُ فَقَدْ تَغْدو "لُغَةُ الجَسَدِ" في سِياقِها ذاتَ أَلَقٍ مُشِعٍّ يَبْعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي إِعْجابًا وَاسْتِحْسانًا، فَلِلْمَرْءِ أَنْ يُعيدَ عَلى صاغي سَمْعِهِ في كَثيرٍ مِنَ الرّوِيّةِ وَالتّدَبُّرِ البَوْنَ المُتَجَلّيَ بَيْنَ قَوْلِ النّاسِ "فَأَصْبَحَ نادِمًا"، وَقَوْلِ رَبِّ النّاسِ: "فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ".

وَأَمّا الوُجْهَةُ التّرْبَوِيّةُ فَقَدْ تَغْدو "لُغَةُ الجَسَدِ" في سِياقِها ذاتَ أُفُقٍ تَرْبَوِيٍّ يَصْرِفُ الأَبْصارَ تِلْقاءَ ما هُوَ مَنْدوبٌ مُتَقَبَّلٌ يَقْبَلُهُ العُرْفُ وَيُبيحُهُ، أَوْ ما هُوَ مَكْروهٌ يَمجُّهُ وَيَسْتَقْبِحُهُ؛ ذلِكَ أَنَّهُ مِنَ المَحْظوراتِ الحَرَكِيّةِ، وَمِنْ تَجَلّياتِ الأَخيرَةِ الحَرَكاتُ الجِنْسِيّةُ، أوِ الحَرَكاتُ المُنْبِئَةُ عَنِ التَّعالي أَوِ الغُرورِ.

وَرابِعُها تَقْريرٌ:

أَمّا التَّقْريرُ فَفيهِ الإِلْماحَةُ إِلى أَنَّ كَثيرًا مِنَ النَّظَريّاتِ وَالظَّواهِرِ الدِّلالِيّةِ التي تَصْدُقُ عَلى جَسَدِ اللّغَةِ وَالكَلامِيّاتِ تَصْدُقُ عَلى لُغَةِ الجَسَدِ وَالصَّمْتِيّاتِ، وَمِنْها:

- ظاهِرَةُ المُشْتَرَكِ اللّغَوِيِّ التي تَصْدُقُ عَلى اللَّفْظَةِ الكَلامِيّةِ؛ كَقَوْلِنا "عَيْن"، وَالحَرَكِةِ

الجَسَدِيّةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذلِكَ قَبْلاً.

- وَمِنْها ظاهِرَةُ التّرادُفِ التي تَصْدُقُ عَلى القُطْبَيْنِ: لُغَةِ الجَسَدِ، وَجَسَدِ اللّغَةِ.

- وَمِنْها ظاهِرَةُ الالْتِفاتِ البَلاغِيّةُ التي تَصْدُقُ عَلى القُطْبَيْنِ، فَقَدْ يَلْتَفِتُ المَرْءُ في بَيانِهِ اللّغَوِيّ الْتِفاتًا المَقْصِدُ مِنْهُ جَذْبُ السّامِعِ أوِ القارِئِ، وَاسْتِفْزازُ خَواطِرِهِ، وَقَدْ يَكونُ الالْتِفاتُ بِالحَرَكَةِ، كَأَنْ يَأتِيَ بِحَرَكَةٍ مُفاجِئَةٍ في سِياقٍ ما تَحْقيقًا لِغَرَضِ لَفْتِ السّامِعِ أوِ النّاظِرِ، وَقَدْ تَقَدَّم ذلِكَ كُلُّهُ.

- وَمِنْها ظاهِرَةُ التَّوْكيدِ التي تَتَجَلّى في القُطْبَينِ، فَثَمَّ تَأكيدٌ كَلامِيٌّ يَتَرَدّدُ بَيْنَ التَّأْكيدِ المَعْنَوِيّ وَاللَّفْظِيّ، وَثَمَّ تَأْكيدٌ حَرَكِيٌّ يُعَزِّزُ المَنْطوقَ وَيُؤَكِّدُهُ.

- وَمِنْها نَظَريّةُ الدّالِّ وَالمَدْلولِ التي تَعْتَورُ العَلامَةَ اللّغَوِيّةَ، وَهِيَ تَعْتَورُ الحَرَكَةَ الجَسَدِيّةَ كَذلِكَ.

- وَمِنْها ظاهِرَةُ "المَحْظوراتِ اللّغَويّةِ-Taboo" التي نَتَجافى ما اسْطَعْنا عَنْها في سِياقاتٍ كَلامِيّةٍ كَثيرَةٍ؛ ذلِكَ أَنَّها غَدَتْ مِنَ المُسْتَهْجَنِ المُسْتَقْبَحِ الذي تَمجُّهُ النَّفْسُ، وَيَنْبو عَنْهُ السَّمْعُ، وَكَذلِكَ لُغَةُ الجَسَدِ، فَفيها حَرَكاتٌ، وَهَيئاتٌ، وَمُتَمِّماتٌ مُسْتَقْبَحَةٌ تَنْتَسِبُ إِلى المَحْظوراتِ الحَرَكِيّةِ المَطَّرَحَةِ، وَلَعَلَّ إِتْيانَها قَدْ يُفْضي إِلى الوُلوجِ في مَزالِقِ الحَرَجِ الاجْتِماعِيّ، أَوِ الإِشْكالِ.

- وَمِنْها نَظَرِيّةُ السّياقِ التي نَتَصَيّدُ بِها مَعْنى الكَلِمَةِ وَهُوَ مُحيطٌ بِها، وَكَذلِكَ شَأْنُ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ، فَتَعْيينُ مَعْنى حَرَكَةٍ جَسَدِيّةٍ ما يَجِبُ أَلاّ يَكونَ بِمَعْزِلٍ عَنِ السّياقِ الذي فيه تَرِدُ، وَلَيْسَ يُنْسى الالْتِفاتُ إِلى ما يُصاحِبُها مِنْ حَرَكاتٍ أُخْرى تَتَرافَدُ وَتَتَضافَرُ في الإِبانَةِ وَالبَيانِ، فَالحَرَكَةُ -وَقَدْ تَقَدّمَتْ إِلْماحَةٌ إِلى هذا- كَالكَلِمَةِ، فَلَها دِلالَةٌ مُجَرَّدَةٌ مَبْثوثَةٌ في بُطونِ المُعْجَماتِ، وَلَها دِلالَةٌ أَوْ دِلالاتٌ أُخْرى تَتَبايَنُ بِتَبايُنِ السِّياقِ، وَتَباينِ ما يُصاحِبُها مِنْ كَلِماتٍ أُخْرى، وَهذِهِ هِيَ حالُ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ في لُغَةِ الجَسَدِ.

وَخامِسُها اسْتِدْراكٌ:

أَمّا الاسْتِدْراكُ فَقَدْ بَدا لي في هذا الدَّرْسِ؛ دَرْسِ لُغَةِ الجَسَدِ، زَعْمٌ مَفادُهُ أَنّ

التّواصلَ بِالجَسَدِ جِدُّ قَديمٍ قُدْمَةَ الإِنْسانِ[1]، وَلكِنّ دِراستَهُ لَمْ تَتِمّ إلاّ حَديثًا جِدًّا، وَالظّاهرُ أنّ هذِهِ المَقولَةَ في شِقّها الأَوّلِ لا شِيَةَ عَلَيْها وَلا شُبْهَةَ. أمّا في شِقّها الثّاني فَقَدْ بَدا أنّها مُحْتاجَةٌ إلى تَبَصُّرٍ، وَمُراجَعَةٍ، وَاسْتِدْراكٍ؛ ذلِكَ أَنّ لِلغَةِ الجَسَدِ في مُصَنَّفاتِ القُدَماءِ حُضورًا جَلِيّاً أمْرُهُ، فَقَدْ عَوَّلوا عَلَيْها كَثيرًا في اسْتِشْرافِ المَعاني وَالمَقاصِدِ، وَلَيْسَ يَصِحُّ في الفَهْمِ، وَلا يَسْتَقيمُ، أنْ يُظَنَّ أَنّ التّأليفَ فيها حَديثٌ، بَلِ الأَمْرُ بِالضِّدِّ، فَلِعُلَماءِ العَرَبِيّةِ قَصبُ سَبْقٍ طَويلٍ في هذا المِضْمارِ، وَلكِنّهمْ لَمْ يُفْرِدوا –فيما أَحَطْتُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ– كُتُبًا يَسْتَبْطِنونَ فيها هذِهِ الظّاهِرَةَ، بَلْ كُلُّ ما وَصَلَ إِلَيْنا كانَ شَذَراتٍ مُتَفَرّقَةً مَبْثوثَةً في ثَنايا كُتُبِهِمْ، وَلَعَلّ البَوْنَ بَيْنَ عُلَماءِ العَرَبِيّةِ التّراثِيّينَ وَالمُحْدَثينَ الغَرْبِيّينَ أنَّ الأَخيرينَ فَصَّلوا، وَبَوَّبوا، وَأَسْهَبوا، فَعَقَدوا لِكُلِّ جارِحَةٍ بابًا، أوْ أبْوابًا، أوْ كُتُبًا قائِمَةً بِرَأْسِها، وَاتَّسَمَتْ دِراساتُهُمْ بِالعِلْمِيّةِ أَوّلاً، وَالتَّطْبيقِيّةِ ثانِيًا، وَالشّمولِيّةِ ثالِثًا، فَغَدَوْا المَرْجِعَ الرّئيسَ في تَمَثُّلِ مَقولاتِ هذا الدَّرْسِ، وَاسْتِشْرافِ أرْكانِهِ وَمَوْضوعاتِهِ في العَصْرِ الحاضِرِ.

وَسادِسُها عالَمِيّةٌ:

أمّا هذِهِ الخامِسَةُ فَقَدْ بَدا أَنّ لُغَةَ الجَسَدِ الصّامِتَةَ –وَقَدْ تَقَدّمَ الحَديثُ عَنْ هذا– عالَمِيّةٌ، فَثَمّ حَرَكاتٌ وَإيماءاتٌ مُعَمَّرَةٌ مُتَقادِمَةٌ تُتَداوَلُ في المَشارِقِ وَالمَغارِبِ، وَمِثالُ ذلِكَ حَرَكَةُ عِمادُها وَضْعُ الإِصْبَعِ أوِ البَنانِ في الفَمِ، وَقَدْ رَآها "موريس" دالّةً على الخَوْفِ، أوِ القَلَقِ، أوْ ما يَدورُ في فَلَكِ هذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ[2]، وَقَدْ رَواها لَنا عُمَرُ بنُ أبي رَبيعَةَ مِنْ قَبْلُ رِوايَةَ حَرَكَةٍ وَسِياقٍ فَقالَ:

وَقالَتْ وَعَضَّتْ بِالبَنانِ فَضَحْتَني وَأَنْتَ امْرُؤٌ مَيْسورُ أمْرِكَ أعْسَرُ[3].

---

(1) من الباحثين من يذهب إلى اللغة الإنسانية الكلامية في أصلها إشارية، بل تطورت من إشارات اليد والوجه. انظر: مايكل كوربالیس، في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم، 80، وانظر كذلك:

David F. Armstrong, Original Signs: Gesture, Sign, and the Sources of Language, Gallaudet University Press, 1999.

(2) انظر: باكو، لغة الحركات، 64.

(3) تقدم تخريجه والإشارة إليه.

وَمِثْلُها وَضْعُ الأَنامِلِ في الآذانِ، وَتَغْطِيةُ الوَجْهِ بِاليَدَيْنِ لِلإِعْراضِ عَنِ الرّؤْيَةِ أوِ السَّمْعِ، أوْ قَدْ يَكونُ الباعِثُ عَلى إِتْيانِ هاتَيْنِ الحَرَكَتَيْنِ الخَوْفَ، أوِ التَّصامُمَ، وَهُما حَرَكَتانِ مُعَمَّرَتانِ مُتَقادِمَتانِ شائِعَتانِ شَرْقًا وَغَرْبًا، فَقَدْ أَتى عَلَيْهِما "غدويس" و"غروست" بِالوَصْفِ وَالتَّحْليلِ[1]، وَقَدْ وَرَدَتا في التَّنْزيلِ العَزيزِ كَما تَقَدَّمَ في بابِ القَوْلِ عَلى اسْتِشْرافِ هذِهِ الظّاهِرَةِ ثَمَّ[2].

وَسابِعُها فاتِحَةٌ:

أمّا هذِهِ السّابِعَةُ فَذاهِبٌ فيها إِلى أَنَّ خاتِمَةَ القَوْلِ في هذا الدَّرْسِ يَنْبَغي أنْ تَكونَ فاتِحَةً للبَحْثِ وَالباحِثِ؛ إِذْ إِنّهُ مُحْتاجٌ إِلى اسْتِكْمالِ الأَنْظارِ التي تَسْتَغْرِقُ جَوانِبَهُ، وَتُجَلّي حُدودَهُ، وَحَسْبي أَنَّني بَدَأْتُ، فَهذا نَظَرٌ بَحْثِيٌّ أَتَيتُ فيهِ عَلى هذِهِ الظّاهِرَةِ في ثَلاثَةِ مَطالِبَ؛ عَلى ظاهِرَةِ البَيانِ بِلا لِسانٍ عامّةً، وَلُغَةِ الجَسَدِ خاصّةٍ، وَقَد عَرَّجتُ فيهِ عَلى حركاتٍ جَسَدِيّةٍ، وَهَيئاتٍ، وَمُتَمِّماتٍ مُفْضِيَةٍ إِلى دِلالاتٍ، وَمُعيّنَةٍ لِمَعانٍ، وَمِنْ ذلِكَ الوَجْهُ وَدِلالاتُه، وَالعَيْنُ، وَالرّأسُ، وَاليَدُ، وَالمِشْيَةُ، وَاللّبسَةُ، وَغَيْرُ ذلِكَ مِمّا وَرَدَ في هذا البَحْثِ الذي أَرْجو وَآمُلُ –وَالرَّجاءُ كَبيرٌ، وَالأَمَلُ عَريضٌ– أنْ يَكونَ فاتِحَةً لِدَرْسٍ أرْحَبَ أفُقًا، وَأَكْثَرَ اسْتِغْراقًا:

- فاتِحَةً لِمُعْجَمٍ لُغَوِيٍّ يَرْصُدُ أَلفاظَ الحَرَكَةِ الجَسَدِيّةِ لِيُثْبِتَها فيهِ مُقَسِّمَها إِلى حَرَكاتٍ فِطْرِيّةٍ، وَأُخْرى مُكْتَسَبَةٍ، أوْ مِهْنِيّةٍ، أوْ جِنْسِيّةٍ، أوْ سِياسِيّةٍ، أوْ أَنْثَوِيّةٍ.
- فاتِحَةً لإِنْشاءِ مُعْجَمٍ لُغَوِيٍّ يَرصُدُ أَلْفاظَها كَما وَرَدَتْ في "فِقْه اللّغَةِ" للثّعالِبِيّ.
- فاتِحَةً لأَبْحاثٍ أُخَرَ؛ كَاسْتِشْرافِ هذِهِ الظّاهِرَةِ في لُغَةِ التّنْزيلِ العَزيزِ اسْتِشْرافًا شامِلاً وافِيًا.
- فاتِحَةً لاسْتِشْرافِ الظّاهِرَةِ في الحَديثِ الشّريفِ كَذلِكَ.
- فاتِحَةً لاسْتِشْرافِ الظّاهِرَةِ في ديوانِ شاعِرٍ، أوْ مَجْموعَةٍ شِعْرِيّةٍ كَالحَماسَةِ، أوْ مَرْحَلَةٍ، أوْ غَرَضٍ.

---

(1) انظر: Geddes, Body Language, P.52-53.

(2) كما في قول الحق –تقدس اسمه–: "يجعلون أصابعهم في آذانهم"، وكذلك: "جعلوا أصابعهم في آذانهم واستشغوا ثيابهم".

- فاتِحَةً لأَبْحاثٍ أُخَرَ تَطْبيقِيّةٍ تَجْمَعُ بَينَ الدّرْسِ اللّغَوِيّ الاجْتِماعِيّ والنَّفْسِيّ، وَهذا ما يَعْكفُ عَلَيهِ الباحِثُ.
- فاتِحَةً لِتَعَلُّمِ ما تَقولُهُ أَجْسادُ الآخَرينَ، وَما يَقولُهُ جَسَدي، أَوْ ما يُنْبِئُ عَنْهُ.

وَثامِنُها اقْتِباسٌ:

وَحَسْبي بَعْدَ هذا المُتَقَدِّمِ قَوْلُ الجاحِظِ في بَيانِهِ وَتَبْيينِهِ: "بَلْ رُبّ كِنايَةٍ تُرْبي عَلى إِفْصاحٍ، وَلَحْظٍ يَدُلُّ عَلى ضَميرٍ، وَإِنْ كانَ ذلِكَ الضّميرُ بَعيدَ الغايَةِ..."[1]. وَحَسْبي كَذلِكَ الإِلْماحَةُ المُعْجِبَةُ التي وَرَدْتُ عَلَيْها في طَيّاتِ "المُسْتَصْفَى"، وهي: فَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ المعَانِي أوّلاً مِنَ الألفاظِ ضاعَ وهَلَكَ، وكان كَمَن اسْتَدبَرَ المَغْرِبَ وهو بَطْلبُهُ[2]، وَقَدْ أَوْرَدْتُها في ثِنْيِ هذِهِ المُباحَثةِ قَبْلاً، وَها أَنَذا أوردُها ثانِيَةً وَثالِثَةً في مُنْتَهاها إِعْجابًا، وَإِغْراقًا، وَإِنْكارًا:

- إِعْجابًا بِهِمْ وَهُمْ يَلْحَبونَ السّبيلَ أَمامَ دارِسي المَعْنى بِهَدْيٍ مِنْ بَعيدِ التّبَصُّرِ، وَلطيفِ التَّأَمُّلِ، في تَعْيينِ المَعْنى المُتَخَلّقِ مِنْ لُغَةِ الجَسَدِ، وَالمَوْسومِ "بِالبَيانِ بِلا لِسانٍ"، فَوافَقوا، في هذِهِ الأَنْظارِ عَلى وَجْهِ التّعْيينِ، الدّرْسَ الدِّلالِيَّ الوَظيفِيَّ الحَديثَ، فَوَقَفْتُ عَلى نَماذِجَ مُعْجِبَةٍ، وَآراءٍ مُسْتَنيرَةٍ أَفْضَتْ بي إِلى التَّقْريرِ بِأَنَّ القُدَماءَ جَعَلوا مِنْ "لُغَةِ الجَسَدِ" مُحْتَكَمًا رَئيسًا في الإِبانَةِ عَنِ المَعاني، وَشاهِدًا أَمينًا عَلى المَقاصِدِ الجَوّانِيّةِ، وَأَنَّهُمْ قَرَّروا أَنَّ المَعْنى قَدْ يُسْتَقى مِنَ الرّافِدَيْنِ: الصّامِتِ وَالصّائِتِ: الصّامِتِ المُتَجَلّي "بِالحَرَكِيّاتِ"، وَالصّائِتِ المُتَجَلّي "بِالكَلامِيّاتِ".
- وَإِغْراقًا في الإِلْحاحِ عَلى مَكانَةِ هذِهِ الظّاهِرَةِ في دَرْسِ المَعْنى، وَفَضْلِها في اقْتِناصِ المَقاصِدِ وَالمَعاني؛ إِذْ إِنَّ المَعْنى -كَما وَرَدَ- يَكادُ يَكونُ مُسْتَقًى في جُزْئِهِ الأَكْبَرِ مِنْها، وَهذا مَقْصورٌ عَلى الأَحْداثِ الكَلامِيّةِ الحَيّةِ.
- وَإِنْكارًا عَلى الظّانّينَ بِها ظَنَّ السَّبْقِ، وَأَنّهُمْ هُمْ أَبْناءُ بَجْدَتِها، وَأَنّها عِنْدَهُمْ بِنْتُ لَيْلَتِها، وَما الأَمْرُ كَذلِكَ في الأولى وَلا في الآخِرَةِ.

وَبَعْدُ، فَماذا عَسى أَنْ أقولَ؟

أقولُ: هذا ما لَدَيَّ عَتيدٌ، اللهَ العَظيمَ أَرْجو أَنْ يَكونَ هذا العَمَلُ فاتِحَةً لأَعْمالٍ أُخَرَ، وَأَنْ يَكونَ حُجّةً لي لا عَلَيَّ يَوْمَ العَرْضِ عَلى وَجْهِهِ الكَريمِ، وَالحَمْدُ للهِ في بَدْءٍ وَفي خَتَمٍ.

---

(1) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 7/2.

(2) انظر: الغزالي، المستصفى، 55/1.

- إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ط3، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1966م.
- إبراهيم الزريقات، الإعاقة السمعية، ط1، دار وائل، عمان، 2003م.
- إبراهيم أبو عرقوب، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، ط1، دار مجدلاوي، عمان، 1993م.
- إبراهيم مدكور، الفراسة عند العرب، ط1، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1982م.
- الآبي، منصور بن الحسين(421هـ)، الأنس والعرس، تحقيق إيفيلين فريد يار، ط1، دار النمير، بيروت، 1999م.
- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات(606هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، دار الفكر، بيروت، 1963م.
- أحمد بن حنبل(241هـ)، مسند الإمام أحمد، دار صادر، بيروت، د.ت، (وكذلك الطبعة الصادرة عن مؤسسة قرطبة، مصر، د.ت).
- أحمد الشرباصي، الغزالي، دار الجيل، بيروت، 1975م.
- أحمد شمس الدين، الغزالي: حياته، آثاره، فلسفته، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م .
- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغويّ، عالم الكتب، القاهرة، 1991م.
- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط3، عالم الكتب، القاهرة، 1994م.
- أحمد فريد رفعي، الغزالي، دار المأمون، القاهرة، 1936م.
- أحمد اللقاني وأمير القرشي، مناهج الصم: التخطيط والبناء والتنفيذ، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1991م.
- أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1986م.

- أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985م.
- الأحوص الأنصاري، عبد الله بن محمد(105هـ)، ديوانه، شرح مجيد طراد، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م.
- الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة(215هـ)، معاني القرآن، تحقيق هدى قراعة، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990م.
- أرماند ماتيلار وميشيليه ماتيلار، نظريات الاتصال، ترجمة أديب الخضور، ط1، المكتبة الإعلامية، دمشق، 2003م.
- الأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن(686هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م.
- الأصمعي، عبد الملك بن قريب(216هـ)، الأصمعيات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط5، بيروت، د.ت.
- الأعشى، ميمون بن قيس، ديوانه (الصبح المنير في شعر أبي بصير)، ط2، دار ابن قتيبة، الكويت، 1993م، (طبعة مصورة عن طبعة أدلف هلزهوسن، 1927م).
- إكرام الأشقر، الرقص لغة الجسد، ط1، دار الفرات، بيروت، 2003م.
- أ. كوند راتوف، أصوات وإشارات: دراسة في علم اللغة، ترجمة إدور يوحنا، وزارة الإعلام، بغداد، (د.ت).
- الآمدي، سيف الدين علي(631)هـ، الإحكام في أصول الأحكام، ضبط إبراهيم العجوز، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- الأنباري، أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد(577هـ)، أسرار العربية، ط1، تحقيق فخر صالح قدارة، دار الجيل، بيروت، 1995م.
- الأنصاري، محمد بن أبي طالب(737هـ)، السياسة في علم الفراسة، تحقيق أحمد فريد المزيدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م.
- الأنطاكي، داود بن عمر(1008م)، تزيين الأسواق في أخبار العشاق، تحقيق أيمن البحيري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.

- أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1962م.
- أومبرتو إيكو، سيميائية وفلسفة اللغة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2005م.
- الباجي، أبو الوليد سليمان(474هـ)، إحكام الفصول في أحكام الأصول، تحقيق عبد المجيد تركي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
- البارون كارادوفو، الغزالي، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العلمية، بيروت، 1959م.
- بالمر، ف، ر.، علم الدلالة، إطار جديد، ترجمة ترجمة صبري السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992م.
- البحتري، الوليد بن عُبيد(284هـ)، ديوانه، شرح يوسف محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل(256هـ)، صحيح البخاري، ط3، تحقيق قاسم الرفاعي، دار الأرقم، بيروت، 1997م. (وكذلك الطبعة التي حققها مصطفى البغا، ط3، دار ابن كثير، بيروت، 1987م).
- البزار، أحمد بن عمرو(292هـ)، المسند، تحقيق محفوظ الرحمن بن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، 1409هـ.
- بسام حجير، وحسين العورتاني، تعلم لغة الإشارة الأساسية للصم، الزرقاء، 1995م.
- بشار بن برد(167هـ)، ديوانه، شرح مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر(1093هـ)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1986م.
- البهاء زهير، زهير بن محمد(656هـ)، ديوانه، شرح عمر الطباع، ط1، دار الأرقم، بيروت، 1996م.
- بيز، ألن، مهارات تحقيق المبيعات الناجحة، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1999م.

- بيل، جورج، نظام الشيفرة، ترجمة قسم الترجمة بدار الرشيد، ط1، دار الرشيد ودار الجديد، دمشق وبيروت، 1994م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين(458هـ)، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1994م.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى(279هـ)، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ترنس هوكنز، البنيوية علم الإشارة، ترجمة مجيد الماشطة، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م.
- ابن التعاويذي، محمد بن عبيد الله(583هـ)، ديوانه، اعتنى به مارجوليوث، مطبعة المقتطف، القاهرة، 1903م.
- تمام حسان، اللغة العربية: معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د.ت.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد(429هـ)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1965م.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد(429هـ)، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر، دمشق، 1997م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(255هـ)، البرصان والعرجان والعميان والحولان، تحقيق محمد مرسي الخولي، ط5، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(255هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1990م.
- الجرجاني، أبو العباس أحمد بن محمد(482هـ)، المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، تحقيق محمد النعساني، مطبعة السعادة، القاهرة، 1908م.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن(471هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م.
- الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز(392هـ)، الوساطة بين المتنبي وخصومه،

تحقيق محمد أبو الفضل، وعلي البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، 1966م.
- جرجي زيدان، علم الفراسة الحديث، ط2، دار الجيل، بيروت، 1987م.
- جرير بن عطية(110هـ)، ديوانه، شرح محمد الصاوي، ط1، مكتبة الصاوي، القاهرة، د.ت.
- جرين، جوديث، علم اللغة النفسي: تشومسكي وعلم اللغة، ترجمة مصطفى التوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان(392هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط4، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1990م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان(392هـ)، المنصف، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، ط1، إدارة إحياء التراث القديم، القاهرة، 1960م.
- جيرو، بيير، علم الدلالة، ترجمة منذر عياشي، ط1، دار طلاس للنشر، دمشق، 1992م.
- حاتم الطائي، ديوانه، شرح يحيى بن مدرك الطائي، قدم له حنا الحتي، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م.
- ابن حجر، أحمد بن علي(852هـ)، فتح الباري، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- ابن أبي حجلة، أحمد بن يحيى(776هـ)، ديوان الصبابة، تحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.
- ابن حزم، علي بن أحمد(456 هـ)، الإحكام في أصول الأحكام، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- ابن حزم، علي بن أحمد(456هـ)، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ط3، ضبط أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- الحسين مُطير الأسدي(169هـ)، شعره، جمعه وشرحه حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- الحصْري القيرواني، إبراهيم بن علي(453هـ)، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق يوسف طويل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

- الحصري القيرواني، إبراهيم بن علي(453هـ)، المصون في سر الهوى المكنون، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، دار العرب، 1989م.
- الحلي، صفي الدين عبد العزير بن سرايا(750هـ)، ديوانه، المطبعة العلمية، النجف، 1956م.
- أبو حيان، محمد بن يوسف(745هـ)، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- الخرائطي، محمد بن جعفر(327هـ)، اعتلال القلوب في أخبار العشاق والمحبين، تحقيق غريد الشيخ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله(776هـ)، روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- خليل عمايرة، في التحليل اللغوي، ط1، مكتبة المنار، الزرقاء، 1987م.
- خليل عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها، ط1، عالم المعرفة، جدة، 1984م.
- الدار قطني، علي بن عمر(306هـ)، السنن، تحقيق السيد عبد الله يماني، دار المعرفة، بيروت، 1966م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث(275هـ)، سنن أبي داود، تحقيق عزة الدعاس وعادل السيد، ط1، دار ابن حزم، 1997م، (وكذلك النسخة التي حققها محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، د.ت).
- ابن داود، محمد بن داود الأصبهاني(297هـ)، الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط2، مكتبة المنار، الزرقاء، 1985م.
- ابن الدمينة، ديوانه، (صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب)، تحقيق أحمد راتب النفاخ، مكتبة دار العروبة، القاهرة، 1959م.
- دي سوسير، فصول في علم اللغة العام، ترجمة أحمد الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1982م.
- ديفيد كاوبر، المبيعات العملاقة: أسرار أحد أكبر رجال المبيعات، ترجمة رفيف محمود السيد، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 2002م.
- ديك الجن، عبد السلام بن رغبان(235هـ)، ديوانه، تحقيق أحمد مطلوب، وعبد الله

الجبوري، دار الثقافة، بيروت، 1964م.
- ذو الرمة، غيلان بن عقبة(117هـ)، ديوانه، شرح عمر الطباع، ط1، دار الأرقم، بيروت، 1998م.
- الرازي، أبو حاتم عبد الرحمن(327ه)، آداب الشافعي ومناقبه، تحقيق عبد الغني عبد الخالق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر(606ه)، الفراسة، تحقيق إبراهيم مدكور، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982م.
- الراغب، أبو القاسم حسين بن محمد(502ه)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد الكيلاني، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1961م.
- ابن راهويه، إسحاق بن إبراهيم(238هـ)، مسند ابن راهويه، تحقيق عبد الغفور البلوشي، ط1، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، 1991م.
- ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني(456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط3، مطبعة السعادة، القاهرة، 1963م.
- روي آرمز، لغة الصورة في السينما المعاصرة، ترجمة سعيد عبد المحسن، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1992م.
- أبو زُبَيد الطائي، المنذر بن حرملة(نحو62ه)، ديوانه، تحقيق نوري القيسي، بغداد، 1967م.
- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق(337هـ)، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، ط6، دار النفائس، بيروت، 1996م.
- الزَّركَشي، بدر الدين محمد بن عبد الله(794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(538هـ)، الفائق في غريب الحديث، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، 1993م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1977م.

- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر(538هـ)، المستقصى في أمثال العرب، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.
- ابن زيدون، أحمد بن عبد الله(463هـ)، ديوانه، تحقيق كرم البستاني، ط3، دار صادر، بيروت، 2003م.
- السرّاج، جعفر بن أحمد القارئ(500هـ)، مصارع العشاق، تحقيق محمد حسن إسماعيل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل(316هـ)، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م.
- السري الرفاء، السري بن أحمد الكندي(366هـ)، ديوانه، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991م.
- سمير دبابنة، نافذة على تعليم الصم، مؤسسة الأراضي المقدسة(منشورات منظمة المبادرات "initiatives" لتعليم الصم)، السلط، ط1، 1996م.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان(180هـ)، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م.
- السيد عبد الغفار، التصور اللغوي عند الأصوليين، مكتبات عكاظ، الرياض، 1979م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، بإشراف عبد المنعم إبراهيم، ط2، مكتبة نزار الباز، الرياض، 1998م.
- الشاشي، أبو علي أحمد(344هـ)، أصول الشاشي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1982م.
- الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين(406هـ)، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ط1، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1986م.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد(1393هـ)، أضواء البيان، دار الفكر، بيروت، 1995م.
- الشهاب الحلبي، محمود بن سلمان(725هـ)، منازل الأحباب ومنازه الألباب، تحقيق محمد الديباجي، ط1، دار صادر، بيروت، 2000م.

- الشهاب القضاعي، محمد بن سلامة(454هـ)، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م.
- الصنعاني، عبد الرزاق بن همام(211هـ)، مصنف عبد الرزاق، تحقيق حبيب الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، 1403هـ.
- الصولي، محمد بن يحيى(335هـ)، أدب الكتاب، تحقيق أحمد حسن بسج، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م.
- الطبراني، سليمان بن أحمد(360هـ)، المعجم الأوسط، تحقيق طارق عوض الله وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ.
- الطبرسي، الفضل بن الحسن(ـ5هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(310هـ)، جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، 1978م.
- الطيالسي، سليمان بن داود(204هـ)، المسند، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- العباس بن الأحنف(192هـ)، ديوانه، دار صادر، بيروت، 1978م.
- العباسي، عبد الرحيم بن أحمد(963هـ)، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، 1947م.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد(328هـ)، العقد الفريد، شرح أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، دار الأندلس، بيروت، 1996م.
- عبد الفتاح الطوخي، الدراسة في علم الفراسة، ط1، المكتبة الثقافية، بيروت، 1994م.
- أبو عبيدة، مَعْمَر بن المثنى(210هـ)، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، محمد الخانجي، القاهرة، 1962م.
- العرجي، عبد الله بن عمر(120هـ)، ديوانه، جمعه وحققه سجيع الجبيلي، ط1، دار صادر، بيروت، 1998م.
- عروة بن حزام(نحو30هـ)، ديوانه، جمع وتحقيق أنطوان القوال، ط1، دار الجيل، بيروت، 1995م.

- عز الدين المناصرة، علم الشعريات: قراءة مونتاجية في أدبية الأدب، ط1، دار مجدلاوي، عمان، 2007م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله(395هـ)، كتاب الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1989م.
- علي بن الجهم(249هـ)، ديوانه، تحقيق خليل مردم بك، ط2، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
- علي زيعور، اللاوعي الثقافي ولغة الجسد والتواصل غير اللفظي في الذات العربية، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1991م.
- علي شلق، العين في الشعر العربي، ط1، دار الأندلس، بيروت، 1984م.
- علي بن أبي طالب، ديوانه، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، ط2، دار المعرفة، بيروت، 2004م.
- عمر بن أبي ربيعة(93هـ)، ديوانه، تحقيق عبد أ. علي مهنا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.
- غدويس وغروست، لغة الجسد، ترجمة هيلانة شقير، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2005م.
- الغزالي، الإمام أبو حامد، محمد بن محمد(505هـ)، المستصفى في علوم الأصول، تحقيق إبراهيم رمضان، دار الأرقم، بيروت، 1994م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس(395هـ)، الصاحبيّ في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق عمر الطباع، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، 1993م.
- ابن الفارض، عمر بن علي(632هـ)، ديوانه، شرح مهدي ناصر الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
- فاطمة العزب، الأسس العلمية للتعبير الحركي، مطبعة رويال، القاهرة، 1988م.
- فاطمة العزب، التعبير الحركي الحديث بين النظرية والتطبيق، د. ن، الإسكندرية، 1993م.
- فؤاد ترزي، في أصول اللغة والنحو، مطبعة دار الكتب، بيروت، 1969م.

- فؤاد الخوري، أيديولوجيا الجسد: رموزية الطهارة والنجاسة، ط1، دار الساقي، بيروت، 1997م.
- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد(207هـ)، معاني القرآن، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، الدار المصرية، القاهرة، 1955م.
- الفرزدق، همّام بن غالب(110هـ)، ديوانه، ضبط علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.
- فندريس، جوزيف، اللغة، ترجمة عبد الرحمن الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1950م.
- القالي، أبو عليّ إسماعيل بن القاسم(356هـ)، الأمالي، تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم(276هـ)، أدب الكاتب، شرح على فاعور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم(276هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، 1973م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم(276هـ)، تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم(276هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد شاكر، ط2، دار الحديث، القاهرة، 1998م.
- قدامة بن جعفر(337هـ)، نقد الشعر، ضبط محمد منون، المطبعة المليجية، القاهرة، 1934م.
- القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب(170هـ)، جمهرة أشعار العرب، شرح علي فاعور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.
- القرطبي، محمد بن أحمد(671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.
- القطامي، عُمير بن شُييم(130هـ)، ديوانه، تحقيق إبراهيم السامرائي، وأحمد مطلوب، ط1، دار الثقافة بيروت، 1960م.

- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر(751هـ)، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تحقيق عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، المنصورة، 2002م.
- الكتبي، محمد بن شاكر(764هـ)، فوات الوفيات، تحقيق على معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م.
- ابن كثير، إسماعيل بن كثير(774هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، 1980م.
- كثير عزة، كثير بن عبد الرحمن(105هـ)، ديوانه، شرح قدري مايو، ط1، دار الجيل، بيروت، 1995م.
- كلود حجاج، إنسان الكلام: مساهمة لسانية في العلوم الإنسانية، ترجمة رضوان ظاظا، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2003م.
- كمال بشر، دراسات في علم اللغة، ط9، دار المعارف، القاهرة، 1986م.
- كوكب عطا الله، ثقافة الجسد في المجتمع الأردني: بحث أنثروبولجي في مخيم البقعة الفلسطيني، جامعة الدول العربية، (رسالة دكتوراة)، 2003م.
- لينا عمر بن صديق، فاعلية برنامج مقترح في تنمية مهارات التواصل غير اللفظي للأطفال التوحديين، الجامعة الأردنية، رسالة دكتوراة، 2005م.
- ليونز، جون، علم الدلالة، ترجمة مجيد الماشطة، وآخرين، ط1، جامعة البصرة، البصرة، 1980م.
- ليونز، جون، اللغة وعلم اللغة، ترجمة مصطفى التوني، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1987م.
- ابن ماجة، محمد بن يزيد(275هـ)، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- ماجدة سيد عبيد، السامعون بأعينهم: الإعاقة السمعية، ط1، دار صفاء، عمان، 2000م.
- ماجدة سيد عبيد، القاموس الإشاري للصم، ط1، نشر على نفقة المؤلفة، جامعة الملك سعود، الرياض، 1992م.
- مارفين لوشكي، التمثيل الصامت: فهم وأداء الصمت المعبر، ترجمة سامي صلاح،

ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م.
- ماني الموسوس، محمد بن القاسم(245هـ)، شعر ماني الموسوس، جمع وتحقيق عادل العامل، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1988م.
- مايكل كوربـاليس، في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم، ترجمة محمود عمر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2006م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد(285هـ)، الكامل، تحقيق محمد الدالي، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد(285هـ)، المقتضب، تحقيق محمد عضيمة، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1968م0
- محمد الخولي، الأصوات اللغوية، ط1، دار الفلاح، عمان، 1990م.
- محمد الخولي، مدخل إلى علم اللغة، ط1، دار الفلاح، عمان، 1993م.
- محمد صبري النمر، أساليب الاتصال الاجتماعي، المكتب العلمي للنشر، الإسكندرية، 1999م.
- محمد عبادة، الجملة العربية: دراسة لغوية نحوية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1984م.
- محمد كامل، لغة الإشارة للقائمين على رعاية الصم، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1999م.
- محمد كشاش، لغة العيون: حقيقتها، مواضيعها، أغراضها، مفرداتها، ألفاظها، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1999م.
- محمد كشاش، اللغة والحواس، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2001م.
- مروان بن أبي حفصة(182هـ)، ديوانه، جمع حسين عطوان، دار المعارف، القاهرة، 1973م.
- مسلم، مسلم بن الحجاج(261)، صحيح مسلم، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- مسلم بن الوليد(208هـ)، ديوانه، تحقيق سامي الدهان، دار المعارف، القاهرة، 1958م.

- مصطفي حجازي، الاتصال الفعال في العلاقات الإنسانية، والإدارة، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1997م.
- مصطفى الزلمي، دلالات النصوص وطرق استنباط الأحكام في ضوء أصول الفقه الإسلامي، مطبعة أسعد، بغداد، 1983م.
- مصطفى السعدني، إستاطيقا الإشارة: دراسة بلاغية سيميوطيقية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1994م.
- مصطفى القمش، الإعاقة السمعية واضطرابات النطق واللغة، ط1، دار الفكر، عمان، 2000م.
- ابن المعتز، عبد الله بن محمد(296هـ)، البديع، شرح محمد عبد المنعم خفاجي، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1945م.
- مغلطاي، علاء الدين مغلطاي بن قليج(762هـ)، الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين، تحقيق سيد حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م.
- منال حمزة، لغة الإشارة الأردنية العربية، عمان، 1993م.
- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم(711هـ)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، (د. ت).
- ابن المُنَيِّر، أحمد بن محمد(684هـ)، الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1977م.
- مهدي عرار، سياق الحال عند الإمام الغزالي في المستصفى: دراسة دلالية تواصلية، مجلة العربية، ع 39، أمريكيا، 2002.
- مهدي عرار، ظاهرة اللبس في العربية: جدل التواصل والتفاصل، ط1، دار وائل، عمان، 2003م.
- مهدي عرار، لغة الجسم وأثرها في الإبانة: نماذج من التراث اللغوي والبلاغي، مجلة دراسات، المجلد 33، العدد 1، 2006م.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد(518هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق سعيد اللحام، ط1، دار الفكر، بيروت، 1992م.

- نازك عبد الفتاح، مشكلات اللغة والتخاطب في ضوء علم اللغة النفسي، ط1، دار قباء، القاهرة، 2002م.
- نتالي باكو، لغة الحركات، ط1، ترجمة سمير شيخاني، دار الجيل، بيروت، 1995م.
- النسائي، أحمد بن شعيب(303هـ)، سنن النسائي الكبرى، تحقيق عبد الغفار البنداري وسيد حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م.
- نهاد الموسى، الأعراف(أو نحو اللسانيات الاجتماعية في اللغة العربية)، المجلة العربية للدراسات اللغوية، المجلد 1، العدد1، معهد الخرطوم الدولي، 1985م.
- نهاد الموسى، الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه، مجلة حضارة الإسلام، العدد 1، دمشق، 1974م.
- أبو نواس، الحسن بن هانئ(199هـ)، دار صادر، ودار بيروت، بيروت، 1962م.
- النووي، محيي الدين يحيى بن شرف(676هـ)، شرح صحيح مسلم، ط3، دار القلم، بيروت، د.ت.
- النيسابوري، الحاكم محمد بن عبد الله(405هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
- ابن هشام، جمال الدين بن هشام(761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك، ومحمد حمد الله، ط2، مكتبة سيد الشهداء، (د.ن)، 1972م.
- الوشاء، أبو الطيب محمد بن أحمد(325هـ)، الموشى، دار صادر، بيروت، د.ت.
- وضاح اليمن(90هـ)، الشاعر وقصته، رضا السويسي، منشورات جامعة طرابلس، 1974م.
- ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله(626هـ)، معجم الأدباء، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
- ياكوبسون، رومان، ست محاضرات في الصوت والمعنى، ترجمة حسن ناظم وعلي صالح، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994م.
- يزيد بن مفرغ الحميري(69هـ)، ديوانه، جمع عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1975م.

- اليزيدي، أبو عبد الرحمن عبد الله بن يحيى(237هـ)، غريب القرآن وتفسيره، تحقيق عبد الرزاق حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م.
- ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش(643هـ)، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- Adam Kendon, Gesticulation and Speech: Two Aspects of the Process of Utterance, 207-229, (The Relationship of Verbal and Nonverbal Communication, Edited by Mark R., Key, Mouton Publishers, Britain, 1980).
- Adam Kendon, Nonverbal Communication and Gestures (selctions from Semiotica), Volume Editer Adam Kendon, Mouton Publishers, Netherlands, 1981.
- Akmajian, Linguistics: An Introduction to Language and Communication, The MIT Press, Massachusetts, 1979.
- Alaa Halawani, Recognition of Gestures in Arabic Sign Language Using Neuro-Fuzzy System, M.A thesis, Jordan, 2000.
- Albert E., Scheflen, Alice Scheflen, Body Language and Social Order: Communication as Behavioral Control, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, 1972.
- Albert Mehrabian, Silent Messages, Wadsworth Publishing California, 1971.
- Armstrong, D. F., Original Signs: Gesture, Sign, and the Source of Language, Gallaudet University Press, Washington, D.C., 1999.
- Armstrong, D. F., W. C. Stokoe and S. E. Wilcox, Gesture and the Nature of Language, Cambridge University Press, Cambridge, 1995.
- ASHA, Activities to Encourage Speech ad Language Development, 1997-2002.
- ASHA, How Does Your Child Hear and Talk, 1997-2002.
- Asma el-Ghazu, Interpretation of Body Language in Jordan, M.A thesis, Al-Yarmouk University, 1999.
- Crystal, D., A Dictionary of Linguistics and Phonetics, Blackwell Publishers, Massachusetts, U.S.A. 1991.
- David F. Armstrong, Original signs: Gesture, Sign, and the Sources of Language, Gallaudet University Press,S 1999.
- Daniel Chandler, Semiotics: The Basics, Routledge, London/New York, 2000.
- Desmond Morris, Peter Collett, Peter Marsh, Gestures: Their Origins and Distribution, Jolly & Barber, London, 1979.
- Downes, W., Language and Society, 2nd edition, Cambridge University, Cambridge, 1998.
- Feyereisen, P., The Competition Between Gesture and Speech Production in Dual-task Paradigms, Journal of Memory and Language 36, 13-33.
- Gibbs, F., Hmour as Experienced by Hearing Impaired women, Dissertation Abstract, The University of Arizona, 1996.
- Hess, E., The Tell-Tale Eye, Van Nostrand Reinhod, New York, 1975.
- Hopkins, W. D., Hand use and Gestural Communication in Chimpanzees, Journal of Comparative Psychology 112, 95-99.
- Jackson, H., Words and their Meaning, Longman, London, 1991.

- Jane Lyle, Understanding Body Language, Chancellor, London, 1993.
- Jean U., Sebeok, Silence is Golden, The Changing Role of Non-Talk in Preschool Conversations, 295-317. (The Relationship of Verbal and Nonverbal Communication, Edited by Mark R., Key, Mouton Publishers, Britain, 1980).
- Katamba, F., An Introduction to Phonology, Longman, New York, 1989.
- Katamba, F., Morphology, The Macmillan Press, London, 1993.
- Kindon, A., Sign Language of Aboriginal Australia, Cambridge University Press, 1988.
- Kramsky, J., The Phoneme: An Introduction to the History and Theories of A Concept, Munchen, Will helm, Finkverlag, 1974.
- Leech, G. N., A linguistic Guide to English Peotry, Longman, London, 1969.
- Lehiste, I., Suprasegmental, The MIT Press, Massachusetts, 1977.
- Loretta A. Malandro, Larry L. Barker, Deborah Ann Barker, Nonverbal Communication, McGraw-Hill, 1989.
- Mark L., Knnap, Nonverbal Communication in Human Interaction, Holt, Rinehart and Winston, New York, 1972.
- Mitchell,M. E., How to Read the Language of the Face, Macmillan, New York, 1968.
- Nida, A., Morphology: The Descriptive Analaysis of Words, The University of Michigan Press, 1965.
- Norman Ashcraft, and Albert E., Scheflen, People Space: The Making and Breaking of Human Boudaries, Anchor Press, New York, 1976.
- Paul, L., Visual Communication: Images with Messages, Wadsworth Publishing Company, California, 1995.
- Pease, A., Body Language: How to Read Others' Thoughts by Their Gestures, Camel Publishing Company, Australia, 1990.
- Robins, R.H., General Linguistics, Longman, New York, 1989.
- Singh, S., Phonetics: Principles and Practise, University of Park Press, 1982.
- Soon, S., Lexical Ambiguity in Poetry, Longman Publishing, New York, 1994.
- Wallace, G., School Improvement: What can Pupils tell us? David Fulton Publishers, London, 1996.

فهرس المحتويات

الإهْداءُ **3**

الشُّكْرُ **5**

تصدير **7**

مِهادٌ وَتأْسيسٌ **11**

المَطْلَبُ الأَوّلُ: الأَنْظارُ المُمَهّدَةُ

تَلَمُّسُ الدِّلالَةِ بَيْنَ لُغَةِ الجَسَدِ وَجَسَدِ اللّغَةِ **19**

أَوّلاً: تَلمّسُ الدِّلالَةِ في جَسَدِ اللّغَةِ **19**

- الدِّلالَةُ في جَسَدِ اللّغَةِ الصَّوْتِيّ 20

- الدِّلالَةُ في جَسَدِ اللّغَةِ الصّرْفِيّ 22

- الدِّلالَةُ في جَسَدِ اللّغَةِ المُعْجَمِيّ 24

- الدِّلالَةُ في جَسَدِ اللّغَةِ التّرْكيبِيّ 25

ثانِيًا: تَلَمُّسُ الدِّلالَةِ في لُغَةِ الجَسَدِ **27**

- الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ بَيْنَ الفِطْرِيّ وَالمُكتَسَبِ 29

- الحَرَكَةُ الجَسَديّةُ بَيْنَ الدّالِّ وَالمَدْلولِ 31

- الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ بَيْنَ التّواصُلِ وَالتّفاصُلِ 32

- الحَرَكَة الجَسَديّةُ بَيْنَ العامّ وَالخاصّ 36

- الحَرَكَة الجَسَدِيَّة بَيْنَ الإِراديّةِ وَالتِّلْقائِيّةِ 37

بَيْنَ لُغَةِ الجَسَدِ وَاللّغَةِ الإِشارِيّةِ **38**

- قِسْما إِشاراتِ الصّمّ التّواصُلِيّةِ 39

- أَبْجَدِيّةُ الأَصابِعِ الإِشارِيّةُ العَرَبِيّةُ 40

- أَشْكالُ التَّواصُلِ في لُغَةِ الإِشارَةِ 41

ضُروبٌ مِنَ الحَرَكاتِ الجَسَدِيّةِ **43**

- حَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ دينِيّةٌ 43

- حَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ مِهْنِيَّةٌ 43

- حَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ جِنْسِيّةٌ 44
- حَرَكاتٌ جَسَدِيّةٌ عُمُرِيّةٌ..... 44
مِنْ دِلالاتِ الحَرَكاتِ وَالهَيئاتِ وَالمُتَمِّماتِ 44
- أَوّلاً: مِنْ هَيْئاتِ الوجه وَدِلالاتِهِ 45
- ثانِيًا: مِنْ دِلالاتِ حَرَكَةِ الرّأْسِ وَهَيئاتِهِ..... 48
- ثالِثًا: مِنْ دِلالاتِ حَرَكَةِ العَيْنِ وَهَيْئَتِها 48
- رابِعًا: مِنْ دِلالاتِ المِشْيَةِ وَإيحاءاتِها 50
- خامِسًا: مِنْ دِلالاتِ اللِّبْسَةِ وَإيحاءاتِها 52
- سادِسًا: مِنْ هَيْئاتِ اليَدِ وَدِلالاتِها 54
- سابِعًا: المُتَمِّماتُ المُسانِدَةُ 59
- أولا: السّيجارَة..... 59
- ثانيا: السُّبْحَةُ..... 60
- ثالثا: العصا 61
حُدودُ المَناطِقِ الجَسَدِيّةِ..... 62
- المَنْطِقَةُ العَميقَةُ (الخاصّةُ) 63
- المَنْطِقَةُ الشَّخْصِيّةُ..... 63
- المَنْطِقَةُ الاجتِماعِيّةُ 64
- المَنْطِقَةُ العامّةُ..... 64
- مِنْ بَواعِثِ اخْتِراقِ المَناطِقِ..... 64
بَيْنَ لُغَةِ الجَسَدِ وَنَظَرِيّةِ "المايم" 66
- مُكَوِّناتُ "المايم"..... 67
- الإيماءاتُ 69
- الإيهاماتُ 70
- المِشْياتُ 71

المطلب الثاني: الأنظار المؤصلة

الفَصل الأوّلُ: لُغَةُ الجَسَدِ في التُّراثِ البَلاغِيّ: الجاحِظُ نَموذَجًا

لُغَةُ الجَسَدِ وَالبَيانُ..... 77

- جَدَلٌ بَيْنَ الإشارَةِ وَالعِبارَةِ 78
- الإشارَةُ وَالرّتْبَةُ 79
- الإشارَةُ وَخاصُّ الخاصِّ 79
مُتفرّقاتٌ مجتمِعاتٌ عِنْدَ الجاحظِ 81
- إفْشاءُ السَّلامِ بِالعَيْنِ 81
- بَسْطُ الوَجْهِ رِسالَةُ بِشْرٍ 81
- اليَدُ وَإِشارَةُ التّعْيينِ 82
- جِلْسَةُ المُزْدري المُتَراخي 83
- جِلْسَةُ الأَنْوَكِ الأَحْمَقِ 83
- نَظْرَةُ العَداوَةِ 83
- مَعْنى العُجْبِ وَالكِبْرِ 84
- مُتَمِّماتٌ مُسانِدَةٌ 84
أَنْماطٌ مِنَ المِشْياتِ في "البُرْصان وَالعُرْجان" 87
- مِشْيَةُ الهَلوكِ 88
- مِشْيَةُ المَرْأةِ الرَّقيقَةِ 88
- مِشْيَةُ المُتَبَخْتِرِ المُتَكَبِّرِ 89
- مِشْيَةُ التَّحدّي وَالمُواجَهَةِ 89
- مِشْيَةُ العَجوزِ 90
- مِشْيَةُ المَجْنونِ 90
- مِشْيَةُ التَّبَهْنُسِ وَالتّخلُّعِ 91
- مِشْيَةٌ تَحْتَ المَطَرِ 91
- مِشْيَةُ المُقيَّدِ 91
- مِشْيَةُ المُمْتَلِئِ الأَبَدِّ وَالبَدّاءِ 91
هَيْئَةُ الجَسَدِ وَالحِرفَة 92

الفصل الثاني: لغةُ الجسمِ في التّراثِ المُعجَمِيّ: الثّعالبِيُّ نَموذجًا

تَقديمٌ 101
أَلْفاظُ الهَيئاتِ العامّةِ 102

- هَيْئَةُ النَّظْرةِ 103
- هَيْئَةُ المِشْيَةِ 105
- هَيْئَةُ الدَّفْعِ وَالقَوْدِ 107
- هَيْئَةُ المَضروبِ المُلْقى 107
أَلْفاظُ الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ العامّةِ 108
أَلْفاظُ الحَرَكاتِ الجَسَدِيَّةِ الخاصَّةِ 110
أَلْفاظُ الدَّرَجاتِ الجَسَدِيَّةِ وَالمَراتبِ 112
أَلْفاظُ المَحاسِنِ وَالمَعايِبِ الجَسَديّة 115
أَلْفاظُ العَوارِضِ الجَسَدِيَّةِ 116
أَلْفاظُ المَقاييسِ الجَسديّة 119
أَلْفاظُ الضَّمائِمِ وَالاقتِراناتِ اللَّفظيّةِ الجَسَدِيَّةِ 120
الفَصْلُ الثّالِثُ: لُغَةُ الجَسَدِ في التُّراثِ اللُّغَوِيّ: ابنُ جِنّي نَموذَجًا
ابنُ جِنّي بَيْنَ جَسَدِ اللّغَةِ وَلُغَةِ الجَسَدِ 125
- لُغَةُ الجَسَدِ وَالاعْتِياضُ 125
- لُغَةُ الجَسَدِ وَإيماءَةُ العَيْنِ 126
- الإِشْمامُ قِراءَةُ الشَّفَتَيْنِ 127
مَقولاتٌ كُلّيّةٌ 128
- الوُجوهُ المُشاهَدَةُ 128
- بَيْنَ اسْتِماعِ الأُذُنِ وَمُقابَلَةِ العَيْنِ 129
- بَيْنَ المُخْبَرِ وَالمُعايِنِ 130
الفَصْلُ الرّابِعُ: لُغَةُ الجَسَدِ في التُّراثِ الأُصولِيّ: الغَزالِيُّ نَموذَجًا
- في مَقاصِدِ العُنْوانِ 133
- المَعْنى بَيْنَ لُغَةِ الجَسَدِ وَجَسَدِ اللّغَةِ 135
- لُغَةُ الجَسَدِ قَرينَةٌ هادِيَةٌ في الدَّرْسِ الأُصولِيّ 135
- لُغَةُ الجَسَدِ مُحْتَكَمٌ رَئيسٌ بَيْنَ أَرْبابِ العُمومِ وَأَرْبابِ الخُصوصِ 137
- المِثالُ الأوّلُ 138
- المِثالُ الثّاني 138

- المِثالُ الثّالِثُ 139
- لُغَةُ الجَسَدِ مُحْتَكَمٌ رَئيسٌ لِلتَّقْريرِ بِالاسْتِغْراقِ أَوْ عَدَمِهِ 139
- لُغَةُ الجَسَدِ مُحْتَكَمٌ رَئيسٌ في الحُكْمِ عَلى مَسْأَلَةِ "العَدَدِ الكامِلِ لِحُصولِ العِلْمِ" 140
- لُغَةُ الجَسَدِ ناسِخٌ أَمينٌ لِلاحْتِمالِ 142
- لُغَةُ الجَسَدِ وَالدِّلالَةُ الصّوْتِيّةُ 143
- ما وَراءَ الكَلامِ: لُغَةُ الجَسَدِ بَيْنَ المَسْكوتِ عَنْهُ وَالمَنْطوقِ بِهِ 144
- لُغَةُ الجَسَدِ وَتَعْريفُ الخَبَرِ 145
- المُسْتَصْفى مِنَ "المُسْتَصْفى" 146

الفصل الخامس: لغةُ الجسمِ في التّراثِ الفَراسيّ: الرازِيُّ نَموذجًا

مهادٌ وَتَأسيسٌ 149
- تَعريفُهُ في منظور "لغة الجسد" 149
- نَشأتُهُ 150
- فَضيلَتُهُ 150
- أَقْسامُهُ 151
- العُلومُ المُتّصِلَةُ بِهِ 152
- الطّرُقُ التي يُعرَفُ بها أَخْلاقُ النّاسِ 154
- دِلالَةُ الهَيْئاتِ الجَسَدِيّةِ 154
- دِلالَةُ الأَصْواتِ 155
- دِلالَةُ المُقابَلَةِ 155
- دِلالَةُ النَّوْعِ 156
- دِلالَةُ الجِنْسِ 156
- دِلالاتُ الأَعْضاءِ 156
- في دِلالاتِ الوَجْهِ 157
- في دِلالاتِ العَيْنِ 158
- في دِلالاتِ الحاجِبِ 159
- في دِلالاتِ الضَّحِكِ 160

- في دِلالاتِ الصَّوْتِ وَالنَّفَسِ وَالكَلامِ 160

المطلب الثالث: الأنظار المستشرفة

الفصل الأول: لغةُ الجَسدِ في النّصِّ القرآنِيِّ الشَّريفِ: أمثِلةٌ جُزئيّةٌ وَموجّهاتٌ كُلّيّةٌ في مَقاصِدِ العُنْوانِ..... 169

- لُغَةُ الجَسَدِ في التّنْزيلِ العَزيزِ 169
- مِنْ دِلالاتِ حَرَكَةِ الرّأْسِ وَهَيئاتِها..... 170
- الرّأْسُ الخَفيضُ المُتَطامِنُ 170
- تَلْوِيَةُ الرّأْسِ 171
- إِنْغاضُ الرّأْسِ..... 172

مِنْ دِلالاتِ حَرَكَةِ العَيْنِ وَهَيْئَتِها 172

- العَيْنُ المُزْدَرِيَةُ الهازِئَةُ 173
- العَيْنُ الكارِهَةُ السّاخِطَةُ..... 173
- العَيْنُ الدّائِرَةُ الوَجِلَةُ 174
- العَيْنُ الهامِزَةُ الغامِزَةُ..... 174
- العَيْنُ المائِلَةُ الزّائِغَةُ..... 175
- العَيْنُ الضّيقَةُ الكَليلَةُ..... 176

مِنْ دِلالاتِ حَرَكَةِ اليَدِ 177

- حَرَكَةُ اليَدِ بَيْنَ إيماءَةِ السُّكوتِ وَإِبْداءِ الغَيْظِ 179
- مِنْ دِلالاتِ حَرَكَةِ الأَصابِعِ 180

مِنْ دِلالاتِ الوَجْهِ وَإيحاءاتِهِ 182

تَصْعيرُ الخَدِّ 185

ثَنْيُ العِطْفِ 186

مِنْ دِلالاتِ المِشْيَةِ وَإيحاءاتِها 187

المُتَمِّماتُ المُسانِدَةُ في التّنْزيلِ العَزيزِ 190

الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ في جَنْبِ اللهِ..... 192

المَقولاتُ الكُلِّيّةُ..... 184

أوّلاً: الاحْتِراسُ 195

ثانِيًا: التَّفْسيرُ 196
ثالِثًا: الاسْتِدْراكُ 198

الفَصْلُ الثّاني: لُغَةُ الجَسَدِ في الحَديثِ النَّبَوِيّ الشَّريفِ
أَمْثِلَةٌ جُزْئِيّةٌ وَمُوَجِّهاتٌ كُلّيّة

في مَقاصِدِ العُنْوانِ 201
اسْتِشْرافُ الظّاهِرَةِ في الحَديثِ الشَّريفِ 201
مِنْ هَيْئاتِ الوَجْهِ وَدِلالاتِهِ 201
- الوَجْهُ المُسْتَبْشِرُ الفَرِحُ 202
- الوَجْهُ الكارِهُ المُنْكِرُ 203
- الوَجْهُ المُغْضَبُ 204
- الوَجْهُ الدّالُّ عَلى الجوعِ 207
- الوَجْهُ المُسْتَهْجِنُ المُسْتَعْتِبُ 208
- الوَجْهُ الفَزِعُ الخائِفُ 208
- الوَجْهُ المُشيحُ المُتَعَوِّذُ 209
- الوَجْهُ الطَّلْقُ البَسَّامُ 209
مِنْ هَيْئاتِ الرَّأْسِ وَدِلالاتِها 211
- الرَّأْسُ المُتَكَلِّمُ القائِلُ "نَعَم" 211
- الرَّأْسُ الخَفيضُ الرّافِضُ المُعْتَذِرُ 212
- الرَّأْسُ المُسْتَنْكِرُ المُسْتَهْجِنُ 213
- الرَّأْسُ المُشيرُ المُعَيِّنُ لِلجِهَةِ، وَالمُجَلّي لِلحالِ 213
- الرَّأْسُ الرّاكِعُ وَالسّاجِدُ 214
- الرَّأْسُ الحَزين المُنَكَّسُ 214
- الرَّأْسُ المُعْذِرُ إِلى رَبِّهِ المُتَوَجّهُ إِلَيْهِ 214
- الرَّأْسُ القاطِرُ وَدِلالَةُ الإِعْجالِ 215
- الرَّأْسُ الأَشْعَثُ الأَغْبَرُ 215
مِنْ هَيْئاتِ العَيْنِ وَدِلالاتِها 216
- العَيْنُ المُعْجَبَةُ المُسْتَحْسِنَةُ 217

- العَيْنُ المُسْتَنْطِيَةُ الطّالِبَةُ 217
- العَيْنُ الفاحِصَةُ المُتَبَصِّرَةُ..... 218
- العَيْنُ المُتَثاقِلَةُ الكَليلَةُ..... 218
- العَيْنُ الشّاخِصَةُ وَالبَصَرُ الحَديدُ 218
- العَيْنُ الباكِيَةُ الخاشِعَةُ..... 219
- العَيْنُ الرّاضِيَةُ المَرْضِيَّةُ 219
مِنْ هَيْئاتِ اليَدِ وَدِلالاتِها..... **220**
- اليَدُ المُشيرَةُ المُعَيّنَةُ..... 221
- اليَدُ المُنْفِقَةُ..... 223
- اليَدُ المُبايِعَةُ 224
- اليَدُ المُقَلِّلَةُ المُزَهِّدَةُ 224
- اليَدُ المُسَلِّمَةُ 225
- اليَدُ العادّةُ المُحْصِيَةُ 225
- اليَدُ المُجيبَةُ النّافِيَةُ المُطَمْئِنّةُ..... 225
- اليَدُ المُسْتَخِفَّةُ..... 226
- اليَدُ المُعَمِّمَةُ الشّامِلَةُ..... 226
- اليَدُ المُؤَكِّدَةُ..... 226
- اليَدُ الآمِرَةُ النّاطِقَةُ..... 227
- اليَدُ المُصَوِّرَةُ الرّاسِمَةُ لِلمَعْنى 228
- اليَدُ الدّاعِيَةُ المُتَطَلِّبَةُ 229
حَرَكاتٌ يَدَوِيّةٌ مُرَكَّبَةٌ **229**
- وَضْعُ اليَدِ عَلى الرَّأْسِ: اليَدُ الحامِيَةُ المُغَطّيَةُ..... 230
-أَخْذُ اليَدِ بِاليَدِ: حَرَكَةُ التّلازُمِ وَالصّحْبَةِ 230
- اليَدُ الماسِحَةُ المُسَكِّنَةُ المُتَعَطِّفَةُ..... 231
- ضَرْبُ اليَدِ بِالفَخِذِ 232
مِنْ هَيْئاتِ الأَصابِعِ وَدِلالاتِها..... **233**
- حَرَكَةُ التّلازُمِ وَالصّحْبَةِ 233

- حَرَكَةُ التّلازُمِ وَالتّرادُفِ 234
- حَرَكَةُ التّفارُقِ وَالبَيْنونَةِ..... 235
- حَرَكَةُ التّداخُلِ وَالاخْتِلاطِ 235
- حَرَكَةُ الإِشارَةِ وَتَعْيينِ المَكانِ..... 236
- حَرَكَةُ العَدِّ وَالحِسابِ 237
- الأَصابعُ المُقَلِّلَةُ..... 237
- حَرَكَةُ تَمْثيلِ المَعْنى..... 238
هَيْئاتٌ عامّةٌ وَمُتَمِّماتٌ مُسانِدَةٌ 239
- هَيْئَةُ اللِّبْسَةِ 239
- دِلالَةُ التّكَبّرِ وَالخُيَلاءِ 239
- دِلالَةُ التّبَذّلِ وَالفَقْرِ..... 240
- دِلالَةُ التّنَعُّمِ وَالتَّرَفِ..... 240
- دِلالَةُ الافْتِقارِ إِلى اللهِ وَإِظْهارُها..... 240
- هَيْئَةُ المِشْيَةِ..... 241
- مِشْيَةُ المَريضِ المُتَثاقِلِ 241
- مِشْيَةُ الفارّ النّاكِصِ عَلى عَقِبَيْهِ..... 242
- مِشْيَةُ اصْطِناعِ التّكَبّرِ وَالتّبَخْتُرِ..... 242
- هيْئَةُ الجِلْسَةِ..... 242
- جِلْسَةُ المُتَعَلِّمِ المُسْتَرْشِدِ 242
- الانْتِقالُ مِنْ هَيْئَةٍ إِلى هَيْئَةٍ..... 244
هَيئتُهُ الشَّريفَةُ عِنْدَ نُزولِ الوَحْيِ 245
هَيْئَةُ المُشاكِسِ..... 245
العَصا الشّريفَةُ 246
المَعْنى مَرْسومًا 246
المَعْنى مُمَثَّلاً 249
المَعْنى مُقَرَّرًا وَمُحَقَّقًا 249
تَقَلُّدُ السَّيفِ..... 249

تَقنّعُ الوَجْهِ.....250
الإشارَةُ بِالسَّوْطِ.....250
الحَرَكَةُ الجَسَدِيّةُ بَيْنَ أَداءِ المُرْسِلِ وَتَمْثيلِ الرّاوي الأَمينِ.....251
المُصَنِّفونَ وَلُغَةُ الجَسَدِ.....253
المَقولاتُ الكُلّيَّةُ.....254
الفصْلُ الثّالِثُ: لُغَةُ الجَسَدِ في أَدبِ العِشْقِ والعُشّاقِ: أَمْثِلَةٌ جُزْئِيّةٌ وَمُوَجّهاتٌ كُلّيّةٌ
مُقَدّمَةٌ أَوّلِيّةٌ.....261
- تَعْريفُ العشق.....262
- عَلاماتُهُ الجَسَديّةُ.....264
التَّراسُل والتَّواصُل الجَسَدِيّانِ في أدبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ.....276
التَّراسُلُ بِالوَجْهِ.....277
- التَّبَسُّمُ وَدِلالاتُهُ.....277
- التَّجهُّمُ وَالقُطوبُ.....278
- الحَياءُ وَالخَوفُ.....279
- الوَجْهُ بَيْنَ الصَّكِّ وَالصّدِّ.....280
هَزُّ الرَّأْسِ.....281
- هَزُّ الرَّأْسِ تَعَجُّبًا.....282
- هَزُّ الرَّأْسِ اسْتِهزاءً وَوَعيدًا.....282
- هَزُّ الرَّأْسِ مُناكَفَةً وَإِغاظَةً.....282
- هَزُّ الرَّأْسِ ضِرارًا.....282
- هَزُّ الرَّأْسِ لَوْمًا.....282
التَّراسُلُ بِالعَينِ.....282
- العَيْنُ الهائِمَةُ العاشِقَةُ.....286
- العَيْنُ المُسلِّمَةُ المُتَكلِّمَةُ.....286
- العَيْنُ المُسِرَّةُ المُخْفِيَةُ.....287
- العَيْنُ الفاضِحَةُ الواشِيَةُ.....287
- العَيْنُ الحَديدُ.....288

- العَيْنُ الشّاهِدَةُ 288
- العَيْنُ المُسلِّمَةُ الوَجِلةُ 288
- العَيْنُ الشّاكِيةُ المُتكلِّمَةُ 288
- العَيْنُ المَشوقَةُ 289
- العَيْنُ المُنادِيَةُ 289
- العَيْنُ المُعاهِدةُ 289
- العَيْنُ المَحْزونَةُ 290
- العَيْنُ الباكِيَةُ 290
التَّراسُل بِالحاجِبَيْنِ 291
التَّراسُلُ بِالكَفِّ وَالبَنانِ 292
الرَّقيبُ في "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ" 296
التَّعْمِيَةُ وَالتَّضْليلُ في "أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ" 299
- أَوّلاً: التَّعْمِيَةُ بِصَرْفِ النَّظَرِ تِلْقاءَ جِهَةٍ ما 299
- ثانِيًا: التَّعْمِيَةُ بِصَرْفِ النَّظَرِ تِلْقاءَ السَّماءِ أَوِ الأَرْضِ 300
- ثالِثًا: التَّعْمِيَةُ بِصَدِّ الوَجْهِ وَإِعْراضِ الجَسَدِ 301
- رابِعًا: تَعْمِيَةُ البُكاءِ وَإِخْفاؤُه 302
- إِخْفاءُ البُكاءِ بِالتَّثاؤُبِ 302
- إِخْفاءُ البُكاءِ بِالنَّظَرِ إِلى أَعْلى 302
- إِخْفاءُ البُكاءِ بِالبُرْدِ 303
- إِخْفاءُ البُكاءِ بِالأَنامِلِ 303
- التَّعْمِيَةُ بِمَحْوِ الأَثَرِ في التُّرابِ 303
- التَّعْمِيَةُ بِمَحْوِ أَثَرِ القُبْلَةِ في الخَدِّ 304
- التَّعْمِيَةُ بِإِقْلالِ الطِّيبِ 304
المِشْيَةُ في أَدَبِ العِشْقِ وَالعُشّاقِ 305
- مِشْيَةُ التَّهادي وَالتَّأوّدِ 305
- مِشْيَةُ الوَجِلِ المُترقِّبِ 306
- مِشْيَةُ التَّبَخْتُرِ وَالاخْتِيالِ 307

- مِشْيَةُ الغِوايَةِ 307
مقولات كلية 309
- طَبيعَةُ هذِهِ الظّاهِرَةِ 309
- العُرفُ العَرَبيُّ الاجْتِماعِيُّ 310
- شُيوعُ الرُّقَباءِ وَالعُيونِ 310
- التَّقْليدُ وَالاتِّباعُ 311
- الحَياءُ 311
- رِوايَةُ حَدَثِ العِشْقِ 312
- اسْتِجْلابُ الهَوى 312
صَفْوَةُ المُسْتَخْلَصِ، وَفاتِحَةُ القَوْلِ 315
- أَوّلُها اسْتِذْكارٌ 315
- ثانيها اخْتِراسٌ 316
- ثالِثُها تَفْسيرٌ 316
- رابِعُها تَقْريرٌ 317
- خامِسُها اسْتِدْراكٌ 318
- سادِسُها عالَمِيّةٌ 319
- سابِعُها فاتِحَةٌ 320
- ثامِنُها اقْتِباسٌ 321
المصادر والمراجع 323
فهرس المحتويات 341